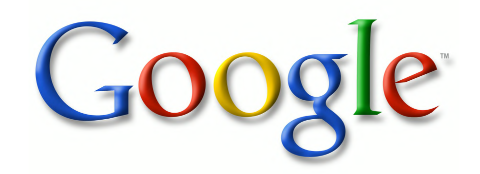




الجزء الثاني من كتاب
قرة النفوس والعيون
بيسير ما توسط من
القرون تعريب
الفقير الى الله
تعالى مصطفى
افندي
الزرابي
بمصر

فهرست الجزء الثانى من كتاب قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون صحيفه

صحيفه

المنزلة

صحيفه

صحيفه

بيان الخطا والصواب فى الجزء الثانى من كتاب قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون

خطا	صواب	صحيفه	سطر
اوستريا	اوستراسيا	٣	٢٩
وهذا ان	وهذان	١٥	٢٩
السودودالرفعة	السودودوالرفعة	٢٣	٤
وكان من	وكان لكل من	٢٥	١٥
الفرنج اكثر	الفرنج فيها اكثر	٢٧	١١
واعرضاله	وعرضاله	٢٨	١٠
مصالحة هرهيم سنه ٨٧٠	مصالحة هرهيم سنة ٧٨٠	٣١	بالهامش
سنة ٧٨٢	سنة ٧٨٦	٣١	٢٩
مع القسوة	من القسوة	٣٣	١٨
بينهما	بينها	٣٤	٩
البرنان	البرنات	٤١	١٥
على محاما	على محاماة	٦٩	١٤
وبقوتة	ويقوتة	٧٤	١٠
الخصومات وارا	الخصومات وجمع ارا	٧٥	٥
سنة ٤٩٨	سنة ٨٩٤	٧٩	٦
علم	اعلم	٨٥	٥
للتعليم الكلاب	للتعليم محلا الكلاب	٩٨	٢٨
فى تحصل	فى تحصيل	١٠٠	٥
ادر يار	ادبار	١٠٤	٩
مجار	مجاز	١١٠	١٥
اعرض	عرض	١٢٢	٢٠
انشلير	انشير	١٢٧	٢٩
قونتتات	قونتتان	١٣٠	٨
برنادر	برنارد	١٨٩	٧
جرنويل	جرنوبل	٢٠٤	٦
وتاسف	تاسف	٢١٠	٢

خطا	صواب	صحيفه	سطر
يجددالظلم	يجددا الظلم	٢٢١	١٢٠
بسب	بسبب	٢٢٢	١
اومبرس	اوميروس	٢٢٧	٧
(سنة ٨٨٠)	(سنة ٨٧٠)	٢٦١	١٢
بن	ابن	٣١٢	٢١
وابدأ	وابدى	٣٣٧	١٥
دالبرون	أدلبرون	٣٤٦	٢٨
مخصرة	مختصرة	٣٥٠	٢٥
حياز	حيازة	٣٥٣	١١
هذهالقونتة	هذا القونتة	٣٥٣	٢١
واودى لوال	واو ولوال	٣٥٦	١



الجزء الثانى من تاريخ القرون المتوسطة

المدة الثانية من تولية الدولة الكرلونجية والدولة العباسية الى انقضاء تقلبات الملتزمين وتمزق خلافتى المشرق والمغرب

قد حصل فى ظرف سنتين تغيران عظيمان على سواحل نهرى السين والفرات وبواسطتهما كان وسط القرن الثامن جديرا بالالتفات اليه وحقيقا بان يكون محفوظا فى الاذهان ومتذكرا على مدا الازمان من تاريخى النصرانية والاسلام وذلك ان ملوك الدولة المرونجية محيت آثارهم من فرنسا فى نفس الوقت الذى اكرهت فيه دولة بنى امية على النزول عن سرير الخلافة بدمشق وقام مقام الدولتين دولتان جديدتان تأسس كل منهما وتمكن بسلسلة من عظما الرجال وسلكتا بالملتين الحاكمتين

بالمشرق والمغرب ممالك جديدة فعما قليل اشترك الفرنك والعرب مدة اوائل ذرية كرلوس مارتيل واوائل الخلفاء العباسيين فيما ترتب على نصراتهم وكثرة فتوحاتهم من الشرف والفخار والشهرة التى لم يحظ بها غيرهم الا انها فى ابناء النصرانية لم تبلغ فى الرونق وطول المدة ما بلغته عند اهل الاسلام لكنها اودعت فى وسط اوروبا ودائع عظيمة كانت سببا فى عودها ثانيا

ومن الاتفاق العجيب فى احوال هاتين الدولتين انهما ارتفعتا وانخفضتا فى وقت واحد ولا مانع ان يقال ان التمزيق الاول لسلطنة الفرنج وهو انقسامها الى ثلاث ممالك شبيه بما حصل فى بلاد المشرق من التقلبات السياسية التى ترتب عليها تعدد الخلافة وصيرورتها ثلاثة مستقلة وكذلك الممالك التى انفصلت عن سلطنة المغرب خفية او بالقوة الظاهرة يقال انها شبيهة بالدول الثانوية التى حدثت قهرا عن الخلفاء وكانت تحت حمايتهم وليست هذه التقسيمات فى كل من السلطنتين الا مقدمة للتمزيق الداخلى الذى ترتب عليه عدة كثيرة من الحكومات الوراثية فى كل مملكة من الممالك التى انفصلت عن الاصل وجر ذلك الى انعدام الشوكة الملوكية ومع ذلك فهناك فرق كبير بين الدولتين يصح ان تؤخذ منه اسباب الحوادث السياسية المتنوعة عند كل منهما وهو ان ارتفاع الدولة الكرلونجية وانخفاضها ساعدا فى تقليد رئيس دين النصرانية بالشوكة الدنيوية بخلاف انحطاط الدولة العباسية فانه لم يترك للخلفاء الا الشوكة الدينية فقط وربما تولد من هذا الفرق الاتحاد العظيم الذى جمع فى مركز واحد ما كان متفرقا فى اوروبا من مواد التمدن واصوله وجعل ابناء النصرانية يتزايدون قوة وتمدنا على المسلمين وذلك لان للملة الاسلامية حدا تقف عنده ولا تتجاوزه بحيث يكون لها قدرة على احداث شئ بل لم تستطع حفظ ما اكتسبته من المعارف التى لم تسمح لهم منها بغداد وقرطبة فيما بعد الا بشئ قليل

الباب الاول

في ظهور سلطنة الدولة الكرلونجية المسماة ايضا فرنك رومان بفتوحات بيبين لبريف اى القصير وكرلوس مانوس

الفصل الاول

في الكلام على بيبين لبريف من (سنة ٧٥٢) الى (سنة ٧٦٨)

لما نابت جمعية شاندمارث عن الملة الافرنجية ولم توف بحق النيابة حيث البست بيبين تاج الملك الذى مكنته منه الحكومة القسيسية وثبتته عليه انتهى امر العصبة الكبيرة التى كانت متعصبة من نحو قرن فى اوستريا باعدام ذرية ميروه

عن آخرهم وانقضت بذلك التقلبات الداخلية وظهر تقلب آخر اعظم منه جمع بقايا الملة الجرمانية التي كانت اذذاك متشتتة في الارض القارة من اوروبا تحت قانون واحد واوقع الاتحاد والالتئام التام الذي عاد بالنفع على هذه الدولة الجديدة بين الفرنج الفاتحين والرومان فان نصرات پيپين تم بها فتح بلاد الغلية ونصرات كرلوس مانوس فتح بها ما بقي من بلاد السلطنة

ولولا ان نسبة افعال الامراء لاسيما امراء المتبربرين الى السياسة العقلية تعد في الغالب نوعا من الغش لصح ان يقال ان مؤسس الدولة الثانية وهي الكرلونجية قضى حياته وهو مشتغل بتحصيل غرضين عظيمين وهما تمكين الشوكة الملوكية التي افتات عليها وتتميم فتح بلاد الغلية وقد اعانه الدين على النجاح فيهما واعتنى بتنجيزهما مع الثبات وعدم الاهمال حين قهر الامم الذين كانوا يدفعون الخراج للدولة ومنعهم عن القيام والخروج عن الطاعة فقد اجتاز نهر الرين (سنة ٧٥٣) مع سائر العساكر الافرنجية لضرورة ردع السكسونيين الذين خرجوا عن طاعته فهزم مطران كولونيا المسمى هلديغير ومات المذكور في هزيمته ومع ذلك تتبعهم پيپين حتى وصل الى مدينة ريمي على نهر ويزير ولم يتكلم مورخو عصره على ما الزمهم به من شروط المصالحة غير ان مؤرخ مدينة متز الذي وظيفته جمع الوقائع السنوية ذكر انه شرط عليهم في هذه المصالحة ان قسوس النصارى مرخصون في الدعاء الى التنصر بين السكسونيين من غير معارضة وان يدفعوا الخراج لملك فرنسا كل سنة عدة من الخيل قدرها ثلثمائة واغلب مؤرخي الوقائع ذكروا ان هذه المشارطة انما حصلت عقب محاربة اخرى بعد هذه تميزت كسابقتها بتخريب البلاد وكانت في (سنة ٧٥٨)

ولما رجع پيپين (سنة ٧٥٣) من غزوته الاولى توجه الى الابريطانيين وكانوا يابون الا الحرية والاستقلال عنه ولا يرضون بيعة احد من ملوك الفرنج بل كانوا دائما يغيرون على ثغورهم وكانت مدن ننت ورين ودول واليت (شمالو) وهي من مدن الابريطانيين قد وقعت غير مرة تحت حكم الدولة المرونجية من حين تمزقت مملكة ابريطانيا بعد موت الان الثاني والظاهر ان پيپين انما اراد ان يسترجع هذه المدن الى مملكته ومما سهل هذا المشروع عليه ما كان واقعا في ابريطانيا من القتل الذي تولد من طمع مرلتيرن اي اولاد الامراء فتقدم پيپين الى مدينة وان وتغلب عليها وادخل جميع هذه الجزيرة وهي ابريطانيا تحت حكومة الفرنج

فهكذا

فهكذا أدخل ببين فى حكومته الـكـونيين الذين لم يكن لهم دخل فى فتح ابريطانيا الكبرى والابريطانيين الذين كان هذا الفتح سببا فى مهاجرتهم عن اوطانهم وهذه الحروب التى حصلت مع هاتين الامتين اللتين كانتا متوحشتين كان خطرها اكثر من غنيمتها بخلاف غزوة ايطاليا

ما يتعلق بايطاليا من (سنة ٧٥٤) الى (سنة ٧٦٧)

ثم ان العداوة التى تولد عنها امتدمدة طويلة الفشل والشقاق بين ملوك اللنبرديين والبابات كانت تتجدد كلما تغير حكم ملك من هؤلاء الملوك وذلك ان الملوك المذكورين الذين هم خلفاء ألبوان كانوا دائما يتطلبون مدينة رومة ويبغون الاستيلاء عليها فبذلك كانت عرضة لاخطار عظيمة جدا لان هؤلاء الملوك كانت تتزايد فيها اطماعهم ولما فتح اللنبرديون ايكزاركة راوينة زال الحاجز الذى كان يحمى كرسى القيصرية القديم (رومة) فتحقق استولف وهو من ملوكهم انه يحصل لرومة ما حصل لراوينة معتقدا ان له الحق فيها لاسيما فى هذا الوقت الذى تكررت فيه اغارات البلغار والعرب وكان الطاعون وقتئذ يخرب سلطنة المشرق فان ذلك كله كان يمنع قسطنطين قبرونيم ان يسعف اقاليم ايطاليا وبعد أن تغلب استولف المذكور على مدينة سيقانو تقدم الى اسوار رومة وطلب من البابا ومشورة السنت والاهالى ان يذعنوا بالطاعة والانقياد لحاكم راوينة يعنى نفسه فلم يجبه البابا بل طلب منه ان يتخلى عن راوينة عملا بالاوامر القيصرية التى جاء بها من القسطنطينية يوحنا السيلنتيرى واتفق ان يوحنا المذكور قابل فى رومة الالچية الذين كان قد ارسلهم ببين لبريد الى البابا اسطفان الثانى ليتمموا امر الصلح الذى كان البابا المذكور طلب سرا من ببين ان يسعى فيه بينه وبين استولف فذهب لاجل هذا الغرض الى باويا مع رسل الدولتين ومنعه استولف ان يتفوه فى شأن رجوع راوينة بكلمة واحدة وكذلك غيرها من الاماكن التى اخذت من الامبراطورية لكنه لم يجسر على ان لا يجيب الچية ببين فيما طلبوه منه من اعطاء البابا تذكرة طريق ليأمن بها فى ذهابه الى فرانسا

ولما بلغ ببين فى مدينة تيونويلة ان البابا اسطفان وصل الى مدينة سنت موريس باحتفال وموكب عظيم بعث ولديه لملاقاته وذهب هو بنفسه ليتلقاه فى بيت پونتيون ولما حصلت المقابلة التى ترتب عليها امور عظيمة خر البابا ومن معه من القسوس على اقدام الملك معفرا بالرماد وعليه ثوب من الشعر فنزل ببين ايضا من فوق جواده وخر ساجدا بين يدى اسطفان وكذلك اولاده واكابر دولته بل ذكر انستاس ان الملك اخذ بزمام فرس البابا وسار بها مدة وان لم يقم دليل على صحة هذا

الخبر

ثم ان البابا اسطفان طلب من ملك فرانسا الحماية لرومة الخائفة سطوة اللنبرديين حيث ان هذه المدينة صارت لا تأمل ذلك من ساداتها الاول الذين هم القياصرة ولم يعارض رسل القسطنطينية فى هذه الحماية الاجنبية التى قامت مقام الحماية القيصرية لكن قام لمعارضتها رجل كان له الشوكة بفرانسا منذ مدة قليلة وذلك ان رئيس دير جبل كاسين وهو من رعية ملك اللنبرديين بعث الى فرانسا من ديره راهبا كان منوطا برعى المواشى بقصد الحاجة فى مصالح استولف وهذا الراهب الراعى هو كرلومان وزير اوستراسيا واخو پيپين غيران زهده فى المناصب اداه الى الترهب فى ذلك الدير فوفى بما ارسل بصدده ويمكن ان رضاه بالارسال فى هذه القضية انما كان لمراعاة خاطر رئيس الدير وقد بذل جهده فى معارضة البابا وابطال مقاصده غيران كرم هذا البابا أدخل فى حزبه كبار امة الفرنج وكان پيپين يرى ان سلوك البابا هذا المسلك يؤدى الى تمكينه على كرسى المملكة واتساع دائرة شوكته فاجابه بالحماية التى طلبها منه وكافأه اسطفان على ذلك بكونه اقر انتخابه حيث مسح ثانيا عليه وعلى اولاده وجميع ذريته على عادتهم وما كفاه ذلك حتى زاد على لقبه الملوكى ان لقبه بطريق الرومانيين وكان هذا اللقب فى ذلك الوقت لا يخلو عن الشرف والعظم بل كفر عنه خطيئة افتياته على كرسى شلدريق الثالث وخيانته له على ما قاله المؤلف تيوفان

وقبل ان يركن پيپين الى الحرب والقتال امر استولف ان يجيب البابا فى مطالبه فقال استولف وما هذه المطاليب فاجابه رسل پيپين بقولهم ان ترد له اقليم پنتاپولة ومدينة نرنى وسيقانو وسائر ما يطلبه الرومان مما اخذته منهم بغيا وظلما ويفيدك پيپين زيادة على ذلك انك اذا انصفت خليفة مارى بطرس اعطاك اثنى عشر الفا من نقود الذهب لكن لم تظهر لذلك ثمرة فان جمعية شندمارث التى انعقدت فى مدينة برينة او مدينة كيرسى على ما قاله بعضهم دعت امة الفرنج الى القتال لكن لم تحصل الاجابة من الجميع فى مبدء الامر بل حصلت المعارضة على ما قيل من ان عدة امراء اعلنوا فى مشورة خصوصية على رؤس الاشهاد بانهم يؤثرون التخلى عن الملك على ان يكون لهم دخل فى هذه الغزوة وكان قد مضى على جبال الالب اكثر من مائة وخمسين سنة لم ترتجه بزات الحرب ولوازمه بل كانت الامتان اللتان تفصلهما هذه الجبال فى الصلح دائما فانقطع حينئذ هذا الصلح الطويل حيث عزم جيش مهول من الفرنج على السطوة والبطش بايطاليا فقصد پيپين جهة بلاد موريانة

ومن بمدينة وبانة وكان بها اخوه قد اشرف على الموت ولم تنفعه معالجة الملكة برتة وكان الملك استولف منتظرا هذا الجيش فى وادى سوس وكان على مدخل هذا الوادى حصون يقال لها كلوز فتبصر استولف ووضع فيها عساكر وآلات حربية غيران مقدمة الجيش كانت اسرع فى المسير من الجيش فاجتازت الصخور بشجاعتها وملكت الحصون والجأت ملك اللنبرديين الى الانهزام فبادر الى الفرار وانبت امر هذه الغزوة بمقدمة الجيش المذكورة

ثم ان استولف نزل بمدينة باويا ليامن فيها على نفسه فكان لا يخشى فيها شيأ الا المجاعة مع ان ضررها كان اقرب الى الحاصرين من المحصورين وذلك ان الفرنج نهبوا وحرقوا على عادتهم البرارى الخصبة التى يرويها نهر بو وانفصلت فرقة من الجيش وصلت البابا الهارب الى رومة واعاده الى منصبه وكلا ببين وكان رئيسهم فلرادرئيس دير سنت دينس ولما كانت هذه الغزوة انما حصلت بسبب هذا البابا وهو اسطفان الثانى جمع ما ترتب عليها من الثمرات ولم يرض ببين المنصوران يسمع كلاما فى شأن الصلح الا بالتزام استولف رد الاراضى المأخوذة من الجمهورية الرومانية التى من جملتها راوينة واقليم پنتاپولة

وقد انعم ببين ايضا على البابا بجزء كبير من الاموال التى دفعها له الملك المنهزم لما التزم له بدفع الخراج واما العساكر الفرنساوية الذين كانوا لا يحملون الاسلحة الا اذا وثقوا بالمكافأة فانهم شفوا غليل طمعهم بما سلبوه من مملكة لنبرديا وبما بذله اليهم استولف من الاموال وبالجملة فلم يرث ببين لحال عدوه استولف الاعلى هذه الشروط التى اخذت عليه فيها العهود والرهائن هكذا فى عبارات المتقدمين من كتاب الوقائع السنوية

ثم ان استولف كان يامل انه يجبر ما لحقه من الخسارات الكبيرة بنقض تلك الشروط التى عادت بالنفع على الرومانيين فلم يقتصر على اخذ ما تغلب عليه ببين بل امر دوق سپوليتة ان يسترجع مدينة نرنى حين كان دوقا طوسكان وبنيوان محاصرين مدينة رومة واحرقا ضواحيها وكنيسة مارى بطرس ولما كانت شكاوى البابا الاولى لم تؤثر فى محاميه ببين الامع البطئ والتكرار اراد ان تكون شكواه فى هذه المرة سريعة التأثير فاشرك معه فيها القسوس والدوقات والموكلين بحفظ القوانين والقونتات ونواب الاهالى فى الجمهورية وكتبوا له ما معناه اسعفنا قبل ان نهلك فان سائر الامم التى لاذت بالملة الفرنجية الحربية وطلبت منها الاسعاف والاعانة اجابت سؤالها وانقذتها من اعدائها انتهى وبالجملة فكان الخطر يشتد

كل يوم على البابا وصارت الحماية مما لا محيص عنه فارسل البابا اسطفان الى پيپين رسالة لها موقع وتأثير عظيم ومن جملة ما فيها ان امير الحواريين يتشفع اليك فى خليفته

فاجتاز الفرنج ثانيا جبل سينيس (سنة ٧٦٥) وامر پيپين تسيليون دوق البواريين أن يصحبه فى هذه الغزوة وكان هذا الدوق واشراف قومه اقسموا ان لا يخونوا هذه الدولة الجديدة اى دولة الكرلونجية وكان اخذ المواثيق عليهم فى جمعية سنة مايه التى انعقدت بمدينة كومپينية ويظهر انه لو شاغل البواريون اللنبرديين بالقتال فى وادى اديج لكان لپيپين فى ذلك اعانة عظيمة ولكن ما سلكه دوقهم اخيرا حمل پيپين على عدم الوثوق بهم فلذا عزم على مراقبة هذا الدوق وملاحظة سلوكه ثم ان جيش الفرنج احاط باللنبرديين وكانوا ينتظرونه فى حصون كاوز واضطر ديدير اوديديه دوق طوسكان ان يتحصن ثانيا فى داخل اسوار پاويا وقد قدم على پيپين فى معسكره الجيلان من القسطنطينية كان قد ارسلهما البابا الى مرسيليا حين نزل الفرنج بايطاليا وكان الغرض من ارسالهما ان يطلبا من پيپين بطريق النيابة عن القيصر اعادة ايكزاركة راوينة الى حكامها الاول وواعداه على ذلك مكافأة عظيمة فلم يلتفت الى هذه المواعدة بل اجابهما بقوله انى لم احمل السلاح طمعا فى اعراض الدنيا بل محبة فى مارى بطرس ورجاء تكفير السيأت ولكن بين هذه العبارة الدالة على اعراضه عن الامور الدنيوية وما وقع فى الصلح من المشارطة التى انتهى بها هذا الحرب منافاة فان مكمل تاريخ فريديغير ذكر ان استولف سلم له فى خزينة پاويا فتقاسمها عساكره المنصورة والتزم ان يدفع له فى كل سنة ما كان على اسلافه من الخراج واقسم انه لا يعود الى القيام عليه ولم يتكلم هذا المؤرخ على العطيتين المقررتين فى قانون كارولين اللتين وضع فلراد رئيس للدير المتقدم وثيقتيهما على محراب كنيسة مارى بطرس ووضع معهما مفاتيح المدن التى تخلى عنها استولف وكان ذلك بحضور رسل اقليمى ينتاپولة واميليا ويظهر لنا ان مما ينظم فى سلك كتمان الحق سكوت ذلك المؤرخ عن تصحيح هاتين الوثيقتين اللتين لا ينبغى الطعن فيهما بانهما لعدم الدقة مبنيتان على تبرع قسطنطين المكذوب عليه والذى هو من قبيل الموضوعات المجهولة الواضع

وكان انعقاد المشارطة فى (سنة ٧٥٦) ولم يراع فيها حقوق الايمپراطورية وقد مات استولف من اثر وقعته من فوق جواده ولم يكن جرى العمل بالشروط كلها واعتبر رهبان الفرنج ان هذه الميتة عقاب له على نكث العهد وما علموا انه كان مثل ملكهم

فى ابرهه

في كثرة الانعام على الاد يا روانه مات بين ايدى الرهبان

ولم تظهر شوكة بيبين التى اكتسبها فى ايطاليا الا بعد موت استولف بمدة وذلك ان ديدير دوق طوسكان قلده اتباعه بالملك نخشى معارضة الملك الراهب المسمى رتشيس فطلب الحماية من الفرنج والرومان وواعد ان يزيد فى تبرع سلفه الذى كان الى ذلك الوقت لم يتنجز كامه مدن فنزة وايمولة وفرارة واوكسيوم وانكونة وهمانة بل ومدينة بولونيا واخذ عليه فلراد رئيس الرهبان والقونتة روبير العهود والمواثيق على ان يوفى بذلك وامر رتشيس بالعود الى ديره واعلنا فى اللنبرديين ان عساكر الفرنج وكذلك جيش الرومان عند الحاجة يعينون ديدير على اغراضه وكان يكفيه ذلك فى تمكينه من الملك الا انه زيادة على عدم الوفاء بالوعد اراد التغلب على الايكزاركة وابطال حزب الفرنج من ايطاليا نخلع دوقى اسبوليتة وبنيوان وهما ألبوان ولويتبرند عن دوقيتهما لكونهما بايعا بيبين واسامعاملة الاول واتباعه الملقبين بلقب جيستالد وقونتات وهتك حرمتهم وطرد الثانى من دار اقامته فهرب الى مدينة اوطرنتة وهى آخر بلاد اللنبرديين

فبعث البابا بولص الاول يخبر بيبين بهذه القساوة وكان قد تولى بعد اخيه البابا اسطفان الثانى وافاده ان ديدير اجتمع بالايلچى اليونانى الذى رجع من فرانسا من غير ان ينال شيأ مما بعث بصدده واتفقا على ان سفن سيسليا تسير لمحاصرة مدينة اوطرنتة التى كان حزب ديدير وقتئذ يحاصر فيها الدوق لويتبرند وان هذه المدينة ترجع الى القيصر قسطنطين الرابع وان جيشا من جيوش القيصر يذهب الى ايطاليا ليعين ديدير ملك اللنبرديين على اخذ راوينة وترجى البابا المذكور من بيبين ان يبذل الهمة فى تنفيذ الشروط الاولى مع غاية التدقيق وبعث يخاطبه بقوله انت بعد الله المعين والناصر * وانت موسى الثانى وداود الاخر * وملة الفرنج ملة مقدسة طاهرة * وجابلة فاخرة * بارك فيها مولاها * ومن بين الملل اصطفاها * انتهى وكان مع البابا المذكور فى مكاتباته لملك فرانسا على اختلافها ارباب مشورة السنت وامة الرومان وكان يحذره فيها من الوثوق بكلام ديدير ويرشده الى الاحتراس مما تدعيه دولة القسطنطينية حيث كانت تسعى فى استرجاع شوكتها بايطاليا واسترداد ما فقدته من الاقاليم والظاهر ان ديدير داخله الفزع والرعب من تجهيزات حليفه يعنى القيصر اكثر من توسط عدوه اى بيبين للبابا لعلمه ان رغبة بيبين فى تتميم حرب اكتينا اشد من

ذهابه خلف جبال الالب بقصد المدافعة عن مصالح لاتبلغ اهمية مصالحه في حرب اكتينا ثم ان پيپين ملك الفرنج لبى دعوة البابا وقبل رجاءه في مكاتباته فكتب لديدبير ملك اللنبرديين ان يدافع اليونان عن ايكزاركة راوينة ويامر دوقات بنيوان واسبوليتة وطوسكان بحماية رومة التي كان يخشى عليها الاغارة اذ ذاك ويلزم عمال نابلي وغايتة برد مخلفات مارى بطرس التي باراضيهم وقد لحق البابا (سنة ٧٦٠) من تجهيز دولة القسطنطينية خوف كان اشد عليه مما لحقه اولا وذلك ان جواسيسه اخبروه بانه انضم الى سفن سيسليا ثلثمائة من سفن اليونان رؤساؤها ستة من البطارقة قاصدة رومة لتخرج عليها جيشا من العساكر ثم تشن الغارة على سواحل فرانسا وقد تبين ان هذا الخبر لاصحة له وانما كان خوف البابا ورعبه عن غلط نشأ عن كذب الخبر

ولم يكن هنالك طريق في معرفة ماوقع بين البابا ومؤسس الدولة الكرلونجية پيپين من تدبير المصالح الذى مكث خمس عشرة سنة من غير انقطاع الامكاتبات البابا اسطفان الثاني والبابا پولص الاول فهي آثار عظيمة يعرف بها على التدريج منشأ الشوكة الدنيوية في دولة رومة ومبادى اتساعها ولولا تلك الطريق لتعسر علينا ان نعرف كيف استولى الفرنج على ايطاليا في ذلك الوقت واى مهارة اوقعت بين البابات والدولة الكرلونجية هذا الارتباط الذى انيطت به حالة المملكة اللنبردية سعادة وشقا ولولا ما وقع من الاخطار والمشاق في حرب اكتينا فدلتنا على سبب ما ظهر من التخفيف والتلطيف في المشروع الذى شرع فيه پيپين ولم ينجح فيه وانما نجح فيه ولده لكان من الغريب ان هذا الملك في مثل هذه الاحوال المساعدة له كيف لم ينجح في هذا المشروع

فتح سبطمانيا من (سنة ٧٥٢) الى (سنة ٧٥٩)

ثم ان پيپين قبل ان يدعى لنفسه الاقاليم الجنوبية وهى سبطمانيا التي وقعت في المقاسمة من نصيب ذرية كاربيرت الثاني المتهمين في نسبتهم اليه دبر طرقا تسهل فتحها عليه فكان اول امر يرجو نفعه في ذلك على حسب مقتضيات الاحوال في ذلك العصر هو أن جعل دوق اكتينا بين اثنين من اعدائه ونزل هو بعساكره تحت اسوار مدينته وكانت بلاد سبطمانيا التي حماها الغوطيون من قلوبس ثم العرب من كرلوس مرتيل قد اشرفت الآن على الخروج من ايدى المسلمين وذلك انه ظهر في كل جهة من جهاتها امير مطلق التصرف وكان رئيسهم قونتة غوطيا يسمى انسيموند فالتجأ المسلمون الذين بهذا القطر الى مدينة نربونة وكان نصارى هذه المدينة آخذين في القيام عليهم فلزم المسلمين ان يقمعوهم ويردوهم

الى

الى الطاعة ويقاتلوا الفئة التى خرجت عن حكم الاسلام وكانت دائما تغير عليهم ولم يبق
لهم يومئذ من الوسايط فى مقاومة هؤلاء الاعداء الكثيرين الا انفسهم وذلك ان القيام
الذى ترتب عليه زوال الخلافة من بنى امية اضرم فى اسبانيا نار العصيان
والحروب الداخلية والظاهر ان غوطيى سبطمانيا حملوا اسلحتهم لطلب الحرية
حين رفع الشيخ عمر بن عمر واعلام الخروج والقيام على سواحل نهرى تاجه وابره
وكان ذلك (سنة ٧٤٩) وكانت بلاد غوطيا مختلة النظام فلذا كانت محتاجة الى
من يحميها واول من اتى اليها دوق اكتينا المسمى وايفر ولكن يظهر ان غزوته
بلاد نربونة (سنة ٧٥١) لم يكن غرضه منها الا مجرد السلب والنهب ولم يسلم منها
الغوطيون ولا العرب وفى هذا الوقت طلب القونتة انسيوند الاعانة من الملك
الذى نصبه الفرنج عليهم وهو ببين وتخلى له عن مدن نيمة وماغليونة واغدة
وبزيير ومع ذلك فلم تحصل فائدة من اجتهاد ببين فى القتال لاجل التغلب
على نربونة لكنه اعتنى وجعل فى البلاد عساكر لمقاومة من فيها من المحافظين
واضعافهم بانفرادهم وعدم اعانة بعضهم بعضا ولم يمكن للمسلمين ان يرجوا الاعانة
من الجهة الاخرى من جبال البرنات لما ان يوسف عامل الخليفة كان اذ ذاك
محتاجا لجميع من عنده من العساكر لحماية اغراض العباسية ونصرة قلعة ايوب
ببلاد قتالونيا خلاص من عمر الباغى وكان ذلك (سنة ٧٥٤) لكن ظهر له
فى ذلك الوقت عدو آخر اخطر منه نزل بساحل الاندلس ليدافع عن حقوق
عائلته

وذلك ان عبد الرحمن بن معاوية الاموى اخذ اسبانيا من خلفاء المشرق بنصرة انه
على يوسف حيث هزمه فقتل فى مدينة المنقار وكان ذلك فى السنة
التى وقعت فيها مدينة نربونة تحت حكم الفرنج وهى (سنة ٧٥٩) وكان
وقوعها تحت ايديهم بتسليم اهلها النصارى لهم فيها بعد قتل العرب وطردهم
منها ولما كان انقياد الغوطيين لببين ملك الفرنج بالطوع والاختيار حصلت
المشارطة بينهم وبينه على انهم يبقون على قوانينهم ومزاياهم القديمة وعاهدهم ببين
على احترامها وعدم التعرض لها ومن يومئذ صار اقليم نربونة دوقية من دوقيات
فرنسا مسماة باسم غوطيا

وكان خليفة قرطبة وهو عبد الرحمن المذكور مشغولا بمنع الخروج والعصيان
الذى كان دائما يتجدد فلذا لم يتوجه قصده الى استرجاع سبطمانيا الاسلامية
وانما منع الفرنج ان يستوطنوا مدينتى برسلونة وجيرونة اللتين كان سليمان

قدعرضهما على پيپين ليأخذهما

وهذا الذى ذكرناه فى شان هذه المسئلة المبهمة فى تاريخ الفرنساوية هو ما وقفنا عليه من اخبار كتاب الوقائع السنوية من الفرنج وهو موافق لما ذكره مورخو الاسلام وكان يمكن معرفتها اكثر من ذلك لو وصلت المشارطات التى وقعت بين پيپين وعبد الرحمن بن معاوية الى الاديار واعتنى بتقييدها الرهبان لكن كان اعتناؤهم بتقييد وقائع الحرب والزلازل الارضية والكسوف والامراض الوبائية اكثر من اعتنائهم بالمشارطات السياسية

فتح اكتينيا من (سنة ٧٦٠) الى (سنة ٧٦٨)

ثم انه من فتوح اكتينيا الاول الى موت قلوتير الثانى وهى مسافة مائة وعشرين سنة كان هذا الجزء من بلاد الغلية يعتبر كانه قبيلة يقتسمها اولاد الملوك فيما بينهم لانه لم يكن احد منهم يرضى ان يأخذ فى نصيبه قطرا خاليا عن اخلاق الفرنج ولسانهم وترتيباتهم السياسية ولما اراد داغوبرت ان يمنع اخاه كاريبرت من ارث ابيه فى المنصب الملوكى تخلى له عن اكتينيا احتقارا له فكانت الملة الحاكمة وهى الفرنج ترى ان هذا الامير الذى كانت دار اقامته بمدينة طولوزة ولم يكن له رعية الا من الرومان وليس له شئ فى فرانسا بمعنى انه لا يملك شيأ فى شمال نهر لوار محروم من الارث فى المنصب الملوكى وقد اثر اهل اكتينيا نسل كاريبرت على غيره وان كان اصله جرمانيا فمن ثم نسى هذا النسل ملة الفرنج والعائلة الملوكية التى لم تعطه حقه فى المملكة فان اودون ابدى نوع اجتهاد فى ان يمنع الاوستراسيين عن التغلب على بلاده ويدافع عن نستريا لانها لو دخلت تحت حكمهم لكانت اكتينيا عرضة لضياع استقلالها فهو وان لم يعطل نجاح كرلوس مرتيل الا انه عرف كيف يحفظ حكومته بتمامها واكتفى كرلوس المذكور بكونه رأى منه بعض دلائل دلت على الاذعان له واما هونلد بن اودس ووايفر حفيده فانهما وان لم يحفظا لقب الملوك فلا اقل من كونهما حفظا حكمهم حين ضعف كار عائلتهما وهم المروفجية عن القيام بالملك فزال المنصب عنهم غير انهما لم يسعيا فى رد اطماع الهرستالية وهم الكرلونجية خوفا من ان تلحقهم العداوة والبغضا من هذه الدولة القوية الشوكة واتما تجاسر وايفر على ايوا اغريبون اخى پيپين الخارج عليه ولكن منعه من قتال پيپين مراعاة لنزيله المذكور ما وقع لادوق الالمانيين من السقوط عن رتبة الامر الكونه دخل فى حزب اغريبون المذكور فكان ذلك عبرة لوايفر فال الامر نزيله الى ان خرج من طولوزة وادركه الموت وهو مجتاز جبال الالب الهلويسية .

والاوفق

والاوفق ان يقال ان پيپين كان عازما منذ مدة طويلة على فتح اكتينا كأن ذلك من بقايا اقتيماته اوامر ضرورى له ولولا ذلك لظن ان الذى اثار غضبه على هذه البلاد انما هو محبة الانتقام من وايفر حيث آوى اخاه اغريپون وامتنع ان يسلم فيه لرسله ولما لم يجد لذلك سببا يعتمد عليه اخترع اسبابا مبهمة وكان قلويس قد وجد فى الدين سببا يستند اليه فى حرب الوسيغوطيين المستولين على الاقاليم الجنوبية من بلاد الغلية وبمثل هذا السبب تمسك پيپين حين عزم على ان يلزم وايفر بان يرد الى كنائس نستريا مالها من الاملاك فى بلاد اكتينا وان لا يدخل فيها من الآن فصاعدا احدا من القضاة او ممن يأخذ الرشوة وان يدفع دية غوطى نربونة الذين اخذهم وقتلهم ظلما من غير موجب شرعى وان يسلم لعمال الفرنج من شارك اغريپون فى الخروج والعصيان ممن هرب الى جنوب نهر لوار

ثم ان سهولة انتصار كراديس الاوستراسيين على نستريا فى عهد پيپين دهرستال وكرلوس مرتيل وسرعة هزم پيپين لبريف للسكونيين واستيلاءه مرتين على بلاد لنبرديا كل ذلك كان يظهر انه علامة على ان فتح الفرنج لبلاد اكتينا يكون من غير خطر ولكن قاوم اهل تلك البلاد هذه الملة التى كانت اقوى الملل الحربية مدة ثمان سنوات فى قتالها الذى كان مشتملا على سبع غزوات وكان التخريب فيها اكثر من النصر مع ان اهل ذلك العصر وصفوا الاكتينيين بالجبن وفساد الاخلاق

وكانت فاتحة هذا القتال اغارة وقعت بغتة بين اقليمى برى و اوبرنة وحملت وايفر على ان يتمسك بالشروط التى لم يكن راضيا بها اولا وكانت هذه الغزوة (سنة ٧٦٠) وذلك ان وايفر استعد للانتقام من پيپين فبلغ الفرنج حين كانوا يتشاورون فى مشورة شندمايه بمدينة دوران فى شان حفظ الوطن ان وايفر اجتاز نهر لوار مع قونتات برى واوبرنة وقارب مدينة شالون سورسون اى التى على نهر السون وصنع فى طريقه لاسيما فى الاراضى المملوكة نظير ما صنعه الفرنج فى بلاد دوق اكتينا من التخريبات فعند ذلك نادى پيپين فى عساكره بالقتال وجعل مجمع القونتات مدينة نورس وذهب اليها هو وابنه كرلوس الذى كانت هذه الغزوة اول حرب قاتل فيه وقد اخذ الفرنج فيها مدينتى بربون وشنتيله وحرقوهما واسروا اهلهما وارسلوهم الى فرنسا واما اهل مدينة كلرمون فكانوا اسوء حالا منهم حيث هلكوا فى حريقة مدينتهم وقد

ترتب على هذا القتل الشنيع وانهزام القونتة بلذدين واسره ان فتحت جميع ثغور اوبرنة ابوابها لبيبين المنصور

وكان بيبين الى ذلك الوقت اعنى (سنة ٧٦٢) لا يقصد الا اضعاف عدوه وترغيب عساكره فى الحروب ذات المغانم والظاهر انه غير فى الغزوة الثالثة ما كان عليه اولا من السياسة حيث جمع سائر قواه فى محاصرة مدينة برجس ثم وقعت فى ايديهم بعد ان حاصروها محاصرة مستكملة وقلد بيبين اسر محافظيها ما عدا الغسكونيين لانه كان عليهم مدار القوة العسكرية فى جيوش وايفر

وقد ضم بيبين اقليم برى الى اقاليمه عملا بالحقوق التى يوجبها الحرب وترك من عساكره كثيرا من المحافظين فى مدينة برجس بعد ان اصلح اسوارها وقد ترتب على اخذه لهذه المدينة واستيلائه على قلعة طوار الشهيرة بالمناعة ان سلك وايفر فى المدافعة مسلكا آخر فهدم اسوار مدينة بوتيرس وليموجه وسنته وبريغوش وانغوليم ولم يفرق عساكره فى المدن لاجل محافظتها بل اخذ يقاوم بهم العدو (سنة ٧٦٣) ولكن لم يكن له فى ذلك ثمرة بل بقى على حالته الاولى من عدم النجاح فان الاكتينيين انهزموا هزيمة فاحشة قريبا من مدينة ايسودون وان كانت طائفة البسكية التى اتى بهم وايفر من جبال البرنات بذلت الهمة معهم ورجع تاسليون متعللا بالمرض ليفارق جيش الاوستراسيين فتوغل بيبين حتى وصل الى مدينة كاهرس ورجع من مدينة ليموجة وصرف عساكره فى مدينة ديجوان حتى يأتى فصل الربيع

وبعد هذه الغزوة الثالثة مكث كلا الفريقين فى الهدء والراحة مدة سنة فكان بيبين واويفر مشتغلين فيها بتدبير المنازلة والصلح وذلك لان وايفر كان وقتئذ محتاجا للتقوية واخذ الاهبة والاستعداد وكان بيبين عازما اذ ذاك على معاقبة تاسليون على خيانته فعرض وايفر دوق اكتينا على بيبين ملك الفرنج ان يدفع له الخراج والهدايا التى كان اسلافه المرونجية يأخذونها من اكتينا بشرط ان يرد له مدينة برجس وغيرها من المدن الباقية تحت ايدى الفرنج وكان بيبين قريب الرضى بذلك الصلح الذى كان يسهل عليه الانتقام من تاسليون دوق باويرة لكنه رجع عن حرب البواريين باشارة البابا بولص عليه بذلك وكان دوقهم قد طلب منه ان يتوسط بينه وبين بيبين وبمراجعة جمعية ورم الملية له عن هذا الصلح وكذلك العساكر الكثيرة التى كان يجمعها وايفر فى الشاطئ الاخر من نهر لوار فانها منعته ايضا ان يخاطر بنفسه بالحرب فيما وراء نهر الرين

اعني باويرة
وفي (سنة ٧٦٥) خرج من اكتينا في وقت واحد ثلاثة جيوش اولها كان يقوده منسيون ابن عم وايفر وكان معد المنع فرقة من عساكر الفرنج عن الذهاب الى محافظة نربونة اذ لو وصلت الى هذه المدينة لسهل عليها ان تنكد على مدينة طولوزة التي هي دار اقامة وايفر ولكن اوسترالد وجليمان وهما من معاوني پيپين اجتمعا بغوطي سبطمانيا تحت قيادة قونتة مغيلونة وهزموا منسيون وقتلوه في تلك الواقعة ومع ذلك لم يتوغل الجيش المنصور في داخل البلاد بل انضم الى قونتة شالون ليدافعوا قونتة اوبرنة الجديد المسمى هلبنغ وكان قد نزل باقليم ليونيز ليصد جيش الجنوب عن الرجوع ويدعو الى القتال معه من كان في مملكة برغونيا متضررا من حكومة الفرنج لكنه انهزم ولحقه ما لحق منسيون وكذلك لم ينجح الاكتينيون في الواقعة الثالثة فان مانوج قونتة بوتيرس لما توغل في بلاد تورينة قتل في هذه الواقعة وكانت بينه وبين اتباع وولفرد رئيس دير سنت مرتين بمدينة طورس فجميع هذه المصائب والنكبات اضعفت همة اصحاب دوق اكتينا حتى تخلى عنه بعض اقاربه فقد ذهب عمه رمستان الى پيپين ووالديه واقسم لهم انه لا يخونهم ويكون تحت حكمهم فكافأه الملك على ذلك بتحف ثمينة وانعم عليه بنصف اقليم برى وقلعة ارجنتون وكان پيپين رمم اسوارها واصلح حصونها لتكون بذلك حصنا منيعا ومحلا مأمونا وقد ترتب على هذه الخيانة ممن حقهم ان يرغبوا في اعانة وايفر ويدافعوا عن حزبه ان هجره آخرون حين نشرت اعلام پيپين على سواحل نهر غارونة واسوار مدينة اجن متعللين بالاضطرار واقتضاء الحال ذلك ودخلوا تحت طاعة پيپين المنصور
وفي (سنة ٧٦٧) كان يرى ان اكتينا دخلت تحت حكم الفرنج وقد ظهر من حال پيپين حين اتى الى تلك البلاد بقصد توطين الملكة برتة في السراية التي بناها في مدينة برجس انه تملكها تملكا صحيحا لا نزاع فيه ومع ذلك فكان وايفر لا يكل ولا يمل حيث كان دائما يحارب عسكر الفرنج ويدافعهم فمن ثم عزم پيپين على ان لا يترك له وقتا يستريح فيه وكان قد تغلب على مدينة طولوزة قبل السنة التي عاد فيها القتال بين الفريقين وكان قد اغار عليها من جهة نربونة ومر من اقليمي ألبجوه وروورغ وادخلهما تحت حكمه وذهب الى وياتة ليشهر عيد الفصح (وهذا ان الاقليمان كانا من الاقاليم القديمة بفرنسا) وقد اقتضت الاحوال ان تؤخر

جمعية الملة الى شهر اوغسطوس فذهب پيپين الى مدينة برجس وعقدها فيها ثم اعقبها فى هذه السنة غزوة اخرى فتوجه جيش الفرنج جهة نهر غارونة وكان رمستان قد سار الى تلك الجهة نادما على ما فرط منه فى حق ابن اخيه قاصدا الانضمام اليه وقد تغلب الجيش وهو مار فى طريقه على قلاع سكوراى وتورينة وپيروس وراد الفرنج الجبال والمغارات التى كان وايفر يدافع فيها مع بعض اصدقائه من العساكر وغضب پيپين حيث لم يدرك عدوه فعزم على قتاله ثانيا عند مجئ الربيع ولم يأمر بصرف العساكر فى آخر فصل الخريف على عادته بل امرهم ان ينزلوا فى ثغور برغونيا وقضى هو مدة الشتاء فى برجس وفى منتصف شهر فبرير (سنة ٧٦٨) فصل من الجيش عدة قورنتات خفية وامرهم بالقبض على رمستان لكونه نقض العهد فلما احضروه امر به فوضع على مشنقة الاشرار واحضروا اله ايضا ام وايفر واخواته وحضر اليه رؤساء الطائفة البسكية فى مدينة منس على نهر غارونة ليعاهدوه فاقسموا انهم يكونون اصدقاء له ولمن بعده من ذريته

ومع ذلك كان وايفر سيء البخت يهيم فى غابة اوپاين مع بعض افراد قلائل جدا والاعداء محدقون به من كل جانب ناصبون له اشراك المكائد وكان يومئذ خصمه سعيد الحظ نازلا على نهر النبر بين دولة فاخرة مشتغلا بالمصالح السياسية وكان قد بعث قبل ذلك رسلا الى قرطبة ليمنعوا عبد الرحمن بن معاوية من معاهدة دوق آكتينا فمكثوا ثلاث سنين ثم رجعوا ومعهم رسل من طرف امير المؤمنين عبد الرحمن الى ملك فرانسا فنزل هؤلاء الرسل الاسلاميون فى مرسيليا ومكثوا فى مدينة متز مدة الشتا ثم تلقاهم الملك فى قصر سيلس وقدموا اليه ما معهم من الهدايا فقبلها منهم وكافأهم بهدايا من عنده

وبعد ان سافروا ذهب پيپين الى اقليم سنتنجة ليجتمع فيه على عساكره وقسمهم الى اربع فرق ليحيطوا بوايفر من كل جهة ومع ذلك فلم يمكنهم ان يدركوه غير انه غدر به فقتل باغرا پيپين على ما يظهر وبذلك استراح ملك فرنسا من عدوه الذى كان يابس الطبع عسر الانقياد وقد خانه اصحابه وغدر به دهره واودت به شهرته وليس فى التاريخ ما يفصح عن كيفية قتله وانما ذكر جميع كتاب الوقائع السنوية ان اصحابه هم الذين قتلوه رجا الحظوة والقبول عند الملك ثم ان پيپين بعد هذه العاقبة السيئة التى بها تم فتح آكتينا وتدنس ما اوجبه له هذا الفتوح من الفخار دخل بالاحتفال وموكب النصرة مدينة سنتة واخذ المواثيق عند

الملكة

الملكة برتة على امراء اكتينيا غير انه فى مدة ما كان مشتغلا بتدبير حكومة هذه الاقاليم الجديدة التى فتحها اصيب بداء الاستسقاء فلما احس بان اجله قد دنا رجع الى باريس ليموت بها وكان قبل ذلك قد بذل الصدقات واكثر من الصلوات الى مارى مرطين دوطورس ومارى دينيس اللذين هما اكبر القديسين ببلاد الغلية رجاء الشفاء والبرء من هذا الداء فلم تنفعه هذه الامنية بل نشبت به اظفار المنية ولما قاربه الموت قسم بين ولديه كرلوس وكرلومان فرنسا الجرمانية التى وسعها ببلاد المانيا والغلية وهو اول من جمع من فاتحى المتبربرين جميع الاقاليم الفرنساوية تحت حكومة واحدة ولما كان رئيس سلسلة ملوكية تأسست وتمكنت فى آن واحد اعاد انتظام الحكومة الملوكية وضم الطائفة الارستوقراطية الى الدولة الحاكمة واعاد الى الشوكة الملوكية ما كان لها من الخصايص والمزايا التى اقتات عليها رؤساء السراية وترك لولديه سلطنة لا يزاحمهما فيها مزاحم وثلاث ملل كبيرة تدفع لهما الجزية وقد سبق فى الازل ان احدهما وهو كرلوس حاز الميراث كله ووسعه عما كان عليه فى عهد ابيه فكان ذلك اساسا عظيما لما جدده من انواع التمدن والتأنس

(الفصل الثانى)

فى الكلام على الملك الفاتح وهو كرلوس بن پيبين ويقال له كرلوس مانوس وشرلمانيا اى كرلوس الاكبر

لما اقتضت الحكمة الالهية ان الدولة الكرلوفجية تبلغ الدرجة القصوى فى العظم لزم لذلك ان اربعة اجيال متعاقبة من هذه العائلة تميل الى الحرب والسياسة فقد حاز هذا الملك جميع حكومة ابيه پيبين لبريف ووسعها بنصراته وفتوحاته وربما كان اقل مهارة من ابيه وجده ومن پيبين دهرستال الذى هو اصل تلك العائلة الا انه فاقهم فى الفخار وشاع ذكره واشتهر اسمه فى اكبر جزء من القرون المتوسطة قال دوسيسمونـدى ان كرلوس الاكبر كانت تعتبره الكنيسة قديسا ويراه الفرنساوية اعظم ملوكهم ويعده الالمانيون من ابناء وطنهم والايطاليون امبراطورهم فلذا كانت التواريخ المتأخرة تصدر به وتقدمه على غيره انتهى

ولما حضر الفرنج جمعية شندمايه ورضوا قسمة المملكة بين ولدى پيبين لم يكن يخطر ببالهم الفخار العظيم الذى حصل لهم فيما بعد ومن المعلوم ان عادة قسمة المملكة كانت تغلب عندهم على الاسباب السياسية المقتضية لعدم التقسيم فان الدولة الجديدة عرضت نفسها للخطر بسلوكها هذا المسلك الذى ادى الى انقراض دولة الميروفجية وقد وقع التقسيم بين ولدى پيبين على حسب العادة القديمة وهى تعين

الانصباء لكل واحد من الورثة على التساوى فى بلاد الفرنج وبلاد الرومان التى فى الغلية فكان نصيب كرلومان اوستراسيا وبرغونيا واما شرلمانيا وكان اكبر من اخيه فكان نصيبه نستريا واكتينيا التى لم يكن تم فتحهما على ما ينبغى بل كانت عاصية وقتئذ

وذلك ان هونلد ابا وايفر كان فى ذلك الوقت قد ترك خلوته التى فى جزيرة ره وكان اختلاؤه فيها رجاء ان يكفر عنه ما اقترفه من الخطيئة فى تعذيب اخيه هاتون حيث امر بفقد بصره وحرمانه من التطرو كان يأمل ان يأخذ بثار ولده ويعيد الاكتينيين الى الحرية والاستقلال وكان اهل اكتينيا معتمدين فى تحصيل هذا الغرض على ما كان وادعا بين الملكين الصغيرين ولدى بيبين من الفشل والشقاق وعلى عدم خبرتهما وتجربتهما غير ان شرلمانيا وان لم يحظ من اخيه كرلومان بالاعانة التى كان له الحق فى طلبها منه حيث خلى بينه وبين الاعداء لغيرته منه الا ان معارفه قامت مقام ذلك واقتادت له اكتينيا من غير مقاومة ولا معارضة وذهب هونلد يبحث له عن ملجاء يلتجئ اليه عند لوب ابن اخيه وكان دوقا على الغسكونيين الستريور ولكن لما كان لوب المذكور لم ينس ما صنعه عمه مع ابيه من الاساءة الفاحشة التى سبق ذكرها سلم فيه للفرنج حين جاوزوا نهر غارونة ليكون رهينة منه على الطاعة والانقياد وبايع ملك الفرنج الغربيين وهو كرلوس مانوس

ثم ان هذا الفاتح جعل فى المدن الكبيرة من هذا القطر المتسع (اكتينيا) قوتات من الفرنج وجعل كثيرا من المحافظين فى قلعة فرنسياك اوفرنساك التى بناها على نهير دردونية لاجل حفظ القطر المذكور الذى طالما كان اهله يظهرون السامة والبغض لحكومة الجرمانيين واناط بضبطه عدة مئين من الاوستراسيين غيران اكتينيا بعدان كانت آهلة عامرة صارت خالية عن المدن المحصنة والقلاع وفقدت فى الحرب المبيد فتيانها الذين كانوا يذبون عنها وصارت اوضها بوارا وكادت بلادها تخلوا عن السكان بل صارت ادبارها قفرة موحشة

وقد ظهر بحرب اكتينيا ما كان بين كرلوس مانوس واخيه من العداوة الخفية التى اوجبت الفشل والشقاق بينهما الى ذلك الوقت وذلك ان كرلومان لما امتنع من الذهاب مع اخيه فى هذه الغزوة ظهر بذلك ما كان يضمر له من العداوة فتعكر ما كان بينهما ظاهرا من الاتحاد الذى كان القصد منه ابطال العصبة القوية التى كان رئيسها الدوق اوشير وكانت محكمة على طرف ملك اللنبرد يين لكن لم يقع بين

هذين الاخوين حرب كما كان يطلبه من كان سببا فى ايقاع الفشل بينهما وانما صار كرلوس مانوس عرضة للهلاك بسبب الاحزاب التى تحزبت عليه فى اوستراسيا ومع ذلك وقعت بينهما معاتبة عظيمة ثم كتب كرلوس مانوس الى البابا اسطفان الثالث يخبره انهما عادا الى ماتقتضيه الاخوة من الالفة والمحبة ولا يدرى هل كان ذلك صلحا حقيقيا اولا وسبب ذلك موت كرلومان فجأة فلم يكن هناك فسحة لتحقيق هذا الامر

وقد اعقب كرلومان ولدين قل ان ذكر اسمهما احد من كتاب الوقائع السنوية ولو كانت الحقوق المتعلقة بالمملكة معمولا بها فى ذلك الوقت كما كان اولا لورثا شرعا ما كان لابيهما من البلاد ولعد عمهما مخطئا فى افتيائه على حقوق ولدى اخيه وتعديه عليهما فى زمن قصورهما وصغر سنهما لكن كانت القوانين الجرمانية لم تزل على قوتها فاتفقت ارآء جمعية الفرنج المشرقيين وهم الاستراسيون على التسليم فى تاج اوستراسيا الملوكى لكرلوس ملك نستريا وبذلك عاد الفرنج الى حكومة واحدة واكتسب كرلوس المذكور شوكة اقوى من شوكة اسلافه من غير ان يلحقه فى ذلك خطر ولا مشقة وعند ذلك وردت عليه واردات جديدة وخطر بباله مشروعات اخرى حيث رأى انه قد توفرت عنده جميع مواد الفتوحات ولوازمها وصار الحرب له من الامور الضرورية التى جعلها الله تعالى سببا فى سعادته وعلو شانه

ومن هذا الوقت غزا عدة غزوات متعاقبة كان الغرض الاصلى منها حماية مملكة الفرنج مما كانت عرضة له من التغلب الذى كان متوقعا لها من جهتين حيث كان يهجم عليها من جهة الشمال قبائل الجرمانيين المتأخرة التى لم يكن لها دخل فى تمزيق السلطنة الرومانية * ومن جهة الجنوب كان المسلمون منذ قرن يغيرون على جميع بلاد النصارى لاسيما المملكة المذكورة فلزمه لاجل تقوية هذه الحماية ان يجعل اعداءه عاجزين عن ان يضروه بشئ وصار بمقتضيات الاحوال ملكا فاتحا

وقد ترتب على تغلبه على الاقاليم التى خلف نهر الرين ظهور عدوين له يلزمه الظهور عليهما احدهما السكسونيون وكانوا لم يزالوا يجاوزون ثغور مملكته الجديدة والثانى اللنبرديون وكان ملكهم قد جعل تحت حمايته ولدى كرلومان وغيرهما ممن كان من اهل اوستراسيا متضجرا من حكومة شرلمانيا ولو ان هاتين الامتين توافقتا وحصل بينهما الارتباط فى الهمة والقوة لصارت سلطنة الفرنج عرضة للدمار والاندراس لكن حمية السكسونيين الغريزية فى الميل الى الحرب حملتهم على

ان يسبقوا اللنبرديين الى القتال فتعطل بذلك ما كان يدبره ديدية ملك لنبرديا في هذا الشأن واعدم نباهته آثار نار الحرب وانتظر مجيئه اليه

ولما رأى ملك اللنبرديين انه لا فائدة لسعيه في اضرام نار الحرب بين امراء الفرنج بحث عن مصاهرتهم بعقد ثلاثة انكحة لكن لم يتحقق منها الا عقد واحد وبه صار ختنا لشرلمانيا حيث طلق زوجته الاولى وتزوج بنت ديدية المسماة ديزيرادة لكونه آثر في هذا الغرض اغراء امه الملكة برتة على ماوقع من البابا اسطفان الثالث من التحذير الشديد الذي لا يليق ولكن عما قليل سئم منها حيث كان لا يأمل ان يعقب منها من يرث الملك بعده لضعف بنيتها وفساد مزاجها فردها الى مدينة باويا وكانت زوجة اخيه كرلومان قد وصلت في هذا الوقت مع ولديها الى تلك المدينة لتبحث عن ملجأ تلتجئ اليه هي وابناها فانظر الى هاتين الملكتين الارملتين كيف حضرتا معا الى ديوان ديدية ملك اللنبرديين احداهما تريد ان ينتقم لها في نظير ما لحقها من العار والمنقصة والاخرى كان مجيئها وسيلة لهذا الانتقام حيث كان عود ولديها الى كرسي ابيهما باوستراسيا الذي طردا منه يوافق ما تقتضيه سياسة هذا الملك من ايقاع الفشل والشقاق في سلطنة الفرنج ويودي الى زوال ما لحق بنته من العار

وعند رجوع شرلمانيا من الغزوة الاولى مع السكسونيين ظافرا عليهم وصلت له مكاتبات من طرف البابا ادريان الاول ومطران راوينة يذكران فيها ان ديدية ملك اللنبرديين لما لم يمكنه ان يستميل البابا الى الرضا بتتويج الاميرين الاوستراسيين (وهما ولدا كرلومان) تغلب على ايكزاركة راوينة وها هو الآن متوجه الى رومة وبمعيته الدوق اوشير وولدا كرلومان انتهى ولو ظفر ديدية بهذه المدينة وفتحها لاختل الترتيب السياسي الذي رتبه بيبين لبريف في ايطاليا وتبدلت فيها شوكة الفرنساوية بالحكومة اللنبردية وبذلك ينتقص فخار شرلمانيا بل ويصير عرضة للخطر ومع ذلك لم يشهر السلاح الا بعد ان الزم ديدية ان يرد الى البابا ما تغلب عليه من التزامات الكنيسة وكان هذا الالزام اذ ذاك يتضمن جميع مصالح ملوك الفرنج وسائر ما يدعونه في ايطاليا

ثم انعقدت جمعية شاندمايه في مدينة جنيورة وحضرها الفرنج متسلطين فكان استعدادهم للقتال اشد من استعدادهم للتشاور وانحط رأي الجميع على الحرب واجتاز جبال الالب جيشان في وقت واحد فعبر احدهما جبل يوكس (سنت برنارد الكبير) وكان يقوده برنارد وهو ولد طبيعي لكرلوس مرتيل بمعنى انه

حرب ايطاليا (سنة ٧٧٣) و (سنة ٧٧٤)

ليس من نكاح شرعى والثانى مر من جبل سيفيس والقائد له شرلمانيا نفسه واما جيش اللانبرديين فنزل به ادلجيز بن ديدية والدوق اوشير خلف اسوار وبروج كانت فى مدخل وادى سوز وقاوموا الفرنج مقاومة جعلت شرلمانيا على ان يفرز فرقة من ابطال الجيش وامرها فسلكت طريقا شامخة بين صخور مشهورة بانه لا يمكن سلوكها وحملت على الاعداء من خلفهم فالجأتهم الى ترك تلك الاسوار والبروج وقد ترتب على هذه الحملة التى كان الفضل فى نجاحها للشماس من راوينة ما يترتب على الغزوة الكبيرة من النتائج فان اللنبرديين اختل نظامهم فلم يستطيعوا المقاومة فعند ذلك اغلق ديدية ابواب مدينة پاويا على نفسه وعلى دوق آكتينا الذى هو ابو وايفر وكان قد هرب من السجن عن قريب واما ولده ادلجيز الذى كان عليه المعول عند اللنبرديين فانه ذهب هو واوشير بقصد حماية اميرى اوستراسيا وكانا قد التجأ الى مدينة ويرونة على ساحل اديج او اديجة فلم ينجح ايضا فى هذا الساحل كما وقع له فى الطرق المضيقة من جبال الالب وذلك لان الاميرين المذكورين اللذين اقام عليهما حرسه وقعا فى قبضة عمهما المغتصب على حقوقهما فحكم عليهما بالمكث فى دير حتى يموتا واما ادلجيز فرأى ان نجاة نفسه فى الهروب فقصد القسطنطينية فلم يجد فيها اسعافات كافية

ثم ان شرلمانيا تاسى ببعض ملوك اللنبرديين الذى فتح مدينة پاويا حيث ترك معظم الجيش امام هذه المدينة بقصد حصارها الا انها كانت وقتئذ لا يمكن الهجوم عليها فتوجه الى رومة متعللا بانه يريد اشهار عيد الفصح بها واخذ معه فرقة من العساكر لاجل الامن فى الطريق وكان محبة لا احتفالا لاعظميا ليأخذ بعقول الرومانيين حيث يظهر لهم بهذا المظهر المبتهج فان هذه اول مرة رأوا فيها ملكا من ملوك الفرنج دخل مدينتهم فتلقاه البابا بخارج المدينة وابدى له من التشريفات سائر ما يليق بمقام البطارقة واقره على منصب البطريقية بما يصنعه البابات فى الاقرار بما هو معلوم عندهم وقد سبق ان البابا اسطفان الثانى اتحف بهذا المنصب ولدى پيپين شرلمانيا وكرلومان فى صغرهما فكافأه الملك على ذلك بكونه اقر ما كان وقفه والده على كنيسة مارى بطرس بل تبرع بالزيادة على ذلك * ولكن مع ثبوت هذه الزيادة فهل يصح ان نصدق مازعمه انستاس من انه وجد فى وثيقة هذا التبرع انه تخلى للبابا عن مدينة پرمة وريجيو ومنطو والبندقية ودوقيات ايستريا واسپوليته وبنيوان وجزيرة قرسقة وهل يسلم لسيغونيوس زيادته على

هذه البلاد المذكورة جزأ من طوسكانة وكذلك مبالغة بطرس دوحرقه حيث اضاف الى ماذكر نابلى واقليم كمبانيا بتمامه وكذلك اقليما بويليه واوبروزه اولتربور وهل يسلم ايضا ما ادعاه غير هؤلاء من انه تبرع للكنيسة الرومانية ببلاد سكس مع انه لم يكن فتح منها اذ ذاك الاجزأ صغيرا وبجزيرة سردانيا اوسردينيا مع انه لم يكن فتح شيأ منها وجزيرة سيسليا مع انه لم يفتحها اصلا ولا غرابة فى نسبة هذه التبرعات اليه وان كان لا يقول بها عاقل فان اهل هذا العصر كانوا آخذين فى تصديق ما يعزى الى قسطنطين من التبرع الشهير الذى هو ايضا من الاكذوبات المختلقة وبالجملة فمبالغات المؤرخين الذين وراء جبال الالب وعبارات المسجلين بديوان البابا التى هى ايضا من باب المبالغات جعلت تبرعات الدولة الكرلونجية من حيز الخرافات ونظمتها فى سلك الترهات بحيث لوسمعها انسان لانكر تبرعاتهم بالكلية واعتقد انه لا وجود لها ولو انهم جميعا سلكوا فى تحقيق هذه المسئلة الغامضة مسلك التحرى والصدق لتحقق ان الاقطار المذكورة فى مختصر تاريخ البابات لا تخرج عما ارده ببين وشرلمانيه اللهم من الالتزامات التى افتيت عليها وعما تبرعا به لهم واما كون الملوك تبرعوا باقاليم ليست من حكوماتهم فهذا مما لا يقوله عاقل وكذلك كونهم تخلوا للبابات عن رياسة البلاد التى فتحوها اوعزموا على فتحها بحيث يجعلون لهم فيها التصرف المطلق لا مجرد ادارتها فقد قضت ببطلانه نصوص المؤرخين ومن قبيل تلك القضية الملايسة لادعا آت ديوان رومة قضية اخرى تنافى استقلال الكنيسة الرومانية وهى ابعد عن الصحة من الاولى وحاصلها انهم زعموا انه انعقد فى رومة جمعية قسيسية انحط فيها رأى البابا ادريان مع مائة وثلاثة وخمسين اسقفا على ان شرلمانيا له الحق فى انتخاب البابا وتقليد الاساقفة بمناصبهم وكل من تجارى على مخالفة هذا القانون وقلد احدا منهم قبل انتخابه حكم عليه بالحرمان والاعتزال وقد اعتقد صحة هذا القانون فقهاء القسيسين الذين كانوا يصرفون همتهم فى مصلحة الكنيسة الرومانية ومكثوا على هذا الاعتقاد مدة طويلة بل وضعه اغرثيانوس فى مجموعه هذا ومن قال بعدم صحته فقد انصف اذ لو كان صحيحا لما تجاسر خليفة ادريان على انكاره فهو اذن منظوم فى سلك ما يعزى الى البابات من القوانين الكاذبة وان كانت فى موضوع آخر والاقرب انها من توقيع كاتب السجلات بديوان البابا وليست من توقيع الراهب ايزيدور مرقتور وهو من اهل القرن الثامن وكانت هذه القوانين الكاذبة فى حيز الخفاء والجهالة واول من اظهرها البابا آدريان بنباهته ويمكن انه ادخلها فى مجموع القوانين الذى

اهداه لشرلمانيا وبعد ذلك بعشر سنوات استعان البابا المذكور بما فيه من الاحكام المنكرة
ومدة اقامة هذا الملك فى رومة لم تكن سدى بل كان لها دخل فيما اكتسبه فيما بعد من السود ود الرفعة بل كان لما جدده مع البابا من المحالفة مدخلية عظيمة فى قضاء اوطاره الحالية ومصالحه الوقتية لكن لما كان لابد لسياسته من ضميمة النصر اسرع العود الى مدينة باويا ليفتحها
وكانت هذه المدينة التى هى كرسى اللنبرديين قد اضر بها الجدب والقحط لطول حصارها فتحت ابوابها للملك الفرنج بعد ان وقع بين اهلها فتنة هلك فيها هولند الهرم برجم الاهالى له بالحجارة حتى مات لكونه عارضهم فى تسليمها وقبض على ديدية وارسل الى مدينة ليباجة وامر به فرسم رسمة الرهبان فحلقوا له رأسه وبذلك انحط عن درجة ذوى الشعور التى هى من علامات الشرف عند اللنبرديين وصار من هذا الوقت غير اهل للحكومة واما تاجه فلم يكسره شرلمانيا المنصور بل لبسه وابقى الملة المغلوبة على سياستها وقوانينها الملية وكانت موافقة للقوانين التى احيتها الدولة الفاتحة فى سلطنة الفرنج ولم يترك محافظين الا فى مدينة باويا ليحرسوا فتوحه وجعل فيها قضاة يظهر ان غرضه من اقامتهم فيها تدبير المملكة وادارتها
ومثل هذا الاحتراس كان من اللازم الضرورى له حيث ان بلاد اللنبرديين لم يكن تم فتحها وذلك لانه لم يدخل تحت طاعته من دوقاتها الثلاثة الكبار الا دوق فريول واما الدوق هلدبرند فكان فى اسپوليتة مستقلا حتى كانه منفرد فى بلاد مفتوحة واما ارچيز دوق بنيوان وهو صهر ديدية فانه لما كان قوى الشوكة لعظم حكومته وبعده عن العدو ومجاورته لليونان كان بعيدا عن الانقياد حتى يقاتل وينظر ما تكون العاقبة وقد وقع من السكسونيين اغارة على اوستراسيا عطلت على شرلمانيا ان يتم مشروعه بل جعلت فتوحاته الاولية عرضة للاخطار
وذلك انه بمجرد مضى سنة وصلت الى ملك الفرنج رسالة من طرف البابا اخبرته انه حصل من اللنبرديين قيام عظيم بقصد اعادة مملكتهم وذلك ان دوقات فريول وبنيوان واسپوليتة وكلزيوم وهم ردجود وارچيز وهلدبرند وريجنلد عقدوا مع اليونان بواسطة ادلجيز معاهدة بقصد مدافعة الفرنج والاغارة برا وبحرا فى شهر مارث من السنة الآتية وهى (سنة ٧٧٦) على اراضى الكنيسة

الرومانية وماتغلب عليه شرلمانيا من البلاد والظاهر ان دوق فريول تعجل قبل ان ياتى الوقت الذى وقع الاتفاق عليه وذلك انه لما نكث عهد شرلمانيا تبعه على ذلك مدن كثيرة كانت قد اخذ عليها الميثاق مثل الدوق المذكور ولكن نشاط ملك الفرنج العجيب لم يخب فى هذه الفرصة العظيمة حيث انتقل من سواحل نهر وزر وكان قد دعاه اليها قيام السكسونيين الى برارى نهر اديجة مصطحبا نخبة عساكرهم وخيارهم وكان ذلك مع السرعة التامة بحيث لم يشعروا الا وهو فى تلك الجهة واستولى على مدينة تريويزة وفروم يولى (فريول) واخذ زدجود اسيرا بعد هزيمته وعوقب بالقتل على خيانته التى حمله عليها محبة الوطن واعطيت دوقيته لرجل من الفرنج يقال له هرقهلر واخذها بعده هنريك وتوارثها ذريته من بعده الى (سنة ٩٢٤)

ثم ان عقاب زدجود حمل دوق اصوليته على ان يسلك مسلكا لا يحيد عنه فبادر بالتودد الى ملك الفرنج حتى يحظى عند هذا المنصور المغتاظ بالصفح والمسامحة ومن المعلوم انه فى هذا الوقت وقعت منه عهود الطاعة والاذعان وهى مذكورة فى كتاب من طرف البابا ادريان كتبه بعد ذلك

وقد سلك شرلمانيا فى هذه المرة مسلك الاحتراس الذى نشأ له عن التجربة فلم يكتف بوضع المحافظين فى مدينة تريويزة وغيرها من المدن العظيمة بل فرق قونتات وقضاة من الفرنج فى الاقاليم التى فتحها لاسيما اقليم فريول واما شركا زدجود فى نقض العهد فعوقبوا بحرمانهم من التزاماتهم المتوارثة واعطيت لمن بذل همته مع الملك ولاهل الصداقة والامانة وارباب المعارف ومع ذلك فلم تكف هذه الاحتراسات فى ازالة ما فى بواطن اللنبرديين من الحقد والبغض للحكومة الاجنبية وقد ظهر ذلك منهم فيما بعد فان شرلمانيا حين عقدت مشورة باويا (سنة ٧٨٤) رأى من اللازم نفى اعظم اللنبرديين مروءة ونخوة ويقال لهم باللغة اللنبردية فرودولو

حرب سكس المدة الاولى من (سنة ٧٧٢) الى (سنة ٧٧٧)

ولا يمكن ان يقال فى السكسونيين ما قيل فى اللنبرديين من انه حدث فيهم فتور همة ورخاوة من اقامتهم قرنين باراضى ايطاليا المعتدلة الهواء فكانوا لذلك اقل اعداء الفرنج خطرا واما السكسونيون فكانوا ارباب بطش وشجاعة وهم آخر بقايا القبائل الجرمانية القديمة التى لم تهاجر عن وطنها ومسقط رأسها حيث كانوا يحافظون بالكلية على محبة الاستقلال والشجاعة التى تحفظه وتحميه فلذا امكث شرلمانيا فى قتالهم ثلاثا وثلاثين سنة ليدخلهم تحت طاعته ولاشك انه لم يبلغ هذا المرام الا بمعاونة

القوة

القوة الدينية وذلك انه شرع فى قتالهم بقصد ادخالهم فى دين النصرانية بل كان تنصرهم سببا فى انقيادهم اليه وكان فتح بلادهم من الامور الضرورية لاستمرار الدولة الكرلونجية وذلك ان العائلة الهرستالية لما اسست هذه الدولة جاءت معها الى بلاد الغلية بالقبائل الحربية التى بفرنسا المشرقية وكان اهل الشمال دائما يتعدون على اهل الجنوب وكان يظهر من حال السكسونيين انهم يقومون مقام الاستراسيين عاجلا او آجلا فانهم كانوا منذ مدة طويلة جاوزوا نهر البه ولم يكن نهر وزر مانعا بالنسبة اليهم

وكانت ملة السكسونيين اذ ذاك منقسمة الى اربع قبائل اصلية وهم الوستفاليون فى المغرب والاستفاليون فى المشرق والانغراريون فى الجنوب والنردلبجيون على الشاطئ الايمن من نهر البه وكان على كل قبيلة رئيس تنتخبه ويستقر عليه رأيها ومع ذلك فالمصالح العامة لتلك القبائل المتعاهدة كانت تتذاكر فيها المشورة الملية التى كانوا يعقدونها كل سنة فى سواحل نهر وزر وكان لهم قوانين توتونية قديمة حافظوا عليها وكذلك كانوا محافظين على الحرية لا على التسوية فيها حيث كان فيهم اشراف حقيقيون يقال لهم اتلنجية الا انه لا يعلم ما كان به امتيازهم وشرفهم على من دونهم من الاحرار المسمين فرلنجية وكان من الطائفتين اراض يزرعها طائفة ثالثة يقال لها لينية اوليدية وكانت هذه الطائفة قريبة من الارقاء المستعبدين ككل القبائل التى كانت ببلاد الغلية تدفع الخراج لملوك الدولة المرونجية وقد تكلم معاصر والملة السكسونية على صنمهم الشهير من غير ان يتعرضوا لبيان ديانتهم غير ان من المعلوم انها كانت شبيهة بديانة الامم السكندناوية وتوجه اليهم عدة من ابطال القسوس لينشروا بينهم انوار الملة المسيحية لكن لم تتسع دائرة التنصر فيهم وكان بيبين لبريف قد عاهدهم على ان لا يعارضوا دعاة دين النصرانية فى بث دينهم ونشره غير ان همة مارى لبروين الخالية عن التبصر حملتهم على نقض تلك المعاهدة وذلك انه هددهم وهم فى اثناء مشورتهم بغضب شرلمانيا عليهم فهاج غضبهم واشتد بغضهم لهذا الدين المكرهين عليه وهدموا كنيسة دونتير ودمروا من كان يتردد اليها ممن كان قريب عهد بالتنصر

فبلغ ذلك ملك الفرنج وكان وقتئذ رئيس جمعية شاندمارت بمدينة ورم فعند ذلك انضم للسبب السياسى سبب دينى واتفقت الاراء جميعا على قتالهم ولم يكن هذا الحرب فى مبدء الامر الا غزوة صغيرة مكثت مدة قليلة ولم يترتب عليها الا وقوع القتال بين الفريقين واكتسب الحرب بها صفة دينية وسياسية واخذ الفرنج منهم

ثغرا هرسبورغ وهذا الاسم يشعر بان السكسونيين اناطوا فخرهم وسلامة بلادهم بحماية هذا الثغر وكانت به صنمة هرمان (ارمين سول او هرمان سول) وهي من الآثار المحترمة عند هذه الملة اما لكونها على صورة الوطن الجرماني او شكر الصنيع ارمينيوس حيث كان اعظم الحامين عنهم وكان هذا التمثال الخشبي على صورة رجل حربي قابض باحدى يديه على بيرق وبالاخرى على ميزان اشارة للحكم والعدل اللذين كان الجرمانيون يجمعون بينهما في عباداتهم وقوانينهم فكسر الفرنج المنصورون هذا الصنم وعرف السكسونيون حينئذ ان الاوفق لهم المدافعة عما هو اعز عليهم من حريتهم ومع ذلك فقبيلة الانغراريين اذعنت بالطاعة لشرلمانيا واعطته الرهائن ليستوثق منهم على الصدق والامانة وان كان لا يعلم ما وقع بينه وبينهم من الشروط في هذا المعنى

ولما شاع في (سنة ٧٧٤) على سواحل نهر وزر ان عدو السكسونيين مشغول في ايطاليا بمشروع خطر كان ذلك سببا في القيام والهجوم وذلك ان الفلاحين بعد ان استرجعوا اهرسبورغ خربوا اقليم طورنجة حتى وصلوا مدينة افورتزلار واخذوا فيها بثار ما لحق دينهم من المنقصة حيث دنسوا كنيسة الهسيويين التي احدثها ماري بونيفاس فلما بلغ شرلمانيا ما حصل فيما وراء نهر الرين امر بان ثلاثة من الجيوش يسيرون الى سواحل نهر وزر ليمانعوا السكسونيين حتى ياتيهم

وقد ذكر كتاب الوقائع السنوية من اهل ذلك العصر ان شرلمانيا كان غرضه من تلك الاحوال اما ان يدخل السكسونيين في دين النصرانية او يدمرهم عن آخرهم

ثم انه جمع عساكر المملكة كلهم قريبا من مدينة دوران الملوكية حيث انعقدت مشورة الملة العمومية وقصد بهم مدينة سيجيبورغ وفتحها عنوة واسترد ثغر اهرسبورغ واعتنى في تحصينه اعتناء تاما حتى صار محل امن لمؤخر جيشه ثم اجتاز نهر وزر وخرج منه على مدينة برونسبرغ وان دافعه السكسونيون عنه اتم المدافعة واطاعه في سواحل نهر وكر قبيلة الهيسو وقبيلة الاوستفاليين وكذلك قبيلة الانغراريين سلمت اسلحتها في مكان يقال له بروشي واتى له رئيسهم برونون بالرهائن على صداقته وامانته واما قبيلة الوستفاليين فانها حملت بغتة على فرقة من الجيش كانت نازلة في بعض المنازل لكن جبر شرلمانيا هذا الخلل حيث سلك جملة من هذه القبيلة الكبيرة مسلك قبيلتي الشرق والجنوب من الانقياد

والطاعة

والطاعة وفى هذه الغزوة جعل التعميد من جملة شروط المصالحة ولكنهم لم يصدقوا فى تنصرهم ولا فى عهودهم

ماوقع (سنة ٧٧٦) و(سنة ٧٧٧)

وفى مدة ما كان شرلمانيا يعاقب دوق فريول على خيانته شرع السكسونيون كالتنبرديين فى استرجاع الحرية والاستقلال فهجموا على محافظى اهرسبورغ فقاومهم محافظو سيجبورغ فى جميع اغاراتهم حتى اتى شرلمانيا وظهر عليهم فالتقى معهم وهزمهم قريبا من منابع نهر ليبه وبنى هنالك قلعة ليسبرنغ وترك فيها وفى اهرسبورغ كثيرا من المحافظين وفى (سنة ٧٧٧) اضطر السكسونيون الى الصلح وذهب اغلبهم من اشراف واحرار الى المشورة التى امر ملك الفرنج بعقدها فى مدينة بدربورن ولكن لم يرفيها رئيسهم الذى كان قريب عهد بالولاية وهو ويتكند وكان بمكان من الشجاعة والقوة حيث احيى شجاعة ارمنيوس ولوقعها مواقعها فى معركة كان الفرنج اكثر عددا وكانت لمدافعة دولة الفرنج عن الحرية الجرمانية وكان السبب فى تخلف هذا البطل عن الحضور الى المشورة المذكورة انه ترك وطنه وذهب يبحث عمن ينقذ هذا الوطن من العدو

واخذت المواثيق والعهود على السكسونيين فى هذه المشورة العظيمة لخصال منهم المبايعة على ان شرلمانيا هو الملك عليهم وانهم يدفعون له الخراج وانهم ان نقضوا هذا العهد يمنعون من وطنهم ويسلبون حريتهم والتزموا ايضا انهم لا يعارضون احدا من دعاة دين النصرانية بل تنصر منهم جم غفير وعلى هذه الشروط اذن لهم شرلمانيا ان يبقوا على قوانينهم ورؤسائهم ويعقدوا مشاورهم ولما رتب فى هذه البلاد ما يكون به الامن عليها عاد الى فرنسا ومعه رهائن كثيرة بعد ان ترك فى تلك البلاد كثيرا من المحافظين

حرب اسبانيا (سنة ٧٧٨)

ومما وفى بحفظ ناموس هذا الملك العظيم ان عدة من امراء المسلمين جاؤا اليه من اسبانيا استربور اى التى وراء جبال الالب فقابلوه فى مدينة بدربورن ليطلبوا منه الحماية فانظر كيف خضع لهذا الملك نواب اعدائه الذين كانوا بمفردهم منغصين على فرنسا بمجاورتهم لها ومانعين من انتشار دين النصرانية فى الشمال والجنوب والسبب فى مجيئهم اليه هو ان القيام الذى ترتب عليه انفصال اسبانيا من خلافة المشرق لم ينقض الا وقد الحق الخلل بمصالح جم غفير من المسلمين ومذاهبهم وعقائدهم وكان بعض امرائهم له ارتباط سرى بدولة العباسية ببغداد وكانوا باذلين همتهم فى جمع الناس على عقيدة واحدة فاساء الظن بهم عبد الرحمن بن

معاوية على عادته من سوء الظن بالناس فيما يتعلق بالسياسة وكان من اهل الاعتزال وهو الذى احدث الخلافة فى قرطبة وكان قد ظهر عن قريب رجل شديد الغيرة على الملة الاسلامية نهى الناس ان يدفعوا العشر لامير يصرفه فى قتال المؤمنين الذين ببلاد المغرب وهو عبد الرحمن المذكور فكل من كان له دخل فى خروج اولاد يوسف اووافق عليا بن مغيث والى افريقية فيما كان شارعا فيه لاجل الخليفة العباسى غضب عليهم عبد الرحمن الاموى وحكم بقتلهم جميعا ومن المعلوم انه كان منهم ابن العربى وابو طاهر وكان الاول اميرا على سرغوسة والثانى على هويسكة وكانت امارتهما مجرد صورة ظاهرية ففرا الى مدينة پدربورن وحضرا عند شرلمانيا وطلبا ان يحميهما من الامير الذى يظلم رعيته النصارى واعرضا له انهما يدخلان فى حكومته مع المدائن التى اخذت منهما عن قريب والمدائن التى لم تزل معهما وكان لهما اسوة فى ذلك بالامير سليمان حيث دخل تحت حماية پيپين لبريف بالطوع والاختيار فاجابهما ووقع التعاهد بينهم ويمكن انه بحث فى هذه المعاهدة التى تعد من الغرائب فى ذلك العصر عن طريق تتميم ما كان شرع فيه جده كرلوس مرتيل من طرد المسلمين واجلائهم عن بلاد اوروبا ورأى ان فى ذلك فرصة لايخيب فيها سعيه وهى ان يأمن على الثغر الجنوبى من اغاراتهم العديدة الخطرة

فعقد جمعية شندمايه بمدينة شنوليا على نهر لوط ولم يعقد سواها بفرنسا الرومانية واجتمع فيها احرار اكتينا بالاود الاوستراسيين الذين اشتهروا بكثرة الفتوحات وخرج من هذه الجمعية الملية جيشان قاصدان جهة طرفى جبال البرنات وقد اجتمعا فى تلك الجبال باقوام حربيين كانت الاوامر قد صدرت لهم بالخروج من جميع جهات المملكة ثم ان الجيش الذى كان يقوده شرلمانيا دخل اسبانيا من طريق جبل سنجان پيدوپور وتغلب على مدينة بمپلونة ووصل امام سرغوسة واما الجيش الثانى الذى ارسل الى قتالونيا فلا يدرى هل وقع بينه وبين مدينة برسلونة قتال او فتحت له ابوابها عملا بما يقتضيه حق الحماية التى عليها لفرنسا منذ سبع وعشرين سنة ثم ان سرغوسة التى هى منزل قبيلة قيصر اوغسطوس القديمة كان يحميها العرب ويغير عليها الفرنج الجرمانيون وقاومت عساكر شرلمانيا الحربيين وحصل لها من النجاح ما حصل لها سابقا فى مقاومتها العساكر شلدبيرت وكان يحميها فى هذه المرة عبد الملك بن عمر وكان من الشجاعة بمكان فانه قتل ولده بيده لكونه رأى ان همته قد فترت وحميته

قد حدث فى وقت خطر

وقد اثبت مؤرخو الاسلام ان الفرنج انهزموا على نهر ابرة واما كتاب الوقائع السنوية من الرهبان فانهم يقولون انما بادر الفرنج بالرجوع لما عرض لاوستراسيا من الخطر حيث اغار عليها السكسونيون ثانيا ويمكن ان الذى حمل شرلمانيا على الرجوع انه بلغه خبر العصبة التى كان لوب الثانى وهو ابن وايفر وسبط لوب الاول قد عقدها ورآه مع البسكية والاسترين والعربه

وكان هؤلاء المتعصبون ينتظرون الفرنج فى طرق نوار المضيقة فمرت عليهم فرقة كانت معظم الجيش فلم يجسروا على الحملة عليها بل حملوا على مؤخر الجيش لانهم وجدوه اقل خطرا واعظم مغنما حيث كان فيه اعظم مهمات العساكر فاحدقوا به من كل جانب فى وادى رونسيو وعاق الفرنج عن الحركات العسكرية ثقل اسلحتهم وكانت عرباتهم ودوابهم فيما بينهم بحيث لم يكن لهم قدرة على الاجتماع وانتظام الصفوف فظفر بهم هؤلاء الشجعان الخفاف سكان الجبال ودمروهم عن آخرهم فهم فى الحقيقة ابطال القرن الثامن ورجع الفرنج الذين مروا اولا ليأخذوا بثار اخوانهم لكن اختفى العدو عن اعينهم ولم يظهر له اثر

وقد فقد شرلمانيا فى هذه الواقعة السيئة المسماة واقعة رونسيو اجل اصحابه وهم ايجيهرد وكانت له الرياسة على الامرآء فى الجعيلات وانسلم وكان قونتية السراية ورولند الشهير وكان قونتية ثغر ابريطانيا وكان من اقارب الملك الا ان ارتباطه به من جهة الفخر كان اقوى من جهة النسب وسطوات هذا البطل قد نظمت فى اشعار تنشد فى زمن الحرب للتحريض على القتال مسماة باسمه ليتأسى بها العساكر وقد لعبت بها ألسنة الناس بسبب ما وشحت به من الخرافات التى ألفها رجل من اهل القرن الحادى عشر وسمى نفسه توربين كذبا وزورا وقد جعلها اريوست فى درجة الاشعار الحماسية المتعلقة بخرافات القرون المتوسطة

وعند وقوع النكبة اضطربت حكومة الدولة الكرلونجية من جهة جبال البرنات التى من ناحية اسبانيا واضطر كثير من العائلات الاسبانية الاسلامية الى الالتجاء فى فرنسا لينقذوا انفسهم من العقاب الذى يترتب على ارتباطهم بالحكومة الاجنبية التى هى حكومة الفرنج اوليتخلصوا مما حل ببلادهم السيئة البخت من الذل والمسكنة فمن ثم كان ما عاقب به شرلمانيا لوب دوق الغسكونيين على خيانته قد بلغ من الشدة والقسوة مبلغا عظيما وان لم يحصل على الفور فانه

لماقبض على لوب المذكور وقتل قتلة الاشرار جزآءله على ذنب تخليه عن شرلمانيا
لانه كان خاليا عن التبصر وقد عومل بهذه المعاملة ايضا ولده ادلريق (سنة ٨١٢)
لانه كان خائنا كابيه

ثم ان غزوة اسبانيا وان لم يترتب عليها ما كان يؤمل منها من النتائج الا انها
لم تكن خالية عن النفع لفرنسا فان البلاد التى بين نهر ابرة وجبال البرنات
دخل منها تحت حماية شرلمانيا ما كان يحكمه المسلمون ودخل تحت حكمه
ما كان يحكمه القونتات

وقد كان ابن العربى وابو طاهر وابن يوسف اعطوا شرلمانيا رهائن عزيزة
عليهم ليستوثق بها على انقياد مدينة هيويسكه وياكه وجيرونة وغيرها من
المدآئن واما مدينة بمبلونة فان اسوارها التى كانت تقيها من تعدى البسكية
تهدمت ولا يدرى هل حكم مدينة برسلونة من ذلك الوقت حاكم من الفرنج
وانما يعلم انها صارت قاعدة لاقليم غوطيا وهو اقليم يشتمل على بلاد قطالونيا
ورسليون واما بلاد اراغون ونوار وبلاد البسكية فهى كناية عن اقليم
غسكونيا ومن المعلوم ان قاعدته مدينة بمبلونة وكان لدوقات هذه الاقاليم
التى هى ثغور لغيرها وكذلك لقونتاتها الكبار الرياسة على قونتات المدآئن
وامرآء المسلمين من حيث مراقبة سلوكهم وملاحظة افعالهم ومع ذلك فعدم ثبات
الغسكونيين واغارات العرب ومعاهداتهم التى لا يوثق بمثلها وتخلى قونتات الفرنج
عن شرلمانيا فيما بعد كل ذلك جعل حكمه على اقاليم الثغور باسبانيا مضطربا غير
ثابت بل ربما كان حكمه عليها بمجرد الاسم فقط

المدة الثانية من حرب السكسونيين من (سنة ٧٧٨) الى (سنة ٧٨٥)

وبينما كان شرلمانيا يحث السير قاصدا سواحل نهر الرين وكان قد قام عليها
الاعدآء ثانيا اذ بلغه فى مدينة اكسيره ان وتيكند وصل الى مدينة كبلنتز
واغار على فرنسا القديمة فكان ظهور هذا البطل بين السكسونيين موجبا
لنسيانهم ما وقع منهم فى بدربورن من العهود والمواثيق فقامت ملتهم بتمامها
من نهر ليبه الى نهر البه وشهرت السلاح واستعدت للقتال فدافعهم قبل
وصول شرلمانيا اليهم الفرنج الشرقيون والالمانيون وكانوا من اصدقائه الممتثلين
لاوامره حتى الجاؤهم الى داخل بلاد هيسة وانتصروا عليهم فى مدينة بادن فلاد
نصرة كان فيها لشرلمانيا فسحة نزل فيها بمدينة هرستال وجهز فيها تجهيزات
عظيمة بحيث يثبت بها الامر فى قتاله مع السكسونيين

فسار فى فصل الربيع (سنة ٧٧٩) قاصدا وتيكند فهزمه فى مدينة بوخلز

مصالحة هرهيم (سنة ٨٧٠)

فهرب عند الدانيمرقيين مختفيا عما كان يقع له من المنصور عقابا اوا كراما وجاء الى شرلمانيا القبائل الثلاثة السكسونية السيز لبينية فى محل يقال له مديفولى على نهر وزر لتطلب منه الصلح ثانيا وتمت المصالحة فى السنة التى بعد السنة المذكورة بمشورة هرهيم وطلب منهم فى هذه المرة وثائق اخرى غير التعميد ورهائن غير اولاد رؤسائهم ولاجل ان يحمل الملة تمامها على الانقياد اليه الزم جما غفيرا من الفرلنجية والليدية أن يتوطنوا امام نهر الرين ليستوثق منهم بذلك على انقياد اهالى بلادهم وكان اوغسطوس فى قديم الزمان وبروبوس بعده قد نقلا فى داخل سلطنتهما قبائل كاملة من السقمبريين وغيرهم من الفرنج بقصد اضعاف هؤلاء الحربيين المتعاهدين وقمعهم فسلك مسلكهما شرلمانيا حيث نقل عشرة آلاف من عائلات السكسونيين وفرقهم فى البلاد القفرة من بلجيكه وهلويسيا لكنه تجاوز الحد فى تدبير طرق الاحتراس والامن فانه زيادة عن كونه حرم السكسونيين من مجامعهم السياسية ومن قضاتهم وجعل عليهم قونتات من الفرنج وقسيسين من امناء الدين الذى اكرههم على اتباعه وزيادة عن كونه وضعهم بعد ذلك بسنوات تحت الرق والاستعباد بل الصواب ان يقال تحت سيف الشريعة السفاكة للدماء حيث ان من احكامها الحكم بالقتل على من يأبى التعميد ولا يصوم الاربعين حرمهم ايضا من التمتع باملاكهم التى توارثوها عن اسلافهم وتقاسم جميع بلادهم الاساقفة ورؤساء الاديار والقسوس بشرط ان يدعوا فيها للتنصر والتعميد ولا يؤخذ ذلك على ظاهره وانما المحقق الذى لا نزاع فيه ان هنالك اقاليم كاملة جعلت فى مرتبات كنائس الخوريين والاساقفة التى حدثت بالتدريج فى بلاد سكس من وقت مصالحة هرهيم قال مؤلف سيرة مارى منورك ان الغارسين مع كثرة غرسهم كانوا فى مبدء الامر قليلين ثم تكاثروا لما اضاف الملك الى ثمرات هذا الغرس اراضى زراعية انعاما منه على الغارسين انتهى (ومراده بالغارسين دعاة دين النصرانية وبغرسهم الدعاء الى الدين المذكور وبثمراته التنصر وبالملك شرلمانيا) ثم ان مارى ستورم وهو رئيس دير فلودة واول من احدث الكنائس فيما وراء نهر وزر وقلده شرلمانيا (سنة ٧٧٨) ادارة تلك البلاد لم تطل حياته حتى يرى ثمرات هذا الدين وبمجرد انعقاد المصالحة السابقة تنصب هرقبرت اسقفا على مدن مندن وهلدغرن وهلبرستاد وحظى رفيق مارى وليبروردو وكان شبحاهرما بالاسقفية التى حدثت فى مدينة وردان (سنة ٧٨٢) ولما دخل مارى واهاد بلاد وغموديا احدث اسقفية ابرية

(سنة ٧٨٧) فقد ذكر مؤلف سيرته ان قلوب السكسونيين القاسية اخذت فى اللين والرقة طوعا وكرها (وهذا كناية عن تنصرهم على يد المارى المذكور)
واما ماريليودجير فان شرلمانيا احدث له (سنة ٨٠٢) اسقفية منستر فى نظير دعائه للدين مدة خمس عشرة سنة فى اقليمى افريزة وسكس البحرية الذين ذهب اليهما فى ذلك الزمن تقريبا وكانت اسقفية هلدسهم واوسنبروك وپدربورن تكملة الاسقفيات الثمانية التى حدثت فى ذلك العصر وقد اكتسبت هذه البلاد الاسقفية من العظم ما صارت به فى اقرب وقت مدائن آهلة عامرة فكان الاساقفة يعقدون فيها جمعياتهم القسيسية والقونتات ايضا يعقدون بها مجالسهم وكان يتردد اليها الناس ليسمعوا كلام الله ويعطوا الاساقفة ما هو مقرر عليهم على اختلاف انواعه ويستبدلوا ما معهم من محصولات اراضيهم بثمرات الفنون والصنائع الغلية وكان يأتى اليها ايضا اولاد الاغنياء والطلبة الذين يريدون الدخول فى زمرة القسيسين ليتعلموا مبادى آداب ذلك العصر الخشنية وآدابا اخرى دينية اكمل من الاولى ولم يكن للتمدن الجرمانى اصل غير تعلم هذه المبادى الذى حدث بواسطة الفتوح والدعاء الى الدين غير انه لم يصل اليهم الا بفقد حريتهم واستقلالهم وقد ترتب على هذا الاصل فيما بعد مادة من المواد التى لا بد منها القوانين الالمانية وهى امارة القسيسين.
ولما صرف شرلمانيا جمعية هرهيم تقدم الى مصب نهرى البه وهورة ورتب هنالك امور السكسونيين والسلاويين الذين على الشاطئين ثم سافر الى ايطاليا

ما حصل (سنة ٧٨٢)

وقد ترتب على فتح بلاد السكسونيين ان الفرنج صاروا مجاورين لقبائل السلاويين الذين تكونت منهم فيما وراء الجرمانيين معاهدة ثانية متبربرة وكانوا متربصين حتى تأتى نوبتهم فيتغلبوا على جنوب اوروبا وكان منهم قبيلة التشيكية وقبيلة السرابية قد نزلتا بمواشيهم تلقاء نهر البه وكان منزل الثانية بين هذا النهر ونهر ساله فقصدوا تخريب بلاد تورنجه ووستفاليا فاغتنموا فى ذلك فرصة بعد شرلمانيا عن تلك البلاد لان غيبته كانت دائما تجعل الثغر الشمالى عرضة للخطر ولما كان يترآى ان للسكسونيين مصلحة كالفرنج فى مدافعة هؤلاء الباغين احضرهم الملك فى معسكر ليبرنغ وامر قونتات الفرنج ان يعطوهم السلاح لاجل المصلحة العامة ويجعلوا رؤساءهم منهم ولكن ما كان ينبغى له الوثوق بهذه الامة التى اساء معاملتها بجميع ما يمكن ان يفعله المنصور مع المغلوب من القساوة والشدة فانه افرط فى اساءتها وكانت قريبة عهد بها فلذلك تخلت عنه بل اتفق فى عصرنا هذا ان ذرية هذه الامة حولوا اسلحتهم

بغتة على حلفائهم لانهم كانوا يظلمونهم وربما كانت هذه الخيانة سببا في انحطاط الايمبراطورية ذات الشوكة القوية التي اسسها ملك جليل يعادل شرلمانيا (وهو نابليون) فكانت واقعة لبزيغ التي كانت مشؤومة على فرنسا في هذا العصر تضاهي بالكلية الواقعة التي اعقبها تخلي السكسونيين عن شرلمانيا في جبل سونتال وذلك انهم لما رأوا وتيكند قد ظهر بين صفوفهم اخذتهم الحمية على اوطانهم فهزموا الفرنج وكان قائد المهزومين ادلجيز حاجب الملك وجليون اميرالجيوش وورلاد قونتة السراية وكان هؤلاء الثلاثة الذين هم نواب شرلمانيا قد ارادوا ان يحوزوا فخر النصر لانفسهم فلم يتربصوا حتى يأتيهم القونتة تدريق وكان قد حدث السير من سواحل نهر الرين بجيش من الفرنج الريوريين فادركتهم المنية في المحل الذي كانوا يأملون حيازة الفخر به ومع ذلك فلم يتجاسر السكسونيون على مداومة القتال كما هو مقتضى نصرتهم لانه بمجرد ما حضر هنالك شرلمانيا استرد شوكته وجبر ما لحقهما من الخلل والظاهر ان الاهالي من السكسونيين لم يكن لهم دخل في تخلي الجيش السكسوني فانهم بادروا بالقيام عليه وسلموه لشرلمانيا حيث جاؤا الى معسكره بمدينة فردن ومعهم اكثر من اربعة آلاف اسارى فامر بهؤلاء الحربيين المجردين عن اسلحتهم المنتصر عليه فقتلهم اعدآؤهم الفرنج الذين كانوا غلبوهم قبل ذلك مع ما اشتهر عنه من الحلم والكرم ولولا ان مادحيه اعترفوا بهذه الفعلة الشنيعة لما صح التصديق بها فانظر الى ما انطوى عليه هذا المنصور مع القسوة وعدم الرأفة مع ما ذكره في حقه بعض المتملقين المسمى ايجنهرد من انه لم يقع منه ادنى قسوة ظلمية تفضي به الى اللوم

ما وقع من (سنة ٧٨٣) الى (سنة ٧٨٥)

وقد ترتب على قتل هؤلاء الاسارى خروج اهل تلك الجهة عن الطاعة واتسع ذلك حتى جاوز نهر وزر وتوغل في تلك المحال فاضطر شرلمانيا ان يبذل جميع مجهوده ويظهر ما امكنه من النشاط والمهارة ليقاوم هؤلاء الاعدآء الذين كانوا يغيرون عليه من سائر الجهات وقد حضر بنفسه في واقعتين احداهما بمدينة دتملد والاخرى كانت قريبا من مدينة اوسنبروق وكان له ولد يقال له كرلوس هزم السكسونيين على نهر ليبه وكان ذلك اول غزوة خرج اليها ومع هذا الظفر والنجاح لم تطمئن نفس الملك كل الاطمئنان بل رأى من الضروري انه يمكث مدة الشتاء بالاسلحة في بلاد الاعدآء على خلاف العادة لخربها ليوقع اهلها في القحط والمجاعة فلا يجدون سبيلا الا الانقياد والطاعة وفي فصل الربيع من (سنة ٧٨٥) دخل اقليم بردنغو وبلغه في مدينة بردنويك (لنبرغ القديمة) ان وتيكند واخاه البيون لم يزالا

يجمعان عساكر على الشاطئ الايمن من نهر البه فراسلهما فى شأن الصلح وقد كان هذان المحاميان عن حرية السكسونيين اللذان لا يكلان ولا يملان ايسا من وطنهما فقبلا ما بعثه اليهما شرلمانيا من الرهائن ليذهبا اليه ويتذاكرا معه فى هذا الشأن فالتى وتيكند اليه فى مدينة بردنويك وهى اول محل تلاقيا فيه ثم ذهب منها الى فرنسا ومعه تذكرة الطريق وتنصر ومسح بماء المعمودية فى مدينة اتينى بحضور محفل عظيم وقد انتهى فخر هذا البطل من يومئذ وانقطع ذكره من التاريخ
وذكر من يوثق به من كتاب الوقائع السنوية فى ذلك العصر ان جميع بلاد سكس فى ذلك الوقت دخلت تحت الطاعة انتهى ولكن القبيلة النردلبنجية المسماة ايضا بالسكسونيين السيزلبينيين كانت باقية على استقلالها ولم تقع المصالحة بينهما وبين شرلمانيا الابعد ان غزاها غزوات عديدة بقدر ما غزاه فى فتح مملكة سكس بتمامها
ثم انه فى الوقت الذى اتسعت فيه سلطنة الفرنج بهذا القطر الذى اريق فى فتحه دماء كثيرة اشرفت اقاليمها القديمة على ان تنفصل منها وذلك ان قونتة من طورنجة يسمى هرزادة عصب عصبة كبيرة كان من فروعها بلاد طورنجة وجزء من اوستراسيا وكان من اربابها بعض قونتات وعدة كبيرة من العمال اصحاب الاقطاعات فتحالفوا جميعا واقسموا انهم لابدان يستريحوا من الملك بقتله او يخرجوا من حكومته ولم يبين المؤرخون هل كان قصد هذه العصبة السرية الشبيهة بعصبة (سنة ١٨١٣) المسماة توجنبوند مجرد اخراج جرمانيا من حكومة الفرنج كما انفصلت قبل ذلك بقرون عن مملكة نستريا او الانتقام لولدى كرلومان وكانوا قد تواطأوا على انهم يقومون على الفرنج حين يغير على مملكتهم الابريطانيون والعرب واللنبرديون البنفيوانيون واليونان والبواريون والاواريون وهل كانت هذه العصبة متفقة مع هؤلاء الامم على ان يقوموا جميعا فى آن واحد لم ينص مؤرخو الرهبان على ذلك لجهلهم به حيث انهم كانوا يكتبون التاريخ فى خلواتهم ونحن كذلك لا نعلم الجواب فى تلك المسئلة ولكن حيث ان عصرنا كثر فيه قيام الملل والتعصبات السرية التى كاد يساعد بعضها بعضا فلا يبعد ان يقال بحصول الاتفاق فى ذلك العصر الذى كان لاهله معرفة بالقيام والخروج اكثر مما يظن فيهم
وذكر مؤرخ من بلدة سنغنازير ان رئيس العصبة حرض الاهالى على القيام لئلا يكره على تسليم ابنته لفرنجى كان قد عقد عليها بموجب الشريعة السالية وهذا مما يدل على ان شرائع الفرنج كانت مبغوضة عند الامم المجتمعة تحت الحكومة الفرنجية حيث

كانت

كانت سببا ووسيلة للقيام والخروج عن الطاعة ثم ان شرلمانيا بلغه خبر هذه العصبة في وقت يمكنه فيه التأهب فبعث جيشا الى بلاد طورنجة لينتقم منها في نظير هذا التعصب فجاؤا له بمن كانوا سببا في التحزب واحضروهم بين يديه فلم يمكنهم ان ينكروا ما كانوا عازمين عليه من قتله فنفاهم في ايطاليا وفي ؤستريا او آكتينا مظهرا لهم ان مقصوده من ذلك ان يجددوا العهد والميثاق على الآثار المقدسة لتكون ايمانهم مغلظة وثيقة فمنهم من فقد بصره قبل ان يصل الى المحل المأمور بالتوجه اليه ومنهم من حكمت عليه مشورة وورم بالقتل فقتل وسلب من الجميع اقطاعاتهم واملاكهم التي توارثوها عن اسلافهم

وبعد انحلال هذه العصبة بعدة سنوات عرض لشرلمانيا من بعض عائلته ما هو اشد خطرا وذلك ان اميرا من اولاده متولدا من غير نكاح شرعي وكان مشهورا بانه ولد طبيعي له وكان يقال له بيبين ويلقب بالاحدب اغتاظ لما رأى انه قد عين لاخوته ممالك خصهم بها وهو محروم مما كان يأمله فعزم على قتله فكان ذلك سببا في تعجيل اليوم الذي ارسل فيه الى الدير ليحبس فيه وبذلك انقطعت اطماعه وحقوقه الباطلة

ما يتعلق بايطاليا من (سنه ٧٨٠) الى (سنة ٧٨٧)

وكما ان بلاد سكس شغلت قوة شرلمانيا وشجاعته بالقتال مدة من الزمان كذلك بلاد ايطاليا شغلت فكرته الشغالة وبراعته العجيبة بالتدبيرات السياسية وذلك ان مطاليب البابات قل ان تركته في راحة ولكن ما كان بيديه للبابا ادريان من الخدم لهذا الملك مكافأة له على انعامه ربما كان سببا في انقاذ ايطاليا من الخطر وقد كان الايمبراطور الذي في عصرنا (وهو نابليون) اعاد سلطنة شرلمانيا مع زيادة الرونق والبهجة مدة يسيرة فلما تشاجر مع البابا كان ذلك اول شيء اودى به الى الانحطاط والسقوط بخلاف فاتح القرن الثامن اعني شرلمانيا فانه صير البابات في ايامه يقاسمونه في العز والسعادة وربما كان ذلك سببا في تنحية هذه المصيبة عنه

وقد سبق ان البابا ادريان اطلع محاميه ذا الشوكة القوية اعني ملك الفرنج على تحزبات سرية وقد بلغه ايضا امور اخرى من هذا القبيل اطلع عليها بنباهته ومعاونة قسوس ايطاليا فمن ذلك ما اخبره به (سنة ٧٨٠) ان اليونان تعصبوا مع النابليين باغراء اريجيز واغاروا على مدينة تراسينة وان بين دوق بنيوان اعني اريجيز وبطريق بيسليا مراسلات سرية مستمرة الغرض منها تنجيز اغراض ادلجيز بن ديدية وترجى من الملك انه يبعث جنرالا من جنرالات الفرنج

وبأمره بجمع عساكر طوسكانة واسبوليته وكذلك بنيوان ليسترد مدينة تراسينة ويتغلب على مدينتي غايطة ونابلي لتعودالى مارى بطرس التزاماته التي ببلاد كبانيا فرأى شرلمانيا ان الامر يقتضي ان يذهب لذلك بنفسه فتوجه الى تلك الاماكن هذا وقدذكر كتاب الوقائع السنوية انه انماذهب الى رومة لمجرد الزيارة وذلك منهم محض تقليد لمعاصريهم فانه كان من دأبهم اخذ الاخبار قضية مسلمة من غير بحث ولا مناقشة

(سنة ٧٨١) وبعدان انهى شرلمانيا بعض مشاجرات كانت بين البابا ودوقات طوسكانة وصير ايطاليا آمنة مطمئنة عمد ولديه پيبين ولويز ونوجهما بتاج الملك وعين لهما ما فتحه من البلاد وابقى لولده البكرى المسمى كرلوس الاقاليم القديمة من مملكة الفرنج ولم يستشر الجمعية الملية في هذا التقسيم الذي وقع فيما اكتسبته هذه الدولة الحاكمة من البلاد حيث استقل برأيه وجعل پيبين ملكا على لنبرديا ولويز ملكا على اكتينيا ولا ينبغي ان يلام على هذه القسمة اذ كانت مما لابد عنه بل الاليق مدحه على ذلك حيث انه من باب التبصر والنظر في العواقب وذلك انه كان يجزم انه لابد من قسمة سلطنته بعده فقصل عنها في حياته ما كان من اجزائها غير متمكن تمكنها من غيران يتعرض بشئ لاقاليمها القديمة وبهذا التقسيم صار اللنبرديون ملة كما كانوا اولا وخفت كراهتهم للحكومة الاجنبية واما اكتينيا التي كانت مستقلة من عهد داغوبرت ومبغضة للسلسلة الفرنجية فانها وان صارت مستقلة في سياستها لكنها لم تخلص من سلطنة شرلمانيا وشوكته فان هؤلاء الاولاد الذين حظوا بالتاج الملوكي من ابيهم لم يكونوا في الحقيقة الانوابا عنه فقصد بذلك ان ينشأ اولاده بين الامم التي عينها للانقياد اليهم فيتطبعوا بطباعها وتزول كراهتها لهم وجعل پيبين في كفالة والا وهو حفيد كرلوس مرتيل وقبل بعد (سنة ٧٩٠) جعل لويز في كفالة غليوم العاقل وكان اولا في كفالة كرسون دوق طولوزة ووزير اكتينيا ثم نقله الى غليوم المذكور لكونه رأى من الاول عدم النجابة والمهارة حين قيام الغسكونيين

ولما كانت اكتينيا لم تزل بها آثار الدما ومن الحروب المهولة كانت اشد احتياجا من ايطاليا الى حاذق يحكم ادارتها ويجبر خللها وكان هنالك رجلان يميلان بالطبع الى ما فيه المصلحة العامة وفيهما اقتدار على تحصيل ذلك وهما مارى غليوم دوطولوزة ومارى بنوة دنيانه فتقاسما ادارة المملكة المذكورة من حيث السياسة والدين وكانا سببا في مدح شرلمانيا فيما بعد لملكهما الصغير على فطنته وتبصره مع صغر سنه

فاما

فاما الاول فقد جعل الهدء مستمرا فى تلك البلاد وعرف كيف يدافع العرب عن ثغورها واما الثانى فكان منوطا باصلاح الاديار التى كان الحرب اضر بها كثيرا فاصلح شأنها واقام جدرانها وبدل خرابها بالعمران واحدث بها معظم الترتيب الجديد وكان اعظم هذه الاديار دير اتيانه (سنتشنيان) حتى انه بالنسبة اليها كان كالقدوة تتبعه وتنسج على منواله واياك ان تلوم هذا الخبر على ذلك فقد سبق انه بعد خراب السلطنة الرومانية كانت الاديار المبنية فى وسط الصحارى منشأ لاحياء الموات واصلا حقيقيا لزراعة الاراضى وغرسها وكان ذلك فى عصر يستحسن اهله احداث محل للفنون والصنائع

ولم يصل الينا الا القليل من الاخبار التى حصلت بايطاليا فى سفرتى شرلمانيا الى تلك البلاد التى خلف الجبال (سنة ٧٨٠) و(سنة ٧٨٦) وكذلك الاسباب التى حملته على مجاوزة الجبال المذكورة اعنى جبال الالب مرة رابعة تكاد ان تكون كالاخبار المذكورة فى الجهالة حيث تعلل ظاهرا بان الحامل له على السفر الزيارة وترتيب امور ايطاليا وكان له تحت ذلك مقاصد اخرى اهم مما تعلل به وذلك انه لما قهر وتيكند امير السكسونيين ودخلوا تحت طاعته رأى انه حينئذ لا شاغل له من جهتهم بحيث يمكنه ان يحارب بعيدا عن سلطنته فعزم على ان يدخل تحت طاعته ما بقى من مملكة اللنبرديين القديمة وهو دوقية بنيوان فان دوقها اريجيز نقض العهد واظهر الاستقلال وتزيا بزى الملوك

ولما بلغ اريجيز مجيء شرلمانيا عقد الصلح مع النابليين وكان قد حاصر مدينتهم عقابا لهم على تعطيلهم اغراضه فى شأن مدينة املفى ومع هذه المصالحة لم يجسر على قتال الملك بل بادر بارسال ابنه رموالد الى رومة ليرد شرلمانيا عن تلك الغزوة والتزم انه يكون على مراده فى جميع الاشياء فلم يؤثر ذلك شيأ عند الملك لما ان البابا كان دائما يحذره من الوثوق به فانحط الرأى على ان الجيش يجتمع فى مدينة كابوة ويبتدأ القتال منها فلما دنا الفرنج من هذه المدينة ترك اريجيز دار اقامته وذهب الى مدينة سلرنة ليأمن بها حيث كان يطمع ان يأتيه فيها اعانة ومدد من البحر او يفر منها اذا اقتضى الحال ذلك ولكن شرلمانيا اجابه الى الصلح امام مدينة بنيوان بعد ان امتنع من ذلك فى رومة وصار اريجيز يدفع له الخراج واخذ وكلاء الملك عليه وعلى جميع رعيته العهود والمواثيق على الانقياد وعدم الخيانة وجعل ولده غرموالد رهينة على ذلك واصحبه باثنى عشر من اشراف اللنبرديين ذهبوا معه الى مدينة اكسيلاشبيلا التى هى دار اقامة الملك

وبمجرد خروج شرلمانيا من مدينة كاوة راجعا الى فرنسا ارسل دوق بنيوان الحية الى القيصر قسطنطين الخامس والاولى ان يقال الى امه ايرينة ليطلب دوقية نابلى ورتبة بطريقية سيسليا والامداد بجيش يقوده ادلجيز وواعده انه اذا وفى له بذلك بايعه بالسلطنة وحلق لحيته وتزيا بزى اليونان فاجابته ايرينة الى ذلك لانها كانت مغتاظة من ملك الفرنج لامتناعه ان يرسل الى ولدها بالقسطنطينية ابنته رترودة التى كان هذا القيصر الصغير قد خطبها لنفسه

ثم ان هذه الهمة الاخيرة التى حصلت من دولة القسطنطينية لاجل الملة اللنباردية وكذلك موافقة دوق بنيوان لادلجيز على مقاصده كان لهما ارتباط بالعصبة الكبيرة التى تعصبت على فرنسا لطمع ملكها الذى لو كان موجودا فى زمن الدول المتأخرة لوصفته بالطمع فى التفرد بالشوكة والتسلطن على جميع بلاد الدنيا وقد كان لاولاد ديدية وهم ادلجيز واختاه ادلبرجه ولوتبرجه مدخلية فيها حيث استمال ادلجيز اليها ايرينة ام القيصر قسطنطين الصغير وكذلك اختاه استمالتا اليها زوجيهما وهما دوقا بنيوان وباوية وكان احدهما وهو تاسيلون محالفا للاواريين خفية وربما كان محالفا للسكسونيين ايضا ولا يبعد ان ما وقع من الابريطانيين والعرب من الاغارات (سنة ٨٨٦) كان له مدخلية وارتباط بهذه العصبة الاوربية التى كان الغرض منها تدمير حكومة الفرنج وابادتها

فبعثت القيصرة ايرينة رسولين الى ايطاليا ليتذاكرا فى شأن ذلك مع امراء اللنبرديين فكان وصولهما اليها فى الوقت الذى هلك فيه اريجيز وولده رموالد وجاء حينئذ ادلجيز ونزل بثغر بنيوان لينتظر ويستعد لما سيحصل فاخبر البابا ادريان بذلك قسيس من مدينة كاوة واسقف من مدينة غايطة فبادر هو بتبليغه الى ملك الفرنج

العصبة التى تعصبت على شرلمانيا (سنة ٨٨٧)

وقد خالف شرلمانيا راى البابا المذكور فاطلق غرموالد وقلده دوقية بنيوان وشرط عليه أن يضع اسم الملك على اوامره ونقوده وان يهدم اسوار سلرنة واسرنزة وان يأمر جماعته اللنبرديين بحلق لحاهم وكان ذلك اهم الشروط حيث كان يامل انهم بفقد لحاهم يفقدون شرف ملتهم واستقلالهم

وبذلك سلك غرموالد فى السياسة غير مسلك ابيه وتداول نفسه بالاستقامة والتبصر وكان عمه ادلجيز قد تحالف مع البطريق تيودور واراد ان يجبره على ان ينضم اليه ويكون من حزبه فحاربه غرموالد وغزا جيش القيصر الذى معه

وقتل

وقتل عمه فى تلك الواقعة وبموته انقطعت آمال الننبرديين وكان ذلك (سنة ٧٨٨)
وكان شرلمانيا قد اقام على غرموالد من يلاحظه ويراقب افعاله وهو القونتة
وينجيز ليكون واثقا بامانته ومطمئنا من جهته فانضم هذا القونتة الى البنيوانيين
بعساكر دوق اسبوليته المسمى هلدبرند الذى قام مقامه القونتة المذكور بعد
ذلك بمدة يسيرة وقد زعم غرموالد فيما بعد ان المبايعة التى بايع بها شرلمانيا
لا تستلزم الانقياد لابنه بيبين الذى كان ملكا على ايطاليا وذلك انه لما صدرت
اليه اوامر بيبين المذكور كتب له كتابا يدل على شممه وشرف نفسه
واما تاسيلون دوق باويره فانه سلك مسلكا آخر افضى به الى السقوط والانحطاط
عن درجته حيث ان هذا الدوق هو رئيس سلسلة الاجيلولفنجية الجليلة دخل مع
التأسف والتحسر تحت حكومة هؤلاء الملوك الحادثين الذين حين شرع اسلافهم
فى اكتساب الشوكة والشهرة كان قد مضى على اسلافه مدة طويلة وهم على سرير
الدوقية وكان الهرستالية لا تظهر لهم شهرة بجانب شهرة العائلات الجرمانية
القديمة بل كانت محجوبة بها ثم كان يترآى من سياستهم المتوارثة ان قصدهم ابادة
تلك العائلات وتدميرها حتى انهم قبل خلع الدولة المروفنجية عن المنصب الملوكى
جردوا دوقى الالمانيين والفريزيين عن دوقيتهما وقد سبق قريبا انهم ادخلوا
السكسونيين فى حكومتهم فلاجل ان يدخلوا تحت طاعتهم سائر الملة التوتونية اى
الجرمانية بحيث تكون مع طائفة الفرنج الحاكمة لزمهم ان يدخلوا البواريين تحت
حكمهم وكان دوقهم تاسليون قد مهد لما لحقه من الانحطاط فيما بعد بتخليه
عن أعلام بيبين لبريف على سواحل نهر لوار وقد عرض نفسه للخطر فى ايام
شرلمانيا بعدم انقياده لحكومته حتى ان الملك لم يصفح عنه فى مشورة وورم
الابشفاعة البابا (سنة ٧٨١) ثم لما تحالف مع ادلجيز والهونيين على الخروج
على شرلمانيا تعذر عليه ان يخفى عنه ما اضمره له من الاضرار الا انه سكن غضبه
عليه فى هذه المرة بترجى البابا ايضا ورأى ان تهديده بالحرمان يكفى فى اقلاعه عما
هو عليه لكن لما امتنع رسل البواريين ان يعطوه رهائن يستوثق بها على طاعتهم
امر ولده بيبين ان يسير الى باويرة من وادى ظرنته وامر السكسونيين ان يهجموا
عليها من جهة الشمال وقاد هو الفرنج بنفسه ونزل بهم على سواحل نهر ليك
فحصل الرعب فيها لتاسليون وحضر عند الملك ليجدد معه المبايعة فبعد ان اعترف
بانه عامل للملك وقلده بالمنصب سلم له ولده تيودون رهينة على ذلك
وقد حضر تاسليون فى مشورة شندمايه التى انعقدت فى السنة التالية لذلك

ببلدة انجلهيم وتبعه من اصحابه من كان يعتقد امانتهم قاصدين بحضورهم خيانته والوشي به فاتهموه بانه تسبب فى اغارة الاوار بين باغرآء زوجته له على ذلك فحكمت المشورة بانه مذنب بالغدر والخيانة لكونه تخلى عن جيش الملك بيبين وحرض على الفرنج جميع الامم المجاورة لهم نصارى ووثنيين وحكمت عليه بالقتل غيرانه لما نزل عن منصبه بالسهولة خفف عنه فى العقوبة كما هو العادة عندهم فحكم عليه بالموت الحكمي فى دير وبضبط بلاد باورة لشرلمانيا (سنة ٧٨٨) فانظر كيف كانت عاقبة آخر العائلة الاجيلولفنجية حيث ذهب ليقضى بقية ايامه فى دير جيميجس محروما من التسلية بمعيشته بين اولاده لكون شرلمانيا فرقهم فى الاديار لسوء الظن بهم قال راهب سنتنازير هذا كله انما حصل لاجل فخر هذا الملك الجليل وشرفه وفضيحة اعدائه وخزيهم انتهى وبعد ذلك بسنوات كان من رياء شرلمانيا ان حمل جمعية اساقفة افرنكفورت على ان يقروا مسامحته لتاسليون التى اقتضاها حلمه وشفقته على شيخوخة هذا الدوق وهرمه ليكون الدوق المذكور متحققا بذلك شمول الرحمة الالهية له

وصارت باورة قونتية كاكتينا واقام فيها الملك مدة الشتاء لينجز ترتيبها الجديد مع السرعة ويأخذ فى راتيسبونة العهود والرهائن على الملة

وكان هنالك امر مهم يقتضى حضور الملك الى سواحل نهر دانوب وذلك انه بعد عزل تاسليون بايام قلائل ظهر معاهدوه من الاواريين على ثغر باورة وقصدوا السطوة على دوقية فريول فلم ينجحوا فى شئ من ذلك ولما كانت حدود بلاد الفريقين غير معينة وكان ذلك سببا فيما وقع بينهما من الفشل وربما كان يتولد عنه فى المستقبل الحرب والقتال تذاكر شرلمانيا مع هؤلاء المتبربرين فى شأن تعيين الحدود فاشتدت المنازعة بينهما فى ذلك وصار الحرب مما لا مفر عنه بعد ان كان شرلمانيا يريد اجتنابه وتدارك عواقبه الخطرة

حرب الاواريين من (سنة ٧٨٨) الى (سنة ٧٩٩)

فجهز ثلاثة جيوش ليحملوا جميعا على ايمبراطورية خاقان الاواريين اى سلطانهم وكان الجيش الاول من عساكر الفرنج يقوده الملك بنفسه وكان يدافع عن الشاطئ الايمن من نهر دانوب وكان الثانى من عساكر التورنجيين والسكسونيين والفريزيين يقوده تدريق ومجنفريد المسمى ايضا منفروة وكانوا يتتبعون الشاطئ الايسر وكان الثالث من عساكر اللنبرديين يقوده دوقا فريول وايسترية تحت حكم ملكى ايطاليا واكتينا وكان هذا الجيش هو الجناح الايمن ويمثل الضرب المذكور حصل منذ عشر ين سنة واقعة يقال لها واقعة وغرام شاهدنا فيها

هؤلاء

هؤلاء الامم باسمائهم لم تتغير قد توجهت الى قتال السلطنة التى صارت بدلا عن سلطنة الاواريين وهى سلطنة النمسا غيران المنصورين فى هذه الواقعة لم يكونوا الاشهرين حتى فتحوا بلاد النمسا مرة ثانية بخلاف اسلافهم فانهم لم يفتحوا تلك البلاد فى عهد شرلمانيا الا بعد محاربة طويلة ومقاومة شديدة

ثم ان الفرنج جاوزوا نهر انس وهو حد طبيعى للمملكتين اى مملكة الفرنج ومملكة الاواريين وتغلبوا على حصنى كمب وكمبرغ وساروا حتى وصلوا مدينة رعب وكانت موعد الاجتماع جيش اللنبرديين بالجيش الكبير اى جيش الفرنج غيران هؤلاء العساكر اصيبوا بمصيبتين اعظم هولا من اسلحة الاواريين وهما وبا اهلك جميع الخيول ومجاعة بلغت منهم كما قال بعض معاصريهم انها جبرت العساكر فى بعض الاحيان على ان اكلوا اللحم فى زمن الصيام فاقتضت الضرورة ان يرجعوا على اعقابهم ولم يفد تجهيز شرلمانيا الذى كان اعظم تجهيز انه الاضعف سلطنته واضطراب من حكمه من الامم المغلوبة وعدم ثباتها على الصدق والامانة له

وكان شرلمانيا عازما على ان يغزو الاواريين ثانية الا ان احتياجه الى زمن يجبر فيه ما لحقه من الخسارة فى الغزوة الاولى واضطراره الى منع السكسونيين عن القيام وما كان اهم من ذلك وهو احتياجه الى اخراج العرب الى ما وراء جبال البرنات كل ذلك كان سببا فى تأخر هذه الغزوة التى عزم عليها الى (سنة ٧٩٦) لكن لم يذهب فيها بنفسه وانما عين للشروع فيها هنريك دوق فريول وقونتات باويرة لان مصلحتهم فى حماية الثغر الشرقى كانت اهم من مصالح غيرهم من العمال ففتحت مقدمة الجيش الطريق الموصلة الى معسكر الاواريين المسمى بلسانهم رنغ وكان يقودها امير من السلاويين يقال له ووثمير وكان هذا المعسكر خلف نهر دانوب قريبا من القرية الملوكية التى كان اتيلا فى سابق الزمان جعلها دارا لاقامته ومما يدل على سرعة النجاح فى هذه الغزوة ما وقع بين الاواريين من الشقاق والفتن التى سفكت فيها دماء كثيرة وموت خاقانهم فى هذا الحرب الاهلى ثم ان ملك ايطاليا ذهب بمن معه من العساكر عقب ذهاب دوق فريول ونزل بالمعسكر السابق واخذ فيه المواثيق على خانات اى رؤساء هذه الملة المغلوبة وكتب يخبر اباه بانقضاء الحرب وقال فيه ما معناه حور فى رنغ وكان الاواريون كالسكسونيين ليس عندهم شئ من اخلاق اوروبا فلم يمكنهم ان يتعودوا على حكم المنصورين الا بموافقتهم فى الديانة فلذلك امر پيپين مارى ارنون اسقف سلستزبورغ ان يدعو تلك الامم المقيمة بالشاطئ الغربى من نهر داونب الى الدخول فى دين النصرانية

وبعد ان جهز هذا الفتى المنصور ما يستدعيه الفتوح من الامور اللازمة سافر الى اكسيلاشبيلا فعانقه والده وشهد له الناس بانه رئيس عظيم وقدم لابيه الخزائن التي جمعها الاواريون منذ قرنين بالسلب والنهب ووضعوها في كرسي بلادهم فاهدى الملك للبابا باكورة هذه الغنيمة وفرق الباقي على القسوس والامراء والعساكر

فهكذا كانت نهاية الفتوح الذي تعجب منه كثيرا اهل ذلك العصر فكم حصلت فيه وقائع وكم سفكت فيه دماء ويشهد لذلك في عصرنا هذا خلو بلاد بانونيا من السكان وتخرب دار اقامة الخاقان تخربا شنيعا بحيث لا يرى فيها اثر من المساكن وهلك فيه جميع اشراف الهونيين وانكسفت به شمس فخارهم وصارت اموالهم التي كانت متراكمة فوق بعضها منذ مدة طويلة غنيمة للمنصورين حتى انه ليس في محفوظة احد من الناس غزوة اتى منها الفرنج باموال اكثر من اموال هذه الواقعة

ثم ان الملة الاوارية التي هلك بعضها وتشتت البعض الاخر في جهات الارض صارت من هذا الوقت تحت حكم خاقان يدفع الخراج لملوك الفرنج واول من تقلد بهذا المنصب بعد الفتوح خان يسمى تودون حباه به شرلمانيا مكافأة له على مبادرته بالمجيء الى اكسيلاشبيلا لينتصر بها غير انه لما نقض العهد هزمه هنريك وقتله (سنة ٧٩٩) وممن قتل في هذه الواقعة جيرولد حاكم باويرة ودوق فريول بعد ان اخذ بثار جيرولد المذكور والذي قتله كمين من اهل تريستة اوفيومة وكانوا خارجين عن طاعة الفرنج وقد رثاه بولين شماس اكيليا بمرثية تأسف فيها على هذا البطل الذي كانت له شهرة عظيمة في الحرب والبراعة ودخل الاواريون ثانيا تحت حكم خاقانات من النصارى لم يكن لهم قدرة على حمايتهم بعد أن كان رؤساء هؤلاء الاقوام الهمل في سابق الزمان من اشد الناس سطوة وهيبة وقد بلغ من عجزهم ان حضر واحد منهم عند شرلمانيا يلتمس منه ماوى لقومه في جنوب نهر دانوب لينقذهم من شر البوهيميين وكان ذلك (سنة ٨٠٥) فاضطر الملك الى السعي في ذلك ليحمي الملة الاوارية من تعدي هذه القبيلة السلاوية (سنة ٨١١)

ومع ان حرب بانونيا اى بلاد الاواريين استدعى في مبدء الامر تجهيزات عظيمة واستعدادات جسيمة حتى ان شرلمانيا لم يعرض نفسه الى اخطاره المهولة الامرة واحدة دلت عاقبته على ان عدم اعتدال الفصول كان اكثر في حماية الاواريين من شجاعتهم وجميع الاثار التاريخية تدل على ان هذا الحرب لولا ما ترتب عليه من المشاغلات خصوصا مشاغلة السكسونيين لانتهى في اسرع وقت

المدة الثالثة من حرب السكسونيين من (سنة ٧٩٢) الى (سنة ٨٠٣)

ثم ان حرب السكسونيين المدة الاخيرة التي هي اقل رغبة من الاولين كان للسلاويين الذين على نهر البه فيها مدخلية تارة مع الفرنج وتارة عليهم وكان شرلمانيا قد تعاهد مع القبيلة الاوبترية التي ببلاد مقلنبرغ على ان يعينوه على السكسونيين الترنسلبينيين ويحميهم من اعدائهم فان الولزية او الولاتابية كثيرا ما كانوا ينغصون عليها وكانوا اقوى السلاويين البحريين المقيمين باقليم برندبرغ وبلاد بومبرانيا الغربية وكان شرلمانيا من (سنة ٧٨٩) قد دخل بلادهم حتى وصل مدينة والكوة واسر رئيسهم المسمى دراغوويت ثم اطلقه لما التزم له بالمبايعة غير انه لم يمكث على العمل بذلك مدة طويلة وكانت بلاد نهر البة قد تعكرت مدة من الزمان بسبب هذه الغزوة ثم حظيت بالهدء عدة سنوات

وبينما كان شرلمانيا واثقا وثوقا كليا بامانة السكسونيين ومستعد التسيير العساكر ثانيا الى بلاد بانونيا اذ بلغه ان فرقة من الفرنج كان يقودها تدريق قتلها في مدينة رسترنجان ببلاد فريزة كمين اعده لها السكسونيون فاضطر حينئذ ان يؤخر ما كان قد عزم عليه وتوجه الى الساحل الغربي ما كان قد جهزه لقتال الاوارين من العساكر فصارت مدينة فرنكفورت التي عقد فيها جمعية عظيمة مجمعا للاساقفة والكبار والعساكر فلما اطلع الملك نواب الملة ونواب الكنيسة على اغراضه توجه الى الوستفاليين الذين هم السكسونيون المذكورون وكان ابنه سائرا اليهم ايضا بصدد الاغارة عليهم من جهة بلاد فريز ولما لم يكن لهم طاقة على القتال بعد ما لحقهم من المصائب المتراكمة تركوا الحرب ورضوا بالطاعة والانقياد وكان ذلك في مدينة سنفلد اوسندة (سنة ٧٩٤) ومع ذلك امتنعوا ان يؤدوا ما فرض عليهم من العساكر التي امر بتجهيزها لقتال الاوارين بل بلغ شرلمانيا انهم قتلوا دوق الاوبترية الملقب ايضا بلقب كرول وكان الملك يومئذ بمدينة بردونويق ينتظر رؤساء السلاوبين لانه ارسل يطلبهم عنده فاشتد غضبه عليهم لكثرة ما وقع منهم من الغدر ونقض العهد فامر نوابه ان يخربوا مملكة سكس وعزم ان يمكث مدة الشتاء على نهر وزر فاصدابت الامر مع هذه الامة العاصية وحضر في معسكره ولداه ملكا ايطاليا واكتينا وتودون خان الاوارين وما بعثه الفونص ملك استرية من الرسل والهدايا ورسول ابن امية وكان اميرا مستقلا في موريطانيا فبذلك صار لهذا المعسكر منظر كمنظر الدواوين المبتهجة ذات الابهة والرونق وتكونت فيه مدينة سميت هرستال الجديدة وصار هذا الاسم اذا سمعه الانسان يتذكر به

(سنة ٧٩٨) شيئين اقامة الجيش بهذا المحل واصل العائلة الملوكية

ثم ان السكسونيين الترنسلبينيين قتلوا وكلاء الملك الذين ارسلهم ليجبوا الخراج من قطرهم قبل ان يبرح الجيش عن محله وقتلوا ايضا غودسكلك وكان قد بعثه الملك لقضاء غرض عند سيجفريد ملك الدانيمرقيين فبلغ الغضب من الملك منتهاه على هذه الافعال القظيعة لكن لما كان له مصالح اقتضت اقامته بسواحل نهر وزر لكونها اهم من ذلك بعث القونتة ابوريج الى الدوق تراسيكو وكان قريب عهد بالولاية على القبيلة الاوبترية ليتذاكر فى شأن الانتقام من السكسونيين فى نظير ما وقع منهم من المنقصة فى حق الملتين اى الفرنج والاوبترية فاغارت هذه القبيلة التى كانت صادقة فى محالفة الفرنج على اعداء هاتين الملتين فى مدينة سونتانة وقتلوا منهم اربعة آلاف جزاء لهم على تعديهم على الحقوق الملية ونقضهم للعهد وفى هذه المدة توغل شرلمانيا فى تلك البلاد حتى وصل مدينة مندن واوقع الفزع والرعب فيما حولها من الاقطار ثم رجع الى مدينة بدربورن وارسل ولده كرلوس الى نهر البه وكان كل من رؤساء الولزية والاوبترية قدامر وابالحضور هنالك ليحلفوا بين يديه على ان ينسوا ما بينهما من العداوة والبغضاء وحينئذ عاد الصلح من نهر الرين الى نهر اودير ومن البحر المحيط الى منابع نهر البه .

وقد اقتضى الحال ان تتفق اراء الملة السكسونية على مصالحة سكس وان تكون مبنية على رهائن ووثائق من الجانبين لتكون عمومية بتية وقد عرض ماهو اعظم من هذه المشارطة الجديرة بالحفظ وبقاء الذكر فاوجب تأخرها مدة ثم انتهى امرها فى مشورة سالتز (سنة ٨٠٣) وبها عاد للسكسونيين املاكهم وحظوا بحريتهم المدنية وقوانينهم الملية بشرط الانقياد للاساقفة ولقضاة الفرنج الذين يقلدهم الملك وعافاهم من الخراج ليمنع عنهم ظلم الجباة الذى طالما ضاقت منه انفسهم غير انهم استمروا على دفع العشر وان كان مبغوضا عندهم ايضا كالخراج فقد كتب الحكيم القوين الى الملك (سنة ٧٩٨) ما معناه انا مع نشأتنا وتربيتنا فى الدين القاثوليقى وتعلمنا منه لاندفع العشر من اموالنا مع سماح نفوسنا بذلك فكيف لا تشمئز منه نفوس اقوام حديثى عهد بهذا الدين ومن طبعهم البخل والشح ومع ذلك اقسم السكسونيون انهم لا يزالون على دين النصرانية والانقياد لشرلمانيا واولاده وسائر ذريته والذى حلف هذه الايمان هو رؤساء هذه الملة المغلوبة وكان الملك الفاتح قد استمالهم اليه بكرمه ولين جانبه فانه حين امر بتفريق عشرة آلاف من عائلات هولستان ووغمورديا فى البلاد الخربة من بلجيكة وهلويسيا انعم

على اخرين

على آخرين بحفالك عظيمة من بلاد الغلبة كما اعطى عساكره في بلاد سكس اموال من حكم عليهم بالقتل فكان في ذلك ترغيب المنصورين والمغلوبين في انضمام القطرين والملتين وكان هذا اول مرة عرف فيها فقراء السكسونيين كثرة محصولات بلاد الغلبة ذات الثروة وقد ذكر بعض شعراء السكسونيين ان من جملة خيرات هذه البلاد بعد اقتناء الذهب والملابس الفاخرة النبيذ اللذيذ الذي بلغ في الكثرة مبلغا عظيما ويؤثره اهل الشمال على اشربتهم الباردة

وليس في تاريخ حكومات ملوك الدولتين الاوليين اي المروبحية والكرلوبحية حكومة فيها شيء من الفخر الاولانقياد الابريطانيين دخل في جزء منه وينتج من ذلك انه لم يزل عنهم الاستقلال الاقليلا وكان پيپين قد فتح مدائن ثغورهم التي منها مدينة وان او وانس ويلزم انهم كانوا معتمدين على قوتهم حيث تجاسروا حين كان ولد پيپين المذكور في عنفوان عزه واقبال سعده على استرجاع هذه المدينة فانتهز شرلمانيا فرصة نقضهم للمشارطات القديمة ليأخذ في فتح ابريطانيا وينظم اهلها في سلك رعيته مع انهم متضررون من مجرد دفع الخراج اليه فبعث للملك السينشال اودولف الى بحيغزيرة ارموريقة اي ابريطانيا فدخلها (سنة ٧٨٦) وتغلب على كثير من حصونها التي في البطائح وغيرها من المحال التي يصعب الوصول اليها ثم ذهب الى مشورة وورمس ليرى الناس مشاهير من معه من الاسرى (ومعنى السينشال ضابط من العساكر له في بعض الاحوال رياسة فصل الدعاوى وله الرياسة ايضا على جمعية الاشراف عند انعقادها) ومع ذلك فلم تفتح ابريطانيا لانها لم تدخل في حكومة الفرنج بالكلية الا بعد اثنتي عشرة سنة من هذه الواقعة حين اغار عليها ثانيا جوي قونتة اقليم انجو بل زعم مؤرخ لواز بل انها لم تفتح كاملا في هذه المرة واظهر هذا القونتة المنصور ما معه من اسلحة اعيان رؤسائهم التي عليها اسماؤهم مع الاحتفال فاقتضت سياسة شرلمانيا ان يعيد امراءهم الى حكمهم والتزموا بالانقياد الى قوانينه ولكن لم يكن هذا الانقياد متمكنا كانقيادهم الاول فانهم بعد موت شرلمانيا تخلصوا من حكومة الفرنج ولم يمنعهم من ذلك ما سلف لهم من التخريبات التي وقعت في بلادهم من القونتة جوي عقابا لهم على عدم ثباتهم على الانقياد والطاعة

ثم ان فتوحات هذا الملك في جنوب جبال البرنات كان لها شبه بفتح ابريطانيا وذلك ان البسكية الاولترور اي المقيمين في اعلى الجبل تخلصوا من حكومة الفرنج بسبب واقعة رنسبو وآثروا الاستقلال مع الخطر على الدخول في حماية شرلمانيا وكان بسكية نوار قد دخلوا ثانيا في الحكومة الاسلامية فصارت پمپلونة منقادة

لاحد نواب خليفة قرطبة وكذلك برسلونة وكان يحكمها اذذاك الامير سعد
ومع ذلك فقوتات الفرنج الذين على الثغور حلوا بعض بلاد من اقليمي اراغون
وقتالونيا على مبايعة ملكهم ووقعت مدينة جيرونة تحت حكمهم
(سنة ٧٨٦) وكان ذلك من اهلها بالطوع والاختيار حيث فتحوا ابوابها لهم
بعد هزيمة الامير محمد

وكان بعض حكام المسلمين لم يزالوا على احترام حكومة شرلمانيا وكان اغلبهم لا يرضى
بالدخول فى حماية ملك الفرنج ولا فى حكومة الخليفة الاموى ولما كان هذان الملكان
مشغولين بمصالح اهم من ذلك تركا لنوابهما الاشتغال بما يدعيانه من الحقوق
وما بينهما من المشاجرات فى شأن هؤلاء المسلمين وقد انقطع هذا الهدء الظاهرى
لما صار للخليفة التصرف فى جميع القوى العسكرية فى الجزيرة اى اسبانيا
بانهزام ابن يوسف وقمع من كان يطمع فى الاستقلال وذلك انه فى ايام هشام الاول
الذى جلس على السرير بعد ابيه عبد الرحمن قام ابو عثمان وكان اكبر ولاة
والنسة وقمع الخارجين عن الطاعة من امراء سراغوسة وبرسلونة وتراغونة
وهويسكة وقهرهم على الانقياد ثم سار حتى وصل ثغر فرنسا وكان المسلمون
اذ ذاك يدعون الى الجهاد ويحرضون عليه فى جميع مساجد اسبانيا فتجهز منهم
جيشان لقتال نصارى استرية والغلية وكان يقود الجيش الاول عبد الواحد
فخرب بلاد استرغة ولوغو والثانى كان يقوده عبد الملك فاسترد به مدينة
جيرونة والجأ الى الجبال نصارى سلتبرية وجاوز جبال البرنات ليصنع مع
اهالى غوطيا واكتينا كما صنع مع هؤلاء وكان اهل جنوب الغلية اعنى اكتينا
معتمدين فى سلامتهم من هذا الخطر على معارف غليوم دوق طولوزة كفيل
ملكهم الصغير غيران العرب هزموه فى ولدينية (سنة ٧٩٣) وخربوا مدينة
نربونة وجميع بلاد سبطمانيا من غير معارض ولا مقاوم ومع ذلك فلم يجسر
المنصورون على ان يحثوا او ينتظروا حفيد كرلوس مرتيل اعنى شرلمانيا بل
رجعوا الى اسبانيا سائقين بين ايديهم كثيرا من الاسارى ومستصحبين معهم الخزائن
التى اعدوها لتتميم جامع قرطبة لكون عبد الرحمن بن معاوية مات
قبل اكماله

ولما مات ولده هشام اشتعلت نيران الحرب الداخلى فى اسبانيا فوجه ابنه
ابو العاص جميع قوى المملكة الى اعمامه الخارجين عليه واما الفرنج والاستريون
فانهم هرعوا من ثغر الشمال (سنة ٧٩٧) لخلوه يومئذ من العوائق وكان

القفنس لوشست اى الضعيف وهو ملك ايبادو قد شن الغارة حتى وصل لسبونة وارسل الى شرلمانيا باكورات غنائمه الكثيرة وكان يخبر عن نفسه انه خادمه وتابعه واما الفرنج فانهم استردوا فى اقرب وقت جيرونة ولريدة ويبولونه ولا شك ان سعدا امير برسلونة عرض نفسه للخطر بخروجه مع اخوة هشام فاتى الى اكسيلاشيلا ليعقد المعاهدة مع شرلمانيا على الطاعة والانقياد وتأسى به فى ذلك حاكم هويسكة وهو حسن خليفة بجلوق وابو طاهر حيث ارسل مفاتيح المدينة الى لويز ملك اكتينا وقد اراد هذا الملك ان يجعل ثغره فى الحماية والامن فبنى ما كان قد تخرب منه من مدينة اوسونة (ويك) وكسريس ومدن اخرى وسكنها اناس آخرون غير اهاليها الاول وانيطت حراستها بالقونتة بوريل

ولم يترتب على هذا النجاح الاعود الاسلحة الاسلامية المبددة الى فرنسا ثانيا وذلك ان ابا العاص عبر بنفسه جبال البرنات فصار لويز الضعيف مجبورا على قتال هذا الخليفة القوى فلم يمكنه مدافعته بل تخرب ثغره مرة ثانية لكن اسعف لويز المذكور ما وقع بين العرب من الفشل والشقاق وما كان حاصلا فى الاقاليم الجنوبية من بلاد الغلية من التجهيزات العظيمة فان ذلك حمل هذا المنصور السعيد على المبادرة الى الرجوع

وقد دافع الفرنج نائب الخليفة وهو الحاجب عبد الكريم فيما وراء جبال البرنات ووجدوا هنالك من يعينهم ويرشدهم ممن كان خارجا عليهم قبل ذلك حيث دلهم ابو الحجاج على الطريق حتى وصلهم الى مدينة تراغونة وطرطوزة وكان سعد قد نقض ما بينه وبين الفرنج من العهود والمواثيق حين كان معظم جيشهم يحاصر مدينة برسلونة لكن لما داخله الرعب والخوف من عقاب هذا النقض ذهب الى لويز فارسله اسيرا الى ابيه شرلمانيا ولا يدرى ما حصل له

ولما اراد عمر وهو من اقارب سعد ان يمنع الفرنج من التغلب على برسلونة بلغه ان الخليفة الذى يلزمه ان يساعده على ذلك لم يجسر على اجتياز نهر ابرة وان الدوق غليوم انضم الى روستنغ قونتة جيرونة وكان قائدا للجيش المحاصر لمدينة برسلونة فعند ذلك ايس من ان يدافع اكثر مما دافعه عن هذه المدينة التى ظهر بها الجدب والقحط من حصارها مدة سنتين

وكان اخذ هذه المدينة من الامور المهمة حتى ان الملك لويز دعاه نائبه غليوم (سنة ٨٠١) ليحوز فخر فتحها وكان من جملة ما شرط على المسلمين عند تسليمها انهم

مرخصون فى المهاجرة منهاوكان يمكن لويز ان يلزمهم بذلك نظرا الى مصلحته حيث امكنه بهذا الشرط ان يجعل برسلونة حصنا يقيه من المسلمين فقد رتب بها ترسانة للسفن الحربية وترك فيها كثيرا من المحافظين تحت رياسة القونتة بيرا وقد صادف هذا الاحتراس محلا حيث ان ابا العاص استرجع بعد ذلك بمدة يسيرة جميع المدن التى اخذت منه ماعدا برسلونة فانها بقيت مع الفرنج وقد تغلبوا ايضا على مدينة بمبلونة مرة ثانية بعد ان ادخلوا البسكية واهل نوار تحت طاعتهم (سنة ٨٠٦)

ولا يخفى ان بلاد سلتبريا انضمت فى ذلك الوقت الى سلطنة شرلمانيا وقد وقع منذ فتح برسلونة بين امير المؤمنين وسلطان المغرب الجديد مشارطات اكثر من الوقائع الحربية

الفصل الثالث

فى تولية شرلمانيا الامبراطورية من (سنة ٨٠٠) الى (سنة ٨١٤)

اعلم ان جدود البابات وحظوظ العائلة الهرستالية كانت مرتبطة ببعضها حسبما اقتضته الاحوال المتسلسلة العجيبة وذلك ان زيادة المراعاة من احد الجانبين وكثرة السخاء والكرم من الجانب الآخر تولد عنهما شوكتان جديدتان ترتب على مكثهما متحابتين ومتعادلتين مدة طويلة ان ظهر فى رومة صورة من حكومتها القديمة وتجدد فى اوروبا صورة السلطنة الرومانية

فقد كان من حزم البابا اغرغوار الثالث وتبصره انه جعل كرسى البابات تحت حماية كرلوس مرتيل بواسطة تقليده اياه منصب القنصلية على رومة ومهد البابا زكريا لبيبين طريقا الى المنصب الملوكى ومسح على جبينه البابا اسطفان الثانى بالزيت المقدس فكان ذلك اقرارا لذريته على المنصب المذكور وكان البابا ادريان يؤمل فى ولد بيبين اعنى شرلمانيا السخاء والاحسان فلذا جعل رتبته البطريقية قوية الشوكة بعد ان كانت ضعيفة مع ابيه وكذلك مع قلوبس واما خليفة هذا البابا وهو ليون الثالث فانه تمم هذا الجميل حيث جعل شرلمانيا امبراطورا اى سلطانا

وذلك ان البابا المذكور انتخبوه (سنة ٧٩٥) مكان البابا ادريان فبادر بارساله الى ملك الفرنج نظرا الى رتبته البطريقية بيرق الكنيسة الرومانية مصحوبا بكتاب مشحون بما يدل على المحبة والصداقة فوجد الملك فى ذلك ما يسليه على ما كان قاساه من الحزن على البابا ادريان الذى كان يحبه محبة عظيمة وبعث الى رومة العالم

انجلبير لحضر تنصيب هذا البابا ويجدد معه عهود الصداقة والمحبة التى كانت اصلا لما كان بينه وبين الفاضل ادريان من العلائق والارتباطات وطلب البابا الجديد من الملك ان يبقى على ما هو عليه من حمايته لكرسى البابات وترجاه الملك ايضا ان يبذل جهده فى جميع ما يراه لازما فى تمكين رتبته البطريقية وتقوية شوكتها لاجل حماية الكنيسة وكان انجلبير هو المتوسط بالمفاوضة مع البابا فى هذا المعنى ولا يدرى ما وقع فى هذه المفاوضة السرية على التفصيل وانما المحقق انه فى السنة التالية لسنة المفاوضة انقضى ما كان باقيا فى رومة من آثار سلطنة القياصرة المشرقيين وما المانع من ان عود السلطنة المغربية من نتائج المفاوضة المذكورة

وعلى كل فقد دلت العاقبة على كثرة احتياج البابا الى اعانة محاميه اعنى شرلمانيا وذلك انه بمجرد مضى اربع سنوات من انتخابه ظهر اثنان من اولاد اخى البابا ادريان يقال لاحدهما كمبلوس وكان على ذخائر الكنيسة وللاخر باشال وكان قريب عهد بالدخول فى الكنيسة الرومانية وصمما على قتل البابا ليون وكان معهما على هذا القصد جم غفير من العلائلات الشهيرة فى رومة وكان يظهر من حال هذه العصبة ان تحزبها على سلطنة الفرنج اشد منه على قتل البابا المذكور

(سنة ٧٩٩) فاتفق ذات يوم ان البابا ركب فرسه وذهب مع الاحتفال من سراية لتران قاصدا كنيسة سنت لوران فبينما هو سائر اذ هجم عليه جماعة من اهل العصبة وكانوا مأمورين بقطع لسانه واستئصاله وفقء عينيه لكن لم يفعلوا هذه القساوة تماما اما شفقة منهم عليه واما خوفا من الله تعالى بل جدعوه وسجنوه فى دير سنت سلوستر فلما علم ونجيز دوق اسبوليته بهذا الامر المحزن بادر بالاتيان الى رومة واخرجه من الدير المذكور وذهب به ليلا من هذه المدينة حتى وصل به دار اقامته فبعث البابا حينئذ يخبر شرلمانيا بامر هذه العصبة التى تجاسرت عليه ثم ذهب بنفسه اليه وكان الملك يومئذ عاقدا مشورة بدربورن فكانت هذه اول مرة ظهر فيها رئيس الكنيسة بين الجرمانيين الذين كانوا حديثى عهد بالتنصر ولم يكن الباعث له على المجىء عندهم تثبيت عقائدهم وتمكين دياناتهم التى كانت اذ ذاك غير متمكنة وانما كان ذلك ليزيد فى عظم فاتح سكس اعنى شرلمانيا فتلقاه الملك بالتشريفات التى يقتضيها مقامه المحترم امام هذه الامة التى كانت قريبة عهد بالدخول فى دين النصرانية فلم يمكث الامدة يسيرة حتى رجع الى رومة ومعه ثمانية من وكلاء الملك امرهم بحراسته واقامة دعواه مع المتعصبين الذين ارادوا قتله فدخل مدينة رومة مع الوكبة والاحتفال وتلقاه القسوس والاهالى وارباب مشورة السنت بالتهليل

والصياح فرحا بقدومه وكان حرسه من فرق عسكرية اجنبية لانهم من الفرنج والسكسونيين والفريزيين واللنباردبين الذين كان البابات يستخدمونهم على طرفهم اوبعثهم شرلمانيا الى رومة قبل وصول البابا اليها

ثم استعد الملك نفسه للسفر الى ايطاليا فبعدما جهز ما يلزم لحماية الثغور الشمالية وسواحل المحيط التي كان ينغص عليها يومئذ ارباب الصيال من السكندناو بين ذهب الى مدينة طورس ليتذاكر فيها مع الحكيم ألقوين الذى كان اعلم اهل عصره في امور هي بحسب الظن ما يشم من المكتوب الذى بعثه رئيس دير سنت مرتين وهو القوين المذكور الى تلميذه اعني الملك بعد ذلك بمدة ونصه انك تلومني أن آثرت على قباب رومة المذهبة بيوت طورس المسودة بالدخان الم تر المثل الذى قاله سليمان بن داود (عليهما السلام) مكث الانسان مع الهدء في ركن من البيت خير له من سكنى سراية مع امرأة شرسة الاخلاق فنحن قانعون بتلك البيوت المغبرة بالدخان لان رومة من حين تأسيسها لم تزل بها الفتن والشقاق فقد قاءتك من موطنك الجرماني اللطيف لتداويها من هذا الداء المهلك انتهى ومن المعلوم ان هذا المكتوب كان مصحوبا برسالة من اشعار ألقوين تدل على ان امنيته هدء رومة والكنيسة

ثم ان شرلمانيا سار الى رومة وان كان معلمه ألقوين راجعه في ذلك تبصرا منه او خوفا على تلميذه فوافق وصوله اليها دخول الشتاء الذى كان نهاية القرن الثامن وكان من اللازم ابقاء شرف البابا او تنفيذ اغراض الملك بت امر المشاجرة التي بين هذا البابا واعدائه قبل ان يشتغل شرلمانيا بشئ آخر فلذا بادر بعقد مجلس من الاساقفة والعوام من الفرنج والرومانيين لينظروا فيما كان يتهم به البابا من التهم التي لاعلم لنا بها وكان عقد هذا المجلس بالنظر لما تقتضيه شوكة رتبته البطريقية فتذكر الاساقفة انه في عهد قسطنطين الاكبر انعقدت جمعية من الاساقفة لينظروا في قضية البابا مرسلين حيث كان ايضا متهما بانه بذل همته في محاماة الاوثان فدعى ليحكم على نفسه بنفسه فاقتدى بهذه الجمعية اساقفة مجلس شرلمانيا وامتنعوا ان يفصلوا هذه الدعوى فاقسم ليون على الانجيل المقدس انه برئ مما اتهم به فظهر عند ذلك ان متهميه مذنبون بالنميمة والقتل فحكم عليهم بالموت لكن البابا اخذته الرأفة عليهم فتشفع فيهم فخفف عقابهم حيث حكم عليهم بالتغريب مدة حياتهم

وقبل ان تنتهي هذه القضية المهمة بيسير جاء عيد الفصح فعطل تتميمها واشتغل

الرومانيون

الرومانيون بامور اخرى وبينما كان شرلمانيا فى صلاة القداس شاغلا باله بالامور الدينية اذ اقبل عليه البابا ووضع على رأسه تاجا من الذهب قائلا باعلى صوته هو والقسوس والاهالى اللهم أدم وانصر شرلمانيا قيصر الرومانيين العظيم فانه يميل الى العدل والصلح فعند ذلك اظهر ملك الفرنج الحيرة والتعجب من هذا الامر مع انه بيته مع البابا وتواطئا عليه قبل ذلك قائلا لو كنت اعلم ان ذلك مقصود البابا لما اتيت الى الكنيسة وان كان تعظيم العيد يقتضى الحضور اليها ولام ليون على كونه لم يرث لحاله ولم يراع ضعفه حيث حمله عبأ ثقيلا وكلفه بواجبات يلزمه القيام بها ويسأل عنها بين يدى الله تعالى لكنه اقسم بالايمان المغلظة انه لا يزال يحمى الكنيسة الرومانية بقدر ما تقتضيه معارفه وشوكته وقد اصحب اللوم والحلف بالهدايا النفيسة والتحف الظريفة للبابا وتأسى به اولاده مع التنافس فى ذلك

قال بعض شعراء السلطنة المشرقية الذين يكتبون الوقائع السنوية ما معناه قد انحلت من هذا الوقت الروابط التى كانت تربط ما بين المدينتين اللتين هما قاعدتا السلطنة وفرق السيف بين البنت وامها على حين كانت البنت وهى رومة الجديدة فى ريعان شبابها وبهجة حسنها وجمالها والام وهى رومة القديمة مشوهة بتجعيدات وجهها وتكاميش بشرتها وهرمها وقال غيره من مؤرخى القسطنطينية ان رومة من هذا الوقت صارت تحت حكومة الفرنج وقد عاد لهذه المدينة التى كانت كرسى السلطنة الرومانية بعود سلطنة المغرب جزء من بهجتها الاولى ولكن صارت به عرضة لتقلب الاحوال كما كانت قديما وهذا الامر العظيم الذى حاز به ميراث القياصرة فاتح متبربر ترتب عليه فى العاجل اكثر من الآجل لطف احوال الامم الغربية ويمكن ان يعتبر انه غاية الغارة الجرمانية ومصالحة شرعية بين الملة الحاكمة ورعاياها الرومانيين وصار المنصورون والمغلوبون من يومئذ يتبادلون او يتشاركون فى حقوق الحكومة والدعاوى التى لا اصل لها فيما يتعلق بالامور الجسيمة

قال مسيو هلام ان تلقب شرلمانيا بلقب سلطان اكسب شوكته اعتبارا اكثر مما كان لها اولا لاستلزامه كثيرا من الدعاوى العريضة التى لا حد لها وحمله الفرنج على نسيان عادتهم من انتخاب ملوكهم ولما ادرك شرلمانيا عظم هذا اللقب ورأى انه انتظم فى سلك القياصرة جدد العهود والمواثيق على جميع رعيته ممن جاوز سنه اثنتى عشرة سنة على انهم لا يزالون على الامانة والصداقة

ثم ان انتخاب السلطان كان لا يلايم مصالح البابا الدنيوية وهو يحمل الانسان على ان يقول فى حق البابا الذى هو السبب فيه ان له اعتناء عظيما بمصالح الدين ومحبة

الوطن من غيران يكون له فى ذلك غرض نفسانى ومحل ذلك مالم نعتبر ان السبب فى الانتخاب هو ضرورة كف ذوى الشوكة من اعدآء هذا البابا بمدينة رومة ومنع رجوع حكومة القسطنطينية التى كان البابات غالبا ينكرونها ولا يعبأون بها

وقد زعموا ان البابا ليون عزم على امر يتعذر حصوله وهو ضم سلطنتى المشرق والمغرب الى بعضهما وكذلك كنيستاهما بواسطة تزويج شرلمانيا بايرينة التى كانت تحت القيصر لاون الرابع وهذه الواسطة التى سكت عنها المؤرخون وقعت فى شأنها المراسلة مدة اقامة شرلمانيا فى رومة وقد اثبت المؤلف تيوفان ان رسل البابا وملك الفرنج الذين بعثوا لهذا الغرض عرضوا النكاح على هذه السلطانة فلولا معارضة وزيرها آيسيوس حيث كان له فيه مصلحة لرضيت بما عرضوه عليها وهل كان شرلمانيا يجهل انها الاجل تمكين حكومتها المضطربة تسببت فى فقاء عينى ولدها قسطنطين الخامس الذى كان قد خطب لنفسه احدى بنات هذا الملك

وقال تيوفان عقب كلامه السابق ان امل شرلمانيا فى هذا النكاح عطله عن ان يغزو سيسليا وكانت مقتضيات الاحوال تستدعى ان يكون فتح هذه الجزيرة عقب فتح دوقية بنيوان التى كان غرموالد يدافع عنها مع النجاح ملك ايطاليا لكن رجع شرلمانيا عن هذا المقصد ايضا عملا بنصائح القوانين الحازم فانه كان يفزع كلما انتصر الملك وكان يرى ان اتساع السلطنة يؤدى الى انحطاطها وبذلك قطع شرلمانيا مطامعه فى الفتوحات واناط اولاده من هذا الوقت بحماية فتوحاته وتفرغ هو لتدبير ادارة ممالكه ولتدبير العلائق التى اراد ان يجعلها بينه وبين الدول الاجنبية ولم يشتغل بغير ذلك الا قليلا

الارساليات من (سنة ٨٠١) الى (سنة ٨٠٦)

ولم يظهر لمذاكرات رسله مع دولة المشرق ثمرة بل تولد عنها انحطاط ايرينة فانه قد يترتب فى بعض الاحيان على غرور الملل التى انحطت عن درجتها ما يترتب على ميل نفوس الامة ذات الشمم وشرف النفس وذلك ان اليونان كانوا يرون قبل ذلك ان من باب المذلة والنقص بالمقام كون امرأة تحكمهم وتجلس على سرير قياصرتهم ثم خافوا ان يصيروا رعية لملك متبربر وان كان منصورا اذا هو تزوج تلك المرأة فحرض بعض الطماعين الاهالى على القيام على ايرينة فاجلسوا على السرير نيسيفور ليغوتيت اى خازن دار السلطنة فعند ذلك ذهبت ايرينة الى دير تبكى على ما اصابها من هذه النكبة العظيمة وعلى الذنب الذى اقترفته ولم تحظ بثمرته وقد لحق

رسل الفرنج من هذا القيام الذى ترتب على حضورهم الى القسطنطينية شئ من الاساءة والايذاء فبادر نسيفور بجبر هذا الخلل توفية بحق ملك الفرنج واراد ان يجعل بين الدولتين القيصريتين علائق الصلح والمحبة فبعث رسلا الى شرلمانيا فقابلوه فى مشورة سلزة التى كان يأخذ فيها على الامم العهود والمواثيق على الانقياد والطاعة ويبايعها الملوك على السلطنة وناهيك بمراعاة دولة القسطنطينية له فان فى ذلك شرفا عظيما لسلطنته حيث لقبه خلفاء قسطنطين بلقب قيصر وتلقيبهم له بذلك اقرار منهم برتبته القيصرية غير انهم فى الغالب امتنعوا ان يتحفوا بهذا اللقب ذرية هذا الرجل العظيم

وكان من القوانين العامة عند اليونان انه يلزم اتخاذ الفرنج احبابا لا جيرانا ولم يكن فى وسع نسيفور ان يعمل بهذه النصيحة التى هى من حكمهم العامة حيث صار شرلمانيا من احبابه مدة وجاوره دائما وذلك ان مشارطة (سنة ٨٠٤) التى تعينت بها حدود السلطنتين كانت تتضمن ان بلاد ايسترية وليبورنيا ودلماسيه اودلماثيا من بلاد سلطنة المغرب وبعد ذلك بسنتين حضر بين يدى شرلمانيا دوقا البنادقة وزرى للمبايعه غيران البنادقيين لم يمكثوا على مبايعتهم الامدة يسيرة حيث ضيقوا على بطرق غرادو لانه كان يبذل همته فى مصلحة الفرنج واكرهوه على ان يهاجر من وطنه ويقيم بمدينة بولة فلما طالبهم بيبين ملك ايطاليا بالانقياد والطاعة على لسان ابيه اجابوه بقولهم انما نريد ان نكون رعية لقيصر المشرق فعند ذلك جهز عمارة سفن حربية ليدخلهم تحت الطاعة قهرا عنهم فلم تشعر هذه العمارة الا والعدو هجم عليها وبددها فى البحيرات

وكان اخذ اقليم دلماثيا موجبا آخر للمشاجرة بين القيصرين فقد بعث نسيفور (سنة ٨٠٦) البطريق نسيتاس على عمارة سفن حربية ليسترجع هذا الاقليم ولكن لم يترتب على هذه الغزوة الا عقد المهادنة بين رئيس العمارة المذكورة وملك ايطاليا (سنة ٨٠٧) ثم فسخها بولص والى جزيرة كفالونيا حيث تغلب على مينات دلماثيا ثم ذهب لحماية سفنه فى خلجان جزائر البنادقة فلما دافعه الفرنج حين اغار على مدينة كاشيو اراد ان يعقد المشارطة بينه وبين بيبين ملك ايطاليا ولكن منعه من ذلك منعا كليا دوقا البنادقة وهما اوبيلريو وبياتوس لانهما رأيا انه يترتب على هذه المشارطة تسليم جمهوريتهما للفرنج فعند ذلك صار بولص متصوبا حوله اشراك المكايد فرجع بسفنه الى كفالونيا وترك البنادقة لامعين لهم الا انفسهم فلم يستطيعوا مدافعة بيبين عن جزائر غرادو وهرقلة

وملاموقو واكيلقوم وانما الاجل ان ينقذوا من صولته مدن اوليوولو وترسيلو وكبرولة سكنوا غضبه بالتزامهم له دفع الخراج فى كل سنة ولم يقع له مثل هذا النجاح فى استرجاعه اقليم دلماتيا فان سفنه لم تجسر ان تنتظر عمارة سفن كفالونيا (سنة ٨١٠) بل استمر هذا الاقليم مع اليونان

وفى مدة هذه المشاجرة التى كانت بين السلطنتين فى جون البنادقة شرع الدولتان ثانيا فى المذاكرة لاجل بت الامر فى شان الشروط التى لم يكن انبت امرها فى المشارطة الاخيرة لكن لم يثبت هذا الصلح بوضع الامضاء عليه الا بعد موت نسيفور وبيين وذلك ان هيتون اسقف بالة بعثه شرلمانيا الى القسطنطينية مع هوج قونتة طورس واويلريو دوق البنادقة فارضوا مخاييل رغابه خليفة نسيفور بشروط الصلح التى عرضت عليه قبل ذلك وبعث هو ايضا البطريق ارسفيوس مرة ثانية الى اكسيلاشيلا فاخذ ورقة المشارطة من يد شرلمانيا وقد راى الملك ان ما ابداه له رسل اليونان فى مخاطباتهم حيث دعوه بالقيصر جابر لما فاته من البلاد التى تخلى عنها (سنة ٨١٢) لدولة القسطنطينية وهى مدينة البندقية ومدن اخرى لا تساويها فى العظم وهى ترو وزرى وسبلاترو وقد سبق فى الازل ان احوال هذه المدن تابعة لاحوال ولاة جون البنادقة

ولم تكن القسطنطينية بمفردها هى التى يأتى منها الى شرلمانيا دلائل فخره بل كان يأتيه ذلك ايضا من غيرها من بلاد المشرق فانه لديانته ورغبته فى اعمال البر اكتسب محبة الخليفة امير المؤمنين هارون الرشيد وذلك انه لما كانت جميع الكنائس اللاطينية تحت رياسته وحمايته طلب قبل ان يترقى الى رتبة القيصرية من الخليفة المذكور ان يكون زوار بيت المقدس من النصارى تحت كنفه وحمايته لان بلاد فلسطين كانت من اقاليمه وكان للخليفة شهرة عظيمة قرعت جميع الاسماع * وملأت من بلاد المشرق سائر البقاع وصارت بغداد التى هى دار اقامته اعظم كرسى فى آسيا ومن المعلوم ان النفوس الشريفة لابد ان يكون بينها ائتلاف المودة وكرم النفس وهو يظهر ويغلب على ما ينشأ عن اختلاف التربية والدين من الاوهام بحيث لا ينظر اليها مع وجود الائتلاف المذكور وهو ايضا ادعى من الاسباب السياسية الى ما كان يقع بين امير المؤمنين واعظم ملوك ابناء النصرانية من الملاطفة والبشاشة ومسارعة كل الى مرضاة صاحبه فقد ارسل الخليفة الى شرلمانيا مفاتيح مزار سيدنا عيسى عليه السلام ودعاه الى ان يعتبر هذا المزار من جملة حكومته وقد وافق وصول رسل الرشيد الى بلدة بوروونيرة مجئ رسل ابراهيم بن اغلب وهو امير من افريقة على القيروان وكان

اذ ذاك قد استقل عن دولة الخلفاء ببغداد فتلقى شرلمانيا رسل الاسلام فى اسفل جبال الالب وكان يومئذ راجعا من رومة وعلى راسه تاج القيصرية وامر ارشبلد وكان كاتب سره ان يهيئ فى مدينة برة سفنا لنقل ما وصل اليه من الخليفة والامير من الهدايا الى مينا قريبة من فرنسا وكان من هدايا الخليفة فيل تعجب منه الفرنج بقدر ما فزع عساكر اروميان من فيلة بيروس وساعة كبيرة دقاقة ذات عمل مصنوعة مع غاية الاتقان حتى ان تعجب من رآها من الفرنج يقضى بان فنون المشرق كانت فى ذلك العصر اعظم منها فى اوروبا وقرود من بلاد بنغالة وانواع عطريات من بلاد العرب وكانت هذه الهدية من غرائب آسيا واما امير القيروان فانه جرى فى هديته على ما هو العادة عند امراء تونس والجزائر الى الآن حيث اهدى اليه سبعا من بلاد مرمرية ودبا من بلاد نوميديا فكان صيادى العرب ابدلوا اهده صحارى افريقية بالاضطراب * وغيروا سكونها بالحركة والانقلاب * ليتبرحوا اصدر هذا الملك بحيوانايها النافرة * ويقروا عينه بمنظر وحوشها الكاسرة * وكانت افريقية يومئذ قد تسلطن عليها الجدب والقحط حتى ان شرلمانيا بعث الى ابراهيم المذكور سفنا موسوقة بسلع كان من عادة افريقية ان تبعث بها الى اوروبا

ثم ان شرلمانيا ارسل الى الخليفة ارسالية ثانية كانت سببا فى ان يظهر الخليفة المذكور آثار كرمه ثانيا ولا يدرى ما وقعت به المكافأة من آثار الفنون الاوروبية التى كانت اذ ذاك هينة لم تتسع دائرتها * قليلة نتيجتها وثمرتها * على هذه الهدية العظيمة * والتحفة السنية الجسيمة * التى قدم الشيخ عبد الله بها اليه * واحضرها بين يديه * وهى شمعدانات كبيرة من الذهب وخيام من نسيج الحرير وانواع من العطريات غير ان دولة اكسيلاشبيلا العسكرية لم تستغرب كما ينبغى هذه التحف الغريبة التى يزعم اهل هذه المدينة انه لم يزل بمدينتهم آثار منها ويمكن ان ما ابداه الرسل المشارقة للملك من تملقهم فى الثناء عليه ومدحهم لفخاره كان اشد تأثيرا فيه من الهدية فمن ذلك قول بعضهم له ايها السلطان قد شاع صيتك فى البلاد * واشتهرت بالشوكة بين العباد * وانت فى الواقع اجل مما هنالك * واعظم مما انتشر بين الممالك * فان الفرس واهل ادربيجان والهنود والايلامية وسائر المشرقيين يخافونك اكثر من اميرنا هارون واما اليونان فقد قصرت العبارة عن وصف رهبتهم منك وغاية ما يقال ان خوفهم منك اشد من خوفهم من امواج البحر اليونانى انتهى

(سنة ٨٠٧)

ولم يبين المؤرخون الغرض الباعث لملك آسيا اى الخليفة هارون الرشيد على مزيد تودده واعتنائه بملك نصرانى بينه وبينه مسافة بعيدة وانما اعتنوا بتقييدهم فى الوقائع السنوية بمجرد اوصاف الساعة التى جاءت لشرلمانيا من سواحل الدجلة اعنى بغداد دار الخلافة ولم يتعرضوا الذكر شىء من المقاصد السياسية المنطوية تحت دلائل المحبة لاحتمال جهلهم بها فمن ثم كانت عندنا فى حيز الجهالة وغاية ما رأوه فى هذا الشأن ان ذلك من باب احترام المسلمين لفخر ملك النصارى وخصاله الحميدة هذا ولنا ان نقول ان الرشيد كان له فى ذلك مصلحة عظيمة وهى دوام كراهة الفرنج لمسلمى اسبانيا الذين كان يعدهم العباسيون من الخوارج العصاة ولهذا المقتضى لزم هارون أن يجعل لهم اعداء يصدونهم عن مشروعاتهم فى شأن افريقية حيث فيها محبة الاستقلال اخذت تتمكن من قلوب الامراء حتى كان يظهر انها عما قليل تصل الى الديار المصرية

ولا يدرى الى اى حد وصل اليه تأثير ديوان بغداد فى سياسة شرلمانيا من جهة الاغراء على اسبانيا وانما المحقق ان قونتسات البرنات كادوا يكونون دائما فى القتال مع خليفة قرطبة وان ملك الفرنج ادخل فى حمايته عمروز امير سراغوسة وهويسكة (سنة ٨٠٩) وان الصلح الذى لم تطل مدته بين الملك المذكور وبين ابى العاص الحاكم لم ينعقد الا بعد ان هزم الامير عبد الرحمن عمروز المذكور (سنة ٨١٠) لانه كان خارجا عن طاعته

اخر حروب شرلمانيا من (سنة ٨٠٦) الى (سنة ٨١٢)

ثم ان اشهر المشارطات التى وقعت فى الشمال والجنوب ليست الا مجرد مهادنات قصيرة المدة حتى ان مصالحة سلز الشهيرة لم تقطع عرق المشاجرات والحروب وذلك ان جما غفيرا من السكسونيين ذهبوا الى يوتلند والجزائر القمبرية اوالى جزيرة سكندناوة فرارا من منة العفو بعد القدرة او خوفا من نفيهم مع عائلاتهم الى البلاد الاجنبية وعما قليل خرجوا منها حاملين اسلحتهم ومسمين باسم دانيمرقيين او نورمان وكذلك الثغر الشمالى من السلطنة ظهر به اعداء آخرون ولم يكن ما اخذ على السلاويين الترنسلبينية من المواثيق أاكد من مواثيق السكسونيين المتكررة بحيث يوثق بها اكثر من الاخرى وكانت القلاع المبنية قريبا من مصب نهر البه هينة بالنسبة لمدافعة الدانيمرقيين وكذلك قلاع مغدبورغ وهال فان حراستها لنهرى البه وساله لم تكن كافية مع انها صدت الولزية والسرابية عن اجتيازهما

وقد ترتب على فتح سكس واواريا وصول حدود السلطنة الى سلاويين آخرين وهم التشيكية او البوهيمية فاقتضى الحال محاربتهم لمنع صولتهم عن رعية شرلمانيا

الذين

الذين انقادوا له عن قريب فقاتلهم الامير كرلوس انتقاما منهم على السلب والنهب وانتصر عليهم نصرة هلك فيها دوقهم ليكو وكذلك مليدوق رئيس الولزية او السرابية حل به ما حل بالدوق المذكور ومع هذا النجاح بقى الهدو فى الشمال مضطربا غير ثابت

ولا يخفى ان ثغر البة كان يخشى عليه بالكلية من صولة الاجانب حيث امر شرلمانيا اهل الطرف المقابل لهذا الثغر من السلطنة بالاستعداد وحمل السلاح فالزم اصحاب الاقطاعات والاحرار من اكتيناابان يا توا شاكى السلاح الى سواحل نهر الرين متى للابان الجدب والقحط واقع فى بلاد الغلية واقتضت سياسته ان الفريزيين والسكسونيين يحملون اسلحتهم ايضا خشية ان يلحق الثغور الاخرى خطر

وكان الذى جلب هذا الفزع والانزعاج هو غودفريد بن اودين وكان اكبر ملوك سلسو يك ويوتلند وذلك ان هذا الملك الذى كان مبشرا بمن جاء بعده من الابطال مثل هستنغ ورولون يعنى ان ظهوره كان مقدمة لظهورهم شرع فى ان يسلب من الاوبترية اراضى السكسونيين النردلبجيين ويعيد فيها اصحابها القدماء فلما قرب من القبائل السلاوية قاموا على الفرنج ثانيا واما الاوبترية فانهم استمروا على الاستمسالك بالعهود والمواثيق التى اخذها الفرنج عليهم غيرانهم لم يستطيعوا مقاومة هؤلاء الاعداء الكثيرين مدة طويلة ومع ذلك فغودفريد ضعف حزبه بما فقده فلذا لم ينتظر قدوم الامير كرلوس بل عاد الى بلاده بعد ما خرب مينا ريريك على البحر المحيط ونقل الى سلسويك التجار الذين كانوا فى هذه المينا التى هى سوق اهل الشمال وفى هذا الوقت حصن برزخ قبريك بسور على امتداد نهر اودر من المحيط الى اوسترسلت اى البحر الشرقى واما الامير كرلوس فانه عاقب قبيلة اللينون وقبائل اخرى خرجت عن الطاعة ولكن الظاهر انه اضطر الى ان يجتاز ثانيا نهر البة وانه فقد فى اجتيازه خلقا كثيرين غيران تراسيكو دوق الاوبترية جبر ما لحق هذا الامير الذى كان معدا لوراثة السلطنة بعد ابيه من العار والفضيحة فى اكراهه على الرجوع وذلك ان هذا الدوق بمعاونة السكسونيين استرجع بلاده بعد ان خرب بلاد الولزية ونهب مدينة السملد نجية لكنه لما توغل جهة ثغر الدانيمرقيين هجم عليه جواسيس غودفريد فى ريريك وقتلوه وكان هذا الملك الشمالى يومئذ بينه وبين نواب شرلمانيا مذاكرة فى شأن الصلح وقد اظهر ما يدل على صدقه فى هذا الصلح اما لخوفه من عائلته او لكونه اراد ان يغتنم فرصة ينجز فيها مقاصده الجسيمة فانه كان

عازما على فتح بلاد جرمانيا بتمامها فكانت محالفته للسلاويين ورغبة السكسونيين فى تحصيل اغراضه واسطة فى فتح داخل تلك البلاد ومن يومئذ صارت بلاد فريز من جملة اقاليمه وقد سلبت سفنه اموالها (سنة ٨٠٨)
وقد اراد شرلمانيا ان يصده عن دخول الارض القارة فحصن قلعة هيبوكى (همبورغ) وامر باحداث مدينة افرنجية فى اقليم ايسيسفلد على نهر ستوريا اوستوره لكن ميتة غودفريد السيئة كانت سببا فى تراخيهم فى اشغال هذه المدينة اوفى تعطيلها حيث سعى هيمنغ خليفة غودفريد فى اكتساب محبة الفرنج فوقع الصلح بينهم (سنة ٨١١) على سواحل نهر اودر والذى تولى عقده بالايمان والاقسام اثنا عشر رجلا من مشاهير الملتين ومن وقتئذ صار لا يخشى من الدانيمرقيين الا من جهة البحر

الحرب البحرى من (سنة ٧٩٩) الى سنة ٨١٣)

ثم ان ظهور النورمان على سواحل المحيط لاسيما اغارتهم على بلاد فريز كان سببا فى تيقظ شرلمانيا لان يستعد لحماية اقاليم السواحل فجعل مدينتى غند وبولونيا ترسانات ومخازن اخشاب لتعمير سفنه الحربية فجدد فيهما دونمات من سفن صغيرة وجهزها لحفظ السواحل فذهبت لتمكث على افواه انهار جرمانيا وفرنسا ومع ذلك فهذه الاحتراسات كلها لم تطمئن بها نفس شرلمانيا الا قليلا بل وقع منه غير مرة فلتات لسانية تدل على امور محزنة تقع فى المستقبل كان قد احس بها واستشعر وقوعها ولا يخفى انه لم يبلغ من خوفه هذا ان خطر بباله ماوقع فيما بعد من ارباب الصيال الشماليين من التخريب فى جميع بلاد الغالية ولا حريقة اكسيلا شبيلا التى لازمها مدة شيخوخته وكان يرغب فى تزيينها وزخرفتها

ولم يكن الغرض من الحرب فى البحر المحيط الا مجرد حماية الشواطئ بخلافه فى البحر المتوسط فكان فيه اعظم جسارة ونجاحا ومن (سنة ٧٩٩) طلب اهل جزائر بليار المعاونة من الفرنج وحظوا بها منهم حيث اعانوهم على التخلص من حكومة خلفاء قرطبة وقد دلت تواريخ ذلك العصر على ان ارمنجار وهو قونتة من مدينة امبرياس دافع العرب عن جزيرة مايورقة (سنة ٨١٣) حيث هجم عليهم على حين غفلة ففقدوا بذلك ثمانى سفن وخمسمائة اسير والغنيمة التى كانوا قبل ذلك بيسير غنموها من جزيرتى قرسقة وسردينيا وليس عندنا الا القليل ايضا من تفاصيل فتح الفرنج الفتح الذى لم تطل مدته لهاتين الجزيرتين بل لا ندرى هل كانتا من حكومة قياصرة اليونان او امراء افريقية اوعادتا لما كانتا عليه اولا من الاستقلال

وانما كان

وانما كان مسلمو اسبانيا في اوائل القرن التاسع ينهبون سواحل سردينيا وقرسقة نهبا شديدا فارسل بيبين اليهما لاهمار قوتة جنويزة فهلك في بعض الوقائع واكتسب بورشارد ميراخور النصرة على المسلمين في البحر واخذ منهم ثلاث عشرة سفينة (سنة ٨٠٧) والاولى ان يقال ان الفرنج اطلعوا على هاتين الجزيرتين الكبيرتين وعرفوهما حق المعرفة دون ان يقال فتحوهما فقد صارتا عرضة لهجوم العرب عليهما ثانيا حيث لم يترك الفرنج فيهما محافظين يحامونهما ويذبون عنهما بل لم تسلم منهم الارض القارة من ايطاليا حيث نهبوا منها مدينتي تيسة وسنتسيل المسماة ايضا سوتيا وشيا* وكثرة اغاراتهم على سردينيا وقرسقة تدل على ان هاتين الجزيرتين لم يعترفا لهم بالسيادة اصلا وانفرادهما في البحر المتوسط يحملنا على ان نقول ان اهاليهما التجأوا بسبب هذه الاغارات في داخل الاراضي فعادوا لما كانوا عليه من الاخلاق الخشنية والغلظة والتكبر وقد رأينا التاريخ اهملهم مدة قرنين بحيث لم يتعرض لهم فيهما بشيء اصلا ثم وصفهم بالاخلاق المذكورة

وقد سبق لك ما يكشف الغطا عما اشتملت عليه هذه المدة الطويلة من الحروب التي كانت ناجحة في الاغلب والعصب التي مزقت كل ممزق والتحزبات التي بطلت وقد كان الغرض منها اقتبل الملك والمعاهدات التي حصلت مع الملل البعيدة والتغيرات السياسية العظيمة وهذه الامور المذكورة التي استغرقت نصف قرن تقريبا هي ما تألفت منه سيرة شرلمانيا ثم ان هذا الملك العظيم ضعفت قواه في آخر عمره بسبب شغل فكرته وتعب جسمه من كثرة الاسفار على الدوام فرأى من نفسه انه محتاج الى الراحة واراد ان يشرك معه رعيته في هذه الراحة التي جنح اليها في آخر امره مع ان عظمه واتساع حكومته اوقعا في قلبه الخوف والرعب حيث لم ير في اولاده من يقدر على القيام بحمل اعباء السلطنة التي كانت ثقيلة عليه فاقتضت سياسته ان هذه السلطنة تكفي ثلاثة ملوك وكان ذلك آتيا على طبق العوايد القديمة وملايما للمحبة الجبلية التي بين الاباء والابناء وكان اولاده ثلاثة وكانت سلطنته ايضا مركبة من ثلاثة اجزاء اصلية متعادية او متميزة عن بعضها اولها الفرنج الاصليون والذين دخلوا فيهم من قديم الزمان وثانيها رومان الغلية وثالثها الامة اللنبردية فعلى هذا تكون الانصباء معينة قبل ان تقع القسمة بالفعل وتقرها مشورة شندمايه التي انعقدت بمدينة تيونويلة (سنة ٨٠٦) وكان كل من ولديه لويز وبيبين قد باشر ادارة نصيبه قبل حصول الاقرار المذكور وحظيا من ابيهما بزيادة بلاد

انسعت بها ادارة حكومتهما وكان نصيب ولده كرلوس اوستراسيا ونستريا التين اضيف اليهما جميع البلاد التى بين نهرى السون والرون وكان جبل سنت برنارد هو نقطة تلاقى هذه الممالك الثلاث ولا فائدة فى تفصيل هذا التقسيم حيث لم يجر العمل عليه وان كانت الوثيقة المتضمنة له تعد من الآثار العظيمة بالنظر الى حقوق الكرلونجية فى المملكة وسننبه على بعض فصول منها عند الكلام على حكومة من تولى بعد شرلمانيا لانها تكشف القناع عن مسائل مهمة تاريخية

وانما لم يجر العمل على التقسيم المذكور لانه لمامات بيبين (سنة ٨١٠) وترك ولدا ومات اخوه كرلوس (سنة ٨١١) ولم يعقب ذرية ادى ذلك الى ترتيبات جديدة وذلك ان شرلمانيا امر بعقد مشورة العموم فى مدينة اكسيلا شبيلا لما ان رضاء الملة امر لا بد منه فى سائر ما يتعلق بوراثة المملكة من التدبيرات فتفاوض فيها مع الاساقفة والقونتات واعيان الفرنج على ان يولوا ولده لويز ملكا وقيصرا فانحطت آراؤهم جميعا على استحسان ذلك قائلين ان هذا الامر مناسب وافق لنه الامة وعلى هذا فشرلمانيا قد جعل ولده قيصرا معه برضاء الامة ولما وضع على رأسه تاجا من الذهب انتقلت اليه الرتبة القيصرية وارتفعت اصواتهم قائلين اللهم أدم القيصر لويز ومن العجيب ان شرلمانيا على ما فيه من الديانة ومراعاة القسوس لم يجعل لهم مدخلية فى تتويج ولده ولا شك انه قصد بذلك ان لا يكون لهم سلاطة على شئ من حقوقه فى المستقبل وهذه الحكمة هى عين التبصر والنظر فى العواقب وان كان لويز لم يدركها لضعف رأيه

ولو كان المنصب الملوكى وراثيا لورث برنارد ولد بيبين ما كان لوالده فى المملكة مما يكون فيها لاكبر العائلة لكن لم يكن الامر كذلك خصوصا وكانت وثيقة القسمة التى وقعت فى تيونويله قريبة العهد جدا بحيث لا يصح ان تمسك بها ويبنى حقوقه على نسبه ومع ذلك فشرلمانيا حمل المشورة على ان تبايعه بالتملك على ايطاليا واستمر والاحفيد كرلوس مرتيل على كفالة برنارد المذكور وتعليمه وتربيته والقيام بادارة مملكته بطريق النيابة عنه لقصوره

وقد امر شرلمانيا ايضا بعقد مشورة اكسيلا شبيلا لتتذاكر فى شأن تدبير الترتيبات القسيسية والاهلية وتهذيبها وتنظيمها وكان قد امر كنيسة فرنسا ان تتقدم له ما يتعلق بذلك بواسطة هذه الجمعيات القسيسية وهى جمعية ارلس وشالون وطورس ورمس وميفسه فظهر لهم امور مخلة اوجبت ان ينهوا

فيها

فيها الى الملك بواسطة خلاصات تشكو افيها من هذه الامور فوضع القرار الشرعى على تلك الخلاصات وامرت المشورة بوضعها فى دفترخانة السراية

ويمكن ان نعتبر ان هذه التدبيرات التى هى من باب التبصر والنظر فى العواقب هى آخر اعمال شرلمانيا فانه من حين احس بضعف بنيته ورأى انه صار لاقدرة له على تحمل المشاق الكبيرة بحث على الراحة بالاقامة فى اكسيلاشبيلا التى كان يميل الى مياهها وبرد ظلالها ورغب فى تزيينها بالآثار الظريفة ومات بها فى الثامن والعشرين من شهر ينوية (سنة ٨١٤) وله من العمر اثنتان وسبعون سنة وقد انقرض فى حياته اغلب عائلته وهم اولاده الثلاثة كرلوس واثنان كل يدعى پيپين وخمس زوجات وهى هيلتروده وديزيرة وهاديغردة وفستراده ولويتغردة وكلهن جرمانيات واعقب عدة بنات بعضهن من نكاح صحيح من امهات متعددة وبعضهن من الزنا ولم يتفق ان واحدة منهن اشهر نكاحها حتى روتروده التى كان خطبها قسطنطين الخامس وكانت احوالهن غير مرضية فنغص ذلك على شرلمانيا مدة شيخوخته

وكان هذا الملك يلقب بلقب كاد يستغرق مدة حياته كلها وهو مانوس ومعناه عظيم وقد امتزج بالاسم امتزاجا كليا بحيث لا يطلق احدهما الا مع صاحبه فيقال كرلوس مانوس وكان جديرا به لاتساع دائرة شوكته وذكاء قريحته وعظم شهامته الطبيعية وقد تقوت فيه هذه الخلال الجميلة بما انطبع عليه من سهولة الاخلاق العجيبة وان انخدشت ببعض افعال قاسية وقد فتح هذا الملك اوروبا واصلح بينها واخذ فى تنويرها بالعلوم والمعارف فهو احق بان يكون مقترح التمدن المتأخر غير انه لما كانت الوسايط فى هذا المعنى قليلة غير كافية وكان من شأن الحياة البشرية قصر المدة لم يحز هذا الفخر الذى لم ينله احد من البشر على الاستقلال وقد اوردنا لك ما شرع فيه بقصد توسيع سلطنته وينبغى ان نبحث الآن فى قوانينه عما صنعه ليحصل السعد لرعيته وعما عزم على تنجيزه لاجل الازمنة المستقبلة

الباب الثانى

فى ترتيبات شرلمانيا الاهلية والقسيسية والادبية

الفصل الاول

فى الادارة والقوانين

لا يخفى ان ما تركه پيپين لبريف من الميراث العظيم وكذلك فتوحات ولده تكونت منهما مملكة تكاد ان تضاهى فى الاتساع سلطنة المغرب القديمة اذا اضفنا اليها

البلاد الخراجية وذلك ان حدودها من جهة الجنوب نهر وولتورنة والبحر المتوسط ونهر البه ومن جهة المغرب المحيط الاطلنطيقي من جون غسكونيا الى مصب نهر اودر ومن جهة الشمال بحر بلطق ونهر اودير ومن جهة المشرق نهر التيس ونهير ساوة وجون البنادقة

وينبغي لك ان تميزاولا من بين هذه البلاد العظيمة الامتداد التي كان حاكمها يلقب بملك اوروبا فرنسا القديمة اى فرنسا الكبيرة التي هى مملكة الممالك كما سماها بذلك بعض اهل ذلك العصر وكانت تحتوى على البلاد الاصلية للامة * وثانيا فرنسا الجديدة التي هى كناية عن الفتوحات الاولية * وثالثا فتوحات شرلمانيا التي كانت منتظمة فى سلك مملكته بلا واسطة حيث كانت ادارتها كادارة الاقاليم القديمة * ورابعا الاقطار التي كان يسكنها الامم الذين كان وصفهم بالخراجيين اولى من وصفهم بكونهم رعية وكانت هذه الامم المتقادة التي كان معظمها سلاوى الاصل تشغل جميع البلاد التي بين نهرى البه واودير وجبال بوهيمه وجبال كربات ونهر دانوب ونهير التيس ونهر رعب ونهير ساوة وكانت لهم فى البلاد التي بجانب سلطنة الكرلونجية من بحر بطلق الى جون البنادقة معاهدة عظيمة عقدوها بقصد مدافعة هذه الدولة اوالهجوم عليها على حسب ما كان عليه خلفاء شرلمانيا من القوة بحيث يخشى هؤلاء الامم صولتهم اوالضعف بحيث لا يكون لهم هيبة عندهم

وكانت بلاد السلطنة المحكومة بلا واسطة كناية عن ممالك اوستراسيا ونستريا وبرغونيا واكتنيا وايطاليا وكان يدخل فى حدود هذه الممالك ما جاورها من الفتوحات مثل سكس وباويرة وايكزاركة راوينة ودوقية رومة ودوقية غوطيا وثغور اسبانيا وكانت كل مملكة تنقسم الى عدة ايالات وربما قيل لها دوقية وكانت كل ايالة تنقسم ايضا الى قونتيات كانت تبلغ عادة اثنى عشرة ولا يمكن ان نبين حالة السلطنة على هذا التقسيم بيانا صحيحا وانما يكون عندك المام بها اذا علمت ان امتداد اغلب الايالات والقونتيات مطابق لامتداد ابرشيات المطارنة والاساقفة اعنى اقاليم الرومان ومدآئنهم

وكانوا زيادة على هذا التقسيم الذى هو من باب الادارة يبينون اطيان الاقاليم تفصيلا بمعنى انهم يبينون نصيب كل انسان منها ومن المعلوم انهم كانوا يحفظون ذلك فى دفترخانات المدن وكانوا يعرفون مقدار جميع الاطيان المملوكة لاهل تلك الاقاليم بما يبلغه المقياس المسمى عندهم منس اومنوار من العدد والمنس يعدل اثنى عشر فدانا

وهذه القسمة وان لم تكن على ما ينبغى كانت واسطة للملك فى معرفة ثروة المملكة تقريبا ووقوفه على ما لكل انسان من العقارات تفصيلا
وقد اراد شرلمانيا ان يعرف ايضا عدد الاقطاعات التى كانت للاساقفة ورؤساء الاديار والقونتات واتباعه ومقداره مساحتها وكذلك الاراضى المديرية والالتزامات الملوكية فكتب لوكلائه يأمرهم بكتابة دفاتر ليعرف بها ماله فى كل ايالة
وكان قد حصل فى ايام الدولة المروفجية للقوانين الاولية التى لمملكة الفرنج بعض تغير كان تولده من تغير احوال الاهالى وارباب الحرف والصنايع اكثر من تولده من المنصب الملوكى حيث كان الملك لم يزل له الشوكة الملوكية بسائر ما يلزم لها من المزايا وان كان منصبه لم يزل انتخابيا ولشوكته حدود معلومة جرت العادة بحفظها ومراعاتها وربما كان يتعداها اذا حصلت له نصرة وكان من مزاياه العظيمة انه يقود الجيوش ويعقد مشاور العموم ويشهر القوانين ويقرها ويفصل هو او نائبه الدعاوى التى ترفع اليه وكذلك الدعاوى الجسيمة ويقلد الدوقات والقونتات بمناصبهم وينصب الاساقفة بعد انتخابهم ويضرب السكة بوضع صورته عليها ويفرق الاقطاعات الاهلية ويتصرف فى الالتزامات الملوكية كيف يشاء
وذكر المؤلف غيزوت ان الشوكة الملوكية فى الدولتين الاولى والثانية كانت حالتها كحالة حرية الرعية فكان يلحقهما ما يلحق الاخرى ولم يكن هناك وثائق من الجانبين يعتمد عليها فى حفظهما بل كانتا تابعتين لقوة الملك وعلو شانه ولما كان شرلمانيا نافذ الكلمة لا يجسر احد على معارضته فائقا فى البراعة والمهارة اكسب الملك قوة جديدة بعد ان كان انعشه ابوه من قبله
ويمكن ان يقال فى شأنه انه كان مطلق التصرف على ما تقتضيه الشرائع والقوانين والمصلحة العامة وكانت شوكته متكونة من حقوق المنصب الملوكى الجرمانى التى لم يكن لها حد تقف عنده ومن مزايا الحكومة الرومانية التى كانت لا حد لها ايضا وقد كانت الارستوقراطيا القرنجية فى زمن الدولة المروفجية استمالت اليها القدرة والحرية لاجل انحلال الحكومة واختلالها ثم صارت بالقهر والغلبة فى زمن شرلمانيا جارية على مقتضى الاصول المرعية والقواعد الشرعية واشتركت مع غيرها فى المصالح العامة ولكنها عما قليل انتقمت من ذرية هذا الملك العظيم وضاعفت لهم انواع الانتقام فى نظير ما سلكه شرلمانيا معهم من اذلالهم وتنفيذ امره عليهم

وقد اضاف الى حقائق السلطنة الابهة الظاهرية التى تزينها وتكون سندا لها فى بعض الاحيان ولما كان وصفه بكونه ملكا عظيما دون ما تقتضيه رفعة مقامه وعلو شأنه اراد ان يخص نفسه بالسذاجة ويزهد فيما عليه اهل ديوانه من الزينة والرفاهية وكان قد خص بالوظائف المتعبة من كان فى سرايته من الناس الكثيرين ذوى المناصب وقد شوهد فيها من اكابر الوزراء من يضاهى اعيان وزراء قياصرة الرومان لكن كانوا يخالفونهم فى الاسماء وقد بين لنا هنقمار القابهم ومزاياهم

فاستفدنا منه انه كان على طائفتى القسوس والاهالى رئيسان كبيران كل يعادل صاحبه يلقب احدهما وكيل الصدقات الكبير والاخر قونتة السراية وهو كناية عن الكتخدا فكانا زيادة على ما لهما من وظائف الديوان مقلدين بمنصب قضاء عظيم

وكان تحت حكم الاول جميع القسوس المنوطين بخدمة السراية وكانت وظائفه فيما يخص الدين والترتيبات القسيسية ومشاجرات القسوس والرهبان وكذلك ما يقدم للملك من العرضحالات المتعلقة بالامور الدينية

واما الثانى فكان له مزايا عديدة اعظمها ان له الحق فى ان ينهى الامر فى جميع المواد التى تعرض على الملك ليطلع عليها كالدعاوى التى ترفع اليه لاجل تحقيقها وكتأويل الشرائع اذا كانت متشابهة اولم تنص على شئ بمخالفة الشرائع الاهلية والاصول الدينية وسائر الامور التى يلزم الملك بتها وانهاؤها فاذا كانت معارفه اومعارف نوابه لا تكفى فى حل مشكلات المسائل المهمة فوض امرها للملك يعمل فيها بما يستحسنه رأيه

وكان تحت ادارته رئيس افندى وهو حامل ختم الملك الذى ال امره انه اخذ وظيفة الكتخدا وكانت وظيفته مجرد وضع الختم وارسال ما يصدر عن الملك من الاوامر فى شأن المواد القسيسية والاهلية

وكانت وظيفة الحاجب حفظ الزينة الملوكية والمحافظة على ابهة الديوان الظاهرية وتلقى الهدايا التى تأتى الى الملك من اتباعه اومن الاجنبية

وكان اسفرجى باشى الرياسة على متولى انواع الاشربة والميراخور وكان هؤلاء الرؤساء منوطين بتجهيز سائر المواد اللازمة لبيت الملك وكذلك بتجهيز ما يلزم من مواد المؤونة والنقلة اذا اراد الملك ان يسافر او يغير محل اقامته وكانوا فى هذه الحالة يأمرون مارشال السراية الكبير فيحصل لهم هذه المواد

ولم يستنكف هنقمار ان يذكر مع اعيان رؤساء السراية الاربعة المنوطين بالصيد

بالكلاب السلوقية و الصياد بالصقر الذين كانوا جميعا تحت اوامر والى الصيد والقنص فان المؤرخ لرغبته فى بيان اخلاق الامم لا يسعه ان يهمل مثل هؤلاء الوزرآء الذين يعدهم الملوك لاهوهم وحظوظهم ولم يكن القدماء يعرفون هؤلاء الوزرآء وان حافظت عليهم دول اوروبا المتأخرة وكانوا فى القرون الوسطى يتقاسمون انواع العظم التى او جبها لهم اشتغالهم بالصيد والقنص لجهل اهل تلك القرون بانواع التسليات الشريفة وكان شرلمانيا يميل الى الصيد ويرغب فيه كثيرا لكن لم يمنعه هذا اللهو عن الاشتغال بالامور النافعة

فقد كان لا يفارقه امناء سره الثلاثة وكانوا على غاية من الحزم والاعتبار وكانوا يتناوبون ملازمته والجلوس معه وكان كلما خطر بباله شئ يعود بالنفع على الدين او الدولة ليلا اونهارا قيده فى محفظته ثم يتذاكر فيه مع المشيرين الثلاثة المذكورين و بعد ذلك يطلع عليه مشورة العموم فاذا استقر رأيهم عليه سعى فى تنجيزه واجرآئه

ثم ان جمعية اساقفة فيس عرضت فيما بعد على كرلومان الثانى اصول شرلمانيا لينسج على منوالها فكان فيما عرضوه عليه انهم ذكروا جمعيتين تأسف قسوس فرانسا على تركهما وعدم العمل عليهما وبالجملة فعبارة هنقمار اوضح من ذلك فان هذا الحبر الذى قضى ايام شبوبيته بين اناس شاهدوا حوادث حكومة شرلمانيا الطويلة وبين اناس آخرين كان لهم نصيب فى تلك الحكومة لخص من كتاب رئيس الرهبان اديلهارد دوكوربى رسالة لتعليم كرلومان عبر فيها عن قوانين المملكة بمراعاة السراية وهذا نص عبارته

كان من العادة الجارية فى ذلك الزمان انه ينعقد فى كل سنة جمعيتان احداهما فى فصل الربيع وكانوا يرتبون فيها جميع الامور العامة التى تتعلق بالمملكة بتمامها وكان يحضرها جميع الكبار من القسوس والاهالى وكانت وظيفة اعظمهم درجة المسمين بلسانهم سنيور انهم يجمعون الآرآء ثم يبتون امرها ووظيفة من دونهم المسمين مينور انهم يتلقون ذلك منهم بالقبول وقد يتشاورون فيه ثم يقرونه بمجرد استقرار رأيهم عليه من غير ان ينطقوا فى شأنه بصيغة الحكم الصريحة

واما الجمعية الثانية فلم يكن يحضرها الا الاعيان الجمعية السابقة الذين هم سنيور وكذلك اعيان ارباب المشورة وكانوا يتذاكرون فى امور السنة الآتية والامور التى يمكن حصولها فى اواخر سنتهم ليحصل الاستعداد لها على الفور

وكان كل من الجمعيتين بموجب امر الملك يعرض على مشورة الاعيان فصول القانون المسماة كبيتولا التى كان يضعها الملك بطريق الالهام او باقتضاء الضرورة

حين انعقاد الجمعيات والمشاور فبعد أن يطلعوا عليها يتذاكرون فى شانها يوما او يومين او ثلاثة او اكثر على حسب اهميتها وكان هنالك رسل من السراية يأخذون اسئلتهم ويذهبون بها اليهم ثم يأتون اليهم باجوبتها ولا يدنو منهم اجنبى اصلا حتى تعرض خلاصة مشورتهم على الملك ومتى عرضت عليه وبت الامر فى شأنها اطاعه فيها جميع الناس

وفى مدة مذاكرتهم على هذا الوجه فى الفصول المذكورة من غير ان يكون الملك حاضرا بينهم يكون مشغولا فى وسط الناس المزدحمين الآتين الى مشورة العموم بتلقى الهدايا والتسليم على اكابر الناس ومحادثة من يراهم نادرا واظهار المودة للشيوخ الذين طعنوا فى السن والانبساط مع الشبان واذا احتاجت الجمعية الى حضوره ذهب اليها

ومما ينبغى التنبيه عليه انه اذا كان الزمن صحوا يكون جميع ذلك بمكان لاسقف له اوفى محال متفرقة يكون فيها اهل المشورة الذين يتذاكرون فيما عرضه الملك منفصلين عن الناس المزدحمين الآتين الى الجمعية

وكانت الاماكن المعدة لمشورة الاعيان منقسمة الى قسمين بحيث يجتمع الاساقفة ورؤساء الاديار والقسوس من غير ان يختلطوا باحد من العامة وكذلك القونتات وغيرهم من اعيان المملكة كانوا ينفصلون عن الزحمة من الصباح فبذلك كان يمكن للطائفتين ان يجتمعوا مع بعضهم او يمكث كل بمكانه على حسب ما تقتضيه الامور التى يتذاكرون فيها من كونها قسيسية او اهلية او مركبة منهما انتهى

وهنالك قانون وضع (سنة ٧٦٩) يدل على وجود الجمعيتين المذكورتين وهو ابين فى الدلالة مما قاله المؤرخون فى شأنهما وقد نص على انه يجب على كل انسان المواظبة على حضور جمعية الصيف وجمعية الخريف وكذلك غيرهما من الجمعيات التى يأمر الملك بعقدها عند اقتضاء الضرورة لكن ليس فى قوانين ذلك العصر ولا فى التواريخ ما يدل صراحة على تعيين اى صنف من الاهالى كان يحضر جمعيات شندمايه وانما ذكرت ازدحام الاهالى عليها والظاهر ان ذلك كان شرطا فى جعل ما استقرت عليه الآراء جاريا على الاصول الشرعية ومع ذلك فكان هؤلاء الاهالى يمكثون خارج محل الجمعية منعزلين عن اربابها غير انا لا ندرى ما صنف هؤلاء الاهالى المزدحمين ولا نعلم هل كان يرخص فى الحضور لكل انسان من الاهالى او كان حضور هؤلاء الناس الصامتين بصدد امر سياسى او لكون مقامهم يقتضى الحضور والظاهر ان القانون الذى عين فيه خليفة شرلمانيا عدد من يلزمه الحضور فى جمعية شندمايه

من الاحرار ودرجاتهم يمكن تطبيقه على جمعيات شرلمانيا وبموجب هذا القانون كان كل قونتة يلزمه عند ذهابه الى جمعية الملك ان يصطحب معه اثنى عشر رئيسا يلقبون ايشيوين او رشمبورغ وكانوا وكلاء عن طائفة الاحرار وكالة ليس فيها كبير نفع حيث كانت مدافعتهم عن مصالح موكليهم ضعيفة لانهم لم يكن لهم يد قوية فى المشاور العمومية

وعلى كل فحيث قلنا بحضور هؤلاء الرؤساء وعدة معينة من مشاهير الناس فى جمعيات شندمايه كلها لزم ضرورة ان الاهالى كان لهم نواب فى هذه الجمعيات وان تلك النيابة كانت بالانتخاب من بعض الوجوه حيث ان الرؤساء المذكورين ماداموا قضاة كان للاهالى مدخلية فى جعلهم من ارباب جمعيات الاخطلط فاذا قيل ان ادخال وكلاء الاهالى فى مشاور العموم لم يكن الا من احداث لويز الديبونير تفضلا منه قلنا لا شك ان قبله وبعده ايضا انتخاب الاهالى (اى غير الاشراف) هو اساس الجمعية التشريعية لان تعيين الاساقفة وترتيب وظائفهم انما كان يحصل عن آراء الاهالى فبهذا يصح أن يقال ان من الرتب الثلاث الموكلة عن الاهالى رتبة واحدة يعينها الملوك وهى رتبة القونتات والاتباع الخراجيين

وهنا سؤالان مشكلان جدا حتى ان ما يستقر به العقل فى الجواب عنهما مباين لسائر اقوال المؤرخين واغلب الحجج العمومية احدهما هل كان هناك جمعيات عمومية حقيقية * فان كان معنى هاتين الكلمتين اجتماع الاساقفة ورؤساء الرهبان والقونتات والامناء وجميع الرؤساء الذين بالامبراطورية الملقبين بلقب ايشيوين فلا يصح أن يقال ان جميع حكام الامبراطورية كانوا يكثرون الرحلة والانتقال باجتيازهم كل سنة جبال الالب اوالبرنات ليجتمعوا بالملك على سواحل نهر الموز اوالرين التى كان ينعقد فيها اغلب الجمعيات التى كان رئيسها شرلمانيا فان العقل والوقائع التاريخية اتفقت على ابطال هذا الرأى ومن المعلوم زيادة على ذلك ان هناك عدة جمعيات امر بعقدها ملكا ايطاليا واكتينا اللذان كانا منتظرين وراثة هاتين المملكتين بعد ابيهما وكان يطلق عليهما جمعيات عمومية كما كان يطلق على جمعيات شندمايه التى كانت تنعقد تحت رياسة ابيهما فاذن ينبغى ان يقال ان الجمعيات العمومية كانت دائما جزئية وان تسميتها بتلك انما هى باعتبار مجموع اربابها الذين كانوا يأتون لعقدها من القطر اوالايالة التى كانت تنعقد فيها جمعية شندمايه السنوية وينبغى ان يقال ايضا كما هو الظاهر انه اذا كانت هناك شرائع عمومية فليست الامن وضع جمعيات الملك

وحاصل السؤال الثانى انه حين كانت هذه الجمعيات تنعقد بحضور جميع ار بابها فما كانت درجتها بالنسبة الى القوة التشريعية * وهذه المسئلة ايضا لا تخلو عن مناقشات ومجادلات كثيرة لان عمليات هذه الجمعيات وحقوقها بالنسبة الى القوة المذكورة يعسر توضيحها ويصعب فهمها من اقوال المؤرخين المبهمة او المتناقضة بل ومن القوانين الملوكية المسماة كپيتولير غير ان الصورة التى كانت تستعمل لنشر القوانين والقاعدة الشهيرة التى اشهرها كرلوس الاصلع فيما بعد يحملان الانسان على أن يجزم بان الملة كان لها مدخلية لا بد منها فى القوة التشريعية وكان لا يصدر امر باستعداد احرار الملة للمدافعة عن البلاد الا برضاء مشورة الديته وزيادة عما كان لهذه المشورة فى القوة التشريعية من استحسانها لما كان يعرضه عليها الملك او عرضها عليه المواد التى كان يحط عليها رأيها وتسميها عريضات كى يقرها ويضع عليها علامة الصحة كان لها الحق ايضا فى تفسير القوانين المعمول بها وتكميل ما نقص منها وهذه المزية كانت ايضا معدودة من جملة المزايا الشرعية التى كانت دائما من خصوصيات جمعيات الملل الجرمانية وكان من اعظم تلك المزايا فصل الدعاوى الجسيمة وقضايا الخيانات الكبيرة وقد اقتضى مقام بعض اصحاب هذه الدعاوى أن صار فصلها من خصوصيات جمعية شندمايه ولنقتصر فى ذكر من حكمت عليه الجمعية المذكورة من الامرا فنقول قد سبق ان هذه الجمعية العظيمة حكمت على تاسليون دوق باويرة وعلى پيپين الاحدب وسيأتى لك قريبا انها فصلت دعوى برنارد ملك ايطاليا وپيپين الثانى الذى كان يطلب وراثة اكتينا

ونظن انه يكون عندك المام بشوكة وكلاء الاهالى على الصفة التى كانت لها فى عهد الدولة الكرلونجية اذا سلكنا فى ذكر موادها مسلك الاختصار مع التخلى عن الاغراض والاعتناء بتخلية المواد المذكورة عما كان لمشرعى القرن الاخير من الاغراض المختلفة التى بقيت بعدهم واذا سبرت القوانين الملوكية كلمة كلمة والفاظ كتاب الوقائع السنوية ظهر لك ان جميع الاهالى كان لهم دخل فى القوة التشريعية لكن اذا تنبهت الملاحظة ما قاله المعاصرون فى هذا المعنى وعرفت اشكال القوانين واقتصرت من ذلك على ما يقتضى العقل بامكان وقوعه عرفت ان الاهالى لم يكن لهم دخل فى التشريع مباشرة بل بواسطة عدة من مشاهيرهم الذين كانوا يأتون الى الجمعية مع القونتات والاحبار وان هؤلاء القونتات والاحبار الذين هم رؤساء طائفتى الاهالى والقسوس لم يكن لهم حق فى الجمعية سوى البحث عما يعرضه الملك ليصلحوه ويستحسنوه وكان للواحد منهم الحق ايضا فى ان يقدم للملك عريضات كما ان وكلاء

المملكة كانوا فيما بعد يقدمون اليه عريضات يتشكون فيها
فمن ذلك انه فى (سنة ٨٠٣) قدم الاهالى اعنى مشورة الاعيان عريضة يطلبون فيها معافاة القسوس من الخدم العسكرية وان تعود اليهم املاكهم التى سلبت منهم فاجابهم شرلمانيا بانه يعتنى بمطلوبهم ويعرضه للجمعية العمومية فان قبلته كتب على شكل الكبيتولير اى القوانين الملوكية فرضيت به الجمعية المذكورة بعد مراجعة نص الشريعة وكتب رضاها على صورة عريضة وقرئت ثلاث مرات مع الصياح والتهليل

ثم ان الخلاصات التى كانت تصدر من الجمعية ويوضع عليها اقرار الملك كانوا يسمون اغلبها كبيتولير وكانوا يسمون بالشرائع ما يضيفونه منها الى القوانين الملية القديمة ويجعلونه من جملة فصولها وكانت جميع القوانين الكرلونجية منقسمة الى ثلاثة اقسام قوانين دنيوية وقوانين دينية اوقسيسية وكبيتولير ولم يخطر لشرلمانيا أن يغير القوانين التى كان يعمل بها اهالى سلطنته على اختلافهم من مبدء فتوحاته فكانت القوانين الرومانية محترمة عند جميع الناس بحيث لم يتعرض لها احد منهم بنسخ ولا ابطال حتى فى اثناء اضطراب اغارات المتبربرين واستمرت على محاماة الغاليين والايطاليين من غيران يلحقها ادنى خلل وقد نص قانون كرلوس الاصلع على انه لم يقع من شرلمانيا ولا من اسلافه ادنى خدش للقوانين المذكورة لا بنسخ ولا بتخفيف بعض احكام منها ومن العجيب ان قوانين المغلوبين لم يزل يحترمها الفاتحون اكثر من شرائعهم

وقد وقع التخفيف والتلطيف من شرلمانيا باتفاقه مع وكلاء الاهالى للقوانين السالية والربوورية وقوانين اللنبرديين والبواريين لكن ظهر له ان الاصلاح المتنوع الذى وقع فى القوانين الجرمانية غير كاف وربما كان مخالفا ومناقضا لجملتها فمن ثم عزم بعد ان تقلد بالرتبة القيصرية حيث رأى لنفسه شوكة جديدة صار بها مطلق التصرف على ان يصلح فى القوانين اصلاحا عظيما كما نص على ذلك اعظم امناء سره غيران الزمان والهمة بل والمعارف على ما يظهر قصرت به عن تتميم هذا الغرض العظيم فقد قال اجنهارد انه لم يصنع شيأ سوى كونه اضاف الى القوانين القديمة بعض فصول ناقصة

فعلى ذلك لا يسوغ لنا ان نتحف شرلمانيا بلقب مشرع بل لم يلقب به من كان فى سرايته من المتملقين ولكن يكفيه فخرا كونه ادرك ضرورة تكميل قوانين ما فتحه من البلاد وفهم انه لابد من التوفيق بينها وهيأ مواد هذا العمل الصعب بكونه

اصلح فيها عدة اصلاحات جزئية متتالية وكونه رقى درجة هذا الاصلاح فى الوقت الذى اختفى فيه قوانين المملكة السياسية القديمة مع الاتقان و بالجملة فيجب على من اتى بعده من الاجيال ان يحمدوه و يشكروا صنيعه حيث انه فى خلال شدائد الاغارات التى كانت قريبة عهد بالتجدد ألزم السادات المتوحشين ارباب القسوة الشديدة بحفظ حرمة الانسانية من عبيدهم ووضع هذا القانون العظيم وهو لا يقتل احد الا بسيف الشريعة

وكان من عادتهم ان الخلاصات التى تصدر من جمعية شندمايه اذا قبلها الاهالى كلا او بعضا مع الصياح والتهليل يضع الملك امضاءه عليها وكذلك الامراء والاعيان ثم يعطى رئيس افندى نسخا منها لوكلاء الملك والمطارنة الذين كانوا متكفلين بنشرها فى الجمعيات الاقليمية وكانت هذه العادة تزداد عظما اذا اقتضى الحال اصلاحا فى القوانين القديمة فانه فى هذه الصورة يجب على القونتات والرؤساء المسمين ايشيوين عملا بما نص عليه بعض القوانين الملوكية المسماة كبيتولير أن يقروا هذا الاصلاح و يضعوا امضاءهم عليه و يرى عقب البنود التى اضيفت الى القانون السالى (سنة ٨٠٣) هذه العبارة وهى قد اعطيت هذه البنود للقونتة اسطفان ليشهرها فى الجمعية العمومية بمدينة باريس ويقرأها أمام الرؤساء المسمين ايشيوين فلما قرئت عليهم اعلنوا جميعا بانهم يريدون المحافظة عليها دائما ووضع كل من الرؤساء المذكورين والاساقفة ورؤساء الرهبان والقونتات امضاءهم فى اسفلها بايديهم انتهى ثم ان كلا من هؤلاء القونتات الذين كانوا حاضرين فى هذه الجمعية الاقليمية نقل نسخة من هذا القانون و بعد أن قرئت فى مجامعهم وفى المحال السلطانية وضعها فى دفترخانة بمدينته

ثم انه ينبغى لك أن تميز من قوانين شرلمانيا القوانين المكتوب عليها قوانين ابدية والقوانين الوقتية والقوانين المحلية و ينبغى ايضا ان تميز من الاولى ما عدا القانون السالى الذى طبع (سنة ٧٩٨) و بعض قوانين للامم المغلوبة دونها فى الكتب حسبما قاله ايجنهارد وذلك هو التغييرات المتنوعة التى حصلت منه على التوالى فى قوانين روتاريس واقلويس وتيبرى الاول وغندبود ثم انه بعد أن لبس تاج القيصرية حين مروره بمدينة ميلان اصلح قانون اللنبرديين ليكمل احكامه ولا يدع شيأ يعمل فيه القضاة بمقتضى اهوائهم و بعد ذلك ادخل فى قوانين الساليين والريوريين والبرغونيين احكاما قاسية اقتضتها كثرة الذنوب والجنايات وزاد فى الدية ولطف بعض تلطيفات فى قانون الخلافة غير المتوارثة وحظى العتقاء منه بجعله لهم الحق فى الوصية

ببعض

ببعض شروط لكن يظهر ان نفسه لم تنفر من جعل الدية كفارة لذنب الجناية ولم ينسخ من قوانين الجرمانيين الفاتحين ما كان فيها من التفرقة بين الدماء حيث نصت على ان دم الرومانى اقل فى الدية من دم السالى او الريبوري اما لكونه اى الملك لم يبلغ درجة كافية فى العدل والاستقامة اولانه لم يكن فيه جسارة على ذلك وهنالك سبب قوى اعتمد عليه شرلمانيا فى كونه رأى انه يتعذر عليه ان يثبت لقوانينه صفة العموم (بان يجعل العمل عليها فى سائر الاماكن) كما كانت الكنيسة تثبت ذلك لاحكامها الشرعية وذلك ان اختلاف الاجزاء التى كانت تتركب منها سلطنة الكرلونجيين منعته ان يسعى فى تنجيز هذا الغرض ومع ذلك فغلبة مقتضيات الاحوال استدعت بواسطة اجتماع الشوكة كلها فى يد واحدة ان الحقوق الارضية تحل على التدريج محل الحقوق الشخصية التى ترتبت على الاغارة فلم يتحقق العموم للقوانين السياسية بحيث يجرى العمل عليها فى جميع الاماكن ولم تنتقل الحقوق الاهلية من الامم على اختلافهم الى الاراضى الا بعد تمزيق سلطنة شرلمانيا حيث صار اهل كل مملكة من ممالك السلطنة المتمزقة من صنف واحد تقريبا

ولا ينبغى لاحد ان يعتقد ان قوانين الكرلونجيين تشتمل على ترتيب المواد والتنظيم البين اللذين اشتهرت بهما قوانين الرومان وكذلك قوانين الفرنساوية المتأخرة بل هى اعظم فى ذلك من القوانين الرومانية وذلك ان الامور المتنوعة والحكم العظيمة والنواهى الاكيدة والاصلاحات المهمة والاهتمامات الدينية كل هذه الاشياء شغلت فكرة الملك دفعة واحدة ووضع اغلبها فى قانون واحد من غير ترتيب ولا انتظام وهنالك جملة من قوانينه تشهد له بالاهتمام فى المصالح الدينية ومراعاة الرتبة القسيسية واجراء الادارة على ما يقتضيه العدل والانصاف وفى امن كل انسان على حقوقه الذاتية او المتعلقة بالغير

ثم ان ما حصل بعد ذلك بيسير من التقلبات التى غيرت حالة الاشخاص والاملاك ادركه هذا الملك العظيم قبل وقوعه حيث قال لوكلائه استفهموا عن سبب تتابع الدعاوى التى بواسطتها يامل كل انسان ان يكون له ما لقريبه من الاملاك وكان قد لمح ان طائفة الارستوقراطيين آخذة فى تقوية شوكتها كل يوم بافتياتها الذى كانت عاقبته استرقاق الاحرار والاستيلاء على املاكهم بل وعلى الاقطاعات التى اقطعها الملك لاتباعه مدة حياتهم مكافأة لهم على خدمتهم وفى بعض القوانين ما معناه ان الفقراء يتشكون من سلب املاكهم متهمين بذلك الاساقفة ورؤساء الرهبان ونوابهم وكذلك القونتات وحكام المات

وقد حصلت الشكوى ايضا من الرعايا في شأن كثرة الغرامة المسماة هربيان وكثرة الخصومات والسخر وغير ذلك من الخدم الشخصية التي كان يلزمهم بها القونتات الملتزمون انها كالحرمة الشرآ ثم حتى اذا افضى بهم ذلك الى الفاقة والمسكنة اضطروا الى التسليم في املاكهم وانفسهم لهؤلاء الملتزمين عسى ان يسلكوا في معاملتهم مسلكا اخف من الاول او يتفضلوا عليهم بمقاسمة خدمهم في البطالة فاراد شرلمانيا ان يكلف هؤلاء الملتزمين بمؤونة من افقروه او يمكنهم اقصاره من الناس حيث امران كل واحد منهم يطعم الصعاليك الذين ولدوا في اقطاعه وشدد في منع السؤال الذي يشوه الطوائف والامم فلما ربط هذا الملك الايدي عن ان تمد لطلب الاحسان منع بذلك هذه الصناعة الذميمة التي يستمد منها الكسل والبطالة وتفتح طريقا للتنقل والهيمان ولما نشر شرلمانيا على هؤلاء المظلومين لوآء عنايته وضرب عليهم سرادق حمايته حيث سلك معهم هذا السبيل وانقذهم مما كانوا فيه من الخطب الجليل كان في ذلك مراعاة لمصلحة المنصب الملوكي ونفاق سوق العدل * لكن مع ما صدر عنه في هذا الشأن من الاوامر الكثيرة واعانة بعض المجامع القسيسية للشوكة الملوكية ما زال الضرر آخذا في الازدياد من غير أن يعوقه عائق ومع هذا فلم يال الملوك جهدا في حماية الاهالي الذين ظلمهم الملتزمون فمن ذلك ان لويزلودوبنير لما اراد ان ينتصف لكثير من العائلات المتظلمين الذين جردهم عن املاكهم متقربد قونتة اورليانة وضع قانونا سوغ لهم فيه ان يعرضوا في الجمعية العمومية عريضاتهم التي لهم الحق فيها وهذا التسويغ انما كان حماية لا جدوى لها سمح بها الى هؤلاء الضعفاء فان المنصب الملوكي يومئذ كان قد تلاشت قوته حتى ان المحامين عن حقوق جميع الناس كانوا ايضا محتاجين الى الحماية

ثم ان هؤلاء القونتات والاتباع الخراجيين الذين افتاتوا على مواريث الفقرآء تجاسروا على الافتيات ايضا على المخلفات الملوكية ولم يكتفوا بما جعلوه لزراعة اراضيهم مما كان من خصوصيات الاقطاعات الملوكية كالزراعين وآلات الزراعة بل رأوا انهم يعطون تلك الاقطاعات الى اناس من الدرجة الثالثة (هي درجة غير القسوس والاشراف) ليشتروها منهم فيما بعد على انها اراض الودية (اي لا خراج عليها) وربما اوصوا بها لاولادهم مسمين لها بهذا الاسم الكاذب الذي غيرها عن اصلها فبذلك صارت الالتزامات الملوكية تتناقص على التدريج وكذلك الخدم التي كانت في نظير الانتفاع بالاراضي الملوكية فانها انقصت بنقصان الالتزامات المذكورة وبهذه الطريقة صار المنصب الملوكي مجردا عن التزاماته ومحصولاتها

وهذه الافتياتات التى تجاسروا عليها حتى بلغت الغاية وكان ينتج عنها نتائج رديئة مضرة كان يصحبها انواع اخرى من التعدى كثيرة فتفطن لها شرلمانيا واخذ فى تداركها والاحتراس منها وكان خوفه منها ناشئاله من تبصره ونظره فى العواقب كما يؤخذ ذلك من قانون نيمغة فقد نص على انه طلب من اهل المملكة ان يعاهدوه بعهود جديدة على الصداقة والامانة ومنع الاحرار ان تقع منهم معاهدة الا للملك اوللملتزمين الاصليين فى خصوص مايعود عليه بالمنفعة ونص ايضا على ان كل جماعة تعاهدت مع بعضها بالايمان يعدذلك منها خطرا وذنبا عظيما وكانت طائفة الارستوقراطية فى ذلك الوقت تتألف بالطرق التى جعلها الآن من كان يميل الى الجمهورية من معاصرينا واسطة فى معارضتها واضعاف شوكتها وما كان يقع خفية من الدسائس يدل على ان بذل الملك جهده فى الاحتراس من ارباب الشوكة والحكم كان امرا لابد منه فى الامن على المنصب الملوكى وسعادة الرعية وقد اناط شرلمانيا ملاحظة ذلك وضبطه بجماعة يقال لهم ميسى دومنيسى

وكان هذا الاسم يطلق على وكلاء الملك الذين كان منصبهم وهو الملاحظة من ترتيب اواخر قياصرة الرومان وحافظ عليه عدة من ملوك المرويجيين وكان هؤلاء الملاحظون لادارة عموم المملكة ينتخبون عادة من الاساقفة اورؤساء الرهبان والدوقات اوالقونتات ويجعل منهم فى كل اقليم او ايالة اثنان وكان اعظم مزاياهم فصل الدعاوى بانفسهم او تفويضها الضباط العموم الذين هم تحت ملاحظتهم وهم القونتات المدنية ويقال لهم اجرافيون والامراء المنوطون بحماية حقوق الكنائس ويقال لهم ابويه وحكام المات والرؤساء المسمون ايشيوين وكانوا لاجل ذلك يطوفون الايالة فى السنة اربع مرات فى شهر ينويه وابريل ويوليه واقطوبر وكانوا يعقدون جمعيات يقال لها بليد (پلاسيته) وكانت كالجمعيات الكبيرة المسماة ديته تتألف من الاساقفة ورؤساء الرهبان وقونتات الاقليم والقسوس المسمين ابويه والاتباع وحكام المات وعدد قليل من الرؤساء المسمين ايشوين والمسمين بونزوم وكان لا يقبل فيها احد من الاهالى الذين حكم عليهم بالعقوبة فى نظير ذنوب وقعت منهم اوقضى عليهم بالتوبة على رؤس الاشهاد بل كانوا ممنوعين من الحقوق الاهلية كما هو جار الآن فين حكم عليهم بعقوبة تورثهم العار والفضيحة فانهم لا يقبلون فى الجمعيات الانتخابية ويمنعون ان يكون لهم دخل فى الحقوق السياسية

وكانت هذه الجمعيات الاقليمية تشتغل اولا بالامور القسيسية ثم بما يتعلق بسلوك

ضباط العموم ثم بامور اخرى فكانت تفصل الدعاوى المهمة التى ترفع اليها من المحاكم القسيسية والمحاكم التى دونها وقضايا الذنوب الشرعية و تستفهم عن ادارة الإقطاعات والالتزامات الملوكية وتأخذ الميثاق على شبان الاهالى بالصداقة والامانة وتتذاكر فيما ينبغى تهيئته من الامور اللازمة وما يلزم اصلاحه بعد أن تطلع على القوانين القريبة العهد بالوضع وتتلقى الاوامر الملوكية ثم ان وكلاء الملك بعد أن تتبين لهم حقائق الامور مما يقع فى هذه الجمعيات من المناقشات العمومية والشكاوى الشخصية يقدمون الى الملك نتيجة ماهم مبعوثون بصدده فعند ذلك يدبر الملك طرقا لجبر الخلل اوتداركه على حسب مايقتضيه حزمه وسداد رأيه

وكانت الجمعيات الاقليمية المذكورة انتخابية ايضا وكان للاهالى فيها حقوق قدماء الجرمانيين فكانوا يقلدون باذن الوكلاء اوالقونتات الرؤساء المسمين وبقونتة او ويدام ويقلدون ايضا الامرآء المسمين ابويه والرؤساء المسمين ايشيوين أو الرؤساء المسمين شوابنيت وكذلك النوطير اى الموثقون ويطول علينا أن نبين جميع مزايا هؤلاء الحكام وانما يلزم اعتبارهم من زمرة القضاة الشرعيين

وبحسب الظن لامانع من اثبات انه فى مدة تسلطن القوانين الجرمانية لم يكن هنالك ضابط من ضباط العموم ولو كانت رتبته ادنى المراتب الاولة فى القضاء نصيب فانظر كيف كان الوكير اى النواب وحكام الماآت وارباب الاقطاعات الاسفلون ونظار الالتزامات الملوكية يعقدون جمعيات كالقونتات يقضون فيما بين الناس ولكن كانوا لاحق لهم فى فصل الدعاوى المتعلقة بالاحرار وارباب الاملاك حيث كان القضاء فيها من خصوصيات القونتات بل ووكلاء الملك وكان القونتات يقلدون بجميع المناصب العامة كما كان فى اوائل المملكة بشرط ان يدوموا على الصداقة للملك و يفصلوا دعاوى جميع من كان منقادا لحكومتهم من الفرنج والرومان والبرغونيين وغيرهم على ماتقتضيه شرائعهم وعوايدهم ويحموا الارامل واليتامى ويتتبعوا الاشرار حتى يقبضوا عليهم ويبعثوا الى بيت المال ماعلى الناس من الغرامات السنوية وهذه المزايا على كثرتها ليست خارجة عن طوق البشر ولا يخفى ان التزامات الكنائس والاديار وكذلك الاقطاعات والالتزامات الملوكية كانت متفرقة فى كل قونتية وكان مدبروها مستقلين عن القونتات ومستبدين بفصل الدعاوى التى تحصل فى اماكنهم وكان النواب يقومون مقام القونتة فى المدائن والقصبات واما بلاد الارياف فكان قضاتها من حكام الماآت وحكام العشرات ولما كان من وظيفة القونتات ملاحظة ادارة المملكة وربما كانوا يغيرون من يجدونه غير صالح للحكم من هؤلاء الحكام

كانوا

كانوا غالبا لا يجرون احكامهم مباشرة الا فى المدائن المقيمين بها وسيأتى لك ما يدل على انه لم يكن له فى الغالب الاضبط الجمعيات الاقليمية وهذا انما هو بالنظر الى اعتبارهم قضاة وقد بين العالم ميير ما كان لهم من المزايا المتعلقة بالقضاء ونصه كان لهؤلاء القونتات الرياسة على الجمعيات المتقدمة التى كانت تتألف من الاحرار والايشيوبن وحيث كانوا منوطين فيها بتدبير فصل الخصومات وآراء القضاة الحقيقيين كان من الواجب عليهم انهم يبينون للقضاة احوال الدعوى وما يتعلق بها من الادلة و يعينون لهم القانون والحكم الذى يعملون بموجبه بين الخصمين ويبينون لهم ايضا ما يلزمهم حله من المسائل و ينتظرون رأيهم ثم يبتون الحكم فى الدعوى و يساعدون على اجرآئه انتهى و يؤخذ مما ذكرناه ان القونتات كانوا جامعين بين الادارة العمومية والرياسة على الجمعيات وهاتان الوظيفتان وان كانتا واسطتين فى جعل رأى القونتة فوق آراء القضاة الا انه كان يعادلهما آراء الايشيوبن لنفوذ كلمتهم وذلك انه لما كان الاهالى ينتخبونهم من ارباب الاملاك كانوا ضامنين للحقوق التى انتخبوا لحمايتها والذب عنها و يمكن ان يقال ان لهم شبها من اغلب الوجوه بالدكوريون وهم قضاة المدن الرومانية حيث كان ينتخبهم الاهالى ايضا من طائفة الاحرار اصحاب الاملاك وكان لهم دخل ايضا فى فصل الدعاوى وقد برهن المؤرخون برهنة لا تفيد القطع على ان الايشيوبن مكثت بايديهم الاحكام المدنية تحت رياسة القونتات الذين استولوا على وظائف الديوموير (وهم طائفة من حكام الرومان) وتحت ملاحظة الاساقفة الذين يظهر انهم قاموا فى بعض المدن مقام محامى الاهالى

وكان اذا اتفق ان القونتة حاد فى فصل الخصومة عن طريق الحق لكونه فصل خصومة واحد من الاهالى بقانون آخر غير قانونه اولكونه تجاوز الحد فى وظيفته فان وكلاء الملك فى هذه الصورة ينتصفون منه لصاحب الدعوى وربما كان رفع مثل هذه القضية الى الملك من الحقوق العامة بل قد يكون واجبا على جميع الناس وكان اذا اريد تحقيق دعوى عند القضاة الاعلين فانها ترفع الى واحدة من المحاكم العليا الثلاث التى كانت فى المملكة على حسب درجات الاشخاص واحوال الدعاوى فكانت الدعاوى غير المهمة ترفع الى محكمة السراية التى رئيسها قونتة السراية وكان يرفع الى الملك وهو فى مشورته الدعاوى المهمة والاحكام التى قضى بها على من فعل من الحكام ما يخل بالهدء العام او على من دونهم من الرؤساء الذين لهم دخل فى الخروج والعصيان وكذلك الاتباع لملتراجيون الذين يختلسون اموال الناس

فاذا رأى الملك انه يلزم تفويض ذلك الى وكلاء الاهالى قدم تلك الدعوى بنفسه الى الجمعية العمومية التى كان لها فى ذلك العصر مزايا المحكمة العليا وكان من خصوصياتها زيادة على فصل الدعاوى الكبيرة التى ترفع اليها وبعض خصومات الملتزمين انها تفصل دعاوى القونتات والاعيان بل والملوك ويؤخذ مما ذكرناه انه كان فى ترتيب المملكة الفرنساوية فى عهد الدولة الكرلونجية ثلاث محاكم عليا مختلفة محكمة السراية والمحكمة الملوكية ومحكمة وكلاء الاهالى

واما طريقة البحث والتحقيق فى دعاوى المعاملات والجنايات فلم يخترع فيها شرلمانيا شيأ مهما فانه لو بلغ فى القوة التشريعية الدرجة القصوى التى شاعت نسبتها الى مشاهير الملوك لنسخ من القوانين الجرمانية طريقة الامتحانات الشرعية التى كانت من حيث نفور النفوس عنها لم تزل مباينة بالكلية للقوانين الرومانية بالنظر الى ماتضمنته من الرأفة والشفقة ولعين حد الدية او الغرامة التى كانت واسطة فى تطاول الاغنياء وعدوانهم الذى لو ارتكبه احد من الفقراء لافضى به الى الافلاس والمسكنة ومع ذلك فاستمر الحكم المسمى قضاء الله على قوته مع ما كان يشتمل عليه من الامتحان بالقتال والماء والنار وقد ترتب على هذه الطريقة التى كان يسهل بها الوقوف على الحقيقة وتطمئن بها ذمم الخشنين بقاء القضاة على الجهالة وبذلك استمرت الدية مكفرة للجنايات على اختلافها ولم يتعرض شرلمانيا لنسخها من احكام الجنايات بل حكم بالسجن او النفى على من امتنع ان يكفر جنايته او ينسى مسبته ببذل قدر معين من النقود فمن ثم صارت الدية من الامور الواجبة وانتقل حق الاخذ بالثار لمن بعدهم

ولا يخفى ان قوانين القصاص الجرمانية مذكور فيها بجانب دية كل جناية غرامة تناسبها فى القدر مجعولة لارباب الحكم فكانت مساعدة للايراد الملوكى ومحصول القونتات وعلى هذا فيكون نسخ الدية مؤديا الى الاخلال بتدبير المملكة فرأوا ان ابقاء هذا القانون بتمامه اولى من خرمه بنسخ ما به تحصيل الاموال الميرية والظاهر ان هذا الرأى هو سبب طول مدة هذا القانون الذى كان قريب عهد بالفتوح وكانت فيه حياة الحربيين وحريتهم اكثر اعتبارا من الفضائل الاهلية

وقد حصل التخفيف فى الالزام بالخدم العسكرية وفى مدتها وترتب عليه أن التغيير الذى وقع فى حالة العائلات صار امرا ضروريا وكانت الحروب الخصوصية المسماة فيده والحروب الملية المسماة وهره لم يزل بينهما فرق وكان يدعى من كل مكان نوعان من العساكر ليجتمعا تحت البيارق على حسب الغرض المقصود من القتال

وهو اما طمع الملك فى شئ او المدافعة عن المملكة وكان حزب الاول امناء الملك واصحاب الاقطاعات على اختلاف مراتبهم وكانت عساكر الملة المسماة لنديوهر تتألف من جميع احرار المملكة المسمين هريمان حتى ان كلا من كلمتى عساكر واهالى كان يطلق احدهما على الآخر فى اغلب عبارات القوانين الملوكية المسماة كبيتولير لكن لما كان يندر ان اخطار الوطن تستدعى جمع العساكر من سائر اجزاء المملكة كان للقونتات الحق فى أن يعينوا شبان الاهالى ليصحبوهم معهم الى ميدان الحرب كما كان يفعل ذلك رؤساء عساكر قدماء الرومانيين فكانوا غالبا يتجاوزون الحد فى هذا الحق لاجل افقار اصحاب الاملاك الصغيرة فيصيروا مجبورين على الالتجاء تحت حمايتهم

ولاجل تدارك هذا التعدى فى سلب اموالهم وجعل اثقال الخدم العسكرية على قدر احوال حامليها من حيث الغنى واليسار خفف شرلمانيا القوانين القديمة التى كانت تلزم بهذه الخدم جميع الاحرار ولم تكن الخدم المذكورة مقصورة فى الواقع على السخر الشخصية بل كانت تصحبها الغرامات حيث كان يجب على كل حر ان يجهز لنفسه الملابس العسكرية والاسلحة بل والمؤونة من وقت وصوله الى ثغره فاناط الملك الخدم العسكرية الذاتية بمن كان له من الاراضى المزروعة ثلاثة منوس او اربعة (والمنس اثنا عشر فدانا فتكون الثلاثة ستة وثلاثين فدانا والاربعة ثمانية واربعين) ولكن لاجل ان لا يظلم القانون غنيا ولا فقيرا جعل على كل من يملك منسا او اثنين ثلث جهاز الحربى او نصفه وفرض على من كان اثاث بيته يبلغ رطلا من الفضة فاكثر ان يساعد بنسبة ذلك فى مصاريف المدافعة عن الملة واما الفقراء فكان عليهم فى خدمة الوطن حراسة المدن والاشتغال فى الاسوار والقناطر والطرق السلطانية وكان على وكلاء الملك ان يأتوا له فى كل سنة ببيان من وفى من هؤلاء الناس بما هو مفروض عليه من الامور المذكورة

وكان ادنى الاتباع الخراجيين الذى يملك رزقة واحدة مكلفا بالخدمة العسكرية فكان يلزمه الدخول فى زمرة الخيالة كالحر الذى له ثلاثة منوس وقد نص شرلمانيا على انه يجب على كل فارس من الخيالة ان يتجهز للحرب بالترس والرمح والسيف والشاكرية والقوس والجعبة المستكملة واما الاحرار فكان القانون لا يلزمهم الا برمح وترس وقوس واثنى عشر سهما وزيادة على ذلك كان يجب على كل رجل من الاحرار والاتباع الخراجيين ان يلبسوا الدروع اذا كانت رزقته المسماة الود اثنى عشر منسا

وكان اذا امتنع التابع الخراجى أن يجيب داعى الحرب اخذت منه رزقته واما الحر
فكان يدفع الهريبان وهو غرامة قدرها ستون صلديا (وقد حرر القونتة بوات
هذا المبلغ فوجده ثمانية آلاف وخمسمائة وثمانين فرنكا من فرنكات ذلك العصر)
او يحكم عليه بالاسترقاق مدة معينة ولم يكن لذنب الهروب من العسكرية كفارة
الا الموت وهذا الذنب كان وسيلة فى الحكم على تاسليون
وكان الاحرار يذهبون عادة الى محل الحرب تحت قيادة القونتة مباشرة وكان يقود
ايضا من كان فى خطه من اتباع الملك وكان هؤلاء الاتباع يأتون معهم باتباع التزاماتهم
ومن كان منهم لا رزقة له كانت خدمته مع عسكر السراية كقدماء الانتروستيون
ولم يكن لهم فى المرتبات الاجامكية تسمى كونسليون اى تسلية واما الاتباع
الآخرون الذين هم اتباع الكنائس والاديار فكانوا يتبعون ساداتهم الذين عليهم
مباشرة وهم الاساقفة ورؤساء الرهبان ويمكثون فى الجيش تحت رياستهم مدة طويلة
وقد عثر فى قانون من قوانين لويزدو بنير على بيان الرجال وادوات القتال التى كانت
ترد للملك من بيوت الديانة التى لم تكن لها مزية المعافاة من المساعدات العسكرية
ولما عفا القانون عن القسوس وسامحهم من الخدم العسكرية الذاتية صار يقود
جماعتهم الحربيين رؤساء يقال لهم جوتفلونير وويدام او ابويه وهم محامون
مأخوذون من عوام الكنائس
واول من حمل السلاح من الاساقفة ولوث بدماء الناس يده المعدة لمزاولة الامور
الدينية اسقف من مدينة غاب فكان فى ذلك قدوة القسوس وقد تأذى شرلمانيا
من هذه البدعة الذميمة التى انتشرت فى هذه العصابة لما انطوى عليه من التقوى
والديانة وتشكى من ذلك للبابا ادريان الاول فانكر هذا الخلل الذى تشكى منه
الملك وكتبت مشورة العموم فى ذلك منشورا يعضد رأى البابا الجارى على القانون
فصدر الامر الملوكى المسمى كبيتولير بمنع خدم الله من حمل السلاح والقتال
فلم يتلقوه بالقبول حيث رأوا ان القصد منه تضييق دائرة وظائفهم وحقوقهم ومع
ما رتبه الملك مع القانون المذكور من مزيد الافضال عليهم حيث نص على ان كل
من افتات على شئ من الاملاك القسيسية يحكم بكفره وزاد فى دية اهل الكنائس
لم يحافظوا على العمل بمنعه من حمل الاسلحة على الدوام ولم يأمنوا على التزاماتهم
من اطماع العامة اكثر مما كان قبل وذلك انه فى زمن الملوك ضعاف الشوكة صارت
الحقوق منوطة بالقوة لا غير فكان القسوس عرضة لظلم رجال الحرب وتعديهم فرأوا
انه يلزم العود ثانيا الى حمل السلاح ليذبوا عن التزاماتهم فرجع اغلب الاساقفة

عن

عن وضع اتباعهم تحت اوامر المحامين الذين يخشى منهم وقد كتب لوب رئيس دير فريير في عهد كرلوس الاصلع الى اودون رئيس دير كورنيه يحذره ان لا يعرض نفسه وجماعته الى طعن النورمان وهم اقوام متبربرون فلم يعبأ اودون بهذه النصيحة لانه من باب الجبن حيث دافع مع الشهامة هؤلاء الاقوام فعند ذلك بادر رئيس دير فوبير بتهنئته وكان هذا الرئيس المتبصر قد عرف بالتجربة التي كانت مشؤومة عليه اخطار الحرب والقتال فلذا طلب (سنة ٨٤٩) ان يسامح في التخلف عن الغزوة التي ستقع عن قريب فكتب لصاحبه ذي شوكة انى لم اتعلم طعن العدو ولا مجانبة طعناته واجهل الحركات العسكرية في الخيالة والمشاة فهذا دليل على ان الخدمة العسكرية الشخصية بعد موت شرلمانيا باربعين سنة عادت لما كانت عليه من الوجوب الشرعي على ارباب المناصب القسيسية

ثم ان القانون الذي منع خدم المحاريب من سفك الدماء لم يرخص للاساقفة ولا رؤساء الاديار ان يتركوا المساعدة في محاماة المملكة على حسب ما كانوا يملكونه فيها من الاراضي اذ لو عفى عن القسوس المالكين لجزء كبير من الاراضي والاقطاعات واسقطت عنهم التكاليف السياسية لما امكن للملك المتولع بالفتوحات ان يقاوم اعداءه في الحروب البعيدة من غير ان يضعف املاك الاحرار ويجعل الاقطاعات ثقيلة على المنتفعين بها فان الايرادات الميرية لم تكن معدة للمساعدة في مصاريف الحروب بل كانت لا تكفي مصاريف للملك الامع المشقة

والتكاليف الحقيقية الشخصية التي كانت شاقة على الاحرار كانت قائمة مقام خراج الاراضي الذي كان عافاهم منه فاتحو الجرمانيين وقد سبق ان اعظم هذه التكاليف هو الخدمة العسكرية التي كان يجب أن يضاف اليها غرامات محلية وهي كناية عن كونهم يقدمون الى المرابط التي في الطرق خيولا لسعاة العموم ويدفعون ما يلزم لوكلاء الملك من المصاريف وكذلك الاجنبية الاجانب فهل بعد ذلك شيء يطلبه بيت المال من اصحاب الاملاك الاولية

وكانت الغرامات المضروبة على الرزقات القسيسية والاهلية يجب أن تدفع ايضا من غير النقود وكانت في الغالب من الخيل والامتعة التي كانت في سابق الزمان من قبيل الهدايا الاختيارية ثم صارت غرامات الزامية منذ حدثت الاقطاعات ومبايعة الاتباع الخراجيين وكانت الهدايا المذكورة تقدم الى الملك مدة انعقاد جمعية شندمايه وكان تلقيها اعظم مزايا رئيس الحجاب واكبرها نفعا

وجميع ما كان يرد الى الخزينة الملوكية مباشرة كان يأتى اليها من التزامات الملك وكانت هذه الالتزامات كناية عن عدة مقادير كثيرة من الاراضى الخراجية اى ما كان يملكه الملك من الالتزامات فى الاقاليم المختلفة ومن الويله اى القرى الملوكية التى كانت اعظم اجزآء الالتزامات الملوكية وكانت هذه القرى كثيرة جدا على سواحل نهر الرين ونهر الموز ووار والسين وكان بعضها دارا لاقامة الملك وكان الكرلوفنجيون يعقدون فيها اكثر مشاورهم الكبيرة ويشهد لعظم تلك الالتزامات ما كان يصدر عن شرلمانيا من مزيد الاعتناء فى ترتيب زراعتها وتدبيرها

وكانت كل قرية من القرى الملوكية المذكورة تشتمل على عدة مساكن تسمى كازه وكان يسكنها عبيد يقال لهم فسكالين ور بما سكنها الاحرار الذين كانوا يأخذون فى نظير اشغالهم مرتبات معاشية او ينتفعون بمنس اى اثنى عشر فدانا من الاراضى وكان يحكمهم رئيس بلقب مايور وكان تحت اوامر قاض من طرف الملك متقلد بالنظارة العمومية وبالقضاء بين جميع اهل القرية الذين هم تحت نظارته وكانت بنادر هذه القرى الملوكية ممتازة عن غيرها من بقية القرى حيث كانت على ما يظهر محلا لمحصولات الزراعة ودارا لاقامة القضاة الذين من طرف الملك

وكان الملوك يذهبون الى تلك القرى بالمناوبة ليقضوا فيها مدة الشتاء ويأكلوا ما تحصل فيها منذ سنوات من سائر انواع المأكولات * والمحصولات التى كانت ترد للملك اكتينا من التزاماته بمدينة دويه وشسنوليه والجالك واپورولبه حملته الكثرتها على ان يعافى الاهالى من الغرامة المسماة فودروم فتأسف العساكر على ذلك اشد التأسف لانهم كانوا يتجاوزون الحد فى هذه الغرامة التى لم تكن من النقود

ولا يتعجب من كون هذه الالتزامات الكثيرة التى كان يتعيش منها الوف من العائلات بذل الملك همته فى ادارتها حيث كانت حمايته منتشرة فى سائر البقاع وكان قد شرع فى ان يعيد تحت حماية القوانين الاملاك العمومية والالتزامات الخصوصية والاحرار والارقاء حين كان السلب والنهب متسلطين على الاراضى والاشخاص فوضع قوانين ليمتنع بها ذلك عن اعظم منشاء للارادات الملوكية وهذا من الواجبات على ابى العائلة واما ما تعجب منه مونتسكيو غاية التعجب وهو ان هذا الملك كان يلتفت لبيع بيض دجاجه فانما ذلك سخرية منه على الملك المذكور واستهزآء به ليس على عادة هذا المؤلف العظيم من الفراسة والفطنة العجيبة

ومع احتراس شرلمانيا من طمع وكلائه فى التزاماته لا يصح أن يصدق ان الالتزامات

الملوكية

الملوكية لم يقع فيها اختلاس عظيم بالنظر الى فروع ايراداتها العمومية حيث كانت مباشرتها منوطة باناس كانت مباشرتهم لها ظاهرية فقط لاجل مصلحتهم فما كان يبلغ المقدار الوارد للخزينة الملوكية من الغرامات الشرعية واى فائدة كانت للملك فى العوايد والمكوس العديدة التى بواسطة كثرتها واختلاف اسمائها وتنوع المصالح واستقلالها عن بعضها تعطلت التجارة والصنائع عن الانتشار والذى يدل على قلة نفعها للخزينة هو ان القونتات والملتزمين زادوا فى تلك الغرامات زيادة كثيرة حتى ان الملك نفسه طالما توسط فى ابطال العوايد التى كانت مفروضة على المارة بالقناطر بعد انداراسها وعلى من يجتاز الانهار التى كانت لا تسير بها السفن وتوسط ايضا فى ابطال كثير من الغرامات التى من هذا القبيل اخترعها اناس خشنيون متولعون بسلب الاموال

وقد استمر هذا الخلل يتداول الازمنة عليه حتى عطل الحرف والصنائع اومنعها أن تعود الى ما كانت عليه فمن ثم لم يترتب ثمرة على ما وضعه پيپين وابنه من القوانين التى دعت السكسونيين والسلاويين أن يترددوا الى سوق اندكت بمدينة سنت دنيس وغيره من الاسواق الكبيرة التى بالمملكة وذلك ان الجمارك التى كانت مرتبة على المرور فى سائر الجهات حملتهم على ترك التجارة التى ربحها غير محقق فكان الانفع اذذاك الترغيب فى المبادلة بالاعيان بين رعية السلطنة بتسهيلها عليهم وقد صدرت عن شرلمانيا امور متنوعة دلت على ان الترخيص فى السير بالبضائع التجارية الى اى جهة كانت وامن التجار على سلعهم كان لهما مدخلية عظيمة فيما صنعه من التدبيرات لاجل الهدء العام

ومع ذلك فعدم العثور على النصوص اكثر دلالة من الامور الواقعية فى شأن معرفة حالة الصنائع والتجارة فى ايام الدولتين الاوليين من ملوك الفرنساوية فان احكام شرلمانيا الشرعية لم تنص الا على الاسواق وبعض المواسم التى كان يذهب اليها الاواريون والسلاويون والسكسونيون لكن كان الغرض من النص عليها تعطيل تجاراتهم او اقرار ما كان مقررا لدير سنت دنيس من مكس البضائع الواردة الى المدينة التى بها هذا الدير وكان يدفعه تجار السكسونيين فى مدة الموسم الكبير الذى رتبه داغوبرت فى هذه المدينة ونهاية ما وقع من الاحكام الملوكية فى الترغيب فى التجارة وقتئذ هو احداث القناطر والجسور وحفظها الذى ورثه فاتحو المتبربرين عن الرومانيين وقد بذل جهده شرلمانيا وزاد عليه خليفته فى هذا الامر العظيم الذى هو من طرق السعادة لكن كان يترآى من الاول

ان غرضه من ذلك سهولة السير على جيوشه وتفتيش رسله اكثر من تمكين مسالك التجارة بين الاقاليم المختلفة ولو قلنا كما قاله كثير من المؤرخين ان الخليج الذى شرع فى عمله ليكون واسطة فى وصل نهر ردنتز بنهر التمول ونهر الرين بنهر دانوب كان قصده منه فتح طريق كبيرة للتجارة بين البحر المحيط والبحر الاسود لاوجب ذلك تعظيم هذا الملك اكثر مما يقتضيه عصره وكان فيه رد على ايجنهارد حيث لم ينسب اليه الا قصد تسهيل نقل التجهيزات العسكرية التى كان قد اعدها لقتال الاواريين

واى ترغيب كان يرجى للتجارة من هذا الملك الذى كان اسيرا وهام عصره وزاد على قوانين اسلافه فى منع الرفاهية والزينة واحتكار السلع وجعل للحبوب سعرا معينا وعضد بشوكته الدنيوية القوانين القسيسية التى تمنع الربا والسلف بالربح

وليس فى سيرة شرلمانيا مايدل على اشتغال فكره بالتجارة البحرية الا امر واحد وهو المكتوب الذى بعثه للملك اوفه يطلب منه الحماية لتجار الانكلسكسون الذين يريدون التجارة بفرانسا وأن يعطل ما كان يقع اذ ذاك من الحيل حيث كان بعض الناس يتزيا بزى الزوار حذرا ان ينفع الخزينة بشئ من المكس وعوايد المرور وكان قد ارسل مع هذا المكتوب هدايا لزينة جميع الكنائس الكبيرة وزاد عليها حمايله سيف وسيفا من السيوف الهونية وعباءتين من الحرير للملك المذكور الملقب هبتارك الذى تشرف بمحبة هذا الملك العظيم وهذه التحف التى كانت مجهولة للانكليز لم تكن من صنيع الفرنساوية وانما دلت على ان علائق التجارة بينهم وبين المشارقة كانت مستمرة لم تنقطع وان كانت فى البر اقوى منها فى البحر

وقبل استكشاف امريقة لم يكن لفرنسا فى البحرين المحيطين بها الا اقليمان ملايمان فى الوضع للتجارة البحرية وهما افلندرة وبروونسه وكان احدهما فى طريق سفن الشمال وبه ثلاثة انهار تجرى فيها السفن واصلة الى المحيط وبواسطتها كانت توزع محصولات الشمال فى الاقاليم الاوستراسية التى بالغلية وجرمانيا والآخر الذى يرويه نهر الرون كان مدة طويلة تأتى الى مينائه سفن اليونان التجارية ومراكب الرومان الحربية وكان هذا الاقليم دون غيره من الاقاليم اسهل مسلكا واقرب بالنسبة الى تجارة آسيا بخلافه من غير تلك الجهة فان البلاد الواطية كانت لم تزل غابة سبخة تعارض مياهها امواج المحيط وكانت بلاد الشمال لاتبعث اليه

شيا

شيا من القرآء والمعادن كما فى الازمنة المتأخرة وانما كان يأتيه منها من ارباب الصيال
وقد صار الاقليم خرابا كله او جزؤه الشرقى وكان ارباب الصيال ايضا فى البحر المتوسط
ولم تكن اذ ذاك مدن غند وابروجة وانورس عظيم شئ وكانت مدن مرسيليا
ولفرجوس ونيسة قد فقدت عزها وثروتها
ويمكن ان يستنبط على وجه السهولة من عدم المقايضة اوندرتها ان الصنائع
والزراعة كانت كاسدة بسبب ان الاحتياجات الناشئة عن الباليات البلدية كانت
دائما آخذة فى التناقص فمن ثم اوصى شرلمانيا نظار التزاماته ان يكون فى كل
التزام منها ارباب حرف وصنائع وأن يزرع فيها سائر انواع النباتات فلم تجد هذه الوصية
نفعا لان الفنون يتعذر ان تنجح فى الارياف المتفرقة بل يلزم ان تكون فى المدائن حيث
يسهل التعاون واتقان صناعتها بتوزيعها فى العمل
ثم ان حرفة الزراعة يلزم ان تكون ايضا موزعة الاشغال فلذا كانت انواع محصولاتها
لا تطلب من جماعة معينة ولا من قطر واحد ولا من ارض واحدة ولكن هذا يلايم
مصالح اصحاب الاطيان اذا تعسرت المقايضة او صارت غالية فانهم حينئذ يضطرون
الى التنوع فى الزراعة * وهذا ما كانت عليه الارياف فى معظم القرون الوسطى
وقد ترتب على ذلك ان القطر الذى كانت طبيعة ارضه لا تلايم الا جنسا واحدا
من الزراعة صارت محصولاته لا تكفى الا فى مجرد ضروريات اهله فلاى شئ كان
اصحاب الاطيان وقبائل المستعبدين يبغون من الاراضى امورا كثيرة لا تنفعهم
فان الاولين كانوا لا يأملون الانتفاع بكثرة المحصولات وكان الآخرون لا يكتسبون
منها الا زيادة التعب وبذلك تعطل معظم الاراضى عن الزراعة واستحال الى مراع
وغابات
ولا يلزم ان نبحث عن سبب غير هذا فى الجدب الشديد الذى لم تنج منه مدة شرلمانيا
وكثر بعده حتى انضم الى الحروب الداخلية والخارجية وعم الدولة والرعية فانه متى
فقدت كثرة الاشياء الاقتياتية من المملكة على اختلاف عائلاتها اشرفت الامور
الضرورية من تلك الاشياء على الانعدام
واذا كانت هذه الادلة الصحيحة لا تقضى بان الارياف فى ذلك العصر نقص عدد اهلها
وتعطل معظم اراضيها عن الزراعة فهنالك ادلة مسلمة قطعية تدل على ذلك ولا اذكر
منها الا دليلا واحدا اغفله المؤرخون حسبما ظهر لى وهو ان المواشى كانت رخيصة
جدا وكان القمح غاليا جدا حتى كان ثمنه اذ ذاك يعادل ثمانى مرات بالنسبة
الى ما فى عصرنا هذا وذلك ان ثمن القمح يتبين به على وجه الصحة قيمة شغل الانسان

التي هي اقل قبولا للتغير من غيرها من انواع البضائع واما ثمن الثور مثلا فيتبين به قيمة اكله ومحصول الارض التي خرج منها كله اكثر مما وقع في تربيته من التعب فعلى هذا اذا كانت المواشي قليلة القيمة في بلاد كانت اراضيها رخيصة كما في بلاد الموسقو وامريقة حيث ان رعاتهما يطعمون مجانا المواشي العديدة التي هي قليلة القيمة بالنسبة الى كثرتها وقلة آكليها

ويؤخذ مما ذكرناه انه في ايام شرلمانيا كان بين الاراضي المزروعة بفرانسا وسواحل نهري دونا وبلاطه وغير المزروعة فرق كبير

واذا استدللنا بالدليل المذكور على ما وجدناه في هذا العصر من الفرق بين ثمن محصولات الصنائع وجدنا ايضا بينهما فرقا كبيرا واستنتجنا هذه النتيجة الصحيحة وهي ان الفنون والصنائع كانت في زوايا الاهمال مع ما تحتاج اليه من مزيد المهارة والمعارف وسهولة نقل محصولات الفبريقات فقد كان ثمن العباءة او الدرع يعادل ثمن ستة أثوار او ستة امداد من البر فعلى هذا كان ثمن كسوة ابي العائلة يكفي مؤونة اولاده معظم السنة

ويوجد الى الآن في بعض الشرائع وفي قوانين مجمع اساقفة افرنكفورت اسعار اعظم الاشياء الضرورية في المعيشة وبيانها بالنقود فكان ذلك وسيلة لنا في تعيين مقادير النقود الكرلونجية ومقابلتها بنقود عصرنا هذا

وقد استبان من الحساب الذي صنعه الفرنساوية في مقابلة نقود ذلك العصر بنقود عصرنا هذا ان النسبة بينهما تقريبا من ١ الى ١٢٠ وهذا الفرق الكبير يدل من جهة على عظم مقدار نقود ذلك العصر ومن جهة اخرى على قلة المعادن الثمينة حيث كان رطل الفضة عبارة عن اثني عشرة اوقية فهو اذن يعادل ٧٨ من فرنكات هذا العصر وهنالك فرق آخر بين نقود العصرين منشاؤه قلة نقود ذلك العصر المسكوكة وعليه فيقال ما الذي ناب ما اكتسبته بلاد المغرب بسبب فتوح الرومان من المقدار العظيم من الذهب والفضة

ومن غير أن نستقصي اسباب التوفير العام فمن الواضح ان خزائن افريقة واسيا لم تحفظ بتمامها مدة تسعة قرون وان سلب الامم المتبربرة والبخل والخوف الذين اخفيا جملة من الاموال وكذلك استعمال الذهب والفضة في الفنون او الرفاهية كل ذلك اخفى جزأ عظيما من السبائك والنقود المسكوكة التي جاء بها المنصورون في اوروبا وقد مكث الاقوام الذين سلبوا اموال السلطنة الرومانية ازمنة طويلة يتعيشون من اموال المغلوبين فنقصت نقود المغرب شيأ فشيأ حتى ذهب ارباب الفنون

من

من اوروبا الى جبل قوقازه والجبال السكندناوية ليبحثوا فيها عن المعادن الثمينة التي انقطع استخراجها او وقع فيه التراخي باستكشاف امريقة

(الفصل الثاني)

(في القسوس والكنائس)

علم ان الفاتح الذي حامت اسلحته مع القوة لتشييد دين النصرانية لم يكن قصده بذلك مجرد تثبيت ثمرات نصراته وتمكينها بهذا الدين بل قصد ايضا أن يتخذ له من امناء الدين المذكور حلفاء يبذلون الهمة فيما يكون به شرفه وفخره فكان يعاملهم بالسخاء والكرم كمعاملته لرئيس الكنيسة الاعظم ولم تكن رغبته في ذلك لمجرد طلب المعالي لنفسه بل كانت ايضا لعلمه ان القسوس بمفردهم يمكنهم أن يمنعوا الفساد الذي كان دائما آخذا في الازدياد و ينشروا بين الامم التي انحطت عن درجتها او التي لم تزل على توحشها وخشونتها بعض معارف من التمدن.

وكان احتياج شرلمانيا الى القسوس اقل من احتياجه الى الامم المنقادة لسلطنته فبذلك كان جامعا بين صفتي السياسة والكرم بواسطة زيادته فيما فيه نفع هؤلاء القسوس لما كان لهم من نفوذ الكلمة الذي اكتسبوه بالمال والشوكة والاعتبار وقد لحق الكنيسة بالنظر الى الامور الدنيوية آثار انعاماته الملوكية حيث صدرت عنه اوامر عديدة كان غرضه منها حفظ اراضيها وخصايصها واتساعهما ومع ذلك فكانت تتضمن تحذيرها عما يمكن أن يقع منها من التعدي والخلل وهذا من حزمه وتبصره.

وما بذله من الهمة في حماية املاك الدولة واملاك فقراء الاهالي من افتيات الاعيان بذله ايضا في حماية املاك القسوس التي كان قد تحول معظمها عما كان معدا له سابقا فتأسى في ذلك بابيه حيث عرف بواسطة سياسته العادلة المنصفة كيف وفق بين القسوس وعائلة كرلوس مرتيل

ففي القانون الذي عافى فيه القسوس من الخدمة العسكرية اجابهم ايضا لما طلبوه في العريضة التي قدموها من انه ليس لاحد ان يتملك شيأ من اراضي الكنيسة الا تملكا موقتا على سبيل الاجارة بشرط ان يجدد الاساقفة ويأتي الاجارة لورثة المستأجرين الذين لم تكمل مدة اجارتهم وهذه الاراضي التي انفصلت عن الالتزامات القسيسية بالتملك الموقت لم تكن خالية عن المنفعة للقسوس وذلك لان بعض القوانين الزم مستأجريها بدفع خمس الخارج منها وبما يلزم لمواضع العبادة من المصاريف وبموجب هذا القانون صدرت اوامر عديدة منها الامر الذي عاد به لرهبان مدينة

مقس التسع والعشر اللذان كانا على عشرين من الاتباع الخراجيين كان الملك نصبهم على عشرين ديرا من ادبار الكنيسة وكان ايضا على اكثر من ثمانين من الاتباع الآخرين الذين كان اهم على سبيل التملك الوقتى التزامات اوقرى من تعلق الرهبان المذكورين

ولما منع القضاة من القبض على القسوس من غير أن يخبروا اسقف الابرشية صارت خزينه اهل الكنائس مضمونة لا يخشى عليها وقد اناط الملك حماية الكنائس بالقونتات لئلا تكون طرق الحماية التى ذكرناها خالية عن الفائدة

والدليل على ان اراضى الكنائس لم تكن دائما آمنة من اطماع الملتزمين والقضاة الذين من طرف الملك يؤخذ من عدة كثيرة من الاوامر التى صدرت من الملوك لاجل اقرار وثائق الانعامات الصحيحة التى كانت قريبة عهد منهم فمن ثم اقر شرلمانيا ولويزلودبنير ماوقفه بيبين لبريف على دير سندنيس من الانعام العظيم واقر ايضا ماوقفه الملك كرلومان واخته جيزيلة على ادبار مختلفة وكان ذلك قريب عهد من الوقف الاول ولما كان شرلمانيا يعلم كابيه ان توزيع الاقطاعات على الاماكن المقدسة كل على حسبه يكون واسطة فى كثرة حماة الشوكة الملوكية وتمكينهم اثبت فى خلاصة واحدة لدير مارى مرطين بمدينة طورس ما كان بايدى العوام على سبيل الانتفاع به من الجفالك اوالقرى التى كان عددها ثمانية وار بعين حيث لم يدفعوا ما كان مقررا عليهم لهذا الدير الكثير الثروة وامر ولده لويز ملك اكتينا ان ياذن له فعمر اثنى عشر ديرا ورفع اطلالها بعد ان كانت دارسة وانشا اثنى عشر اخرى ووقف عليها اوقافا تلايمها ثم ان الحقوق القديمة التى كانت للادبار صارت اكثر من الاوقاف الجديدة بسبب اثباتها لها اواعادتها اليها وكان اغلب ذلك بتعريض وكلاء الملوك كما يشهد بذلك كثير من السجلات

وقد كانت الدولة الاولى التى انحطت عن درجتها اكثرت من الوقف على الكنائس حتى لم يبق لخلفاء بيبين لبريف مما ينعمون به عليها الا القليل ومع ذلك فقد وجد شرلمانيا ما يستعمل فيه التكرم على الكنائس ولو لم يكن من كرمه الا تقريره دفع العشر وجعله عاما لكفاه فى الزيادة على اوقاف اسلافه وعطاياهم بحيث لا يذكر لهم شئ بجانب ذلك

وما يقال من ان شرلمانيا هو اول من فرض العشر فهو غلط لا اصل له وان اشتهر بين الناس حتى ذكروه فى اغلب التواريخ وقد سلكنا مسلكهم حيث قلنا به وصدقناه مع انه يوجد فى قانون عمومى لبيبين ارسله لاسقف ميغنسه ما معناه من نيابة

عنا كل

عنا كل انسان أن يدفع العشر طوعا اوكرها
وقد جدد شرلمانيا هذا الامر بالقانون الذى وضعه (سنة ٧٧٩) وامر ايضا بان محصول العشر يقسم الى اقسام متساوية بين الاسقف والقسوس والفقرآء وغير يقات الابرشية عملا بما رآه البابا اجيلاز واستحسنه جملة من المجامع القسيسية وكانت انصباء الفقرآء تصرف فى مصالح الاماكن المعدة لهم التى كانت مؤونتها وضرورتها يومئذ على الكنائس وكان يخدمها اعظم امناء الدين تواضعا واما عصرنا هذا فصار فيه هذا الاحسان بايدى العوام لمقتضيات عظيمة وصار يأتى الى الفقرآء فى اماكنهم من غير ان يكون لهم فيه تسلية وأمل فى استمراره كما كان اولا
ومن وقت أن جعل الملك العشر من الواجبات الشرعية لم تقتصر المجامع القسيسية على عادتها من حث الناس على دفعه بمجرد الوعظ بل صارت تدعو بالحرمان على من لم يواظب على التوفية بهذا الواجب الذى يجر النفع الى الكنيسة وكانت تستند فى انه من باب العدل ووضع الشئ فى محله الى مذهب مارى اوغسطين حيث كان يرى ان الله تعالى يرضى بهذه الصدقة الدينية فيمن على عباده بنشر البركة بينهم فى الخيرات الارضية وان خدم المحاريب الذين يأكلون تلك الصدقة يكونون بذلك اكثر تفرغا للوفاء بجميع الخدم الدينية وكانت تستند ايضا فى انها من قبيل الواجبات الشرعية الى الشريعة العبرانية حيث اوجبت لسبط لاوى عشر ما يخرج من الارض ولكن هذا السبط لم يأخذ له نصيب فى قسمة الاراضى التى فتحتها امة الله اى بنوا اسرآئيل بخلاف قسوس بيت المقدس الجديد فانهم كانوا يملكون التزامات عظيمة تزيد بكثير على ما يلزم للدين وامنائه فلذلك صار هذا العشر فى زمن تسلطن قوانين الملتزمين من باب التكليف بما لا يستطاع بالنظر للاغلب ومن باب الظلم ايضا بعد أن كان فى حكومة اليهود حقا شرعيا وغرامة خفيفة قال آدم سميث ان غرامة العشر وغيرها من الغرامات الارضية التى من هذا القبيل كانت دائما لا تماثل بينها اصلا مع انه كان يترآى عليها انها فى غاية من التساوى لان مقدارا معينا من المحصول كان يساوى فى احوال مختلفة مقدارا آخر مباينا للفائض مباينة كلية وربما كانوا يدفعون الخمس من محصولات الاراضى الطيبة بدلا عن العشر بخلاف الاراضى الرديئة فانهم ربما دفعوا بدلا عنه نصف فائضها انتهى
ويظهر انه لا فائدة فى التعرض هنا للتكلم على قضاء الكنيسة فى الدعاوى المتعلقة بالامور الدنيوية حيث ذكرنا آنفا ان الحق فى فصل الدعاوى كان لاصحاب الاملاك فكان القسوس يستعملون هذا الحق فى اراضيهم كالاتباع الخراجيين فى اقطاعاتهم

وقد اقرهم على تلك المزية قلوتير الثاني (سنة ٦١٤) وجددها بيبين بالامر الذى صدر منه فى مدينة ويرون (سنة ٧٥٥) واغلب وثائق العطايا المنعم بها على الكنائس والاديار تتضمن صورة هذه المزية التى كان بموجبها لا يمكن لاحد من القضاة الملوكية ان يدخل الالتزامات القسيسية ليفصل دعوى او يحكم باى حكم كان

وقد اثبت شرلمانيا فى كثير من الاحكام الشرعية حق الكنيسة فى فصل الدعاوى بل تأسى بالقيصر موريس حيث وسع دائرة هذا الحق حتى كانت القسوس يقضون فى الذنوب الكبيرة جدا وزاد على ذلك أن جعل للاساقفة مزية البحث عما يقع فى ابرشياتهم من عظائم الذنوب

ولم يكن الاساقفة ورؤساء الرهبان يفصلون الدعاوى بانفسهم بل كانوا يستنيبون فى ذلك القضاة المسمين ابويه وويدام وحكام الملآت الذين كانت الشريعة تأمر بانتخابهم ممن يرغب فى العدل والانصاف ويعرف الاحكام الشرعية وكان يمكن رفع احكام هؤلاء القضاة الى مجمع البندر الذى كان يتألف من اساقفة الاقليم وقونتانه وكانت الاحوال الصعبة تعرض على الملك لينظر فيها

وجميع هذه المزايا والاحكام قطعت ما كان بين القسوس والدولة من العلائق والارتباطات وجعلت العصابة القسيسية جمعية متميزة مستقلة فكيف حال المنصب الملوكى اذا وقع الفشل والشقاق بينه وبين هذه الشوكة التى تستمد قوتها من الدين والدنيا والظاهر ان شرلمانيا ارتاب من ذلك ولو وقع منه من الاحترامات مما يحصل فى المستقبل دل على انه كان يحذر منهم حقيقة وذلك انه اوصى وكلاءه ان يسألوا باى سبب وفى اى مكان يتعرض القسوس للعامة فى استعمال وظائفهم وأن يبحثوا الى اى درجة وصل الاساقفة ورؤساء الرهبان فى مدخليتهم فى الامور الدنيوية وأن يسألوهم عن معنى قول الحوارى لا احد يشتغل بخدمة ربه ولم يدخل فى الامور الدنيوية ويستجلوهم فى رد الجواب عن ذلك

وقد اعتنى كثيرا بحصر ما للاسقف من فصل الدعاوى فى حدوده بحيث لا يتعداها وكان اقوى واسطة فى ذلك هو رفع الدعوى للملك وهذه الواسطة وان رضى بها مجمع اساقفة افرنكفور الا انه لم ينتج عنها جميع النتائج التى كان يظن تولدها منها حيث نوزع فيها غير مرة وقد اقتضى حزم هذا الملك المتقن للقوانين أن ضيق دائرة ما كان للكنائس فى حماية الملتجئ اليها من الحق الذى تأباه الفلسفة ولن اقتضته الشفقة الانسانية حيث لم يرض ان القاتلين يدنسون المحاريب بايديهم النجسة ومن وقتئذ

صارت الكنائس لا تنقذ من التجأ اليها الا من كان من المذنبين مستحقا للرأفة والشفقة اكثر من النفور والاستبشاع وكان هناك ملجأ آخر غير السابق يمنع العقاب عن المذنبين وهو الاراضى التى تحت حكم القسوس فكان كل من اختبأ فيها منهم لا يعاقب فأبطله بقانون امر فيه الاساقفة أن يسلموا من التجأ فى اراضيهم وامر القونتات ان يقبضوا على الهارب بالقهر والغلبة اذا امتنع الاسقف من تسليمه وحكم على من ارتكب هذا الذنب من الاساقفة بدفع غرامة على قدر امتناعه

وكانت معافاة القسوس من الخدم العسكرية قد حملت كثيرا من الاحرار على الدخول فى القسيسية فلما رأى شرلمانيا ان هذا الامر يجر الى التخلص من الواجبات الاهلية فينشأ عنه قلة الحربيين وازدياد اراضى القسيسين على التدريج منع اولاد الاحرار ان يدخلوا فى القسيسية من غير اذنه ولاجل أن يبلغ هذا المقصد الذى كان مطمح نظره منع أن يحيل احد على اغنياء الشبان حتى يستميلهم الى ضم املاكهم الى الكنيسة

ومع ذلك فيلزم أن نسلك فى الشهادة للاساقفة على كان مسلك العدل والانصاف حيث اعانوا مع الصداقة الملك فى اعتنائه بمنع هذا الخلل الذى كان يقع كثيرا من القسوس الجهلة اوارباب الطمع وكان يستبشعه النصارى و يستقبحونه و يؤدى الى الاضرار بالمملكة فلذلك امر شرلمانيا (سنة ٨١٣) أن تعقد الجامع الخمسة الكبيرة واوصاها ان تعتنى بشكاوى العائلات التى حرمت من الارث فامرت جمعية طورس الاولاد الممنوعين من ميراث آبائهم ان يستردوا ما اخذ منهم وينتفعوا به لكن على انه من باب الاقطاعات وليس فى ذلك تمام الجبر والاصلاح واما الاساقفة الذين اجتمعوا فى مدينة شالون سورسون فانهم اظهروا فى هذه الفرصة اصولا خالية عن الاغراض مطابقة لما فى الانجيل حيث قالوا قد عيب على بعض اخواننا فى ترغيب الناس أن يزهدوا فى الدنيا ويهبوا اموالهم واملاكهم للكنيسة وما ذاك الا لحرصهم وطمعهم فيلزم ازالة هذه العقيدة من اذهان الناس لان القسيس انما ينبغى له ان يبحث عما فيه نجاة الارواح لا عن المكاسب الدنيوية و ينبغى ايضا أن تكون الهدايا بالطوع والاختيار لا بالالزام والاجبار بل يجب على الكنيسة المقدسة زيادة على اجتنابها لسلب اموال النصارى أن تعين الفقراء انتهى ثم ان الاساقفة ورؤساء الرهبان الذين يسمون القسوس والرهبان بالسمة المسماة عندهم رسمة وهى قص شعورهم رغبة فى تحصيل مصلحتهم ألزمهم القانون الذى وضعته جمعية شالون باجراء المعاقبة القانونية ونصه ترجع الاملاك لورثتها الشرعيين الذين حرموا من

ار ثها لاختلال عقول اهلهم وطمع مخادعيهم انتهى وبالجملة فهذه الجمعية منعت
القسوس أن يدخروا واسلعهم على أن يأخذوا فيها فيما بعد ثمنا طيبا ولم ترخص فى الادخار
المذكور الا بقصد اعانة الفقرآء على ضروراتهم فى اوقات الشدة
وجميع هذه الاحتراسات التى كان الغرض منها منع نقل املاك الاهالى الى ايدى
القسيسين صار القسوس عما قليل مجبورين على الاستعانة بها على حماية املاكهم
من طمع الملتزمين ومن المعلوم انه فى تلك الازمنة السيئة لم يكن القصد من اهتمام
الملوك والقسوس الاحفظ ما كان مرتبا فى عهدهم من النظام والحقوق الشرعية
من تغلب الملتزمين الذين انتشروا فى سائر البقاع باشكال متنوعة شتى
وقد لحق نظام القسيسين ودرجات مناصبهم فى ايام الدولة المروفنجية ما لحق الترتيب
السياسى من الاضطراب والتقلبات وذلك ان مجامع الاساقفة اخذت فى التناقص
كل يوم حتى لم يمكنها أن تمنع الافتيات والجور ولا أن تعيد القوة للقوانين التى بها قوام
الطائفة القسيسية فعم الحكم الارستوقراطى الكنيسة والدولة وجعل الاساقفة
مستقلين بانفسهم لا تجرى عليهم احكام المطارنة وانقذهم من نفوذ كلمة من هو دونهم
من القسوس عليهم حيث تغيرت به كيفية انتخابهم وصار لهم التصرف المطلق
فى توزيع الايرادات القسيسية واتسعت دآئرة القضاء فيهم وصار بايديهم ادارة
الاحكام المدنية وبالجملة فهذا الحكم جعل لهم مدخلية فى الجمعيات الملية التى حازوا
الرياسة فيها لمكانتهم من المعارف وعلو درجتهم فيها حسبما هو مجمع عليه فوجب
حينئذ اعادتهم الى ما يستحقونه من الحقوق الدينية مع ابقائهم على الحقوق السياسية
التى اكتسبوها بحسن التفات الملوك اليهم وبمقتضيات الاحوال وكان پيپين لبريف
قدهم بتنفيذ هذا الغرض قبل ان يجلس على سرير الملك واخذ فى تحصيله حتى تم
على يد شرلمانيا فهو الذى حاز شرف الاتمام لانه كان متولعا بايقاع الترتيب
والتنظيم فى المملكة وكان هذا التولع فيه من باب المهارة والبراعة فمن ثم كان بواسطته
مستعدا للنجاح فى ذلك الغرض فهذان الملكان اللذان هما اول ملوك الدولة
الكرلونجية ردا مجامع الاساقفة بعد بطلانها واعادا الجمعيات الملية بعد انعدامها
وعضدا القوانين القسيسية بشوكتهما الملوكية التى بمفردها صيرت هذه القوانين
جارية معمولا بها
وكان الملوك قد افتاتوا على الانتخابات الاسقفية حيث كانوا يجعلون على الكنائس
اساقفة من الاجانب بل ومن العامة حتى ليم فى ذلك على كرلوس مرتيل وكان
اللوم عليه فى محله ثم ان مجامع الاساقفة التى انعقدت فى عهد پيپين تركت له حق

التقليد

التقليد مدة من الزمان والظاهر ان شرلمانيا لم يختص بهذه المزية اختصاصا تاما بل ولا اوائل خلفائه حتى انه لم يعرف اصول الانتخاب القسيسى والاهلى بقانون صريح الا فى اواخر سلطنته فامر بحفظها والعمل بها ولكن هذه الطريقة القانونية لم تزل باقية على ضعفها ككثير من الطرق الاخرى التى كان الغرض منها تنظيم الطائفة القسيسية وفى التواريخ مايدل على ان لويز لبيو اى التقى جبر من مبدء حكمه على تجديد تلك الطريقة بالقانون الذى وضعه فى مدينة اكسيلاشبيلا ومما كان مستبشعا فى ذالك العصر عند جميع الناس بيع الوظائف الدينية الذى طالما ضلت به آراء الاهالى وكذلك انتخاب الملوك فانه اضل آراءهم ايضا ثم ايقظ الحكيم ألقوين شرلمانيا ليلتفت الى جبر هذا الخلل فسعى هذا الملك فى ابطال البيع المذكور ونسخه من الاخلاق القسيسية لكن لم يجد سعيه نفعا غير ان المناصب القسيسية فى مدة حكومته المستطيلة كانت فى الغالب انما تعطى مكافأة على القداسة او العلم فكانت بذلك المراتب الاسقفية مبتهجة ذات رونق لم يكن معروفا فى بلاد الغلية منذ تأسست فيها الحكومة الموزخية وقد اراد شرلمانيا ان يطلب من القسوس فى نظير حمايته لهم وانعامه عليهم أن يعودوا الى النظام القديم مع سلامة الباطن وخلوص الطوية وغرضه بذلك ان هذه الطائفة تسلك مسلك الحياء والحشمة فى عوايدها والصعوبة والشدة فى اخلاقها حتى تستحق احترام النصارى لها ولما منعها من الخدم العسكرية منعها ايضا من الحظوظ الدنيوية حتى صار لا يرى من القسوس المتولعين بالامور الدنيوية من يزاحم الملتزمين فى التفاخر بالامور الحربية ويعكر هدء الارياف بالاحتفالات الكبيرة التى كانت لا تخلو عن كثرة الاصوات المرتفعة من الصيادين والخيل وكلاب الصيد

ومما شغل رؤساء القسوس المنتظمين وشرفهم فى المجامع العديدة التى انعقدت فى ايام هذا الملك امور ملايمة للوظائف الاسقفية او الفخار الذى يستحقه اربابها وذلك انه زيادة على التنظيم القسيسى الذى اشتغل به كثير من المجامع القسيسية وجمعيات شندمايه استيقظت همم الاساقفة حين ظهرت مذاهب المبتدعة والخوارج حيث حلتهم الحمية فى جمعيتين مليتين ولفتين من القسوس على ابطال عبادة الصور والتماثيل ومنع القول بان عيسى اتحدت فيه الطبيعتان اى اللاهوت والناسوت وأبوا أن يعترفوا بان لروح القدس انبثاقين

والمجمع السابع العمومى الذى كان قريب عهد بالجمعيتين السابقتين وكان انعقاده

بمدينة ازنيك (سنة ٧٨٧) بامر القيصرة ايرينة استقرت آراء اربابه على ان عبادة صورالقديسين التى القصدمنها مجرد التشريف لتلك الصور مخالفة لعبادة الثريا المختصة بالله سبحانه وتعالى وخلاصات هذا المجمع التى ارسلها البابا ادريان الى قسوس غليكان لم تترجم ولم تفهم على ماينبغى فى البلاد التى أمام جبال الالب وقد انكر الثلاثمائة اسقف الذين اجتمعوا فى مدينة افرنكفور البدعة التى لم يعمل بها اساقفة المشرق وهى ماحكم به مجمع ازنيك السابق وقدظهرت كتب يقال لها كارولين بقصد الرد على مجمع ازنيك الثانى وامر شرلمانيا أن تهذب وتحرر بين يديه وبعثها الى البابا ادريان الاول مع خلاصات مجمع اساقفة افرنكفور صحبة انجيلبرت رئيس دير سنتوله (سنت ركيير) فلم يستحسن هذا البابا رأى اساقفة فرانسا الذين اجتمعوا فى افرنكفور لكنه رأى انه يجب عليه مراعاة خواطرهم فاكتفى فى جوابه بالبرهنة على ان رأى اساقفة ازنيك فيما يتعلق بمنفعة الصور والتماثيل مطابق لرأى البابا مارى اغرغوار وكان موت ادريان الاول المذكور سببا فى عدم بت الحكم فى هذه المسئلة فاضطربت فيها الآراء ثانيا بمجمع باريس الذى انعقد (سنة ٨٢٥) ثم انحط رأى اربابه على انه لا يلزم كسر الصور ولا عبادتها ولم يقف اساقفة هذا المجمع ولا اسلافهم على حقيقة ماحكم به اساقفة ازنيك ولم ينتشر هذا الحكم وتعتقد صحته الا فى ايام البابا يوحنا الثامن حين ترجمه انستاز ناظر الكتبخانة ترجمة صحيحة دلت على تمسك الكنيسة اليونانية بالمذهب الصحيح وعلى جهل اساقفة المغرب

وكانت جمعية افرنكفور الملية قددعت بالحرمان على ارباب مجمع ازنيك من غير أن تفهم احكامه ولا أن تسمع كلام حماته وقد حصلت مناظرة اخرى كان لهذه الجمعية فيها معرفة حيث سمعت كلام فليكس اسقف مدينة اورجيل ثم انكرت عليه وكان هذا الاسقف يقول ان عيسى من حيث كونه بشرا منسوب اليه تعالى بطريق التبنى لا انه ابنه حقيقة وهذا القول المخالف للعقيدة الصحيحة له شبه بمذهب النسطورية وقد ذكر ألقوين ان هذه البدعة قال بها عدة قسوس من قرطبة وانتشرت فى اسبانيا بواسطة اليبند مطران طليطلة وكان فليكس المذكور قد حكم على مذهبه بالبطلان فرجع عنه ثم قال به ثانيا فكتب كل من ألقوين وبولين دا كيليا فى معارضته والرد عليه واعلن اساقفة افرنكفور بان مذهبه منابذ للعقيدة الصحيحة فعاد الى كرسيه بعد أن تاب ثانيا بين يدى البابا ليون غيران كثرة نقضه للتوبة ورجوعه الى هذه البدعة وان كان بالنسبة

لغيرها

لغيرها على غاية من التقوى كانت سببا فى تشديد الاساقفة الاوستراسيين الذين اجتمعوا فى راتسبونة (سنة ٧٩٩) فعزلوه ونفوه الى مدينة ليون وآل أمره أن مات فيها على عقيدته من غير أن تنفع فى ذلك مراقبة المطران لدراده

وأما اليبند فانه لما لم يكن تحت حكم مجامع اساقفة غليكان التزم ألقوين أن يعيده الى العقيدة القاثوليقية بالترغيب واقامة البرهان ولكن هذا الاسقف الاسبنيولى اجابه بجواب اغلظ فيه القول حيث ضمنه انواع المسبة والتشنيع ولامه فيه على ثروته وكثرة ارقاء ارضه الذين كانوا يبلغون عشرين الفا وسماه اريوس الثانى وتلميذ المسيح الدجال فالف ألقوين رسالة كبيرة فى الرد على هذا الشيخ المعاند الذى مات بعد ذلك بقليل وترتب على موته أن صارت بدعة فليكس ضعيفة لا معين لها ولا نصير

وهنالك بدعة اخرى ظهرت ايضا فى اسبانيا وكانت انجح من الاولى فى فرنسا وذلك ان مجمع القسطنطينية الاول العمومى أدخل فى كتاب عقائد ازنيك ان روح القدس منبثقة من الاب وزاد مجمع طليطلة الذى انعقد (سنة ٦٥٣) على هذه الكلمات كلمة فليوك التى اندست خفية فى كتاب عبادات الغاليكان ففزع البابا ادريان الاول من هذه البدعة القليلة الخطر وعرضها على الاساقفة الذين اجتمعوا ثانى مرة فى اكسيلاشبيلا لاجل المناظرة فرأوا ان زيادة هذه الكلمة لا تنافى الشريعة ولكن لم يعمل بها فى ايطاليا الا فى (سنة ١٠٥٥) وتعللت بها الكنيسة اليونانية فى اثبات مخالفتها

ثم ان المجمعين الشهيرين اللذين اطنبنا فى التكلم عليهما ظهر انه كان لهما حمية وميل الى ما كان يميل اليه شرلمانيا حيث ظهر منهما الاحترام التام لبارعى القرن الثامن وهما ألقوين والراهب بيدا وذلك ان احدهما وهو مجمع افرنكفور اراد ان الشماس ألقوين يجلس فى الجمعية لتستضىء به آراء اربابها فلا تحيد عن الصواب والمجمع الثانى وهو مجمع اكسيلاشبيلا جعل الراهب بيدا فى درجة آباء الكنيسة حيث لقبه بالحبر العجيب

(الفصل الثالث)

(فى الكلام على الآداب والمكاتب العمومية)

اعلم ان التكلم على الآداب التى كانت فى عهد شرلمانيا وكذا فى سائر القرون الوسطى هو امر ضرورى فى تكملة تاريخ القسيسين فان جميع الرجال الذين اشتهروا فى ذلك العصر بمؤلفاتهم ابتدأوا صناعتهم اوانهوها فى الكنائس والاديار لكنه فى الاخيرة

كان اكثر ومما يشق علينا ان نبين الحامل لشرلمانيا على بذل جهده فى حماية الآداب هل هو براعته اوديانته والظاهر ان دين النصرانية هو الذى ارشده الى الطريق التى يسلكها عظماء الرجال وذلك ان هذا الدين الهمه أن يتصدى الى مشروعين عظيمين احدهما كونه كفر ذنب فتوحاته التى سفكت فيها دماء كثيرة بفتحه للمغلوبين ابواب التمدن والثانى كونه حلل الافتيات الجديد (وهو تغلب عائلته على المنصب الملوكى) وجعله من الامور الجائزة شرعا بانقاذ رعيته مما كانوا فيه من الاخلاق الذميمة التى لحقتهم بسبب عجز الدولة المروفنجية

ولما دخل دين النصرانية عند السكسونيين وتمكن من البواريين ظهر به آخر محل للخشونة والتبربر وعما قليل سطعت فى هذا المحل انوار الدين المذكور ومع انه اى الدين كان دائما يعارض اغارات الشمال ويمانعها بما هو اشد هولا من سيف الفاتح اعنى شرلمانيا انتعش التبربر بعد أن كان مضمحلا ومنحصرا فى حدود ضيقة وذلك انه فتحت له عن قريب طريق اخرى ليتسلطن ثانيا على اوروبا المتمدنة ويمحق حتى من وسط فرانسا ما شرعت فيه الدولة الكرلونجية من الاصلاح ولم تكمله

وهذا الاصلاح العام الذى كان شرلمانيا قد رغب فى الشروع فيه وتركه لمن بعده من الملوك غير كامل بذل فيه جميع وسعه وسائر وسايط شوكته وذلك انه بعد أن اعد للتمدن الذى تلاشى واضمحل جميع ما يلزم له من الامور المهمة رآى ان مثل هذا الانعام يمر مر السحاب وان مقاصده لا تثمر شيأ حيث ان تمامها متوقف على الظفر بالتكاسل والاهمال وجهل ارباب الحكم وسآمة الامة التى هى بالبهائم اشبه فلزمه حينئذ ان يجعل الملة جديرة بما اعده لها فى المستقبل حيث جمع ما كان متفرقا من بقايا التمدن القديم ليوفق بينه وبين التمدن الجديد ولم يال جهدا فى تتميم هذا المقصد العظيم فكان كرم هذا الملك وحمايته للآداب وممارسته لها بنفسه واسطة فى جعلها امرا مرغوبا فيها عند رعاياه الرومان وفى تصييرها عظيمة المقدار عند حكام المتبربرين واراد ان اولاده ذكورا واناثا ينشأون على تعلم الآداب من غير أن يهمل فى تربية الذكور التربية العسكرية وفى تربية الاناث التربية المنزلية المختصة بالنساء

ولا يدرى ما حالة اوروبا لولم يخرجها هذا الملك الذى حكمها اربعين سنة من ظلمات الجهالة التى كادت تعم سائر اجزائها فكان من سعد النوع الانسانى ما حمل الملك المذكور من الطمع او الانتقام على الذهاب الى ماوراء جبال الالب حيث رأى بايطاليا آثارا عظيمة من بقايا التمدن الرومانى وكان ذلك اول رؤيته لتلك الآثار فجلب منها الى فرانسا عدة من معلمى النحو والحساب

فعلموا

فعلموا الملة مبادى العلوم و جعلوا عقولها مستعدة لتعلم ماهو اعظم من ذلك
وممن نعترف له بالفضل منهم رجلان حازا الفخر بتعليمهما له مبادى العلوم وهما
بطرس دو بيزه والقوين دو يورك وكان شرلمانيا قد بلغ من العمر اثنتين
وثلاثين سنة من غير ان يعرف القرآءة ولا الكتابة واما تيودوريق الاكبر فمكث
مدة حياته لا يعرف كتابة اسمه غير ان الملك الافرنجى (شرلمانيا) لما كان اكثر تجلدا
وصبرا من الملك الغوطى (تيودوريق) بذل همته فى أن يعود صوته التودسكى
المزعج فى الهجاء على قرآءة المقاطع اللاطينية واراد أن يتعلم الكتابة ايضا لكن
لما كانت يده يابسة من كثرة استعمال السلاح لم يمكن ان تلين لينا كافيا فى نجاحه
فى هذه الصناعة التى شرع فيها بعد فوات اوانها وتعلم الاجرومية على بطرس دو بيزه
معلم مكتب باويا فاكتسب من دروسه معرفة التكلم باللسان اللاطينى كلسانه
الاصلى وذكر ايجنهارد ان شرلمانيا لم يكن يعرف الا اللسان اليونانى فقط
وكان يرى منه انه يشكر الله تعالى على هذه المعرفة التى لم تكمل ومن المحقق انه تعلم
مبادى البيان والمنطق فصار بهما مستعدا لتعلم علم اللاهوت اى ما يتعلق بالاله
وكان له رغبة تامة فيما تضمنه هذا العلم من المجادلات الدقيقة الخطرة وكان ايضا
يرغب كثيرا فى علم الفلك فقد ذكر الشاعر السكسونى انه تعلم قواعد دوران الافلاك
وجميع ما يتعلق بالكواكب السماوية وكل ذلك تعلمه على ألقوين
وكان ألقوين هذا شماسا من الانكلسكسون وسبق فى الازل انه يصير عند
شرلمانيا وزيرا او مشيرا فى المقاصد العظيمة وكان تعلمه فى مكتب يورك الشهير
الذى قاسم مكتب كنتربيرى فى المعارف التى نقلها الى انكلتره اصحاب
مارى اوغسطين وتخرج على ايغبير الذى كان ملكا ومطرانا فلدروسه الفضل
عليه حيث ورث بواسطتها معارف بيدة المحترم وقد اقامه ايغبير المذكور
معلما على مكتبه فصار له فى التعليم بهجة ورونق حتى كان يأتى اليه للاستفادة من
دروسه اهل فرانسا وجرمانيا زيادة عمن كان يأتى اليه من اهل جزائر ابريطانيا
وكان قانعا بوظيفة التعليم التى كان يرغب فيها حتى فى زمن حظوته واقبال الدهر عليه
لقلة حرصه وطمعه ولم يكن هنالك ما يمنعه أن يعتقد فى نفسه انه ظهر فى الارض ليوسع
بعلمه دائرة دين النصرانية عند الملة التى كانت قريبة عهد بالتنصر الا ان المقدور كان
بخلاف ذلك فان شرلمانيا الذى اصلح المغرب كان لا بد له من مساعد يستحق مقاسمته
الفخر فكان بذلك محتاجا اليه
وكان اجتماع هذين الرجلين العظيمين فى مدينة پارمة او پاويا (سنة ٧٨٠)

وسبب ذلك ان شرلمانيا كان قد ذهب الى رومة ليطلب من البابا ادريان الاول التعميد والمسح الملوكى لاثنين من اولاده وكان ألقوين قد حضر هنالك ايضا ليأخذ الطيلسان الاسقفى لصاحبه آنبالد وكان قد انتخب اسقفا على مدينة يورك فلما رآه شرلمانيا ترجاه أن يصحبه ومن يومئذ حصل الالتئام بينهما لتوافق طباعهما وترتب على ذلك فيما بعد ثمرة عظيمة عادت بالنفع على ثلاث ملل كبيرة

وكان مما كتبه ألقوين الى هذا التلميذ العظيم ما معناه قد اهتممت بجلب ارباب الحكمة من جهات مختلفة من الدنيا ليعينوك على مقاصدك النافعة وانى على قصر باعى فى العلم اللاهوتى معدود منهم وقد دعوتنى لذلك من داخل ابريطانيا الكبرى انتهى ولم يأت ألقوين من الجزائر الابريطانية الى بلاد الغلية وحده بل نزل معه على سواحل فرانسا عدة تلامذة من مكتب يورك جاؤا الى هذه البلاد الاجنبية ليقاسموا معلمهم الحظوة والقبول ويشاركوه فى الاهتمامات العظيمة ويمكن ان يعد منهم دونغال الخلوتى وهو الذى انيط بعد ألقوين ببيان الحوادث السماوية الكبيرة والاخبار باوقاتها فى ديوان الملك وورجيل الارلندى وكان يفوق اهل عصره فى علم الفلك وكليمان الارلندى ايضا وهو الذى اعاد الى ايطاليا المعارف التى كانت فرنسا اخذتها منها

وقد كافأ الملك الاجانب الذين جاؤا الى فرنسا بالعلوم والمعارف بما يليق لهم من التشريفات والاموال والميل اليهم بل ترتب على كرمه أن جلب الى مملكته من ارباب المعارف من لا يرغب فى مفارقة وطنه فكم من عالم انكليزى وايطالى وصلت اليه نعمه العظيمة بل وصلت الى من كان يريد التباعد عنها وذلك ان مورخ اللنبرديين المسمى بولص ورنفريد كان قد اختلى فى خلوة بجبل كاسين لئلا تظهر اغراضه وبذل همته مع عائلة ديدية حيث كان له دخل وهو فى خلوته فى التحزبات الثلاثة التى حزبها ادلجيز على حكومة الفرنج بايطاليا فاشير على شرلمانيا ان يعاقب هذا المورخ الخارج عن الطاعة بما حكم به القضاة من فقد بصره وقطع يديه فقال من اين نجد يدا كيده فى كتابة التاريخ وأنعم عليه بمخلفات رجل آخر من حزب ديدية قتل فى المدافعة عن هذا الحزب وحظى منه فى آن واحد تقريبا بقرية لبريانو ومنصب البطريقية على اكيليا وبالجملة فقد حظى منه الاجانب الذين تركوا اوطانهم رغبة فى مصاحبته باسقفيات واديار فى بلاد فرنسا مكافأة لهم على تغربهم الذى كان منهم عن طيب نفس فاخذ لدرادة كرسى اسقفية ليون واشتغل فيها بنشر الآداب وانتخب تيودلف وهو اسبانى الاصل

او ايطالى اسقفا على اورليان واخذ ورجيل اسقفية سلزبورغ فازال
وهو بهما ما انتشر ثانيا فى بلاد كرنتيا من ظلمات عبادة الاوثان وكوفىء ألقوين
على معارفه باعظم اقطاعات المملكة ثروة وتولى فى هذا الوقت بعينه على عدة اديار
وهى كوواتتويك (اناپلس) وفريير وسنت لوپ دتراوه وسنت جوس سورمير
وسنت مرطين دوطورس وقد اقتضت ديانته ان لا يدخر لنفسه هذه الاملاك الكثيرة
بل اوصى بها قبل موته لاعلم تلامذته وبذلك اعتنى بكثرة بذله كثر الانتفاع بالعلم
وهذه التشريفات التى حظى بها هؤلاء الاجانب فى البلاد التى اتخذوها وطنا لهم
كانت اشد تأثيرا من تعليمهم ودروسهم فى ايقاظ الفرنج الى التولع بالآداب وترغيبهم
فيها لاسيما الذين كانت رتبتهم تقتضى مصاحبة الملك ومنهم اثنان مستويان
فى التاريخ بمعنى انه لا يذكر احدهما الا ويذكر الآخر معه كما كانا مستويين فى محبة
شرلمانيا حيث كانا عنده فى منزلة واحدة والفضل عليهما لمعارفهما اذ بواسطتها
لم يؤاخذا على خرافاتهما المتعلقة بامور العشق وقد ذهب كل منهما بعد أن وفى باعظم
الوظائف الاهلية الى الدير ليقضى فيه ما بقى من ايامه لما ان هذه الاديار يلايم الاجتهاد
فى العلم فمكث احدهما وهو زوج برتة فى دير سنت وندريل والآخر وهو عاشق
ايما فى دير سنت ركييرو وكانت معرفة احدهما بالامور السياسية اكثر من معرفته
بصناعة الانشاء فلذا ظهر من بعض انشاآته ان محبته للشعر فوق قوته فيه وكان
الآخر افصح اهل عصره فاودع فى سيرة شرلمانيا ما يدل على قيامه بواجب الشكر
لهذا الرجل العظيم لانه كان امين سره وربما قيل انه تزوج ابنته ومن اطلع على هذه
الاوصاف التى ذكرناها عرف انهما انجلبيرت وايجنهارد

ولا يدرى هل شرلمانيا اوغيره هو الذى خطر بباله أن يجمع فروع العلوم على
اختلافها فى دائرة واحدة ليحصل فيها الانتعاش والانبساط اكثر مما كانت عليه اولا
وهذه الفكرة التى كان بها آخر اول الدولة اللاجيدية يظهر انها كانت قائمة ايضا بجمعية
العلماء التى حدثت تحت حماية ملك الفرنج وكان من اربابها جميع المشاهير من ادباء
ذلك العصر كما يؤخذ من الاسماء الرمزية التى كان يطلقها ادباء السراية على بعضهم
فى مراسلاتهم واشعارهم غير هذا الملك اسمه المتبر وهو كرل وسمى نفسه داود
لانه كان ايضا شهيرا بالسطوات الحربية والمعانى الشعرية ومن ذلك ايضا انهم
كنوا باسم دلية وألبينوس واوميروس وبندار ودميتاس واكيلا
وكنديد وتتنبدل عن امرأة اميرة وهى روترودة وعن احبار ورهبان متواضعين
وهم ألقوين وانجلبيرت وتيودلف وركولف وارنون وويزون وفريديجيز

وقد كتب ألقوين (سنة ٧٩٦) الى ركوانف ما معناه انا كالاب المحروم من اولاده فان دسيناس فى سكس واوميروس فى ايطاليا وكنديد فى ابريطانيا ومرطين حجزه التوعك فى دير سنت جوس وليس عندى خبر محقق عن ميروس الذى لحقه المرض فى دير مارى مرطين

والذى ساعد مجامع العلماء المتأخرين على نشر العلوم وتوسيع دائرتها انما هو المطبعة فهى التى تيسر لهم بها نشر العلوم واشهارها ولو كانت المطبعة موجودة فى الصدر الاول لتيسر بها نشر العلوم ايضا لاسيما فى الازمنة التى كانت فيها مآثر المراسلات على اختلاف انواعها عسرة نادرة فعلى هذا لم يكن ثم واسطة فى تنجيز مقاصد شرلمانيا الاتجرد التعليم الذى هو منشأ شهرة ألقوين العظيمة والفضل لألقوين المذكور على فرنسا فى تنظيم التعليم الذى كان فى الاديار وانشاء عدة كبيرة من المكاتب العمومية التى كان اعظمها مكتب السراية فقد علم فيه ألقوين بنفسه اولاد الملك واولاد الاعيان الاقسام السبعة من الفنون العقلية ولما اقتضى الحال نقله من هذه الوظيفة الى خدمة اخرى اقام مكانه كليمان الارلندى وكان يومئذ هيرنيانى آخر مشتغلا بهذه الوظيفة فى سراية باويا والظاهر ان الترتيب الاهلى اى غير القسيسى كان منحصرا فى هذين المكتبين اللذين كانا معدين لتعليم العموم واما القول بان شرلمانيا هو الذى احدث مجمع العلماء او مكتب باريس فليس هناك ما يؤيده وان شاع على السنة العامة وصرف دوبولاى همته فى البحث عن تعضيده من غير طائل لقلة علمه ومعارفه ومع ذلك كان لهذا المجمع الذى هو اول اختراعات الملوك شرف بدخوله تحت حماية هذا الملك الذى لعلمه وديانته اراد ان يجعل فى كل كنيسة وفى كل دير مكتبا

المكاتب العمومية

وكان اغلب مواضع التعليم القديمة قد تلاشى بالكلية وذلك ان كرلوس مرتيل لما اراد ان يفرق على العساكر جزأ من املاك الكنيسة عمد الى الاديار فجردها دون غيرها عن الاملاك فبذلك تلاشى التعليم واضمحلت العلوم فانه زيادة عن انقطاع التعليم بالمكاتب ضاع مقدار عظيم من ودائع المعارف فى تلك الغارة الجديدة فهى وان حصلت بدون قهر وهرج الا انها كانت مشؤمة على التمدن حيث تخربت الكتبخانات لكونها وقعت من تغلب عليها فى الحيرة من غير نفع وبقلة الكتب تعطل احياء الآداب

وفى بعض الاديار كدير سنت وندريل صار المحل المعد للتعليم لكلاب الصيد المعدة لحظوظ الحربيين الذين تغلبوا على الاديار وبعد أن كان التبرير يتقى ابواب

الاديار

الاديار ومنازل الخور بين كسر تلك الابواب وصار يترآى منه انه يتغلب على سائر
الاشياء فلزم المبادرة بمعالجة هذا الداء ولذا وضع شرلمانيا القانون المشهور
الذى يمكن أن يعتبر انه اساس لاصلاح آداب القرن الثامن ونصه قد وقعت المفاوضة
بيننا وبين اصحابنا فرأينا ان المصلحة تقتضى ان الكنائس الاسقفية والاديار التى تحت
نظارتنا تبذل الجهد فى تعليم الآداب ليتعلم فيها كل من وفقه الله تعالى للتعليم
على حسب طاقته فيجب على من اراد أن يكسب رضاء مولاه بسلوكه سبل الاستقامة
مدة حياته ان يرضيه ايضا بكونه لا يهمل فى شئ مما تكون به استقامة لسانه
وقد اطلعنا على مراسلات عدة اديار فوجدناها مستقيمة المعنى يابسة العبارة فخشينا
أن يترتب على قلة المعرفة بصناعة الكتابة أن لا يكون فى الناس معرفة كافية
فى فهم الكتب المقدسة فكان ذلك موجبا لان نشير عليكم بانكم زيادة على عدم
الاهمال فى تعلم الآداب تجتهدون فى طلبها غاية الاجتهاد حتى يتيسر لكم التبحر
فى فهم اسرار الكتب المذكورة فعليكم ان تنتخبوا لذلك من كان جامعا بين الرغبة
والفطنة فى التعلم ومتولعا بان يعلم غيره اذا تعلم فبذلك تستحقون عندنا الحظوة
والقبول انتهى
وهذه الخلاصة التى صدرت من الجمعية العمومية ارسلت الى المطارنة وكبار رؤساء
الاديار مصحوبة بامر يتضمن انهم يبعثون منها نسخا الى جميع الاساقفة وسائر الاديار
وبعد ذلك بسنتين ظهر قانون آخر انتشر ايضا وكان ترتيبه فى اكس لاشبيلا
وامر فيه الملك امرا قطعيا باحداث مكاتب فى جميع الجهات لتعليم المبتدئين فيها
القرآءة وترتيل ما يقرا فى الكنائس والحساب والنحو
وامر ايضا أن يعطى للصبيان كتب قانوليقية مضبوطة محررة ولهذا الغرض
امر بتأليف مجموع فى المواعظ الدينية ولما اطلع على ما فيه من العبارات السلسة
الرائقة والمعانى المستقيمة فرح فرحا شديدا حيث زال من مملكته ما كان فيها من
اختلال المعانى ويبس العبارات ومخالفة الصناعة النحوية ومؤلف هذا المجموع
يقال له بولص دياكر وقد ارسل المجموع المذكور الى جميع الكنائس ليجرى
العمل عليه فيما يلزم للعبادة والتعليم
وقد بذل ملك اكتينا فى مساعدة ابيه على مقاصده الهمة الزائدة التى من شانها
أن تصدر عن شاب له رغبة عظيمة فى التعلم حيث جلب الى الاقاليم الجنوبية عدة ممن
يعلم القرآءة والترتيل وكذلك جلب اليها علماء لتعليم العلوم الدينية والبشرية فبلغ
فوق ما كان يأمله وحصل له السرور فيما بعد بتعلم اولاده تحت ملاحظته الفنون

العقلية والقوانين الاهلية

وقد وافقه ايضا على مقاصده عدة من الاحبار مع مزيد الالتفات والاعتناء منهم ليدرادة مطران مدينة ليون حيث انشأ فى هذه المدينة مكاتب لتعلم ترتيل قراآت الكنائس ورغب الناس فى تعليم الخط ومنهم ايضا تيودلف اسقف اورليان وكان اعظمهم فى الاجتهاد فانه بذل وسعه فى تحصل النجاح والفلاح للمكاتب الاربعة الكبيرة التى فى اسقفيته احدها فى مدينة فلورى سورلوار اى التى على نهر لوار والثانى فى دير سنت ايان والاثنان الآخران بقرب كنيستى سنت كروا داورليان وسنت ايغردومون ولم يقتصر على ذلك بل اراد ان مبادى التعليم تكون فى وسع سائر العائلات غنيها وفقيرها كما يؤخذ من قانونه الذى ارسله الى نصارى اسقفيته (سنة ٧٩٧) ونصه يجب على القسوس ان يتخذوا مكاتب فى جميع القصبات والقرى واذا جاءهم احد من النصارى ايا ما كان يريد تعليم ولده القراءة فلا يردونه بل يبادرون بقبول ولده وتعليمه حسبما تقتضيه محبة الاخ لاخيه وينبغى لهم ان لا ينسوا ما هو مقرر من ان المتعلم له نور كنور النجوم فى السماء ونور من يعلم الناس العدل والانصاف كنور الكواكب فى العالم فيجب عليهم حينئذ أن يعلموا الاولاد ولا يطلبوا منهم مكافاة على التعليم ولا يقبلوا منهم شيأ الا اذا كان على سبيل الهدية من اهلهم بالطوع والاختيار شكرا لهم على صنيعهم انتهى

وهذا الامر الذى اعتنى به هذا الحبر العالم لاجل شبان اسقفيته اعتنى به ايضا سائر الاساقفة وذلك ان مجمع اساقفة مينسة لما بين للقسوس ما يلزمهم القيام به من الواجبات اوصاهم بالمواظبة على الصلاة والتعليم ليمكنهم ان يكتسبوا معارف كافية ينشرونها بين الناس وامرهم أن يدعوا الاهالى الى ارسال اولادهم الى مكتب الدير او مكتب كنيسة الخورى ليتعلموا فيه الدين والعقائد بلغتهم الاصلية اذ لم يرسلهم اهلهم من تلقاء انفسهم وفى مدة ما كان قسوس نهر الرين مطابقين للفرنج المشرقيين على جهلهم كان احبار بلاد سلتيكه واكتينا مهتمين كهذا الاهتمام فى تعليم الدين للاهالى حيث امروا الاساقفة أن يترجموا باللسان الرومانى والتونوفى اى الجرمانى كتبا تشتمل على العقائد الدينية والآداب الانجيلية ويستدل بهذا الامر على ان اللسان الجرمانى كان لم يزل يتكلم به جملة من الاهالى المستوطنين على سواحل نهر لوار وكانت هذه اللغة بمفردها متسلطنة من نهر السوم ونهر الموز الاعلى الى الثغور السلاوية من السلطنة ومما لاريب فيه انها كانت لم تزل مستعملة عند عائلات البرغونيين الذين ببلاد ليونيزة وويانيزة

وهنالك

وهنالك ما يدل على ان الشبرد بين حافظوا على تلك اللغة التي تشهد بفتوحاتهم فعلى هذا يمكن أن يقال ان رعايا شرلمانيا كانوا يتكلمون بلسانين يكاد انتشارهما يكون مستويا احدهما كان لسان الامة الحاكمة والثاني كان لسان الامة الكثيرة التمدن فكان ارباب الحكم يتكلمون بالاول وكان اهل الكنائس يتكلمون بالثاني وقد اظهر شرلمانيا في مبدء الامر ان قصده نشر لسان الفاتحين في جميع اقاليمه لكنه تحقق ان هذا المقصد وان امكن نجاحه الا انه يؤخر التمدن مع انه يريد اقامته من وقعته ورفعه بعد انحطاطه فمن ثم لم تكمل الاجرومية التودسكية اي الجرمانية التي كان شرع فيها بنفسه

فاذن اللسان الروماني وان تغيرت لطافته الاصلية بالفاظ خشنية استمر على قوته وانتشاره حتى وصل الى اخصاص العائلات التي فرقتها الاغارة في اراضي الغلية وايطاليا وكان يقويه لسان القسوس اللاطيني الذي كان يقاربه من حيث خشونة الفاظه واستوجب الدوام بواسطتين عظيمتين وهما التعليم والدعاء الى الدين

ولما شرع شرلمانيا في تنجيز المشروع العظيم وهو احياء الآداب كانت اديار الانكلسكسون قد شرعت في رد ما اخذته من الارض القارة من الاعانات على تحصيل التمدن ويمكن أن يعتبر ماري بونيفاس كانه مبشر بقدوم ألقوين فله الفضل على مدينة اوترخت حيث اعاد لها كرسيها الاسقفي ومكتبها الذي جلب اليه تلميذه المسمى اغرغوار كثيرا من الفرنج والافريزونيين والبواريين والسوابيين والانكليز بل ومن متبربرى سائر الملل ليأخذوا عنه العلوم والمعارف وبونيفاس المذكور هو الذي اسس (سنة ٧٤٤) ديرفولدة الذي انتشرت منه العقائد الدينية والآداب انتشارا عظيما في جرمانيا وسائر البلاد التي في شمال اوروبا وكان ألقوين قد عزم على أن يقضي ما بقي من حياته في هذا الدير ولكن شرلمانيا اعطاه دير ماري مرطين بمدينة طورس (سنة ٧٩٦) ولم يكن الحامل للملك على اعطائه الدير المذكور أن يكون هذا الشماس قريبا منه وان قال به من لا معرفة له بالاماكن من اصحاب السير بل الحامل له على ذلك هو انه كان يعلم ان بلاد الغلية القديمة وكذلك بلاد جرمانيا كانت محتاجة لتعلم الدين واصلاح القسيسين فقد وجد ألقوين في هذا الدير الشهير رهبانا جهلة منهمكين على الامور الذميمة منابذين للقوانين كرهبان مدينة فلوري الذين وصفهم البابا وبتليان في القرن الثامن بالشره والتهامة والسكر والانهماك على الشهوات فعوّدهم ألقوين بحزمه وغزارة علمه على الاخلاق الحميدة ومحبة الانتظام والشغف بالعلم ولكثرة اموال هذا

الدير جعل اهله بيتا للضيافة يأوى اليه المسافرون ومكتبا للرهبان وقد تخرج على ألقوين المذكور وتلامذته سيجولف جماعة من مشاهير الاحبار وعلماء الرهبان ومن اعظم تلامذته الذين تخرجوا عليه فى مدينة طورس روبان مور الذى جعل معلما فى مكتب فولد فاتسعت دائرة المعارف فى هذا المكتب بما اكتسبه من معارف الانكلسكسون وخرج منه كثيره من المكاتب علماء ذهبوا الى اديار جرمانيا الاخرى وهى ريشنو وهرسوجة واوسنبروى وهذا الاخير خص مكتبه بتعليم اللسان اليونانى من حين انشائه (سنة ٨٠٤) ومع ذلك لم يصل فى الفخار الى درجة المكتب السكسونى الآخر الذى لدير كوربية الفضل عليه فى انشائه وتسميته باسمه وكان ذلك فى عهد خليفة شرلمانيا وكان الغرض ايضا من هذا المكتب اى مكتب كوربيا تمدن بلاد سكس ويعد من مؤسسيه مارى انشيرا وكان جديرا باللقب الذى لقب به وهو حوارى الشمال ومنهم ايضا بشازردبير وهو الذى بذل غاية جهده فى اثبات ان القربان يستحيل الى لحم عيسى ودمه حتى ان المبتدعة من اهل القرن السادس قالوا ان هذه العقيدة من مخترعاته وكان الرومان عند فتحهم للاقاليم قد جعلوا فيها عوضا عن المحافظين قبائل ومكاتب فلذلك الزموا المغلوبين بقوانينهم واخلاقهم ولغتهم من غير ان يحتاجوا فى ذلك الى سلوك طريق الاكراه والاجبار وكذلك شرلمانيا كان يجعل فى فتوحاته اديارا صارت فيما بعد مدنا ومكاتب نشرت فى الناس الدين والمعارف معا حتى صارت ذممهم كفيلة بالطاعة لهذا الفاتح

ثم ان الاقاليم القديمة من حكومة الفرنج وكذلك البلاد المفتوحة طلبت أن تستنير بانوار المعارف التى كانت دائما تصحب دين النصرانية فانتشرت تلك المعارف بين اهل المملكة والقسوس فقط وكانت الاديار منبع ظهورها وانتشارها فلزم حينئذ أن تعود عقول الناس الى نشاطها الاول الذى كان قد انعدم فى بعض الاديار ولم ينتشر الى ذلك الوقت فى اغلبها فانعشها ألقوين فى دير مارى مرطين وغيره من الاديار كدير فريير ومارى لوب دترويس وغيرهما من الاديار التى دخل بعضها تحت نظارته تدريجا والبعض الآخر دفعة واحدة وقد نقل الاحبار ورؤساء الاديار الذين تخرجوا فى مكتب السراية الى ابرشياتهم واديارهم المعارف التى بها تهذيب الاخلاق واصلاح العقول وهى مما تلقوه عن معلمهم ألقوين فهم لدرايته الذى سبق ذكره فقد حث على التعليم الذى كان منذ مدة طويلة مهملا عند رهبان جزيرة بريه وكذلك تيودلف وقد تقدم ذكره ايضا وكان اعظم منه

فى الحمية والاجتهاد حيث اسس ثلاثة مكاتب كبيرة فى ابرشيته التى باورليان واكتسب شهرة عظيمة فى مكتب فلورى حيث كانت تلامذته فى قليل من الزمن تبلغ فى العدد الوفا ولما كان دير ماري وندريل متروكا للعاهة صار محلا للصيد والقنص فانقذه من هذا الابتذال رئيس الرهبان جروولد بهمته واعتنائه وفيما بعد شحنه ايجنهارد بالكتب الثمينة لكونه آثر الخلوة بهذا الدير على حظوظ الديوان ودويه وعججه وكذلك انجيزا الذى هو اول من جمع فى ديره قوانين شرلمانيا ودير ماري وكيير الذى تربى فيه اواخر امراء المروفنجيين استمر على حالته حيث تربى فيه ايضا اولاد القونتات والدوقات بل واولاد الملوك وصار من اعظم المكاتب فى المعارف لما جلب اليه انجلبرت مائتى مجلد اشتراها بمبلغ جسيم فى سفره الى ايطاليا وقد اقتدى باهل الاديار الكبيرة المذكورة جمعيات أخرى حيث تجدد فى القرن الذى بعد قرن شرلمانيا بمدينة لوكسولية وسنت غان وستيور وپروم وستويلو وغيرها مكاتب كان الغرض منها مدافعة التبربر الذى كان ينتشر يومئذ فى سائر الجهات

ومما ينبغى التنبيه له انتالم نذكر فيما اسلفنا من الاديار العديدة التى كانت باذلة جهدها فى تعليم الآداب ديرا من اديار الاقاليم الجنوبية بفرنسا وذلك لان دير انيانة الذى اسسه ماري بنوات لم يشتهر الا بشدة ضبطه للقوانين ودير ماري وكتور بمرسيليا فى الجهة الاخرى من نهر الرون كان قد قصر همته على الاحتراس من اغارة العرب وكانت بجزيرة ليرين قد ضاع فخرها ضياعا مؤبدا من يوم اغار هؤلاء العرب على ديرها وقتلوا رئيسه ماري پوركاريوس وجميع اتباعه (سنة ٧٣٥)

فكانت كثرة اغارات المسلمين سببا فى انعدام اصول التعليمات الادبية من جنوب فرنسا كما اعدمت منها ايضا فنون الصنائع والزراعة فمن ثم لم يوجد فيما وراء نهر لوار من الآثار التاريخية العظيمة ولا من وقائع مواسانة ما يتعلق بالقرن الثامن والتاسع والعاشر حتى ان قوانين الشرطة لم يكن لها وجود فى تاريخ تلك الاقاليم

وحيث ان القسوس هم الذين يحفظون ودائع العلوم و ينشرونها بين الناس كان اعظم مقاصدهم تفسير الكتب المقدسة تفسيرا واضحا بينا وحفظ الاحاديث الدينية على وجه الصحة واستمرارها بواسطة تعلم من يدخل فى القسيسية سير القديسين والاحبار ومعرفتهم اياها ولاجل تحصيل هذا الغرض كانت مبادى اغلب العلوم البشرية لابد من اعانتها فى ذلك فتدارسوها حينئذ فى جميع المكاتب على طريقة واحدة

دائما حيث ان المقصود فى سائر الجهات كان شيا واحدا فمن ثم كانوا يرون انهم لا يصلون اليه بطرق مختلفة لان ذالك العصر لم يكن قابلا للتقدم فى العلوم وكان التعليم لا بدّ له من محاماة الحكم

ثم ان فلسفة ارسطاطاليس التى تزيت باشكال نصرانية واقرها مشاهير احبار الكنيسة صار فيها نوع من الصحة المعتبرة شرعا فاوجب لها ذلك أن تسلطنت فى المكاتب مدة طويلة وفى منتصف القرن السادس اودع قسيودور فى رسالة الفها علومه التى هى الفنون السبعة العقلية وهى النحو والبيان والمنطق والحساب والهندسة والهيئة والموسيقى وهذه العلوم المعدة للتدريس انقسمت فيما بعد الى قسمين يقال لاحدهما ترويوم وللآخر كدرويوم وبادرت ادريار ايطاليا باستعمالها من سالف الزمان ونقلها منها رسل مارى اوغسطين الى انكلترة فى نفس الزمن الذى اشهر فيه ايزدوردوسويلة لمكاتب اسبانيا رسائل متنوعة مبنية على تلك الاصول التى هى الفنون المذكورة والظاهر ان المحترم بيدا لم يخرج عن الدائرة التى حصر فيها اسلافه جميع العلوم وقد نقل ألقوين الى فرنسا ما نشره هذا الرجل العظيم فى انكلترة من المعارف والقواعد ووضع اى ألقوين المذكور الذى هو معلم شرلمانيا ما الزم به قسيودور رهبانه من الاصول على نسق المخاطبات ليستعملها هذا الملك وحاشيته ومكاتبه

وكان وزير تيودوريق وهو قسيودور المتقدم قد اعتنى اعتناء يظهر الآن انه من دأب الاطفال بازالة عيوب الخط حيث كان يخشى منها تغيير اللسان اللاطينى بل ربما كان ينشأ عنها افساد معانى الكتب المقدسة ولما كانت المطبعة لا وجود لها فى ذلك العصر كانت تاليف المؤلفين التى حازوا بها الشرف والفخار تحت قبضة النساخ الذين لقلة ضبط ايديهم فى الكتابة كان يمكن أن تتشوه تلك التاليف بالنقص او الزيادة فمن ثم كانت هذه الصناعة من المصالح العامة المهمة التى تستدعى التفات الحاكم اليها فلذا رآى شرلمانيا انه لا بدّ أن يحمل القونتات والاساقفة ورؤساء الاديار على الالتفات الى النوطير اى المتوطنين بكتابة السجلات وتقييد الحجج التى تكون عن محض الاختيار والى القسوس المتوطنين بتقييد الواجبات القسيسية والى الرهبان الذين من وظيفتهم حفظ المؤلفات الدينية والبشرية لمن بعدهم وكان لا يكفى لذلك مجرد الضبط فى كتابة الكلمات بل كان يلزمه ايضا أن تصير الكتب سهلة على اغلب القارئين بان يرجعوا الى كتابة المتون اللاطينية بالحروف الرومانية التى كانت مهجورة منذ مدة طويلة فى فرنسا باستعمال حروف الهجاء

التوتونيه

التوتونية المرونجية كما كانت مهجورة ايضا في انكلترة وايطاليا باستعمال الحروف السكسونية واللنبردية فاوصى شرلمانيا القسوس من غيران يجعل لنفسه مدخلية فيما كان واقعا من المشاجرة في شأن الحروف التوتونية والرومانية ان يبذلوا وسعهم في الخط الذي جعله ألقوين واعلم رؤساء الاديار امرا واجبا على رهبانهم وكان مبدء اصلاح الحروف الهجائية في دير ماري وندريل باهتمام الراهب اوون والراهب هردوين وممادل على اصلاح تلك الحروف ماتركه رهبان كوربيا ورمس من الكتب الظريفة التي كانت بخط اليد

وبناء على ذلك لم يكن فن الاملاء والخط حسبما شوهد في ذلك العصر اقل ثمرات التعليمات الاولية كما في ايامنا هذه بل كان اهم جزء في علم النحو الذي هو مقدمة لسائر العلوم وكان هذا العلم اذذاك مقصورا على اللغة اللاطينية وان اهملها العامة وصارت لا تستعمل الا في العبادات والشرائع ولم يبق شيء من آثار الرسالة التي كان الغرض من تأليفها تعلم اللغة اليونانية وكانت شرطة اوسنابروك قد الزمت رهبان هذه القبيلة بتعلمها وتعليمها ولكن دلت جميع الآثار على انهم لم ينجحوا فيها الا قليلا وقد تكلم ألقوين في بعض مؤلفاته على متن الكتب المقدسة المكتوب بتلك اللغة واظهر معرفته باللغة المذكورة في مكتوب كتبه الى الجلبيرت ولا ريب انه هو الذي علم شرلمانيا ما كان يتكلم به منها وكان لبواص ورنفريد أمام جبال الالب شهرة باتقانه هذه اللغة التي هي لسان اوميروس وداود لكن لما طلبوا منه ان يحوز فخر تعليم هذا اللسان للقسوس الذين كانوا معدين للذهاب مع الاميرة روترودة الى القسطنطينية اعتذرلهم بما كتبه في جواب رسالة بطرس بيزان الشعرية حيث قال اذا كان قسوس هذا القطر اي فرنسا لا يتكلمون الا باللسان اليوناني الذي يتعلمونه مني فانهم يمكثون بكما كالاصنام و يكونون سخرية بين العالم انتهى فتعين ان يبعثوا من القسطنطينية قسوسا لتعليم هذا اللسان لتلك الاميرة التي كانت مخطوبة للقيصر قسطنطين الخامس فتعلمت من هؤلاء الاجانب اللسان المذكور الذي لم تتكلم به اصلا وكانت تسمى حينئذ ايرترو ولا مانع ان معلمي هذه الاميرة علموا ايضا بعض تلامذة ومن المحقق خلافا لما اشتهر ان اللغة اليونانية لم تنقطع آثارها في القرون التي بعد هذا القرن فهي ان لم تكن في فرنسا كانت ببلاد المغرب

ومن اطلع على تواريخ تلك الاعصر ووقائعها العامة عرف من يبوسة عباراتها وتراكيبها ان قواعد النحو والبيان كانت مهملة فيها فلم تكن اذذاك مستعملة

في المكاتب ومن قرأ الكتب الادبية التي تركها لنا بعض المؤلفين ذهب مذهبا آخر لان مافيها من اختلاط الكلمات اليونانية بالعبارات اللاطينية وسلوك طرق التكلف في العبارات بالاتيان بالفاظ غريبة وعبارات نخيمة تمجها الاسماع لغرابة اساليبها والتساهل في تراكيبها واستعاراتها الغريبة وتأليف كلماتها على نسق وضع الاطفال كل تلك الاوصاف الناشئة عن فساد الذوق تدل على ان مؤلفي الكتب المذكورة كانوا يدعون معرفة علم البيان مع ان بيان ارسطاليس لاتؤخذ منه هذه الامور كلها غير ان قواعده التي ترجمت ترجمة خشنية ضاعت منها قوة اصلها ولم يترك اباء الكنيسة اللاطينية من القواعد ماينسج على منواله فيما يخص الذوق السليم فكان الناس يتعلمون الفصاحة من مواعظ ماري اوغسطين ومارى سيزير وكانت سير القديسين تكسب من يقرأها من الرهبان ذوقا رديا اكثر مما تكسبهم من امثال دين النصرانية

وكانت صناعة الشعر قد انحطت عن درجتها بعد اوليناريس وبويسة وبقيت على اضمحلالها فكان الشعر يتميز عن النثر بعبارات عامية اوثقيلة موزونة باوزان غير مضبوطة في الغالب كالانشاآت التي كانت قبل عصر ألقوين وبعده لاسيما انشاآت ارملدوس وفلدوار وكذلك القصائد الثلاثة الطويلة التي ظهرت في القرن العاشر من غير أن تعلم اسماء ناظميها وكان موضوعها سطوات شرلمانيا وبرانجير ومحاصرة النورمان لمدينة باريس والاشعار الخفيفة ماعدا بعض قصائد لم يظهر منها الابعض نقوش ناشئة عن التقوى وعنوانات على قبور الموتى والغاز وتطريزات مفردة ومزدوجة وهذا ممايدل على ان اهل الاديار كان عندهم نشاط اكثر ممايظن وكان اعظم فضيلة في الشاعر ان يظفر في شعره بالامور العويصة المشكلة ومما لاشك فيه ان ماظهر في الاعصار المعتبرة من القواعد العظيمة لو تعلمه الشبان ونسجوا على منواله لم يكن الامر كذلك بل يكون اعظم مماذكرنا لكن ديانة ألقوين حملته على النهي عن قرآتها خوفا من تأثيرها في الناس فقد لام على سيجولف حيث اقر قسوس مكتب طورس على قرآءة كتاب ورجيل وليس ذلك لكونه اى ألقوين كان يرى مثل ماري اغرغوار ان اسم جبتير يدنس افواه امناء دين المسيح بل كان هذا الرجل الهرم المدقق يخشى أن امناء هذا الدين الذين هم بمنزلة اولاد لاوى في الاسرائيليين يتأثرون ممافي ذلك الكتاب من وصف عشق ديدون وتشتغل به قلوبهم

وقد اسلفنا في غير هذا الموضع ان اباء الكنيسة تمسكوا بمذهب ارسطاليس

لنفورهم

لنفورهم من مذهب افلاطون الجديد فكانت فلسفة ستاغير بمفردها هى المتسلطنة على سائر المذاهب التى فيما فوق الطبيعيات وعلى اشكال الاقيسة وقد اعتقد البابا بولص الاول انه اتحف الملك پيپين بتحفة عظيمة حيث ارسل له من جملة مؤلفات بعث بها اليه متنا يونانيا يتعلق بمنطق ارسطاليس وكان موضوع علم المنطق لم يزل الى ذالك الوقت منحصرا فى بيان المقدمات والمقولات العشر والاقيسة ومواد الاستنتاج كما ذكره ألقوين

ولما تعلم هذا العلم شاب من القسوس وزاد عليه معرفة الكتب المقدسة والموسيقى القسيسية صار هذا الشاب جامعا لجميع العلوم التى يحتاج اليها القسوس ولكن كان يستغنى عنها فى الغالب ولم يحز جميع العلوم التى كانت فى المكاتب الا قليل من الطلبة وكانت المعارف العالية تشتمل على اعظم فروع العلوم الرياضية التى كانت حينئذ لا تستحق هذا الاسم كل الاستحقاق وكان علم الحساب مقدمة لها وكان هذا العلم لم يزل الى ذالك الوقت غير واضح لما ان الارقام الرومانية كانت تعوقه عن التقدم والانتشار فمن ثم لم يكن صالحا لأن يتقدم وتتسع دآئرته بل كان يشوش الذهن و يضعف العقل بمشكلاته التى لا جدوى لها * ومما لا طائل تحته ما كانوا يستعملونه لمعاونة هذا العلم من حساب الاصابع الذى كان مختلطا اختلاطا غريبا لانه كان لا يمكن أن تجرى به عملية فى الاعداد الصحيحة الا بطرق صعبة وكان دآئما لا يؤثر شيأ فى حساب الكسور

ومع ذلك فالعوائق التى كانت تعوق علم الحساب عن التقدم ظفروا بها مع الهمة والقوة لانهم كانوا مضطرين الى تعيين ايام الاعياد المتنقلة فى كل سنة وخوفا من نسيان طريقة الحساب القسيسى فكان ذلك حاملا لهم على الظفر بتلك العوائق اكثر من تولعهم بالتبحر فى العلوم العالية

وفى ذالك الوقت كان علما الهندسة والهيئة يشملان الاقسام الفائقة من الفلسفة الطبيعية وكانوا يتعلمونها فى رسالات عديدة علمية تعزى الى المؤلف بيدا وهو الذى نقل فى مؤلفاته قضايا اقليدس التى ترجمها بويسة الى اللغة اللاطينية ومذاهب پلينوس وارسطاليس وبطليموس فى القسموغرافيا (علم هيئة الدنيا) والحوادث الجوية قال ألقوين فى ترجمته للمحترم بيدا ان هذا المعلم الشهير بين لتلامذته ائتلاف الكواكب السماوية وكسوف الشمس والقمر والمناطق الكروية الخمسة والكواكب السبعة السيارة والقوانين التى بها سير الافلاك والحركات الهوائية التى تثير امواج البحر والزلازل الارضية انتهى ولم يكن هذا العالم الذى هو رئيس دير

وريموت اجنبيا من معارف القدماء الطبية التى ألزم قسيودور بتعلمها رهبان ويواريا وعلمها المطران تيودور فى كنتوربيرى

واذا بناهنا المعارف الطبيعية التى كانوا يتعلمونها فى الاديار زال ما عساه أن يسبق الى وهم اكثر قرآء كتابنا هذا مما تقدم ذكره وان كان له وجه ولنقتصر منها على قضيتين احداهما ان بيدا عرف سبب المد والجزر بطريق الحدس والتخمين وبرهن عليه بعده نوتون * والثانية ان اسقفا يقال له ورجيل ممن تخرج ايضا فى مكاتب ابريطانيا وتقلد منصب الاسقفية على سلزبورغ بين للناس وجود المقاطرين وجميع العلوم البشرية التى ذكرناها كانت تعتبر كأنها آلات ضرورية للتعليمات القسيسية فكانت مستعملة فيها طوعا وكرها وكان لعلم اللاهوت سلطنة على سائر المعارف البشرية وكان اولا يشتمل على العقائد الدينية واصول الآداب والحكمة ثم دخل فيه التاريخ والفلسفة وكانوا لا يتعرضون للبحث عن الحقيقة فى الكتب المقدسة الانادرا خوفا أن يضلوا فيها من غير مرشد يهديهم الى الحق فكانت الشروح المقدسة التى الفها آباء الكنيسة قاعدة لجميع العقائد فكان الناس لا يناقشون فى احكامها وقد اكتسب كل من بيدا وألقوين شهرة وبهجة بتفسيرهما الكتب المقدسة ومع ذلك فلم يتجاسرا على ان يقولا برأيهما الا فى مواضع قليلة جدا فكان تأليفهما فى اكثر المواضع عبارة عن نقل اقوال سلفهما من المؤلفين وكان كل منهما ينبه فى كتابه على ما يبدو له من الاستظهارات الناتجة عن حدة ذهنه اوملكته المميزة بين الغث والسمين حذرا من الخطأ فيما لم يتحققه

ثم ان علماء اللاهوت فى ذلك العصر كان لابد لهم من واسطتين فى التبحر فى العلوم القسيسية المتسعة الدائرة من غير أن يحتاجوا الى امر ثالث يعينهم على ذلك وكانت هاتان الواسطتان مفقودتين اذ ذاك وهما معرفة اللغات الاصلية والمباحثات التاريخية فاذن كيف يتأتى لهم ان يناقشوا فى امور حقة وقع فيها النزاع اوفى آراء مبهمة تتعلق بالعبارات المترجمة التى اقل ما يقال فيها انها مشكوك فى صحتها كالقوانين القسيسية اليونانية التى ترجمها دينيس الصغير الى اللغة اللاطينية وانى لهم أن يقفوا على بطلان قضية منكرة من غير ان يستعينوا على ذلك بالمؤلفات الموجودة فى عصرهم وتحقيقات التواريخ البشرية وكانوا يومئذ يعتقدون صحة القوانين المنسوبة الى البابات فشرعوا فى الاستناد الى تلك القوانين المكذوبة حسبما تدل عليه الرسالة التى ارسلها انجيرام اسقف متز الى البابا (سنة ٧٩٧) ليثبت بها انه كان فى الديوان بوظيفة رئيس الصدقات الكبير وهذا لقوانين المظلمة الفها

ايزيدورمرقاتور

ابريدورس فانور ولم يذكرها البابا ادريان في مجموع القوانين الاساسية الدينية الذى ارسله الى شرلمانيا (سنة ٧٨٥) اما العدم معرفة هذا البابا بتلك القوانين الكاذبة اوانه لاستقامته لم يرض أن يعين الحق بالباطل بخلاف خلفائه فانهم لم يروا فى ذلك اثما

ولما ظهر مذهب الرافضة الفلكسية والمشاجرة فى شأن كسر الصور والتماثيل استيقظ علماء اللاهوت الذين كانوا فى ذلك العصر الى المناظرة والمجادلة التى كانت من اشد المجادلات واشتهر كل من القوين و ولين دا كيليا باظهار الكتب المسماة كارولين التى جمعا فيها تحت حماية شرلمانيا رسائل متنوعة الفها هذان العالمان اللاهوتيان لاجل حماية العقيدة الغليكانية ولم يعارض البيند وكان شيخا غضوبا الابجميته الغضبية وكذلك فيلكس لم يعارضها الا بالمشاغبة والمغالطة وكان ذلك دأبه دائما

وكان العلوم البشرية فى ذلك العصر لم تكن بالنسبة الى علم اللاهوت مقصودة لذاتها بل كانت تابعة له ضعيفة عن لحوقه كذلك الفنون المستظرفة وان كان هذا الاسم غريبا فى تلك الازمنة المتبربرة لم يكن الغرض منها الا الاعانة فيما يكون به رونق العبادة النصرانية وبهجتها وقد حصل للموسيقى التى هى فى الحقيقة تاذين الكنائس تغير كان بيبين لبريف قد عزم عليه قبل ذلك ولم تظهر ثمرة هذا التغير الا فى كنيسة متز والفضل فى ذلك لهمة مارى كرودغنغ ذى المعارف المنيرة وقد شدد قسوس فرنسا فى منع خدم القداس الرومانية وكذلك التاذين اللغرغوارى الذى هو اكمل واتقن من تاذين مارى امبرواز وقد شنع اهل ذلك العصر على موذنى الغليين حيث وصفوهم بالجهل وعدم المعرفة وهو كاذكروا فان مخارج الحروف التى كانت فيهم تتزايد دائما خشونة وقبحا كان يسمع منها اصوات وحشية خشنية شبيهة بدكدكة العربات المختلفة الاصوات وقد اثبت راهب انغوليم على سبيل التفصيل صحة هذا الوصف الموجب للسخرية والاستهزاء وكان هذا الراهب ممن الف سيرة فى شأن شرلمانيا وذكر ايضا انه بعد المشاجرة التى حصلت فى رومة بين موذنى تلك المدينة وموذنى العزبة الملوكية اى معبد الملك عزم شرلمانيا على أن ينشر الاذان الرومانى فى جميع سلطنته وطلب من البابا ادريان الاول أن يبعث اليه معلمين ماهرين ليعلموا الاذان المذكور لمعلمين آخرين فى مكاتب متز وسواسون فتعلم موذنو الفرنج توقيع الاذان على الآلات وأبدلوا اذانهم الذى افسدوه باهوائهم او جهلهم بالاذان الذى نقله من رومة تيودوز وبنوات ومع ذلك كان هذا الاصلاح

فى بعض اقاليم من المملكة غير تام حيث لم تظفر شوكة شرلمانيا القوية بتغيير اذان لوترين

وما كفى هذا الملك فى الفخار أن وسع دائرة سلطنته حتى امتدت حدودها الى مسافات بعيدة بل اراد كما قاله ايجنهارد ان يملأها بالآثار لتكون لها زينة وعزا فامر بانشاء عمارات ومبان عظيمة وزاد على ذلك أن بذل همته فى ترغيب الدوقات والقونتات والاساقفة ورؤساء الرهبان فى الفنون وحملهم على الكرم والسخاء لارباب الصنائع الذين جلبهم من الاقطار البعيدة وكان امهرهم ينزلونه فى السراية الملوكية و يحسنون قراه و يكون تحت ملاحظة ايجنهارد وحماية السنشال الاكبر مباشرة وقد اسلفنا الكلام على قنطرة ميانسة التى قوائمها المنفردة اعجبت مؤرخ سنغال بعد مائة سنة من الحريقة التى احترقت فيها اقواسها التى كانت من الخشب وقد شرع شرلمانيا فى بناء سراية انجلهيم بقرب هذه المدينة وقد تكلم عليها ايجنهارد ومدحها وجعلها فى درجة سراية نميغة لكن ليس هناك شئ من تلك العمارات يضاهى فى الحسن سراية اكسيلاشبيلا التى بناها قريبا من مسقط رؤس عشيرته على ربوة لم يزل يجرى فى اسفلها ماء المنبع السلطانى الحار وكان لهذه السراية مجار من خشب يوصل الى الكنيسة السلطانية الكبيرة والظاهر ان التاريخ لم ينص على ان الملك امر ببناء غير هذه الكنيسة فان المبانى المعدة للعبادة لم تكن اذ ذاك تبنى من اموال الخزينة الملكية بل ولا تحت ملاحظة الدولة فكان الملك كالملتزمين لم يبن فى التزاماته الا زوايا خالية عن الزينة والزخرفة كما يؤخذ ذلك من اسم المدينة التى كانت دار اقامته مدة طويلة وهى مدينة اكسيلاشبيلا فان كلمة شبيلا معناها زاوية واما الكنائس الاسقفية وكنائس الاديار فكانت مصاريف بنائها ولوازمها على الاساقفة ورؤساء الرهبان وذلك ان القسوس كانت لهم اوقاف عظيمة تعينهم على تحمل هذا الامر الجسيم والظاهر ان تلك العصابة رأت ان شرفها فى اتباع ما حثها عليه شرلمانيا فقد اعترف جماعة من اهل ذلك العصر بهمة بعض الاحبار الذين شيدوا بعض مبان جديرة بالمدح والتعجب الا انه لم يبق منها شئ على عهده بل تخربت كلها الان عصر الدمار الذى اعقب موت لويز دبونير لم يسوغ لنا ان نعرف قيمتها ونقف على حقيقتها

ولا يصح ان نتأسى باهل ذلك العصر فى مدحهم لتلك المبانى فانهم قالوا ان شرلمانيا ترك فى مدينته التى كان يحبها أثرا يفوق فى العظم والرونق اعظم مبانى الرومانيين

ولم يترتب على ما قالوه ثمرة فان هذا الاثر وهو الكنيسة الكبيرة التى بناها ثانيا اوتون الاكبر على مستو اوسع من الاول احترق فى حريقة ووقع البحث من الفرنساوية فى محله عن أثر من آثار بناء المؤسس الاول يدل على العظم والرونق اللذين بالغ فيهما مؤرخو ذلك العصر وهم فى خلواتهم ليرغبوا الملوك فى الكرم والانعام فتأسفوا كثيرا حين وجدوا فى اكسيلا شبيلا آثارا تدل دلالة قطعية على ضعف الفنون فى القرن التاسع وتثبت ما يبدو للانسان حين القراءة من ان شرلمانيا اضطر فى بناء هذه الكنيسة الفاخرة الى ان نقل من مدينة راوينة اعمدة الرخام ومواد التزويق التى كانت مزينة مسكن اواخر القياصرة ولنذكر لك ايضا قضية اخرى تدل على حالة هذا العصر من حيثية اخرى

وحاصلها ان راهب سنغال ذكر ان شرلمانيا لما امر ان يبنى فى مدينتى افرنكفورت وراتسبونة زاويتان يكونان على غاية من الاتقان وجودة الصناعة قصرت بهم الجبارة حيث لم تف ببناء ما امر به فاضطر هذا الفاتح التقى فى تكميل البناء المذكور الى امر غريب وهو انه هدم اسوار هاتين المدينتين ليأخذ من انقاضها ما يحتاج اليه من مواد البناء فاذا ثبتت صحة هذه العبارة وانها ليست من قبيل الافتراء والقدح فلا وجه للتعجب من كون النورتمان حين نزولهم بسواحل فرنسا وجدوا بها من الاديار والرهبان اكثر من الحصون والعساكر

ثم ان ماوقع من هؤلاء المتبربرين من التخريبات كان اسلافنا يعتبرونه دائما انه هو الذى امات ما احياه شرلمانيا من العلوم والمعارف التى تركها لمن بعده من القرون فجعلوا التخريبات سببا فيما ذكروه والواقع خلافه وان ما اعتبروه سببا هو مسبب عن شئ آخر حاصله ماهو معلوم من ان القوانين التى وضعها هذا الرجل العظيم لم تظفر بعقول اهل عصره ولو ظفرت بها لما امكن لارباب الصيال من اهل الشمال وهم النورتمان ان يخربوا اقاليمنا بالقتل والحرق ويمحوا ما بقى من آثار التمدن الواهية التى لم تذهب بها المحاربات الداخلية

ضعف التعليم

وكان شرلمانيا نفسه قابل الوثوق بثمرات مجهوداته وذلك انه لما تأسف على خلو مملكته عن اثنى عشر من القسوس المتبحرين فى جميع انواع العلوم كالجرومية والاوغسطينية فى سابق الزمان تحقق ان وسايطه قليلة لاتكفى فى تتميم اعظم مشروعات القرون الوسطى وكان يتراءى من فتور همته فى بعض الاحيان انه يخشى ما يقع فى المستقبل فكأنه استشعر برجوع التبربر كما كان يتوقع اغارات النورتمان

وكان من صفات المكاتب القسيسية فى ذلك الوقت ان نجاحها عوضا عن ان يكون منتظما مستمرا كان معلقا على همة الاسقف اورئيس الدير ومعارفه فلم يكن لها ملاحظ من الدولة راسا اوكانت ملاحظته لها هينة لا تؤثر الا تأثيرا واهيا نعم كان لشوكة شرلمانيا تأثير فى القسوس والاهالى الا ان الحكومة السياسية بعده قصرت فى اعانة الحكومة القسيسية حيث لم تلزم الاساقفة بمايعود نفعه على المملكة وباجراء ما يحط عليه الرأى من الاحكام ولكن ما الذى يرجى من هؤلاء الاساقفة الذين افضت بهم الفتن السياسية الى مشاجرات سفكت فيها دماء كثيرة وساعدوا فى تمزيق المملكة الذى ترتب عليه نتائج مشؤمة منها سلب اموال القسوس الذى كانت عاقبته تلاشى الآداب وضياعها وقد عقد الاحبار قبل ذلك جمعية ضجوا فيها من هذه المصيبة التى كانت قد اشرفت على الوقوع ولما تفرقوا صاروا لا يتفكرون الا فى مصالحهم الوقتية

واغلب الجمعيات القسيسية التى انعقدت بعد موت شرلمانيا طلبت من الملوك ان يكون لهم دخل فى اعانة المكاتب التى صارت متروكة مهملة وامرت جمعية اكسيلاشبيل بان الرهبان القانونيين يتعلمون سائر انواع العلوم وان اكثرهم علما وفضلا يكون منوطا بملاحظة الصبيان الذين يترددون الى مكتب الكنيسة الاسقفية ولاريب ان لويز التقى هو الذى اشار بذلك على الجمعية والظاهر انه ينبغى ايضا اثبات الشرف لهذا الملك بالقانون الذى اشار على ابنه لوتير بوضعه فوضعه ونشره بعد ذلك بعدة سنوات (سنة ٨٢٣) قاصدا نشر التعليم فى ايطاليا باحداث مكاتب جديدة ونص ديباجة هذا القانون ان اهمال بعض رؤساء التعليم ترتب عليه ضياع العلوم من ايطاليا حتى لم يبق لها اثر بالكلية انتهى ولاجل معالجة هذا الداء حث هذا الملك الشباب المعلمين على الاجتهاد وبذل الهمة فى التعليم ولاجل قطع معذرة الشبان المتعلمين فى ترك التعلم بفقرهم اوبعد ديارهم امر بفتح مكاتب فى اعظم مدن المملكة اللنبردية فكان يلزم ان مدينة باويا وايوريا وتورين وقريمونة وفلورنسة وفرمو وويرونة وويسنسة وفريولى يشملها هذا الانعام بان تعمل بمقتضى الامر المذكور خصوصا وكان البابا اوجين الثانى قد اوصى فى هذا الزمن تقريبا الاساقفة والخوريين فى جمعية انعقدت وقتئذ بان يجددوا مكاتب يسهل على كل انسان الذهاب اليها لتعلم العلوم الناسوتية واللاهوتية وكان ذلك (سنة ٨٢٦) غيران مابذله الملك والبابا المذكور من الهمة فى شأن التعليم فى ايطاليا لم يترتب عليه الا ثمرة واهية وكانت فرنسا بهذه

المثابة ايضا
وكان هذا الملك قد امر ايضا وكلاءه أن يفتحوا في جميع الاماكن اللائقة للتعليم مكاتب لتربية الصبيان وامناء الدين وتعليمهم لكن لم يدرك ما كان يامله من هذا الامر فتشكى القسوس ثانيا وترجى مجمع باريس لويز المذكور رجاء كليا أن يقفوا اثر والده بان يفتح مكاتب عامة ولو في المدن الثلاثة التي هي اليق بالتعليم من غيرها من مدن السلطنة وأنهى اليه الشكوى مما عليه القسوس من الجهالة وذكر الاساقفة بامر كان من اعظم واجباتهم حيث ألزم كل واحد منهم بان يأتي بتلامذته الى الجمعية الاقليمية ليمتحنوا فيها فتظهر معرفتهم وطاقتهم
وكانت هذه الطريقة من اعظم طرق التعليم لان المعلمين المتأهلين لذلك كانوا اذ ذاك قليلين جدا وهذا مما يدل ايضا على ان ترغيب شرلمانيا في التعليم لم يترتب عليه كبير فائدة حتى ان رومة نفسها التي هي ام الكنائس والمعارف كان يتشكى فيها من قلة المعلمين فقد قال مجمع الاساقفة الذي كان رئيسه البابا ليون الرابع ما معناه قد بلغنا من جهات مختلفة انه ليس هنالك من المعلمين والاعتناء بالتعليم ما يفي بتعليم الآداب فنروم حينئذ أن تحصل المبادرة والاعتناء بترتيب معلمين يعلمون الناس مع المواظبة الآداب والفنون العقلية والعقائد الدينية ويكون ذلك عند كل كنيسة اسقفية وفي اخطاط الخوريين وفي اماكن اخرى انتهى وزاد البابا على ذلك أن قال اذا لم يوجد في اخطاط الخوريين اناس لهم قدرة على تعليم الفنون العقلية كما هو العادة فلا اقل أن يكون في كل محل منها معلم يعلم الناس الكتب المقدسة والقداس انتهى وقد كرر اساقفة فرنسا هذه العبارة الصادرة من البابا على الناس مرارا ثم ان مجمع اساقفة ولنسة نسب الجهل بالدين واضمحلال العلوم اللذين كانا متسلطنين في اغلب المحال الدينية الى انقطاع التعليم مدة طويلة وهنالك جمعية من الاساقفة انعقدت (سنة ٨٥٨) في مدينة كييرسي سورواز اي التي على نهر واز اشارت على كرلوس الاصلع أن يعيد في سراينه زهرة تعليم الآداب وبهجته وبالجملة فقد طلب الاحبار الذين اجتمعوا في مدينة ساونير (سنة ٨٥٩) احياء الآداب البشرية التي ترتب على امتزاجها بالعلوم اللاهوتية الذي كان يقويه اتقياء القياصرة في سابق الزمان انتشار معارف كثيرة في الكنائس حيث دعا هؤلاء الاحبار جميع الامراء والاساقفة الى اعانة هذا العلم الذي كان قد اشرف على الانعدام وذكروا ان الكتب المقدسة قليل من الناس من يفهم منها معنى صحيحا وعما قليل لا يكون لمن يفهمها وجود بالكلية ثم ان هذا التشكي الصادر من قسوس فرنسا لا يدل على اهمال كرلوس الاصلع

وعدم اعتنائه بتعليم الآداب والتماديل على عجزه حيث لم تكن له شوكة الا فى مجرد صدور الاوامر لا فى اجرائها والعمل بمقتضاها * وانما يدل تشكيهم على اهماله لان الظاهر انه اعتنى فى دائرته الضيقة التى كانت تنفذ فيها كلمته كدبوانه مثلا بتعليم الآداب اعتناءه كليا لينجح وتظهر ثمرته حتى انه كان يود أن يقاسم المعلمين فى فخار التعليم على ما قاله بعض رهبان ذلك العصر وهو الذى الف كتابا فيما ظهر على يد مارى دينيس من خوارق العادات وهنالك راهب آخر يقال له ايريك كان متوطنا بادارة مكتب سان جرمان الشهير بمدينة اوكسيرة اعلن بالشهادة لكرلوس المذكور الذى هو حفيد شرلمانيا بانه كان له رغبة عظيمة فى العلوم والمعارف ولنذكر لك هنا عبارة هذا الراهب الذى كان من خاصة هذا الملك حيث ان اقل جدواها أن يتبين لك بها الفرق بين ما تدل عليه من الاطراء والافراط فى التملق وما اسلفناه عن مجامع الاساقفة من كثرة التشكى والالحاح فى هذا المعنى فنقول كتب الراهب المذكور الى كرلوس ما معناه قد تهيات لك اسباب السودد والفخار الدائم باقتفائك اثر جدك الجليل فانك زيادة عن احيائك لهمته فى العلوم والمعارف فقت عليه بالهمة التى لا تضاهى وابطلت اعتذار غافلة المعلمين عما يحن عليه من الجهالة لاهمالنا وتكاسلنا بكونك اعتنيت اعتناء عجيبا حيث دعوت من جميع اقسام الدنيا اعظم مشاهير المعلمين ليعلموا رعاياك حتى ضجت بلاد اليونان حين هاجر منها ابناؤها وبكت على ضياع اختصاصها بالعلوم حيث انتقلت منها الى قطرنا ولعمرى ماذا اقول فى شأن بلاد ايرلندة حيث لم يخش اهلها اخطار البحر المحيط بل تغرب معظمهم ونزلوا بسواحلنا مع فلاسفتهم على كثرتهم ليحوزوا فخر خدمتهم لسليمان الثانى (يعنى به كرلوس) وقد سلبت من اغلب الملل معارفهم ومعلميهم ومكاتبهم لتتحلى انت ورعيتك بزينة العلوم والمعارف حتى ان الفنون العقلية بجميع انواعها فاضت كالبحار فى ارضك وانتشرت فى اقطار سلطنتك احتقارا لغيرها من الاقطار فتسمية سرايتك بالمكتب العلمى لها وجه صحيح انتهت عبارته

وهذه المدحة التى لم تصادف محلا من مثل هذا الراهب الاوكسيرى محض هزء وهذيان فان هؤلاء المعلمين الذين جاؤوا الى فرنسا من بلاد اليونان وجزيرة ايرلندة انتقلوا منها الى انكلترة لان ألفريد الاكبر كان اذ ذاك مجتهدا فى رفع منار العلوم والمعارف بتلك المملكة ونشلها من اوحال الضعف والاضمحلال التى وقعت فيها منذ فارق القوبن جزيرته وتغلب عليها الدانيمرقيون

وبعد انقضاء حكومة كرلوس الاصلع صار لا يطمع احد أن يجد فى فرنسا

اثر مكتب من مكاتبها وذلك ان النورتمان كانوا قد احرقوا امرة او اكثر سائر اديار المملكة غير ان اتقياء الرهبان الذين تتبعهم هؤلاء السكندناويون ارباب الصيال حتى كانوا يفرون من دير الى آخر لم يقتصروا على ان اخذوا معهم عظام قديسيهم بل اخفوا آثار علوم الاقدمين خشية احتقارها واتلافها وكانت لقلتها يسهل خلوصها وحفظها ولما خرب النورتمان ضواحى باريس فتح اهل هذه المدينة دير الحفظ جثة مارى جرمان واموالهم وكتبه فمن ثم مكث مكتب هذا الدير مدة طويلة يدافع اكثر من غيره غلبة التبربر وساطته لمجاورته لباريس فكانت له حصنا حصينا تمنع عنه كيد الاعداء وكذلك مكتب مارى جرمان دوكسيره فانه دافع ايضا اكثر من غيره مدة طويلة لبعده عن العدو وكان هذا المكتب فى القرن العاشر لم يزل يتردد اليه عظماء الطلبة ليستعدوا فيه الى المناصب الاسقفية وفى هذا الزمن كان دير مارى جرمان ديبريه لم تزل له الرياسة على كثير من المكاتب تحت ملاحظة الشاعر ابون

وفى اثناء القرن العاشر انعدمت الآثار الشهيرة من جميع الجهات حتى لم يبق للمكاتب اثر فصار العلم غريبا لا يجد له محلا يأوى اليه الا المحاريب لان التبربر كان قد تغلب على جميع الاشياء كما ان اختلال الحكم كان ايضا قد عم سائر الجهات فعند ذلك تأسف آخر الشعراء وضج مما كان عليه اهل عصره من الجهالة وتكلم على لسانهم مخاطبا شعره حيث نزله منزلة الانسان وامره بالسكوت قائلا ما معناه

ياشعر حسبك لا تؤمل حظوة * قد بار سوقك بعد طول نفاق

فهكذا كان دمار ما احياه شرلمانيا بن بيبين وجدده من العلوم والفنون لكن لم تزل مفاخره الجليلة ومآثره الجميلة باقية على حالها فانها ثبتت فى العقول بلا زوال وتخلدت على مدى الايام والليالى كأنها تسلية للناس على ما دهمهم بعدها من المسكنة وسوء الحظ وكانت تتزايد بتعاقب القرون والاجيال حتى كانت تظهر فى خلال القرون المظلمة بصورة عجيبة تبهر العقول كأنها اعظم شئ من المخترعات البشرية يكون احرى من غيره بالاستغراب والتعجب ولاخذها بالعقول كالسحر قضى اسلافنا لهذا الفاتح المقنن للقوانين الذى اشتهر فى الحكايات الموضوعة بفرط القوة والشجاعة كما اشتهر بذلك فى التواريخ ايضا وحكموا له بانه بلغ من درجات العظم اقصاها لكن قد جرت العادة انه اذا جاء وقت البحث والتفتيش يظهر غالبا ان ما كان شائعا بين الناس من ان فلانا كان يفوق اهل عصره محض مبالغة وان شهرته فى الواقع لا تصل الى هذا الحد

(الباب الثالث)

فى الكلام على تمزيق سلطنة شرلمانيا وتقسيمها الى دول مستقلة وعلى منشاء ممالك فرنسا والمانيا وايطاليا ولورينه وپروونسة وبرغونيا ونوار من (سنة ٨١٤) الى (سنة ٨٨٨)

قد اخبر اغريبوسوس وهو اسقف من راوينة بانه يأتى على السلطنة زمن تندرس فيه معالمها وتمحى آثارها ومعظم ذلك يكون من اهلها حيث تقع فيها الحروب بينهم ويحاصر كرسيها وتطأه اقدام الاعدآء ويحصل الخروج عليه من جميع الجهات ويصير عرضة للدمار والخراب ويسلب الاجانب اموال ما جاوره من المدائن ويدنسون كنائس القديسين ويجردون قبور الحواريين ويأتى لحمايتها من بلاد الغرب اناس يحلقون رؤسهم الا انهم يسيؤنها

ويحصل فى هذا الزمن جدب عظيم ووباء كبير وتبخل الارض التى هى ام الناس بمحصولاتها ويقسو قلبها على اولادها حتى كانها زوجة اب لا ام حقيقية

فعند ذلك يدفع بعض النصارى الخراج لنصارى آخرين وتنزع الشفقة والرأفة من قلوب الناس

وظهور هذه المصائب انما يكون فى الوقت الذى يتعاظم فيه القسوس ويداخلهم التكبر والتعالى ويتصرفون فى اموال الكنيسة حتى كانها اموالهم فاذا باعوا زينتها وزخارفها تصرفوا فى التزاماتها كيف شاؤا وتصير الاديار دارسة والكنائس مقفرة ويسلب امناء الدين انواع البخور المعدة للمحراب المقدس ولا يوفون بخدمهم وتنهدم الهياكل الدينية وتتفرق قسوسها وتفتضح ابكارها

ويأتى على سواحل البحر امم مجهولة يذبحون ابناء النصرانية ويخربون اديارهم ويسترقون منهم من ينجو من القتل ويذهب اشراف الرومان أسارى فى البلاد الاجنبية وتسلب اموال رومة لكثرتها ويحصل بها حريقة تحرقها وتقوم ذرية الاغاريقيين من المشرق وتسلب اموال المدن البحرية وليس هنالك من تكون له قدرة على طردهم منها لان ملوك الارض يكونون يومئذ على غاية من الفاقة والفقر ويظلمون رعاياهم

وتمحى آثار سلطنة الفرنج الرومانية ويجلس على الكرسى القيصرى ملوك وتأخذ جميع الاشياء فى الردآءة والقبح وتزداد فى ذلك بالتدريج ويتقوى الخدم على ساداتهم ويصير كل انسان لا يعتمد الا على سيفه

ولا يتذكر احد القوانين القديمة بل يسلك كل على ما تسوّله له نفسه من الخبث والايذآء

ويصير

ويصير العدل والانصاف فى حيز النسيان ويستحيل القضاء الى الظلم انتهى .
هذا ما انبأ به بعد موت شرلمانيا بسنوات قليلة هذا الاسقف الذى كان مشهورا بين ابناء عصره بالمكاشفة وما ذكره من المصائب التى قامت بذهنه وقعت كما اخبر من غير ان تنقص شيأ والظاهر انه كان متبحرا فى السياسة فاظهر فراسة سياسته على صورة اخبار انبياء بنى اسرائيل ورأى ان سلطنة شرلمانيا يلحقها ما يلحق غيرها من الفتوحات التى تنال بالسرعة وبعد أن عاين ما بذله هذا الملك العظيم من الهمة والاجتهاد فى دوام سلطنته وتمكينها من غير ان يترتب على ذلك ثمرة رأى ان زمام المملكة الذى كان منذ مدة قليلة قد اتعب يده القوية وتعاصى عليه قد سقط من يد ولده بالكلية وقد اشار لذلك بعض الفلاسفة الالمانيين حيث قال متى فارقت الروح هذا الجسم الهائل آل الى الانحلال ومضت عليه عدة قرون وهو جيفة قبيحة المنظر انتهى (ومراده بالروح شرلمانيا وبالجسم الهائل سلطنته)
وذلك ان اصول الفشل والشقاق التى افضت بالسلطنة الى السقوط والانحطاط كانت موجودة قبل انشائها وكان ظهور تلك الاصول من مبدء احداث المملكة فان تقسيمات فرنسا المروفنجية كانت سببا فى دوام الحروب الداخلية واستيلاء الاعيان على الالتزامات الملوكية وادى هذا السبب بانضمامه الى اسباب اخرى الى اعدام الدولة الكرلونجية وحيث ان فتوحات قلوديس واولاده لم يترتب عليها كمال الاتحاد والارتباط بين غلبى السلت وغلبى اكتينا وهما نسلان مختلفان فى الاخلاق واللسان فما بالك بايقاع الارتباط والالتئام بين الفاتحين الاوستراسيين وامم ابريطانيا واسبانيا وسكس وباويرة وايطاليا فان ذلك يكون اصعب من الاول بكثير * واصعب منهما اتفاق هؤلاء الفاتحين مع الامم الخراجية التى على نهير اودر ونهير التيس ونهر ولترن وجميع هذه الملل التى كانت اجنبية من بعضها وتقاربت بواسطة انتصار الفاتحين عليها منها من تحمل ومنها من انتظر وقتا مناسبا لقطع السلسلة الواهية التى ضمتها الى بعضها بطريق القهر والغلبة فطالت مدة القتال ضرورة حيث ان اغلب تلك الملل لم يكن يعرف الى اين يوجه نظره لانه لم يبق فيهم من العائلات الشهيرة من يجمع الامم المغلوبة ويعيدها الى الاتحاد السياسى وذلك ان شرلمانيا لحزمه وتبصره قطع نسل عائلة ديدية وعائلة الاجيلولفنجية البوارية بوضعهما فى الاديار وكذلك نسل الدوقات الالمانيين والافريزونيين فانهم كثيرا ما تسلطوا وعارضوا فى ارتقاء عائلته لكن لما لم يوجد فى تلك الملل المغلوبة رؤساء ملية تأخذ بناصرهم وجدوا فى نفس العائلة الحاكمة

من انقذهم من ذلك

وفى مدة ما كان السيف يقطع علائق الدولة الكرلونجية فى سائر ثغور الايمبراطورية كانت تلك العلائق يزداد انحلالها كل يوم فى داخل الايمبراطورية المذكورة بواسطة الافتيانات الخفية السرية التى كانت عظيمة التأثير الصادرة من القونتات الذين كانوا وزراء الدولة والاتباع الخراجيين الذين كان الواجب عليهم حراستها وحفظها والاساقفة الذين كانوا قد التزموا ان يجعلوها تحت حماية الدين

وقد انضم الى اصول الشقاق المتقدمة احوال اخرى خارجية عرضت على حين غفلة وكانت ناشئة عن اغارات اخرى من المتبربرين فكانت تعتبر سببا ومسببا فى كمال هذا الانحلال العظيم

وعلى ما ذكرناه يمكن أن نقسم تاريخ اضمحلال الدولة الكرلونجية الى ثلاثة اقسام نذكرها لك على الترتيب فنقول الاول تمزيق الايمبراطورية الى ممالك مستقلة الثانى تمزيق عدة امم متبربرة لجملة من اقاليمها الثالث التمزيق الداخلى فى كل مملكة من الممالك التى انفصلت عن الايمبراطورية الكبيرة ولنبينها لك على سبيل التفصيل مبتدئين بالاول منها فنقول

لما ولى لويز الاول الملقب بين اهل عصره بالتقى وعند من بعدهم بالدبونير اى الحليم المستضعف اتى معه الى سرير الملك بما يستدعيه هذان اللقبان من الخصال الحميدة والصفات الذميمة فقد كان ضعفه ظاهرا حتى فى الامور التى تقتضى التشديد فانه مع تشديده فى اصلاح الطائفة القسيسية خر غير مرة على اقدام البابا واساقفته وكان اعظم مصيبة عليه هوانه كان يميل بالطبع الى فعل الخير من غير أن يودع فيه الله تعالى قوة كافية على ازالة الضرر فقد سعى فى ذلك احيانا ولكن هل ينجح مثل هذا الملك الضعيف فى مشروع خاب فيه شرلمانيا مع انه كان يضع القوانين بذباب سيفه

وكانت همة لويز سارية فى جميع اجزاء الدولة كمنزله والادارة العامة والكنائس وطائفة الرهبان وذلك ان سراية اكسيلاشبيلا التى كانت دسائس النساء متسلطنة فيها تغيرت فى مدة هرم ابيه الى صورة خشنية تورث العار والفضيحة كصورة ديوان القسطنطينية بعد أن كانت تظهر بمظهر المواكب الحربية المحدقة باوائل الهوستالين فنحى عنها لويز المذكور اخواته اللاتى لعزوبتهن الغير الاختيارية نسين ما يلزم النساء من الواجبات وحرمة مقامهن فبعد أن قسم بين اخواته المذكورات وهن بيرته وتيودراته وهلتروده ثلث ما تركه شرلمانيا من الاثاث والامتعة حكم عليهن بسكنى الاديار التى كان ابوه لحزمه وتبصره اعدها لهن

تهذيبات واصلاحات

قبل

قبل ذلك وشدد فى عقوبة من شاركهن فى الافعال الذميمة واغضى هذا النجل الفاضل عن هفوة ابيه حيث اذن لاخوته الذين هم اولاد طبيعيون لشرلمانيا وهم هوج ودروغون وتيودوريق أن يتربوا فى السراية واقر ملك ايطاليا على كرسى مملكته الذى لم يعكر بهجته شئ اصلا وكان هذا الملك ايضا من الاولاد الطبيعيين

والاقاليم التى كان قد تسلطن فيها ظلم القونتات وتعدى اتباع الملك استغاثت بعدل هذا الحكم الجديد فبعث لويز لهذا الغرض ولديه لوتير وبيبين احدهما الى باويرة والثانى الى اكتينا وكان الحال اذ ذاك يقتضى ان البلاد المفتوحة تكون تحت ملاحظة الامراء مباشرة لاجل ايقاع الهيبة فى قلوب اهلها اولغشهم ومخادعتهم فى غرورهم حيث يكون لهم بذلك ملك وان كان فى الواقع صوريا فقط وأمر وكلاء الايمبراطورية أن يطوفوا باجزاء الايمبراطورية الاخرى فوجدوا فى جميع المواضع كما ذكره تيغان مالا يحصى من المظلومين بعضهم قد سلبت املاكه والبعض الآخر سلبت حريته حتى قال بعض شعراء هذا العصر ان هذا التعدى على حرية الاشخاص واملاكهم تكاثر حتى صار كأنه زرع متكاثف أبقى للويز ليحصده بسيف العدل والانصاف فرد الاملاك لمن كان ممنوعا من ارثها وحل روابط الاستعباد التى ارتبط بها الاهالى ظلما واقر لاتباعه الخراجيين من القسوس والعامة ما قرره لهم اسلافه من وثائق الاقطاعات وحجج التبرعات ليحملهم بذلك على احترام حقوق الغير وعلى القناعة بمزاياهم وخصايصهم الثابتة لهم ومع ذلك حمله انصافه الذى ورثه عن والده أن اعاد قانونا من قوانين شرلمانيا يبطل ما تبرع به للكنيسة بقصد اضرار ورثة المتبرع من اولاده واقاربه ومما يدل دلالة واضحة على ان لويز كان يحترم حقوق الورثة ويتبصر فى حفظ العائلات انه اعاد السكسونيين والفريزونيين وراثة املاك آبائهم وقد زعم جلساؤه لشرهم وطمعهم ان ذلك منه ليس من الحزم والتبصر فى شئ ولكنه جنى ثمرة هذا الصنيع فى اسرع وقت

والغرباء الآخرون الذين دخلوا فى الحكومة الفرنساوية بالطوع والاختيار رغبوا فى الرجوع لحكم الاسلام الذى الجأهم الى اجتياز جبال البرنات فوضع لويز قانونا بناه على اصول الحكمة والكرم حيث ردّ به لهؤلاء الاسبانيين اراضى سبطمانيا التى كانوا قد احيوا امواتها بالزراعة وألزم قونتات هذا الثغر ان يراعوا حقوقهم الاهلية ومزاياهم المدنية

وكان هنالك امة من اليهود مكثت زمنا طويلا رحالة نزالة لا تأوى الى وطن وكانت

مبغضة عند النصارى وكانت لنشاطها محافظة على بعض امور تخص التجارة ببلاد المغرب وكانت تفرق فى بلاد اوروبا محصولات المشرق التى كانت هى مجبورة على الاستبداد بها فادخلها لويز تحت حمايته ولم يكترث بالاوهام التى لم يمكن لاعظم العقلاء اجتنابها ونال بعض رعيته ممن لهم ولع بالتجارة ما يقوّيهم عليها ويرغبهم فيها من الامور النافعة ولكن التجارة وان بلغت فى الحرية ما بلغت لا يمكن لاربابها الاستمرار عليها لكن يكون له فيها خصايص ومزايا فان كثيرا من سفن الكنيسة التجارية كانت تطوف سواحل الايمبراطورية ونهيراتها من غير أن يكون عليها شيء من الجمارك والعوايد

وهذه الخصوصية التى انعم بها على القسوس وان كانت تضر بالمصالح العامة الا انه يمكن الاعتذار عنها بانها كانت فى نظير ما طلبه منهم لويز من الوفاء بالواجبات الدينية وذلك انه انعقد فى مدينة اكسيلاشبيلا جمعيتان من الاحبار احداهما (سنة ٨١٦) والاخرى (سنة ٨١٧) سعى اربابهما فى اعادة العمل بالقوانين القسيسية ومراعاة قانون الضبط القديم فامرت الاولى بان العشر من ايرادات كل كنيسة اسقفية يعد لمصاريف بيت ضيافة يأوى اليه الفقراء وابناء السبيل والزمت الرهبان القانونيين بالاشتغال والمطالعة وتعليم الشبان ونصت على ان كل من يضيع منهم ايامه فى الدعة والبطالة لا يستحق المكافأة القسيسية والزمت ايضا جميع الطوائف القسيسية بالانقياد الى قوانين مارى اوغسطين ومارى اغرغوار وغيرهما من آباء الكنيسة وكان بنيوات دريانة قد اصلح فى الاديار اصلاحا واوجب على جميع اهلها أن يعملوا بقانون البندكتية ثم ان تدقيقات هذه الجمعية وتبصرها فى هذا المعنى كانت دون اوامر الايمبراطور فانه بعث الى جميع رؤساء الاديار موازين ومكاييل لتعيين ما يستحقه الراهب كل يوم من الخرج المرتب له وكان شرلمانيا قد عزم على ان يرد للقسوس والرهبان حق انتخاب الاساقفة ورؤساء الاديار وقد اقرّ ولده القانون الذى وضع فى هذا المعنى (سنة ٨٠٣) وهنالك عدة امور تدل على انه مع مراعاته لهذه المزية القسيسية لم ينزل لهم عن حق التوصية

وبموجب تلك الاوامر الصادرة من ديوان اكسيلاشبيلا نزع الاساقفة والقسوس حمائل السيوف الخاصة بالحربيين والمهاميز المتخذة من الفضة والثياب الفاخرة ولو اتبعت اوامر الملك لما كان يرى على اديار النساء رئيس من القسوس وما كان احد من العامة ينشط بادارة اديار الذكور والاناث التى عما قليل تملكها العائلات

وقد اعقب القانون الذى كان الغرض منه اعادة ترتيب الرهبان الى صعوبته الاصلية قانون عين الخدم العمومية المفروضة على المحال الدينية فالزم بالخدم العسكرية ودفع بعض غرامات اربعة عشر ديرا من اديار فرنسا وجرمانيا الكبيرة التى كانت عدتها اربعة وثمانين واوجب على ستة عشر منها ان تبذل هدايا هينة ولم يوجب على الاربعة والخمسين الباقية الا الدعاء للامبراطور

وجميع هذه المجهودات التى كان الغرض منها سعادة عموم الناس لم يترتب عليها للرعايا الا كونهم يرجون طيب المعيشة فى المستقبل لانه يمكن اعتبارها اصلا لما دهم الرعايا وملكهم ونغص عليهم حياتهم من المصائب والمضار التى لا تحصى وذلك ان الملك المصلح اعنى لويز تجدد له اعداء مهولون من طائفة الظلمة التى كانت تستند فى ثروتها وشوكتها الى الخلل الذى كان يريد ازالته فتأهب اسافلها لحماية انفسهم بعصيانه والخروج عليه فعما قليل صارت الامبراطورية التى اغير عليها من خارجها وداخلها متسلطنا فيها الحرب والجدب والوبا وهذه هى اعظم مصائب النوع البشرى وقد سماها بعض شعراء ذلك العصر بالبليات الثلاث الصادرة من اله مركب من اقانيم ثلاثة

ولو كانت الاخبار الديلوماتيقية اى اخبار الالجية اعتمد عليها ووثق بها ولو وثوقا هينا لطمعت الملة فى حصول الصلح فى خارج المملكة مدة طويلة فان الالجية كانوا يأتون من جميع الجهات الى ابن القائح اى لويز المذكور ليلتزموا له بصداقة الامم المغلوبة وكان اول من اتى اليه منهم برنارد فكان فى هذا المعنى قدوة لغيره من الامراء الخراجيين حيث حضر قبلهم الى عمه لويز ليجدد معه المواثيق والايمان التى اقسم بها لجده واعترف رسل اغرموالد الخازندار بان اميرهم هذا اخذ امارة بنيوان من لويز والتزموا له بدفع خراج يبلغ مقداره سبعة آلاف مدى من الذهب وقد دفعها هذا الامير اى اغرموالد مع الصداقة والامانة وكذلك خليفته المسمى سيقون ولما تنازع جماعة من امراء الدانيمرقيين فى شأن ميراث غودفريد انعقد لذلك جمعية فى سكس ورفعوا الامر الى الامبراطور لويز فحكم به لهارولد ومع ذلك لم يمكنه ان يجلس على سرير المملكة التى حكم له بها وقد تعهدت طائفة الاوبوتريتة للامبراطور بان عساكرها تكون فى خدمته وبايع السلاويون المشرقيون هذا الملك الذى كان امبراطور المغرب وكان قيصر القسطنطينية المسمى لاون الارمنى قد نغص عليه البلغار وكدروا عليه فطلب الاعانة من الفرنج الشجعان الذين لم ينهزموا قط الا بالخيانة

رسالات

ووقعت بين الايمبراطور بين مشارطة جديدة تعين بها الحد الذى يفصل الدلماسين الرومانيين رعية قياصرة القسطنطينية من الدلماسين السلاو بين المنقادين لايمبراطرة الفرنج وتجدد الصلح ايضا مع ابى العاص خليفة قرطبة وكذلك عبد الرحمن الثانى الذى تولى الخلافة بعده ولم تكن المشارطات مع المسلمين الا مجرد مهادنات وقصارى الامر ان رئيس الكنيسة الاعظم الذى هو اكبر رعايا الايمبراطور بادر وارسل اليه رسالة تتضمن الاذعان والطاعة ولما مات هذا البابا وهو ليون الثالث وتولى بعده اسطفان الرابع كان اول ما امر به هو الزام الرومان باليمين على الصداقة والامانة للويز واتى بنفسه الى فرنسا ليضع تاج الملك فى مدينة رمس على راس منتخب الامة ومسيح الرب

وجميع هذه الدلائل الدالة على المحبة والصداقة لم يغتر بها لويز فيما اضمره له حلفاؤه ومجاوروه من مقاصد السوء وذلك لانه قد ظهر الخروج والعصيان فى عدة محال من ايمبراطوريته وكان ما بقى من محالها مهددا بذلك فدعا اولاده لمساعدته فى ممانعة هذا الخطب الذى كان يومئذ قريب الوقوع

تقسيم الايمبراطورية (سنة ٨١٧)

وكان شرلمانيا قد وزع فى حياته ممالك على اولاده وكان قد سر لذلك واستحسنه لانه خفف به عن نفسه حمل اعباء الملك وكان واسطة فى سرعة تجهيز لوازم رعاياه من غير ان يلحق الضعف منصبه الايمبراطورى الذى بقى له بدون قسمة ولكن ما ينجح فيه واحد من عظماء الملوك لا ينبغى أن يكون دائما اسوة للملوك المعتادين بحيث ينسجون على منواله فكان اعظم خطاء للويز انه اراد أن يقتفى اثر ابيه الذى كان من فحول الرجال

وذلك ان هذا الايمبراطور اعرض على امنائه فى جمعية انعقدت فى مدينة اكسيلاشبيلا هذه المسئلة وهى هل يسوغ تأخير ما به تمكين التاج وتقوية الحكومة فسر الحاضرون من كلامه لكونهم رأوا انه من باب الاحتراس الذى لا بد منه فعند ذلك ابدى لهم ما فى ضميره ولم يكتم منه شيأ وسألهم هل من المستحسن أن اشرك معى فى الايمبراطورية احد اولادى فبعد مضى ثلاثة ايام فى الصيام والصلاة والصدقة ارضى الملة بان لوتير وكان بكر اولاده يكون ولى عهده فى الايمبراطورية واتحف يومئذ ولديه الآخرين وهما پيپين ولويز بلقب الملك تحت امارة اخيهما الاكبر وكان قبل ذلك قد قرر انه لا يرضى بالقسمة التى تجر الى انحلال الايمبراطورية وعدم اتحادها وتضر بالكنيسة ضررا عظيما

فكان من نصيب پيپين اكتينا وغسقونيا وثغر طولوزة وكركاسيز

واوتونواس

واو تو نواس وأوالنواس ونو برنيس
ووقع فى حصة لويز باويرة وكرنثيا وبانونيا وبوهيميه
وكان مما يلزم لهذين الملكين اللذين رخص لهما فى اغلب الحقوق الملوكية ببلادهما
أن يستعملا تلك الحقوق تحت رياسة اخيهما لوتير حيث ان رضاه لا بد منه
فى اشهار الحرب وعقد المشارطات الصلحية والتخلى عن المدن بل وفى زواج الامرآء
وكان بمقتضى الترتيب ان مملكة ايطاليا بعد موت الايمبراطور لويز تستمر على
الانقياد للايمبراطور لوتير الذى كان بمفرده له الحق فى وراثة اخويه اذا لم يعقبا ذرية
بل لو فرض انهما اعقبا ذرية فليس لها ان تقتسم مملكة آبائها وانما تجتمع الامة
وتختار منها واحدا تقلده بالمنصب الملوكى ويجب على لوتير ان يقره ويتكفل
بحماية مملكته بحيث لا ينقص منها شئ وبالجملة فكان آخر الشروط فيه ايضا
مراعاة لاصول الانتخاب وعدم تقسيم الايمبراطورية وهو انه اذا مات لوتير
ولم يعقب ذرية فللملة أن تعطى التاج الايمبراطورى لاحد اخويه وتلزمه بجميع
الشروط التى بها تمكين اتحاد الايمبراطورية ونجاة اهلها هذا واذا اطلعت على وثيقة
هذه القسمة سهل عليك ان تفهم من كل سطر من سطورها انه سيقع حرب داخلى
بين اهل الايمبراطورية فانها كانت وثيقة السوء والشر حيث كانت علامة على
القيام والخروج عن الطاعة
وكان برنارد ثالث الامرآء الثلاثة الذين اضرت بهم هذه القسمة فانه كان فى سن
يدرك فيه عاقبتها ففعل اولا مايدل على انه يريد الاستقلال حيث حصن طرق جبال
الالب وحمل جميع مدن ايطاليا على الدخول فى المعاهدة الملية التى كان يحتمل
ان الغرض منها اعادة المملكة اللنبردية وكان هنالك جماعة من ارباب الطمع يقال
لرئيسهم ايجديه غروا هذا الملك الشاب واطمعوه فى التاج الايمبراطورى
وقووا امله فيه حتى كأنه بين يديه وكان هذا المطمع من قبيل الاوهام التى
لا حقيقة لها ومن باب الافتيات والتعدى فان نسبه المعيب وقوانين الايمبراطورية
والمواثيق التى اخذت عليه كل ذلك يمنع هذا الطمع ويبطله
فسير الايمبراطور لويز جيشا على ابن اخيه برنارد وكان وقتئذ قد جاوز جبال
الالب فلما دنت عساكر الاوستراسيين من العصاة وقع فى قلوبهم الرعب والفزع
واخذ عددهم فى التناقص كل يوم بمن كان يتخلى عنهم من الناس فاضطر عند ذلك
برنارد للتسليم وذهب الى مدينة شالون سورسون وخر على اقدام الايمبراطور
مؤملا انه يستحق الصفح عنه بما ابداه له من الاقرارات التى كان كلما صدق فيها زادت

فى جرمه وذنبه وذلك انه اقربان رؤساء العصبة هم ايجديه اصدق اصحابه ومبجنهيرة قونتة السراية سابقا والحاجب ريجنهيرة الذى ورث عن جده هرتزادة الميل الى الخروج و العصيان وكراهة الكرلونجيين وأنسيلمة مطران ميلان وقد ادرج ايضا فى هذا الاقرار الغريب اسقفى كريمونة واورليان وهما وولود وتيودلف ففوض امر برنارد وشركائه فى اقتراف الذنب من العامة الى مشورة اكسيلاشبيلا لتقضى فى شأنهم بما يقتضيه الاقدام على الذنب فى حق الايمبراطور فحكم اربابها على هؤلاء المذنبين وهم بين ايديهم بالموت غيران لويز لحلمه وحسن تغاضيه لم يرض بتنفيذ هذا الحكم وانما لكثرة الالحاح عليه فى انه لابد من معاملتهم اسوء المعاملة مع التشديد والقساوة اذن ان يقرب من اعينهم قطعة حديد ملتهبة كالجمر ليفقدوا النور من ابصارهم وقد نقل له ان الجلادين لما رأوا ضجر المذنبين ومقاومتهم لهذه العقوبة القاسية حملهم ذلك على انكار حلم الايمبراطور وان هذا ليس من الحلم فى شئ واما الاساقفة الثلاثة فحكم عليهم بالنفى بعد أن خلعوا عن مناصبهم وانحطوا عن مقاماتهم فى جمعية قسيسية ومع ذلك فقد تشكى تيودلف فى اشعاره بما معناه ان طرق فصل الدعاوى التى اوجبت الشريعة سلوكها فى حق الرعاة و الجبارة وارقاء الارض لم يعملوا بها فى حق الاسقف ومازال يظهر برآءة نفسه حتى انقضى اجله ولم يعبأ بما وعد به من المسامحة والصفح اذا هو اقر بذنبه واعترف

وهذه الخيانة الصادرة من برنارد اوقعت فى نفس لويز الشبهة واساءة الظن باولاد شرلمانيا الثلاثة الذين اعقبهم من نساء كن تحته من غير نكاح شرعى حيث خشى منهم أن يوقظوا الفتنة كبرنارد ويحملوا الاهالى على التقلب والاضطراب فحكم عليهم بالموت السياسى وهو سلب صلاحيتهم للسياسة والاحكام وصيرورتهم غير قابلين لها حيث وسمهم بالرسمة الرهبانية وامر بتعليمهم العلوم العقلية ليتأهلوا لما اعده لهم من الاسقفيات والاديار

ولما امر لويز بهذه الافعال القاسية المنابذة للرأفة القلبية والشفقة الانسانية وان كانت مطابقة للقوانين الشرعية اهتم باجراء هذا الامر الصعب وان نفر منه قلبه ولم تطمئن اليه نفسه فعما قليل اخذته نفسه من ذلك وصار كثير الوسوسة لا يهنأ له عيش فاراد تكفير هذه الخطيئة على رؤس الاشهاد فطلب ذلك وكفر سيئته فى مجمع اتينى القسيسى فعرف الاساقفة من يومئذ أن يجعلوا مطالبهم على حسب ضعف هذا الايمبراطور وقد اغتاظ الكبار الذين حكموا على برنارد

تمام الملك لويز في التكفير حيث دل فعله على انهم عدلوا في حكمهم عن طريق العدل
والانصاف وسقط من اعين اولاده فصاروا لا يحترمونه ولا يهابونه
وبعد الحكم على برنارد بثلاث سنوات اعطى للوتير حكومة ايطاليا
فاجتاز هذا الامير جبال الالب ودبر مع وزيره والا امور هذه المملكة
ثم توجه الى رومة ليتوج البابا پسكال الاول بالتاج الملوكي وكان ذلك
(سنة ٨٢٣) وكان الرومانيون دائما لا يتحملون حكومة الجرمانيين فيهم الامع
المشقة والصعوبة فبمجرد مابلغهم موت شرلمانيا قاموا على البابا ليون
الثالث لانهم كانوا يبغضونه لتتويجه هذا الامبراطور وفي عهد البابا پسكال
المتقدم بعد تتويج لوتير بمدة اشهر قتلوا في سراية لتران رئيسين من ارباب
وظائف الكنيسة الرومانية لانهما اشتهرا ببذل الهمة في مصلحة الامبراطور واتهم
البابا بانه كان له دخل في هذه المظلمة فبرأ نفسه بحلفه في حضرة وكلاء لويز انه
لادخل له في ذلك ومع ذلك لم يسلم في القاتلين فسر الامبراطور لظهور برآءة البابا
ورأى ان الانسب ترك هذه الدعوى الصعبة وعدم اقامتها
وبعد ذلك بعدة اشهر حين خلف اوجين الثاني البابا پسكال بواسطة الطائفة
الارستوقراطية (سنة ٨٢٤) ذهب لوتير بنفسه الى رومة وتشكى
من قتل اصحابه ومما كان يلحق احزاب الفرنج كل يوم من الاضرار والاساءة وقد وقع
البحث عن سبب ضجر الناس وعدم انبساطهم فظهر ان ذلك ناشئ عن شره القضاة
وطمعهم حيث ضبطوا على اموال عدة من الاهالي من غير مقتض يسوغ ذلك
لجهل بعض البابات اواهمالهم فامر لوتير برد الاموال الى اربابها ووقع الاتفاق
على ان الامبراطور هو الذي يبعث القضاة كما هو العادة القديمة ليحكموا بين
الرومانيين على وجه العدل وعدم ترجيح انسان على آخر وزيادة على ذلك اخذ هذا
الامبراطور العهود والمواثيق على ارباب مشورة السنت والقسوس والامة
الرومانية على ان يكونوا امناء واصدقاء للامبراطورين لويز ولوتير وان لا يسلموا
للبابا في انتخابه اذا لم يكن على مقتضى القوانين القسيسية وان لا يتقلد البابا بمنصبه
الا بعد أن تؤخذ عليه أمام الامة ونائب الامبراطور العهود والمواثيق التي اخذت
على اوجين وقد جرى العمل على ذلك فان البابا اغرغوار الرابع الذي هو
خليفة اوجين رأى حين توليته ان انتخابه لهذا المنصب مفوض لرأي نائب
الامبراطور ولكن هذا البابا الذي يعتبر كأنه مبشر بالبابا اغرغوار السابع
لم يكن عنده مزيد اعتناء برياسة الامبراطور وكذلك غيره من البابات نسوا

فى اغلب الاوقات عهود اسلافهم فمن ثم جدد الايمبراطرة تلك العهود فى عدة احوال شهيرة اقتضت ذلك

ولم يرَ لويز مقتضيا لكونه يذهب الى رومة و يباشر بنفسه امورها التى جاءت شرلمانيا غير مرة على التنقلة الى ماوراء جبال الالب وذلك لان الاخبار التى كانت تأتيه دائما من ثغور ايمبراطوريته اقتضت انه لايبرح عن دار اقامته وان مكثه فى مركز مملكته امر ضرورى لابد منه هذا و يحتمل ان نوابه فى الحكم هم الذين منعوه أن يذهب بنفسه ليرى ماهو واقع فى اقاليمه

قيام الامم الخراجية

ثم ان العهود والمواثيق التى اخذت على الامم الخراجية وكان غرضهم منها أن يثق الايمبراطور بهم ولا يلاحظ افعالهم لم تطل مدة منعها اياهم عن القيام والخروج عن الطاعة بل ظهر خروجهم فى وقت واحد تقريبا من اطراف الايمبراطورية المتقابلة حيث ظهر ذلك منهم فى سواحل نهر البه ودراوة وادور وكان الدانيمرقيون يعينون فى ذلك السلاو بين الشماليين واما سلاو بو بانونيا فكانوا معتمدين فى قيامهم هذا على البلغار وكان عرب اسبانيا مادين ايديهم لاعانة اهل نوار وسبطمانيا واما الابريطانيون فكانوا يطمعون فى استقلالهم ببعض شجاعتهم من غير احتياج لغيرهم

وذلك ان الدانيمرقيين طردوا فى (سنة ٨١٤) الملك هارولد وكان لويز قد تكفل بحمايته من اولاد غودفريد الاربعة فصدر امره للقبيلة الاوبترية أن ينضموا الى رؤساء سكس وكانوا يلقبون مرجراو ليعيدوا هذا الملك المطرود الى حقوقه وكان ذلك (سنة ٨١٥) ولكن هذه القبيلة السلاوية وهى الاوبترية التى كانت مع شرلمانيا على الامانة والصداقة خرجت عن طاعة الايمبراطور فى اسرع وقت (سنة ٨١٦) متأسية فى ذلك بالطائفة السرابية التى كانت قد اهتمت باسترجاع استقلالها فانضمت القبيلة المذكورة الى حزب اولاد غودفريد حين ألزم الايمبراطور دوقها سكلومير أن يتقاسم الحكم مع احد اولاد تراسيكو المسمى سيادراغ وقد بلغ الشاب ملك باويرة حين مروره بنهر الرين أن حكومة جرمانيا لاتخلو عن الخطر وكان الدانيمرقيون قد صعدوا فى نهر البه بقصد الاغارة على محافظى اسسفلد وكان الاوبترية قد حاصروها من جهة البر ولكن دافع الفرنج اعداءهم وظهروا عليهم واتى قونتات الثغر السكسونى بالدوق سكلومير الى الايمبراطور واوقفوه بين يديه اسيرا اومنقادا لاوامره (سنة ٨١٩) وكان الدوق المذكور قد اقسم انه لايعود الى ديوان

الايمبراطور

الامبراطور وحظى سيادراغ ببلاده فعاد الاوبتريه الى طاعة الامبراطور وكذلك السمرابية والوزيه وفى ظرف عدة سنوات قليلة رأى لويز انه قد حضر فى محكمته التى كان فيها بمنزلة القاضى دوقات هؤلاء الملل الثلاثة اوطلابها

ثم ان الاوبتريه اعانوا هارولد محمى الامبراطور ليجبروا بذلك خلل نقضهم للعهد والميثاق وكان ذلك اول مرة فى جبر الخلل المذكور فاقتسم بلاد دانيرقة هو واثنان من اولاد غودفريد لكنه طرد منها ثالث مرة والذى طرده هو هوريق ورنيارلدبروغ فاتى ليستعين بالدخول فى دين النصرانية فتعمد فى مدينة مينسة معتقدا انه يحظى باعانة الملك اتركتيان اى شديد الغيرة على دين النصرانية بواسطة رفضه لدين اودين (سنة ٨٢٦) فلما صار لويز بذلك ابا دينيا لهذا الدخيل الدانيرقى فى دين النصرانية اتحفه بقوتية روسترنجان ببلاد فريزة لتكون له ملجأ اذا حلت به مصيبة اخرى فعند ذلك جعل هارولد مملكته الصغيرة التى كان لا يوثق بقائها تحت رياسة الامبراطوريه ولاجل الوثوق بصداقته طلب قسوسا لينذروا بالانجيل الدانيرقيين ويدعوهم الى الدين وكانوا قبل ذلك لم يجيبوا دعاء المطران ابون ولم يكن فى فرنسا يومئذ من الرهبان الذين لا يخشون خطر الدعاء الى الدين الا اثنان وهما انشير دوكوربيا واوتبرت فاما الاول فترك ما كان عليه من الهدء فى تعليم مكتبه ليعلم اللصوص المتوحشين آداب دين المسيح واما الثانى فانه اراد مشاركته فى الانذار والدعاء الى ذلك الدين وكان يترآى على هذه الارسالية انها تنجح فى دانيرقة وكذلك فى اسوج وكان قد ذهب اليها انشير ومكث فيها مدة يسيرة اجابة منه لطلب الملك بيورن فانه كتب الى لويز مكتوبا بالحروف الرونية يطلب منه قسوسا يدعون الى دين النصرانية فى بلاده ولكن لا مانع ان يقال ان معلم مكتب كوربيا لم يجتز بحر بلطق الا ليطلع على الاماكن ويعرف استعداد هذه الامة التى لم يكن ظهر لها رغبة فى الدين الى ذلك الوقت وقد خاب سعى انشير المذكور حتى فى دانيرقة لعدم ثبات هارولد على حالة واحدة حيث رفض دين النصرانية رغبة فى الصلح مع قومه

ولم يترك الامبراطور اجتناء ثمار غيرته فى استمالة الناس الى الدين حيث ترك انشير فى مجاورة الدانيرقيين برتبة مطران همبورغ (سنة ٨٣١) وقد زاد فى شرف هذا المنصب الجديد ورفعته اغرغوار الرابع حيث اتخذ داعى الدانيرقيين اعنى انشير بلقب نائب البابا فى الشمال واراد الامبراطور ايضا أن يكافىء ابون على بذل همته فى الدعاء الى الدين فاشركه مع انشير فى تلك الرياسة وقد اعتقده مطران

رمس وهو ابون المذكور انه انضم الى مطرانيته اقليم كبير حين ارسل الى اسوج ابن اخيه المسمى غوسبرت ولقبه باسقف القطر وكان الدعاء الى الدين فى هذه المرة لم يصادف محلا ايضا غيران الدين كان قد دخل غرسه فى بلاد الشمال واثمر كثيرا وان تأخرابان اجتناء ثمراته

ثم ان قيام سلاوبى بانونيا المشرقيين وخروجهم عن الطاعة اورث الايمبراطور من القلق والجزع اكثرمما اورثه اضطراب سلاوبى الالب وعدم استقرارهم على حالة واحدة وذلك ان رئيسهم ليودويت الملقب كرول كان قد تشكى من ظلم كادولاك دوق فريول وكان هذا الدوق لمعرفته بلسان المتأخرين وتكلمه به متقلدا بالولاية العامة على الاقاليم الايليرينية فلم تسمع شكواه اوظن عدم اجابتها فاعتمد على مساعدة الطائفة المسماة كرن التى على نهر ساوه وعلى اعانة الكرنثيين فقاموا معه حين دنا منهم (سنة ٨١٨) وينبغى ان لايشك فى ان جميع اعداء الحكومة الفرنجية السريين دخلوا فى حزب ليودويت الذى كان مرامه انقاذ كافة الناس من تلك الحكومة ولم يعرف كادولاك الذى ظلم ليودويت المذكور كيف يقاتله ولما طرد بلدريق وهو خليفة كادولاك عصاة السلاويين من سواحل نهر دراوة نزلوا ببلاد دلماسيا فجبر برما السلاوى وهو دوق تلك البلاد على ان يتركها لتخريب هؤلاء العصاة لكون السلاويين الغودسقانيين تخلوا عنه فلما وصل اليه فرقة من الفرنج سهل عليه أن يأخذ نوبته فى الهجوم لكن ليودويت اعتنى بتحصين ثغوره واعانه على ذلك مهندسو اليونان الذين ارسلهم اليه بطرق غرادو واشار عليه ان يستمر على ماشرع فيه

وكان ليودويت قد التجأ فى حصن شامخ ولم يلتفت للمداولة فى الصلح ولما مات برما ظهر بموته اقبال الدهر اليه ثانيا غيران دوق دلماسيا الجديد المسمى لادسلاس تقوى بثلاث فرق من الجيش وطرد ليودويت من دار اقامته والجأه الى الهروب عند السرابية وهم سرويوا ايليرية فتلقاه رئيس دلماسى يلقب بانه فقتل ليودويت مضيفه هذا واستولى على مدينته وتحصن بها ولكنه فى نظير تلك الخيانة عوقب بخيانة مثلها حيث هلك بمكيدة اوقعه فيها احد اعمام برما (سنة ٨٢٣)

والذى يظهر لى ان هذا البطل المولع بالحوادث والمشروعات كان ينجح من غير شك فى هذا المشروع الخطر نجاحا حسنا لو كان البلغار عزموا قبل ذلك بسنة على ان يكونوا على الفرنج واتخذوا سلاوبى نهر دانوب انصارا لهم عوضا عن كونهم اتعبوهم بغاراتهم

والكن

ولكن حين طلب ملكهم المسمى اومرتاج من لويز بواسطة ثلاث ارساليات أن يعين وكلاء لتعيين حدود الدولتين (سنة ٨٢٤) طلب اوبترية داسيا من لويز ايضا امدادا يستعينون به على هذا الملك لتعديه عليهم فبذلك قويت دولة اكسيلاشبيلا على عدم الالتفات الى رسل البلغار وعدم اجابتهم فيما طلبوه فسئم اومرتاج من كونه لم يأته من هذه الدولة الا اجوبة لا تتضمن سوى المحاولة فاغار دفعة واحدة على بانونيا (سنة ٨٢٧) واظهر ان مقصده ضمها الى مملكته حيث جعل فيها حكاما بلغاريين بدلا عن الدوقات السلاويين وصعد جيشه فى نهر دراوة وخرب سواحله ولحقت اغارات هؤلاء المتبربرين بلاد ايطاليا فبعث الايمبراطور ولده لويز ليدافع عن الثغر الذى كان وقاية لمملكة باويرة ولكن يظهر ان ما كان آخذا يومئذ فى الظهور من الفتن الاهلية والانقلابات الداخلية كان سببا فى اهمال الثغور الشرقية فكان اذ ذاك الحكم على جنرال منهزم اسهل عليهم من مدافعة البلغار وذلك ان جمعية اكسيلاشبيلا الملية تعللت بان جين بلدريق فتح للبلغار باب النصرة واخذت منه دوقية فريول التى انقسمت الى اربع قونتيات وكان ذلك (سنة ٨٢٨)

وقد حكمت هذه الجمعية ايضا بمثل ذلك الحكم على القونتات المنوطين بحراسة جبال البرنات فنسبت الى اهمالهم النجاح الذى حظى به العاصى ايزون فى بلاد غوطيا التى خلف جبال الالب (سنة ٨٢٦) وكان هذا القونتة بعد أن استولى على اوزونة (ويك) وروزس وعدة حصون تماهدمع عبد الرحمن الثانى الذى ترتب على اعانته له أن استولى على عدة حصون اخرى وكان التخلى عن الفرنج آخذا يومئذ فى الازدياد وكانت بلاد قتالونيا تنفصل عن فرنسا لوان برنارد دوق غوطيا الذى كان رئيسا على العساكر فى برسلونة هلك باجتماع قوة ايزون والامير ابى مروان (سنة ٨٢٧) لكن انى اليه ملك اكتينا وانقذه من ذلك بجيش عظيم كان يحصل له من النجاح اعظم مما حصل له لولم يقع فيه الجبن او الخيانة من عدة قونتات فرجع الاعداء الى سراغوسة ومع ذلك لم يتخلوا عن قونتية اوزونة ولا عن بلاد طرطوزة ولريدة وطراغونة التى بقيت فى حكم الخلفاء الى (سنة ٨٨٦) وهى السنة التى اعادها فيها وفريد قونتة برسلونة الى امارة ملوك الفرنج لا الى حكومتهم

وفى الطرف المقابل لسلسلة جبال البرنات الامة البسكية وهى امة من طبعها الغيرة على استقلالها وقد رأت ان استقلالها عاد اليها فى اليوم الذى قبر فيه شرلمانيا

وقد حمل الغسقونيون الستربور اسلحتهم من (سنة ٨١٦) على ظالميهم متعللين بان الاعبراطور عزل دوقهم سجوبن او سجين وكان مع فساد اخلاقه واختلال طباعه محبوبا لديهم لما انه كان من نسل امرائهم ومع ذلك فلم يمكن لدوقهم الجديد المسمى لوب سنتوله أن يمكث مدة طويلة على مقاومة همم ملك اكتينا فان هذا الملك جرده من لقب الدوق وبذلك انتهت سلسلة دوقات غسقونيا القديمة واما الامة البسكية التى ببلاد نوار فقد سلكت فى المدافعة عن نفسها مسلكا احسن مما سلكه اخوانهم اعنى البسكية المستوطنين فى شمال جبال البرنات وذلك انه التزم بقمعهم قونتتات من غسقونيا وهما ازنار وابل فاجتازا الجبال ومازالا فى سيرهما حتى اعادا الحكم الاعبراطورى فى مدينة بپلونة غيرانهما نسيا ان دخول اسبانيا اسهل من الخروج منها فقد حصلت واقعة ثانية فى رنسوو وثبت بها استقلال نوار (سنة ٨٢٤) وقد بعث اهلها القونتة ابل الى خليفة قرطبة كأنه غنيمة أهدوها اليه حلفاؤه واما القونتة ازنار فكان اوفر حظا منه حيث ترتب على هزيمته فخاره فان النوار يين لم يروه عدوا لهم بل رأوه من نسل قدماء امرائهم فأبقوه عندهم ليحكم عليهم وقد تفرعت عنه فروع شغلت فيما بعد جميع التخوت النصرانية ببلاد اسبانيا فكان كساق شجرة امتدت اغصانها على تلك البلاد

ولما بايع الامم الخراجية خليفة شرلمانيا لم ير فيهم بدلو انه نواب الابريطانيين فان هذه الامة التى لم تخضع لاحد كانت لا تعرف خراجا الا الاسنة ولا انقيادا الا القتال ولا احتراما الا التكبر الخشنى وكان شرلمانيا قد عاقبها على استقلالها وقيامها بنفسها لكنه لم يسلبها تلك الصفة العظيمة فلم تكن معتبرة كالرعية ولا كالمعاهدين فان ملوك الفرنج كانوا قد اقاموا فى ثغورها محافظين على الدوام تحت اوامر حكام نانت ورنس وانجيرس وكانت الدولة الفرنجية لا تنزعج منها مادامت اساءتها لتلك الدولة محصورة فى اغارات جزئية على الاراضى الفرنجية لانها كانت معتمدة فى حماية الثغور الابريطانية على قونتاتها لكن لما شاع فى اكس لاشبيلا ان مرمان رئيس تلك الامة الحربية ادعى لنفسه لقب الملك استبشع ذلك ارباب ديوان الفرنج ورأوه منقصة عظيمة فى حقهم فعزم الاعبراطور على ان ينتقم منهم فى نظير هذه المنقصة لكنه قبل الشروع فى شئ من ذلك دعا لمبرت قونتة نانت وسأله عما يراه فى شأن هذه الامة الجاسرة فاجابه بان دأب الابريطانيين الكذب والتكبر والعصيان وعدم المروءة والانسانية والشفقة بل ليس لهم نصيب فى النصرانية الا مجرد الاسم فقط

فان

فان العقيدة الانجيلية والعبادات النصرانية وسائر ما يقتضيه الدين من اعمال البر
على حد سواء عندهم فى الجهالة فلا يتفكرون فى شأن اليتامى والارامل والسكائس
بل نرى الرجل منهم يفحش باخته ويغتصب زوجة اخيه ولا يرى فى ذلك اثما فعيشتهم
جميعا فى الفحشاء وسائر المحرمات على اختلافها ويتخذون مساكنهم فى الدغل اى
الشجر الملتف ويخفون فرشهم فى الاحجار فمثلهم كمثل البهائم الوحشية لا قوت لهم
الاما يختطفونه ويسرقونه ولا معرفة لهم بالعدل والانصاف ولا بكيفية فصل
الدعاوى انتهى

وهذه الاوصاف التى يظهر ان بعضها صحيح مطابق لما فى الواقع لا تصلح لازالة
ما اشتغلت به فكرة لويز فى شأن اهل الارموريقة اى الابريطانيين فانه كان
يريد أن ينقذ بلاد الغلية من هؤلاء الاجانب الا انه بلغه انهم تنصروا وانغمسوا فى ماء
المعمودية وهذه العلامة الدينية هى بمفردها التى اشركت تلك الامة مع غيرها
فى الحقوق الملية المعروفة فى القرون الوسطى فارسل الايمبراطور صديقه ونشار الى
امير الابريطانيين (سنة ٨١٨) ليلزمه بالمبايعة والاعتراف بان الايمبراطور له الرياسة
عليه فاجابه مورمان بما معناه اذهب الى ملكك واخبره انى لست مقيما بارضه
ولا اريد العمل بقوانينه وان الفرنج يبغون محاربتى فها انا استعد لقتالهم

فدخل لويز ابريطانيا بجيش جرار فازال مورمان يدافع عن منصبه
وبلاده حتى قتل وسلاحه بيده فذهب خليفته المسمى ويورمارك الى مشورة
نيمغة ليعطى العهد والميثاق وان كان ذلك بحسب الظاهر فقط فاقسم على الامانة
والصداقة وكان عازما فى سره على الحنث ونقض المعاهدة عن قريب فقتله فى داره
جواسيس من طرف القونتة لمبرت (سنة ٨٢٥) فعند ذلك اقام الايمبراطور
رجلا من ابريطانيا مجهول النسب يقال له نومنويه دوقا على تلك البلاد
والاولى أن يقال انه وكيل عن الايمبراطور وقد مدح متأخرو المؤرخين صداقته
للمحسن اليه حيث لم يلقب نفسه بالملك الا بعد موت الايمبراطور لويز ومع ذلك
فمما ثبتت صحته انه فى مدة الخلل الذى عم سائر الجزيرة الارموريقية حين كان
الحاكم عليها نومنويه بعد موت ويورمارك سير لويز جيوشه غير مرة
على الابريطانيين حتى انه لما شاع خبر بعض الغزوات فى تلك الجهة جعل اولاد
الايمبراطور ذلك وسيلة لاغراء الجيش الذى كان مبعوثا بصدد غزو الابريطانيين
على أن ينضم اليهم ويكون معهم فى التحزب على ابيهم

ثم ان لويز عرض نفسه للمصائب من حين تزوج بغير زوجته هرمنغاردة

اسباب الحرب الداخلية

ام اولاده الثلاثة وذلك ان ارباب الطمع من خاصته الذين كان كثيرا ما يسمع قولهم
ويقبل نصيحتهم خافوا أن ينزل عن سرير المملكة فحملوه على أن يتخذ قرينة اخرى
واهتموا حتى احضروا بين يدى هذا الامبراطور الذى كان اشبه باسوبروس
(سنة ٨١٩) اجمل بنات الامبراطورية واشرفهن فكانت خيرته فى اميرة يقال لها
جوديت بنت القونتة ويلف من اعيان امراء باويرة وكانت هذه الاميرة جامعة
مع صفاتها الذاتية التى فطرها الله عليها لطف الخصال الحميدة والاوصاف الجميلة
حتى شهد لها اعداؤها بالبشاشة وحسن الملاقاة والذكاء ووفور العقل وحيث انها
نشأت على ممارسة الآداب ومطالعتها نشرت لواء حمايتها على من كان يمارسها
من الادباء وجعلتهم تحت كنفها وكان مؤلفو ذلك العصر يهادونها بمؤلفاتهم غيرانه
وقعت منها هفوة يحتمل انها بريئة منها اوجبت التهمة فيها والشك فى عفافها ومن المعلوم
ان الناس اذا حملتهم اهواءهم على القيام على ملكهم يندر أن مثل هذه الملكة الجميلة
تجد من يظهر براءتها ويمنع الخوض فى عرضها لخبث هؤلاء الناس وميلهم الى الشر
والوقاحة

وقد ولدت جوديت المذكورة ولدا سمى كرلوس هذا وقد اجمع الناس على ان سبب
قيام اولاده ومنغاردة انما هو الوثيقة التى كتبت فى مدينة وورم (سنة ٨٢٩) وذلك
انها كانت تتضمن ان هذا الامير الصغير يلقب بلقب الملك وان بلاد سوابه وربسيا
وبورغونيا الهلوبسية تكون ملكا له فهذا الانعام الذى تحلى به قبل وقته
مع انه كان من استحقاق هذا الامير كان فرصة انتهزوا فيها ايقاظ الفتنة والحروب
الداخلية وقد قال بعض اهل ذلك العصر ان اليوم الذى خلع فيه لويز الخلعة
الملوكية على ابنه كرلوس كان اقل شؤما من اليوم الذى وصل فيه برنارد من
طولوزه الى ديوان الملك ليقوم فيه بوظيفته التى كانت عاقبتها سيئة عليه وذلك ان
برنارد هذا الذى هو ابن مارى غليوم كان دوقا على سبطمانيا كوالده وخلف
بيرا على قونتية برسلونه فلما اراد لويز ان يجعله وقاية يتقى به اعداءه كما قاله
كاتب سيرته قلده فى مشورة وورم المذكورة وظائف الحاجب وناطه بملاحظة
الامير كرلوس وتربيته وكان الناس يقولون فيما بينهم ان هذا الامير هو ولد برنارد
وشاع ذلك على السنتهم وذكر نيتارد ان الامبراطور جعل برنارد يليه فى درجته
فاغتر بذلك وتجاوز الحدود التى تقتضيها تلك الدرجة العظيمة حيث عصب على
الامبراطور عصبة مهولة كان من اعظم رؤسائها القونتة هوج وهو من اصهار
لوتير ومتفريد وكان قد خلع يومئذ عن قونتية اورليان وكان اعظمهم

علم

على العموم والا رئيس دير كوربيا وهو حفيد كرلوس مارتيل وكان يرى
ان رياسته على تلك العصبة تعود بالمنفعة على عائلته والمملكة مع ان الغرض منها
انما هو اعدامهما بالكلية وقد نسب له بشارة ردبيرت الفخر لكونه بذل همته
وعرض نفسه لانقاذ البلاد من مصيبتها حيث قال انه قاتل لاجل القيصر
والايمبراطورية والوطن والدين فانقذ القيصر واولاده من الهلاك والمملكة
والايمبراطورية من افتيات الطاغية ورد الاب الى اولاده والاولاد الى ابيهم ولم يطق
ان الايمبراطورية اذ ذاك تمزق وتتفرق اجزاؤها انتهى فعلى ذلك ما تكون عواقب
هذا المقصد العظيم والمشروع الجسيم وقد انبأ بها قبل وقوعها كاتب سيرة الايمبراطور
كما يشعر بذلك قوله ان تولع الناس بالقيام والخروج قد بلغ مبلغا هاجت به نفوسهم
واشتدت حميتهم فى هذا الحرب الذى كان اشد من الحروب الداخلية حتى انه بعد ذلك
بمدة طويلة لم تكن هنالك دار ولا مدينة ولا بندر ولا خط ولا اقليم الا والشقاق باق
فيها على انتشاره وسلطنته

وقد تشعبت العصبة المذكورة وانتشرت فى سائر اقسام الايمبراطورية ودخل
فى زمرة اربابها من كان مع الملك برنارد فى الخروج عن الطاعة وكان الايمبراطور
قد عفا عنهم ونالوا ذلك منه على وجه السهولة وانضم اليهم ايضا القونتات المعزولون
الذين كان الايمبراطور مع ذلك يراعيهم ويحسن معاملتهم وكذلك من جرده برنارد
عن مناصبه واقطاعاته وكذا جميع الاعيان من القسوس والاهالى ممن كان له رغبة
فى حيازة الشوكة الملوكية اوتوزيعها وتقسيمها ايثارا لمصالحهم وجلبا لمنافعهم
فبذلك تعين ان تكون عاقبة هذه العصبة هو انحلال الايمبراطورية وتمزقها
والظاهر ان هذه العصبة تجمعت وتعصبت من غير ان يكون لاولاد الايمبراطور علم بها
ولم يقروها وينتظموا فى سلكها الابعد ان ترتبت وانتظمت بالكلية ومن
(سنة ٨٢٨) ظهر فى سائر الجهات امارات الحرب الداخلى وعلاماته فدعا
الايمبراطور ان لوبرزولوتير الملة وامر جميع احرارها بالتأهب والاستعداد لرفع الحرب
الذى كان يخشى منه على الايمبراطورية فى داخلها وخارجها وبعثا وكلاء فى جميع
الاقاليم ليجبروا الخلل الذى ترتب على ما حصل فى السنة الماضية من الفشل والتفاقم
ويتداركوا وقوعه فى المستقبل وكانوا مأمورين بان كل واحد منهم يرتب فى الاقليم
الذى ارسل اليه محكمة للبحث والتفتيش فى امور الحكام التى تتعلق بالسياسة لا فى امور
الاهالى وكانوا مأمورين ايضا بان ينتخب فى كل قونتية من الرجال من يكون اكثرهم
استقامة وصدقا ليقوموا عند الطلب بتبليغ ما علموه فى شأن القونتات وغيرهم

من ضباط العموم مما يكون مخالفا لمصلحة الرعايا وشرف الملك وقد صدر من الايمبراطور اوامر لجميع النصارى ان يصلوا جميعا و يصوموا ثلاثة ايام عسى ان تحصل لهم الاعانة من الله تعالى و يزول عن الامة ماتتوقعه من المصائب وكان من جملة تلك الاوامر ان الاساقفة يعقدون جمعيات منهم ليبحثوا عن اسباب المصائب العامة وعما يكون به دوآؤها وقطع عرقها وكان فى الاوامر المذكورة مايدل على ان تلك المصائب انما هى من غضب الله تعالى على عباده بمحض عدله لكثرة عصيان الطغاة الذين حملهم خبثهم على السعى فى تعكير الهدء و جلب الفشل بين ابناء النصرانية وابطال اتحاد الايمبراطورية وانحلالها

فاجتمعت هذه الجمعيات فى باريس وميانسه وليون وطولوزة (سنة ٨٢٨) ورتبت عدة قوانين قسيسية و بعثت الى الايمبراطور عدة عريضات فكان مضمون عريضة جمعية باريس ان من الاسباب التى ضلت بها القسوس والامرآء عن سبيل الاستقامة سببا قديما قويا وهو ان الشوكة الملكية انتقلت فى عدة فرص الى امناء الدين وان القسوس لاهمالهم و جهلهم وشرههم شغلوا انفسهم اكثر مما يلزمهم بالامور الاهلية والمواد الدنيوية و لم يجبر هذا الخلل الاساقفة ولا الامرآء لاسباب منعتهم من ذلك يمكن بيانها فى اوقات مناسبة فان مثل هذا المشروع فوق طاقتنا لضعف قوانا عن الوصول اليه لانه ليس عندنا من الوقت والدعة مايكفى للتصدى اليه و يلزم له ايضا الاعانة من جميع اخواننا فمن ثم ابقينا التعرض لهذا الغرض الى وقت يتيسر فيه ماذكرناه لان تنجيز هذا المشروع العظيم لابد فيه من رضاء الامرآء واعانتهم واجتماع القسوس واهتمامهم وطاعة الامة واتفاقها ولا بد ايضا من ملاءمة الوقت والمكان انتهى

ولا يخفى ان هذه العبارة التى لا تخلو عن الايهام وعدم الافصاح عن الحقيقة تدل على ان اغلب القسوس كانوا متضجرين من هذا الخلل الذى عاد عليهم بالضرر والتلف وان الاحبار الذين كان لهم نفوذ كلمة فى الايمبراطورية ابوا ان يسعوا فيما به النجاة والسلامة لانهم كان لهم دخل فى الخروج والعصيان

وقد انعقد فى آكسيلاشبيلا جمعية خامسة لم تخرج فى عبارتها عن هذا الموضوع و بعثت خلاصاتها الى بيبين ملك اكتينا اذ لا ريب انه كان يميل الى العصبة الباغية وقد كتب لهذا الملك ايضا يوناس اسقف اورليان كتابا يحضه فيه على الاقلاع عن هذا الحرب الذى هو اشد الحروب الاهلية واشار عليه ان يكون مع اخوانه و يرتبط معهم بروابط المحبة التى لا تنقض حتى يقوموا جميعا بما توجبه الشريعة

لابيهم عليهم من الطاعة والاكرام والبر والاحترام وقد كتب ايجنهارد مثل هذا الكتاب الى لوتير رجاء ان يقبل منه نصائحه لكونه معلمه ولامه على اصغائه للطماعين الذين يظهرون له انهم يبذلون همتهم فى اغراضه وهم فى الواقع ونفس الامر لم يسعوا الا فى مصالح انفسهم الخاصة بهم فحملوه بذلك على ان يترك وظيفته الشرعية وهى اعانته لابيه ليتغلب على وظيفة النيابة فى الايمبراطورية وذكره بشريعة موسى عليه السلام التى تحكم على الولد العاق برجم الامة له

خروج الامراء وقيامهم من (سنة ٨٢٩) الى (سنة ٨٣٥)

وكان بيبين لم يزل متحيرا فيما يصنع ثم زالت حيرته لما تبينت له عواقب قسمة وورم التى كان اضرارها بمصالح اولاد هرمنغاردة الوقتية اقل من اضرارها بما كانوا يأملونه من المصالح المستقبلة وكان ذلك (سنة ٨٢٩) وقد افهم بعض الناس لوتير ان برنارد متعصب على العائلة الملوكية وان غرضه اعدامها بالكلية ليقوم مقامها هو وولد الزنا وبين للاخوة الثلاثة انه يجب عليهم ان ينتقموا لابيهم فى نظير ما لحقه من المنقصة ويردوا اليه شرفه واطلاق تصرفه ودعيت الاهالى للسلاح لاجل اعادة النظام القديم

وكان المتعصبون منتظرين لاظهار الخروج والعصيان اجتماع الجيش ليسير الى ابريطانيا (سنة ٨٣٠) فانهم كانوا يعلمون ان ارباب الحرب يكرهون اشد الكراهة هذه الغزوات لانها كانت دائما لا تجدى نفعا بل ولم يترتب عليها لهم الا الخطر والحرمان والعدم فمن ثم كان يسهل على هؤلاء المتعصبين أن يستميلوهم اليهم ويحققوا النجاح فى خروجهم وتعصبهم من هذا التخلى الذى يقع على حين غفلة وكان بيبين يومئذ يسلح حصته من العساكر فى داخل اكتينا فاستولى اولا على اورليان وكانت حينئذ من اعظم المدن واهم ثغور بلاد الغلية الرومانية واعاد حكمها للقونتة متفريد وكان عزله لسببين اختلاسه المهيج للنفوس وتعرضه لحزب الايمبراطورة الا ان اقواهما الثانى ولما احاطت ببيبين رؤساء العصبة توجه الى كومبينيا حيث كانت موعد الاجتماع اخوته عليه فرأى الجيش ان الاوفق بهم القيام والخروج فاثروه على الشروع فى هذه الغزوة الخطرة

فبلغ ذلك لويز فى مدينة سنت اومير وكان برنارد قد هرب الى دوقيته المسماة غوطيا وكان اوفر حظا من اخيه هربرت الذى نفى الى ايطاليا ولم يمتع نظره بصحو هذا القطر العظيم واما كونراد ورودلف اللذان حبسا فى اديار اكتينا فكانا ايضا اوفر حظا من اخوة جوديت وكانت الايمبراطورة ملتجئة فى المحاريب فاخذت قهرا وتزيت بزى الراهبات والتزمت

ان تحمل زوجها على الترهب والدخول فى دير مثلها اتقاء الموت او العذاب فاستنكفت نفس لويز أن ترضى بهذا الجبن فحجز فى بيته الملوكى بمدينة كومبينيا تحت حراسة خفراء لوتير وصار المنصب الامبراطورى موقوفا حتى تحكم الجمعية العمومية التى ستنعقد عن قريب بعزل الامبراطور

وكان هذا الامبراطور المحجوز يرغب كثيرا فى تلك الجمعية وكذلك العصاة الخارجون بل كانوا اشد رغبة منه وقد رأى الرهبان الذين كانوا بمعية الامبراطور ليحببوه فى العيشة الرهبانية ان اتخاذه حبيبا وهو على سرير ملكه اوفق بهم واحسن لهم من اتخاذه حبيبا وهو معهم فى ديرهم فعرضوا عليه أن يعيدوه الى منصبه بشرط أن يلتزم باعادة شرف الامبراطورية لاسيما برفع منار العبادة اللاهوتية وذهب احدهم المسمى غوندبود الى ملكى باويرة واكتينيا خفية وواعدهما باتساع اراضيهما اذا هما رضيا باعادة ابيهما الى منصبه فوقع الاتفاق على انهما لا يحضران هذه الجمعية القريبة الانعقاد حيث ان حضور اتباعهما فيها يزيد فى عدة اعداء لويز وكان من المهم ايضا فى هذا الغرض ان تلك الجمعية لا يكون انعقادها فى الغلية فانحط الرأى على أن يكون انعقادها فى نميغة ليكثر بها السكسونيون والفريزونيون والطورنجيون الباذلون همتهم فى مصلحة الامبراطور وبالجملة فالذى استقر عليه الرأى ان الكبار لا يذهبون اليها الا بعدة قليلة من اتباعهم وامكن للويز ان ينحى عن تلك الجمعية ثلاثة من رؤساء العصبة الخارجة عن الطاعة وهم والا والقونتة لمبرت ورئيس دير سنت دينيس الذى كان قد ذهب الى نميغة مستعدا للحرب والقتال

قال كاتب سيرة لويز ان جميع اهل جرمانيا بادروا بالحضور الى الجمعية لاجل اعانة الامبراطور ففزع المتعصبون من هذا الازدحام وكان قد لحقهم القلق والاضطراب مما حصل فأكثروا من الدسائس عند لوتير لانهم كانوا يريدون حمله على القتال او مبادرته بالرجعة فمكثوا ليلة كاملة فى خيمة هذا الامير وهم فى المفاوضة فى هذا المعنى لكن لما طلب الامبراطور ولده المذكور من الغد لم يجسر على العصيان فعند ذلك وقع فى معسكر الخارجين هرج واضطراب عظيم حتى كاد يظهر امر الخروج على رؤس الاشهاد فبينما هم كذلك اذ أظهر لويز نفسه للجم الغفير الذى كان مصاحبا لولده البكرى اعنى لوتير حين طلبه للحضور اليه فكان ذلك منه علامة على الصلح فحصل الهدء والسكون وزال الاضطراب والهرج

ومع ذلك قبض الامبراطور على كبار رؤساء العصبة وانحط الرأى على ان والا ومتفريد

وايلبز كان

وايليزكار وغيرهم مذنبون فى حق الايمبراطور وانهم يستحقون على هذا الذنب أن يعاقبوا بالقتل غيران هذا الايمبراطور الضعيف رق لحال اعدائه واخذته الرأفة عليهم ورأى انه يكفى فى معاقبتهم سجنهم فى الديرولم يتفكر انه يمكنهم الخروج منه ودعيت جوديت للخروج من دير سنت ردغوندة الذى فى بواتيير وعاد اليها ما كان لها من الحقوق بوصف كونها ملكة وزوجة بعد أن اقسمت على الآثار المقدسة انها برئة وطلب برنارد أن يبرئ نفسه بالمقاتلة الشخصية فوقع البحث عن خصم يتهمه ويتجاسر على مقاومته فى هذا الامتحان اعنى المقاتلة المذكورة فلم يجدوا وعاد كل من عوقب بالنفى اوالسجن بسبب انضمامه الى حزب الايمبراطور الى املاكه اومنصبه وصفح الايمبراطور عن اولاده الثلاثة الذين من زوجته هرمنغاردة واعادهم الى ممالكهم

وقد سعى برنارد فى استرجاع ما كان له من الشوكة التى كان يستعملها مع قليل من الحزم والتبصر لكنه رأى النبيه غوندبود دائما يتتبع اثره فلا يسلك مسلكا الا عطل عليه ومنعه من الوصول اليه فانه سد الابواب الموصلة الى الاعتاب الملوكية واهتم أن يبعد عن الايمبراطور اصول المصائب التى لحقته وينحى عنه جلساءه الذين كانوا سببا فى وقوعها ثم ان الذين تجددوا عند الايمبراطور وفازوا منه بالحظوة والاقبال سعوا فى عمل عصبة ثالثة كادت توفق بين العصبتين الاخريين

وكان بيبين عازما على ايقاع فتن وانقلابات جديدة فدعا الى بيرق عصيانه برنارد الذى تعللوا به فى الخروج والعصيان اولا فعند ذلك ذهب الايمبراطور الى جنوب نهر لوار وعقد فى أنجالة قريبا من ليموجس جمعية عظيمة بحث فيها عن سلوك ملك اكتينا ودوق سبطمانيا وافعالهما القريبة العهد فتبينت خيانة برنارد وعدم استحقاق بيبين للتاج الملوكى فكان من اللازم ان الايمبراطورية تنقسم بين لوتير وكرلوس وقد خص الثانى باكتينا وحكم على برنارد وبيبين بالنزول عن رتبهما الملوكية بعد أن تعوّدا مدة طويلة على حلاوة هذا المنصب وعزه واما لوتير فانه كان يأمل من القسمة آمالا واسعة لكنه خاب فيها ولم يخرج منها على طائل حيث صار فى ذلك الوقت لا يذكر له اسم فى الحوادث العمومية فظهر من ذلك انه لابد من الخروج على الايمبراطور ووقوع الحروب الداخلية من سائر الجهات

وقد اختفى بيبين عن اعين الحرس الذين كانوا آتين به الى تريوة ودعا اهل اكتينا الى حمل السلاح واكرهاه على اجتياز نهر لوار ثانيا واخبر اخويه لوير

ولوتير انه يريد الاجتماع بهما فى سواحل نهر الرين وكان والا ومتفريد قد خرجا من السجن و بظهورهما ازدادت العصبة انتظاما وسارعت فى حمل الناس على الخروج حيث اقسمت لهم ايمانا فاجرة انها تبغى المصلحة العامة

وكان هنالك حبر من اعظم احبار فرنسا وامهر مولفى عصره يقال له اغوبارد التزم بتأليف كتاب فى خصوص القدح فى الدولة و بين فيه ان الضرورة مقتضية لحمل السلاح وفاء بخدمة الله والملك والمملكة فقال ما معناه قد آن اوان تطهير السراية من دنسها وتنظيفها من وساخة خادمتها وانقاذ المملكة مما حل بها من الفتن والتعكيرات المشؤمة

فيارب السماء والارض كيف اذنت ان عبدك سلطاننا الامين شديد الغيرة على الدين يصل فى الاهمال الى هذه الدرجة حيث يأبى ان ينظر و يبحث عما احاط به من المصائب والنكبات و يحب من يبغضه و يبغض من يحبه هذا وقد قال جماعة ممن وقف على الحقيقة فى هذا الشأن ان هذا الايمبراطور معه جماعة من ارباب الطمع متشوقون جدا الى هلاك اولاده ومتفقون فيما بينهم على انهم اذا بلغوا امنيتهم قبضوا عليه واقتسموا المملكة وكثير من الناس من يجعل هؤلاء الطماعين فى اعتمادهم على الملك كالمستند الى حائط مائل مضطرب فمن البديهى اذن انه اذا لم تدركه العناية الالهية تقع المملكة فى ايدى الاجانب او تقتسمها عدة كبيرة من الظلمة الطاغين انتهى وكلا هذين الامرين قد تحقق وقوعه وكان السبب فى حصوله هو نجاح العصبة الباغية

وقد دعا لوير جميع امناء اتباعه أن يكونوا حوله وسار بجيش جرار قاصدا اولاده الثلاثة وكانوا قد اجتمعوا فى ألزاس فقابلهم فى سهول روتفلد فى سفح جبل سجوالد قريبا من كلار وكان البابا اغرغوار الرابع الذى حضر مع ملك ايطاليا قد نشر بين الناس كتابا دعا فيه باللعنة على من يخالف اوامره ولا ينقاد لحكم لوتير وكان حضور هذا البابا فى معسكر العصاة سببا فى شغل بال هذا الايمبراطور وكثير الرهبة والخوف حتى صارت ذمته مضطربة ونفسه غير مطمئنة ولكن ازال ما فى نفسه اصدقاء الاساقفة حيث هددوا البابا باللعن و الحرمان فى مقابلة دعاته بذلك وكتبوا الى اخيهم اسقف رومة اعنى البابا المذكور يخبرونه ان ما وقع منه من التهديد الصادر عن الانفة والكبر يحط بمقام المنصب الايمبراطورى وتكون عاقبته اضعاف الشوكة البابوية حيث يفضى بها الى اللوم من عموم الناس فغضب البابا من ذلك واجابهم بان خطابكم هذا تسأم منه

النفوس وتنفر منه الطباع وقد عاهدتم لويز اولا وثانيا على الامانة والصداقة في جميع الاشياء ومع ذلك قد رأيتموه يسلك مسالك نضر بالدين ويفعل ما يفضى به الى التلف ولم تمنعوه من ذلك فانتم اذن كاذبون في عهودكم وفاجرون في ايمانكم وقد زعمتم ان اول تقسيم للمملكة من الامبراطور وقع فيه التغير على حسب مقتضيات الاحوال وذلك زور من وجهين احدهما ان هذا التغير مناقض لمقتضيات الاحوال فضلا عن كونه على حسبها وثانيهما ان التغير المذكور هو منشأ التعكيرات والفتن والسلب وجميع ما حصل من المصائب زيادة على الايمان الفاجرة واختلال الديانة والامن العام

واما ما تذكرونه مع الكبر والانفة من اننا اذا رضينا بالحضور عند الامبراطور مع الادب والاحترام بين لنا نفع تغير القسمة وانه كان على حسب مقتضيات الاحوال فليس الامن الغرور والاعجاب بالرأى فهو الذى حملكم على التفوه بمثل هذا الكلام حيث تعتقدون انه ليس هناك من يعرف اسباب الحوادث سواكم فالذى اقوله وهو الحق ان هذا الامبراطور زيادة عن كونه مجردا عن الرأى والحزم يرثى لحاله حيث لم يدرك ما ترتب على تغييركم للقسمة من المضار التى لا تحصى انتهى فهذا الكلام الصادر عن الشمم والانفة يدل على ما كان مولعا به سلف اغرغوار الرابع المسمى ولنطين فانه لم يجلس على سرير البابوية الا ليذل مشورة السنت برومة حتى تخضع له وتقبل اقدامه

ولاجل أن يمنع اغرغوار سفك دماء ابناء النصرانية طلب مقابلة الامبراطور وكان قد بلغ الغيظ من لويز مبلغا احدث فيه اقتدارا على أن يقابل رئيس الدين مع العبوس وقد حصل على اثر هذه المقابلة ان الجيش الامبراطورى تخلى عن الامبراطور فاوقع ذلك الريبة والشك في استقامة هذا البابا ولكن ما زالت شيمانه متوارية في ظلمات الجهالة ثم ان هذا الامبراطور السيء الحظ قال للنفر القليل من امنائه المحاربين وكانوا قد حضروا أمام خيمته في الصباح اذهبوا الى اولادى فانى لا اريد ان احدا يفقد حياته من اجلى ولما كان منقادا للقضاء والقدر صابرا على مصيبته سلم لاعدائه في نفسه وزوجته وابنه الصغير وكان احب اولاده اليه (في شهر يونية (سنة ٨٣٣) فارسلت زوجته جوديت الى قلعة ترتو وحجز ولده كرلوس في دير پروم ثم تقاسم اولاده الثلاثة الاقاليم على حسب اصول القسمة التى حصلت (سنة ٨١٧) وقد سمى الموضع الذى وقعت فيه هذه الخيانات العديدة بقعة الكذب

اهانة لويز ونزوله عن منصبه سنة ٨٣٣

فلما تولى لوتير الامبراطورية وذهب بابيه الى كومپيينية وكان قد امر أن يعقد بها فى فصل الخريف مشورة عموم الازمنة تلك المشورة بالنزول عن سرير المملكة فابى ولم يمتثل فعند ذلك فوضوا امره الى القسوس ليكون خلعه عن المنصب على وجه الاهانة والترذيل فيصير من هذا الوقت غير صالح للمنصب المذكور وقد وقع فى ايامنا هذه بفرنسا حادثة محزنة وهى ان ملكها انحط عن مقامه وعومل معاملة المتهم على وجه فاحش وحكمت عليه جمعية الملة بما تحكم به على المذنبين وهذا من اختلال عقول الدمقراطيين الذى حدث فيهم بكيفيات غير معهودة اخذوها عن الارستوقراطيين الوحشين فى افراطهم فى الاحكام فان كان قد ترتب على قانون رياسة الاهالى فى هذا القرن وهو الثامن عشر ما ترتب من الافتيات والظلم والعدوان فكذلك حصل فى القرن الثامن ان المنصب الملوكى صار عرضة للابتذال والاهانة بقانون الرياسة القسيسية الذى لا ينقص ضرره عن الاول وكان الى ذلك الوقت لم يسمع بكيفية عزل الملوك الا فى تاريخ الملك وتبه وكانوا عازمين على اجراء تلك الكيفية مع لويز فى دير سنت ميدارد بمدينة سواسون ولما كان مطران رمس المسمى ايبون مطرانا على اساقفة هذا الاقليم قلد الرياسة على جمعية هذا العزل ووضعوا بين يدى الامبراطور قائمة كبيرة تتضمن ما اتهم به من الذنوب وهى قائمة غريبة بالنظر لما اشتملت عليه من التهم وصورتها

اولا ان لويز مذنب بذنب الكفر وذنب القتل لانه لم يتبع نصائح ابيه ولم يعمل بالايمان التى اقسم بها حيث اساء المعاملة مع اخوته ولم يمنع القتل عن ابن اخيه

ثانيا انه اساء الامة واغضبها واخل بالصلح ونقض ما اخذ عليه من العهود حيث لم يعمل بالمشارطة التى عقدها مع اولاده برضاء الملة والزم اتباعه بيمين اخرى مخالفة لليمين التى كان طلبها على طبق المشارطة المذكورة

ثالثا انه امر بغزوة عظيمة فى زمن الصيام وامر ايضا بعقد جمعية ملية فى طرف الامبراطورية يوم الخميس المقدس فترتب على ذلك شغل امناء الدين عن اداء ما عليهم من الواجبات فكان بذلك محتقرا للدين غير مكترث به ولم يكن هنالك داع قوى يحمله على الامر بذلك

رابعا انه نفى عدة من الاهالى والقسوس وجردهم عن املاكهم وكانوا قد ذهبوا اليه ليبينوا له مضار اولاده والاخطار التى كانت الامبراطورية عرضة لها واشراك المكايد التى كانت منصوبة له وخالف القوانين الدينية حيث اضر بالرهبان والقسوس كما خالف القوانين البشرية

خامسا

خامسا انه تكفل بالزور والبهتان الذى نشأ عما ألزم به اولاده والاهالى من الايمان المتناقضة والتزم ايضا بشهادة الزور التى حصلت لاثبات برآءة بعض النساء بمعنى انه يكون مطالبا بما يترتب على ذلك من الخلل

سادسا انه جهز غير مرة تجهيزات عسكرية فى مملكته بقصد الغزو من غير أن يكون فى ذلك فائدة ولم يستشر فيه مشورة العموم فبناء على ذلك هو مطالب بما وقع فى عدة اماكن من الخلل والتعدى والجنايات

سابعا ان اغلب ماسلكه مع اولاده فى تقسيم الايمبراطورية يشبه أن يكون من عدو لعدوه لا من والد لاولاده حيث جرى فيه على مقتضى رأيه وهواه وحاد عما به نجاة المملكة وسلامة الامة

ثامنا انه اهمل فيما وقع فى مملكته من الذنوب والجنايات التى لا تحصى ولما كفاه ذلك حتى اوقع الامة كلها فى الاختلال والتلف مع ان الواجب عليه أن يكون حارس الصلح ومرساة النجاة

فاعترف لويز بذنوبه ثلاث مرات قائلا وهو يبكى انى قد ارتكبت هذه الخطايا كلها وبعد ما لحقه من الخزى والابتذال طلب أن تكفر سيآته على رؤس الاشهاد ليكون عبرة للامة وبمجرد ماوضع امضاءه على ما اقر به من القبائح التى ضيعت شرفه وخدشت عرضه نزع حمائل السيف التى هى من العلامات العسكرية وتجرد ايضا عن جميع العلامات الملوكية ثم لبس قميصا من شعر ألبسه له ايبون الذى مع دناءة اصله رقى الى تلك المرتبة السنية بدخوله تحت الحماية السلطانية وجوزى على خيانته للايمبراطور بدير سنتوست وهو دير بمدينة اراس كثير الاموال والثروة فغضب طيغان مما فعله ايبون وصاح قائلا هذا جزاء لويز منك على كونه اخرجك من ربقة الاسر ونظمك فى سلك الاحرار وان لم يجعلك فى زمرة الاشراف لانه غير ممكن بعد العتق وألبسك التاج الاسقفى والطيلسان فكافأته على ذلك بالباسك اياه قميصا من الشعر وكأنه لما زهالك ولجلسك على الكرسى الاسقفى مع قبحك وعدم اهليتك لذلك اقتضى رأيك الفاسد أن تتعدى عليه وتطرده عن سرير آبائه وجدوده

وقد اخذ كل واحد من الاساقفة الذين حضروا هذا المجلس نسخة من الوثيقة التى كتبت فى هذا الشأن لتتأكد صحتها والوثوق بها وهذه الوثيقة بالنظر الى ماتضمنته من عبارات صورة للدعوى تسند على الايمبراطور باب الرجوع الى زمرة العساكر ولما النسخة الاصلية التى وضعوا عليها امضاءهم فعرضها اغوبارد على لوتير

ثم ذهب لوتير المذكور بابيه الى مدينة اكس لاشبيل فكان ذلك آخر مذلة لحقت لويز وهى رجوعه الى تلك المدينة السلطانية على حالة بحيث يمكن فيها سؤاله اين التاج الذى وضعته يد على رأسك مع الفخار والابهة كانت تشير الى حفظه من الخدش باى وجه كان

اعادة الايمبراطور الى منصبه سنة ٨٣٤

ثم ان اكبر اولاد هذا الايمبراطور المسكين لم يحفظ بالشوكة الايمبراطورية التى افتات عليها مدة طويلة وذلك ان ولديه الآخرين وهما بيبين ولويز الجرمانى اللذان لم يكن لهما دخل فى خلع ابيهما عن المنصب الايمبراطوارى لحقهما الخجل مما اصاب عائلتهما الملوكية من العار والفضيحة ورأيا ان لوتير باقتياته على حقوقهما يؤول امره الى الاختصاص بالشوكة السلطانية فبعثتهما المصلحة على أن يقوما بما يجب لابيهما عليهما فطلبا اعادته الى ما كان عليه من الحرية والاستقلال وظهر بذلك انهما لبيا دعوة ذمتهما واجابا ما كانت تحدثهما به فى شأن ابيهما لاسيما وكان فى ذلك ايضا اجابة لما كانت تتمناه الامة بعد أن كانت خالية البال من هذا المعنى الا ان كثرة المظالم التى نسبت اليها هى التى شغلت افكارها بذلك

وذلك انه ظهر فى بلاد الغلية وجرمانيا علامات تدل على القيام والخروج عن الطاعة فى سائر الجهات حيث صار الناس يجتمعون جموعا لا تخلو عن هرج واضطراب وكان يظهر منها دفعة واحدة ما يدل على الرأفة والحنان والتهديد والتخويف وبينما الناس فى ازدحامهم يتأسفون على ما حل بلويز من النكبة وسوء الحظ اذ ظهرت عصبة كبيرة انعقدت لاجله فى ديوانى جرمانيا واكتينا وكان الواسطة فيها رئيس الرهبان المسمى هوج لوبتارد اى المتولد من الزناء وكذلك فى اوستراسيا بواسطة القونتة اغيبارد والميراخور ويلهيلم وفى برغونيا بواسطة برنارد حيث سعى فى عقد معاهدة سرية لاجل انقاذ الايمبراطور فانزعج من ذلك لوتير واشتد خوفه وذهب بابيه واخيه الصغير بقصد جهة باريس ليبعدهما عن اصدقائهما من الجرمانيين وكان قد امر اتباعه أن يجتمعوا فى نستريا فلم يحضر بها الا اعداء متسلحون (سنة ٨٣٤) وذلك ان اغيبارد نزل من اوستراسيا يقود فرقة من ارباب العصبة الخارجين على لوتير واتى برنارد ووارين من برغونيا وبرونسة ونزلا فى بونوليا وحضر الملك بيبين الى الشاطئ الشمالى من نهر السين وتعطل عن السير من هذا المحل لما دبره الاعداء بقصد الاحتراس حيث كسروا القناطر كلها واغرقوا بجميع القوارب ولولا هروب لوتير لوقعت واقعة عمومية لكن هروبه منع

من

من وقوع هذه المصيبة فترك مدينة سنت دينيس وفر الى برغونيا وترك اباه لويز واخاه كرلوس لاحزابهما (سنة ٨٣٥) فاعادوا الايمبراطور الى الحرية لكنه لم يتجاسر على العمل بمقتضى الشوكة الملوكية الا بعد أن اذن له امناء الدين وكان لضعفه الذى بلغ الغاية لايزال يعترف بصحة الحكم بعزله ولما قلده الاساقفة بسيفه لم يعمل بما تستدعيه شوكته من الحكم بين الناس الا بعد الصفح عن اعدآئه حيث ندموا على ما وقع منهم فى حقه فعفا عن كل من دخل فى حزب العصاة بالقهر والغلبة او بالاستمالة والترغيب بل حظى بعضهم بالانعام من لويز فى نظير مبادرته بالاصطفاف تحت الاعلام الايمبراطورية وكان من جملتهم حزاس جوديت فانه لما بلغهم ماوقع جاؤا بتلك الملكة الاسيرة الى اكسيلاشبيلا ومع ذلك لم يحصل الرضاء بعودها الى فراش الايمبراطور الا بعد أن اقسمت على برآءتها أمام الامة وقد حضر اليه ولداه بيين ولويز وخرا على اقدامه مخطيا منه باقرارهما على مملكتى اكتينا وباويرة بخلاف لوتير فانه لم يزل حاملا لسلاحه فندم ابوه على كونه جعل للعفو حدا محدودا (هكذا فى الاصل ولعل الصواب أن يقول على كونه لم يجعل للعفو حدا ليوافق ماسبق من تعميم العفو)

ومع ذلك فذهب لمبرت ومتفريد الى قونتة نانت فى ثغر ابريطانيا لانه كان يطمع فى اعادة حزب لوتير فبعث الايمبراطور لقتالهم اتباعه القاطنين بين نهرى السين ولوار وامر عليهم اودون قونتة اورليان واخاه ويلهيلم قونتة بلواس غير ان هذين الامرين لم يأخذا حذرهما حتى حمل عليهما العدو بغتة وقتلا فى تلك الوقعة وقتل معهما جم غفير من الحربيين ولما بلغ لوتير نصرة اصحابه اخذ فى السير بقصد الانضمام الى نوابه فكانت له النصرة قريبا من مدينة شالون فى واقعة مكثت خمسة ايام واخذ هذه المدينة عنوة وعاين اهلها ماحل باخى برنارد واخته من العذاب حيث قتل احدهما على المشنقة وطرح الآخر فى نهر السون ولما تغلب لوتير على مجرى هذا النهر توجه جهة اورليان ليتيسر له بواسطة نهر لوار المراسلة بينه وبين جيش المغرب واجتمع بمنفريد فى مدينة لوال وبينما هو كذلك اذا احس بقرب ابيه مع اتباعه من الاوستراسيين والسكسونيين فاضطر الى العود جهة نهر لوار ونزل فى محطة كومونت الحصينة ويقال لها ايضا كلوياقوس وانتظر فيها قدوم الجيش الايمبراطورى طامعا فى استمالته بالمخادعة كما صنع فى لوجانفيلد غير ان عساكر لويز استمرت على الامانة والصداقة فجبر لوتير على أن يطلب من ابيه الصفح والمسامحة فعفا عنه فى قصر بلواس والتزم

لابيه انه يجتاز ثانيا جبال الالب ولا يفارق ايطاليا الابادنه وكذلك حصل الصفح عن كبار رؤساء العصبة وحظوا بابقاء املاكهم لكن لم تطل مدة انتفاعهم بما نالوه من حلم الايمبراطور حيث اخترمتهم المنية عاجلا فانه فى ظرف شهرين هلك هوج ومنفريد ووالا وبيسة وجماعة اخرون من اعداء لويز فامن مكرهم واستراح من شرهم

ومما ينبغى التنبيه عليه ان لويز اظهر فى هذه الفرصة من الشدة والقسوة على الاساقفة اكثر مما اظهره على غيرهم من العصاة واشتغل بدعاويهم عدة جمعيات ملية وقسيسية والتجأ اغوبارد فى ايطاليا وطلب للحضور ثلاث مرات لتقام دعواه فلم يحضر وقدم ايبون الى الملكة جوديت خاتم الامان الذى كانت انعمت به عليه يوم ولادة كرلوس ابنها فلم تقبل شفاعتها ولم ينفعه ماسلكته جمعية متز القسيسية فى شأنه من الرفق والملاطفة حيث لم تجسر على عزله بطريق القوة والقهر بل حرم من كرسيه وحكمت عليه محكمة السراية بالسجن ولم تسمع دعواه ان ذلك ليس من وظيفتها وقد استحسنت مشورة تيونويله التى كانت منعقدة يومئذ هذا الحكم واقرته ثم ان سبعة من المطارنة طلبوا الرحمة الالهية من الله تعالى لاخيهم هذا المحكوم عليه وصلوا عليه الصلوات السبع التى هى عندهم علامة على المصالحة القسيسية

وفى (سنة ٨٣٧) انعقدت مشورة الخريف بمدينة اكسيلاشبيلا بعد مشورة تيونويله وغير فيها الايمبراطور لويز باتفاقه مع كبار المملكة تقسيم الايمبراطورية تغييرا ضروريا اقتضته الاحوال او عهوده السرية وكان الغرض الاصلى من ذلك هو ابطال ما كان يدعيه لوتير لنفسه من الحقوق ومكافأة لويز وبيبين على خدمتهما الجديدة فوزعت الاقاليم التى كانت باقية بلا قسمة على هذين الملكين وكرلوس اخيهما فاتسعت بلاد ملك اكتينيا بجزء كبير من الاراضى التى بين نهرى السين ولوار وعدة قونتيات على شمال نهر السين وانضم الى مملكة باويرة بلاد طورنجه وسكس وفرنسار بوويرة وجزء من بلاد فريز وانضم اليها ايضا اقليم برابان والفلنك وورمندواس وغير ذلك واتسعت مملكة المانيا الصغيرة وكانت لكرلوس بجميع بلاد برغونيا الكبرى وبرووونسة وغوطيا وعدة بلاد اخرى على نهر لوار والسين والسوم وموزلة والرين الاسفل وامس لم تكن وقعت فى نصيب لويز ولا بيبين وكانت مدينة باريس من جملة هذه البلاد وهى التى بايع فيها كرلوس قونتاته واتباعه اللودية ولم يتعرض

فى وثيقة هذه القسمة الى اتحاد الايمبراطورية ولا لانقياد هؤلاء الامراء لاخيهم الاكبر
بل ولم يبين فيها من يكون ولى عهد بعد الايمبراطور ولم يوجد فيها لاسم لوتير ذكر
ولا لايطاليا التى كانت من نصيبه بل اذا تأملت البند الثالث عشر من هذه الوثيقة
فهمت منه بطريق الاشارة ان الايمبراطور لويز جعل المملكة بعده لمن يكون
احرى بها واكثر صلاحية من غيره وابقى لنفسه الحق فى كونه يزيد فى التزامات اولاده
او ينقصها على حسب ما يراه فيهم من الاستقامة او عدمها

وقد ترتب على هذه القسمة غم اولاده ثانيا لما ان كرلوس خصه فيها حصة كبيرة
غير ان ذلك لم يشتهر عنهم لما ان المنية اخترمت پيپين على حين غفلة (سنة ٨٣٨)
فلم يكن هنالك فسحة من الزمن يشتهر فيها هذا الامر ولكن كان موته سببا آخر
فى وقوع الغيرة بينهم حيث ان الايمبراطور جعل كرلوس وارثا لاكيتنيا حتى انه
ذهب اليها بنفسه واجلسه على كرسيها فعند ذلك رأى لوتير الذى خابت آماله
العظيمة ولويز الذى كان يتطلب بلاد جرمانيا بتمامها ولم يدرك امنيته ان ارث
اخيهما لهذه المملكة مظلمة اخرى تضربهما فاجتمعا للمفاوضة فى ذلك وحصل عقبها ان
لويز ملك باويرة حمل السلاح عازما على القتال ليثبت لنفسه جميع البلاد التى
على الشاطئ الايمن من نهر الرين

فداخل الرعب والخوف ارباب الديوان من جمعه للجنود والعساكر وخافت چوديت
وحزبها أن يكون هرم الايمبراطور او موته سببا فى المشاجرة فى مصلحتهم
وفيما يكون عليه ابنها كرلوس فى المستقبل فحملوا لويز على أن يشارك
فى السلطنة ولذا من اولاده على أن يقتسمها بعده مع كرلوس ابن الايمبراطورة
چوديت وعرض ذلك على لوتير فرضيه وبادر بقبوله

قسمة وورم (سنة ٨٣٩)

فوقعت حينئذ قسمة خامسة فى مشورة انعقدت بمدينة وورم وكانت صورتها انهم
قسموا الايمبراطورية الى قسمين متساويين كانت حدودهما نهر الموز وجبل
يورا ونهر الرون واختار لوتير الاقاليم الشرقية وترك لكرلوس مملكتى
نستريا واكيتنيا ولم يبق لاخيهما لويز الجرمانى الا باويرة

فترتب على هذه القسمة الاخيرة الناشئة عن قلة التدبير والحزم فى السياسة أن صار
الايمبراطور محصورا ثانيا بين حربين وذلك ان ابنه لويز دعا الطورنجيين
والسكسونيين الى الانضمام الى اهل باويرة ليجمعوا جميع الامم التوتونية على
اختلافها تحت قانون واحد وفى ذلك الوقت طلب الاكيتنيون ثانيا أن يكون عليهم
ملك يخصهم لما ان قسمة وورم جعلتهم تحت الحكومة النسترية فخلعهم ايمنون

قونتة بواتيير على مبايعة ولد ليبيين فلزم اولا الاهتمام بقمع هذه الملة وردعها
عن ذلك حيث انكرت حكم الايمبراطور ولم ترض به لكراهتها للحكومة الفرنجية لاسيما
نسل الكرلونجيين وان كانت معه على الامانة حتى فى حال خروجها وعصيانها فاجتاز
لويز نهر لوار وتغلب على محطة كرلات المنيعة وتتبع العصاة حتى وصل الى
مدينة تورينة وكان بها وباء فجبره ذلك على ان يرجع الى مدينة بواتيير ويقيم بها
مدة الشتاء فبلغه فى هذه المدينة ان ملك باويرة تغلب فى هذا الوقت على بلاد
سوابة بجيش لزداد عدده بمقدار عظيم من الطورنجيين والسكسونيين وكان نهر
الرين وقتئذ يخشى عليه من التغلب فتوجه اليه لويز ليدافع عنه والظاهر
ان خروج الجرمانيين عن الطاعة كان الى ذلك الوقت غير عام فى الملة الجرمانية
باسرها الكونهم تشتتوا بمجيء الايمبراطور وظهوره اقتبالهم حيث طرد ملك باويرة
من طورنجية وعاد الى بلاده من بلاد بوهيمة فعند ذلك سار الايمبراطور
فى طريق نهر الرين امالسكون غضبه على ولده او لكون الفصل مضى منه مدة
عظيمة قاصدا عقد مشورة بمدينة وورم

ولكن لم يمكنه ان يتجلد لمكابدة مشاق الغزوتين لما لحق صحته من الضعف والتغير
بما قاساه مدة خمس عشرة سنة من الكرب والغم الشديد فكان آخر شهقة فارق بها الدنيا
فى جزيرة من جزائر الرين قريبا من ميانسة فقضى بها نحبه متاسفا على ما مضى
ومترقبا مستقبلا لا ينقص فى الضرر عن الماضى

موت لويز التقى سنة ٨٤٠

ولم يكن الخلل الذي اضطربت به ايام هذا الايمبراطور السيء البخت ناشئا عن ضعفه
وعدم حزمه وتدبيره وانما لسوء حظه كان حكمه فى مدة لو حكم فيها غيره
ممن بلغ الغاية فى البراعة والقوة لعسر عليه ان يمنع انتشار ما كان واقعا فيها
من الاختلال وفساد الاحوال فان لويز تصدى لمعارضة اصلين كانا آخذين
فى حل عرى المملكة التى ورثها عن شرلمانيا ومثل هذا المشروع الجسيم
لابد ان يخيب فيه سعيه لانه كان فوق طاقته وذلك انه اراد ان يوفق بين اتحاد
سياسة المملكة والحكومة الاصلية من الدولة الايمبراطورية وبين اصول
الوراثة الجارية عند الفرنج من عهد قلويس فلم يترتب على التوفيق بين هذه
الاشياء المتناقضة الا تعجيل الفشل والشقاق الداخلى الذي كان ينبغى تداركه
حيث جدد اولاد هذا الايمبراطور الاربعة فى حياته الحروب الداخلية التى
كان اولاد قلوتير الاول الاربعة قد نشروها قبل ذلك فى فرنسا بعد موت ابيهم
وكان اللودية الارستوقراطيين الحربيين سابقا قويت شوكتهم بمثل هذا الشقاق

حتى

حتى وصلوا الى اعدام الدولة المروفنجية كذلك الارستوقراطيون الملتزمون اتباع الامبراطورية مكنوا استقلالهم وعضدوا حريتهم باظهارهم الخدمة والسعى فى تحصيل اغراض الامراء واطماعهم او تحصيل ما فيه المصلحة لمما لكهم فعما قليل ترتب على ذلك ضياع تيجان شرلمانيا كأنهم بذلك قصدوا اهماله واتباعها

ولم تكن السنوات الثلاث الاول التى اعقبت موت الامبراطور لويز الاتكملة واستدامة للحرب الداخلى الذى اضرم نيرانه تقسيمات الامبراطورية وقد نشأ عن هذه التقسيمات وان لم تكن مبينة بيانا شافيا أن استيقظ الناس لنوع من محبة الوطن فى اجزاء الامبراطورية المختلفة وسوغت لكل امة من امم تلك الامبراطورية أن تكون مستقلة على حدتها فبذلك ظهر من مبدء الامر المقاتلة التى ترتبت على هذه التقسيمات واشرفت على الانقضاء امارة ملية بمعنى ان كل امة صارت تقاتل بقصد استقلالها وقيامها بنفسها

الكلام على ما بقى من الحروب الداخلية من (سنة ٨٤٠) الى (سنة ٨٤٣)

وبينما كان الناس ينتظرون حصول ثمرة هذه المقاتلة وهى استقلال الامم وانفصال اجزاء الامبراطورية عن بعضها اذ وقع القتال بين النسلين الكبيرين وهم المنصورون والمغلوبون اى الفرنج والامم التى ادخلوها تحت حكمهم وذلك ان الحرب اولا وقع من الفرنج التودسكيين والغليين مع رومان ايطاليا وبرتونيزة واكيتنيا فكان الاولون يقاتلون بقصد نسخ ما رتبه شرلمانيا الذى جمع بين الامة الفاتحة والنسل الرومانى بكونه اعاد الكرسى الامبراطورى فكان ميل الامم الجرمانية لهذا الغرض ملائما لمصلحة ملكيهم اللذين كان يظهر ان استقلالهما لا يلائم وجود امبراطور يحكم الامبراطورية بتمامها فمن ثم حصل كما سيأتى أن الملوك والامم بعد أن حصلت نصرة لم ينبت بها الامر فى هذا الشأن صاروا يؤكدون المعاهدة بينهم فلما ترتب على مشارطة الصلح العمومى اعادة طائفة من الرومان الى الحكومة التوتونية قام الامم وحلوا اسلحتهم لنقض تلك المشارطة التى عقدها الملوك وبذلك تم التمزيق الاخير لسلطنة شرلمانيا

ولم تكن هذه التقلبات الاهلية التى كانت ممهدة لما وقع بين الامم من المشاجرات الكبيرة مجهولة لمؤلفى ذلك العصر فانه كان يوجد بين هؤلاء الامم الذين كانت افعالهم انما تصدر عن مجرد انبعاث طبيعتهم اناس فاقوا غيرهم بكمال قريحتهم وذكاء عقولهم فبينوا ما جرى على الملل من المقادير بعبارات صحيحة فصيحة وقد سبق لك ما نقلناه عن اسقف راوينة من العبارات التى هى اشبه بكلام النبوة وبعد ذلك بار بعين سنة بين هنقمار لملك من ملوك فرنسا اسباب التقلبات المذكورة وما ترتب عليها من النتائج وفى المدة

التي بين اخبار الاسقف الايطاليانى بالمغيبات (اسقف راوينة) والاخبار السياسية التى انبا بها هذا المطران الفرنساوى (هنقمار) سمع من بعض الاديار صوت راهب يتأسف على ما ترتب على قسمة الامبراطورية من المضار والمصائب فقال مامعناه قد دهم المنصب الملوكى من التقلبات السيئة ماذهب برونقه وبهجته وضاع شرف الكنيسة وصار فى حيز النسيان وانتزع من قلوب الناس هيبة المحاريب واحترامها وافضى دوام السلب بالامة السيئة البخت حتى اضعف قواها وعصابة الاشراف التى وقع فيها الشقاق والتفاقم صارت تسعى فيما فيه هلاكها ودمارها ولم يبق للمساوى والذنوب زمام يرد جماحها ولا حاجز يمنعها وصارت دماء البريئين تسفك ولم يجدوا من ينتصر لهم ويأخذ بثارهم

وقد كانت الامبراطورية زاهية زاهرة وباهية فاخرة برونق التاج الامبراطورى وكان الحكم فيها واحد وكان اهلها امة واحدة منقادة اليه وكانت المدن فى عز وفلاح تحت رعاية الشرائع واعلام العدل وكان الصلح يمد ظلال الالفة والاتحاد بين الاهالى وكان الاعداء دائما فى الهيبة والرهبة من شجاعة الحربيين هذا ما اشتهرت به ملة الفرنج فى سائر اقطار الدنيا حتى ان ذرية روموليوس اذعنت لشجاعتها وكانت سيدة بلاد الدنيا (رومة) منقادة لشرائعها وقوانينها

ولم يبق الآن لهذا العظم اثر بل انقرض بالكلية وضاع اسم السلطنة وفخارها وانحطت الى ثلاث مواريث بعد ان كانت شيأ واحدا حتى صار لا يعد احد من امرائها فى زمرة الاباطرة وصار كبار ملوكها من اصاغر الامراء وقام مقام المملكة اجزاؤها وصارت المصلحة العامة غرضا لسهام الرماة وكل انسان لا يدافع الاعن مصالح نفسه الخصوصية وصار الناس يتذكرون كل شئ ولم ينسوا الا الله سبحانه وتعالى وبعد أن كان امناء الدين متعودين على الاجتماع مع بعضهم تفرقوا الآن وانعزلوا عن الناس لما وقع بيننا من الفشل والشقاق وتركوا ما كانوا عليه اولا من عقد الجمعيات القسيسية ولم يبق لجمعيات الامة وجود وخلا سعى الوفود وسفرهم عن الفائدة لانعدام الدواوين الملوكية فى سائر الجهات فكيف حال الملل التى يخترق اراضيها نهر الدنوب الكبير او الرين والرون ولوار وبو حيث قطعت علائق الاتحاد التى كانت منتظمة قليلة مرتبطة بها وكانت جاعلة احوالها واحدة وصارت فى ضجر عظيم مما حل بها من التفاقم والشقاق

وقد رأى بعض الشبان من المورخين رأيا سديدا يلائم هذا الاختلال والتفاقم اتم الملايمة وحاصله ان ما وقع فى القرون الوسطى من الحروب الداخلية علامة على ان

هنالك

هنالك اقوا اما مختلفي الاصل موجودين في عصر واحد لم تتفق كلمتهم وعلى انه في وقت مشاجرة الملوك والملتزمين لم يكن الناس ملة واحدة بل كانوا مللا متنوعة

ولما بلغ لوتير موت ابيه رحل من ايطاليا قاصدا ادخال جميع اجزاء الامبراطورية تحت ادارة المنصب الامبراطوري وكان قد تزيا وتشذرى هذا المنصب وكان يلزمه قبل كل شيء أن يستميل آراء الفرنج المشرقيين ويمنع الجمعية التي كان ابوه امر بعقدها في مدينة وورم عند موته ان تتذاكر فيما تأباه مصالحه فقصد جهة نهر الرين وكان اخوه لويز هنالك على حالة بين الرجاء والخوف وبعث من طرفه الى فرنسا القبلية وكلاء امرهم ان يستميلوا اليه ملتزمي نسترياء بالوعود او التهديد وفي هذا الوقت سلك مع اخيه كرلوس مسلكا جمله على الوثوق به بعد أن كان لا يأمن مكره حيث التزم له أن يعامله معاملة الابن في المعمودية اي في النصرانية كما هو مرام والدهما وتشفع اليه في ابن بيبين حيث انه يصلح لخدمة الامبراطور وليس محلا للريبة وعما قليل ظهر كذب تلك الظواهر الدالة على العدالة والملاطفة وذلك انه بلغ كرلوس وهو في مدينة بورجس ان لوتير لما لم يحصر على مقاتلة ملك باويرة تهيأ الدخول نسترياء لان كثيرا من عمالها كان يلزمه أن ينضم اليه ويدخل في حزبه وعند ذلك بادر كرلوس بالذهاب الى مدينة كيبرسي وتحالف معه فيها عدة من امناء الملتزمين غير انه وقع التخلي عنه في ولاية الاردين وعاد حزب بيبين الثاني في اكتينا ورأت الامبراطورة جوديت انها لا تأمن على نفسها بمدينة بورجس وكان كرلوس يومئذ في سن تظهر به المودة القلبية على المصالح السياسية فذهب لينقذ امه وترك ميدانا واسعا لخيانات القسسيين الذين تأسوا بهلدوين رئيس دير سنت دينيس وجيرارد قونتة باريس واصطفوا تحت اعلام لوتير وقد صار كرلوس في حالة اليأس والقنوط عند ماهدده اكبر اخوته الذي كان يومئذ سائرا جهة نهر لوار وبيبين الثاني الذي كان يتتبع اثره وتومينوة دوق الابريطانيين الذي كان يستنكف أن يكون مساعدا لاحد وذكر نيطارد أن كرلوس صار لا يدري اين يذهب بامه ولا اي محل يأمن به عليها وكان هنالك جماعة من الملتزمين فقدوا جميع ما يملكونه ببقائهم في حزبه ففعلوا معه ما كانوا به اسوة لغيرهم مما يدل على الصداقة التي لم يكن لها نظير في ذلك العصر حيث عاهدوه انهم يؤثرون الموت مع الشرف على التخلي عن ملك خانه الناس من جميع الجهات وشتان بينهم وبين ورنالدو بواتيير والقونتة لمبير حيث لم يأتيا لاعانته الا بعد أن شرطا عليه اجرة خدمتهما

فسار هذا الملك الشاب بتلك الجماعة الحربية القليلة قاصدا جهة اورليان فلقى لوتير هناك وكان يخاف من كرلوس لخوفه بمدينة فرنكفورت فلذا لم يجسر أن يخاطر بنفسه فى مقاتلته كما كان كذلك مع لويز بل سلك ايضا مسلك التدبير والسعى فى اسباب الصلح وكان هذا السعى لبطئه ملايما السلوكه مسالك الغرور والخداع فعرض على اخيه ان ينزل له عن اكتينا وسبطمانيا و پروونسة وعشر قونتيات بين نهرى السين ولوار فانظر كيف اضر بمصالح پيپين الثانى مع انه فى مبدء الامر كان قد جعله تحت حمايته فمال كرلوس الى الرضا بهذه المشارطة و بينما هو كذلك اذ حضر اليه جيش من البرغونيين والپرووونسيين يقوده القونتة وارين والقونتة تيوبالد فحمله ذلك على أن يدعى حقوقا اكثر مما ذكر فانحط رأى الملكين على فصل هذه الدعوى بمشورة تعقد عن قريب فى سراية اتينى

وفى مدة انتظار عقد تلك المشورة رجع كرلوس على عقبيه الى اكتينا قاصدا فصل برنارد دوق غوطيا من حزب پيپين وكان هذا الدوق لا يرغب فى مبايعة هذا الملك لانه كان وقتئذ قد اخذ منه دوقية طولوزة ليعطيها للقونتة وارين وكان ايضا تأبى نفسه أن يؤتيه موثقا يخالف ما كان بينه و بين پيپين الثانى الذى كان يتطلب اكتينا من العهود والمواثيق ومع ذلك انحط رأيه على مبايعة كرلوس ولكن هل يليق بهذا الملك أن يثق بتلك المبايعة التى ليس الحامل عليها فى الحقيقة الا الخيانة والغدر فلذا ارتاب منه ريبة صادفت محلها فلم يبرح عن اكتينا حتى بذل وسعه فيما يكون به تمكنه منها من انواع التدبير والاحتراس وقد تكفل له ثلاث فرق عسكرية كانت نازلة فى مدينة كليرمون ولميوجس وانغوليم بانقياد الاقطار التى أمام نهير ترن ونهر غارونة وعدم خروجها عن الطاعة ثم اخذ فى السير الى مدينة منس واخذ فيها المواثيق على القونتة لمبرت وغيره من قونتيات الثغر الابريطانى وكان الجينه يومئذ قد واعدهم نومنويه بوعود تدل بظاهرها على الصلح وان كانت فى الواقع ونفس الامر من قبيل الغش والخداع فبذلك كله لم يترك كرلوس خلفه شيأ يخشى خطره و يخاف شره وصار مستعدا للحضور الى مشورة اتينى مع غاية الاطمئنان وثبات الجنان

ثم انه اخذ فى المسير الى تلك المشورة مطمئن القلب غير مرتاب من احد فلما وصل الى سواحل نهر السين وجد مياهه طافحة والقناطر مقطوعة والسفن غارقة ووجد القونتة جيرارد يدافع عن تلك السواحل وكان لوتير قد امره على عمال نستريا العليا ومع ذلك فقد احضر التجار بواسطة المد والجزر ثمانيا وعشرين سفينة جاؤا بها

من البحر الى مدينة روان فأنزلوا بها جيشه الصغير واوصلوه الى الشاطئ الايمن من النهر المذكور فعند ذلك اخذ كرلوس فى السير حتى وصل الى مدينة سنت دينيس ولم يجد فى طريقه ما يعوقه فبلغه فيها ان القونتة جيرارد اجتاز نهر السين ايضا ليصد وارين وتيوبالد وكانا آتيين من اورليان بقصد الانضمام الى الملك فافسد كرلوس عليه سعيه واجتمعت فرقتا جيشه الملوكى فى مجمع نهرى لوانغ والسين

ثم ان نجاح كرلوس فى هذا الامر حمله على أن يذهب الى مدينة طرويس لينتظر فيها ما كان يترقبه من الحوادث ومع هذا النجاح لم يزل على ما كان عليه منذ مات ابوه من الحرمان والعدم فقد ذكر نيطارد وكان ممن قاسم كرلوس فى هذه الشدة ان اصحاب الملك كانوا لا يملكون شيأ سوى الاسلحة والخيول الحربية وقد لحق هذا الجيش الامين من الفرح والسرور ما يجل عن الوصف حين رأوا انه وصل اليهم عدة من عمال الاكتينيين اقتحموا مالا يحصى من الاخطار وجاؤا الى كرلوس بتاج الذهب وغيره من شعار المنصب الملوكى وبمبلغ من النقود وكانت اشد لزوما فى تلك الاحوال من جميع العلامات الملوكية فعند ذلك احس كرلوس برجوع آماله وعاد اليه رجاؤه الاول حتى انه لما سأله لوتير وكان آتيا يومئذ من نهر الرين بعد أن هزم ملك باويرة لم تجاوزت الحدود المتفق عليها فى المشارطة اجابه مع الشهامة والثبات ان الايمبراطور نفسه (يعنى لوتير) نقض المواثيق والعهود التى عاهد عليها اخوته وخادع احزابهم وقتل منهم من قتل واوقع النكد والتعكير فى جميع الممالك وشهر سلاحه وحمل على لويز يجبره بذلك على أن يستعين بالوثنيين اى السلاويين الخراجيين

وكانت جوديت قد جاءت الى ولدها بمدد واسعافات من داخل بلاد اكتينيا فلما تقوى جيشه بهذا المدد اخذ فى السير بقصد الانضمام الى ملك باويرة وكان قد جاوز نهر الرين بعد أن هزم وقتل أدلبرت دوق اوسترسيا وكان لوتير قد تركه على هذا النهر ليمنع المارة به ولما بلغ كرلوس واخوه ملك باويرة هذه الامنية وهى اجتماعهما على بعضهما لم يحملهما ذلك على أن يحيدا عن طريق العدل والاستقامة بل استمرا على الانقياد الى اخيهما الاكبر وهو لوتير وقد استقر الرأى بينهما على أن يعرضا عليه أن يفوضوا امرهم الى جمعية من الاساقفة والعامة ليقضوا فى مصالح الجميع على وفق مرام ابيهم وعلى مقتضى يمين لوتير فلم يقبل لوتير المذكور منهما ما عرضاه عليه فى شأن الصلح وابى الا القتال

واقعة فونتيني اوفونتنة (سنة ٨٤١)

وكان بجيشه الامبراطورى قد اخذ ميمنة فى السير قاصدا الدنو من پيپين وكان آتيا بقصد الانضمام الى لوتير الذى هو خصم غريمه فى شأن كرسى اكتينا (وهو كرلوس) واما لويز وكرلوس فانهما تتبعا لوتير حتى ادركاه قريبا من اوكسيرة فذهب ونزل بمدينة فونتينى اوفونتنة وتركهما يسيران حتى سبقاه ونزلا ببلدة يقال لها طورى واخذا فيها معسكرا جيد الوضع ومع ذلك تضرعا اليه كما فعلا سابقا وطلبا منه أن يسلك معهما مسلك الصدق والاستقامة فى الصلح او فى الحرب فاجابهما بانه لابد أن يتأمل ويتروى فيما عرضاه عليه لكن لما انضم اليه پيپين ووصل الى معسكره سلك مسلك الانفة والتعاظم وادعى لنفسه الحقوق الامبراطورية ورد على اخويه مطاليبهما مع انها كانت اقوى مايستحقانه شرعا فافضى بهما كبره وانفته الى الحنق والغضب الشديد وفوضا امرهما الى الله تعالى وبعثا اليه يدعوانه الى القتال

فعند ذلك بعث جميع الامم الذين كان لهم رغبة فى قطع المشاجرة بين الملوك عساكرهم الحربيين الى برية فونتنة وهى التى انبت فيها امر سلطنة شرلمانيا فوقع القتال بين الفريقين فى ثلاثة مواضع منها قريبا من قرى فاى وبريتنيلة وكولينة وبينما كان لوتير فيها قد اشرف على النصرة والظفر اذ ظهر وارين كانه ملك من الملائكة اتى لحماية كرلوس يقود الطولوزيين والپروفنسيين فبت امر النصرة للاخوين (كرلوس ولويز) وقد قتل فى هذه الواقعة اربعون الفا كانوا يقاتلون رغبة فى اتحاد الحكومة الامبراطورية الذى انعدم وصار لايرجى عوده وقتل ايضا من العساكر نحو هذا القدر تقريبا كان الحامل لهم على القتال انقاذ الامم من تلك الحكومة واستقلال الممالك الخراجية وقد ذكر بعض قدماء المؤرخين ان اشراف العساكر من اوستراسيا ونستريا واكتينا وبرغونيا وابريطانيا قتلوا فى هذه الواقعة وكان النورمان قد شرعوا وقتئذ فى الاغارة على فرنسا فلم تجد من يدافع عنها وبالجملة فقد ذكر المطران هنقمار انه من اليوم الذى هزم فيه كرلوس مرتيل زنفروه فى ونسياق لم تلحق النصارى نكبة مثل هذه النكبة ثم ان لويز وكرلوس لم يتتبعا الفئة المنهزمة بل فوتا على انفسهما ذلك الزمن النفيس بمكثهما فى ميدان الحرب كانهما يتعجبان من حظوتهما واقبال الدهر عليهما وبعد أن اعدا ثلاثة ايام للصلاة والصوم فرقا على عساكرهما الغنيمة ومناصب المغلوبين وقد حصل فى ليلة الواقعة ان جرجى مطران راوينة حضر الى معسكر لوتير ومعه ثلثمائة من الخيل عليها هدايا رغبة فى أن يمنحه الامبراطور أن يكون مستقلا بنفسه

فى مطرانيته فانقض العساكر على تلك الهدايا التى كانت ثمنا لشراء الاستقلال من لوتير واخذوها عن آخرها حتى ان حاقتهم افضت بهم الى اساءة هذا الحبر لما انه كان يقول انى اتيت قبل الواقعة لاسم كرلوس بالوسمة القسيسية ثم ان كرلوس انعم على وارين بدير فلاوني مكافأة له على صنائعه الجميلة وصار يغترف بيديه من اموال الخزينة القسيسية ويعطى احزابه الآخرين جزاء لهم على امانتهم وصداقتهم وكان ريشووين قونتة نتنة قد قتل فى تلك الواقعة فاعطى كرلوس حكومته لرينلد دوبواتيير فوقعت العداوة بينه وبين القونتة لمبيرت لما انه كان يطلب رجوع تلك الحكومة اليه وكانت عاقبة معاهدة هذا القونتة مع الابريطانيين سيئة على المملكة واما الدوق برنارد الذى اعتزل الفريقين مدة الواقعة منتظرا من يسعفه الدهر منهما ويفوز بالنصرة على صاحبه فينضم اليه فانه حظى فى نظير هذا التباعد الذى هو ضرب من الخيانة باقراره على ما كان له فى برغونيا من الاقطاعات العديدة ووعدانه يحمل بيبين على طلب الحماية من كرلوس وكان هذا الملك أمنة يشق بكل ما يلقى اليه فاعتمد على هذا الوعد طامعا فى الوفاء به فسار من طريق اكتينا حين كان اخوه لويز يقصد سواحل نهر الرين ثانيا ليراقب اخاه لوتير ويلاحظ افعاله وكان لوتير اذ ذاك قد التجأ الى مدينة اكسيلاشبيلا وقد عرف هذا الايمبراطور الهارب كيف اخفى هزيمته عن الناس وأبهم عليهم الامر بالكلية حتى ان عمال نستريا واوستراسيا انضموا اليه ودخلوا فى حزبه فسعى كل من لويز وكرلوس فى اعادتهم اليهما كما كانوا اولا فأبوا الرجوع اليهما فى مبدء الامر وترتب على ذلك انه لم يتيسر لهما الاجتماع فى مدينة لنغرس حسبما كانا تواعدا عليه حين افتراقهما

ومع ذلك فكانت نفس لوتير غير مطمئنة لما انه اعاد رعيته الى ما كان عليه اسلافهم من الديانة والقوانين وبذل الاراضى للاحرار ووعد المستعبدين بالعتق ليتخذ بذلك لنفسه احزابا من شجعان السكسونيين فتولد من ذلك اختلال عظيم وفساد كبير بل صنع ما هو اعظم من ذلك حيث ان ما كان قائما بنفسه اذ ذاك من الاحتياجات افضى به الى الخطا فى السياسة فقبل النورمان فى ايمبراطوريته واقتنى اثرابيه فاعطى هارولد المرتد عن دين النصرانية على سبيل الالتزام جزيرة ولشران وما جاورها من الاراضى فنال بعض اسعافات وقتية بواسطة هذه العطايا التى كانت فى الحقيقة دلائل مخوفة وعلامات مهولة على الحلال الجمعية وافتراق الامم وذلك ان ابنه المسمى باسمه اتى اليه بفرقة من السكسونيين انضمت الى الاوستراسيين والالمانيين

فعظمت بذلك قواه وصار تحت يده جيش جرار طرد به الملك الاستريانى اعنى كرلوس من سواحل نهر الموز وكان قد توغل فيها ومازال يتتبعه حتى وصل الى نهر السين فنزل كرلوس على الربوات الممتدة من مدينة سنت كلود الى قرية اسفييرس وكان فيضان النهر يقيه من الاعدا فتلقى هنالك ما عرضه عليه لوتير من الشروط التى تعود بالنفع عليه فردها مع الشمم وشرف النفس كى لا يخون اخاه لويز فلم يجسر لوتير أن يغير عليه بل رجع الى جهة سنس واجتمع هنالك مع پيپين الذى كان يتطلب بلاد اكتينيا وكأن كرلوس اراد ان يقطع الطريق على خصمه او يدنو من اخيه ملك باويرة حيث جد فى المسير حتى نزل بغابة برنواس ففزع هذا الايمپراطور شديد الخوف من سرعة هذا السير وكان يعول على الدسائس السياسية اكثر من تعويله على عواقب القتال فلذا طلب المعاهدة من دون ابريطانيا فلم يجده ذلك الطلب نفعا فكان بذلك يبحث عن اصدقاء غير مقطوع بصداقتهم وفقد من كان يثق به و يتحقق صدقه وهو پيپين فانه عاد الى اكتينيا واما كرلوس فانه اجتمع على اخيه لويز فى استراسبورغ

ثم انهما فى هذا الاجتماع الشهير اخذا على بعضهما المواثيق والعهود على أن لا يضر احدهما باستقلال صاحبه وكان ذلك أمام الجيشين فاما كرلوس ملك نستريا فحلف باللغة الجرمانية واما لويز ملك جرمانيا فحلف باللغة الرومانية وكانت لسان الفرنساوية يومئذ والتزم كل منهما لاخيه أن لا يتذاكر مع لوتير فيما يعود على حليفه بالضرر واخذا قوامهما ايضا المواثيق على بعضهم لاجل اشهار تلك المعاهدة وتأكيدها حيث اقسم عساكرهما على انهم لا يعينون باسلحتهم من يحنث من الملكين فى يمينه ثم لعب كل من افرنك الرين وافرنك السين العابا عسكرية قصدوا بها اشهار تلك المعاهدة التى وقعت بين الملكين واقوامهما لاجل دوام الاخاء بينهم وكان ذلك فى الوقت الذى ارسل فيه كرلوس ولويز الى لوتير و پيپين رسلا يعرضون عليهما شروطا فى شأن الصلح الذى هو آخر مصالحة وقعت بينهم ولما وصل الى هذين الاخوين المتعاهدين فرقة من السكسونيين وجيش كبير من البوار بين حملهما ذلك على أن يثبتا على تلك الشروط المعروضة ويصمما على اجرائها وتنفيذها مع التهديد والتخويف

محالفة استراسبورغ (سنة ٨٤١)

فبلغ لوتير فى مدينة سنتزيك ان أخويه بعد أن جمعا عساكرهما فى مدينة قوبلنتز اجتازا نهر موزلة ولم يعقهما عن اجتيازه معارضة المطران اوتجيز فرآى ان الاصوب أن يتباعد عن اكسيلا شپيلا ويدنو من جبال الالب

فكان

فكان ذلك تخليا منه عن اوستراسيا الغلبية فوقعت فى ايدى اعدائه فعند ذلك اعلن الاساقفة انه بموجب القضاء الالهى الذى ظهر بهروب الامبراطور يلزم ان هذا القطر يقسم بين كرلوس ولويز وبذلك تيسر لهذين الملكين أن يفترقا عن بعضهما آمنين من الخطر ليتوجه كل منهما الى مملكته ويزول عن رعاياهما ما كانوا يجدونه من الحيرة وعدم الوقوف على من ينتسبون اليه من الملوك

ومع ذلك امر لوتير بجمع العساكر من اقاليم سواحل نهر الرون لكنه اظهر لاخويه انه متهيء للمفاوضة معهما فى شأن الصلح لانه حدث فيه حزم وتبصر بما لحقه من المصائب والنكبات ومن ضجر رعيته البرونسيين وتشكيهم منه فيما بينهم فذهب وكلاؤه الثلاثة وهم يوزبيه وايغبرت وابرهرد واجتمعوا على هذين الملكين فى مدينة شالون سورمرنه (سنة ٨٤٢) وتذللت وقتئذ اوامر لوتير الالزامية بالتماسات سلك فيها مسلك التواضع والاستعطاف وهى ان اخويه يسمحان له ببعض اراض زيادة على ثلث الامبراطورية رعاية لمنصبه فيطيب خاطره بتلك المراعاة وتقنع نفسه فلا يعود يدعى ان له حقا فى الرياسة عليهما ولا يتعرض لاستقلالهما باى خدش كان

ومثل هذه الالتماسات المعروضة لا مانع من أن تحل محل القبول لما انها لا تخل بمقام هؤلاء الملوك المتقاسمين للامبراطورية فى آن واحد ولا تضر بمصالحهم بل قبولها متحتم لان الصلح اذ ذاك كان مما لابد منه للجميع حيث قضى به على الملوك والرعايا ما دهم الامبراطورية من النكبات والمصائب على اختلاف انواعها قضاء بتيا وحكم به عليهم حكما الزاميا وذلك ان المجاعة كانت قد تسلطنت من قبل ذلك على الرعايا فى داخل الامبراطورية وكانوا يخشون القحط لما وقع فى تلك السنة من شدة البرد الذى به تجمد الاشياء وتيبس الاعضاء وكان اعيانهم لم يزالوا فى الرعب والخوف من واقعة فونتنة فصاروا لا يبغون القتال اتقاء لعواقبه وكانت الحروب الداخلية قد مزقت اكيتنيا كل ممزق وخرب الابريطانيون والنورمان بلاد نستريا وكان العرب متسلطين بالتدمير والتخريب على الثغر الاسبانى وعلى پرووينسة وايطاليا وكان خروج السكسونيين على ملتزميهم خلف نهر الرين يخشى منه أن يعم باقى جرمانيا التى كان السلاويون يغصون عليها من سائر جهاتها

مشارطة وردون (سنة ٨٤٣)

فبذلك كله كانت موانع الصلح قليلة فاجتمع الملوك الثلاثة قريبا من مدينة ماكون فى جزيرة من جزائر نهر السون وانعقد الصلح بينهم فكانت لنبرديا وباويرة واكيتنيا اصول انصبائهم الثلاثة واما غيرها من اقاليم الامبراطورية فانحط الرأى

بينهم على أن يجعل ثلاثة اقسام متساوية وتكون الخيرة للوتير وانيط بهذه القسمة مائة رجل وعشرة فاخذوا فى تنجيز ما انيطوا به الا ان جهلهم جعل هذا الامر اشد صعوبة من تمييز مصالح هؤلاء الملوك المختلطة المتنوعة وذهب كل من الملوك المذكورين الى مملكته ليعدّ ما يتوقف على حضوره من الامور المهمة حتى يتم امر القسمة فكان لوتير مشتغلا على معاقبة عمال نهر الموز لخيانتهم لحزبه وكان لويز يلزمه أن يبذل جميع وسعه فى قمع السكسونيين ومنعهم عن الخروج والعصيان فضرب اعناق رؤسائهم جزاء لهم على هذا الخروج الذى كان غرضهم منه استبدادهم واستقلالهم بانفسهم وكان لوتير هو الذى تسبب فى اظهاره على وجه الخيانة والغدر وقصارى الامر ان كرلوس لما كانت رغبته فى انتخاب امرأة يتزوجها اشد من رغبته فى تتميم سقوط بيبين الثانى وانحطاطه ترك وارين دوق طولوزة لاخطار اكتينيا التى بها بيبين المذكور وتزوج فى مدينة كيرسى بنت اخى الدوق ادهيلرد المسماة هرمانترودة طامعا بهذا الزواج الناشئ عن السياسة أن يرجع عمال النستريين الى حزبه حيث كان لهذا الملتزم وهو الدوق المذكور الفضل عليهم فى مناصبهم واقطاعاتهم فانظر الى المنصب الملوكى كيف ادت به الضرورة حتى صار صاحبه يسعى فى طلب الحماية من احد رعيته

ولما فرغ الوكلاء المذكورون من بيان مخالفات الدولة الكرلونجية وتقدير قيمتها ومقابلتها ببعضها اجتمع الملوك فى مدينة وردون لينظروا ما صنعه هؤلاء الوكلاء ويتموا امر القسمة فخص الايمبراطور فى توزيع الاقاليم ايطاليا وجميع البلاد التى بين جبال الالب ونهر الرين ونهر اسقوط والموز والسون والرون وخص لويز بلاد جرمانيا المسماة ترنسرهينانة والمدن الثلاثة وهى وورم اوووروس وسبيرة وميانسة واما كرلوس فوقع فى نصيبه الاقطار التى بين نهر اسقوط والموز والرون وابره والبحرين

والظاهر انه لم يلاحظ احد من المؤلفين وغيرهم ان حفدة شرلمانيا سلكوا فى قسمتهم هذه على منوال ما اقتضاه حزم اولاد قلويس من السياسة غير انه يحتمل ان ذلك لم يكن منهم عن تروٍ ونظر ووجه تأسيهم بهم ان كلا من الملوك الثلاثة اخذ فى نصيبه حصة من اراضى ملة الفرنج حيث اخذ لويز فرنسا القديمة وكرلوس فرنسا الجديدة واخوهما البكرى وهو لوتير البلاد المتوسطة وهى اوستراسيا سنرهينانة واما ما اكتسبته الايمبراطورية من الفتوحات كاكتينيا والثغور وبرغونيا وايطاليا وسكس وباورية فوزع ايضا على تلك الممالك الثلاثة التى ظهر بذلك

تمكنها

تمكنها وثباتها وقد استمر اهالى الاقاليم القديمة مدة طويلة على تسميتهم باسم الفرنج وان فرقتهم التقسيمات الثلاثة عن بعضهم غيرانه حدث على التدريج للاماكن اسماء تميز بها الاهالى الذين كانوا دائما يتجانسون ويتقاربون من بعضهم بسبب اختلاط الغالبين والمغلوبين ببعضهم اختلاطا كليا فصار المتبربرون لا يخجلون من تسميتهم بالطليانية واتخذ الغليون لانفسهم اسم فاتحى بلادهم وغيروه عن اصله وتسموا فرنساوية واما الامم الجرمانية على اختلافهم فتسموا بالالمانيين وكان هذا الاسم اولا لا يطلق الا على قبيلة سوابة

الخروج عن الطاعة في داخل البلاد

ثم ان مصالحة هؤلاء الملوك الثلاثة ومنع اشتراكهم فى المصالح حسبما هو مقرر فى مشارطة وردون كان يؤمل منهما مبادرة الاقاليم الخارجة عن الطاعة بالاذعان والانقياد وسهولة الظفر بمن كان من الاعداء يغير على جميع الثغور الا ان تلك المشارطة العظيمة لم تكن عن حسن نية وخلوص طوية فكيف يتأتى للملوك أن يطالبوا من عمالهم الاستقامة ودوام الصدق فى الطاعة مع انهم انفسهم كانوا يتلاعبون بالايمان والعهود التى ينبغى أن تكون على غاية من الاحترام والمراعاة فلذا حصل بعد انتهاء مشاجرة الامم الكبيرة أن ضاربشاهد من سائر الجهات ان الامم المختلفة المحصورة بين حدود كل مملكة من ممالك هؤلاء الملوك المتباينة فى المصالح واللغات والاخبار المروية شرعت فى مقاتلات خصوصية جزئية ولما لم تكن اعانتهم لملوكهم على ما ينبغى صار الملوك المذكورون عاجزين عن حماية اممهم من المتبربرين

وقد بلغ من عجزهم ان لوتير نفسه لم يسع فى حيازة فخر هذه الحماية بل اكتفى باعادة القونتات البروونسيين الى الانقياد والطاعة وكان فلكراد دوق ارلس هو الذى حملهم على الخروج معه ولم يعد الايمبراطور الى اجتياز جبال الالب بل فوض لولده الاكبر المسمى لويز امر معاقبة الرومان على جسارتهم فى استبدادهم بانتخاب البابا دون أن يجعلوا للايمبراطور مدخلية فيه واناطه بما هو اصعب من ذلك وهو أن يلزم دوق بنيوان بالطاعة والانقياد فجاء هذا الدوق مع جيش عظيم واحتفال كبير وآتاه المواثيق أمام هذا الجيش ثم نقضها ولم يعمل بما يقتضيه هذا الاحتفال العظيم من الوفاء بها ووكل ولده ايضا بامر خطر وهو أن يدافع المسلمين عن ايطاليا وكان هؤلاء المسلمون المقيمون بسيسليا منذ خمس عشرة سنة قد انتهزوا فرصة ما وقع بين الملوك من الفشل والتفاقم واغتنموا ايضا فرصة العداوة التى جرت الى الشقاق بين امراء المتبربرين باقليم بنيوان وبين المدائن الحرة ببلاد اليونان الكبرى فدخلوا هذه الاقطار وخربوا باقى ايطاليا بكثرة اغاراتهم التى كانت تقع منهم على حين غفلة

فكانوا تارة يقاتلون امرآء بنيوان وسالرنة ودوقات نابلى وتابيطه وتارة يحمونهم وبعد ذلك اوقعوا كرسى بلاد النصرانية فى الخطر وكان الفضل فى انقاذه من ذلك لشجاعة البابا ليون الرابع ودنو العساكر الامبراطورية منه (سنة ٨٤٧) فانصرف المسلمون واخذوا معهم ما غنموه من ضواحى هذا الكرسى (رومة) والاوانى المقدسة التى سلبوها من كنيسة الحوار بين غير انهم لما كانوا مخوفين فى حالة ادبارهم كحالة اقبالهم هزموا الفرنج قبل أن يصلوا الى سفنهم ثم غرقت مراكبهم فضاع منهم ما غنموه من رومة ثم ان الجيوش التى قادها ولى عهد الامبراطورية وهو لويز بن لوتير لم تنجح فيما كانت مبعوثة بصدده من طرد العرب من اقليم بوليه وقد سعى لويز المذكور فى الصلح بين الاميرين اللنبرديين وهما رادلشيس وسيكنولف (سنة ٨٥١) وحملهما على أن يعداه بضم قواهما الى قواه لاجل طرد هؤلاء العرب فلم يترتب على ذلك ثمرة الا اقرار انفصال اقليميهما من المملكة وهما بنيوان وسالرنة وتمهيد استقلال حاكم كبوة الملقب غستالد وقد ثبت استقلاله هذا (سنة ٨٧٣) ولم ينجح هذا الشاب الذى هو ملك ايطاليا (لويز) فى اعانة هذين الاميرين الى قوانين الامبراطورية (سنة ٨٥٢) كما لم ينجح فى انقاذ الجزيرة اعنى ايطاليا من اقامة العرب فيها بل خابت آماله فيما بذله من الهمم أمام مدينة بارى وان عاد اليها مرة اخرى واظهر فيها شجاعته وثباته وكانت اسعد له من الاولى

ولم تكن اقاليم لوتير التى أمام جبال الالب فى امن من الغارات المسلمين فان اقليم پروونسة الذى اشرف اذ ذاك على الدمار والخراب يدل على كثرة الغارات ارباب الصيال من هؤلاء المسلمين الافريقيين حتى ان مدينتى مرسيليا وارلس اللتين هما اعظم مدن هذا الاقليم صارتا فى حالة بحيث لم يستطيعا الذب عن اراضيهما بل ولا حماية اسوارهما وكانت مصاب نهر الرون اذ ذاك لا يتعذر دخول السفن بها فخرب المسلمون سواحل هذا النهر ثلاث مرات فى ايام لوتير ولم يكن الفضل فى انقاذها من ايديهم الا لجيرارد دوروسليون دوق پروونسة حيث بذل فى ذلك همته وشجاعته

وقد سبق ان هذا الامبراطور جعل لملك جرمانيا اعدآء يعسر قمعهم والظهور عليهم فانه مكن قيام السكسونيين بانزال النورمان بينهم وبجوارهم فتقوى خروجهم وعصيانهم باقامة هؤلاء الاجانب بينهم حيث شهروا السلاح ثانيا مدة المذاكرة فى شأن مشارطة وردون ومع ذلك ظهر عليهم لويز وقمعهم بعساكره

فامكنه

فامكنه حينئذ أن يوجه من القوى والعساكر ما هو اعظم من ذلك الى قبائل السلاويين وكانوا يظنون انهم ادركوا الفرصة فى استرجاع استقلالهم بل ربما كانوا يعتقدون انه لاحت لهم فرصة الانتقام من الفرنج المشرقيين فى نظير ما وقع منهم سابقا من هزمهم اياهم عدة مرات فخرج المراويون عن الطاعة وتناسى بهم فى ذلك البوهيميون والابتريون غير ان اختلاف هؤلاء الامم الذين هم من عشيرة واحدة وعدم اتفاق كلمتهم سهل على ملك جرمانيا أن يحجزهم فى حدود بلادهم مدة من الزمان ان لم يكن حظى منهم بالطاعة والانقياد على سبيل الدوام والاستمرار

ثم ان كرلوس الملقب بالاصلع كان له اعداء من اقاربه وعشيرته كما كان لاخويه وكان يلزمه مقاتلتهم فى الوقت الذى دخل فيه النورمان بلاده حتى وصلوا الى وسط اقاليمه وارهبوا كرسى مملكته (سنة ٨٤٦) ففى مدة ما كان ارباب الاصيال من افريقة ينهبون من رومة المدينة اليونية كان ارباب الصيال من اهل الشمال يحرقون مدينة روان وضواحى باريس وكانوا قد تغلبوا على مدينتى نتس وبردو (سنة ٨٤٣) فكان فى ذلك ازالة للحواجز التى كانت تمنع من الدخول فى الانهار الكبيرة بفرنسا واظهروا لنومنوة وبيين الثانى انهم انصار لهما يسعون دائما فيما يعود عليهما بالنفع مع انهم كانوا وقتئذ لا يقاتلون لاجلهما

ماوقع فى اكتينا (سنة ٨٤٣) (وسنة ٨٤٤)

وقد افضت مشارطة وردون بمصالح بيين الى الضياع حيث توجهت اليها اطماع اعمامه فقام هذا الامير الشاب والاسلحة بيديه قاصدا فسخ هذه القسمة حيث صار بها مجبورا على الياس من التاج الملوكى وقد وجد من اعانه على هذا المقصد وهو شنس سنسيون دوق الغسقونيين وكان هذا الدوق قد استقل بنفسه فى بلاد نوار وكان الدوق برنارد قد قويت عزيمته على الاستقلال بواسطة اعانة الخليفة عبد الرحمن الثانى له وكان لا يجهل ان ظفر بيين يعود على خيانته لكرلوس بالنجاح وكان السعى فى هذه الخيانة آخر خيانة وزلة وقعت من برنارد المذكور مع انه كان يلزمه أن يتذكر ما لابيه عليه من الفضل والاحسان وكذلك ما لامه على احتمال صحة تهمتها به فادرك كرلوس مقاصد هذا الخائن وقبض عليه وسلمه لمحكمة الملة لتفصل دعواه فحكمت عليه بانه مذنب فى حق الملك وعوقب بالقتل فى طولوزة وذكر بعض قدماء المؤرخين ان كرلوس قتله بيده وعقد انه قاتل لابيه حيث قال ان هذا الملك معتبر انه ولد برنارد وشبهه به يقضى بزنا امه انتهى وقد اخترمت المنية هذه الملكة التى كانت تعلم دون غيرها حقيقة هذا الامر الذى لهج به الناس هل هو مطابق للواقع اولا ويمكن ان سرعة هلاكها اراحتها من شغل بالها وكثرة وسواسها

فى شأن هذه الخطيئة

ثم ان اكبر اولاد برنارد المسمى غليوم كجده دخل فى حزب بيبين جهرة وقصد أن يأخذ بثار ابيه فانطلق مسرعا الى طولوزة وحماها من كرلوس فذهب من الجيش الملوكى ثلاثة اشهر تحت اسوار هذه المدينة من غير طائل حيث انتظر فيها المدد الذى كان آتيا به هوج رئيس الرهبان ولم يترتب على انتظاره ثمرة لما ان هذا الراهب الذى هو ابن طبيعى لشرلمانيا قتل هو وعدة قونتات فى واقعة اغار عليه فيها بيبين قريبا من انغولية فاقتضى الحال ان يترك كرلوس محاصرة طولوزة ويسمح بعطايا ولووقتية (سنة ٨٤٥) فوقعت مشارطة الصلح فى مدينة فلورى سور لوار التى نزل فيها كرلوس لهذا المدعى عن سبطمانيا ومعظم بلاد اكتينيا فلم يبق لنفسه فى جنوب نهر لوار الا اقاليم بواتو وستونج وانغوماس التى اقطعها لرينولف الاول قونتة بواتيير ولقبها بلقب دوقية اكتينيا وكانت عاقبة هذا اللقب سيئة ورضى بيبين على هذه الشروط ان يعطى العهد والميثاق على الامانة والصداقة ومع ذلك لم تمنعه تلك العهود أن يسلك فى ادارته مسلك الشوكة الملوكية فان هناك عدة شرطات تدل على أنه مازال يطمع فى المنصب الملوكى

وقد استعان كرلوس ملك نستريا باخويه لوتير ولويز الجرمانى على بيبين وجعلهما حكما بينه وبينه لكونه ظهر له ان تلقب بيبين بلقب الملك مناقض لما اخذ عليه من الميثاق او لان هذا المدعى اغتنم فرصة حرب ابريطانيا الذى حمل كرلوس على أن يفعل فيه خارج الحدود المتفق عليها فى المشارطة امورا تدل على الشر والعداوة فدعا كل من لوتير ولويز وكانا بمشورة مرسان هذا الامير الخارج عن الطاعة الى الاذعان والانقياد والتزما أن يترك له بعض قونتيات يعيش بها هو وجماعته ويحظى فيها بشرف الاستقلال وزاد على ذلك كتاب الوقائع السنوية عبارة مبهمة تدل على أن الاكتينيين اغتاظوا من ظلمه ودعوا كرلوس للحكم عليهم

ثم ان صلح كرلوس مع نومنوه الذى كان قريب العهد اذ ذاك وما وقع عليه الاتفاق بينه وبين اخوته فى مشارطة مرسان من كفالة بعضهم لبعض تقوى بهما كرلوس على أن يتقدم حقوقه فاجتاز ثانيا نهر لوار وذهب ليلبس التاج الملوكى بمدينة ليموجس وكانت الى ذلك الوقت لم يزل بها آثار اغارة النورمان حين مرورهم عليها فادرك هؤلاء المتبربرين على نهر دردونية واخذ منهم اثنى عشرة سفينة ولما قرب من مدينة بوردو ارتحلوا عنها وفتح اهلها له ابوابها وقد بعث

فى هذه

فى هذه الغزوة عن عدوه ليحاربه فلم يصادفه الا انه فى السنة التى بعدها هجم عليه فى كريبى بلاده واستولى على طولوزة واناط بحراستها صديقه فريدلون وتغلب ايضا على نربونة وباستيلائه عليها صار قريبا من ثغور اسبانيا فضعف بذلك حزب غليوم لكون خليفة قرطبة صار لا يمكنه اعانته وكان غليوم المذكور لم يستول على برسلونة الاليضرب عنقه فيها وقد امكن لكرلوس ان يسر مدة قليلة من الزمن حيث رأى احترام احكامه فيما وراء جبال البرنات ولم يرتحل عن الاقاليم الجنوبية الا بعد أن فرق العطايا على احزابه ترغيبا لهم فى حفظ اكتينيا وبقائها معه

واما بيبين فكان فى هذا العصر مثل وايفر فى سابق الزمان حيث كان كلما حلت به نكبة اخفى نفسه عن الناس بحيث لم يكن يقع فى وهم احد المكان الذى يختفى فيه حتى لا تظهر هزيمته فاذا سافر كرلوس اظهر نفسه للاكتينيين واستمال اصحابه منهم الى الوثوق به ثانيا باخباره لهم ان له حلفاء آتين خلفه لاعانته وهل لهذا الامير حليف يحمى مملكته الصغيرة الا النورمان الذين هم ارباب صيال وحرقوا عن قريب مدينة سانت وليوجس وبريجو وبوردو والعرب الذين هم اعداء دين النصرانية وكانوا منذ قرن بلاء على الاقاليم الجنوبية فباعانة الاول استرجع طولوزة (سنة ٨٥٠) وملك الاخرون بلاد سبطمانيا ومع ذلك لم يمكث على هذا النجاح مدة طويلة لان حماية الوثنيين والعرب لم تكن على ما ينبغى حيث كانوا يؤذون الاكتينيين ويضرونهم فبذلك نسوا مدة من الزمن كراهتهم للمرنساوية وقاموا على بيبين وخرجوا عن طاعته وسلمه سنش دوق الغسقونيين لعدوه كرلوس طامعا انه بهذه الخيانة يمحو ما وقع منه فى حق هذا الملك من خياناته السابقة فحكم كرلوس على خصمه بالموت السياسى ووسمه بالسمة الرهبانية (سنة ٨٥٣) فاخذه مارى ميداردوسواسون فى ديره وكان قريبا من دير كوربيا الذى كان به احد اخوة بيبين فى حزن عظيم ووجع شديد وكان سبب حجزه فى هذا الدير هروبه من ديوان لوتير وسعيه فى اثبات حقوق عشيرته

وبعد أن كان لكرلوس خصم واحد صار له خصمان يلزمه مقاتلتهما وذلك ان الاكتينيين طلبوا من ملك جرمانيا ان يجعل ابنه لويز ملكا عليهم لانهم كانوا يرغبون فى الاستقلال باى وجه كان وبعد ذلك باشهر قليلة فر بيبين من الدير الذى كان به وجمع حوله معظم هذه الامة الهوائية التى لا تستقر على حالة واحدة فكان

ظهورهذا الخصم الذى هومن ابناء وطنهم موهنا لحزب الخصم الاجنبى اعنى لويز المذكور فانهزم اولا ثم ولى دبره وفى السنة التى بعدها تممت المصالحة التى انعقدت بين ابيه وعمه (سنة ٨٥٤) بمعنى ان الصلح وقع بين الثلاثة ولما كان بيبين اخطر خصم لكرلوس الاصلع أيس كرلوس المذكور من ادخال الاكتينيين تحت حكمه وقوانينه فعرض عليهم أن يجعل ابنه كرلوس ملكا مستقلا عليهم ثم ألبسه التاج الملوكى فى مدينة ليموجس فلم ينجح فى هذا الامر اكثر من غيره حيث لم يبلغ مرامه من بقائهم على حالة واحدة فانهم مكثوا عشر سنوات تضطرب امانيهم بين ابن كرلوس ملك نستريا ولويز ابن ملك جرمانيا وكذلك بين لويز المذكور وبيبين ولما كان هذا الاخير لا يعتمد على هذه الامة التى اضمحلت قواها ونفدت اموالها فى حروبها الداخلية المستطيلة جبر على أن يستأجر تارة شجعان النورمان وتارة ابطال الابريطانيين ثم آل امره أن وقع فى قبضة رينولف قونتة بواتيير فسلمه الى كرلوس الاصلع فكافأه على ذلك بجعله دوقا على اكتينا وكانت اذذاك جمعية الفرنج منعقدة فى مدينة بيستة لاجل اعادة الامن والهدء فى المملكة فرأت ان بيبين خائن للوطن والدين فحكمت عليه بالقتل (سنة ٨٦٤) اما خيانته للوطن فلكونه دعا الى داخلها اكبر اعدائه واما خيانته للدين فلكونه تعاهد مع العرب وتمسك بعبادة الوثنيين السكندناويين واظهر انه على دينهم ومع ذلك رخص له ان يقضى مابقى من حياته فى سجن ضيق بمدينة سانليس فلم يجد بها ما كان يجده منذ قليل بمدينة سواسون من الرهبان ارباب الرأفة والشفقة الذين كانوا يفتحون له ابواب السجن

ومن هذا الوقت اعتبر فرنساوية الشمال ان الاقاليم الجنوبية ارتبطت ثانيا بمملكة نستريا حيث رأوا تاج اكتينا ينتقل بالتعاقب على رؤس ولدى كرلوس الاصلع ملك نستريا مع ان كلا من هذين الاميرين لم يكن فى تلك البلاد الا نائبا ضعيفا حكومته منكرة فى سائر الجهات فمن ثم تأسى كبار القونتات وهم قونتات بواتيير وطولوزة وبرسلونة بدوقات غسقونيا حيث اوسعوا خطاهم فى طلب الاستقلال فلم يترتب على الاستيلاء على تلك المملكة الا زيادة تطاول عمال الجنوب وهم القونتات المذكورون على الشوكة الملوكية

الكلام على ابريطانيا من (سنة ٨٤٣) الى (سنة ٨٧٤)

وحيث ان جميع المستأمنين على الحكم يسعون فى تمزيق المملكة بهذه المثابة فكيف يعتمد على طاعة الابريطانيين الذين لم تكن اعانتهم للملوك الفرنج الابطريق الجبر والاكراه ولم تكن طاعتهم لهم الا وقتية وقد وجدت هذه الامة فى الدوق نومنوه استعدادا

وصلاحية

وصلاحية لان يغير ما قلده به لويزدبونير من الشوكة والقوة و ينجح فى ادعاء الحقوق الملوكية التى كان اسلافه دائما يغارون عليها وكان هذا الدوق مستقلا بالفعل فى مدة المشاجرة التى كانت بين اولاد لويز الثلاثة فلما وقع الالتئام والاتحاد بين هؤلاء الملوك ورآى من ذلك ان عمالهم صاروا يخشون صولتهم و بطشهم لم يعدل عن هذا الاستقلال بل بقى على ما كان عليه ولم يقتصر على كونه لم يعبأ بمبايعة ملك فرنسا بل اعان الخارجين عن طاعته (سنة ٨٤٣) لما وجده فى ذلك من حمايته وتأييد خروجه عن الطاعة و بتلك الاعانة استرجع القونتة لمبيرت بطريق القهر والغلبة ثغر نتس بعد أن قتل فى واقعة مسالك القونتة رينالد الذى كان خلعه عن حكومة هذا الاقليم ولما تغلب لمبيرت المذكور على مدخل نهر لوار الذى لم يستطع أن يصد عنه النورتمان دائما سلك فى حكومة شاطئ هذا النهر مسلك الطغاة المطلق التصرف ووزع على احزابه التزامات جعلها متوارثة بينهم ولم يعبأ بما كان لمدينة نتس من الحقوق الاهلية ولم يترتب على حماية الاسقف اكارد لها ثمرة ولما تشكى هذا الاسقف الى الملك كرلوس عزم على معاقبة القونتة لمبيرت فلم يجد لذلك وسيلة الا أن فوض امر عقوبته لنومنوة الذى هو شريك لمبيرت فى الخروج عن طاعته وبذلك انتقلت مدينة نتس من حكومة لمبيرت الى حكومة نومنوة وتغلب بعد ذلك بمدة قليلة على مدينة رينس وانجيرس ومنس (سنة ٨٤٥) بعد أن ظهر على كرلوس فى نصرة بالون التى سفكت فيها دماء كثيرة فداخله من هذا النجاح الكبر والتعاظم فعزم على أن يلبس تاج دولتى الكونان واليوديقابيل ورأى أن حقوقه متى اقرها البابا لا يكون لها معارض ولا مانع غيران مارى كونو يون لم ينجح فى سعيه فى ذلك لمزيد حزم البابا ليون الرابع حيث رآى ان الواجب عليه ان لا يأذن لنومنوة المذكور الا ان يكون كغيره من الدوقات فى ان يجعل على راسه دائرة من الذهب ومع ذلك فلم يرجع هذا الدوق المتكبر عن مقصده لكنه لما رآى ان الاساقفة كالبابا ليسوا على طبق مرامه تجاسر على أن يتهمهم ببيع المناصب الدينية فعقد جمعية فى مدينة كويتلون قريبا من مدينة وانس وعزل هؤلاء الاحبار واقام غيرهم مقامهم وفصل ابريطانيا من اقليم طورس القسيسى بعد أن كانت جزأ منه و جعل بمحض شوكته كنيسة دول كرسى المطرانية (سنة ٨٤٨) ولما البسه المطران الذى انتخبه التاج الملوكى صار لا يعتبر كرلوس الاصلع ولا يعبأ به ولا يقبل من مجامع الاساقفة صرفا ولا عدلا

بل كان يخالفهم كل المخالفة فى كل ما يأتى له منهم سواء كان على سبيل الامر او الترجى فعقد احبار نستريا جمعية فى باريس ولاموه على كثرة ظلمه (سنة ٨٤٩) وذلك انهم ذكروه بالبلاد النصرانية التى خربها بطمعه وبالهيا كل الدينية التى اندرست او احترقت بما فيها من عظام القديسين وغيرها من الآثار المحترمة وبما وقع فى الاملاك القسيسية التى وقفها عباد النصارى على الكنيسة والاموال التى تدفع لانقاذ الارواح من العذاب ومخلفات الفقراء من تغييرها عن اصلها واستعمالها فى غيره وباملاك الاشراف المتوارثة التى سلبت من اربابها او بالجم الغفير الذى حل به القتل والاستعباد وبالاختلاسات التى حصلت مع الشدة والقساوة وبتدنيس فراش الزوجين حيث يتركان الحلال ويستبدلانه بالحرام وبما وقع للابكار من الفضيحة بافتضاضهن وبالاساقفة الذين عزلوا عن مناصبهم من غير حق واقيم مقامهم جماعة يقبلون الرشوة وهذا اخف من وصفهم بكونهم لصوصا اوقطاع طريق وان كانوا كذلك فى الواقع وذكروه ايضا بانقلاب الترتيبات القسيسية وتغييرها عن اصلها ومع هذا كله فلم يقبل ترجيهم ولم يعبأ بحكمهم عليه بالحرمان ثم ان خروج الابريطانيين عن الطائفة القاثوليقية الذى كان نومنوة يسعى فى تأييده وحمايته ويسعى البابات وعدة جمعيات اسقفية فى معارضته وابطاله ترتب عليه نصب البابات وتعبهم ثم آل امرهم الى اقراره والرضاء به

وفى غير هذه الاحوال كانت الكنيسة لا تطلب الاعانة من ذوى الشوكة الملوكية لاجل قمع امير خرج عن طاعتها الا وتنجح فى مطلوبها وتظفر بمرامها غير ان هذا الدوق الابريطانى كان لا يخشى الاسلحة الملوكية ولا يكترث بالحرمان الذى تحكم به العصابة القسيسية فلولا ان المنية اخترمته وعطلت نجاح اسلحته فى مدينة وندومة (سنة ٨٥١) لما كان يعلم لخسارته حد تنتهى اليه

وقد اقتفى اثره فى السياسة ولده ايرزويه فهزم كرلوس الاصلع فى واقعة سفكت فيها دماء كثيرة حتى ان هذا الملك رضى بمشارطة الحرس التى بموجبها اضيف الى ابريطانيا مدينتا رينس وريتز وقوتنية نتس وجميع البلاد التى كان واقعا فى شأنها النزاع الى نهير ميانة ولبس ايرزويه المذكور التاج الملوكى برضاء ملك فرنسا وان كان فى الواقع مجبورا على ذلك وقد انحف به فيما بعد سليمان الثالث الذى قتل اخاه ايرزويه وتولى بعده على أن يدفع لكرلوس الخراج وان كان لم يوف بذلك اصلا ولما اختل نظام

ابريطانيا

ابريطانيا بموت سليمان المذكور ميتة سيئة (سنة ٨٧٤) وضع كرلوس قانونا نص فيه على ابطال المنصب الملوكي من ابريطانيا

ماوقع من التدبير فى شأن الصلح العام

فعند ذلك وقع فى الممالك الثلاثة الكبيرة الكرلوفنجية الفشل والشقاق واخذت فى القتال مع الاجانب فعما قليل ترتب على ذلك انتشار التمزيق فى تلك الممالك ولو اتفقت كلمة اولاد لويز دوبونير واعان بعضهم بعضا لامكن ان ذلك يمنع قيام الملتزمين او يؤخره ولكن كانت سياستهم خالية عن النصح والاستقامة وان كان كثير من الحوادث يدل على ان ميلهم الى حماية بعضهم بعضا يحملهم فى الغالب على عقد المشورات فى ذلك فقد اجتمعوا اخير مرة ليتفاوضوا فيما يكون به امن ممالكهم من الاخطار الحالية والاستقبالية واستقر الرأى فى مشورة تيونويلة على ان هؤلاء الملوك الثلاثة يبعثون جميعا الجية من طرفهم الى بيين الثانى ونومنوة يدعونهما الى الطاعة (سنة ٨٤٤) وقد حصل مثل هذا التدبير فيما بعد بمشورة مرسان وفى هذه المرة بعثوا الجية الى رئيس النورتمان فى شأن عقد المصالحة بينهم وبينه وكان قريب عهد بنهب مدينة باريس وقد تعاهد هؤلاء الاخوة الثلاثة فى هذه المشورة الجديرة بالتخليد وبقاء الذكر على أن يعين بعضهم بعضا على من كان يهددهم من الاعداء فى خارج ممالكهم وعلى من كان يتعدى على الشوكة الملوكية فى داخل تلك الممالك ويتجدد منه ذلك بتجدد الايام ولما كانت قلوبهم غير مطمئنة على اولادهم بالنظر الى حالتهم المستقبلة تعاهدوا أن لا يقع منهم افتيات على ما يكون لهؤلاء الامراء من الحقوق التى تثبت لهم بطريق الوراثة لكن بشرط أن يبايعوا اعمامهم ويعترفوا لهم بالرياسة ولاجل أن يكونوا متحققين من تلك المعاهدة التزموا لعمالهم أن لا يعزلوهم عن عمالاتهم وللاحرار من رعيتهم أن يستمروا فى فصل دعاويهم على مقتضى القوانين القديمة الا انهم الزموا هؤلاء الاخيرين بان يدخلوا تحت حماية امير من الملتزمين ينتخبونه بانفسهم وأن لا يخرجوا عن حمايته الا عند وجود المقتضى فهذا التدبير الذى كان الغرض منه تسهيل المحافظة على بقاء الصلح العام حيث صارت به الطاعة على وجه منتظم ترتب عليه أن انقياد الاحرار للملوك صار بواسطة الملتزمين وان مبايعتهم للملتزمين المذكورين صارت عامة فيهم وترتب لتلك المبايعة قوانين مضبوطة منتظمة

ثم ان مشورة مرسان الثانية التى حضرها الملوك الثلاثة ومشورتى ولنسيين وليبجة اللتين لم يحضرهما الا الامبراطور وملك فرنسا وكذلك المشاور الاخرى التى انعقدت بعد موت لوتير لم يترتب عليها الا تجديد عهود الاتحاد

والاتفاق والاستعانة فى امورهم بالقوانين ودعاء الفرنج الى الصداقة والامانة وهذه المعاهدات الملوكية وان كان الغرض منها تقوية الشوكة الملوكية الا انها لم تظهر الا وهنها وضعفها حيث ان هؤلاء الملوك وجدوا انفسهم غير مرة مجبورين على أن يعترفوا بما يورث الاهانة والمذلة كاعتراف لوتير وكرلوس واشاعتهما بين الناس ان احكامهما الماضية لم تكن على ما ينبغى وانه من الآن فصاعدا يسلكان فى الحكم طريقة مستحسنة ومع ذلك فكانت حمية هؤلاء الملوك وضم قواهم وهممهم الى بعضها لمعارضة الحكومة الارستوقراطية التى كانت آخذة فى الانتشار بسائر البقاع خالية عن الثمرة والفائدة حيث خابت مساعيهم ولم تنفذ اوامرهم فكانت فى عدم النجاح كانعاماتهم واقطاعاتهم التى لم تصادف محلا وعلى ذلك فيمكن أن يقال انه متى ظهر ان الاشياء فيها ميل لمخالفة مقتضى سياسة الدول كانت كثرة المشاور الملوكية دليلا على ضعف الملوك وعجزهم

وما كان يستقر عليه الرأى من التدبيرات بين الملوك الثلاثة كان كل واحد منهم فى مملكته الخاصة به ينظمه تارة فى سلك الاحكام الشرعية وتارة يجعله من قبيل القوانين السياسية كما يدل على ذلك اغلب قوانين كرلوس الاصلع التى حين وصولها الينا كانت اكثر واتم من قوانين اخويه واولادهما فمن ذلك ان مشورة وردون الملوكية اعقبها قانون كوابنة وكذلك انتشرت قوانين ابرناى ومرسان وسرويس واتينى وبيزتو وعدة قوانين اخرى فى بلاد نستريا ليعمل فيها بالشروط التى وقع الاتفاق عليها فى جمعيات يوتز ومرسان وولنسيين وليجه وكان يتراآى من قانون كوابنة الذى كان الغرض من وضعه الاصلاح والتنظيم انه يجبر ما ترتب على الحروب الاهلية من الخلل والمضار حيث عاد به ارباب الرتب فى الدولة الى ما كان ثابتا لهم شرعا من الحقوق والمزايا وحازبه الارستوقراطيون بعض التزامات كانت ضرورية لهم وعاد للكنائس ما كان سلب منها من الاملاك ورجعت لها مزاياها وان كانت قد انخدشت ونقصت عما كانت عليه ويتضمن حث الناس على احترام الشوكة الملوكية والشوكة الالتزامية وكان الملك فى نظير ذلك يطلب من الاساقفة والعمال أن يعينوه على ابطال التحزبات التى كانت آخذة يومئذ فى اضرار الشوكة الملوكية واضعافها خفية ولما كان يسلك فى كرمه وانعامه على كبار دولته مسلك الحزم والتبصر التزم لهم انه لا يجردهم عن اقطاعاتهم ولا مناصبهم الا عند ظهور المقتضى بعد تحقيق الدعوى وكان من دأبه الانصاف والعدل فى حق الجميع فجعل لهم الخيرة فى انتخاب القانون الذى يريدون العمل عليه

غير

غيران افراطه فى التواضع وخطأه فى التبصر حملاه على أن طلب من عماله ان يخبروه بما يقع منه من الزلل والهفوات وجعل للاساقفة دخلا فى الاحكام السياسية محافظة على بقاء الاتحاد والالتئام بين الناس

وماوقع من الجمعيات التى انعقدت بعد مشورة كولينة لم يترتب عليه الا تجديد القوانين السابقة وزيادة بعض اشياء تلايم احدى الشوكات الثلاث وهى الملوكية والاسقفية والارستقراطية على حسب ما كان لتلك الشوكة فى الجمعيات المذكورة من القوة والفوقان على الشوكتين الاخريين وقد زال عن هذه الجمعيات وصف كونها ملية منذ لم يحضرها نواب الاهالى فمن ذلك قانون اپرناى الذى وضع (سنة ٨٤٦) حيث نقل للاساقفة ما كان لوكلاء المملكة من المزايا والخصوصيات فصار لهم الحق فى العمل بمقتضاها فى اسقفياتهم غير ان القونتات بادروا بتجريدهم عنها وكذلك قانون كيرس فانه جعل للخوريين الحق فى البحث عن الاشرار ومعاقبتهم عند القبض عليهم ومن ذلك ايضا قانون مرسان حيث اقر منع عزل ارباب الوظائف العامة واثبت الحكم للاشراف بالزامه جميع الاحرار بالدخول تحت طاعة هؤلاء الملتزمين ومنه ايضا انه ترآى على الشوكة الملوكية انها عادت الى درجتها بعد الانحطاط حيث ثبت لها ثانيا فى جمعيتى سرويس واتينى وجوب الطاعة على جميع الرعايا وحمايه سائر المظلومين

وبعد ذلك بعدة سنوات (سنة ٨٦٤) ترتب قانون پيسته وكان يشتمل على جميع فروع الادارة العمومية وكانت عباراته متضمنة لاوامر الزامية واحكام ايجابية يظهر منها ان الشوكة الملوكية عادت لما كانت عليه من التمكن والقوة وكان ايضا مشتملا على فصل يتضمن هدم الحصون والاستحكامات التى بنيت من غير اذن الملك فكان ذلك يحملنا على أن نعتقد ان الملتزمين حينئذ حصل لهم نوع ضعف وانحطاط لولا ان قانون توسى الذى ترتب عقب هذا القانون دل على انه وقع هنالك تدبيرات اخرى لمنع اجتماع الناس على التعصب والفتن ولعدم التساهل فى معاقبة من يرتكب ذنبا يضر بالشوكة الملوكية والمحافظة الاهالى على الامن العام والقوانين وكان الملك قد ألزم الاحرار ورؤساء المائة أن يؤتوا مواثيق على الامانة والصداقة طامعا أن يمنع بذلك وقوع السرقة والقتل والحريق والهرج وتعدى العمال اى الملتزمين على اموال الناس وظلم الهاربين الذين تشتتوا خوفا من اغارات النورمان فاخذ وكلاء الاقاليم تلك

المواثيق عليهم فى الجمعيات الاقليمية وصورة ذلك انهم اقسموا بآثار القديسين انهم لا يزالون محافظين على الهدء والامن العام ووقع هذا الامر فى سائر الجهات ومع ذلك فلم يزل الخلل باقيا فى المملكة وكان هؤلاء الوكلاء منوطين بحراسة السواحل وتشييد القناطر واعادة سير السفن فى الانهار وابطال ما احدثه الملتزمون من المكس والعوايد والتسخير فى الاعمال الثقيلة فانظر الى هذا الملك كيف ادى به الغرور الى انه لم يزل يزعم انه ينفذ قوانينه على طائفتين من اعدائه صار لا يمكنه من الآن فصاعدا أن يقمعهما و يظهر عليهما وهما النورمان والملتزمون

وقد استعان كرلوس فى اعادة الامن والهدء فى المملكة بالاساقفة والقونتات ولم يجد ذلك نفعا وذلك انه وضع قانونا كان نشره بمدينة كيرسى (سنة ٨٥٦) دعاهم فيه الى المفاوضة فى منع اغارات النورمان عبدة الاوثان وتعدى بعض العمال وظلمهم وامرهم لاجل هذا الغرض أن يدعوا الى الجمعيات القسيسية والاقليمية جميع ارباب الحكم واصحاب الاقطاعات الملوكية و سائر الاحرار ليطلعوهم على القوانين العديدة التى كان الغرض منها ايقاع الترتيب والنظام فى المملكة وكانت قد جمعت فى كتاب مخصوص وليفيدوهم أن ارباب الفتن لابد أن تصيبهم الكنيسة بسهام لومها وتفتك بهم اسنة القوانين الشرعية فالف فى ذلك الوقت الحبر رئيس دير فريير كتابا فى ذم ارباب الفتن وآكلى اموال الناس بالباطل والتشنيع عليهم وجمع فيه من عبارات الكتب المقدسة ما يتضمن مدح من يرغب فى الامن العام وايقاع الصلح بين الانام لكن لم يترتب على تلك المواعظ الانجيلية ثمرة فكانت فى عدم الجدوى كالامر بالقتل الذى صدر فى هذا المعنى لان القونتات تخلوا عن الملك بالكلية وآثروا مصلحة انفسهم من حيث كونهم جهالا على ما يقتضيه حسن الادارة من الطرق التى يجب عليهم سلوكها فى الحكم بين الناس فعقد الاساقفة ثانيا جمعيات اخرى لاجل المفاوضة فى تدبير ما يكون به اعادة الهدء والامن بين ابناء النصرانية غير انهم لما كانوا جازمين بان سفينة الدين (يعنى الكنيسة) لا يلحقها الغرق وان خرجت عليها عواصف الرياح الشديدة لم يهتموا بانقاذ تلك السفينة ولا بتخليص ركابها (اى النصارى) واراحتهم من الاهوال ولامت جمعية اساقفة موكس على الملك ووبخته توبيخا شديدا على توزيعه على العامة التزامات القسوس ومحصولات الكنائس او الزوايا الملوكية مع ان الواجب عليه القيام بمصالح الكنيسة والاعتناء بشأنها ولما تشكى من الاختلال الواقع فى المملكة اجابته جمعية اساقفة بونوليا بانه لو عمل بمقتضى

مارتبته

مارتبته جمعيات كولينة وبوويس ويوتز وويز ومرسان وسواسون وسرويس وليجه من القوانين المتنوعة التى روعى فيها مصالح الكنائس والاديار لانقطعت المصائب العامة من المملكة ولم يبق لها اثر فيها

وهل يليق من هؤلاء الملوك أن يطمعوا فى اعادة رعاياهم الى ما يجب عليهم من الطاعة واتفاق الكلمة والالتئام والارتباط مع ان قلوبهم لم تزل مشحونة بالعداوة والبغضاء لبعضهم وان كانت بينهم لحمة النسب وعلاقة الاخوة واخذوا غير مرة على بعضهم عهود الامانة والمحبة بل كان فى الغالب لا يظهر التفاقم والشقاق بينهم الا عند اشهار مصالحتهم وكان ذلك ايضا يظهر فى المشارطات التى يكون الحامل لهم على عقدها عدم الوثوق ببعضهم كما وقع للوتير وكرلوس فى مدينة بيرونة حيث اعطى كل منهما عصاه لاخيه واوصاه على اولاده ونسائه (سنة ٨٤٩) وقد جددا هذا الامر الذى كان الغرض منه كفالة كل لصاحبه وحمايته من لويز الجرمانى فى مشورة ليجة (سنة ٨٥٤) حين عزم لوتير على أن ينزل لاولاده عن الحقوق الملوكية

تولى لويز الثانى منصب الايمبراطورية (سنة ٨٥٥)

وكان هنالك قانون رتبته جمعية من الجمعيات الملية فى شأن قواعد المملكة واصولها واقره لويز دو بونير فكان مما تضمنه هذا القانون انه بعد موت لوتير او احد اخوته لا يتقاسم اولاده الايمبراطورية بل تبايع الامة من تنتخبه فلم يعمل لوتير بمقتضى هذا القانون مع انه كان قبل ذلك اقسم أن لا ينقضه وذلك انه فى نفس الوقت الذى دخل فيه الدير لتكفير ما ارتكبه من ذنب الخروج عن الطاعة فعل ما يخالف اغراض ابيه وينافض مواثيقه وايمانه وكان ذلك آخر افعاله التى تخص الحكم والادارة فقسم اقاليمه على اولاده الثلاثة فى جمعية من الاعيان انعقدت لهذا الغرض فجعل التاج الايمبراطورى لولده لويز ملك ايطاليا وكان قد لبسه قبل ذلك بوصف كونه ولى عهد الايمبراطور وقسم الاقاليم التى أمام نهر الرين وجبال الالب بين ولديه لوتير الثانى وكرلوس فاخذ لوتير بلاد اوستراسيا السترهنانة فنسبت اليه من ذلك الوقت وصار يقال لها لوترينية او لورينة واخذ كرلوس اقاليم نهر الرون فعادت بها مملكة برغونيا القديمة ثانيا الا انها تسمت باسم پروونسة

وكانت كراهة الرومانيين لحكومة الفرنج تظهر كلما استولى عليها ملك جديد فكانت تعرف بسعيهم فى انقاذ انفسهم من تلك الحكومة او بما كان يصدر عنهم من تطلب ذلك وتمنيه فان لويز بمجرد جلوسه على كرسى الايمبراطورية بلغه عنهم

انهم تعصبوا مع بعضهم بقصد دعاء اليونان الى رومة وطرد الفرنج من ايطاليا وقالوا ان الفرنج لم يعملوا شيأ لمصلحتنا ولم يعينونا على اعدائنا بوجه من الوجوه ولسنا آمنين على املاكنا من ظلمهم وقد اتهم بهذا القول غرتيان وكان اعظم رؤساء عساكرهم ثم ظهرت برآءته فى الجمعية التى حضرها الايمبراطور بنفسه ولامانع ان هذه البرآءة انما حصلت من الحلم فى السياسة فان التهمة المذكورة وان كانت كاذبة لا اقل من أن تدل على ان مثل هذا الامر قام باذهان الرومانيين

وقد نسج اولاد لوتير على منوال ابيهم حيث تأسوا به فى كراهتهم لبعضهم كما كان كذلك مع اخوته فورثوا عنه هذه الخصلة الذمية الا ان ما كان بينهم من التفاقم والشقاق لم يبلغ مبلغا يترتب عليه حروب اهلية وانما عزم لويز ولوتير وكانا اكبر اولاده على ان يجردا اخاهما الاصغر وهو كرلوس عن بلاده ويعزلاه عن منصبه مع انه استأمنهما على نفسه وحضر معهما فى جمعية اوربة (سنة ٨٥٦) غيران البرغونيين رأوا ان تولية كرلوس عليهم فرصة فى اعادة استقلالهم وقيامهم بانفسهم فانقذوه من ايدى اخيه لوتير الثانى بالقهر والغلبة وردّوا له بروونسة ودوقية ليون وكان ذلك (سنة ٨٥٨) وفيما بعد ردّ له اخوه لوتير ملك لورينة ابرشية بيلى وابرشية طرنتيزة بشرط ان يوصى له باقاليمه عند عدم الوارث وبعد ذلك بسنة نزل لوتير للويز عن مأموريات جنيورة ولوزانة وسيون غير انه ابقى لنفسه منزلخانة جبل سنت برنارد فصار هذا المنزل بذلك نقطة تماس الممالك الثلاثة وكان ذلك (سنة ٨٦٠) وقصارى الامر انه استمال اليه قلب عمه لويز بنزوله له عن اقليم الزاسة وبذلك انفصل لوتير عن كرلوس الاصلع وصار كل مستقلا بسياسة بلاده بعد أن تحالف معه (سنة ٨٥٧) فى مشارطة سنت كانتين واعانه على النورمان وسعى فى الصلح بينه وبين لويز ملك برمانيا

الكلام على لويز الجرمانى وهو فى فرنسا (سنة ٨٥٨)

وكان هنالك عصبة قوية تعصبت ثانيا على كرلوس الاصلع ودعت لويز الجرمانى الى التوجه الى نستريا حيث حضر اليه من فرنسا الغربية رئيس الرهبان ادهلارد والقونتة اودس وطلبا منه أن يذهب لاعانة اهل نستريا وينقذهم من الخطر الذى حل بهم وذكرا له انه ان لم يسعفهم بالاعانة يضطروا الى الاستعانة بالوثنيين حيث لم يظفروا بها من ملوكهم الحقيقيين الذين على دينهم واخبراه انهم صاروا لا طاقة لهم على تحمل ظلم كرلوس الاصلع ولا يستطيعون الصبر عليه اكثر من ذلك حيث افضت به خيانته الى ان سلك معهم مسلك القسوة

فدمرمنهم من نجا من اسلحة النورمان ومن تخلص من اسرهم فلما سمع قصتهما وتظلمهما صار فى حيرة كبيرة ورآى انه لابد له من ارتكاب احد امرين صعبين احدهما اجابة تلك الامة الى ما طلبته من قتال اخيه كرلوس وهذا فى زعمه من قبيل الردة والثانى ايثار نفس واحدة وهى نفس اخيه المذكور على امة بتمامها وتركها فى المظالم والمضار وعدم اغاثتها والذب عنها وليس هذا باقل من الاول فى الكفر فاقتضى رأيه أن يستشير العقلاء فى ذلك فظهر له بموجب رأيهم وخلوص طويته ان الاولى والاليق ايثار منفعة الجماعة على اعانة واحد سلك مسلك البغى والعناد ووعد أن يلبى دعوة هذه الامة معولا فى ذلك على اعانة الله سبحانه وتعالى فتغلب على اقاليم اخيه وبايعه اغلب امرآء نستريا فى مدينة بونتيون وكان كرلوس وقتئذ مشتغلا بمحاصرة النورمان فى جزيرة واسيل فلما اتى لقتاله فى مدينة بريينة تخلى عنه جيشه فاستراح لويز من تعب القتال هذا ولم يوافق احد من اساقفة فرنسا الامرآء على خيانتهم لكرلوس الاحبر يقال له ونيلون وهو مطران سنس فانه امر اتباعه أن يحملوا اسلحتهم وينضموا الى لويز وكان قد ابى أن يرسلهم لمقاتلة النورمان وحضر فى جمعية رمس التى طلب اربابها من هذا المفتات اعنى لويز أن يفعل ما يفعله الملوك ومن لوتير الثانى ملك لورينة أن ينفصل عن كرلوس الاصلع واما غير هذا الحبر من الاساقفة فلم يحضر تلك الجمعية لكونها ليست على مقتضى القوانين بل قاموا جميعا على لويز ولم يقروه على تغلبه واعلنوا انه هو المطالب بين يدى الله تعالى بما صدر عن عساكره من الافعال الشنيعة والاهوال الفظيعة وكان الذى تولى ذلك هو الحبر هنقمار ومع ذلك امر لويز لن عساكر فرنسا الشرقية يرحلون الى اوطانهم لانه كان متيقنا الظفر والنجاح وركن الى الخائنين الذين غدروا بملكهم الحقيق وتخلوا عنه لاجله فكان له ايضا نصيب من خيانتهم وغدرهم وذلك ان اولاد القونتة كونراد الذين اناطهم بمراقبة كرلوس وملاحظة سلوكه اوقفوا كرلوس المذكور على ضعف عدوه وعدم تبصره (سنة ٨٥٩) فعند ذلك وجه اليه جيشا جرارا وجاءت الى لويز الاخبار بان الطائفة السورابية دخلت بلاده فاضطر بذلك الى المبادرة بالرجوع الى جرمانيا

وبعد رجوعه انعقد فى مملكة لوتير جمعية ساونيير القسيسية وكان الغرض منها اعادة الصلح بين الملوك الثلاثة وقبلت من كرلوس ما ابداه فى شأن ونيلون من الشكاوى حيث كان تارة يلبسه التاج الملوكى وتارة يخونه ثم خلعه عن الملك بدون

أن يحكم بذلك الاساقفة مع انهم الواسطة بين الله وعباده وخلفاؤه عليهم وكان هذا الملك لضعفه منقادا لما يحكم به ارباب تلك الجمعية عليه من التماز بر والعقوبات ان ثبت ما يوجب عليه ذلك

ولما كان ملك لورينة معينا الارباب الجمعية المذكورة بسعيه معهم فى الصلح بين الملوك عقدوا مشارطة كو يلنتز واخذت فيها العهود والمواثيق على كل من ملك فرنسا وملك جرمانيا احدهما باللسان الالمانى والآخر باللاطينى على أن يكونا مع بعضهما على الصداقة والمحبة التى لم يكن منها فى قلوبهما مثقال ذرة

وكان لوتير الشاب وهو ملك لورينة المذكور حاضرا فى تلك الجمعية فخظى من عميه المذكورين بالامن على اقاليمه واقاليم اخوته وانهما كفيلان لهما من التعدى والافتيات واخذ عليهما المواثيق بذلك

ثم ان ما وقع من المصالحات بين هؤلاء الملوك التى انتقضت غير مرة ظهر كذبها باختبارات اخرى عرضت فيما بعد فان الممالك التى ورثها اولاد لوتير الثلاثة خلت عن وارث على عمود النسب ففتحت بذلك طريقا اخرى لاطماع الملوك واضرمت ثانيا نيران العداوة والبغضاء التى لم تكن خمدت بالكلية

موت كرلوس ملك پروونسة (سنة ٨٦٣)

وذلك ان كرلوس الاصلع سعى فى التغلب على اقاليم كرلوس ملك پروونسة قبل أن تنقضى بمدينة ليون حياته القصيرة الخالية عن الثمرة والفائدة لكن سعى كل من لويز الجرمانى ولوتير الثانى فى حمايتها والذب عنها وقد حمياها ايضا من كرلوس الاصلع بعد موت ملكها فان اغراضه التى كانت من قبيل الطمع والحرص لم تخف على جيرارد دوروسيليون دوق اقليم و ينوازة لفطنته ونباهته واقتسم كل من لويز الثانى ولوتير الثانى مملكة اخيهما فاخذ كل فى نصيبه ما جاور مملكته من البلاد وصار نهر الرون حدا بين نصيبيهما ومملكتيهما واقر هذه القسمة البابا نقولا الاول ونهى ملك نستريا أن يتعدى على مملكة پروونسة حيث ملكها لويز الثانى بحق الوراثة وحذره أن يفعل ما يحمل هذا الامبراطور اعنى لويز على أن يقاتل ابناء النصرانية بالسيف الذى قلده به خليفة مارى بطرس يعنى نفسه لقتال الملل الاخرى

فبذلك راى كرلوس انه مجبور على ابقاء مقاصده لوقت آخر وما حصل من الخلل الذى نغص على لوتير ملك لورينة عيشه كان ملايما لاطماع كرلوس المذكور حيث عاد عليه بالنفع

وذلك ان لوتير هذا كان قد طلق زوجته المسماة توتبرجه لكونه اتهمها بالفاحشة

وزعم

وزعم انها عاقر وكان غرضه من ذلك أن يشرك معه فى الملك عشيقته ولدرادة بتزوجه اياها وتعلل ايضا على زوجته بانه اتما تزوجها خوفا من عائلتها ثم ان توتبرجه المذكورة اقرت فى جمعية قسيسية بما اتهمها به زوجها ثم انكرت ذلك بعد مدة فى جمعية من الاعيان وخرج محاميها منصورا لم يلحقه ضرر من الماء المغلى الذى امتحن به لاجل البرآءة من هذه التهمة ومع انكارها وظهور برآءتها على هذا الوجه الغريب انعقدت ثلاث جمعيات فى اكسيلاشبيلا وكانت رياستها المطرانى تريوة وكولونيا واقرا بها ماوقع من لوتير من الطلاق واخذوا بناصر ضرتها وكان ذلك (سنة ٨٦٣) فرفعت الملكة المطلقة دعواها الى البابا نيقولا الاول وطلبت منه أن يأخذ بناصرها فوكل حبرين من احبار الرومانيين وامرهما ان يبحثا عن هذه القضية و يقفا على حقيقتها و يفسخا ما حكم به على هذه الملكة لكنهما قبلا الرشوة واقرت جمعية متز القسيسية التى كانت الرياسة فيها الهذين الحبرين ما حكم به فى اكسيلاشبيلا فلما ايس البابا من ارجاع اساقفة لورينة الى الحق انتهز هذه الفرصة فى توسيع دائرة حقوق منصبه واخراجها عن حدودها التى كانت لها الى ذلك الوقت ففسخ ما حكمت به جمعية متز القسيسية وعزل الوكيلين السابقين عن مناصبهما وحكم على مطرانى كولونيا وتريوة وهما غونتيير وتوتغود بالطرد عن الكنيسة والاعتزال عن جماعتها وكانا قد ذهبا الى رومة ليثبتا عنده برآءة انفسهما وعما قليل حكم على لوتير وولدرادة بمثل هذا الحكم فسعى لوير الثانى فى حمل البابا على الصفح عنهما وكان يسلك معه فى ذلك تارة مسلك الرفق والاستعطاف واخرى مسلك التهديد والتخويف ولم يجد سعيه نفعا وكيف يطمع لوير فى ذلك من رجل عرف كيف يحمل الامبراطور على أن يقبل اقدامه ويأخذ بزمام فرسه

فقد شرع فى أن يحضر ايضا الى ديوانه الملك لوتير ذليلا متضرعا و بذل جهده فيما يكون به تحصيل هذا الغرض وتفرغ لذلك بكليته حتى قيل انه لاجل معاقبة هذا الزانى اعنى لوتير كاد ينسى ما عليه من الواجبات كالتعرض لابطال مذهب فسيوس المبتدع الذى كاد يعم بلاد المشرق ويخرجها عن حكومة الكنيسة الرومانية ومنع ابريطانيا عن الخروج عن طاعة تلك الكنيسة وجبرها على ترك المذهب الذى كان مخالفا لمذهب الكنيسة المذكورة فى بعض العقائد والاحكام وكالتصدى لتنصير البلغار الذى هو من فخار ايامه وشرف منصبه ومقامه ولما اضطربت فيه الكنيسة الغاليقية من المنازعة الكبيرة فى مسئلة

الاختيار والجبر الان مهارة هذا البابا ونشاطه كان فيهما كفاية لهذه الامور كلها
حيث سلك فيها مسلكا عاد بالنفع على منصبه فقد ذكر فى المكتوب الذى ارسله الى
ادوتيدوس اسقف متز اصلا يعد فى بعض الاحيان من الامور الحقة الصائبة
وان كان دائما مستلزما للخطر وهو انه يجب معارضة الملوك اذا لم تكن احكامهم
على مقتضى العدل والانصاف وكتب ايضا ما معناه كيف يصح أن نطلق لفظ ملك
على من يخلى نفسه وهواها و يتركها منهمكة على اللذات مقبلة على الشهوات التى
تفضى بها الى الخزى والعار وتكسبها المذلة والصغار

فاضطر لوتير الذى كان اعظم ملوك المغرب فى عصره الى الاذعان والخضوع الى
هذا البابا فجاوز جبال الالب هو وولدرادة قاصدين مدينة رومة ليطلبا
منه الصفح والمسامحة فوجداه قد مات وتولى بعده البابا ادريان الثانى فقابلاه
على جبل كاسين نادمين على ما فرط منهما واعترفا له اعترافا كاذبا ثم ان لوتير
فجأه الموت فى مدينة بليزنسة فرأى الناس ذلك عقوبة عادلة له على نكث عهوده
ولم يتأسف اللوريون على فقد هذا الملك الذى حل برمسه مبرأ مما اتهم به وان كان
عرضه قد تدنس بالخوض فيه

وقد اعقب لوتير الثانى من ولدرادة ثلاثة اولاد وهم هوج الذى كان ابوه
قد اعطاه دوقية ألزاسة وجيزلة التى تزوجت فيما بعد بريديس من رؤساء النورتمان
و برطة التى مع زواجها من تيودبالد اتت بولد من الزناء تولى ايمبراطورا على
ايطاليا وقد تطلب هوج ان يخلف اباه على سرير الملك فلم يجب لما ان دعواه
فى هذا المعنى لم تكن معضدة على ما ينبغى فان بلاد لوتير انما كان يرثها الايمبراطور
لويز الثانى فلذا امر البابا ادريان اللوريين أن يبايعوه على أن يكون ملكا عليهم
وهدد بالحرمان كل من تعدى على تلك البلاد التى استحقها لويز بطريق الوراثة
غير ان اللوريين كانوا يحبون أن يتولى عليهم ملك يكون له اقتدار على اعانتهم على
مدافعة النورتمان الذين كانت اغاراتهم كثيرة وكانت تقع على حين غفلة فان لويز
المذكور كان بينه و بينهم جبال الالب لاسيما وكانت ايطاليا اذ ذاك فى خطر
عظيم من العرب الذين كانوا لا يتركونها تذوق طعم الراحة طرفة عين فان ذلك كان
اعظم من جبال الالب فى فصله و بعده عنهم واما لويز ملك جرمانيا فكان
قريب عهد بالهزيمة من السلاويين وكان لا يقدر على الذهاب اليهم لان حفظ مملكته
ألزمه أن يستمر فى الثغر الشرقى وكان النورتمان اعداء للنوستريين ايضا فكانوا
يخشون بأسهم كاللوريين فلما كانت مصلحة هاتين الامتين واحدة كان بينهما نوع

علاقة

علاقة وارتباط وايضا كان هناك مايرج كرلوس الاصلع ملك النوسترين فى التملك على لورينة وهو وصية ابيه لو يزدو بونير حيث عين له فيها اوستراسيا السنزرهنانه (وهى لورينة) وقد ترتب ايضا على هذه الوصية القديمة أن صار له بعض احزاب وانضم اليه اغلب الكبار من اهلها وقد اعلن اونتيوس بن امة اللوريين على لسان الاساقفة الذين اجتمعوا فى مدينة متز ان كرلوس المذكور هو الوارث الحقيقى لبلاد لورينة فالبسه هنقمار تاج ملكها واقسم كرلوس انه يحمى الكنيسة و يبقى لكل امة قوانينها

ولكن كان لوتير حين سفره الى ايطاليا قد اوصى لويز الجرمانى على مملكته فاستعد لويز المذكور لحماية هذه المملكة عملا بالوصية فألزم كرلوس بالتخلى عنها الا انه عما قليل رجع عن هذا الرأى ولما كان لا يرغب كثيرا فى مدح البابا له على استقامته وملاطفته قبل ما عرضه عليه اخوه كرلوس فى شأن القسمة التى عجل تنجيزها نصرانه على المراويين

مشارطة مرسان (سنة ۸۷۰)

وقد انعقد فى مدينة مرسان بين هذين الاخوين مشارطة بموجبها تقاسما بلاد احد ولدى اخيهما ومنعا الآخر من حقه ووقع تحديد هـذه البلاد طولا ليخص كلا منهما ما يكون اوفق به منها فخص كرلوس القونتيات التى على الشاطئ الشمالى من نهر الموز واورتة وموزلة الاعلى واخذ زيادة على ذلك نصف مملكة پرووننسة التى كان لوتير الثانى ورثها عن اخيه الاصغر وطمع ايضا فى النصف الثانى الذى للايمبراطور لويز الثانى فاجتاز نهر الرون ليتغلب عليه فلم تقع له مقاومة من الاعداء الا تحت اسوار مدينة ويانة وذلك ان بيرتة دوروسليون لامانتها وفت مع الشهامة بقيادة العساكر الذين كانوا تحت رياستها لغيبة زوجها جيرارد ثم اتى زوجها المذكور اخيرا الى هذه المدينة بقصد حمايتها والذب عنها الا انه لما كان لا ظهير له الا مجرد قواه ولم يعنه اهل تلك المدينة على ما ينبغى فتح ابوابها الملك فرنسا وتوجه الى ارلس واستمر على حكمهما من غير أن يسأل عنه فى شئ وقد انعم كرلوس باقليم ويانة على نديمه بوزون بن تيودوريق قونتة اوتون واخى الملكة ريشلدة وكان هـذا النديم قريب عهد بالتملك على دير سنت موريس باقليم واليس وحظى زيادة عـلى هـذا الاقليم الكثير الثروة الذى سلب من جيرارد دوروسليون بمنصب الحجابة وقيادة خفر السراية ولقيام حظه نال فيما بعد ما هو اعظم من ذلك من التشريفات

(سنة ۸۷۱)

هـذا ما كان من امر كرلوس واما لويز الجرمانى فانه تغلب على

برغونيا تزانسيورانة اى ماورا آجبل يورا حين شاع على السنة الناس من غير تحقيق ان الايمبراطور لويز الثانى قتل فى سراية بنيوان التى حجزه بها اللنبردية اسيرا ومع ذلك فلم يزل البابا يعارض كرلوس فى الافتيات على لورينة ففى مراسلاته الصادرة عن مزيد الهمة وفرط الحمية دعا الملوك والاعيان والاساقفة الى المدافعة عن حقوق الوارث الحقيق (يعنى لويز الثانى) لكن لم تظهر ثمرة لحكمه بالحرمان ولا للترجيه بل كتب حينئذ المطران هنقمار وكان قد انيط بتزكية الاساقفة وتبرئتهم كتابه الشهير الذى بواسطته اعتبره الناس اول مؤسس للحرية الغاليقية حيث بين فيه للبابا بالكلام المقنى والاساجيع انه لا يمكنه أن يجمع بين وصفى الاسقفية والملكية وانه يجب عليه أن يتأسى باسلافه و يقنع بادارة العصابة القسيسية و يترك للملوك ادارة ممالكهم وان لا يتفكر فيما يكون به استعباد الفرنج واسترقاقهم حيث لا يطيقون ذلك فانهم بمقتضى اصول الكتب المقدسة مستعدون للمدافعة عن حريتهم واستقلالهم وحقوقهم المتوارثة الى آخر قطرة من دمائهم

و بعد ذلك باشهر قلائل املى هذا الحبر على كرلوس كتابا تشدق فيه تشدقا فارغا يزرى بالمنصب الملوكى حيث قال فيه على لسان كرلوس مجيبا للبابا ادريان الثانى فيما كتبه فى شأن اسقف طلب منه أن تقام دعواه فى محكمته بعد أن حكمت عليه جمعية الاساقفة ما معناه يا للعجب كيف ساغ لمحرر هذا الكتاب أن يرى أن الملك يجب عليه أن يبعث الى رومة انسانا جنى ذنبا حكم عليه فيه بمقتضى القوانين الشرعية فينبغى لك أن تتذكر اننا معاشر ملوك فرنسا قد ورثنا هذا المنصب الجليل كابرا عن كابر والى الآن لم يشتهر احدنا بالنيابة عن الاساقفة فلسنا معاونين لهم بل نحن سادات الارض وحسبك دليلا على ذلك ما كتبه سنت ليون ومجمع اساقفة رومة حيث نصوا على ان الملوك الذين اقامهم الله فى ارضه للحكم بين عباده هم الذين يأذنون للاساقفة أن يجروا فى ترتيب الامور على وفق الاحكام الملوكية فهذا اقوى دليل على انهم لم يأخذوا ملكهم عن الاساقفة انتهى واذا اردت أن تعرف قيمة هذا الكلام فقابل بينه و بين الكلام الذى بعثه هذا الملك نفسه الى جمعية اساقفة ساوونيير قبل ذلك بعدة سنوات

وعلى كل فقد تنازل ادريان الى درجة الاعتذار الى ملك فرنسا حيث مدحه على علمه وعدله وشجاعته وحسنه وعرض عليه على لسان الرومانيين أن يتولى الايمبراطورية بعد موت ايمبراطورهم قاصدا بذلك أن ينسيه ما وقع منه فى مكاتباته من العبارات اليابسة الخشنية وما صدر عنه من المحاماة التى اعان بها احد اولاد

هذا

هذا الملك على عصيانه وخروجه عن الطاعة

وفى تلك المدة التى حرم فيها الايمبراطور لويز الثانى من وراثة اخيه وعرض فيها ميراثه اعنى الايمبراطورية على كرلوس من غير أن يشعر بذلك كان هذا الايمبراطور الذى هو ملك ايطاليا مشغولا بمدافعة العرب عن مملكته وبحماية شوكته من اللنبرديين البنيوانيين وبحفظ لقبه من قياصرة القسطنطينية الذين كان كبرهم مجرد غرور لا طائل تحته حيث كانوا يؤثرون ايقاع اقاليمهم التى بايطاليا فى الخطر وتصييرها عرضة للضياع على اقرار لويز المذكور على تلقبه بالايمبراطور ومع ذلك فقد فعل لويز ما يستوجب به هذا اللقب حيث انتصر على العرب واجلاهم عن اقليم بارى وسلك فى مراسلاته مع اللنبرديين البنيوانيين مسلك خلفاء القياصرة لاسيما فى املائه بديوان السنت برومة الحكم بقتل الدوق ادلچيس قائلا انه باغ وعدو للجمهورية وكان هذا الدوق قد تجاسر على اسر هذا الملك فلاجل ان يتخلص لويز من اسره اقسم انه لا يؤاخذه على هذه الخيانة فلما انتصر على العرب افضى به الغل والحقد الى نسيان ايمانه ومواثيقه

ومن هذا الوقت عزم على أن يأخذ حقه وهو الاستيلاء على لورينة لكنه لعدم الجيوش التى تكفى لهذا الغرض اغتنم فرصة الغيرة التى اوجبت الشقاق والتفاقم بين عميه لاسيما مع ملك جرمانيا فانه لما رآى ان ابن اخيه ليس له اولاد ذكور اراد أن يجعل ارث الايمبراطورية لاحد اولاده وقصد أن يستميل اليه الايمبراطور اعنى لويز الثانى الذى هو ابن اخيه وأن يكون له لديه حظوة واقبال فرضى عند مقابلته للايمبراطورة انجلبرجة فى مدينة طرنتة أن ينزل للويز المذكور رعاية لخاطرها عن جميع الاقاليم التى وقعت فى نصيبه بمقتضى مشارطة مرسان وان كان ذلك على خلاف رأى عمال الاوسترازيين وتولى الايمبراطور حينئذ فى مدينة رومة الحكم على لورينة فعارض ملك نستريا هذا الاستيلاء الظاهرى بجمع ارباب ديوان غندوويلة العمومى والزم فيه رعيته اللوريين بمواثيق اخرى على الصداقة والامانة

واذا جرينا على ما ذكره بعض المؤرخين القريبين من ذلك العصر قلنا ان ما وقع من ملك جرمانيا من مراعاة الايمبراطور والتودد اليه كان له ثمرة فقد قال هذا المؤرخ ان لويز الثانى لما رآى انه لا وارث له على عمود النسب اوصى بتاج الايمبراطورية لكرلومان اكبر اولاد عمه ملك جرمانيا ولم يتكلم المؤرخون على هذه الوصية التى كانت شفاهية ولم تسطر فى وثيقة مع انها من قبيل ما يؤثر فى شأن الايمبراطورية

من الحكايات والروايات القديمة

موت لويز الثانى (سنة ٨٧٥)

وقد استوجب لويز الثانى الشكر من الايطاليين على نحاره النافع الذى كان فى ايام قلائل متفرقة فى مدته التى هى عشرون سنة فالفضل له فى بقاء رومة وان كانت فى مبدء الامر لم ترض بحكمه وأبت ان تدخل تحت حمايته وكان موته علامة على الخلل الذى استغرق اكثر من قرن فان الشوكة البابية افترقت بموته من الشوكة الايمبراطورية وانعدم الاتحاد من بينهما وكان اول سبب فى ذلك هو الاختلاف فى ميراث هذا الايمبراطور وذلك ان ارملة لويز جمعت كبار المملكة فى مدينة باويا فعرضوا تاج ايطاليا على ملك جرمانيا واما البابا يوحنا الثامن فانه لاجل التوفية بوعد سلفه ادريان الثانى دعا كرلوس الاصلع الى المبادرة باجتياز جبال الالب ليسبق خصمه الى التاج

فبمجرد أن وصل هذا الملك الى باويا وصل الى ميلان جيش المانى قائده كرلوس دوسوابة وهو ثالث ولد للملك جرمانيا ولم يلحق الفرنساوية كبير مشقة فى هزم هذا العدو الضعيف لكن لما جاوز كرلومان جبال الالب النوريكية وضم عساكره الى عساكر برنجير دوق فريول فى سواحل نهر برنتة اشكل على الناس معرفة من يكون له حكم ايطاليا من الخصمين فكانوا ينتظرون واقعة حربية بينهما تكشف الغطاء عن هذه المشكلة لكنهما بدلا عن القتال سلكا مسلك التدبير والمداولة واذا صح ماذكره المؤرخ الفرنساوى الذى هو من مدينة سنت مرتين ساغ أن نقول ان كرلومان لما لم يتجاسر على المقاتلة لم يسع الا فى عقد مهادنة بها يكون آمنا فى رجوعه الى بلاده وهو خلاف ما عليه المؤرخ الالمانى مؤلف تاريخ فولدة فانه نسب الجبن الى ملك فرنسا بل ونسب اليه الخيانة ايضا حيث قال ان هذا الملك لما خشى أن يقضى فى هذه المشكلة بالسلاح ويبت امرها بالمحاربة (لانه كان اروع من ارنب) رجع الى عادته من التحيل والمكر فعرض على كرلومان الذهب والفضة ليحوله عما كان عليه من الصداقة والامانة لابيه واقسم انه اذا رضى كرلومان بالخروج من ايطاليا يخرج هو ايضا منها ويتركها تحت تصرف اخيه لويز لكنه حنث فى يمينه ولم يف بمواعيده حيث خرج منها كرلومان وبادر هو بتحصين رومة مع غاية السرعة وسلك مسلك الملك يوغرتة حيث افسد ارباب مشورة السنت الرومانية وضمهم الى حزبه حتى ان البابا يوحنا مال الى اغراضه وامر أن يجعل ايمبراطورا واوغسطوسا انتهى (وكلمة اغسطوس يلقب بها الايمبراطرة عند الرومان)

تولى كرلوس الاصلع الايمبراطورية (سنة ٨٧٥)

فلبس كرلوس تاج الايمبراطورية بمدينة رومة فى يوم عيد الميلاد لجده الاكبر (شرلمانيا) ولا يخفى أن هذا اليوم لا يتغير وقته فى كل سنة ولا فائدة له الا ظهور المباينة بين كثير من العظماء والمساكين فقد لبس فيه كرلوس الحلة الايمبراطورية واشهره خصمه ايضا مع جيش منصور فى وسط مملكة فرنسا بسراية آتينى التى هى دار اقامة كرلوس المعتادة فكان ذلك منهما فى يوم واحد

وقد ظهر مما فعله البابا يوحنا الثامن ان له التصرف المطلق فى التاج الايمبراطورى لكن لم يثبت عنه انه الزم محبه اعنى كرلوس بالنزول عماله برومة من الحقوق الملوكية ولا بالتخلى عن دوقيتى اسپوليتة و بنيوان لمنصب البابية وان قال بذلك بعض العلماء فان شارح وقائع برونيوس السنوية المتعلقة بالايمبراطورة اثبت بطلانه بالبراهين الصحيحة بل الذى دل عليه توالى الحوادث و تتابع الوقائع ان الرومانيين و باباتهم مكثوا على الاذعان والانقياد الى الشوكة الايمبراطورية مدة طويلة

ولم يجد كرلوس فسحة فى اخذ تاج الحديد الذى كان يلبسه ملوك اللمبردية لما انه كان يحث السير الى رومة وانما اخذه حين ايابه منها فى جمعية عقدها بمدينة باويا (سنة ٨٧٦) انحط فيها رأى الاساقفة وقونتات المملكة على مبايعته بان يكون لهم ظهيرا واميرا ومحاميا ووضعوا جميعا امضاءهم على وثيقة الانتخاب بعد بوزون الذى اتحف فيها بلقب وزير السراية الاعظم ووكيل الايمبراطور وانعم عليه كرلوس زيادة على ذلك بنيابة مملكة ايطاليا ولقب ذوق باويا الذى تلقب به على وجه يشعر بمزيد التعظيم والتبجيل حيث البسه الايمبراطور تاجا كانه يريد به ترغيبه وحمله على أن يؤمل ما هو اعلى من ذلك واشرف ولولا ان الحوادث اعدمت حكومة الفرنج من ايطاليا لكان زواج هذا النديم (بوزون) ذى الشوكة القوية ببنت الايمبراطور لويز الثانى يثبت له منصب الايمبراطورية

ولما عاد كرلوس الى فرنسا بادر بطلب اقرار هذا السودد الجديد من قسوس المملكة فاقرت جمعية بونتيون القسيسية جميع ما حصل فى ايطاليا وظهر فيها كرلوس بجميع تجمانه التى لا ثبات لها لابسا الحلة الايمبراطورية لانه منذ لبس التاج فى رومة كان يحتقر ما اعتاده الفرنج فى ملبوسهم وافعالهم ولسانهم و يتظاهر باخلاق الاجانب و يتفاخر بجميع ما يفعله اليونان مما يدل على الغرور هكذا ذكره بعض اهل ذلك العصر وكان يتكلم فى اخيه لويز ملك جرمانيا بما يحقره و يزرى به وكان قد اغار على المملكة فى غيبة كرلوس وتجاسر

على طلب نصف ايطاليا فلاجل أن ينتقم منه فى نظير هذه الاساءة قال لابد أن ابعث عنه مع جيش جزار حتى يجف نهر الرين من شرب الخيول وتمر به العساكر ومع ذلك لما بلغه ان لويز استعد لان يبدأه بالهجوم بعث اليه الجيه بقصد الصلح فبلغهم موته وهم فى اثناء الطريق

موت لويز الجرمانى (سنة ٨٧٦)

وكان موت لويز المذكور فى سرايته بمدينة فرنكفورت وقد ترك بعده جميل الذكر وحسن السيرة المحبوبة لدى رعاياه الجرمانيين الذين عرف كيف يحميهم من السلاويين بنصراته ومن النورمانيين بمشارطاته فكانوا يمدحونه على ديانته وعدله وعدم اغراضه بخلاف الفرنساوية فكانوا لا يثبتون له شيأ من تلك الخصال الحميدة للحكم عليه بالحرمان غير مرة لانه طالما اكل اموال الناس بالباطل وحارب اباه واخوته واولادهم بل وشهر السلاح على اولاده وانما كان عصيانهم عليه عقابا من الله تعالى له على عقوقه وعدم بره بوالده (والجزآء من جنس العمل)

وبعد موته تقاسم مملكته اولاده الثلاثة عملا بوصيته وكان قد تاسى بشرلمانيا ولويزدوبونير حيث عين من قبل لكل منهم نصيبه فى المملكة وترتب على هذه القسمة فى الاراضى أن ثبت لكل قبيلة من القبائل الثلاث الكبيرة من العشيرة التوتونية ما كان لها من الاستقلال الذى مازالت آثاره باقية الى ذلك الوقت مع ما وقع من الدولة الكرلونجية من التغلب على بلادها وادخالها تحت حكمها فبالقسمة صارت كل واحدة منها مملكة على حدتها فكان نصيب كرلومان بلاد البواريين والثغور الشرقية النمساوية وقد امكنه فيما بعد أن ينفذ ما كان له بايطاليا من الحقوق واما كرلوس دوسوابة فكان والده قد عينه للحكم على الالمانيين فباستيلائه على بلاد هلوسيا والزاسة امكنه أن يطالب ما كان لعائلته الحق فيه وهو جزء من برغونيا ولورينة الموزلنية واما لويز فاخذ مملكة السكسونيين وكانت تشتمل ايضا على التورنجيين واوستراسى افرنكونيا ولورينة الواطية وقد اقر هؤلاء الاخوة الثلاثة تلك القسمة فى الاقاليم الجرمانية عند اجتماعهم فى سوالفيلد بعد ان افسد لويز باسلحته المنصورة ما ترتب على موت لويز الجرمانى من اطماع كرلوس الاصلع

وكان كرلوس هذا قد طمع فى ان يجعل اولاد اخيه فى كفالته ولعله بنى ذلك على مشارطة مرسان التى كان من شروطها ان الامرآء الكرلونجية يكونون تحت نظر اعمامهم بالنسبة لما يرثونه فى المملكة وطمع ايضا ان يوسع حدود

مملكة

مملكة فرنسا حتى يوصلها الى نهر الرين الا انه بمجرد وصوله الى كولونيا
وصل لوبز الى الشاطئ الآخر من هذا النهر قائدا جيشه وطالبا اثبات حقه
فى الميراث بما تقتضيه القوانين الشرعية فكانت الامتحانات بالماء المغلى والحديد
المحمى والصليب التى قاساها عشرة من المحامين نيابة عنه مساعدة له على
غرضه وزادوا على ذلك امتحانا آخر اقوى من الامتحانات المذكورة وهو الحرب
والقتال فكان ذلك قاضيا له لا عليه فان نصرة السكسونيين فى ميانفيلد ترتب
عليها اخذ شاطئ نهر الرين الشمالى من الفرنساوية ومع ذلك فلم يزل اهل
فرنسا يدعون لانفسهم حقوقا لم ينسوها مع تطاول المدة ومضى الف سنة
عليها

وربما كان كرلوس يتسلى بايطاليا على ضياع لورينة منه وكان البابا
يوحنا الثامن قد الح عليه أن يجاوز جبال الالب ليدافع المسلمين عن رومة
حيث كانوا يخربون اراضى مارى بطرس ولاجل أن يقوى رغبته فى مصالح
الرتبة البابية جدد انتخابه لمنصب الايمبراطورية فى جمعية قسيسية اثبت فيها ان
كرلوس اعده الله تعالى لهذا المنصب من قبل أن يخلق الدنيا وانه مستحق شرعا
لانتخاب البابا والاساقفة والقسوس ومشورة السنت وجميع الامة الرومانية
فتلاقى كرلوس رسل البابا فى مدينة كومبيينية وطلب منهم تكريس المحل
الذى بناه عن قريب فى هذه المدينة التى هى دار اقامته واعدته للصلاة (ومعنى
التكريس عندهم اقرار هذا الفعل وامضاء تحبيسه مع الاحتفال) ثم بادر بجمع
كبار المملكة فى مدينة كيرسى ليحملهم على أن يرضوا بارسال العساكر
الى ايطاليا ثانيا فانظر كيف دعا عساكره الى اخطار باماكن بعيدة لا نفع فيها
للملة مع ان المملكة اذ ذاك لم يكن فيها من العساكر من يكفى فى حمايتها من
النورمان ومنعهم من التوغل فيها حيث الجأتهم نصرات ألفريد الاكبر عليهم
فى انكلترة الى النزول بسواحل فرنسا وفى أثناء مذاكرتهم فى هذا الشأن
بالمدينة المذكورة كان رولون رئيس النورمان يجهز فى مدينة روان
التى هى على البعد من كيرسى بثلاثين فرسخا جميع ما يلزم للاستيطان الدائم
من المواد فلاجل منع اغارات هذا الصائل المهول حمل الجمعية المذكورة على أن
تامر بتكميل الحصون واصلاحها لاجل حماية مجرى نهرى السين ولوار وضرب
على الناس مغرما قدره خمسة آلاف قطعة من الذهب ليسكن به هيجان
النورمان فرضى العمال بجبنهم بذلك المغرم الموجب للمعرة ومن كان بهذه المثابة

لا يرغب فى تحصيل فخر غير محقق من هذه الغزوة التى لم يكن الحامل عليها الا مجرد الكبر الذى لا ثمرة له لكنه سلك معهم ما ظهر به على هذا المانع وهو عدم رغبتهم فى الحرب حيث نزع من تاجه الشريط الاخير وذلك كناية عن نزوله عن آخر وظائفه الملوكية حيث نزل عما كان له من الحق فى تنصيب وزراء مملكته ولم يقتصر على تجديد بنود قانون مرسان المتكفلة لكل ملتزم بحفظ رتبته ووظائفه وعدم انفكاكها عنه بل اذن لهم أن يوصوا بوظائفهم التشريفية لاولادهم بل ولاقاربهم وبالجملة فقد اثبت لمن ذهب معه الى ايطاليا من اولاد القونتات مناصب آبائهم بعد موتهم فبمثل هذه العطايا ظفر بعدم ميل هؤلاء العمال الى هذه الغزوة التى لم تصادف محلا واستمالهم اليها بعد نفرتهم منها ولذا كانوا يستعينون بقانون كيرسى فى اغلب الجمعيات التى انعقدت بعد موت هذا الملك فكان فى الحقيقة هو وقانون مرسان اعظم قوانين الحكومة الالتزامية

وبعد كثير من النكبات التى لحقت كرلوس والخسارة التى خسرها بنزوله عن كثير من حقوقه امكنه أن يتوجه الى رومة من غير أن يلتفت الى ماوراءه وأن يخاطر بما كان له من الملك الظاهرى والشوكة الصورية دون أن يخشى شيأ فجاوز جبال الالب واتى البابا يوحنا الثامن لمقابلته فى ورسيلية غير انه لم يعد الى رومة رئيس الكنيسة اعنى يوحنا المذكور ولم يصل اليها محاميها اعنى كرلوس وذلك ان هذا الايمبراطور بلغه وهو فى مدينة باويا ان كرلومان دخل ايطاليا ومعه جيش من امنائه البواديين والسلاويين وكان قد انتصر عليهم قبل ذلك بقليل وادخلهم تحت طاعته فرجع الايمبراطور قاصدا جهة مورينة ولم ينزل الا فى مدينة ترونة فانه مكث بها ساعة ايلدس زوجته الشابة تلح الايمبراطورية وكأن هذه الاميرة لم تحظ بهذا السودد الا لتكابد اهواله وتقع به فى الضنك والضيق وكان مقدورها عجيبا وبختها غريبا فانها قبل ذلك وقت أن كانت ملتجئة فى مملكة لورينة وضعت غلاما لم يعش وكانت ولادته فى اثناء ما كان واقعا اذ ذاك من المصائب والكروب ثم ظهر لها الآن ان الدهر يستهزئ بها ويسخر منها حيث لبست تاج الايمبراطورية وهى هاربة

هذا ولم يجد كرلوس فى جبال الالب الاسعافات والاعانات التى كان وعده بها صهره بوزون وهوج الراهب دوق فرنسا ودوقان آخران كانا من ذوى الشوكة يسمى كل منهما برنارد لان هؤلاء العمال تعصبوا عليه اذ كانوا لم يزالوا يخافون ضرره ولا يرجون نفعه فاقتضى الحال حينئذ أن يترك

ايطاليا ويجتاز الجبال ثانيا فاخترمته المنية على حين غفلة فى سفح جبل سينيس وظهر بموته ان ايطاليا تبتت لكرلومان وحصل انتخابه للتملك عليها بدون معارضة وان كان لم يمكنه ان يحظى من البابا بتاج الامبراطورية وبعد ذلك بقليل جبره داء السل الذى لا دواء له على الخروج من ايطاليا فمكثت مدة بلا رئيس يسوسها ولا متعرض يتطلبها فكان ذلك اول فترة حصلت فى امبراطورية المغرب الجديدة

وكان كرلوس الاصلع هذا عدة اولاد من الامبراطورة هرمنترودة وكان قد لحقه منهم ما اوجب غمه وحزنه ونغص عليه عيشه لان ذلك العصر كان مشؤوما حيث اهملت فيه الواجبات ولم يبق لها بين الناس احترام ولا مراعاة خصوصا فى العائلات الملوكية فكان الاولاد يخرجون على آبائهم وكانت بنات الملوك يسلمن للعمال أن يختطفوهن فقد تأست جوديت بنت كرلوس ببنات شرلمانيا ولونير الاول حيث تزوجت خفية ببودوين الاول قونتة الفلمنك واقتدى ثلاثة من اخوتها باولاد عمهم الذين ببلاد جرمانيا فاشتركوا مع الدوقات والقونتات فى الخروج والعصيان وذلك ان لويز اكبر هؤلاء الامراء تعصب على ابيه مع سليمان ملك ابريطانيا وانكر اخوه كرلوس فى مملكة اكتينا حكومة ابيه مع انه لفرط محبته فيه كان قد بادر بتقليده منصب الملوكية عليها واما كرلومان وهو ثالثهم فانه فر من الدير الذى كان محكوما عليه بالمكث فيه مدة حياته وانضم الى الاشرار وخرب معهم بلاد بلجيكة ولورينة وكان قائدهم فحكم عليه الاساقفة بالحرمان ودافع عنه البابا واذلته جمعية من الاساقفة وآل امره أن حكم عليه باذهاب بصره لكونه تصدى لاخذ تاج ابيه

تولى لويز الثانى الملقب بالالكن على مملكة فرنسا (سنة ٨٧٧)

ولم يبق من اولاد كرلوس الاصلع للتملك على فرنسا بعده الاولده لويز الثانى الملقب بالالكن فهو الذى خلفه عليها وكان قبل ذلك بعشر سنوات يلقب بملك اكتينا وكان ايضا قد اخذ على النوستريين عهود الصداقة والامانة فى جعيتى رمس وكيرسى بوصف كونه نائب المملكة وولى عهد الملك فلما بلغه موت ابيه بادر بالانعام على احبابه ففرق عليهم اديارا وقونتيات واقطاعات طامعا أن يكون له حزب عظيم ذوى الشوكة بحيث يعادل فى نفوذ الكلمة كبار ملتزمى الاقاليم الا أن رؤساء الاديار والقونتات غضبوا من ذلك غضبا شديدا حيث وجدوا لهم اقرانا يعادلونهم خصوصا وكان ذلك بدون مشورتهم فاجتمعوا فى بلدة يقال لها اوينية وصارت لهم فيها عصبة مهولة كانت رياستها للامبراطورة ريشلدة وللعمال الذين امتنعوا سابقا

من الذهاب مع كرلوس الاصلع الى ايطاليا فذهب لويز الى قلعة كومبينية ليأمن فيها على نفسه ووقعت بينه وبين المتعصبين مراسلات فى شأن الصلح واطفاء الفتنة وبعث يطلب هنقمار الى ديوانه ليستشيره فى هذه الاحوال الصعبة فاعتذر اليه عن الحضور بهرمه وكبر سنه غيرانه بين له بالكتابة ماينبغى له اتباعه من الامور السياسية ومالابد منه فى حماية الاعيان من حزب الدولة وانه يلزمه أن يبذل غاية وسعه فى مصالحة الدوق بوزون وهوج رئيس الرهبان والقونتة كونراد ورئيس الرهبان جوزلين و برنارددوورنية واشار عليه أن يعقد مشورة عموم لاجل تدبير طرق يكون بها اجراء قانون كيرسى وأن يجدد طرقا اخرى بها ترجع الاموال والمزايا القسيسية لاربابها وتبطل المغارم التى ضربت على الناس منذ عشرين سنة لكونها على خلاف مقتضى القوانين الشرعية ويأمن بها الاعيان والاحرار على املاكهم ويمنع السلب والنهب وتنفصل بها الدعاوى على وجه مستحسن وتكون بها حماية المملكة حيث صارت تدفع الخراج للوثنيين ويعود بها اتفاق الكلمة بين امناء الله (يعنى النصارى) وامناء الملك وبموجبها يقع الصلح بينه وبين اولاد عمه ملوك جرمانيا

ووعد لويز أن يصلح جميع هذه المفاسد ولما استمال الاعيان بالعطايا التى كانوا احوج اليها من غيرها ورضوا بلبسه التاج الملوكى اكد ذلك الوعد حين اخذ عليه الميثاق ولبس التاج فى مدينة رمس فقال مامعناه انا لويز الذى صرت ملكا بعون الله وانتخاب الامة وانا اتعهد قدام الكنيسة وجميع ارباب وظائف الدولة انى احافظ على جميع القوانين والشرائع التى رتبها اسلافنا للامة التى فوض امر حكومتها الى حسبما انحطت عليه آراء امنائى وبموجب احكام اسلافى التى لاتنقض

وكان تاج فرنسا الملوكى اذذاك ممايصعب حمله فكيف كان يخطر ببال لويز الالكن أن يحمل على رأسه التاج الامبراطورى مع ان كلا من حال الملك وحال المملكة لايصح معه الافراط فى الطمع ولايدرى هل خطر ببال البابا يوحنا الثامن مع مراعاته للفرع الفرنساوى من الدولة الكرلونجية أن يجعل منصب الامبراطورية مستمرا فيه ام لا بل اكتفى بكونه اشار على ملك فرنسا ان يكون مع ملوك جرمانيا على الاتحاد والاتفاق ليجمعوا قواهم ويضموا هممهم الى بعضها ويحموا الكنيسة من تعدى دوق سبوليتة على املاكها واراضيها حيث كان على ماذكره هذا البابا يريد الافتيات على اجزاء الامبراطورية مستعينا على ذلك بادلبيرت مركى طوسكانة هذا وكانت سياسة البابا المذكور قداقتضت فى مبدء الامر ان لاينضم

لاحد

لاحد ممن يتطلب الايمبراطورية حتى انه امتنع أن يلبس كرلومان التاج فى نفس الوقت الذى استولى فيه هذا الامير على بلاد لمبرديا ولما ترجاه أن يحضر الى رومة ليتفاوض فى شأن مصالح الجمهورية وبلاد النصارى لم يفصح عن مرامه فى شأن التاج وكان هذا البابا يخشى اغارات المسلمين وتهديد لمبرت دوق سبوليتة الذى كان يتطلب سرا منصب الايمبراطورية فلذا الح فى طلب الاعانة من جميع ملوك الكرلوبحيين وسائر الامم النصرانية فكانت عاقبة ذلك انعقاد جمعية قسيسية عامة

ويؤخذ من مكاتيبه فى هذا المعنى ان خوف رومة من المسلمين يومئذ كان دون خوفها من دوق سبوليتة الذى كان يتهمه عموم الناس بانه تحالف مع العرب النازلين فى طرنتة وكان تضرر الرومانيين من دفع الجزية للمسلمين دون تضررهم من شغل مدينتهم بعساكر لمبرت ولما كان البابا لايرضى بمساعدة هؤلاء العساكر على ما كان يقع منهم من الخلل كانوا غالبا يحاصرونه فى سرايته او يضعون عليها خفرا لمنعه من الخروج ومع ذلك امكنه النجاة من كيدهم وظلمهم حيث ركب البحر حتى خرج على مدينة ارلس فقابله فيها المطران روستنغ بالترحيب والاكرام فكافأه على هذا الصنيع بجعله نائب البابا وكان هذا المنصب قد اتحف به اسلافه من قبله واجاب الدوق بوزون لما طلبه من اقرار نكاحه الثانى الذى كان حصل عقده على بنت الايمبراطور لويز الثانى فى حياة زوجته الاولى وحظى منه ايضا بالتبنى الذى كان له دخل فيما حصل له بعد ذلك بقليل من العظم وعلو الدرجة

وماوقع من البابا من مراعاة بوزون واجابته لما طلب لم يفعله مع لويز ملك فرنسا حيث امتنع أن يلبس زوجته ادلايدة تاج الملك حين البسه اياه ثانيا فى جمعية ترواس القسيسية متعللا بان زوجته الاولى لم تزل على قيد الحياة فمن ثم كان دعاؤه لهذا الملك وحثه على حمل السلاح فى انقاذ رومة سدى لاطائل تحته فلما صار بذلك مجبورا على أن يستعين بحامين آخرين اخذ فى الالحاح ثانيا على كرلومان دوباويرة وكان لايقدر اذذاك على الخروج من جرمانيا لما كان قائما به من المرض المهلك ثم طمع ان كرلوس ملك سوابة يلبى دعوته الا ان هذا الملك لم يكن له رغبة فى خدمة هذا البابا حيث كان منذ قليل قد عطل عليه جميع مشروعاته فى شأن برغونيا سيز يوراتة اى التى أمام جبل يورا لانه كان يحكمها يومئذ بوزون الذى تبناه وقصارى الامر انه سعى فى استمالة لويز ملك سكس حيث وعده بزيادة على ما ابداه له من التشريفات التى لم يسمع بمثلها

لغيره بالتاج الايمبراطورى الذى به يكون جميع ملوك النصارى رعية له ولكن هجوم النورمان وشؤم مجاورة الفرنساوية له منعاه عن مجاوزة اقاليمه فعند ذلك عزم البابا على الصلح مع دوق سبوليتة حتى تساعده مقتضيات الاحوال وفى نحو هذا الزمن كتب بعض اساقفة بريسيا الى حبر من احبار جرمانيا ما معناه أخبرنا هل يحصل الصلح عن قريب بين ملوك ماوراء الجبال فنكون معاشر اهل ايطاليا اومستأجريها غنيمة للاقوى منهم فاجابه بان ايطاليا ثبتت بموت كرلومان لاخيه كرلوس وبين له فى جوابه ما لحقه من الاسف حين بلغه خراب هذا القطر العظيم حيث كتب ان اراضينا محلة وبلادنا على غاية من الفاقة والفقر فكيف بها اذا نزح منبع اموالها انتهى فانظر الى الالمانيين كيف اعتبروا وقتئذ ان ايطاليا من اراضيهم الخراجية فلذا كان الايطاليون يخشون أن يكون لهم رئيس حين كانت رومة لا تبحث الاعمن يحميها ويدافع عنها

وكان لويز ملك سكس قد تعاهد مع لويز ملك فرنسا بمشارطة فورون سور موزة اى التى على نهر الموز وبتلك المشارطة اقتسما بلاد لورينة على ما تقتضيه احكام مشارطة مرسان واشترطا ان بلاد كل منهما تكون تحت كفالة الآخر لتكون محفوظة لاولادهما قاصدين بذلك حمايتهم مدة قصورهم من خيانة الظلمة الادنين ولم تكن لتلك المشارطة ثمرة بالنسبة الى ملك سكس حيث بادرت المنية باخترام ولده بخلاف ملك فرنسا فان ولديه وهما لويز وكرلومان بادرا باجتناء ثمرابيهما وذلك انه بموته على حين غفلة حين كان يتتبع مركى غوثيا الخارج عن طاعته ثبت لهما الارث الذى نازعهما عليه من كان متكفلا لهما به

الكلام على لويز الثالث وكرلومان (سنة ٨٧٩)

وذلك ان جوزلين عصب عصبة مهولة كان له الرياسة عليها قاصدا حرمانهما من تخت المملكة متعللا بان امهما أنسغردة لا يثبت لها وصف كونها زوجة لابيهما شرعا لانها كانت مطلقة منه فلم يراع اهل تلك العصبة حقوقهما كما لم يراعوا حقوق حمل المملكة ادلايدة الذى كان قد قرب اوان وضعه بل استمالوا اليهم الاعيان الذين كانوا مجتمعين فى مدينة كريل وعرضوا تاج فرنسا على لويز السكسونى فاتى الى وردون ليأخذ المواثيق على رؤساء العصبة

ومع ذلك فقد التفت بعض اصدقاء الملتزمين الى حفظ المملكة وبقائها وذلك ان بوزون وهوج الراهب البسا الاميرين الشابين اى لويز وكرلومان تاج المملكة فى دير فريرة مبادرة منهما بازالة الحيرة عمن كان الى ذلك الوقت لا يدرى حيث

يكون

يكون المنصب الملوكى * ولاجل أن يجرّد الحزب الآخر عن ظهيره عرضا لملك سكس ان الاميرين المذكورين ينزلان له عن الجزء الذى كان لكرلوس الاصلع ولويز الالكن فى بلاد لورينة بمقتضى مشارطتى مرسان وفوروون فبادر لويز السكسونى بقبول ذلك منهما حيث رآى فيه مندوحة عن نقض العهد وبه يكون له مملكة عظيمة وتوجه بالجيش الذى كان اعده للتغلب على فرنسا الى النورمان فهزمهم وظهر عليهم فى بلاد الاردينة وطرد من لورينة ابن لوتير الثانى من الزناء ومنع باويرة أن تدخل تحت حكومة ابن اخيه كرلومان من الزناء فانظر الى الافتيات على المناصب الملوكية كيف كان بفرنسا اعظم نجاحا من غيرها

ثم ان بوزون لما كان اخا للايمبراطورة زوج كرلوس الاصلع وصهرا للايمبراطورة زوج لويز الثانى وحما لكرلومان ملك فرنسا ومتبنى للبابا يوحنا الثامن كان يحكم بلقب الدوق على جميع الاقاليم التى كان يحكمها اصغر اولاد لوتير الاول فكانت تلك الاقاليم مملكة بغير ملك ولم يكن هناك احد احق بطلبها الآخر ورثة هذا الملك اعنى لوتير الاول وهى بنت الايمبراطور لويز الثانى التى تزوجها بوزون ولما كانت من العائلة الايمبراطورية وخطبها سابقا ايمبراطور القسطنطينية كانت تخجل من انحطاط درجتها بتزوجها الدوق بوزون المذكور واستقلت التاج الدوقى بالنسبة الى مقامها فكان يلزم لها أن يكون زوجها ملكا وقد حصل وذلك ان اساقفة برغونيا القديمة (پروونسة) واساقفة اقليم اولس اجتمعوا فى منتيليا وراوا انه لابدّ للكنيسة والرعية من محام يقوم بمصالحهما فعرضوا تاج مملكة پروونسة على بوزون فقبل ذلك منهم فشكروه على تحمل اعباء مملكتهم وبعد ذلك مسحه المطران اورليان المسحة الملوكية فى مدينة ليون وقد ترتب على هذا الافتيات اذا صح اطلاق ذلك على مثل هذا الفعل أن استعمل ملكا فرنسا فى دفعه قوتهما وشجاعتهما غير ان مهارة بوزون التى ساعدتها مقتضيات الاحوال ظهرت على هذين الخصمين اللذين تصديا لمعارضته وعلى غيرهما من الاعداء الذين عزموا على الفتك به فى ظلام الليل

وكان البابا ومطران رمس قدوصيا كرلوس ملك سوابة على ولدى لويز الالكن مدة قصورهما فتلقاهما فى اوربة وتكفل لهما بالحماية من اعدائهما لاسيما من بوزون المفتات على مملكة برغونيا القديمة غير ان احوال ايطاليا التى حملته على الذهاب الى رومة وكثرة ظفر النورمان الذين كانوا يومئذ

يخربون ويبددون مانع جميع الاقاليم التى كانت الى ذالك الوقت لم تقع فيها قسمة بين ملوك فرنسا وكذالك لويز ملك سكس الذى كان عازما اذذاك على شن الغارة ثانيا على فرنسا كل ذالك منعه أن يشتغل بادخال بوزون ملك ارلس تحت الطاعة

ثم ان ما اكتسبه هذان الاميران اعنى ملكى فرنسا من النصرة الفاخرة على النورمان قريبا من مدينة فونتورولت كان دليل خير على شجاعتهما وتأكدت به عهود العمال النوستريين بمعنى انهم ثبتوا معهما على الامانة بعد أن كانوا غير واثقين بهما وفزعت قلوبهم وتعجبوا غاية العجب من اتحادهما ووفاقهما الذى لم يعهد مثله فى ذالك العصر ولذالك لما اتى لويز ملك جرمانيا الى سواحل نهر وازة لم يجد بها ما كان وعده به جوزلين من الاحزاب فبادر بالعود الى بلاده

قسمة فرنسا (سنة ٨٨٠)

فهذا هو الوقت الذى امكن لهما فيه ان يتحققا من ارث ابيهما ويقتسما المملكة بينهما فكان نصيب لويز منها بمقتضى مشارطة اميان نوستريا وسائر البلاد التى أمام نهر الموز من استراسيا واما برغونيا واكتينيا وثغور غوطيا فكانت فى حصة كرلومان وكانت هذه المشارطة المتعلقة بالوراثة الملوكية تشتمل فى نصيب كل منهما على اشياء غير واقعية يتوقف ثبوتها على الحرب والقتال وذالك أن جزأ من نصيب لويز كان يملكه الابريطانيون او يشغله النورمان واما كرلومان فانه اذا كان اعتبر نفسه ملكا على برغونيا فانما ذالك لتوهمه ان له الحق فيها شرعا وربما كان من لا يقول بذالك من اهل عصره اكثر من غيرهم من اجيال الاعصر الاخرى

ولكن حيث ان هذين الاخوين كانا فى سن تلزمه عادة الشجاعة وغيرها من الصفات العظيمة لزمهما أن يعتقدا ثبوت حقوقهما ويجزما بذالك من غير أن يترددا هل يسعفهما الدهر اولا لاسيما وكانا صادقين فى الاتحاد مع ملكى جرمانيا فان ذالك ربما ساعد فى نجاحهما وبلوغ ما ربهما وقد آذنت مشورة غندرويلة التى تحالف فيها الملوك الاربعة على أن يعين بعضهم بعضا على المفتاتين والعصاة بوجود همة عظيمة وقوة جسيمة على اعداء الكرلوفجيين الذين يريدون منعهم من حقوقهم وعلى الارستوقراطيين فى ميلهم للفتن والتقلبات وكان قد اقتضى الحال ان لويز ملك سكس يحارب النورمان لكونهم أرهبوا بلاد لورينة من ثلاثة انهر الا انه لم يجسر على الهجوم عليهم فى سراية نميغة المحصنة ولم يمنعهم من النزول بخيولهم فى كنيسة اكسيلاشيلا الكبرى حضوره ووصول جيش النوستريين الى نهر

الاسقوط

الاسقوط وكانوا قد وعدوا هوج ابن ولدرادة أن يعينوه على فتح مملكة لوتير (لورينة) لكنهم تأخروا فى الوصول اليه وكان قد فقد ظهيره الاقوى بهزيمة تيوبالد الذى هزمه ملكا الفرنسا وية بمعاونة الالمانيين والفرنكونيين الذين كان يقودهم الدوق أدهلارد والدوق هنريخ ففر هوج الى بلاد بوزون التى دخلها جيش المتعاهدين بعد ذلك بقليل

واول ما افتتح به لويز وكرلومان اغارتهما على برغونيا هو تغلبهما على مدينة ماكون لكون الخائن برنادر لم يعرف كيف يدافع عنها ثم ذهبا بجيشهما بعد أن تقوى بوصول كرلوس ملك سوابة قاصدين محاصرة مدينة وِيانة وكان يترآى من حالها انه لابد ان يظهر عليها هؤلاء الملوك الثلاثة المجتمعة لكن الملكة هرمنغردة التى اناطها بوزون بحماية تلك المدينة قامت بهذا الامر الخطر على ما ينبغى واظهرت فيه من الشجاعة ما كانت أبدته زوجة جيرارد دورسيلون الاان هرمنغردة كانت اوفر حظا منها ولما كان فتح برغونيا لا يعود بالنفع الاعلى كرلومان وحده سئم حليفاه من طول المحاصرة فاما ملك سوابة فانه فر ليلا بعد ما حرق معسكره كأنه يريد بذلك عدم الرجوع الى المعاهدة ثانيا وجدّ فى السير الى رومة ليبحث عن الامبراطورية التى افضى به ثقل اعبائها الى سقوطه وانحطاط درجته بالكلية واما ملك نوستريا فانه ترك ايضا هذا الحرب وذهب لمقاتلة وريموند الدانيرقى وكان قد توغل فى البلاد لعجز الراهب جوزلين اوجبنه حتى وصل الى شواطئ نهر السوم وبلغ من وقاحته أن طلب التلقب بملك فرنسا (سنة ٨٨١) فانتصر عليه لويز ملك نوستريا نصرة سوكورت الشهيرة باقليم ويمو وقتل فيها من النورمان تسعة آلاف وحاز بها من الفخر ما صار يتغنى به بين الناس وامل بها النوستريون طرد النورمان من سواحل نهر لوار ووقع الابريطانيين الذين كانوا بلية اخرى على وطنهم غيران لويز لم تطل مدة حياته حتى ينقذ رعيته من تخريبات هؤلاء الهستنغ واليوديكايل اى النورمان والابريطانيين وذلك ان هذا البطل الذى كان اللائق بمقامه أن يموت فى واقعة سوكورت انكسر صدره (حين سقوطه من فوق جواده) وهو يتتبع بنتا شابة كان يريد هتك عرضها

وربما كان الخوف فى بعض الاحيان من النورمان يحمل الملتزمين على اظهار الصداقة فانهم لما لم يجدوا بدا من حمل كرلومان ملك اكتينا على قبول مبايعتهم لكونه هو الذى يمكنه حمايتهم بعثوا اليه رسلا يترجونه فى الاتيان الى اقاليم اخيه ليتملك

عليها فلما وصلوا اليه ترك محاصرة ويانة كالملكين قبله وفوض امر تتميمها
الى ريشارد قونتة اوتون وهو وان كان اخا بوزون الا انه كان من اصدقاء
العمال حيث وفى بواجبات الملك وآثرها على مصالح عائلته ومع ذلك فاخذه لهذه
المدينة التى كانت تزاحم مدينة ارلس على رياسة مملكة پرووَنسة لم يضر
باستقلال بوزون فى شئ فان النورمان كانوا يحاربون بلاد نستريا لاجله
نعم قد داخله الخوف من نصرة كرلومان على هؤلاء المتبربرين الا ان الموت الذى
ادرك هذا الملك فى عنفوان شبابه وهزيمة قونتة اوورنية الذى ارسل فيما بعد
لمقاتلة بوزون سهلا على هذا البطل المفتات استرجاع كرسى بلاده وكذلك
دوقية ليون ومن يومئذ صار لاقاليم الرون محام يحميهم من العرب الذين
كانوا وقتئذ يخربون سواحل البحر المتوسط وان لم تطل مدة ذلك بخلاف اقاليم لوار
والسين والاسقوط والموز التى كان النورمان يغيرون عليها من سائر الجهات
فانه لم يكن لاحد قدرة على انقاذها منهم

ثم ان ذرية شرلمانيا التى تستحق ولاية العهد شرعا كان لم يبق منها وقتئذ
الاميران كلاهما يسمى كرلوس احدهما ابن لويز الالكن الذى ولد بعد
موته وكان قد بلغ يومئذ من العمر خمس سنوات وانحصر فيه فرع الدولة الفرنساوية
واما فرع الدولة الجرمانية فكان قد اشرف على الانقراض لعقر زوجة ملك سوابة
واما الولد الذى قطع عنه النظر فى قسمة اميان ولم يحط حقه فى المملكة فانه حرم
من التخت ثانيا ولكن لم يكن ذلك آخر مرة من حرمانه وذلك ان اعيان المملكة
امتنعوا من مبايعته حيث رأوا انه لصغره لا يقدر على حمايتها وانما لصداقتهم
ومحبتهم لنسل الدولة الكرلونجية بحثوا عن كرلوس ملك سوابة وكان
قد اثقلته مناصبه الستة

وذلك ان هذا الملك الذى كان يلقب ايضا لغروس اى السمين كان ملكا على
سوابة وتولى ملكا على لمبردية بموت اخيه كرلومان والبسه البابا
يوحنا الثامن تاج الايمبراطورية وورث ايضا ممالك باويرة ولورينة وسكس
عن اخيه الثانى لويز الذى مات بما لحقه من الغم والحزن عقب هزيمة ابسدورف
حيث صارت بها اقاليمه فريسة تخريبات النورمان وكان اوهن هذه
المناصب وابعدها عن الثمرة هو منصب الايمبراطورية وقد كانت رغبته فيه فى مبدء
الامر ضعيفة لما ان ذهابه الى رومة لاجل تحصيله كان يلزمه
من الاخطار ما لا يحصى لكن غلب عليه فى آخر الامر الحاح يوحنا الثامن

حيث

حيث جبره على قبوله بتهديده بالحرمان اذا ابى التقلد به
وقد ادخل هذا البابا فى نفسه ان شرفه وديانته يوجبان عليه قبول هذا المنصب حيث اوقفه اولا على عصيان عمال ايطاليا الذين كانوا آخذين فى التطاول على حكومة الملوك الكرلومجيين وثانيا على الخطر الذى كان يخشى منه على كرسى دين النصرانية حيث كان كل يوم عرضة لاهانة المسلمين واشرار النصارى وكتب له هذه العبارة أعنا الله أعنا حتى لا يقول من جاورنا من الامم اين ايمبراطورهم انتهى فاثرت فيه هذه العبارة القديمة التى كان ديوان رومة محافظا عليها من عهد اسطفان الثانى ليستعملها فى الفرص العظيمة لاسيا وقد لمح كرلوس من البابا انه لا يبعد أن يجلس بوزون على سرير الايمبراطورية

تولى كرلوس الغروس اى السمين الايمبراطورية (سنة ٨٨١)

ثم ان لبس ملك جرمانيا هذا التاج الايمبراطورية بمدينة رومة لم يكسب شوكته قوة بايطاليا فانه لما اراد ان يسلك فيها مسلك القسوة والصعوبة حيث جرد عدة من الملتزمين عن مناصبهم وكان من جملتهم جوى دوق اسبوليتة وكان رجلا مهولا يخشى بأسه وكان قد تغلب على اموال الكنيسة واملاكها وانكر حكومة وكيل الايمبراطور لم يرجع هذا الدوق عما كان عليه بل استمر على السلب والنهب ولذا كان يسميه البابا بالسعران ولما كان العرب يساعدونه على مشروعاته وكانوا اصدق حلفائه وساعده ايضا الوبا الذى كان فى ذلك العصر قاوم اقوى اخصامه وهو برنجير دوق فريول (سنة ٨٨٤) وجبر الايمبراطور على ان يرد له مناصبه ومناصب رفقائه فى الجور والتعدى وبعد ذلك بسنتين شهر اهل باويا اسلحتهم على الالمانيين لان حكومتهم فى ايطاليا كانت مبغوضة عند كافة الناس فى المبدء والمنتهى
وكيف يسوغ لهذا الملك مع جبنه ان يطمع فى انقياد البلاد التى أمام الجبال واذعانها له اكثر من ذلك فانه التزم فى مشارطة اسكالوهة بدفع الخراج للنورمان الذين على نهر الموز ومزق ايمبراطوريته رعاية لرئيسهم غودفريد وسمحت نفسه بخلط لحمة شرلمانيا بلحمة هذا الصائل وتعاهد مع هوج المتولد من الزناء ولما كان يخشى ضرر معاهدة هؤلاء الاعداء الذين لم يعرف كيف يقاتلهم غدر بهذا الرئيس الدانيمرقى وقتله حين اجتمع معه لاجل المذاكرة وحكم بالقتل ايضا على ابن لوتير الثانى (سنة ٨٨٥) فانى للفرنساوية الذين انكروا لاجل هذا الايمبراطور الغير الجدير بالمنصب حقوق الشاب ولى عهد ملوكهم أن يرجوا منه حمايتهم والذب عنهم مع انه لم ينقذ باريس من النورمان الابعد أن اباح لهم

فى مشارطته معهم أن يحزبوا أقاليمه (سنة ٨٨٦) وقد ترتب على هذه المشارطة المورثة للمعرّة أن قويت همة اودس دوق فرنسا واشتدت حميته لمحبته لوطنه حيث بذل جهده فى المدافعة عن باريس فاستوجب ذلك الشكر والثناء عليه من الملة

فهذه الامور الناشئة عن الجبن اوجبت بغضة الرعايا لكرلوس وترتب على عدم تبصره فى السياسة أن تحوّل عليه اولو الشوكة من ذوى المناصب بالمملكة حيث لم يساعده القسوس فى الزامه الكنيسة بدفع ماطلبه غودفريد من الخراج وصدقوا ماشاع على السنة الناس من ان الايمبراطور يريد تجريد عدة اساقفة عن وظائفهم انتهاكا لحرمة القوانين القسيسية واخذوا ذلك قضية مسلمة ورأى الملتزمون ان عزله لعمال ايطاليا ان لم يكن غرضه منه تقوية شوكته فليس الا لاضعاف شوكة الارستوقراطيين وحقد عليه جلساؤه لاقباله على ليوتارد اسقف ورسيل حيث كان نديم اسربوس الثانى (اعنى هذا الايمبراطور) ولما ارتقى هذا الاسقف الى رتبة القنجليير الاكبر بعد أن كان من السفلة الرعاع اخساء الاصل زوّج اقاربه باشرف بنات المانيا وايطاليا بطريق القهر والغلبة وكان لا يقف عند حدّ فى افعاله وعقائده فكان يقول ان عيسى متحد الجوهر لا العنصر

وجميع هؤلاء الناس الذين اضرّ بهم كرلوس المذكور فى مصالحهم اتفقت كلمتهم على القيام عليه وعمت بغضتهم هذا الملك ونديمه وكان بعضهم يلوم الملك على كونه يريد جعل ولاية العهد لابن عشيقته والبعض الآخر يتهم نديمه ليوتارد بان بينه وبين الايمبراطورة ريشاردة مخالطة تلوث عرضهما واظهر هؤلاء المنافقون ان الغيرة اخذتهم على المنصب الملوكى وعلى شرف ذات الملك فسعوا اوّلا فى طرد من اتهموه بعشق الايمبراطورة من السراية مع انها طلبت ان تثبت بالامتحانات الشرعية بكارتها التى مضى عليها عشر سنوات من زواجها وهى باقية على حالها حسبما شهد به زوجها نفسه ثم مضت الى ديراندلاو كى تخفى عن الناس خجل سلوكها او تبرئتها ولا ريب ان اسقف ورسيل المذكور انما التجأ الى ارنولف قونتة كرنثية مؤملا انه باثارة اطماع هذا القونتة يدرك ثاره لكونه لم يجسر على أن يمضى ما بقى من ايامه التى تدنست بذميم الفعال فى القيام بخدمة الدين وهل بعد أن باع للنورمان شرف سيده تأبى ذمته خلعه عن سرير ملكه

ولما انقضت

عزل كرلوس لغروس (سنة ٨٨٧)

ولما انقضت هذه الامور لحق الايمبراطور الضعف فى جسمه وعقله فلذلك ذهب فى شهر نومبر الى مدينة تريبور وكان قد عزب اوان موسم مارى مرطين وعقد فيها جمعية عمومية لكن لما رآى اعيان المملكة ضعف جسمه وعقله طلبوا من تلقاء انفسهم ارنولف بن كرلومان ليحضر الى المملكة وبعد أن صنعوا عصبة على وجه السرعة هرعوا الى هذا الامير افواجا افواجا وانضموا اليه باجمعهم حتى انه بعد ثلاثة ايام قل أن يرى عند الايمبراطور خادم يقوم له بما تقتضيه الرأفة والانسانية من اللوازم والضروريات وصار طعامه وشرابه على طرف الاسقف ليوتبرت

وصار فى حالة تقضى بان يرثى اليه ويعرف بها مقدار البشر وتقلبات الدهر فانه بعد أن سالمه وادخل تحت قبضته من غير قصد لقتال ولا مكابدة اهوال ممالك عديدة واسعة بما كان لا يذعن لاحد من ملوك فرنسا من عهد شرلمانيا انه يفوقه فى السودد او الشوكة او الثروة غدر به وجعله عبرة لغيره وشاهدا على ضعف البشر وعجزه حيث جرده فى طرفة عين عما اسداه اليه من انواع العز والسعادة التى كانت فوق كل حد وغاية وسلبه اياها على وجه اورثه الخزى والمعرة ولما نزل عن سرير ملكه وسقط من اوج السعادة والغنى الى حضيض الشقاوة والفقر واضطر الى أن يشتغل بنفسه فى تحصيل معاشه وضرورياته اليومية تضرع الى الملك ارنولف أن ينعم عليه بما يقوم بمؤونته بالنظر الى حالته الراهنة فانعم عليه ببعض اراض فى المانيا يستعين بها على ضرورياته

موته (سنة ٨٨٨)

وكان موت كرلوس هذا الذى هو ثالث من تسمى بهذا الاسم من الايمبراطرة فى الليلة الثالثة عشر من شهر ينوية ودفن فى دير ريشيناو وكان على غاية من الديانة النصرانية فكان يخشى الله تعالى وكان محافظا بقلبه وقالبه على وصايا الكنيسة واحكامها كثير الصدقات مشتغلا دائما بالصلاة مهتما بتحسين الترنم والانغام فى قرآءة المزامير فلذا فاز فى مبدء امره بجميع امانيه ولما زالت عنه فى آخر عمره تحمل هذه المحنة صابرا لقضاء الله ليكون جديرا بما منحه الله اياه او سيمنحه من السعادة الابدية والخيرات السرمدية

وبموته كادت جميع الممالك التى بايعته ان لا يكون لها وارث شرعى فقطعت ما كان بينها من العلائق والروابط ولما صارت بذلك اجزاء متفرقة صارت لا ترجو أن يكون لها ملك شرعى يجمعها كما كانت فاستعد اهل كل جزء أن يجعلوا عليهم ملكا من انفسهم وترتب على هذا الاستعداد هرج وحروب كبيرة وليس ذلك لكون الفرنج ليس عندهم رؤساء متأهلون لادارة الممالك بشرف نسبهم وشجاعتهم وسداد آرائهم

وانما مساواتهم لبعضهم فى الشرف والدرجة والشوكة كانت سببا آخر فى وقوع التقاقم والشقاق بينهم فانه لم يكن لاحد منهم مزية يفوق بها غيره حتى يذعنوا اليه وينقادوا لحكمه

تمزق الايمبراطورية

فعند ذلك تمزقت الايمبراطورية الكرلونجية وانفصلت سياسة الفرنج التودسكيين من سياسة الفرنج اللاطينيين انفصالا لا التئام بعده بمعنى انه صار لكل سياسة تخصه وبذلك تم انحلال عرى السياسة الكبير الذى ظهر بمصالحة وردون وان منع من تنجيزه واتمامه وقتئذ عقر الملكات الثمانية ومبادرة المنية باخترام الملوك الستة حيث ترتب عليهما ان الامم المتنوعة التى قامت بنفسها بموجب هذه المشارطة عادت تحت حكومة ملك واحد وذلك ان الايطاليين والفرنساوية ولوا عليهم ملوكا من بلادهم ليست قرابتهم انسل شرلمانيا محققة اوليست على عمود النسب وكان ذلك منهم اقتداء بالامم التوتونية حيث كانت عن قريب قد اجلست على سرير مملكتها ابن كرلومان ملك باويرة من الزناء ووقع النزاع فى تخت ايطاليا بين جوى دوق سبوليتة وبرنجير دوق فريول وثبت للاول منهما فى مبدء الامر ووقع نظير ذلك فى البلاد التى أمام جبال الالب حيث تقاسم رودولف دوق اكتينا واودس دوق فرنسا آراء الامة بمعنى ان كلا منهما رجحه على صاحبه طائفة من تلك الامة وان ظهر من حالها انها اجمعت على الثانى مدة يسيرة واما بوزون فانه مات بدون هرج ولا تحكم على سرير ملكه حيث عرف كيف يحميه ويدافع عنه وورثه بعده ابنه لويز واما برغونيا الترنسيورانة اى التى خلف جبل يورا فانها سرت من جسارة القونتة رودولف ولف وطمعه حيث قام بنفسه بين جبل يورا وجبال الالب البينينية ولما قلده بالمنصب بعض الاعيان والاساقفة خفية لبس تاج الملك بنفسه واراد أن يلقب بالملك على رؤس الاشهاد وفى اثناء التقلبات العامة تمكن تحت مملكة نوار على عهد فورتون وكان قد احدثه والده المسمى غرسيا اكسيمنيس من غير أن تكون له شهرة بين الناس وبالجملة فقد تجدد فى سائر الجهات ملوك صغار كما شاهده بعض اهل ذلك العصر وظهر فى هذا الانتهاب للايمبراطورية تيجان بعدد من طمع فى الولاية ماعدا وارث شرلمانيا الحقيقى

(الباب الرابع)

فى تمزيق المتبربرين للايمبراطورية الكرلونجية الى اجزاء عديدة وفى اغارات العرب والنورمان والسلاويين والمجار

اداصح

اذا صح ان اغارة المتبربرين على الايمبراطورية الكرلونجية ساعدت اكثر من غيرها من الاسباب فى اتساع دائرة الملتزمين فليس دون ذلك فى الصحة ان الملتزمين المتجددين فتحوا لاعدآء الايمبراطورية الاجانب طريقا سهلا وصلتهم الى جميع الاقاليم التى على الثغور وكان قد ظهر ان شرلمانيا بواسطة فتوحاته وكذلك بما رتبه من القوانين وقى تمدن ابناء النصرانية من خدش التبربر والتوحش فانه استرعى وادخل فى دين النصرانية بسلطته المنصورة جميع الامم الجرمانية التى كانت قد جعلت هذا التمدن قبل ذلك عرضة للخطر ماعدا الانكاسكسون والسكندناويين فان جبال المغرب كان يظهر انها مانع قوى يمنعهم أن يتعرضوا بسوء للتمدن المذكور ومع ذلك فقد ظهر من هؤلاء الامم الذين هم اهل الشمال جسارة ووقاحة حتى فى ايام فخار هذا الملك العظيم وداخله منهم الرعب والفزع وعما قليل تحقق ما كان يخشاه منهم فقد اخذت هذه الطوائف المهولة التى هى بقايا الملة التوتونية فى الهيجان والاضطراب وكان لهم انصار يشغلون ثلثمائة فرسخ من نهر اودر الى نهر ساوة وهم قبائل السلاوية وكانت حملة الفرنج على بلاد جرمانيا قد جبرتهم على ان يقفوا امام ثغور الايمبراطورية الجديدة (اى الايمبراطورية الكرلونجية) منتظرين زمنا يساعدهم على أن ياخذوا نوبتهم فى الاندفاع الى بلاد اوروبا المتمدنة والاتيان اليها كسيل العرم ولم تكن بلاد الشمال بمفردها هى التى اتى منها التبربر الى تلك البلاد بل ظهر ايضا فى الاقاليم الجنوبية من فرنسا وايطاليا وكان قد دخل قبل ذلك بمدة طويلة فى اغلب الجزائر المجاورة لهاتين المملكتين فان المسلمين ارباب التمدن بقرطبة الذين كانوا منذ مدة يسيرة يخشى منهم كثيرا على بلاد اوروبا الكرلونجية تركوا الهجوم والاغارة لارباب الصيال المتوحشين من افريقة نعم كانت اغارة الامم المتبربرة الجديدة قد تعطلت مدة من الزمن بنصرات شرلمانيا الا انها عادت الى حالتها الاولى على وجه السرعة اكثر من السابق حين افضى التفاقم والحروب الداخلية بالايمبراطورية الى زوال حواجزها ووقاياتها وكأن هؤلاء الاعدآء على كثرتهم لم يكفوا فى التثقيل على ضعفاء خلفاء شرلمانيا حتى استعدت آسيا لان تبعث الى اوروبا من اقوامها من هو اشد توحشا وقساوة وهم المجار حيث جاؤا منها لتخريب اقاليم اوروبا الداخلية التى لبعدها عن البحر لم تصل اليها اغارات ارباب الصيال من النورمان والافريقيين وقد قاومت اوروبا هؤلاء الاعدآء الكثيرين الذين حملوا عليها وما نعتهم بقوتين لا قدرة لاحد على مقاومتهما وهما تأثير دين النصرانية وقوة الامم الجرمانية فالفضل لهما فى ذلك حيث آل امر القتال

الذى استغرق قرنين الى اجلاء المسلمين عن بلاد اوروبا بالكلية وتنصير النورمان والسلاويين والمجار

(الفصل الاول)

(فى الكلام على العرب)

كان يخشى من العصابة الاسلامية منذ مدة طويلة أن تفتح بلاد اوروبا بجيوشها المنتظمة ولا شك ان هذا من اعظم الاخطار المخوفة كثيرا لو لم يمكن تداركه وذلك ان ابطال العرب الذين كان لهم غيرة شديدة على الاسلام لما ارادوا فتح القسطنطينية صدهم عنها حواجزها الطبيعية ومتانة اسوارها واسلحة المتبربرين الذين كانت تلك المدينة لم تزل تستأجرهم واما بلاد اوروبا فانقذها منهم اشجع القبائل الجرمانية التى كانت لم تزل دون غيرها باقية على جودة اصلها وطيب اسلافها فانه حين هزم كرلوس مرتيل عبد الرحمن كانت الايمبراطورية الكرلوفجية فى زمن عنفوانها وشدة بأسها الا انها تمزقت حين اتى اليها اقوام آخرون من العرب وشنوا الغارة عليها من جميع سواحل البحر المتوسط وكانت تلك الاغارات خطرة جدا حيث كانت دائما تقع على حين غفلة وربما كانت تحصل فى آن واحد

اواخر الاغارات فى اكتينيا

وكانت ايمبراطورية الفرنج ولا مانع أن نطلق عليها بلاد النصرانية الرومانية متصلة ببلاد الاسلام من ثلاث جهات وهى ايطاليا وپروونسة واكتينيا الا انه ترتب على فتوحات پيپين وشرلمانيا أن صارت جبال البرنات بالنسبة لاكتينيا بمنزلة الحصون والاسوار وصار قونتات ثغور اسبانيا محامين لها وقد وفى هؤلاء القونتات الذين كانوا حراسا لهذه الثغور بالغرض المقصود من اقامتهم بتلك المحال وان كانوا قد استعملوا شوكتهم التى قلدوا بها فيما يكون به استقلالهم وقيامهم بانفسهم فانه فى مدة مدافعتهم عن الاقاليم التى تملكوها كان من خلفهم من الامم فى امن من الاعداء المشتركة بينهم وقد اعانهم على تلك المدافعة شجعان البسكية الذين لم تفتر همتهم ولم تخمد حميتهم ولما انفصل اهل نوار من ايمبراطورية الفرنج وولوا عليهم ملوكا من بلادهم منع هؤلاء الملوك جنود الاسلام أن يجاوزوا نهر ابرة وذلك حين كان قونتات برسلونة يمحون بالتدريج آثار حكومة الاسلام من الشاطئ الشمالى من هذا النهر وكانت اغارات الاستريين فى السهل البعيد عن ذلك النهر لاسيما اغاراتهم الناجحة فى عهد الملك رامير اعظم شاغل لعساكر الاسلام عن نشر غاراتهم بتلك الجهة وقصارى الامر ان ما كان واقعا فى خلافة قرطبة منذ مدة طويلة من التفاقم والشقاق الذى كان يمزقها

ويضعف

ويضعف شوكتها منع امرآء المؤمنين أن ينتقموا من ذرية شرلمانيا في نظير ما لحقهم منه قبل ذلك من عار الهزيمة ولو اتفقت كلمة المسلمين باسبانيا ولم تفترهمتهم عن الحرب في اثناء الخلل الذي اضطربت به ايمبراطورية الفرنج لافضى ذلك بالايمبراطورية المذكورة الى الدمار والانقراض لكن كان في الغالب يخرج عن طاعة الخلفاء امرآء عصاة كما كان كذلك ملوك الفرنج حيث كان قونتات الثغور يخرجون عن طاعتهم ايضا فقد وجد عبد الرحمن الثاني عدة من الفرنج تحت اعلام موسى الخائن الذي كان خرج عن طاعته (سنة ٨٤٧) وكذلك كرلوس الاصلع فانه لحقه غيظ شديد حين اقتضى الحال ان يتصدى لقتال الاسلام وقت أن كان شارعا في قمع بيبين الثاني ملك اكتينا وغليوم دو برسلونة فلم يقدر هذا الايمبراطور النصراني على منع المسلمين من تخريب اكتينا حين كانت سفنهم تصعد في نهر الرون الى ارلس لاخذ ما غنموه من هذه المدينة التي كانت لم تزل باقية على رونقها وبهجتها وكان ذلك آخر نجاح الاسلام في البلاد التي أمام جبال البرنات فانهم اضطروا الى مجاوزة هذه الجبال ثانيا مع غاية السرعة حتى لم يمكنهم المدافعة عن غليوم قونتة برسلونة في مدينته التي كان فتح لهم ابوابها بخيانته بل مات هذا العامل على المشنقة وبعد ذلك بسنتين حضروا تحت قيادة عبد الكريم ليعاقبوا اهل هذه المدينة على عدم منعهم لهذا القتل (سنة ٨٥٢) لكن برسلونة من يومئذ صارت تعارض قواهم بمانع لم يمكن الظهور عليه وفي (سنة ٨٦٤) انعقدت مشارطة عاد بها الصلح بين كرلوس الاصلع ملك فرنسا والخليفة محمد الاول فالتزم فيها ملك فرنسا انه لا يعود الى اعانة من يخرج عن الطاعة من نصارى اسبانيا ونزل الخليفة عن حكومة برسلونة وغيرها من المدن القتالونية فلم يتصد عرب اسبانيا من وقتئذ لمحاربة ملوك فرنسا محاربة مستمرة مع الانتظام وان كانوا غير مرة اغاروا اغارات وقتية أمام جبال البرنات فقد هاجر فروتير مطران بردو (سنة ٨٧٦) وهاجر بعده اسقف دكس وتركا برشيتهما ليتخلصا من الاخطار التي كان يخشى منها على ارباب الثروة من القسوس اكثر من فقرآء رعيتهم

الاغارات في بروونسة

ثم انه في الوقت الذي انقطع فيه تنغيص المسلمين على الاقاليم المجاورة لجبال البرنات صارت اقسام اخرى من الايمبراطورية الكرلوفجية معرضة لتخريب ارباب الصيال منهم اكثر من قبل فليس عرب اسبانيا بمفردهم هم الذين كانوا يخربون سواحل بروونسة وايطاليا بل عاد ارباب الصيال من افريقة للتنغيص على ركاب البحر

المتوسط منذ تغلب الوندليون على مدينة قرطاجة التى كانت خصما قويا لرومة بعد أن نظف منهم هذا البحر بهدم قرطاجة ولما ادخل العرب الساحل الافريقى بتمامه تحت حكومتهم انتشر صيالهم فى البحر والصحراء فانقطع من يومئذ ركوب البحر على التدريج وخلت السواحل من المحامين فلما انقطعت بذلك علائق التجارة اضطر ارباب الصيال المذكورون الى البحث عن الغنائم فى السواحل عوضا عن أن ينتظروها حتى تمر عليهم

وقد استولى العرب ايضا من مبدء الامر على جزائر البحر المتوسط الكبيرة التى كانت اول محل خلا عن المحامين نعم قد انقذها منهم شرلمانيا الا انها لم تمكث على ذلك مدة طويلة كما طالت مدة شوكته بل عاد العرب ثانيا (سنة ٨١٠) الى جزيرتى قرسقة وسردينيا واستوطنوا بهما وكان سلبهم لمدينتى نيسة وسنتوسيلة الذى نغص على هذا الامبراطور عيشه فى اواخر ايامه دليلا على انه سيلحق المنصب الامبراطورى اساءة عظيمة فقد حصل (سنة ٨١٥) بعد موت شرلمانيا بسنة انه جاء الى اكسيلاشبيلا وفود من مدينة كغلياري يطلبون من لويز دبونير حماية مدينتهم من العرب الذين كانوا يهددونها * هذا ولا نعلم انه اجابهم لما طلبوه واسعفهم بالحماية وعلى فرض ثبوتها تكون هينة واهية فان سفن جزيرة سردينيا اذ ذاك كان لا يمكن أن تجتاز البحر الذى بين هذه الجزيرة وايطاليا من غير أن تكون عرضة للخطر وكان ضياع السفن التى كانت تقع فى ايدى الصائلين موجبا لتأسف ارباب ديوان لويز المذكور وتحسرهم على هذه الخسارة وكان ذلك منهم لا ثمرة له غالبا لضعفهم وعجزهم ومع ذلك فقد اشتهرت السفن الكرلونجية بمشروع عظيم نجحت فيه بهمة مركي من طوسكانة يقال له بونيفاس ضم الى حكومته جزيرة قرسقة التى كان تغلب عليها منذ قليل قونتة جنويزة وذلك ان بونيفاس هذا عزم مع اخيه بيرارد على البحث عن ارباب الصيال ولوفى اوجرتهم اى المحال التى يأوون اليها فنزلا اولا بجزيرة سردينيا فوجدا فيها جماعة من اصدقائهم البحرية فكانوا ادلاء لهما فى توجههما الى الساحل الافريقى فلم يزالا حتى خرجا بمن معهما من الفرنج بين اوتيكة وقرطاجة فلما احس المغاربة بهم اتوا مسرعين الى الساحل فوقع بين الفريقين خمس وقائع كان الظفر فيها للفرنج ولكن ماذا يصنع هؤلاء الشجعان القليلون مع اعداء كثيرين لا يحصون عددا و يتجددون على الدوام و بالجملة فلم تكن هذه الغزوة الافريقية الا حملة جاسرة وتجربة ممدوحة فى الانتقام من العدو ولكن عما قليل اخذ العرب ثار ذلك من سواحل فرنسا

وحين

وبين خرب المسلمون دير ليرين ومحقوا القبائل المرسيلية وهى قبائل انتبوليس وهرقلية واولبية كان قد مضى على اقليم پروونسة فى التاريخ قرن لم يذكر فيه بشئ وذلك لان اساقفته كانوا فى هذه المدة لا يحضرون الجامع القسيسية ولم يظفر بحكامه فى موطن من مواطن التاريخ اصلا ما عدا دوقات ارلس فكأن هذا الاقليم لم يكن له وجود بالكلية او كان غير جدير بالتفات الملوك والمؤرخين اليه وهل يصح ان قبيلة فوسيا التى زاحمت قرطاجة سابقا على سلطنة البحر المتوسط يمضى عليها زمن يكون شغل فكرة الملوك جغرافيه اقل من شغلها بقرية من قرى طورنجة او جفالك من جفالك سواحل نهر الرين مع انها فى الواقع كانت كذلك وما يوجد فى تاريخ شرلمانيا وذريته من التعرض لذكر مرسيليا فى بعض مواطن قليلة متفرقة فذلك الا للدلالة على سخاء اتقياء ملوك النصارى وانعامهم على رهبانها او على سلب الخوارج لكنائسها واما مدن نربونيزة الثانية فلم نقف لها على ذكر لا فى وثائق ذلك العصر المعتمدة ولا فيما اثبته كتاب الوقائع السنوية بل ولا فى امضاآت ارباب الجمعيات القسيسية

ويستدل بعدم التعرض لذكر تلك المحال على احد شيئين اما على ان ساحل البحر المتوسط صار قفرا حتى فى داخل الاراضى منذ هزم كرلوس مرتيل المسلمين من غير أن يمكنه تدميرهم او على ان هؤلاء المسلمين كانوا يومئذ يشغلون الساحل الممتد من مدينة طولون الى نيسة ولكن هذا الاخير مخالف لما اثبته كتاب الوقائع السنوية حيث جعلوا (سنة ٨٨٨) هى الوقت الذى عاد فيه عرب اسبانيا وافريقة الى نهب اقليم پروونسة ولكن هل يصح ان اول اغارة وقعت منهم كانت فى مرسيليا وانما الاوفق أن يقال ان مؤرخى ذلك العصر لم ينصوا الا على اغاراتهم على اكبر مدن هذا الاقليم وهما مرسيليا وارلس وقد نهبت اولا هما مرتين فى سنوات قلائل على ما ذكره راهب سنت برتين الذى مع بعده عن هذه المدينة بما تين وخمسين فرسخا جمع ما اشتهر فى شأنها من المبالغات وهنالك بعض اخبار عن اهل پروونسة اقرب للصحة مما ذكره هذا الراهب مفادها ان العرب طردوا اولا من وادى سبون وكانوا قد نزلوه عن قريب وبعد ذلك بعشر سنوات حرقوا من ضواحى مرسيليا دير سنت وكتور ودير سنت سوور ومثلوا بمن كان فيهما من الراهبات

واما مدينة ارلس فكانت كمرسيليا عرضة لخطر الاهانة والاضرار فان جزيرة كمرغة عوضا عن ان تمنع ارباب الصيال عن دخول نهر الرون اتخذوها محلا لقواهم واسلحتهم لاجل الاغارة والهجوم وملجأ لهم عند حلول النكبة بهم والظاهر انهم

توطنوابها (سنة ٨٤٢) حين جاؤا اول مرة ونهبوا ارلس التى لم تجد حينئذ من المحامين من يمانعهم ويصدهم عنها واما ماحصل لها بعد ذلك ببعض سنوات فكان الامر فيه بخلاف ذلك على ما فى سجلات المدينة من ان البطل جيرارددرسليون افتتح ماوقع منه من السطوات بنصرة على العرب حيث هجم عليهم فى مونتماجور وطردهم عن معسكر حصين لم يزل الى الآن ترى آثاره على تل قرطبة ولم يترتب على ما احدثه المطران رولند فى كرغة من الاستحكامات لاجل صد النورمان والعرب الا اطمئنانه الذى افضى به الى الهلاك ومع ذلك ستشهر الرون من ذلك الوقت على المسلمين فظهر من حالهم انهم وجهوا هممهم الى الجزء الذى تكون منه الآن مأمورية وار من پروونسة ثم ان اغارات المسلمين كانت سببا فى انتخاب بوزون ملكا حيث جعلته ملاذا للناس يفزعون اليه عند الضرورات العامة التى تحلل الاقتيات الكبير وتجعله جاريا على الاصول الشرعية وكانت سببا ايضا فى تولية جمعية بلنسية القسيسية لابن بوزون حيث البسته تاج پروونسة (سنة ٨٩٠) ومما ينبغى التنبيه عليه ان مطران اكس واتباعه من الاساقفة لم يحضروا هذه الجمعية التى حضرها جميع مطارنة سيزيورانة اى البلاد التى امام جبل يورا فان عدم حضورهم فيها اقوى فى الدلالة على خراب پروونسة من الجمعية المذكورة

وقد اخترمت المنية كلا من البطلين اللذين حميا الى ذلك الوقت سواحل پروونسة وهما جيرارد درسليون وبوزون فاما الاول فانه حكم على نفسه بموت الرهبانية فى ديره بمدينة ويزيلاى (ومعناه العكوف فى الدير مدة الحياة) هكذا كان بقاؤه على قيد الحياة بعد هزيمته ونفره واما الثانى فترتب على موته حتف انفه مجىء المسلمين ثانيا الى سواحل فرنسا ولم يكن ذلك منهم ليخربوها تخريبا وقتيا بل كان بقصد الاستيطان فيها كالفاتحين المالكين هكذا كان وقوع هاتين الحادثتين اى موتهما واستيطان المسلمين تلك السواحل فى سنة واحدة وهى (سنة ٨٨٨) فهو كاذكرناه قطعا ما لم يجر على ماذهب اليه المؤرخ لويتبرند من ان استيطان المسلمين فى ايمپراطورية شرلمانيا انما هو بقذف الرياح لهم على تلك السواحل

الكلام على قبيلة فركسينيت من (سنة ٨٨٨) الى (سنة ٩٧٢)

وذلك ان هذا المؤرخ زعم ان عشرين رجلا من العرب سافروا من اسبانيا فى مركب صغيرة فقذفتهم الرياح على ساحل پروونسة فهجموا على قرية فركسينيت واستولوا عليها بعد أن ذبحوا جميع اهلها وكانت هذه القرية حصينة منيعة مستندة الى غابة متسعة سميت باسم هؤلاء المغاربة النازلين بها فرأوا انها

تليق لأن تكون موطنا للصائلين ولما رأوا ان اهل تلك البلاد قاموا على بعضهم عقب انفصام الروابط وانقطاع العلائق الاهلية حيث كان يقتل بعضهم بعضا ويسلب بعضهم بعضا دعوا غيرهم من العرب الطوائفة ووعدوهم بسهولة الفتح فصاروا يزدادون فى كل يوم حتى كثروا جدا بتلك البلاد واعانوا اهلها على اعدام بعضهم بعضا وتصيير اراضيهم الخصبة صحرا آقفرة فكان التخريب والقتل والهدم واسطة فى انعزال تلك القبيلة وانفرادها عن غيرها من جهة البر فى مدة ما كان البحر مفتوحا من جهتها دائما

ومن يومئذ دخل جزء عظيم من پروونسة تحت الحكومة الاجنبية ومن المعلوم انها كانت تشتمل على بعض اصول من اصول الادارة والظاهر انها كانت جمهورية عسكرية لكن لا يدرى هل كان لقبيلة فركسينيت رئيس واحد اولا ولا يعلم ايضا هل كان هذا الرئيس يوليه خليفة قرطبة او ملوك افريقة ولا يعرف هل نقل عرب پروونسة دياناتهم وقرآنهم الى سواحل فرنسا اولا وهل تزوجوا بنساء من تلك البلاد كما قاله بعض قدماء المؤلفين اولا فان مؤرخى الاسلام لم يعرفوا فتح العرب لپروونسة اصلا وكذلك كتاب الوقائع السنوية من الفرنج لم يعرفوا فى شأنهم الا بعض امور قاسية غير متتابعة ولا منتظمة فمن العجيب انه لم يمكنا ان نذكر اسم احد من رؤساء هذه الجمهورية العسكرية التى مكثت فى جزء من بلادنا نحو قرن تقريبا

هذا ولو بقى فى مدينة فريپوس زمن فتح العرب لهذه البلاد بعض آثار من عزها القديم لكان وضعها فى مدخل الجبال ومدخل وادى ارجان يحمى داخل الاراضى ويمنع نجاح القبيلة المذكورة وتقدمها من مبدء الامر لكن كانت اسوارها قد تهدمت فلم تق المدينة من نيران العرب المضطرمة وبادرت السفن الرومانية التى كانت على مينائها بالفرار لتنقذ نفسها من هذا الحريق ولا شك ان هذا كان آخر خروج السفن من الميناء المذكورة التى صارت من هذا العهد محلا للجروف التى يكونها التيار والقيوف التى تكونها رمال البحر المتوسط وترتب على خراب هذه المدينة أن صارت الطرق الضيقة الموصلة لايطاليا خالية عن الحامين ففى نحو (سنة ٩٠٢) جاوز عرب فركسينيت جبال الالب البحرية وافزعوا ايطاليا بحرق مدينة أكى وعدة مدن اخرى ولم يجسر احد على مقاومتهم فكان لا يوقع فى قلوب الاهالى بعض امن واطمئنان الا المحال المحصنة تحصينا متينا

ولما نزل العرب بجبال الالب عرفوا لها منفعة عظيمة بالنسبة اليهم لانهم وجدوها واسطة فى تخريب ايطاليا وبرغونيا بل وسوابة باغاراتهم عليها على حين غفلة

وملجأ آمنا يأوون اليه اذا لحقتهم نكبة الهزيمة فمكثوا اكثر من خمسين سنة وهم شاغلون لجميع مجازاتها فانقطعت بذلك علائق التجارة من بين الملل الثلاث الكبيرة التى يفصلها عن بعضها تلك الجبال وفتك هؤلاء العرب بعدة قوافل من زوار النصارى كان اغلبهم من الانكلسكسون وكان ذلك قبل أن يبدو لهم أن يجعلوا مغرما يقتدى به من تحمله الديانة من النصارى على المخاطرة بنفسه ويذهب الى رومة ليبحث عن الغفران الذى هو اعظم عندهم من جميع الخزائن وشغلوا امدا طويلا دير سنت موريس الحصين الذى كان يعتبر كانه قاعدة برغونيا الترنسيورانه ولم يزل يرى بجبال مختلفة من هلويسيا وپروونسة آثار توطن المسلمين بها * وماذا تكون حالة تمدن اوربا لو صعد نورمان نهر الرين فى هذا النهر حتى وصلوا الى منبعه واجتمعوا على جبل سنت غوتارد بالعرب والمجار الذين كانوا وصلوا اليه من حياض نهرى الرون ودانوب وتحالفوا جميعا على محق دين النصرانية ومحو اثره بالكلية ولكن لو فرض حط هذا الدين لم يحصل ذلك بل الجبال التى كان يمكن أن تكون واسطة فى اعدامه كانت واسطة فى نجاته فان تلك الجبال التى هى بمنزلة حصن من الصخور اقامه الله تعالى فى وسط اوربا محى تحت سفحها تبربر الافريقيين وشدة قسوة الآسيين

وكان نزول المسلمين بجبال الالب مانعا غير متوقع من تنجيز مقاصد ملوك البرغونيين التى توارثوها عن بعضهم فى شأن ايطاليا واعان كل الاعانة فى حل عرى المذهب الالتزامى بمملكة ارلس فانخدشت بذلك اطماع الملك هوج انخداشا شديدا وكان سعيه فى اعدام قوة العرب النازلين بتلك الجبال هبا منثورا وقد دل ما ابداه من الاحتراسات لينجح فى هذا الغرض على قوة شوكة هذه القبيلة الاسلامية ومزيد اعتنائه بتدميرها وكيف لا يداخله الرعب والفزع وهو زيادة على الاخطار التى كان يخشى منها على ايطاليا من امراء صقلية كانت مملكتاه منفصلتين عن بعضهما بعرب فركسينيت وجبال الالب بل كان انفصالهما بهما اشد وانضم لذلك ايضا انتشار المسلمين فى هذه السنة بعينها خارج الثغر الهلويسى وكذلك ما اوقعه ثانيا احد رؤسائهم المسمى سعيدا من تخريب البلاد حتى وصل الى اسوار مدينة آكى وسلب المراكب الافريقية اموال جنويزة بعد قتل اهلها

ولما عزم هوج على أن يقهر العرب ويتغلب على فركسينيت مأواهم طلب الاعانة من دولة القسطنطينيه لما انها كانت من بين الدول النصرانية هى التى يمكن لسفنها أن تقاوم المسلمين بجراوتا كدما بينه وبينها من المعاهدة التى كانت تؤذن

بتدمير

بتدمير القبيلة الاسلامية بتزويج بنته بيرتة لحفيد رومانوس الاول قيصر هذه الدولة وفى الحقيقة ان هذه السفن اليونانية احرقت اغربة المسلمين (اى سفنهم ذات الشراعات والمجاذيف) فى جون سمبرستان بنارها التى كانت تصيرها مهولة لاضطرامها وعدم خمودها وتغلبت عساكر هوج على حصن فركسينيت الذى تركه العرب (سنة ٩٤٢) حين رأوا البحر قد سدّ عليهم حتى صار لا يمكنهم ركوبه للهرب والفرار ولا يصل اليهم منه مدد ولا اعانة لكن لم يتجاسر هذا الملك على ان يتتبع عدوه فى غاية المغاربة حيث كان لا يمكن سلوكها فرأى ان الاصوب محالفة هؤلاء العرب الذين لم يكن فى وسعه تدميرهم فانه لو تصدى لاقتفاء اثرهم لكانت شدة مقاومتهم تفوت عليه تاج ايطاليا عدة سنوات ففرض عليهم المعاهدة على ان يدافعوا عن جبال الالب الهلويسية خصمه برنجير فانه كان يستعد فى سوابه للاغارة على ايطاليا فعاد العرب الى فركسينيت وترتب على ما كان واقعا يومئذ بين الملوك من المشاجرات أن صاروا يسلبون وينهبون فى جميع سلسلة جبال الالب مع الحرية وعدم المعارضة ولم يمنعوا برنجير عن الذهاب الى ايطاليا لمزاحمة غيره على التاج الحديد ولما جاء على هذا الامير ايام مشؤمة آوى العرب ولده المعزول عن سرير الملك وانزلوه فى فركسينيت مرتين وامدوه بالاعانات والاسعافات ليقاتل بها اقوى ملوك المغرب

ثم ان خليفة هوج فى مملكة ارلس وهو كونرادلو باسيفيك اى محب الصلح كان جديرا بهذا اللقب وان كان غير ممدوح فى ذلك العصر فان العرب فى ايامه حفظوا اغلب نزلاتهم مع ما كانت عليه امه من النباهة والنشاط والشجاعة فدل ذلك على صدق المثل المشهور وهو قد يعثر الجواد وكانت هذه المملكة قد بنت لاجل مقاومتهم برج جورز الذى لا ابواب له وعدة حصون اخرى لم تزل آثارها باقية الى الآن وقد نجح كونراد حين هجم عليه مسلمو بروونسة وونيو المجار فى آن واحد وظهر عليهم حتى كاد يمحقهم عن آخرهم وكان ذلك بمكيدة حربية يمكن انها وقعت منه بالصدفة والاتفاق وذلك ان بعض امنة المؤلفين الذين يأخذون الاشياء قضية مسلمة ذكر ان كونراد اوقع الفتنة بين هاتين الامتين المتعاديتين فوقع الحرب والقتال بينهما حيث خادعهما بمواعيد متناقضة فى شأن المعاهدة مع كل منهما وانه بعد هذه الواقعة التى اضمحلت بها قواهما اباد من بقى منهما ونجا من القتل اولا من غير أن يخشى من ذلك خطرا او يكسبه فخرا

هذا ولا مانع ان ملتزمى مملكة ارلس الذين كانوا يومئذ مشتغلين بتمكين استقلالهم

نسجوا بمعاهدتهم مع العرب على منوال القونتات الفرنساوية حيث انضم هؤلاء
الملتزمون الى العرب كان القونتات المذكورين دخلوا تحت حماية ارباب العيال من
النورمان لما وجدوا فى ذلك من الامن على اقتنياتاتهم من غير أن يخشوا ضررا وكان
بعض هؤلاء الملتزمين يسعى فى مصلحة نفسه مع الشرف واجتناب ما يزرى به حيث
جدّ فى تلك المملكة ولايات بطرده للعرب من القرى والاخطاط بل ومن الاقاليم
ولم يعول فى ذلك الا على سيفه مثل ايزارن اسقف جرنوبل فانه فى (سنة ٩٦٥)
انقذ ابرشيته العظيمة من العرب حيث اجلاهم عنها واعانه على ذلك اتباعه وفرقة من
الفرق الطوّافة بالبلاد اتت اليه من اقطار شاسعة لتأخذ لها بنصيب من القرى
والاراضى التى وقع فيها التوزيع حينئذ مكافأة لها على ما ابدته فى هذا المعنى من
الشجاعة وكذلك بعض الابطال حيث ايقظ فى قلوب البروونسيين النفرة والكراهة
للحكومة الاجنبية وهم سنت بوبون اسقف سترون الذى حارب المسلمين بسيفه
ولسانه وبونيفاس دوكستيلانة الذى ترك لذريته مخلفات فاخرة اخذها من العرب
وجيبالين دوغريمادى الذى لا تزال تذكر سطوانه مقرونا بذكر الجون والقرية اللذين
لم يزالا يسميان باسمه والقونتة غليوم الذى فاق هؤلاء الابطال الذين اسماؤهم
عزيزة محترمة عند اهل بروونسة حيث تمم صنيع كرلوس مرتيل باجلائه
عن سواحل فرنسا اعظم المسلمين شدة وقسوة فكان جديرا بان يلقب
بابى الوطن مع ان ذكره الآن يكاد يكون مجهولا فى نفس الاماكن التى
اكتسبه فيها

اجلاء العرب (سنة ٩٧٢)

وقد لحق اهل بروونسة حنق شديد حين بلغتهم اساءة العرب لاحد مشاهيرهم وهو
ميول دوولنسول الذى وصل بمعارفه وديانته الى الرياسة على دير كلونى وذلك
ان هذا الرجل العظيم قبض عليه العرب وهو راجع من رومة ولم ينقذ نفسه منهم
الا ببذل اموال جسيمة نفدت بها خزينة ديره فترتب على هذه الحادثة المحزنة هرج
عظيم بين اهل بلاده وتشوّف البروونسيون لاخذ الثار من العرب فى نظير تلك الاساءة
وكان ذلك مساعدا لاهتمامهم بانقاذ بلادهم الذى بعثهم عليه محبتهم للوطن فجمع
غليوم تحت اعلامه باعانة اخيه رتبولد جميع الملتزمين الذين كان كل منهم يقاتل
على حدته لاجل حماية التزامه او توسيعه فتبدد شمل القبيلة الاسلامية باخذ
فركسينيت (سنة ٩٧٢) ولم يبق لها اثر فى تلك الجهة كأن البحر ابتلعها مع من بقى
من المقاتلين الذين كانوا يدافعون عن هذا الحصن ومن هذا الوقت صار التاريخ
لا يتعرض لذكر عرب جبال الالب وضاعت قوة هؤلاء المسلمين وجسارتهم حين

صاروا

صاروا لا يرون بينهم و بين البحر الا الاعداء بل تنصر اغلبهم لينقذ نفسه من القتل اوالاسر هكذا كان انقاذ بلاد الغلية القديمة من اقامة المسلمين بها الذين جعلوا دين النصرانية عرضة للخطر ومحوا من بعض الاقاليم جميع آثار التمدن بعد أن مكثت تلك البلاد نحو قرنين ونصف وهى تقاسى شدائد التخريب وتتجرع غصص التنكيد والتعذيب

ومن وقتئذ صار اهل پروونسة لا يخشون بأس العرب ولا يخافون صولتهم فى مشروع كبير غيران كثرة اغاراتهم على ساحل پروونسة الذى لم تكن حمايته على ما ينبغى عطلت اتساع دائرة العز والفلاح فى هذا القطر العظيم لاسيما اراضى مدينة طولون فانها مازالت تكابد المشاق من هجوم ارباب الصيال من الافريقيين حتى نقل لويز الرابع عشر الى هذه المدينة ترسانة البحر المتوسط وحفر مينـاها العظيمة التى خرج منها دونمة كبيرة ابادت ارباب الصيال المذكورين فى مأواهم الذى كان مخوفا أكثر من غيره

ولما انصرف العرب تركوا وراءهم اراضى قفرة الا انها لما كانت مروية بكثير من الخلجان ومسخنة بشمس ايطاليا ومحفوظة من رياح الشمال بوقايات عديدة من الجبال كانت لاتحتاج الا لمعاناتها ومزاولتها حتى تسترها زروع المشرق الكثيرة فكان هذا الوقت مبدأ لزمن آخر لاحياء اراضى پروونسة بل لامانع أن يقال لايجادها واحداثها فشوهد حينئذ فى تلك الاراضى تولدات عجيبة نشأت من فن الزراعة وكان الليغوريون الذين يميلون بالطبع لكثرة الشغل والممارسة قد تركوا انموذجها لذريتهم وذلك ان من بقى من قدماء الاهالى الذين التجأوا فوق الجبال نزلوا بالتدريج فى الاودية وترك الفلاحون منهم ما كانوا يزرعونه عليها من الاراضى القليلة المحصول التى كانت لاتفى بكدهم وتعبهم فعما قليل تدحرجت الاتربة التى كانوا يحجزونها عن الهبوط بمواظبتهم على الشغل ونزلت من جوانب تلك الجبال المنحدرة ومن خلال الصخور الى اسفلها فانكشفت الاحجار الكلسية والصوانية بعد أن كانت منذ قليل مزينة بخضرتها وزروعها

ولكن لما كانت الاهالى فى عهد العرب تتناقص كل يوم بعقم الارض وعودها الى طبيعتها الاصلية لعدم تعهدها وخدمتها وكلت الهمم عن ان تظفر بجميع الموانع التى ظهر منها ان زراعة هذه الارض الصوانية الوعرة من حيز المستحيل جمع الفاتحون الذين انقذوا تلك البلاد بين ثمرات الفتح واصول الحياة التى لاتنجح الزراعة الابها وتلك الاصول هى الدين والحرية والشغل ومحبة الاجتماع ولأن تفسر الاصول المذكورة

بالفرق الدينية والفلاحين المعتقين واجتماع الناس طوائف وجماعات فترتب على ذلك تقسيم الاملاك والاراضي الذي اتسعت دائرته جدا في بلاد پرونسة وكانت هذه القسمة امرا ضروريا اقتضته طبيعة الاماكن ولم تكن بمقتضى القانون الشهير بين ارباب فن الفلاحة المتقدمين والمتأخرين

وقد سبق لك قريبا اسماء مشاهير من انقذ پروونسة من ايدى العرب ويلزم أن نضم الى كستيلان وجريمالدى القبيلة الوتميلية والبونتاويزية وقدماء ويقونتات مرسيليا وعشائر اخرى كانت في سابق الزمان ذات شوكة وصولة فاستولت بسطواتها على التزامات واسعة لاسيما غابة المغاربة الكبيرة التي لم تزل سفوح تلالها قابلة لما تقترحه القرائح من الفنون التي تلايمها والمنزل كونراد لوباسيفيك للقونتة غليوم واخيه القونتة رتبولد عن جميع الاراضي التي اخذت من العرب كانت لهما بمنزلة الكنز يبذلان من خيراتها ما يستميلان به العمال ويجعل قواهم العسكرية ونفوذ كلمة الاحبار مرتبطة بدولتهما اشد الارتباط ورخص لجريمالدى أن يسير سفنه في جون سنت ترويز بتمامه وحظى بقونتية انتيبة على ما قيل ويقال ايضا ان حربيا آخر يسمى رودوارد اعطى بلاد غراسة واليه ينسب قونتات هذه البلاد الحاكمون بها واصلهم القديم ونال ملتزمون آخرون نظير هذه الانعامات ولما خرج المسلمون من بلاد فركسينيت واخذت بلاد طولون في العمار بالسكان والقبائل صار كل انسان يغير على الاراضي ولا يستشير في ذلك الا قوة نفسه ولا يعتبر الحدود التي وقع عليها الاتفاق فترتب على ذلك مشاجرات شديدة بين ارباب الشوكة والصولة فمن ذلك ذهب غليوم وبقونتة مرسيليا وبونس دوفوس ملتزم هيرة الى قونتة پروونسة وقالا له ايها الامير ها هي ارضنا قد خلصت من المسلمين وصارت بين يديك بانعام الملك كونراد فنترجاك أن تذهب اليها بنفسك وتقيم الحدود بين القرى والقلاع واملاك الكنيسة

وحين وزعت الاراضي الخالية عن الملاك لم ينس القسوس بل كان لهم فيها نصيب فبذلك صارت غنيمة المسلمين وقفا للكنائس والاديار وعد ذلك من انفع المصالح وتجدد في هذا الزمن بين الرهبان ترتيب عظيم به عادوا الى قانونهم الاول واوجب عليهم الشغل كوجوب الصلاة ولاشك ان سنت مايول الذي تقاسم فخر هذا الترتيب مع اوديلون لم يترك لداء البطالة الرهبان الذين دعاهم الحدير جزيرة ليرين وما الحق به من الاماكن وكان البابا بنوا السابع اناطه بتنظيمه واصلاحه وكان لدير سنت وكتور لمرسيليا نصيب في انعامات القونتة غليوم التي عمت

جميع طوائف الرهبان باقليم پروونسة واما دير مونتياجور الذي كان قد تجدد عن قريب ببلاد ارلس فكان اصل ما حازه من الثروة في المستقبل ما اعطيه وقتئذ من الاودية العديدة التي كانت بورا ثم تخصبت بهمة اهله واعتنائهم وكان اسقف فريتوس احق من غيره من احبار مطرانية اكس بانعامات هذا الفتوح حيث قاست ابرشيته كثيرا من تخريبات المسلمين ووجد ريكولف رئيس كنيسة مونتياجور حين دعى الى ادارة هذه الكنيسة في انعامات غليوم ما اعانه على اعادة هذه المدينة اعني مونتياجور واقامة اطلالها وعلى بناء كنيستها الكبرى ثانيا

ولما تملك امرآء القسوس والملتزمون على حين غفلة التزامات واسعة دعوا الى جوارهم الاجانب الذين رضوا بتحمل التعب والمشاق في احياء الموات فعما قليل ترتب على ما فرضه عليهم هؤلاء الملتزمون من الخراج الهين وتمكينهم اياهم من الحرية ان انقذت تلك القبائل ذات القوة والشجاعة نفسها مما عليها للملتزمين من الحقوق او خففت ما عليها لهم من التكاليف فبذلك تكونت طوائف صغيرة عديدة من ابناء البلد بنفسها الا بواسطة احد من غير الزام بتكاليف ولا خروج عن الطاعة وكان ذلك في وقت كانت فيه فرنسا الشمالية تلمح مع المشقة ظهور الحرية المدنية في اعظم امصارها وكان نشاط هؤلاء الطوائف وارباب الزراعة يكاد أن يكون برمته في معاناة الاراضي وكان اهم شيء عندهم فتح مسالك من واد الى آخر خصوصا جمع المياه التي كانت منذ مدة طويلة متروكة على جريانها الاصلي فانهم ضموها الى بعضها ليوجهوها الى المنحدرات القحلة او السواقي الضرورية في الزراعة

ولم يزل هؤلاء الفلاحون اصحاب الاملاك الذين لم يذوقوا مرارة الحكم الالتزامي على محبة الشغل والقناعة اللذين هما فضيلتان ضروريتان لهم فانهم كانوا لا يعرفون ذل الاستعباد الذي ما زال في ارياف فرنسا القديمة وشغل بالهم بالمسلمين وتذكرهم اياهم اعان كثيرا على تقوية حميتهم الدينية التي لم تفتر بما كان قد عراهم منذ قليل من الضنك والضيق الشديد ولم تزل هذه الذكرى في پروونسة بين الطوائف التي هي من سابق الزمان اكثر من غيرها جهالة وخلو بال فانه لا احد من هؤلاء الفلاحين الا وقد لطم بفاسه ولو مرة في عمره بعض الاحجار العريضة المدفون تحتها الافريقيون (اعني العرب) الذين كانوا يحكمون پروونسة واذا سأل السياح عما يلمحه على الجبل من الاطلال يجيبه النساء والصبيان بقولهم هنالك كانت قريتنا في زمن العرب وفي الغالب ترى في وسط تلك الاطلال زاوية يسكنها زاهد من عباد النصارى وكانت

فى سابق الزمان كنيسة للقرية التى لم يبق لها وجود وكانها معدّة لحماية ترى الاقدمين الذين تأتى ذراريهم لزيارتهم كل سنة فى يوم عيد خط الخورى الذى يذكرهم هذا الواجب ويقدمون دائما قبل هذه الزيارة التى هى تذكار لوطنهم القديم العالى فيها مسراتهم وانشراح صدورهم ويحيهم فيها الحان آلة من آلات العرب وربما زادها رونقا وبهجة ما يحصل فيها كثيرا من الرقص المطابق لانغام هذه الآلة وهذه المواسم الدينية وما فيها من الفرح والطرب هى اقوى دليل على حكومة الاجانب بتلك البلاد وعلى انها تخلصت من ايديهم على وجه فاخر

الكلام على العرب فى سيسليا فى سنة ٨٢٧ وغيرها

ثم ان عرب افريقة قبل أن يرتبوا فى جزيرة سيسليا حكومة القيروان بمدة طويلة تظاهر عرب آخرون على سواحل هذه الجزيرة وشغل احد رؤسائهم كلابرة واقام بها بعد عدة وقائع سفكت فيها دماء كثيرة وكانت اطماع ارباب الصيال وامراء افريقة فى سيسليا اشد منها فى جزيرتى سردينيا وقرسقة واما كون هذه الجزيرة الخصبة لم تقع فى ايديهم الابعد هاتين الجزيرتين فذالك لان الكون قياصرة اليونان اعتنوا بشأنها وعدّوا التملك عليها من اهم الاشياء حيث كانت دولة القسطنطينية تستعين بها على قمع المدن البحرية من بلاد اليونان الكبرى وكان عند البطارقة الذين يحكمون عليها وسائط قوية لاسيما فتنهم العديدة التى كانت تزيد فى قوة هذه الوسائط

وكان قد ترتب على فسق رودريق ملك اسبانيا استيلاء العرب على تلك المملكة وقد انضم الى هذه الرذيلة طمع ناشئ عن عدم الحزم والتبصر فكان سببا فى فتح ابواب سيسليا للمسلمين وذلك ان رجلا من رؤساء الرومانيين المسمين تريبون يقال له اوفيوس تزوج بنتا كانت قد نذرت نفسها لله تعالى طامعا ان القيصر مخاييل الالكن لا يجسر ان يؤاخذ انسانا بجرم غيره فان هذه الفعلة الفاحشة المخلة بالدين انما تنسب لها دونه والقيصر نفسه هو اول من سن تلك السنة السيئة ولكن صدر امر من القسطنطينية بمعاقبة هذا الجانى بكل ما تقضى به الشريعة من العقوبات الشديدة فعند ذلك اضطر اوفيوس الى المهاجرة من سيسليا غير انه طمع ان يعود اليها سيدا حاكما فذهب الى ملك القيروان الاغلبى لهذا الغرض فحمله الطمع فى ان يرد اليه من ذلك جزية وخراج عظيم على اجابة اوفيوس فجعل تحت تصرفه مائة سفينة وعشرة آلاف مقاتل ليعينوه على اخذ منصب القيصرية وكان امر هذا المشروع من نجاح او غيره موقوفا على ما تراه مدينة سراقوسة فى هذا الخصوص من اعانة احد الفريقين وكان هذا المفتات قد جعل بينه وبينها مراسلات ومكاتبات

لكنه

لكنه لما قدم تحت اسوارها من غير حرس ليدعو اهلها الى فتح ابوابها خرج اليه منها اخوان اظهرا انهما يريدان أن يحيياه بتحية القياصرة فذبحاه

فعند ذلك فترت همة الافر يقيين من هذا الخطب الذى دهمهم على حين غفلة فهزمهم اليونان لكنهم عما قليل تقووا بفرقة من المسلمين الاندلسيين لا مانع انهم هى التى فتحت منذ مدة قليلة جزيرة كريد فاخذوا نوبتهم فى النصرة وظهروا على عدوهم ومكثوا حاكمين على الجزء الغربى من سيسليا وقتل البطريق تيودوت وهو يدافع عن مسينة واعقب فتح هذه المدينة فتحهم (سنة ۸۳۲) لمدينة بالرمة التى جعلوها دار اقامة كبار الامرآء الذين بعثهم الملوك الاغلبيون لتتميم هذا الفتوح وادارته وسياسته وكان اول هؤلاء العمال محمد بن عبد الله ابن اغلب وهو الذى كانت له النصرة فى واقعة اينا التى قتل فيها تسعة آلاف من العساكر الرومانية (سنة ۸٤٦) . وفتح خليفته العباس قلعة اتينا وبنى اول مسجد فى مسكن البطارقة (سنة ۸٥۹) وبالجملة فقد حاز ابراهيم ابن محمد ملك القيروان فخر تتميم فتح جزيرة سيسليا حيث اخذ مدينة سراقوسة وتورمينة فى وقت كانت فيه دولة القسطنطينية قد استرجعت شوكتها وصولتها برا وبحرا بما صدر عن القيصر بازيل المقدونى من السطوات الحربية وبما اكتسبه نستاس ونزار التلسيار كان من النصرات البحرية

وينبغى أن يعد فتح الاسلام لسراقوسة من اكبر المصائب المذكورة فى التاريخ فأن هذه المدينة لحقها ما لحق مدينة صور وقرطاجة وقورنتة التى كانت مثلها من حيث كون البحر سببا فى عظمها وثروتها وقد تكلم على هذه المصيبة التى لحقت تلك المدينة راهب شهدها حين حلت بها واتى فى ذلك بعبارة فصيحة تدل الفاظها على تألمه وتحسره الناشئ له عن محبة الدين والوطن وذلك ان هذه المدينة لما خليت ونفسها من جبن ادريان النوارى حيث لم يجسر على المدافعة عنها دافعت هى عن نفسها مدة عشرة اشهر استغرقتها فى الحصار والمجاعة مع الشجاعة التامة ثم آل امرها الى ان فتحها المحاصرون وقتل اعيان اهلها وبطريقهم بعد تمام النصرة وصار اهلها على كثرتهم فى ربقة الاسر والاستعباد وذهبوا الى افريقة يبكون فيها على مسكنتهم وسوء حالهم وتخربت مدينتهم الى اساسها ولم يبق منها بعد الحريق الذى حرقها كلها (سنة ۸۷۸) الا آثار واهية فصارت هذه المدينة الآن لا شهرة لها الا بما بقى من اطلالها وآثارها بعد أن كانت الى ذلك الوقت جليلة فاخرة ودافعت غير مرة اليونان والمتبربرين حين شنوا عليها الغارات المهولة وقد نقل هذا التأسف عن بعض

اهل ذالك العصر وهو الامير قسطنطين فانه لما كتب تاريخ ابيه القيصر بازيل الاول وتأسف مرارا عديدة من هذه النكبة الكبيرة التى خدشت عرض هذا القيصر المنصور فى زمن شيخوخته وهرمه

وقد ترتب على فتح سراقوسة أن صار عرب سيسليا واثقين بانفسهم كل الوثوق حيث اعتقدوا انه صار يمكنهم انقاذ انفسهم من حكومة ملوك بنى اغلب فكان تخليهم عن هؤلاء الملوك سببا فى سلامة مدينة ترومينة خمسا وعشرين سنة فلما اعاد ملك القيروان ابن ابراهيم مدينة بالرمة الى طاعته وعاقب مدن كلابرة اليونانية على محالفتهم للعصاة نزل هذا الملك بنفسه فى سيسليا وفتح مدينة ترومينة واعانه عليها شجاعة الحبشة وكان فتحها (سنة ٩٠٣) فان قلت ماذا صنعت دونغا القسطنطينية حين اخذت تلك المدينة التى هى آخر مافتحه العرب من مدن سيسليا وانتزعت من الايمبراطورية قلت ان عساكر الدونغا كانت اذ ذاك تبنى ديرا للخصيان كان القيصر لاون الفلسفى قد عزم على أن ينقل اليه آثار القديسة ماريه مجد يلانة ففى مدة ماكانوا يضيعون الزمن فى مثل هذه الاشغال نهب مسلمون آخرون جزيرة لمنوس واخذوا اهلها معهم اسرآء وهذه العبارة منقولة ايضا عن قسطنطين بن بازيل

ولما جاء سفرآء مدن ايطاليا الى ابراهيم ذى الشدة والقسوة ليطلبوا منه الصلح امرهم ان يستميلوا اهل بلادهم الى الدخول تحت طاعته ويخبروهم انه عن قريب يصل الى مدينة بطرس العجوز اى رومة لانه كان يسميها بذلك ولكنه خاب ولم ينجح امام مدينة كوزنزا ومات بعد ذلك بقليل وكان موته علامة على خروج اهل سيسليا عن الطاعة ثانيا وذلك ان ذرية الفاتحين الاول صاروا لا يريدون أن تجرى عليهم احكام الامرآء الافريقيين فان اقتيات ملوك طرابلس الفاطميين على تخت الاغلبيين (سنة ٩٠٨) قطع ما كان بين قبيلة القيروان وكرسيها من الروابط والعلائق الحقيقية فترتب على ذلك حرب طالت مدته وسفكت فيه دماء كثيرة بين عرب الحزبين وبه وجد النصارى فرصة فى اظهار بعض مجهودات عظيمة لاجل تحصيل حريتهم اى تغيير الحكم بحكم آخر ولكن لم يترتب على قيام هؤلاء النصارى الاجر يجنتية الذين اشرفوا على اخذ مدينة بالرمة الا مجرد اظهار شجاعتهم فانهم بعد أن مكثوا اربع سنوات يقاومون مقاومة الابطال هلك معظمهم تحت اطلال مدينتهم الفاخرة

ثم ان تهديد ابراهيم المذكور لمدينة بطرس اوقع الرعب حقيقة فى قلوب سفرآء ايطاليا لان اهل تلك البلاد كانوا يعلمون منذ مدة طويلة ما ينشأ عن مجاورة المسلمين

من الامور المخوفة وحيث ان الايمبراطرة الكرلونجية واليونانية لم يمكنهم أن يحموهم من اغاراتهم فاى شئ يرجى لهم من الدول الصغيرة التى كانت اذذاك تتنازع فى شأن الاستيلاء على بلادهم وانظر الى ماقدمناه لك تعلم الاخطار التى تخلصت منها ثانيا اوروبا النصرانية حين اشتد غضب المسلمين واتوا بالاسلحة والنار حتى دخلوا مدينة رومة

وقبل أن يتوطن العرب المرّة الاولى فى سيسليا كانت سواحل ايطاليا قد اغار عليها هؤلاء الصائلون غيرمرة لكنهم لما فتحوا مدينة بالرمة وجعلوها ترسانة بحرية وملتقى دونمائهم صار نهبهم للاقاليم الساحلية طريقا للشر ومبدأ لما قصدوه من الفتوح الذى لم يخب فيه سعيهم الا بنباهة بابات رومة وكان اغرغوار الرابع هو اول من رآى ان من الضرورى جعل كرسى بلاد النصرانية (رومة) فى امن من هجوم الاعدآء لان احترام النصارى لها وماشاع على الالسنة من كثرة اموالها وان لم تكن كذلك فى الواقع اثارا الحمية الدينية والطمع فى صائلى البحر المتوسط حتى بلغا فى الدرجة مبلغا واحدا فلتبصر هذا البابا سد نهر التبر على سفن الاسلام حيث شيد حصون اوستية وكانت ايطاليا الجنوبية ايضا عرضة لاغارات العرب اكثر من رومة وكانت لا تعوّل على اسعافات القسطنطينية نعم لو بذل القياصرة وسعهم فى اعانة ما كان لهم خلف البحر من البلاد لتخلصت سيسليا من ايدى العرب قبل غيرها من سائر الجزآئر لكن حيث ان دوقات بنيوان دخلوا تحت حكم ملوك الفرنج وتخلصت مدآئن قمبانيا البحرية من حكومة القسطنطينية فهل من الصواب فى السياسة ان ايمبراطورية المشرق تبعث سفنها لاعانة من بارزها بالعداوة او لمساعدة رعاياها الخائنين وتصيير سواحلها خالية من المراكب مع تهديدها من سائر الجهات فلذا لم يلتفت مخاييل الالكن الى امور المغرب ولم يشغل فكره بها اصلا لاسيما جزء ايطاليا الذى استمر على الانقياد الى رومة الجديدة كما ذكره بعض خلفائه ومع اعراضه عنها كانت ايطاليا الجنوبية تجد حماية كافية فى سفن المدن اليونانية وفى قوة اللنبرديين البنيوانيين التى كانت لم تزل باقية فيهم لو ترتب على عموم الخطر اتفاق الكلمة بين دوقات بنيوان والجمهوريات الجديدة ببلاد قمبانيا فان الاولين الذين كانوا يملكون مدينة سالرنة منذ مدة طويلة كانوا يطمعون فى الاستيلاء على الجونين اللذين يفصل بينهما رأس منيروه واما الآخرون وهم دوقات نابلى الذين كانت دولة القسطنطينية قبل ذلك قد تركتهم فى حيز الاهمال يقومون بامر انفسهم فذاقوا مذلة دفع الخراج والجزية وسلب منهم سيكارد الشديد الطمع

مدينة امالفى التى كان نجاح تجارتها باعثا لاهل سالرنة على تخوينها والارتياب فى شانها وبه كان يظهر امام قبر بوستوم من النشاط فى الفنون والصنائع مالامزيد عليه وفى مدة ماكان هذا الظالم يريد تجريد اهل نابلى عن استقلالهم حيث كان يتهددهم بهذه المثابة فزع دوقهم اندرى لضعفه عن المدافعة بنفسه الى محالفة عرب سيسليا فكان ذلك اسوة سيئة لاعدآئه فانه بعد أن مات سيكارد ميتة سيئة (سنة ٨٣٩) وقعت المشاجرة بين ردلشيس وسيكنولف فى شأن امارة بنيوان واستعان احدهما بعرب افريقة والآخر بمسلمى اسبانيا وعرض ردلشيس على الاول أن يتخذوا نزلهم قريبا من مدينة بارى وكان قد استولى عليها منذ قليل ثم اخذ رئيسهم المسمى الفونس هذه المدينة العظيمة بهجومه عليها على حين غفلة (سنة ٨٤٢) ورآى ان ذلك مكافأة له على ماوقع منه من الخدم واما سيكنولف فنزل حلفائه عن ارياف مدينة طرنتة الخصبة (سنة ٨٤٢) وعما قليل وقعت هذه المدينة فى حكم الامير ابى جعفر فما وقع من المحاربة الشديدة بين هذين الاميرين المتخاصمين اعنى ردلشيس وسيكنولف صار بعد تخلية هؤلاء الانصار المحالفين حرب ابادة وتدمير

وقد ترتب على اختلال الحكم الذى كان منغصا على ايطاليا الجنوبية استيطان العرب فى جزيرة بونزة (سنة ٨٤٥) لكن طردهم منها بعد ذلك بقليل سرغيوس قنصل نابلى حيث جمع تحت قيادته سفن غايطة وسورنتة والدونما التى كان الامالفيون قد احدثوها عن قريب بعد مهاجرتهم من سالرنة وكانوا قد نزلوا بها لتهمة سيكارد اياهم وسوء ظنه بهم وقد ترتب على هزيمة المسلمين هيجان نفس امير سيسليا فاخرج من مينا بالرمة دونما اهول من الاولى وامرها أن تخرب ساحل طرنتة وأن تذهب ايضا لنهب رومة فبعد أن فتح العرب حصن ميزينة نزلوا بمدينة ستيسيلة وتوجهوا منها الى رومة وكانت لاراعى بها يومئذ (سنة ٨٤٧) فاوقدوا النار فى ضواحيها ولحق كنيسة الحواريين القديسين من التدنيس والاهانة ما يمكن حصوله عن الغيرة الاسلامية وفى ذلك الوقت اظهر البابا ليون الرابع شجاعته وغيرته على الدين وحاز بذلك الحظ الاوفر من الفخار وكان وقتئذ قريب عهد بالجلوس على كرسى البابية بانتخاب وقع فيه هرج واختلاف وانما انتخب لذلك ليكون لرومة اقل ما يكون رئيس فى هذا الخطر الشديد التى تراكم عليها افتقاد العساكر والاهالى وقوى قلوبهم بشجاعته فلما اراد المسلمون أن يشنوا الغارة ثانيا بقوى عظيمة دافعهم حتى الجأهم الى الشاطئ الذى عليه سفنهم ولما كان هذا البابا بما عنده من التبصر والحزم

ما يعادل

مايعادل شجاعته لم يهمل شيأ يتحقق به من الآن فصاعدا حماية رومة وحفظها من العدو وحصن كنيسة مارى بطرس الكبرى القديمة ببناء سور بين حولها وكان ذلك برضاء لوتير واعانته له بالاموال وبنى ايضا اسوار حارة وتيكان التى تسمت من ذلك الوقت بالمدينة الليونية نسبة اليه فله بذلك الفضل عليها

فعند ذلك قصد العرب مدينة فوندى ونهبوها وبعد ذلك بقليل حاصروا مدينة غايطة برا وبحرا فارسل لوتير لمقاتلتهم جيشا اسبوليتيا فهزموه وتبعوه حتى وصل الى اكاف دير جبل كاسين وكانت نجاة هذا الدير الذى هو قاعدة اديار البندكتيين بما فاض على حين غفلة من التيار الذى تقوى وكثر بعواصف الرياح وقد رأى اهل الديانة من ايطاليا ان هذه السعادة التى لم تكن تخطر ببالهم انما هى دعوة الراهب بسقيوس (سنة ٨٤٨) واما مدينة غايطة فنفضل نجاتها انما هو لشجاعة الشاب سيزير ابن القنصل سرغيوس حيث دخل مينـاها وهو يقود دونمتى نابلى واما لفى

فلما ايس العرب من اخذ هذه المدينة ركبوا سفنهم ثانيا وانصرفوا ليضعوا ما غنموه من رومة وما جاورها من المدن فى محل مأمون ولكن ظهرت مقتضيات احوال منعتهم أن يعودوا الى سيسيليا ويحظوا بثمرات نهبهم وذلك انهم لما قاربوا بالرمة رأوا زورقا فيه رجلان احدهما عليه زى القسيسين والآخر عليه زى الرهبان فقالا للمسلمين من اين والى اين فقالوا انا آتون من رومة مدينة بطرس ونهبنا جميع ما فى معبدها بل نهبنا القطر بتمامه وهزمنا الفرنج وحرقنا ادبار بنوة ثم سألوهما من أنتما فاجاباهم ستعرفون من نحن واذا بريح عاصفة هبت عليهم واغرقت سفنهم عن آخرها ولم ينج منهم احد الا من اخبر بتلك الواقعة راهب دير كاسين هكذا فى تاريخ بعض الرهبان

وهذه النكبة على فرض صحتها لم تمنع ارباب الصيال من عرب سيسليا عن النهب والسلب فقد نهبوا فى هذه السنة مدينة لونة والساحل اللوغريينى بتمامه وكان مسلمو بارى فى هذا الوقت بعينه يخربون اقليمى كلابرة وبوليه ودخلوا دوقية بنيوان على انهم انصار لردلشيس فعند ذلك بعث رئيس دير كاسين واسقف كاوة يتضرعان الى الايمبراطور الشاب لويز الثانى تضرعا محزنا فاستولى فى اول غزواته (سنة ٨٥٠) على دوقية بنيوان بعد أن قتل فى واقعة الامير اما المطر غير انه اخطأ فى عدم استمراره على تتبع ثمرات نصرته لكونه اعتنى كثيرا بشأن المشاجرة الواقعة بين ردلشيس وسيكنولف وبتوسطه بينهما

وقع الصلح بين هذين الاميرين وانعقدت بينهما مشارطة (سنة ٨٥١) بها تقررت قسمة دوقية اللنبرديين فكان نصيب ردلشيس فيها بنيوان وماوراء جبل ابنين من الاراضى الشرقية الى غاليبولى ونصيب سيكنولف سالرنة ومابين كبوة وطرسنة من البلاد الغربية ولكن حاكم كبوة المسمى لندون العجوز لم تسمح نفسه لهذا الامير الذى الزم بالانقياد اليه الا بمجرد الطاعة الظاهرية وبعد موت هذين الحصمين فى سنة واحدة ادعى الاستقلال تحت طاعة ايمبراطور ايطاليا

وبذلك عاد الاتفاق بين دوقات اللنبرديين برهة يسيرة لكن لم يترتب عليه ما كان يقصد منه من الثمرة فان جسارة العصبة الاسلامية بقيت على ما كانت عليه حيث صاروا يخربون ايطاليا الجنوبية بتمامها تخريبا لم يسبق بمثله من غير أن يكون هنالك ما يصدهم ومع ذلك ففى اثناء اهوال هذا الحرب الخالى عن الشفقة صدر عن رئيس العرب المسمى نصارا على ما فيه من الشدة والقسوة ما شأنه أن يصدر من اهل الديانة النصرانية مما يعد من الكرم وحسن الصنيع وذلك انه حصلت زلزلة تهدمت بها اسوار ايزرنية فدعاه عساكره أن يغتنم فرصة هذه النكبة حيث لا خطر فى سلب الغنيمة من هذه المدينة فاجابهم بقوله كيف اذهب الى مدينة حل بها غضب الله ونقمته وازيد فى مصيبتها لا افعل ذلك جزما

(سنة ٨٥٢) وحين كان نصار المذكور يطوف ارياف بنيوان وقبانيا ويخربها شرع ولى عهد الايمبراطورية وهو لويز فيما يكون به قطع دابر قبيلة بارى ولكن بعد الواقعة التى سفكت فيها دماء كثيرة وعدت بالنسبة اليه هزيمة لكون كتاب الوقائع السنوية من اهل ذلك العصر لم ينظموها فى سلك النصرات العظيمة رجع القهقرى جهة بنيوان وكان بها ادلجيس وكان اوفر حظا منه حيث امر نصارا بعد واقعة كانت تحت اسوار كرسى بلاده فامر لويز بقتل هذا الرئيس الذى لم يمكنه أن يظفر به

وعما قليل حضر من بارى رئيس آخر اشد هولا واعظم خطرا من نصار المذكور يسمى صخدان او صلدان واتى معه بعساكر جديدة ولعل هذا الاسم مأخوذ من صفة شهيرة كأنه ليدل على علو درجته فى القيادة والشوكة وبالجملة فلم يمكن طرد العرب من اراضى اللنبرديين التى مكثت خمس عشرة سنة فضاء متسعا اقفر لا بتجريدات الفرنج الى ايطاليا التى كان يقودها الايمبراطور اودوق سبولينه ولا بقوى اميرى بنيوان وكبوه وعساكرهما المجتمعة بل دمروا مدن اليفة وتليزيا وسيبنوم وبويانوم وايزرنيا وونفرة ولم ينقذ الدوق ادلجيس كرسى

بلاده

بلاده منهم الا بدفع جزية اعطاهم عليها رهائن وكان يدافع عن دير جبل كاسين جم غفير من العمال تخلص من ايدي المسلمين من مبدء الامر فكان بذلك اسعد حظا من دير جبل ولتورن الذي كانت به القبيلة البندكتية حيث لم ينقذه رئيس رهبانه المسمى برتيير من ايديهم الا بعد أن بذل اليهم ثلاثة آلاف قطعة من الذهب اشترى بها اطلاله التي كان بها دخان حريقهم

و بذلك فقدت دولة القسطنطينية ما بقي من بلادها في ايطاليا ولم يمكنها ان تبعث اليها بالامداد والاعانة لما انها كانت مجبورة على مدافعة خلفاء بغداد عن آسيا الصغرى ودفع ارباب الصيال من اهل كريد عن الجزائر اليونانية فحملها ذلك على اهمال سيسليا وايطاليا فكان يستوي عندها أن تكون باري للعرب اوالنبردين لكن هذه السياسة الضعيفة كادت تضر بهذه الدولة ضررا عظيما فان عرب ايطاليا طمعوا في الاستيلاء على البحر الادرياتيقي بل اضرت مجاورتهم لمدينتي راوينة وراغوزة بهاتين المدينتين ومع ذلك فلم تكن ايليريا اليونانية عرضة لما هو اعظم من ذلك خطرا من طرف هؤلاء العرب الا في اليوم الذي خرجت فيه من مينا باري دونما عدة سفنها ست وثلاثون تحت قيادة صلدان وسمبان وألفونس لتخرب سواحلها فنهب العرب حينئذ اغلب المدن البحرية التي كانت قد دافعت السلاويين عن نفسها ومانعتهم عن استقلالها واتى العرب المذكورون مرة ثانية أمام اسوار مدينة راغوزة (سنة ٨٦٧) غير ان الشجاعة التي تحدث عن اليأس والقنوط حملت اهلها على حمل السلاح فمكثوا يدافعون عن مدينتهم مدة طويلة حتى وصلت اليهم الامدادات التي كانوا طلبوها من دولة القسطنطينية وبعث بازيل المقدوني في جون البنادقة دونما تبلغ مائة سفينة تحت رياسة البطريق نسيتاس وكان اعظم البحرية في عصره فلما دنا من المسلمين ولوا مدبرين وعادوا الى باري وكان يهدد قبيلتهم بها يومئذ عصبة مهولة كان رئيسها ايمبراطور الفرنج وكان وراءه جميع عساكر الرديف من ايطاليا

ولما تظلم اهل بنيوان وكبوة وسائر حكام القطر الى لويز الثاني و بثوا اليه ما لحقهم من الذل والمسكنة عزم على ان يدعو الملة ويقوي همتها لاجل انقاذ ايطاليا فاهمل ما كان واقعا بين عائلته من الشقاق والتفاقم وارسل الى جميع القونتات والعمال والاحرار من مبدء جبال الالب الى جبل ولتورن ودعاهم الى حمل الاسلحة والظاهر ان دعاءه هذا كان اسوة لما وقع في القرون الاخيرة من اجتماع الجنود الكثيرة التي انقذت بلاد البروسيا وسائر بلاد المانيا من الحكم الاجنبي وكان

مضمون هذه الدعوة ان كل من كان عنده من اثاث البيت قدر دية خرج الى الحرب وان الفقراء يدافعون عن الشواطئ والثغور وان الاحبار والقونتات المسمين ايضا غستالد يسافرون ومعهم اتباعهم من ارباب الوظائف ولا يقبل منهم التعلل بجزية المعافاة وان الاساقفة لا يتركون عندهم احدا من العامة وكل من امتنع من الاحرار عن الدخول في العسكرية تسلب امواله واملاكه وينفى واذا كان من القونتات او العمال جرد عن شرفه واقطاعاته وكذلك القونتات والملتزمون ورؤساء الاديار ذكورا واناثا اذا لم يرسلوا جميع اتباعهم وعبيدهم الى الحرب وان القونتات يلتفتون كل الالتفات الى حمل الاهالى على ان يغلقوا ابواب القلاع المحصنة على انفسهم وان كل من تعين للحرب يأتى معه بطقم تام من الاسلحة وبثياب تكفيه سنة ومؤنة تكفيه الى الحصاد وكل من اخفى سلاحا او حيوانات اهلية عوقب بدفع ثلاثة مغارم ووضع على ظهره سرج امام الجيش وان كان رقيقا ضرب بالسياط ويحكم بالموت على كل من سرق او زنى او حرق او قتل

فعند ذلك اجاب اهل ايطاليا دعوة ايمبراطورهم وحملوا اسلحتهم وذهب قبل أن يشرع فى الحرب الى دير جبل كاسين يطلب من رهبانه الدعا واتاه فى هذا الدير سفراء المدن اللنبردية وجمهوريات القمبانية فابدى اليه بعضهم اعتذارات صادقة وواعده آخرون بمواعيد كاذبة وكانوا ينتظرون سيره على الاستقامة الى بارى الا انه لسوء ظنه باهل كبوة حيث كانت خيانتهم او جبنهم سببا فى عدم نجاح الغزوة السابقة عزم على أن يتحقق قبل كل شئ الطاعة والانقياد من امراء اللنبرديين وظن انه اذا عاقب لندولف كان ذلك باعثا لغيره على القيام بالواجبات فهدم مدينة كبوة جزاء لها على جسارتها فى صد الجيش الايمبراطورى وابقاه تحت اسوارها ثلاثة اشهر فترتب على هذه الفعلة القاسية أن صارت المدائن المجاورة لهذه المدينة تفتح له ابوابها فتلقاه غايفر فى سالرنة وادلجيس فى بنيوان واستحق اهل نابلى ما حل بهم من غضبه حيث خرب اراضيهم لاتهامهم بانهم كانوا يمدون المسلمين بالاسلحة والمؤنة وغير ذلك من مواد الحرب وذخائره وكانت نابلى ايضا ملجأ للعرب عند الهزيمة وكان منظرها كمنظر مدينة بالرمة او مدينة افريقية بل طرد اهلها اسقفهم أتناز ووضعوا اعيانهم فى السلاسل والاغلال لكونهم ارادوا منعهم عن التعلق بالمسلمين ومخالطتهم ومع ذلك عفا الايمبراطور عن هذه الجمهورية التجارية التى كانت لافراطها فى حب الكسب افراطا يورث المعرة لا تتأثر بما يلحق ايطاليا من المصائب والشدائد ولما اخذ الجيش فى المسير ازداد عدده بكثير من المناصرين وكانت نهاية امره انه عبر

(سنة ٨٦٧)

سلسلة

سلسلة جبال ابنين ونزل فى پويليا فانهزم العرب وطردوا من اغلب المدن التى كانوا شغلوها واستولى لويز ايضا على متيرا وهو اعظم حصونهم وهدم اسواره وكان حين وصوله أمام مدينة بارى معتمدا على اعانة الدونما اليونانية التى كانت قريبة العهد بانقاذ راغوزة وكانت اعانتها له امرا ضروريا الا ان بازيل الاول كان قد شرط على لويز انه لا يمينه الا اذا زوجه بنته ارمنغاردة فلما لم يأت له بها ترك البطريق نسيتاس محاصرة المينا وذهب الى جون قورنثة ينتظر ما يصدر عن دولة القسطنطينية من الاوامر فصدرت اوامرها الى هذا البطريق الذى كان محافظ جون البنادقة أن يأخذ الفداء من القبائل السلاوية التى بايعت الفرنج وكانت سفن هذه القبائل وقتئذ صادقة مع الفرنج حيث كانت اذ ذاك أمام بارى هكذا ذكر مؤرخو الفرنساوية بسبب تخلى اليونان عن الايمبراطور الكرلونجى اعنى لويز فاضطر بذلك الى تأخير محاصرة مدينتى بارى وطرنتة الى وقت آخر وكانتا اعظم المدائن التى بقيت فى حكم الاسلام وتتبعه العرب فى رجوعه (سنة ٨٦٩) واستمرت طائفة منهم فى السير خلفه حتى وصلت الى جبل غرغانو الذى به دير مارى ميخاييل فاخذت ما كان فيه من الاموال ومن يومئذ صار لهذا الدير شهرة بتعظيمه عند ابناء النصرانية حيث صاروا يذهبون لزيارته ومع ذلك فقد ترك لويز وهو راجع جيشا فى بلاد پويليا لاجل ملاحظة العدو ومراقبته فاستند هذا الجيش الى قلعتين حصينتين وهما قلعة ونوزا وقلعة كانوزيوم اللتان صارتا بهمة الايمبراطور قويتين على المدافعة

ثم ان هذا الجيش مع قلته لم يزل ينغص على عرب بارى وكانوا قد ضعفوا بهزيمة امرائهم الثلاثة ولم يمكن لمسلمى سيسليا أن يساعدوهم لحضور دونما اسكلاوونية كانت لم تزل على محالفة الفرنج لاشتراكها معها فى المصالح ولما لحقها من الاساءة ومع ذلك مكثت هذه المدينة على مدافعتهم ثلاث سنوات ولم يتمكنوا منها الا بعد مجىء جيش جديد كان يقوده لويز بنفسه فقبض الفرنج على صلدان سلطان بارى وكان يلزم قتله فى نظير ما اتى به ايطاليا مدة عشرين سنة من المصائب والمضار التى جعلت للاقاليم الجنوبية من هذا القطر منظرا كمنظر الارض بعد الطوفان لكن تفضل عليه لويز بابقاء حياته فلم يتأخر ندمه على ذلك

ولما كان اجلاء المسلمين من تلك الاراضى متوقفا على اخذ طرنتة بعث لويز لمحاصرتها فرقة من الجيش غير ان الدونما الصغيرة التى كان حاكم سيسليا يقودها فى تلك النواحى لم يمكنها أن تمنع المسلمين من اخذ اهبتهم فى هذا الثغر اى طرنتة

فعند ذلك طلب لويز معاونة قوة بحرية اعظم من ذلك حيث افاد بازيل انه يلزم تنظيف بحر صور من سفن النابليين التى تأتى بالمدد لعرب بالرمة وكلابرة وكان ذلك بمفرده هو الواسطة فى انقاذ ايطاليا وتخليصها على ما ينبغى وفى تسهيل مرور الفرنج بسيسليا لاجلاء المسلمين منها غير ان الكتاب الذى ارسله منصور بارى اى لويز الى بازيل كانت صورته تستدعى أن لا يوافقه بازيل على اغراضه لما تضمنه هذا الكتاب من الانفة والكبر فتأثرت منه دولة القسطنطينية تأثرا كليا وحنقت شديدا لما كان عندها من التعاظم والاعجاب بنفسها فكان ذلك مانعا من تنجيز هذا المشروع الذى لو تخلصت به ايطاليا لامكن أن يكون ذلك واسطة فى انقاذ سراقوسة وسيسليا وايضا كان لويز يستعجل العود الى بلاده عسى أن يتيسر له حيازة وراثة اخيه لوتير التى كان ينازعه عليها كرلوس الاصلع ولويز الجرمانى وكان البابا ادريان الثانى قد جعلها تحت حماية الكرسى المقدس اى كرسى البابا ولم يكن لذلك ثمرة ولكن طرأت احوال على حين غفلة منعت لويز من حفظ فتوحه وبلاده الوراثية

وذلك ان ما وقع من الفرنج بعد نصرتهم من الافراط فى التعدى والقسوة انسى البنيوانيين فى اقرب وقت ما فعله معهم هؤلاء الحامون المهاونون من حسن الصنيع فالتى ادجيس سمعه نحو ما قالته دولة القسطنطينية وقبل منها ما عرضته عليه ولا يبعد انه سلم للامة فيما وقع منها باعظم مدائن قبانيا وسمنيوم ولوقانيا من القيام والخروج رغبة فى الدخول تحت حكومة اليونان وقد سار لويز حينئذ قاصدا بنيوان ليمنع ايطاليا الجنوبية أن تدخل ثانيا تحت حكومة ايمبراطرة المشرق فاخذ العهود ثانيا على ادجيس دوق بنيوان الذى اقسم له ان خروج المدن عن الطاعة لم يكن عن رضاه ولا اقره اصلا واما مدينة كبوة فان الايمبراطور عفا عنها بعد مقاومتها له وكان الفضل فى ذلك لاسقفها واقام فى المدن الاخرى محافظين من الفرنج عوضا عن العساكر اليونانية ومع ذلك طلب الجيش الايمبراطورى العود الى وطنه وحسن ادجيس ذلك للايمبراطور زاعما انه يكتسب به محبة الرعايا لان فيه انقاذهم من ثقل اقامة هذا الجيش ببلادهم فلم يبق لويز من العساكر الا حرسا قليلا لاستئمانه واعتقاده عدم الخيانة واما ادجيس فلم يتردد فى نكث العهد بل اضمر الغدر للملك الذى به عظم الايمبراطورية وفخر النصرة فهجم عليه فى سرايته فمكث لويز فيها ثلاثة ايام يدافع عن نفسه وبلغ من وقاحة البنيوانيين انهم لم يكتفوا باسترجاع ما غنمه الفرنج

من

من بلادهم بل سلبوا ما كان مع الامبراطور من الاثقال والامتعة لكن عما قليل اعاد ادلجيس الحرية الى اسيره والزمه بالحلف على الآثار المقدسة انه لا يعود ابدا الى الدخول فى دوقية بنيوان ولا يتفكر بوجه من الوجوه فى الانتقام واخذ الثار

وحاشا ان لويز ينسى هذه المنقصة بل لم يقصد الا الانتقام فحكم البابا ادريان ببراءة ذمته من اليمين التى حلفها واعلنت مشورة السنت برومة ان دوق بنيوان عدو الجمهورية فعند ذلك اراد ادلجيس أن يقاوم مقاومة شديدة الا انه لم يجد عزما ولا وسايط فالتجأ الى جزيرة قرصقة وعما قليل عاد من هذا التغرب الى وطنه لعموم الخطر يومئذ

وقد ذكر رهبان ذلك العصر ان الله تعالى اراد أن ينتقم لحامى الكنيسة فى نظير ما لحقه من المنقصة والاساءة فارسل المسلمين ثانيا ليخربوا اراضى اللنبرديين الخائنين وذلك ان دونمة اسلامية سافرت من سيسليا وخرج منها على سالرنة جيش يبلغ ثلاثين الفا على ما نقله المؤرخون عن الامة التى لحقها الفزع والهول من تلك العصابة وان كان ذلك لا يخلو عن مبالغة فحمل ادلجيس على المسلمين واعانه قونتتان كانا قريبى عهد بالخروج عن طاعة لويز وهربا خوفا من غضبه وانتقامه ففقد المسلمون فى هذه الواقعة التى هى اول واقعة بين الفريقين ثلاثة آلاف رجل وكذلك نواب الامبراطور هزموا منهم تسعة آلاف قريبا من كبوة ولما دنا منهم لويز وكان قد اعتنى بملاقاتهم بنفسه تركوا اكناف سالرنة بعد ما لحقهم الضعف وقصدوا كلابرة وكانت القبائل الاسلامية بها قد اخذت فى الهجوم وشن الغارة منذ ارتحل الجيش الامبراطورى وكان المحصورون بطرنتة قد استرجعوا بارى (سنة ٨٧٢) واغاروا ثانيا على بوليا هذا ولم يكن ثم ما يمنع العصابة الاسلامية أن تعتمد فى ساحل قمبانيا على اعانة مدن نابلى وغايطة واملفى بل وسالرنة او على التباعد عنها بمعنى انها لا تكون للاسلام ولا عليهم ولم يبق للفرنج فى داخل الاراضى الا الاعداء فلما تخلى الناس عنهم فى هذه المرة صارت بذلك امارات بنيوان تحت حكومة دولة القسطنطينية ولم يبق للدولة الكرلوفنجية امل فى استرجاع ما انكره الناس من حقوقها فلذا كانت عاقبة اغارات المسلمين ان انفصل عن امبراطورية الفرنج ثلاث دول كانت تحمل اليها الخراج ولكن لم يعد على اللنبرديين ثمرة من تغير محاميهم وبعد أن بذل لويز همته فى اعادتهم الى حكومته ولم يجد ذلك نفعا عاد الى بلاده وجاوز ثغرهم المجاورة التى لا رجعة بعدها فعند ذلك استعد العرب

الى اتيان بنيوان قاصدين تخريبها فبلغ ايطاليا خبر هذه المصيبة فى وقت فقدت فيه الملك الذى لايمكن لغيره أن ينتصر لها وينتقم من عدوها (وهو لويز) (سنة ٨٧٥)

واقل ما هنالك ان لويز المذكور ابعد عن رومة المصائب التى كانت تنغص على الاقاليم الجنوبية من ايطاليا وبعد موته صار يخشى ثانيا على تلك المدينة التى هى كرسى البلاد النصرانية وعلى تمدن المغرب وذلك ان العرب بمعاقتهم مع اهل نابلى واما لفى وسالرنة (سنة ٨٧٥) سهل عليهم أن يستوطنوا ساحل قبانيا دائما وتوقعت ايطاليا مصائب جديدة بظهور صلدان المهول ثانيا يقود الاقوام العربية فكانت قبور رهبان جبل ولتورن تحت ردوم ديرهم وكانوا تسعمائة راهب واوقدت النار ايضا فى دير جبل كاسين وكان قد تعين لحمايته ارقاء الارض فحملوا السلاح للذب عنه لكن لجبنهم هربوا الى معسكر الاسلام لينقذوا انفسهم من اخطار الحرب ثم سار العرب من غارغليانو قاصدين تخريب اكناف تيبور وسواحل اتيو وبلاد سبين وشاطئ نهر التبر فلم يمكن لارياف رومة أن تحصد زرعها فى (سنة ٨٧٥) ولا أن تزرع شيأ فى السنة التى بعدها فعند ذلك تظلم البابا يوحنا الثامن وبث شكواه الى جميع دول ذلك العصر على ما لحق الكنيسة من الحصر والضنك فكتب الى كرلوس الاصلع وكان قد البسه تاج الامبراطورية منذ قليل ما معناه انهى اليك ما لحقنا من ابناء العرب من المصائب والنكبات * قد سفكت دماء ابناء النصرانية ومن نجا منهم من نار العرب اوسيوفهم اخذوه اسيرا وغربوه عن وطنه غربة لارجعة بعدها فمدننا وقرانا وبلادنا اندرست باندراس اهلها وتبدد شمل الاساقفة وصار لاملجأ لهم الا محراب الحوار يين وصارت كنائسهم ماوى للوحوش والحيوانات المفترسة فهم ينقلون من مكان الى مكان لايجدون فى الارض بقعة يأوون اليها فهذا يوم يحق لنا أن نصيح فيه ونقول ما اسعد النساء العاقرات اللاتى لم تلدن واحسرتاه من لى بمنبع دموع اسكبه تأسفا على ما لحقنا من الذل والمسكنة وبكاء على تخرب ديارنا فها هى رئيسة الملل وملكة المدائن وام الكنائس قد حل بها اليأس والحزن فهذا هو يوم الشدائد والكروب * ويوم المصائب والخطوب * يوم المسكنة والشقاء * يوم التعب والعناء * انتهى

وكتب ايضا الى نائب ايطاليا يقول لاتدع الاغار بنيين الذين ستروا وجه الارض كثرة كالجراد المنتشر وخربوا البلاد حتى صارت فضاء اقفر يقهرون امة الله ويبددون شملها فان اندراس رومة مصيبة للدنيا باسرها وهدم لدين النصرانية انتهى

فهذا

فهذا ما افصح به يوحنا الثامن عما كان فى باطنه من آلام الحزن والاسف الاان استغاثته هذه انما كانت لملك لم يكن له يومئذ من الشوكة التى سقطت عن درجتها الا مجرد الابهة الظاهرية وحين الزم كرلوس الاصلع دوق سبوليته أن يصحب البابا فى غزوة بقمبانيا ابى قنصل نابلى أن يفسخ محالفة العرب غير مكترث بتهديد الايمبراطور ولا بحكم البابا عليه بالحرمان

ثم ان الفترة التى اعقبت موت كرلوس الاصلع جعلت ايطاليا ايضا فى اسوء حالة ولم يمكن لرومة أن تخلص من حمية الاسلام الغضبية وتردهم عن اسوارها الا بالتزامها بدفع الجزية كل سنة فصارت بذلك فى غاية المذلة والمسكنة واى حماية ترجوها فى وقت لم يبق لها فيه من الحكم الملوكى ما تقيم به أودها بل ولا مجرد صورته الظاهرية فعند ذلك تأسى مقتافو الملتزمين بل والاساقفة بملتزمى الفرنساوية الذين دعوا النورتمان لمعاونتهم على السلب والنهب وذلك ان دوقى سبوليته وطوسكانة ارادا أن يجدد الظلم فى رومة ولو بذلا فى تحصيل ذلك مابذ لا فتحالفا مع قبيلة طرنتة الاسلامية فالتزمت لهما أن تبعث اليهما عساكرها ولكن هذا المشروع الذى هو عندهم من قبيل الكفر لم يترتب عليه الغرض المقصود منه من الاهانة والاذلال بل كفى فى التنغيص على بلاد النصرانية فى هذه السنة اعنى (سنة ۸۷۸) ان المسلمين أخذوا مدينة سرافوزة

وقد ترتب فى اواخر القرن التاسع على ما كان بين ملوك الفرنج من الشقاق والنزاع فى شأن التاج الايمبراطورى وعلى الحرب الداخلى الذى حصل فى نفس هذا الزمن تقريبا بين مسلمى سيسليا وافريقة أن سهل على اليونان اعادة حكومتهم فى ايطاليا وذلك ان جميع الهمم الاسلامية تحولت نحو الساحل الغربى فدخلت حكومة دولة القسطنطينية من الساحل الآخر وترتبت ثانيا فى داخل هذه الجزيرة اعنى ايطاليا ونشأ عن نجاح التجريدة البحرية علو شان الايمبراطورية المشرقية فى تلك البلاد (سنة ۸۸۰) وازال نزار النوارى فى بحور سيسليا ما لحق عساكر بازيل المقدونى من الخزى والمعرة باخذ الاسلام لمدينة سرافوزة حيث محق دونمتها بالرمة فى مدينة اذا تخلصت بذلك المدن الساحلية ببلاد لوقانيا وبوليا وجازى مدينتى روجيو وطرنتة على ابوابهما للمسلمين المنصورين الذى اضر بابناء النصرانية وان كانتا مقهورتين على ذلك والظاهر ان هذه التجريدة ايضا سبب فى انقياد بارى لحكومة القسطنطينيين

ولما جبرت دولة المشرق بسبب فقدها لسيسليا على أن تعيد فى الارض القارة من ايطاليا حكومة بلادها التى وراء البحر صارت مدينة بارى قاعدة بلاد لنبردية وجعلت دار اقامة البطريق الايمبراطورى الذى تلقب من يومئذ قطبان فعما قليل تمتعت هذه المدينة بالعز والسعادة فاورث ذلك اهلها الرغبة فى أن يأخذوا لهم بنصيب من الحرية الجمهورية التى كانت تدعيها مدن قبانيا وصارت المدينة المذكورة غرضا لسهام حسد الدوقات البنيوانيين الذين تغلبوا عليها اثر اضطراب الاهالى وهيجانهم (سنة ٨٨٧) فعرفت بذلك دولة القسطنطينية انه لا ينبغى لها أن تثق بمبايعة امرآء اللنبرديين حيث استبان لها ان قصدهم بالانقياد الى حكومتها انما هو مجرد تغيير الرياسة المضرة بالحماية الشريفة فلذلك امر لاون الفلسفى الذى كان وقتئذ قريب العهد بوراثة ابيه بازيل فى الحكومة نائبه سمبايقيوس أن يعاقب اللنبرديين على وقاحتهم فشغل اليونان بنيوان مدة اربع سنوات ثم اخذ الفرنج نوبتهم فى النصرة وطردوهم منها فى ايام الايمبراطور جى دوسبوليته القصيرة (سنة ٨٩٤) ثم ان ذرية الامرآء البنيوانيين الذين اعادتهم ارملة هذا الايمبراطور اللنبردية الى كرسى الدوقية مكثوا من يومئذ مجردين عن القوة والفخر تحت رياسة لايستقرون عليها بل ينتقلون من ايمبراطورية الى اخرى على حسب اهوآئهم اوالضرورة التى تلجئهم الى ذلك

وفى هذا الزمن تقريبا انتقلت حكومة اللنبردية من دوقات بنيوان الى امرآء كبوة الذين بذلوا غاية جهدهم فى اجلاء العرب النازلين بجوارهم وكانت مدينة اكروبولى اول منازلهم العسكرية ثم نزلوا فى مصب جاريلان وكان قد دعاهم اليه دوسيبيلة قنصل غايطة قاصدا بذلك انه يقاوم بهم اهل كبوة (سنة ٨٨١) فعما قليل صارت هذه المنزلة مدينة مكثت ثلاثين او اربعين سنة يخشى خطرها على القطر بتمامه وكانت منازل اكروبولى وجترا وغيرهما تابعة لهذه القبيلة الاسلامية

اجلاء العرب (سنة ٩١٥)

ولما جمع اتينولف تحت حكومته امارتى بنيوان وكبوة اخذ فى تدمير مأوى هؤلاء العرب ارباب الصيال لكنه لم ينجح فى ذلك وان اعانه عليه جميع مدن القمبانية (سنة ٩٠٠) بل بقى فخر اتمام هذا المشروع الذى هو ثمرة حب الوطن ودين النصرانية لرئيس الكنيسة وهو يوحنا العاشر وذلك انه بمقتضيات الاحوال لزمه ان يدعو المغرب والمشرق لحمل السلاح حتى يطرد هذه العصابة الصائلة فبعث القيصر قسطنطين پرفيروجينيتة فرقة من اليونان يقودها البطريق بسنجلى وقد ازدادت

قوتها

قوتها بلنبردي الامارات الثلاث الذين انضموا اليها في الطريق والتزمت هذه الجمهوريات الثلاثة أن تعينها في هذا الغرض بدون تماثها ووصل البابا ايضا بقدم عمال الامبراطور برنجير الذين كان يقودهم دوقا سپولينة وطوسكانة نحو صرت قبيلة جاريلان من الشاطئين (سنة ٩١٥) فمكث العرب يدافعون عن انفسهم ثلاثة اشهر مع الشجاعة العظيمة من غير أن تفتر لهم همة وبعد هذه المدة ايسوا أن تكون لهم قدرة على مدافعة هذه الاغارات المهولة اكثر من ذلك فهاجروا من حصنهم وتوصلوا الى ذلك بكونهم اوقدوا فيه النار فادركهم المتعاهدون فقتلوا في المعركة عن آخرهم

فكانت هذه النصرة للساحل الصوري كما كان اخذ قلعة فركسينيت لساحل پروونسة بعد ذلك بنصف قرن ومع ذلك فلم يترتب عليها انقاذ ايطاليا على ما ينبغي حيث ان البابا يوحنا الرابع عشر اضطر (سنة ٩٦٩) أن يستعين بسفن سويا نو پولك ملك دلماتيا ليطرد العرب النازلين بجبل غرغانو وزيادة على ذلك كانت القبائل الاسلامية النازلة بمدينتي ريجيو وكوزنزة تسعى فيما به اعدام النصارى بعضهم بعضا ومكثت على ذلك مدة طويلة مع انها كانت قد آل امرها الى وظيفة خاملة لاشهرة لها وهي المناصرة والمساعدة

ومنذ صارت سيسليا مستقلة عن افريقة كان ارباب الصيال من المغاربة هم الذين يشتغلون بالحرب بدون غيرهم وكانوا يوجهون اعظم همهم الى الشاطئ اللوغريدي فاغاروا على جنويزة ونهبوها (سنة ٩٣٦) حين كان بعض امرائهم قد استولى على طرتنة * هذا وجميع الآثار تدل على ان عرب فركسينيت الاسبانيين تقووا في اغلب الاوقات بمغاربة افريقة فمن ثم اراد مسلمو اسبانيا أن يقتسموا مع اخوانهم القيروانيين غنيمة ايطاليا وسيأتي لك عند الكلام على ان العرب كانوا في اوائل القرن الحادي عشر في ضواحي بيزة (سنة ١٠٠٥) وتحت اسوار سالرنة (سنة ١٠١٦) ما يدل على انهم كانوا ايضا اسبانيين وكان هذا الزمن في الحقيقة نخر الاسلحة ابناء النصرانية حيث وقعت فيه دفعة عظيمة ترتب عليها ظهور اوروبا على افريقة والانجيل على القرآن

(الفصل الثاني)

(في الكلام على النورمان)

قال بعض ادباء القرن التاسع ان امم الشمال كانوا في سابق الزمان بل والى الآن يسمون

باسم دينس اى دانيمرقيين و يقال لهم بلسان الفرنج نورتمان وهم ارباب نشاط وخفة اخيار للغاية انتشر صيتهم فى الاقطار البعيدة جدا ولكونهم من سكان البحر كانوا يبحثون عما يقتاتونه فى سفن هينة *وطول قدودهم وحسن وجوههم وعظم هيئاتهم كل ذلك يبعث على اعتقاد ان ملة الفرنج من نسلهم انتهى وفيه ان احدى الملتين اى الفرنج والنورتمان ليست من نسل الاخرى وانما لكونهما من اصل واحد حصلت المشابهة بينهما وكانتا قد خرجتا من قطر واحد فى ازمنة مختلفة فتوطنت احداهما فى شمال جرمانيا والاخرى فى جنوبها فلما تقابلا فى بوادى الغلية وكانت النصرة للنورتمان افتخر الفرنج بمشابهتهم لهؤلاء المنصورين فكان ذلك حاملا لهم اعنى الفرنج على تذكر اشتراكهم معهم فى اصل واحد

ثم انه قبل تعمير النسل الجرمانى لجبيجزيرة قبريا وبجبيجزيرة سكندناوة بسبب انتشاره وكثرته كان يسكن تلك البلاد اناس يشق علينا أن نعرف لهم وطنا اقدم منها فالجبيجزيرة الاولى لم تزل تسمى باسم القمبرية او السمبرية وهم الذين فتحوا بلاد الغلية البلجيكية ثم عمروا جزيرة ألبيون التى بقى فيها ببلاد قبريا اى بلاد الغالة نسلهم على اصله لم يختلط بغيره واما الطائفة المسماة فنوا فهى اول من شغل سكندناوة الجنوبية ثم اندفعوا منها الى اطراف الشمال فى فنلندة ولابونيا عقب هجيج وقع من الجرمانيين لا يعلم زمنه ولا سببه ولا ما اعقبه من الحوادث وانما زعموا امرا لا يستبعده العقل وهو ان اودين او وودان الاسقيثى بعد أن ارتحل عن بلاد اسجارد واجتاز سرماسيا اخذ معه وهو سائر قبائل جرمانيا الغوطية وتغلب بهم على بلاد شرسونيزة القمبرية وبجبيجزيرة سكندناوة هذا ما امكن ايراده فى معرفة الاصل التوتونى للدانيمرقيين والنرويجيين والاسوجيين ويؤيده مشابهتهم لبعضهم فى الاخلاق واللغات والقوانين

ثم ان اودين بعد أن جعل لامم بحر بلطق قوانين يعملون عليها انقل اليهم طريقة دينية ملائمة بالكلية لضروراتهم التى لا يشفى غليلهم فيها الا الحرب والقتال فلذا صار مشرع اهل الشمال اعنى اودين المذكور اعظم الآلهة عندهم فعبدوه واعتبروه مصدرا لسفك الدماء وتدمير العالم والاحراق فكان لسوء انتخابه يعين قبل الواقعة من يقتل فيها من الحربيين فتأتى رسله وكانوا يسمون ديرس (وهم فى زعمهم كالملائكة) فيبحثون فى محل المعركة عن الارواح الطيبة ليحفظوها وكان يعد للشجعان مكافات وال هالة اى دار القتل وهى أن يصب لهم بها العذارى اللاتى يسمين والكريا البوزة بكثرة فى جماجم اعدائهم وكان يعد للجبناء مكثهم فى نسترود اى سلطنة الموت

فيتلقاهم

فيلقاهم فيها هالة في سراية الضنك على خوان الجوع وفراش الضنا وكانت دولة اودين العلوية اثنى عشر الها ذكرا ومثلها من الاناث وكان من اعظمهم فريه اوفريجة الهة العشق ولوكة اى اصل الشر وطور اله الرعد ونيورد حاكم البحر والعواصف وكانت هذه الآلهة تحب أن يتقرب اليها بالقربانات البشرية اى ذبح الآدميين فكان في كل تسع سنوات تنعقد جمعية عظيمة في ليرة بجزيرة سيلند يتقرب فيها لهؤلاء الآلهة بذبح ماتين من الآدميين ومثلها من الخيل

وقد اورث هذا الدين الحربي اهل الشمال احتقار الحياة فكانوا يلقون انفسهم في الاخطار و يبحثون عن الموت كأنه غاية نعيمهم ومبدء الحياة الطيبة فقد صاح لودبروغ وقت المعركة قائلا قد حان اوان الموت ودعاني الديزس الى سراية اودين لاشرب بها البوزة واجلس على سرير ساطع بين ابطال اسجارد وايام عمرى قد انقضت وها انا مبتسم للموت انتهى هذا ولم تكن شجاعة هؤلاء الحربيين الشماليين ناشئة دائما عن تأثير دينهم فقد قال بردور ملك أوافسدال انى لا اثق بالاصنام في شيء فقد طفت بلادا كثيرة وقابلت جنا واعوانا فلم يقدروا أن يضروني بشيء فاذن لا اعوّل الاعلى حولي وقوتي انتهى وقد رأى بعض مشرعي السكندناوية انه يلزم تحديد هذه الشجاعة الموثوق بها واستعمالها على وجه منتظم لانها قد بلغت مبلغا كبيرا بحيث تطاولت على مافوق الطبيعة ففرض على الشجاع أن لا يحمل الاعلى عدو واحد وأن يدافع عن نفسه اثنين وأن لا يسلم لثلاثة وأن يهرب من اربعة

هذا وكان العساكر الذين تكلم عليهم تاسيت وبذلوا انفسهم في خدمة رؤساء جرمانيا الحربيين يعرفون عند اهل الشمال باسم تمبير اى المبارزين وكان بينهم وبين رؤسائهم من العلائق والروابط ما لا يمكن حله الا بالموت وكان لهؤلاء العساكر المتبربرين قوانين منتظمة فكان لا يرخص لقمبير هلف سبي النساء والصبيان ولا أن يبحثوا عن ملجأ يلتجئون اليه وقت هبوب العواصف ولا أن يداووا جروحهم قبل انتهاء القتال ولما كانت الحمية الحربية قد بلغت منهم مبلغا عظيما يكاد أن يكون جنونا انتظموا في سلك البرسكير (وهم طائفة بلغت الغاية في الشجاعة) فكان جميع هؤلاء الابطال يقتحمون الاخطار ولا يرهبون طعن العدو ولا هيجان العواصف فرحين بالاقدام على ذلك فرحا مستويا عند الجميع لان الصيال الذى كان عندهم فضيلة ضرورية لا يستغنون عنها كان يستدعى منهم هذه الشجاعة العظيمة التي كانت تحمل العذارى ايضا على حمل التروس وكانوا يعشقونهن عشقا لا تطول مدته

وكان يحكم الدانيمرقيين والسكندناويين ملوك من الدرجة العليا يسمون اوويركونجار وملوك خراجيون يقال لهم اوتيركنجار واغلبهم ينتسب الى اودين وكان تقلدهم بالمنصب الملوكى بالارث والانتخاب كما فى جرمانيا وكان عدد الاولين فى دانيمرقة اربعة اثنان منهم فى يوتلند وواحد فى ليرة والرابع فى سكانيا واما فى نرويج فكانوا يبلغون ثمانية عشر وفى اسوج دون ذلك وكان يلى الملوك الادنين فى الدرجة حكام يقال لهم ايارلس اى قونتات وكان دونهم عمال يسمون هرسس (ويقال لهم باللغة الالمانية هيران اى بارون) وكانوا اذا عزموا على القتال قادوا اليه الاحرار المسمين باسم بنديس

فاذا مات الملك عن عدة اولاد فمن لم يكن منهم له نصيب فى وراثة البلاد ينصب نفسه رئيسا على ارباب الصيال ويتلقب بلقب سكونجار اى ملك البحر فاذا قاد فرقة من العساكر البحرية على السواحل التى يصولون فيها لقب بلقب ويكانغ

واذا نظرت خرطة الشمال عرفت ان مدخلية البحر فى معيشة اهل هذه الاقطار اعظم من مدخلية البر فى ذلك العصر الذى كانت فيه الفلاحة فى درجة دنيا هينة وكانت معادن جبال سكندناوة لم تزل مجهولة عند هؤلاء الامم الذين كانوا يطأونها باقدامهم فقلة الغلال وعدم كفاية غيرها من المحصولات جبر الامم الشمالية على أن يعولوا فى امر معاشهم على خصوبة بحر نرويج التى لا تنفد ولا تفنى فانه اكثر بحار نصف الكرة سمكا ومع هذه الحرفة الثمينة كانت امم سكندناوة عرضة فى الغالب للجدب والقحط حتى ان المجاعة التى تخربت بها بلاد يوتلند فى عهد الكونجار سنيو حملت التانغ اى جمعية ويبورغ العمومية على أن تحكم حكما شنيعا حيث حكمت بقتل الصبيان والشيوخ غيران ما لحق بعض امهات هؤلاء الصبيان المحكوم عليهم بالقتل من شدة الغم والحزن حملهم على العدول الى امر اخف من ذلك وانفع فاستقر رأيهم على ان من تقع عليه القرعة يخرج من هذه الاراضى التى لا تفى محصولاتها باقواتهم وقد تكررت المهاجرة منهم بعد ذلك واذا صح ما ذكره عدة من مؤلفى ذلك العصر الذين جمعوا فى فرانسا ما بلغهم فيها من اخبار النورمان قلنا انه كان لهم قانون مستمر يحكم بانه فى كل خمس سنوات يغترب من الاولاد من سوى البكرى

ولعل هذا الهجيج الواقع من هؤلاء الشبان قهرا عنهم هو ما كان يقع من السكندناويين من الارساليات السنوية كما كان يحصل سابقا عند الانكلسكسون ولم تنس الواندليون تلك العادة حين الجأتهم الاغارة الكبيرة التى حصلت فى القرن الخامس

الى ساحل افريقة * وهذه الارساليات كانت على صورة صيال اهل الشمال في الانتظام والترتيب المعين وكانت الاخطاط البحرية تعين على تلك الارساليات على حسب عظم هذه الاخطاط واهميتها فكان قد تعين على كل خط منها بمقتضى العادة الجارية مقدار من السفن المسماة هولكير وسنيكار ودرا كار يقدمه الى الدونما العمومية وقد وصلت عدة السفن التى قادها الملك فرودة الثالث ثلاثة آلاف هذا ولو كان فى شعراء الشمال الذين كانوا يتغنون بسطوات فحول رجالهم من يضاهى اوميرس لرأيت ماحازه ملك ارغوس الشهير رئيس ارباب الصيال من الفخار والسودد دون ماحازه هذا الكونجار النرويجى

فكما ان اليونان ذهبوا لنهب كولشيدة وخزائن ترواده كذلك ارباب الصيال من النورمان وجهوا ارسالياتهم البحرية نحو السواحل التى يكثر بها مواد المبادلة لاسيما المدن التى كانت لثروتها يأملون منها مغنما عظيما فكانوا يأخذون من تلك المدن مايحتاجونه من الاسلحة والنقود اللذين هما اعظم وسايط التجارة اذ مما لاشك فيه ان صيال السكندناويين عبارة عن الحروب وعلاقات التجارة الا انه كان فى بحر بلطق اقرب للتجارة من الحرب بخلافه فى البحر المحيط فانه يكاد أن يكون حربا محضا وبواسطة بحر بلطق تجددت علامات التواصل والمخالطة بين مدينتى بركة وسكتونة الاسوجيتين وردغوتيا اى پروسيا واغريكلند اى الجزء الروسى المتوسط بين الشمال وايمبراطورية اليونان ولما كانت جسارة النرويجيين فى البحر الخارجى اشد منها فى غيره ذهبوا الى سواحل البحر الابيض ونهر الدوينا بقصد التجارة مع اهل فنلندة بيلاد پرميا (بيارملند) ولم يكترثوا بثلوج راس الشمال المنجمدة

ثم ان مملكة اسوج بالنظر لوضعها الجغرافى كانت تفوق غيرها من الممالك فى البحر الداخلى المتصل بجميع سواحلها فكانت سفنها غالبا تطوف استرويج التى تشتمل على جميع ساحل بحر بلطق الشرقى من نهر وستول الى جون فنلندة والارساليات البحرية التى توجهت الى تلك الاقطار المتوحشة هى فى الشهرة دون الاغارات التى تولد عنها الام المغرب المتمدنة مصائب كثيرة الا ان احدى هذه الارساليات ترتب عليها مصلحة عظيمة حيث كانت سببا فى وجود اعظم ايمبراطورية من ايمبراطوريات القرون المتاخرة

منشا ايمبراطورية الروسيا (سنة ٨٦٢)

وذلك ان طائفة من ارباب الصيال الاسوجيين اصلهم من بلاد ورسلجان ويعرفون بالوريغية نزلوا فى نهاية الجون الذى بنى عليه بطرس الاكبر

فيما بعد كرسي الامبراطورية الموسقوبية الجديد وفى هذا الزمن اثارت اموال جمهورية نغرودة الكبيرة اطماع الامم المتبربرة وكانت هذه الجمهورية تظهر بينهم بمظهر جمعية منتظمة فكأن التمدن جدد واحة فى صحراء التبربر
ولما اختل نظام السلاويين النووغرديين بما وقع بينهم من الشقاق والفتن الشديدة وهددهم الفلنديون صمموا على البحث عن الامن والراحة فى حماية الاجانب الذين كانوا يدفعون لهم الخراج قبل ذلك وذلك ان شيخا منهم يقال له غوستميل حثهم على ذلك فذهبوا الى الوريغية يطلبون منهم اميرا ينهى الشقاق الواقع بينهم ويحكمهم بموجب الاصول والقوانين فاجابهم الى ذلك روريق وسيناف وترُوور وكان الثلاثة اخوة فوصلوا بعساكرهم الى سواحل بحيرة ايلمان الا ان النووغرديين لم يتلقوا فى مبدء الامر هؤلاء المصلحين ولم يتركوهم يدخلون اسوارهم وداخل ارضهم وانما فوضوا لهم امر حماية البلاد وأنزلوهم فى ثغور جمهوريتهم فكان منزل روريق لدوغا القديمة ليمنع الفلنديين وار باب الصيال واقام سيناف فى بلدة يقال لها بيلزرو ليقاوم البيارميانيين فى اغاراتهم واما ترُوور فحملك على ايسبورق والتزم انه يصد نوشودلوونيا ويمنعهم عن التعدى * وبعد استيطان هؤلاء الوريغية بسنوات قلائل انضمت قبائلهم الثلاثة الى بعضها حتى صارت قبيلة واحدة ومنشأ ذلك موت سيناف وترُوور وجعل روريق دار اقامته نوغرود (سنة ٨٦٩) فعما قليل رأى الاهالى لهم سيدا يسوسهم ورئيسا يدبر امرهم الا ان سعيهم واجتهادهم فى استرجاع استقلالهم لم يترتب عليه شئ سوى ازدياد ظلم الاجانب لهم وتلقب روريق وقتئذ بلقب ويليكى كنيس اى الامير الاكبر وهو لقب لاقوى رؤساء الملل السلاوية وكان بسواحل نيوة ويكانغ اى رئيس خامل تولدت منه عائلة ملوكية لم يزل يخرج منها ملوك على بلاد الروسيا الى آخر القرن السادس عشر
ثم ان اثنين من اصحاب روريق يقال لاحدهما أسكولد وللآخر دير حملهما التولع بالبحث عن الحوادث على قصد الجهة الجنوبية فاستكشفا مدينة كييف التى كانت اذ ذاك تدفع الخراج للخوزارية وتغلبا عليها (سنة ٨٦٤) وانضم اليهما سكنداناويون آخرون فعما قليل ذهب صائلو بحر بلطق الى البحر الاسود بواسطة نهر برسطين وظهر أسكولد ودير أمام القسطنطينية ومعهما دونمة تبلغ مائتى سفينة وكان ذلك فى الوقت الذى هدد فيه نورمان آخرون مدينتى لندرة وباريس (سنة ٨٦٥)

وبعد موت روريق صارت مدينة القسطنطينية عرضة لاغارات اخرى اشد خطرا من السابقة حين جرّد خليفته اوليج فاتح مدينة كييف عن املاكهم وجعل هذه المدينة تخت بلاد الروسيا (سنة ٨٨٢) وصار جميع امم البحر الاسود يخشون بأس مملكة روريق ويخافون صولتها حين اجتمع المدينتان اللتان هما اعظم مدن السلاويين عمارا وجعة تحت حكومة واحدة ثم ان القسطنطينية التى كانت محصورة من جهة البحر الاسود فى عهد كل من اوليج وايجور (سنة ٩٠٤) و (سنة ٩٤١) تخلصت مما هو اشد خطرا من ذلك حين أعلن المنصور سويانوسلاف انه يريد نقل كرسى سلطنته الى جنوب نهر دانوب وبعد ذلك بقليل صارت بلاد الروسيا التى اشتهرت من مبدء امرها بسطوات ملوكها الاول عليها الفضل لولدمير ولياروسلاف حيث ادخلا بها اصلين متينين كانا سببا فى تمكين عظمها وهما دين النصرانية وقوانين محكمة وكان ذلك من (سنة ٩٨٠) الى (سنة ١٠٥٤) غير انه كان قد قرب الوقت الذى ترتب فيه على ظهور الامة السلاوية على النورمان الفاتحين وقوع تلك الايمبراطورية التى كانت من مبدء امرها ذات رونق وابتهاج عظيم فى الخلل المشؤوم الذى طالت مدته

اسلنده واغرونلند

ثم انه فى الوقت الذى احدث فيه نورمان آسوج الايمبراطورية الروسية كان النرويجيون قد انشأوا فى اسلنده (سنة ٨٧٤) تحت قيادة انجولف جمهورية حازار بابها الفخار بصيالهم وادمنوا الاشتغال باسباب التبربر والخشونة وقد حكم هذه الجزيرة اثناعشر من ارباب الشرائع والقوانين يقال لهم لجانير ثم دخلت فى حكومة ملوك نرويج وفى ايام اولاف الاول استكشف جماعة (سنة ٩٨٣) ممن هرب من اسلنده كان رئيسهم اريق الاشقر جزيرة اخرى وهى جزيرة اغرونلند وكان ذلك من عجيب بختهم وغريب امرهم فانحلت بهذا الاستكشاف مسئلة جغرافية من المسائل العلمية القديمة من غير ان يشعر معاصروهم بذلك فاخذوا بتلك الجزيرة قبيلة مكثت اكثر من اربعة قرون وهى من النزل الغير المهمة لشدة بردها ولم يكن يعرفها احد الا ملاحو السكندناويين الذين كانوا يقصدونها كل سنة لاجل صيد الحيتان ومن ذا الذى يعلم ما كان يحصل لشمال اوروبا لو دفعت الريح السفن السكندناوية قريبا من خط الاستواء ببعض درجات

النزول بساحل البحر الاطلنطيق

ثم ان تولع النورمان بالصيال حملهم على الدخول فى بحار نصف الكرة القديم لاسيما الجهة الجنوبية وكان قد سبقهم الى تلك المحال جيرانهم السكسونيون الذين تكوّن منهم فى وقت واحد تقريبا بقطرى الغلية وابريطانيا الكبرى قبائل مستمرة مع احتراس

قياصرة الرومانيين فى مدافعتهم و تيقظ قوننات الساحل السكسونى النازلين بسواحل هذين القطرين فمن تلك القبائل السكسونية قبيلة استوطنت فى مدينة سيسو (سكسونيا) و بيوكس وكان كانت لم تزل على استقلالها فى الوقت الذى انتشرت فيه حكومة قلوويس الى هذا الجزء الارموريقى و بعد ذلك باربعة قرون نزل بجوارهم صائلون آخرون فوقع التعارف بين هؤلاء الاقوام الشمالية باتحاد لغتهم بخلاف الانكلسكسون الذين فتحوا ابريطانيا فى القرن الخامس والسادس فان مقاربتهم للدانيمرقيين لم تكن ناشئة عن مجرد اتحاد اللغة بل كان منشاؤها ايضا اتحادهم فى التدين بدين اودين الذى كان عليه اصحاب هنجيست وغيره من مؤسسى الهبترشيا (اى الممالك السبع السكسونية)

وقد وقع القتال بين نورمان دانيمرقة ونرويج والانكلسكسون حين نزل هؤلاء الصيال ليزرعوا الاراضى التى تغلبوا عليها من الامة الابريطانية وذلك ان النورمان لما دنوا من الجزائر الابريطانية باستيلائهم على جزائر اركادة كان لهم فى اغلب الاوقات مدخلية فيما وقع من المشاجرة بين الايقوسيين والانكلسكسون والارلندية بوصف كونهم حلفاء او اعداء ولما ركبوا البحر بحذاء الشاطئ الشمالى من ابريطانيا الكبرى نحوا ولند اى بلاد الغلديين ورأوا بهذا القطر من الاموال التى اثارت اطماع هؤلاء الصائلين ما حملهم على النزول بسواحله غير ان هزيمة جوتلاك المسمى ايضا كوشلايك على سواحل نهر الموز (سنة ٥١٥) عرف بها هؤلاء الدانيمرقيون ان فاتحى تلك البلاد اعنى بلاد الغلية ابطال حربيون ذوو اقتدار على حمايتها والذب عنها ومن يومئذ صارت الجزائر الابريطانية بمفردها عرضة لصيال اهل الشمال وسلبهم ونهبهم فنزل بارلندة قبيلة من القبائل الدانيمرقية ثم ظهر النورمان فيما بعد مرة ثانية على سواحل فرنسا وانكلترة وكانت اغاراتهم متوالية مع الاتقان والانتظام حتى ظن انه لم يكن غرضهم من ذلك مجرد الغنيمة والوقائع الحربية بل مقصدهم ايضا التغلب على البلاد والحكم

و بعد أن مضى ثلثمائة سنة من ظهور كوشلايك نزل النورمان مرة اخرى على سواحل فرنسا ولم يكن ضعف الملوك المروفجيين هو الذى جلبهم اليها كما ان قوة شرلمانيا ليست هى التى اجلتهم عنها بل زعم بعضهم ان فتوحات هذا الرجل العظيم على سواحل البه ترتب عليها اذ ذاك دفعة اقوام من الشمال الى الجنوب حيث ذهبت بالسكسونيين الهاربين الى الدانيمرقيين لينا صروهم و يغروهم على الشر

وعلى كل فقد وقع من النورمان فى عهد شرلمانيا عدة اغارات فى بلاد فريزة

وترتب

وترتب على جسارتهم ان هذا الملك احس من نفسه بامور سيئة ستقع وقد اخذ ما كان يخشاه من ذلك فى الحصول والتحقق فى ايام لويز دوبونير حيث زل زلة غريبة لا دواء لها وهو نزوله عن اقليم من اقاليمه لهارولد الدانيرقى فكأنه بذلك يدعو غيره من رؤساء ارباب الصيال الى الاتيان من مواضعهم ليطلبوا من ارض فرنسا المواريث التى لم يمكنهم تحصيلها من ارض سكندناوة التى هى موطنهم ولكن لا مانع من أن يقال ان اغارة النورمان الكبيرة لم تحصل مباديها فى ايمبراطورية الدولة الكرلوبنجية الا بعد واقعة فونتينة التى هلك فيها الحربيون الذين كان لهم اقتدار على حماية تلك الايمبراطورية والذب عنها

وكانت الاقاليم البحرية من جرمانيا وفرنسا واسبانيا من مصب نهر البه الى مصب نهر الوادى الكبير عرضة لسلب اهل الصيال الشماليين

واذا صح ان اقطار سواحل نهرى البه ووزر كانت دون فرنسا فى مكابدة مشاق اغاراتهم التى وقعت منهم فى الانهر فانما ذلك لفقر تلك البلاد ومع انهم نهبوا همبورغ (سنة ٨٤٥) وحرقوا الكنائس التى بناها مارى انشير لم يتوغلوا بكثرة فى داخل سكس الا فى اواخر القرن التاسع حين ازدادت المحصولات الطبيعية وكثرت الايرادات التولدية بما جلبه شرلمانيا الى الاقاليم السكسونية من التأنس والتمدن حيث ترتب ذلك على ما احدثه فيها اولا من الاديار والمدن فهذا هو الوقت الذى عزم فيه النورمان على احداث قبيلة على نهر البه وكانت لهم فيه النصرة العظيمة على الدوق برونون الذى هلك فى تلك الواقعة مع اثنى عشر قونتة واثنين من الاساقفة وبعد ذلك بمدة يسيرة اخذ السكسونيون بثارهذه النكبة الكبيرة حيث بددوا شمل الصائلين الدانيرقيين فى واقعة نوردان ببلاد وستفاليا وقد تعجب هؤلاء المنصورون حين رأوا فى هذه الواقعة قامات اهل الشمال الطويلة الظريفة التى لم يكن لها نظير فى ملة الفرنج ملقاة على الثرى

ثم ان بلاد اسبانيا ذات الثروة كانت ايضا دون فرنسا فى مكابدة مشاق الاغارات النورمانية لكن لسبب آخر غير ما اسلفناه فى اقطار جرمانيا السابقة وذلك انها زيادة على بعد اقطارها كانت تحميها عواصف رياح جون غسقونيا وكان خلفاء قرطبة ايضا لم يزل فيهم قوة كافية لحمايتها ومع ذلك بادر اليها النورمان وتعجلوا بالسير اليها فحرقوا (سنة ٨٢٧) مدينة سويلة بعد أن أجلاهم من بلاد غاليسة رامير الاول ملك ليون ثم تغلبوا فيما بعد على لسبونة ومكثوا فى نهبها ثلاثة عشر يوما وجاوزوا راس سنت ونسان وبعد أن اقلعوا فى نهر الوادى الكبير حتى وصلوا الى

سويلة قصدوا قرطبة واليكنتة غيران قرب الاسلام من هاتين المدينتين جبرهم على العود الى سفنهم وعرفوا يومئذ البوغاز الذى يفصل اوروبا من افريقة وكان اذ ذاك يسمى نرواسوند وعما قليل اجتاز هذا البوغاز هستانغ وهو من اشهر ملوكهم البحريين بقصد الاغارة على ساحل ايطاليا

النزول بفرنسا

ولما كانت فرنسا اقرب الى الشمال من اسبانيا وتكاد تعادلها فى الثروة ويمكن وصول السفن الصغيرة اليها بواسطة عدة كبيرة من انهارها التى يمكن السير بها لاسيما وكان قد لحقها الضعف بما عرض لها من اختلال الحكومة الذى تسلطن فى سائر اقاليمها لزم أن تكون بهذه الاسباب مطمح انظار الصائلين السكندناويين ومقصدا لأن يتوجه اليها اقوى هممهم واعظم مجهوداتهم وكان شرلمانيا قد قصد أن يجهز سواحل المحيط بمواد المدافعة ولوازم الهجوم والسفن والتحصينات الان هذا المقصد كان فى غير وقته فلذا ترتب بعده على المشاجرات الداخلية لاسيما حرب فونتينة ترك تلك السواحل واهمالها وكانت اكتينا خالية عن السفن وما كان باقيا منها بمينات نوستريا الى ذلك الوقت فانما كان معدا لصيد الحيتان وكانت تلك السفن القليلة تفارق فرنسا فى الفصل الملايم لمجيء ارباب الصيال اليها وايضا كان اغلبها للابريطانيين الذين لم يكونوا محامين لفرنسا وان كانوا ايضا اعداء للنورمان قال بعض كتاب السير من اهل ذلك العصر انه ترتب على حرب فونتينة لاسيما ماوقع بين القونتة لمبير والقونتة رينالد من المنازعة فى شأن مدينة نتة أن صار الوطن خاليا عن المحامين وصار مثله كمثل جسم ازيلت بشرته وانكشفت اضلاعه وآثار الدوقات الذين كان الواجب عليهم حماية الايمبراطورية منازعاتهم الخصوصية على المصالح العامة وجعلوا للمتبربرين وسايط فيما اورث فرنسا المعرة من السلب والحريق انتهى وقال غيره ان النورمان لما رأوا الامراء الجبناء الكسالى يقاتل بعضهم بعضا خرجوا من سفنهم وانتشروا فى سائر اجزاء القطر (هذا وقد ذكرت ذلك والقلب كاد ينفطر من التأسف والتحسر) انتهى

ولم يكن ذنب هؤلاء الامراء المنوطين بحراسة السواحل هو مجرد تركهم لحمايتها بل استعان اغلبهم بالنورمان على أن يكونوا ظهيرا لهم فى حروبهم الخصوصية اوفى خروجهم عن طاعة الملك ولنقتصر على من كان منهم من العائلة الملوكية فنقول قد سبق ان بيبين الذى كان يتطلب اكتينا عقد المحالفة بينه وبين النورمان وصار بينه وبينهم التئام وارتباط اكيد حتى ظن انه تدين بدين اودين ولا مانع من صحة ذلك وكذلك لما خرج كرلومان عن طاعة ابيه كرلوس الاصلع ذهب الى

هؤلاء الاشرار وانضم اليهم وخرب معهم بلاد بلجيكة وكذا لويز الجرمانى دعاهم الى اقاليم اخيه كرلوس وان جعل المؤرخون ذلك مدحة له و لم يخشوا انه يضر بثغره وقصارى الامران هوج وهوابن طبيعى للوتير الشاب بنى اطماعه فى شأن تاج لورينة على مثل هذه المعاهدة

فهل يستغرب مع هذه الاحوال العديدة التى بها تسهل الاغارة على فرنسا ان النورمان طافوا كثيرا اقاليم لورينة ونوستريا واكتينا وان جميع مدن هذه الممالك الثلاثة ذاقت ولو مرة واحدة فى القرن التاسع مرارة غضب هؤلاء المتبربرين وشدة هيجانهم فكانت كثرة اموال الاديار وضعف حماتها يحملانهم على قصدها والتجاسر عليها وكان يثير غضبهم ما يحصل بها من احتفالات دين النصرانية الذى صار مكروها عند الامم الشمالية منذ سعى اهله فى ابطال عقائد دين اودين وما اشتمل عليه من الاوهام الفاسدة فلذا لم يسلم من تدميرهم الا ما قل من الاديار واما اغلبها كدير فلورى فقد لحقه من ذلك ما يمكن به تطبيق هذه العبارة عليه وهى من كلام صاحب المزامير وحاصلها انهم سفكوا دماء القديسين من غير أن يكون هناك من يواريهم التراب انتهى وكان تفكر اتقياء الرهبان فى حماية انفسهم دون تفكرهم فى انقاذ الآثار المقدسة من اهانة الوثنيين فنقلوها الى اماكن يصعب وصول ارباب الصيال اليها لاسيما مدينة ديجون فانها كانت محمية بشيئين اسوارها المنيعة وبعدها عن الانهار التى يمكن السير فيها ولما انقضت ايام تلك الشدة تطلب كل دير تلك الكنوز اعنى الآثار المذكورة المودعة فى الاراضى البعيدة وكان هذا التطلب فى بعض الاحيان خاليا عن الثمرة والفائدة وقد كافىء اهل طورس رئيس دير مرموتير على صنيعه معهم بكونهم قلدوه مطرانية كنيستهم وذلك انه بعد أن حفظ جثة مارى مرتين ثلاثين سنة فى الغربة حملها على كاهله مع ضعف بنيته بالهرم والشيخوخة

هذا ومن التطويل الممل الخالى عن الفائدة أن نستوفى الكلام على اغارات النورمان العديدة التى وقعت منهم فى فرنسا بل يظهر ان الانفع تعيين الحدود التى انتهت اليها تخريباتهم فنقول ان اقوال المؤرخين المطابقة لقرائن الاحوال تدل على ان تلك التخريبات عمت جميع حياض انهر الغلية القديمة النازلة جهة البحر المحيط فعلى ذلك يمكن أن نجعل حد اغارة النورمان الساحل الذى مبدؤه بقرب مدينة وورم ويرتفع الى مدينة ريميرمونت وينعطف جهة لنغريس واوتون ويقطع اقليمى بيوليس وفوريس ثم يذهب من بلاد سيوينة ويتصل بسلسلة جبال البرنات وماوراء هذه الجبال من اودية الرين الاعلى لم يصل اليه اهل الشمال

واما الحوض المتسع من نهر الرين المشتمل على مملكتى برغونيا فلحقه من مصائب العرب والجبار ما يكفى فى التأسف عليه وان كان لم يلحقه الى ذلك الوقت شئ من المصائب والتخريبات الاخرى ومع ذلك فقد نزل النورمان مرة نهر الرون واقلعوا من جزيرة كامرغه التى كانت العواصف قد قذفت عليها دونغا هستانغ ومازالوا سائرين مع الجهد والمشقة حتى وصلوا الى والنسة وربما كانت شدة تيار هذا النهر التى عرفت بمشقة السير فيه سببا فى انقاذ الاقاليم الساحلية

ثم ان القطر الذى يرويه نهر غارونة ومصابه العديدة كان اقل من خياض الانهار الاخرى الغربية من حيث كونه عرضة لسلب الصائلين وماذاك الا لبعده ولما يوجد فى هذه الانهار قديما وحديثا من الموانع التى يصعب معها صعود السفن بتلك الانهار ولا يمكن غالبا الظهور عليها ومع ذلك فقد ترتب على مشاجرة كرلوس الاصلع وبيبين الثانى مجئ النورمان الى سواحل اكتينا التى خربها غير مرة اجسر ملوك البحر المسمى هستانغ وفيما بين (سنة ٨٤٣) و (سنة ٨٤٨) صعدوا عدة مرات فى نهرى شارنتة وغارونة بل ونهر ادور ونهبوا مدينة بوردو ثلاث مرات وفقد فى المدافعة عنها سجوين وغليوم دوقا غسقونيا احدهما حياته والآخر حريته واستولى الصائلون فى هذه الاغارات المختلفة على مدينة سانتس واقلعوا الى مدينة بريغو ونهبوا ضواحى طولوزة وتقدموا حتى وصلوا الى داخل حلوق جبال البرنات ونهبوا بيغورة وتربس واوليرون وبايونة وفى (سنة ٨٦٤) دعاهم بيبين متطلب اكتينا الذى سهل عليهم النزول بتلك البلاد الى اراضى طولوزة وكانت هذه آخر مرة من طلبه لهم نخربوا تلك الاراضى ايضا ومن يومئذ صارت البلاد التى بين نهر شارنتة وجبال البرنات لا تكابد شيأ من النورمان بخلاف الاقطار التى على سواحل نهر لوار والسين والاسقوط والموز فان اغارات الصائلين بها كانت متتابعة مستمرة اكثر من غيرها ولما كانت هذه الاغارات حاصلة على وجه الانتظام والترتيب وان لم تكن دون غيرها فى التخريب ترتب عليها أن صار على كل نهر من هذه الانهار نزل حصينة كانت مجمعا لدونغات اهل الشمال ومركزا للحركات العسكرية وعونا للعساكر ومخزنا للغنائم وبالجملة فهى قبائل حقيقية يلزم لاجل تنظيم التاريخ ونفعه أن نورد ما حصل فى اغاراتها من الحوادث الاصلية بان نذكر حوادث كل منزلة على حدتها فنقول

المنزلة الاولى منزلة نهر الاسقوط

انه منذ حظى هارولد بنفاقه وتنصره الكاذب من لويز التقى بالتوطن فى بلاد بتاويا اتى غيره من رؤساء الصائلين طامعا أن يؤسس حكومته فى بلاد تصل اليها

بسفنه من جميع الجهات فلما تغلبوا على دورستاد (ويك ته دور ستيد) وقتلوا اهل اوترشت وحرقوا مدينة انويرس ودمروا مدينة وينه التى على مصب نهر الموز سهل عليهم التغلب على جزيرة ولشيران او ولخيران التى هى اول منازلهم وكان ذلك (سنة ٨٣٧) ولما نزل الايمبراطور لوتير للنورمان عن البلاد التى فتحوها الاسيما دورستاد التى كانت من اعظم اسواق الفريزيين بادروا بالنزول فى مدينة لوان وجعلوها موطن عساكرهم وكانوا يذهبون منها لتخريب ما جاورها من الاقطار الا ان بدوين الاول دافعهم عن افلندرة بسيفه وترسه وفاء بالشروط التى اشترطت عليه حين تقليده بالمنصب بخلاف بلاد لورينة الواطية وفريزة فانها ذاقت مرارة جوار قبيلة الاسقوط وكذلك نوستريا الشمالية فانه لحقها بعد ذلك شؤم جوارها وكان اعظم رؤساء هذه القبيلة روريق او ريريق الذى خطى بدوقية فريزة من كرلوس الاصلع لضعفه (سنة ٨٧٠) حين اسس سميه وهو من ارباب الصيال ايضا ايمبراطورية فى شمال اوروبا ومن اعظمهم ايضا رودلف الذى نهب جرمانيا وقتل فى محاربته مع لويز الجرمانى (سنة ٨٧٣) ورولون الذى بعد أن نهب هولندة وهزم على نهر الاسقوط نواب ملك فرنسا ترك جزيرة ولشيران وذهب لقيادة قبيلة نهر السين (سنة ٨٧٦) وغودفريد الذى نزل بسواحل نهر الموز ومعه فرقة من عساكر الدانيمرقة الذين أبوا أن يتدينوا بدين النصرانية وتمكنوا فى انكلترا الشرقية تحت احكام ألفريد الاكبر هذا ولا مانع ان يقال ان غودفريد المذكور هو اقوى رؤساء النورمان الذين صارت ذكراهم مهولة واسماؤهم مخوفة فى شمال الغالية فان نصرة نوين ببلاد اردينة التى قتل فيها ابن لويز الجرمانى الطبيعى تمكن بها حكمه على سواحل نهرى الاسقوط والموز وتقوى النورمان فى عهده بمدينة نميغة حتى ان ملك جرمانيا لم يقدر على اجلائهم منها وبنوا فى كورترية حصنا وجددوا فى اسكالوهة قبيلة فكان فى حكمهم جميع البلاد التى بين نهرى الموز والسوم وانى نورمان نهر الاسقوط وحرقوا كوربيا واميان وارّاس وتروانه وكان قائدهم ويرمند وفى (سنة ٨٨١) نزلت بهم مصيبة كبيرة بمدينة سوكور ببلاد ويمو الان فخر تلك الهزيمة كان اعظم من ثمرتها للويز الثالث الشاب ملك نوستريا وبقى لهؤلاء المنهزمين من البلاد مدينتا انويرس وغند ومعظم بلاد فلندره ثم ان قبيلة اسكالوهة اخذت بثار هزيمة سوكور حيث اغارت اغارة كانت اهول جميع الاغارات التى ذاقتها مملكة لورينة وذلك ان غودفريد واخاه

(سنة ٨٨١) و(سنة ٨٨٢)

سجفريد ونائبيه هلك وغورم طافوا سواحل نهر سمبرة والموز والرين ونهبوا وحرقوا مدن طونغره وكولونيا وبون وبوليرس وتريوه ومتز واكسيلا شبيلا وفى هذا الوقت صارت كنيسة شرلمانيا الكبرى اصطبلا لخيل النورمان ونهبت سراية هذا الايمبراطور الاكبر مع الوقاحة والافتخار وصارت خربة ثم ازال هذه المعرة اوتون الاكبر بعد ذلك بثمانين سنة وبخراب هذه المدينة اى اكسيلاشبيلا ظهر ان ايمبراطورية شرلمانيا انقرضت بانقراضها

وكان الملك فى ذالك العصر كرلوس السمين فتجاسر على الحضور أمام اسكالوهة طامعا فى جبر هذا الخلل وما لحقه من المنقصة والاساءة لكن لما لم يمكنه الظفر بغودفريد وهو فى حصونه المنيعة عرض عليه الصلح الذى ترآى منه انه نجاة لشرف المنصب الملوكى من الضياع حيث التزم رؤساء النورمان أن يتعمدوا ويدخلوا فى دين النصرانية ونال غودفريد فى نظير ذلك أن تزوج بنت من بنات لوتير الثانى يقال لها جسلة واخذ دوقية فريزة وغيرها من سائر الاقطاعات التى كانت قد اقطعت منذ قليل لروريق (سنة ٨٨٢) وعما قليل استقل هذا النورمانى المتكبر ما بذل اليه فى صداق جسلة وتشكى من ذلك فان بلاد فريزة كانت خالية عن الكروم مع ان الصائلين كان يلزم لهم نبيذ نهر الرين فالتزم الايمبراطور باجابته الى ما طلبه حيث اعطاه كوبلنتز واندرناك غير انه لما تقابل مع هنرى قونتة فرنكونيا فى هرسبيك قتله هنرى المذكور متعللا بأنه يسعى فى اعانة صهره هوج على طلب تاج لورينة مع السفه والوقاحة

وبعد قتل غودفريد عاد نورمانلوان الى الصيال وشن الغارات فاتى أولا اخوه سجفريد الذى تولى بعده الى سواحل نهر الواز وخربها ثم ابعده عنها الملك كرلومان بدفعه له اثنى عشر الف قطعة من الفضة ثم اتى فى السنة التى بعدها الى نورمان السين وانضم اليهم ليحاصر معهم باريس (سنة ٨٨٥) فغزا غزوات عديدة فى جميع انهار نوستريا ثم عاد الى لورين الواطية وهلك مطران ميانسة الذى كان يريد منعه وصده فتوجه لقتاله الملك ارنولف قائد الفرنج الشرقيين وحاصر النورمان فى موطن عساكرهم وهو محل يصعب الوصول اليه بسبب نهر ديله وبطحاء متسعة هنالك ومع ذلك فلما وطئ الارض باقدامه وامسك البيرق الملوكى بدأ الاغارة بنفسه وحمل على العدو فهلك فى هذه الواقعة سجفريد الذى كان جديرا بان يكون عديلا لهذا البطل البوارى وهلك ايضا رئيس آخر ولما رآى عدة آلاف من الدانيمرقة ان هذه اول هزيمة حصلت لهم ألقوا انفسهم

فى نهر

فى نهر ديلة وكانت السنة عشر بيرقا التى اغتنمت فى هذه الواقعة علامة للامة الجرمانية على خلاص لورينه

هذا ولو كان للشوكة الملوكية فى فرنسا من القوة ما يوجد الى ذالك العصر بجرمانيا واجتمعت الهمم والقوى المتفرقة تحت رياسة رئيس واحد لحصل لنورتمان السين ولوار ما حصل لنورتمان الاسقوط

المنزلة الثانية منزلة نهر لوار

وكان مجاورة الابريطانيين لم تكف فى تخريب سواحل لوار ومينه لجاء النورتمان اليها ايضا لينازعوا الابريطانيين او يقاسموهم فيما يخرج بهذه الاقطار الخصبة من الغنيمة التى لا تنفد وكان ارباب الصيال قد نزلوا من عهد لويز التقى على مصب نهر لوار فلما مات هذا الايمبراطور وصرف القونتة لمبير لطمعه الموجب للتنغيص والتعكير ما كان من القوى يمكن به دفع هذا العدو العام وحوله الى ما فيه منفعته ومصلحة نفسه نشر النورتمان جميع شراعاتهم فى النهر الذى امكنهم به الوصول الى داخل المملكة وكانوا قد توطنوا (سنة ٨٣٠) فى جزيرة هير وهذا الاسم الذى تغير الى نوارموتيير (نجروم مونستريوم) يذكرنا حويقة دير سنت فليبير ولما تغلب هؤلاء الصائلون فيما بعد على مدينة نانتة (سنة ٨٤٣) وكان ذلك اول مرة نقلوا اعظم قبائلهم الى جزيرة بيرة تحت مدينة سنت فلوران فعما قليل صار منظر لخصاصهم كمنظر مدينة واودعوا هنالك اساراهم وغنيمتهم وانتظروا رجوع الارساليات المعدة لنقل اموالهم الى وطنهم وكانوا يذهبون الى تلك الجزيرة ايضا ليستريحوا من الكد والتعب وليداووا جروحهم

ثم ان هوريق الذى هو اول من قاد النورتمان الى جزيرة هير مهد الطرق لهستانغ فلخذ المذكور على عادته فى التخريب حيث شن الغارة على سواحل نهر السوم ثم اعقب هذه الاغارة بغزوة على نهر لوار (سنة ٨٣٨) واحرق فيها مدينة امبوازة وكان هذا الحريق سببا فى تذكارها مدة طويلة وقد وصف مؤلفو ذالك العصر هذا الحربى بانه شر الناس قاطبة فقد كان حاويا لافظع الصفات واشنع الخصال التى يسر اهل الشمال بنسبتها الى اعظم آلهتهم ومع ذلك فقد كان مولده بمملكة فرنسا التى دمرها وخربها بما يصدر عادة عن الخيانة والردة من الهيجان والغضب هكذا ذكره اقدم مؤرخى النورتمان ولم يسلم اهل الشمال بل نازعوا فى ذلك مدعين ان هذا المتبربر منهم ولنتركه لهم ونسلم دعواهم وان لم يكن فى ملوك البحر النورتمانيين من يدانيه فى الارهاب والتهويل عند ذكر اسمه

وكان هستانغ المذكور قد جمع دونمنا من اهول دونمات القرن التاسع وحضر اليه

من اقسام سكندناوة الثلاثة جم غفير من ارباب الصيال ودخلوا فى العسكرية تحت قيادته وكان للملك ريغنار لودبروغ ولد يقال له بيورن كوت دوفير (ومعنى كوت دفير الضلع الحديد) وكان قد حكم عليه بموجب قانون المهاجرة ان يتغرب غربة الصائلين فسلمه ابوه الى هذا المتولع بالبحث عن الحوادث فى الاقطار لكون شجاعته متيقنة مختبرة وبسالته مجربة مشهورة فاقلع اصحاب هستانغ فى نهر لوار وكان دليلهم القونتة لمبير وكان يروم استرجاع حكومة مدينة نانتة ولو بذل فى ذلك مابذل لكن لم يعد عليه من مخالفة النورمان الا التخريب وسفك الدماء (سنة ٨٤٣) ولولا ان ما انطوى عليه هستانغ من ميله بالطبع الى الاخطار افضى به الى اغارات اخرى اشد خطرا من اغاراته السابقة للحق مدائن نهر لوار الاخرى مالحق مدينة نانتة وانما عاد الى هذا النهر حين رجوعه من اسبانيا وخرب غير مرة جميع المدن التى بسواحل ذلك النهر فى عدة سنوات ثم تنفست عنها هذه الكربة وذاقت طعم الراحة مدة من الزمن حين حمل هستانغ تولعه بالحوادث الجسيمة على أن يطوف السواحل البعيدة فى بحر كان السكندناويون الى ذلك الوقت لم يهموا بركوبه والسفر فيه فذهب ونهب مدينة بيزة بايطاليا (سنة ٨٦٠) ولمارست دونغته وكانت عدتها مأتى سفينة صغيرة على مدينة لونا الصغيرة ظن النورمان انهم استكشفوا رومة وتغلبوا عليها بمكيدة حربية يستبعدها العقل ولما ارادوا العود الى البحر المحيط هبت عليهم ريح دفعتهم الى نهر الرون فنقلوا ماغنموه من افريقة وايطاليا وپروونسة الى جزيرة نوارمتيير واستولوا ثانيا على نهر لوار

وفى مدة ما كان هستانغ يوقع الفزع والرعب فى ساحل طوسكانة كان كرلوس الاصلع قد فوض امر حكومة البلاد التى بين نهرى لوار والسين وحمايتها الى قونتة انجو المسمى لوبير لوفور اى القوى (سنة ٨٦١) وتغير حال المقاتلة بين الفريقين حيث انتفت المساواة بينهما ومع ذلك فلم تزل اغارات هستانغ فى داخل الاراضى على حالها لم تنقص شيأ وحمل عليه كل من دوق فرنسا ودوق اكتنيا فى بريسرتة حين كان راجعا من نهب منس قائدا اربعمائة من الخيالة فوقعت هنالك واقعة شديدة قتل فيها هذان الدوقان اللذان كانا اعظم محامى المملكة (سنة ٨٦٦) فلحق فرنسا اسف وحزن عظيم على موت دوقها ذى القوة والباس وكانت تعتبره الكنيسة كأنه مخابى آخر (نسبة الى المخابية وهم سبعة من بنى امرائيل كانوا اخوة وعذبوا فى الدين وقتلوا عن آخرهم) وقد ازداد تاسف الملة بما وقع من

هستانغ

هستانغ حيث اقلع في نهر لوار وتوغل فيه بقدر ما امكنه تسيير سفنه ثم ذهب ونهب مدينة كليرمون بولاية أوورنيا وكانت هذه الفعلة الصادرة عن الجسارة (سنة ٨٦٧) آخر غارات النورمان

وقد تنفس عن فرنسا كربتها ثانيا حين ذهب هستانغ بعد هذه الغزوة لينضم هو واغلب رؤساء النورمان الى ملوك السكندناويين ورؤسائهم الذين تغلبوا على انكلترة في صغر ملكها ألفريد الاكبر (سنة ٨٦٧) لكن لما انقذ هذا الملك الانكلوسكسوني مملكته من حكومة هؤلاء الاجانب اتى من ابى من الدانيمرقيين الدخول تحت طاعة ملكهم غودرون وعادوا الى ما كانوا عليه اولا من تخريب البلدان أمام البحر فنزل منهم على سواحل فرنسا رولون وغودفريد وهستانغ آخر (سنة ٨٧٦) و (سنة ٨٧٩) وكان نورمان نهر لوار قد لحقهم خسارة كبيرة بمدينة انجير حيث قهرهم فيها كرلوس الاصلع على تسليمها بتحويله مجرى نهر ميانة بحيث لومكثت فيه سفنهم لصارت على يبس من الارض لكنهم لما تقوى جانبهم بهستانغ ورئيس آخر يسمى جيرلون عادوا في اقرب وقت الى شن الغارة فقاومهم ثلاثة ابطال مشاهير من فرنسا ودافعوهم عن هذه المملكة احدهم هوغس او هوج الراهب وكان دوقا على فرنسا منذ قتل لوبير لوفور والثاني اودس ولم يكن له وقتئذ من وراثة ابيه الا اقليم اوترمينة والثالث انجلجير وكان قريب عهد باخذ قونتية انجو مكافأة له على سطواته الناشئة عن فرط شجاعته فلحق النورمان بعض مصائب ومع ذلك اشترط كل من جيرلون وهستانغ شروطهما على ملوك فرنسا فنزل اولاد لويز الالكن للاول عن قونتية طورس واستقر عليها مدة طويلة مسمى باسم تيود بالد الذى تسمى به حين تنصر وكانت ولاية شرترة سببا في الصلح بين هستانغ وكرلوس السمين غيران هستانغ باع قونتيته لتيودبالد خشية أن يفعل معه هذا الامبراطور كما فعل بغودفريد قبله حيث قتله في هرسيبك ولا مانع ان الحامل له على ذلك ايضا سآمة نفسه من الحياة الحضرية فهاجر من فرنسا ولم يعد اليها بعد ذلك اصلا واما تيودبالد الذى استولى على طورس وشرترة وكذلك بلواس فانه رفض دين وطنه واخلاقه رفضا مؤبدا ولما حاز لذريته اعظم امارة من دوقية فرنسا سد نهر لوار على ارباب الصيال من اهل الشمال ووافق ذلك الوقت الذى انتهى فيه ملك بحرى من عشيرة الغارة السكندناوية بتمكنه من حكومة نستريا البحرية ومع ذلك مكثت قبيلة نهر لوار الاصلية مدة طويلة في ابريطانيا الواطية

وكانت تخرج منها غالبا تحت قيادة رينولد اما لتغتنم فرصة الفتنة التى كانت فى المملكة فى ايام كرلوس لوسانبل اى المغفل وربول واما لتنتقم من النورمان النوستريين الذين كانوا يرومون اذلالها وادخالها تحت طاعتهم

المنزلة الثالثة منزلة نهر السين

هذا وكان نهر السين قبل نزول وولون بسواحله مشؤوما على الاقاليم التى يرويها والمدن التى كان سببا فى ثروتها منذ قليل والبيوت الملوكية العديدة المبنية على النهيرات التى يصب فيها حيث كان من بخت هذه القبيلة وحظها وفخارها أن تعادل الدولة الكرلونجية وتفوقها بمزايا كانت اكثر دواما من هذه الدولة نفسها

ولا حاجة الى الكلام على الدونمنا التى كانت عدتها ثلاث عشرة سفينة وكان ظهورها فى مصب نهر السين (سنة ٨٢٠) ولم يترتب عليها الا استكشاف الاماكن وانما نتكلم على السنة التى اعقبت موت لويز التقى فنقول ان تلك السنة اشتهرت بغزوة اوشير الذى هو اول من تغلب على مدينة روان (سنة ٨٤١) فمن يومئذ صارت هذه المدينة التى كانت تحامى مدينة باريس عاجزة عن مدافعة صائلى الشمال وخرجت من الحكومة الملوكية خروجا مؤبدا ولما كان ريغنار اشد جسارة من اوشير او اسعد حظا منه اقلع فى النهر حتى وصل الى باريس ومعه مائة وعشرون زورقا واحرق الضاحية التى حدثت حوالى دير سنت جرماند پريه (سنة ٨٤٥) الا ان هذا المتبربر لم يستفد من نجاحه شيأ وانما خليفته هوريق اخذ من كرلوس الاصلع سبعة آلاف فرنك على أن يرتحل فترتب على هذا الجبن امران مشؤومان احدهما انحلال عزم الامة حيث ظهر لها ان الشوكة الملوكية لم يبق لها من القوة ما يكفى فى حمايتها * ثانيهما جسارة ارباب الصيال على الاقدام على كل شئ ومن وقتئذ صار لا يتوارد على المملكة الا النهب تارة والفداء اخرى ولما اجتمع ملوك فرنسا وجرمانيا وايطاليا فى مشورة مرسان وتهاونوا بقسامهم حتى طلبوا الصلح من كونجاو الجزائر الدانيرقية (سنة ٨٤٧) صار شرف الممالك الثلاث عرضة للضياع بالكلية وقد اقتضت الضرورة ان هذا الملك السكندناوى يجيبهم الى الصلح ولو فرض انه بلغ فى الشوكة ما بلغ ولم يرض بذلك فماذا كان يصنع مع قومه ارباب الصيال وبعد ترجى هؤلاء الملوك اوالزامهم له بالصلح بخمس سنوات اتى ولدان من اولاد هارولد ليقيما مدة الشتاء فى اكناف اوتون وكانا قد خربا سواحل السين ويونة وبعد ذلك بيسير رأى اهل بلد يس ايضا توقد النار فى ادبار ضواحيهم وفى كنيستهم الكبرى المنسوبة للقديسة حامية بلدتهم وكان ذلك (سنة ٨٥٧) وقد قال فى ذلك بعض مؤرخى ذلك الزمان ان لوتيسة (باريس)

التي هي كروي جليل مرونق بالفخار وخزينة الملوك ومينا المللى صارت تلا من الرماد انتهى ومع ذلك فهذه المدينة لم تقع في هذه المرة ولا في غيرها تحت حكم النورمان ولم يشاركها في هذا الحظ الغريب من مدن فرنسا الغربية الا مدينة سنس وهذه الارسالية التي اوقعت وقتئذ باريس في الفزع الشديد كان خروجها من جزيرة واسيل وكان من عادة ارباب الصيال الذين على نهر السين الالتجاء اليها وفى السنة التي بعد هذه اتى بيورن كوت دوفير الذى كان حاكما على تلك القبيلة الصائلة الى سراية وبربرية لمبايعة كرلوس الاصلع واخذ من هذا الملك اسعافا عظيما للحرب ولما كان يلزم ايضا تسكين غضب نورمان نهر السوم الذين كانوا ينهبون المدن ويحرقون الاديار ويقتلون القسوس ولم يكن احد يقاومهم الارهبان دير سنت ركيير وكان هؤلاء الرهبان عادة يحكمون الساحل البحري تكفل لهم كرلوس بمبلغ من الاموال ووقع التراضي عليه فالتزموا بواسطة ذلك (سنة ٨٥٩) أن ينضموا الى الفرنساوية لاجل طرد ابناء بلادهم من جزيرة واسيل .

هذا ولو تجاسر الملك والقونتات على ماهو الاولى من دعاء الامة الى القتال لاجل انقاذ فرنسا بدلا عن تكليفها دائما تكاليف شاقة لما كان هذا الاسعاف الذى هو من باب الغرور ضرورا ربما لانهم خافوا أن يقلدوا بالسلاح اقواما مظلومين فان النستريين لما حملهم الغيظ على أن يقوموا من تلقاء انفسهم ليخلصوا بلادهم من النورمان خشي الامراء ان تلك العصبة الهاجمة بعد انتصارها تنتصف ممن ظلمها وقد انحلت هذه العصبة على وجه السهولة لانها لم تكن على ما ينبغي في الادارة والضبط والربط وكانت همتها الناشئة عن حب الوطن وان لم تجد نفعا آخر دليل على حرية الامة

وكان لم يمكن لكرلوس الاصلع أن يطرد الصائلين من جزيرة واسيل فعما قليل اتوا ليتوطنوا في سراية بنثة (سنة ٨٦٤) وقد كان هذا الملك صدر عنه فيها امر كان يتراآى منه ان حماية المملكة تتم به ثم ذهبوا بعد ذلك بيسير الى جزيرة سنت دنيس ليتحصنوا بها وكانت مواد هذا التحصن من ديرها الذى مكث تحت قبضتهم عشرين يوما وكانت هزيمة روبيرت القوى بقرب ميلون سببا في اضطرار الملك أن يبذل لهؤلاء الاجانب ثانيا اربعة آلاف ريال في نظير ارتحالهم وبذلك عادت غرامة النورمان

ولما انضم حربيو انهار فرنسا الى دونما الشمال الكبيرة في التجريدة المبعوثة الى انكلترة (سنة ٨٦٧) تراآى ان نهر السين قد تخلص من ارباب الصيال فاراد كرلوس الاصلع أن يغتنم فرصة هذه المتاركة فبنى حصونا في عدة اماكن من السين

لاسيما فى بستة وسنت دنيس وباريس وامر حينئذ بدعاء الترنسكانيين الى تجهيز ما يلزم لحماية البلاد التى كانت مدينتا طورس ومنس منزلين منها منزلة الحصنين والزم كل من القسوس والقونتات والعمال وسائر الاحرار بمغارم جسيمة على حسب مالهم من الاقطاعات اوفدادين اراضيهم ولو نفذ الامر الثانى الذى صدر عن الملك فى بستة وجرى العمل بمقتضاه على ما ينبغى لامكن لبلاد نستريا أن تستعد لدفع مادهمها بعد ذلك بيسير من الهجوم الفظيع والخطب الشنيع

وفى (سنة ٨٧٦) تقريبا دخل فى نهر السين دونماسكندناوية لكن لم تكن كغيرها من الدونمات السابقة فى القتل والتدمير بل جاءت بالصلح الذى حصل بعد قدومها بقليل وبتنظيم الامور وترتيبها على وجه احسن مما ترتب فى نستريا عن اعظم احكام الدولة وذلك ان رولف او رادهولف الشهير باسم رولون ابن رينولف الذى كان رئيسا ذا شوكة على المور ببلاد نرويج كان من امره انه جبر او لا على المهاجرة من بلاده كالممنوع من الارث فلما عاد اليها المرة الاولى حكمت عليه مشورة الملك هارولد بالنفى المؤبد لكونه استعمل الستراندوغ ومعناه بلسانهم القبض على الميرة فذهب الى بعض زوارق وانضم معها الى جيش الصائلين الذى كان قريب عهد بالاستيلاء على مملكة الانكاسكسون فعند ذلك فصله ألفريد من معاهدة غيره من رؤساء الدانيمرقيين ولم تكن رتبته بينهم يومئذ عظيم شئ ومهد له طريق التوطن بجزيرة ولشيران وكان اذ ذاك نهر الاسقوط مضروبا عليه مغرم لاجل الفداء به وبلاد فريزة متسلطنا عليها النهب والسلب فقوى بذلك قلب هذا النرو يجى المنفى وتعلقت آماله بمشروعات جسيمة وكان نهر السين وقتئذ خاليا عمن ينغص على ركابه ويصدهم عن السير به فذهب اليه رولون المذكور وشغله وفتح له مطران روان ابواب مدينة لم يكن بها من يدافع عنها

ثم ان طمع كرلوس الاصلع فى ضم بلاد البلجيكة وايطاليا الى مملكة فرنسا اوقعه فى حيرة شديدة لم ينقذه منها الا موته العاجل وكان لا يبالى باى خسارة كانت اذا اقتضى الحال السفر الى نهر الرين اوماوراء جبال الالب لاجل حماية ميراث لوتير الثانى اعنى المنصب الامبراطورى او ليس انه فى مجلس كيرسى سمحت نفسه أن ينزع آخر شريط من تاجه (وذلك كناية عن نزوله عما بقى له من المزايا الملوكية) فكيف يتوقف فى سلب اموال رعيته ليطرد بها عنهم العدو الصائل (رولون) الذى كان يتطاول عليه فى داخل مملكته ومحل حكومته وبالجملة فقد خرج من فرنسا كل من الملك والصائل احدهما من البحر والآخر من الجبال ولم يعد اليها كرلوس

الالبقير

الا ليقبر فى اصل غرسه ومسقط راسه واما رولون فرجع اليها بعد ذلك واخذ التاج
(سنة ٨٨٢) وفى مدة ما كان غودفريد مشتغلا باخذ اقليم من جرمانيا اغير على فرنسا النسترية من نهرى السوم والسين جميعا وكانت علامة قدوم النورمان ما اوقد على التلال من النيران المتقاربة من بعضها غيران الاغارة كانت اسرع من الحماية فاذاب هنقمار كاس سنت ريمى وكان من الذهب ليفتدى به مدينته لخلوها عن الاسوار وجبر ايضا على أن يذهب الى قلعة ايبرناى ونقل معه لها آثار القديس محامى فرنسا ليأمن بها على نفسه وعلى تلك الآثار فادركته المنية فى هذه الغربة واما كرلومان فانه وان انتصر نصرتين قريبا من آووكس ووالى صار مجبورا على أن يدفع للنورمان الذين انتصر عليهم اثنى عشر فرنكا من الفضة لخالفوه على أن ينصرفوا فلما مات هذا الملك رأوا ان يمينهم قد انحلت وكانت فرنسا التى انتصرت على عدوها واجبرت على دفع الخراج له قد فقدت حماتها وثروتها فكان يستبعد وقوع الصلح وهى بهذه الحالة حتى انها مكثت مدة طويلة لا يأمن احد من اهلها على نفسه فى خارج حصونها وكانت الرمم المطروحة فى الطريق العامة من سائر الجهات دالة على مرور النورمان

ثم ان الفرنساوية ولوا على مملكتهم بعد كرلومان كرلوس السمين وكان لا قدرة له على حمايتها فانه كان على غاية من الجبن بحيث لا يمكنه الاقدام على ذلك وكان خاليا عن المهارة بالكلية بحيث لا ينجح وقد ظهر ذلك حين عجز سيجفريد الذى دخل نهر السين بسبعمائة زورق عن أن يتغلب على قنطرتى المدينة اللتين كانتا تسدان مجرى النهر فحاصر باريس وذلك ان كرلوس المذكور اكتفى فى مبدء الامر بكونه بعث اقونتة هنرى لاعانة الاهالى الذين كانوا يدافعون عن مدينتهم مع الحمية والشجاعة تاسيا بقونتهم اودس واسقفهم غوزلين ولاسيما ابلس رئيس دير سنت جرمان فانه كان فى الحرب من فحول الرجال ولولا ما دنس اوصافه العظيمة من الحرص والانهماك على الملاذ لفاق غيره من الرؤساء فوقع نائب الايمبراطور فى ايدى النورمان وانتقموا منه فى نظير ما وقع لهم سابقا من الخيانة فى هرسيدك ولما لم يترتب على قدوم الجيش السكسونى اعانة لتلك المدينة المحاصرة ترك اودس خفر حمايتها مدة وذهب يبحث عن مناصرين فلما اجابه كرلوس الى مطلوبه بعد الحاحه عليه قدم يقود جيشا جرارا الا انه لم يقاتل به المحاصرين بل ليشهر به ما اورثه المعرة الكبيرة من المشارطة التى لم يطلبها غيره من الملوك وكان قد قتل غودفريد ولم يجسر على قتال اصحابه الذين ذهب سيجفريد فى طلبهم الى سواحل نهر الموز ليضمهم

الى نورمان نهر السين فكان قدومه بهم حاملا للامبراطور على طلب تلك المشارطة وكان ابطال العساكر الذين كانوا يدافعون عن باريس ينتظرون من جيش الامبراطور واعانته تكون اقوى مما فى المدينة من الاستصراخ والاستغاثة الدينية التى كان يسمع دويها فى الجو لكن لم ينزل كرلوس من ربوات مونمارترة الا ليدرك ثانيا شواطئ نهر الرين وكان قد نزل لهؤلاء الوثنيين عن اقاليم من اقاليمه فى نظير انصرافهم من بلاده وسمح لهم بنهب برغونيا فداء لباريس وانقاذا لها منهم ثم ذهب سيجفريد بعد رفع المحاصرة لينهب سواحل يونة ولوار والسون والموز ولم يمكنه الاستيلاء على مدينة سنس وقد اختصت هذه المدينة دون غيرها من مدن المملكة بمزية المقاومة لهؤلاء الاقوام الشماليين ولا يدرى هل سيجفريد هو الذى قاد النورمان الذين قدموا ثانيا الى باريس او لا وهزيمة هؤلاء النورمان فى مونة تكون كانت سببا فى تقرير تملك البطل الذى لبس تاج المملكة (سنة ٨٨٩) (وهو ارنولف) وقد صحح انتخاب الجرمانيين لهذا الملك العظيم واقعة لوان حيث قتل فيها سيجفريد حين هزمه ارنولف الذى كان قريب عهد بهذا الانتخاب ثم ان رولون الذى غفل عنه كتاب الوقائع السنوية فى معظم حوادث ذلك العصر وهو فى الغالب لا يمكن الوقوف على آثاره عاد فى هذا الزمن تقريبا الى جزء من نستريا كان يسمى يومئذ نورمنديا وافاد انه يريد التوطن فيه مع اصحابه وحاشاه أن يحرق مدينة روان كاسلافه بل جعلها دار اقامته ومقر حكومته وكان قد اعلن لاهلها انه يريد سكناها وجعلها دار اقامته وترتب على ما حفظه فى هذه المدينة من الامن والهدء رجوع القبائل الى شاطئ نهر السين الاسفل بعد مهاجرتهم منهما وباستيلائه على سنلو وبيوكس واوروكس صار حاكما على بلاد متسعة غير ان هذه الفتوحات ضاعت منه حين دعته مقتضيات احوال نجهلها الى قصد انكلترة وعاد منها (سنة ٨٩٥) ونهاية ما يعلم فى شأنه انه ظهر ثانيا فى سواحل اورة أمام كل من هستانغ الذى آثر الصلح على الحرب والدوق ريشالد الذى قتل بعد الهزيمة فبذلك صار يخشى على باريس ثانيا وكان الفضل فى انقاذ برغونيا التى تخربت لدوقها ريشارد حيث هزم النورمان فى سنت فلورنتين (سنة ٨٩٨) ومن هذا الوقت الى (سنة ٩١١) لا يوجد فى التواريخ ذكر لرولون لكن لا مانع أن نقول انه من وقتئذ اهتم بتمكين فتوحه وتنجيز ما دبره فى شأن قبيلته غير انه قبل أن يترك الصيال الى تقنين القوانين اذاق فرنسا مرة اخرى مرارة غضبه وسوء سخطه

وذلك ان نورمان نهرى السين ولوار تواطئوا على عمل حركة فى آن واحد فاقلع بهم رولون فى النهر الذى تحت حكمه وخرب الارياف التى على سواحل يونة ثم توجه الى كليرمون ونزل منها فى نهرى اليير ولوار وسار حتى وصل الى دير فلورى وترك هنالك حسبما هو محقق لارباب الصيال الآخرين الزوارق التى كان ركبها الى هذا المحل ثم عاد من اينامب الى اكناف باريس فبادر ريشارد دوق برغونيا وروبيرت دوق فرانسا بالقدوم لاعانة اسقف شرترة فحصل بينهما وبين النورمان واقعة سفكت فيها دماء كثيرة وكانت النصرة فيها لهما بمحل سمى من يومئذ مرج الركولية (سنة ٩١١)

مشارطة سنت كلير سورايته (سنة ٩١٢)

وبهذه النصرة طمع كرلوس لوسانبل اى المغفل ان رولون يصغى الى الكلام فى شأن الصلح واخذ رأيه بتحريض الاعيان والاحبار على أن يبعث له مطران روان يعرض عليه ان الملك يعطيه امارة فلندرة او نستريا ويزوجه بنته جيزيلة بشرط أن يتنصر فاختار رولون نستريا دون فلندرة لان ابا طحها كانت لم تزل تسترها وطلب زيادة على ذلك أن ينزل له عن ابريطانيا فى نظير الاراضى التى صارت بورا قفرة وكانت اكبر جزء من البلاد التى يشغلها النورمان فلما بنى الصلح على ذلك اجتمع ويكانغ روان اى حاكمها وهو رولون مع كرلوس ملك فرنسا فى سنت كليرسورايتة وكان مع كل رؤساء اصحابه وتحالفا على تنفيذ هذه المشارطة والعمل بها فبايع رولون كرلوس على أن يكون عاملا من طرفه على الدوقية التى انعم بها عليه واخذ الميثاق على كل من قونتة دول وقونتة رينة وهما من دوقيته وذهب روبيرت دوق فرنسا بنت الملك الى مدينة روان وقدم للتعميد هذا الشيخ الهرم اعنى رولون وسمى من يومئذ باسم من عمده وكان تنصره على يد المطران فرنكون وزوجه هذا المطران بنت الملك التى اقتضت السياسة أن تفتدى بها فرنسا

ثم ان مؤلفى الابريطانيين اغتاظهم تلك المشارطة كما لا فهم حيث صارت بها الجزيرة الارمورية تحت رياسة دوقات نورمنديا فقالوا ان كرلوس يدعى ان له الحق فى رياستها مع ان الملة الابريطانية لم تبايعه على ذلك اصلا وانه تصرف فيما لا يملكه لما رآه فى ذلك من مصلحة نفسه وهى معارضة جيرانه الذين لم يمكن قمعهم وانقيادهم باعداء كانت نصرتهم وهزيمتهم سواء بالنسبة لاغراضه ومصالحه من حيث ترتب النفع فيها على كل هذا وقد دلت عاقبة ذلك على ان سياسته كانت فى محلها فان نورمان السين صاروا لا ينغصون على الاقاليم الداخلية الا لاجل قمع اهلها واطفاء

ما كانوا يضرمونه من نيران الفتنة التي لم يكن لها موجب صحيح وكان اعظم مجهوداتهم انما هو لقمع الابريطانيين الذين كانوا يعارضون حكومتهم وردع نورمان نهر لوار الذين آل امرهم الى الدخول تحت طاعتهم

استيطان النورمان

وقد تنصر اغلب اصحاب رولون مثله وكثير منهم لم يستمر على التعميد الاول ومكث هؤلاء النورمان مدة طويلة وهم ضعفاء العقيدة في هذا الدين لاعتنائهم بشأنه واذا صح ان رولون قرب عند موته لمعبودات آبائه قربانات من الآدميين كان بذلك زائغا عن العقيدة النصرانية مرتدا عن الملة المسيحية وقد اقتضى الحال (سنة ٩٤٣) أن الفرنساوية قاتلوا النورمان فانتصروا عليهم نصرة منعتهم أن يعودوا الى عبادة الاوثان وحصل فيما بعد ما يدل على حميتهم في هذا الدين وصدق اعتقادهم من سفرهم لاماكن بعيدة بقصد الزيارة والتنسك وتجديدهم ما لا يحصى من الامور الدينية هذا ولم يتأسّ بنورمان روان المذكورين السكندناويون النازلون في ابرشيات بيوكس وكوتنسة البعيدة بل استمروا اكثر من قرن على ديانة طور ويظهر ان النورمان نسوا اسم اودين الذي كان مجهولا لكتاب الوقائع السنوية من الفرنساوية

ولا ريب ان كرلوس لوسانبل ظهر له ان نزوله عن نستريا التي كان اذلها منذ مدة طويلة ينكرون الاحكام الملوكية اقل خسارة من نزوله عن قونتيته المسماة قونتية سنليس لرئيس من النورمان يسمى هربرت على سبيل الانعام واما جيرلون (تيودبالد) الذي كان اذذاك قونتة على طورس وشرترة فانه اخذ زيادة على ذلك حصن بلواس فكان فيه اصلا تناسلت منه عائلة من القونتات ذات باس وشوكة واما رولون ففوض اليه الامر في اعطاء اصحابه الآخرين انصباء من الارض فجعل اراضي اقليم نورمنديا القفرة اقساما وفرقها عليهم بالقرعة فلما صار الصائلون بذلك ملاكا للاراضي دعوا الطوائف الهاربة التي كانت منذ قليل هاجرت من تلك الاراضي الى تخصيبها وزراعتها فهرع اليها الفلاحون من كل مكان وازدحموا عليها لان هذا الاقليم يومئذ كان اعظم اجزاء المملكة امنا وطمأنينة فعاد اليه من جمع من سواحل المحيط في جهة وسط فرنسا كأنهم عادوا الى مستقرهم وموطنهم الاصلي وكره كثير من ارقاء اراضي الاقطار المجاورة ما كانوا فيه من ذل الاستعباد والتبعية للارض وجاؤا الى الاقليم المذكور ليتمتعوا فيه بالحرية التي وعدوا بها فصار في دوقية رولون طائفة كبيرة من الفلاحين الاحرار احيوا موات تلك الاراضي

وفي مدة ما كان رولون مشتغلا بتعمير سائر المدائن وبعض الاديار نزل عماله

باراضيهم

باراضيهم وبنوا فيها حصونا وكنائس اجتمع القبائل حولها وبنوا مساكنهم فى اكنافها
وهذه الاماكن التى كانت قواعد لغيرها من محال الزراعة والفلاحة هى الآن
بلاد كبيرة بل ومدن اسماؤها لم تزل تذكرنا مؤسسيها واصلها
واذا نظرت الى ما يقتضى بفخار هذا الفاتح النورمندى (رولون) من شهادات المؤرخين
المعاصرين له تقريبا وتأملت عباراتهم فى هذا المعنى كلمة كلمة ظهر لك انه معدود
من مقننى القوانين الذين هذبوا اهل عصرهم او من الذين ابدعوا التنظيمات الاهلية
واخترعوا الاصطلاحات المدنية فمن ذلك ما ذكره المؤرخ النورمندى ان رولون
فى جمعية من الجمعيات العمومية التى تذكرنا جمعيات الشمال المسماة تانغ قنن لقومه
قوانين دائمة اقرها اعيانهم وحكموا بصحتها من غير أن يدونوها ويكتبوها وناقشوا فيها
ولم يكن مأخذها من اصول السكندناوية بل كتاب عوايد النورمندية القديم
المشتمل على اقدم ما يؤثر فى شأن قوانينهم يقضى بان احكام اوائل النورمندية
وقوانينهم ليست الا احكام الفرنج وقوانينهم وقل أن يوجد فيها بعض احكام مأخوذة
من قوانين النرونجية كحكم البكر الذى حافظ على العمل به مدة طويلة فلاحو بلاد
قوكس وهو ان اكبر الاولاد يختص بارث العقارات فاذن يلزم أن نقول انه اقتصر
فى جمعية رؤساء الملة التى لم يقبل فيها القسوس لكونهم فرنساوية على جعل قوانين
الامة المغلوبة معمولا بها بين الفاتحين فهذا التقرير الذى وقع من المنصورين لتلك
القوانين التى انحطت عن درجتها اعادلها قوتها الاصلية وكان من فخر رولون
الباقى على مدى الايام انه جمع اعضاء الطائفة النورمندية التى تألفت منها من مبدء
الامر وكانوا اخلاطا متنوعين دأبهم الاضطراب والتعكير فردجماحهم وجعل لهم
حدا يقفون عنده ولا التفات الى كون اسم هذا الحاكم الصعب يضاهى الصياح
بكلمة هارو التى يهابها الاشقياء الاشرار وهى وان لم يوجد فى قوانين شرلمانيا
ما يدل على كيفية استعمالها فاصلها ومعناها موجود فيها وانما الذى يتعجب منه
هو ان اناسا كانوا ما بين صائل فى البحر وسياح لا يستقر بحل ومهمل لا يعبأ به متباينين
فى الاخلاق والاديان والالسن امكنه أن يجعلهم فى هذا الانتظام التام كما شهد له بذلك
جميع المؤرخين والآثار المتفق على صحتها
فعما قليل صار الفرنساوية والسكندناوية امة واحدة وهذه الدعوى التى شهد بها
المؤرخون من غير أن يسعوا فى بيانها ويتكلموا على منشئها انما هى ثمرة ما استقر عليه
آراء الملة من أن الغالبين والمغلوبين يتقادون لقانون واحد وهو المتعلق بالاراضى
ولو سلك النورمان مسلك فاتحى الايمبراطورية الرومانية بحيث يحملهم الغرور

وحب التفاخر على ايثار القوانين الشخصية اى المتعلقة بالاشخاص وتقديمها على القوانين الارضية لمانسخ الحد الذى يميز الاجانب من اهالى البلاد المتأصلين منذ مدة مستطيلة

وهناك امر اخر اعان كثيرا على تقارب الجنسين وهو اختلاط الالسن ولا مانع ان كثرة اغارات النورمان فى داخل فرنسا عودتهم على اللسان الذى كان يتكلم به فيها وقتئذ وهذا انما يظهر اذا لم يثبت ان رولون لم يمكنه أن يتفاوض مع الدوق رينالد الا بواسطة هستانغ وانه لما دعى فى جمعية سنت كلير الى تقبيل اقدام الملك كرلوس اعطى العهد بلغته حيث حلف بكلمة بى غوت اى بالله انه لا يعود الى فعل شئ مما فعله سابقا ومما نجزم به ايضا ان نورمان بيوكس وكوتنسة الذين نزلوا بجوار قبيلة سكسونية لم تترك استعمال اللسان الجرمانى منذ خمسمائة سنة مازالوا محافظين على لغتهم الدانيمرقية الى القرن الثانى عشر بخلاف نورمان السين فان الطبقة الثانية من نسلهم كانوا يتكلمون بلسان لاطينى على وجه مختل لما كان جاريا بينهم وبين الفرنساوية من العلائق والمخالطات التى لم تكن عند قبيلة قلوادوس لانفرادها عن غيرها وكان لدين النصرانية الذى بادروا اليه مدخلية ايضا فى تعلمهم اللسان المذكور فان هذا الدين طالما كان واسطة فى تعلم الالسنة الرومانية

ومع ذلك لا يصح أن نقول ان القسوس كان لهم مزيد اعتبار عند النورمندية النسترية فى القرن الاول الذى اعقب تنصرهم فان هذه الحرقة مادامت من الفرنساوية دون غيرهم كان للنورمندية فيهم نوع ريبة واستخوان فلذا لم يقبل رولون الاساقفة فى مشورته ولا فى جمعية البارونات مع انه اصلح بعض كنائس اسقفية لكن لما محيت آثار عبادة الاوثان السكندناوية وحل محلها الرغبة فى العبادات النصرانية وزالت العداوة الملية بتداول الازمان وقوة العوايد فاق النورمندية من جاورهم بفرانسا وصار للقسوس سلطنة عظيمة على ابناء الصائلين الذين كانوا سابقا تبعوهم مع الحدة والحمية ولا ريب ان هذا هو الذى ارشد تلك الامة الى طريق التمدن ومن وقتئذ اخذوا فى تشييد معابد مبنية عديدة فاخرة فهى الى الآن قائمة كانت او متهدمة تشهد بان اقليم نورمنديا اسوة للمبانى التى تكون على نسق مبانى القرون الوسطى * وما عمروه فى القرن الحادى عشر من الاديار العديدة المتخربة كدير فونتنيلة ويوميجس وسنت اوروك وغيرها عاد به احيا موات الاراضى والعلوم بالممارسة والتعليم زيادة على وظائفها من انواع العبادات وليس هذا محلا لبيان تقدم النورمندية فى تلك المسالك الجديدة بل يكفى أن نقول انهم استمروا فيها على ما هو دأبهم وامتازت به ملتهم

من

من النشاط وقوة الادراك كيف لا وهم زيادة على نجاحهم فى العلوم الموناستيكية التى تدرس فى الاديار اول من مارس الآداب الاصلية اى الجارية بين الاهالى فان ملهيربة وقورنيلة وهما من مشاهير النورمندية قبل أن يهذبا اللسان الفرنساوى تهذيبا باقيا الى الابد بمدة طويلة كان سلفهما وهما روبيرواسة وبنوات دوسنت مور قد وضعا القواعد الاولية للغة الطروبية

آخر صيال السكندناية

فهذه هى الثمرات العظيمة التى حصلت لبلاد نستريا البحرية من استيطان النورتمان بها وقد حصل ايضا الباقى ببلاد فرنسا من ذلك فائدة عظيمة حيث صارت من يومئذ آمنة مما كانت تصبه عليها بلاد الشمال من العذاب والمصائب منذ ازمان تزيد على قرن وتغلبت قبيلة رولون بالتدريج على ماعداها من القبائل السكندناوية فكانت لفرنسا الملوكية بمنزلة الحصن حيث كانت خلفها آمنة لا تخشى سطوة احد عليها فان الصائلين صاروا لا يأتون للاغارة على تلك المملكة منذ تملك اهل الشمال على البلاد التى بين نهرى السوم ولوار واما ماوقع فى بعض الاحيان من مجئ الدونمات السكندناوية الى السواحل الفرنساوية فانما ذلك لدعاء النورمندية لها لاجل اعانتهم

وثم مقتضيات احوال اخرى ساعدت على تحويل مصيبة الصيال وابعادها عن فرنسا وذلك ان تلك المملكة التى نفدت اموالها بما حصل فيها غير مرة من السلب والنهب وبذل الفداء اصيبت ايضا بالجدب وعقم الاراضى الناشئ عن اختلال حكومتها الذى ذهب براحتها فكنت ترى فى سائر الجهات التى لم ينزل بها النورتمان صحراء تفصل السواحل البحرية من الاقطار العامرة وقد نص المؤرخون من ذلك على اقليم بوتتيو وابريطانيا الواطية وانجو وكنت تشاهد ايضا فيما بين نهرى لوار والسين قليلا من الاراضى المزروعة وترى فى اكتينا اشجارا كبيرة ظهرت على جدران المدن التى كان نصفها خربا فلو قصد النورتمان فرنسا وقتئذ لما وجدوا بها الا الجدب والقحط وايضا كانت تلك الصحارى يومئذ اشد حماية من الارياف التى كانت خصبة فى سابق الزمان وذلك ان عصبة الملتزمين كانت قد اخذت فى أن يكون لها حالة ثابتة وكيفية لا تزال عليها ولما كان كبارهم لم يبق عندهم ما يبعثهم على القتال لاجل تحصيل الاستقلال تركوا دعاء النورتمان لاعانتهم على الاقتيات وصاروا لا يتفكرون الا فى حفظ ما افتاتوا عليه فقد وقع القتال فى هذا الشأن بين دوقات اكتينا وغسقونيا وقونتات فلندرة وويرمندواس وكانت حميتهم فى هذا القتال اشد من حميتهم فى المقاتلات السابقة وذلك من حين محاماتهم عن املاكهم للذب عن

التزاماتهم فبذلك صار الهجوم عليهم خطرا والنصرة على فرضها خالية عن الفائدة وكانت انكلترة دون فرنسا فى الخطر على الصائلين منذ مات ملكها ألفريد الاكبر فلذا كانت ملتقى ارباب الصيال من الدانيرقة والنرويجة وغنيمتهم ثم ان هذا التغيير الذى صرف النورمان عن قصد فرنسا التى كانت غرض السهام صولتهم لم يكن كافيا فى منعهم عن العود اليها فى المستقبل اذ لا مانع ان تمدن بلاد اوروبا الذى خدشه اهل الشمال خدشا عظيما يكون عرضة لمثل ذلك فعلى هذا كان يلزم محق موطن التبربر الذى كان البحر له بمنزلة الحصن يمنع من يقصد الدنو منه فان اسلحة شرلمانيا وقفت عند البرزخ الذى يصل دانيرقة بالارض القارة وقل أن جاوزت اسلحة ايمبراطرة السكسونية هذا الحد فكانت جزائر الدانيرقة والجزيرة السكندناوية فى أمن من سطوات هؤلاء المنصورين

فنجز دين النصرانية هذا الغرض الذى لو قصده ارباب السياسة لعجزوا وذهب سعيهم سدى نعم وان كان ماري انشير وتلامذته لم ينجحوا فى نقل هذا الدين الى سكندناوة نجاحا كبيرا الا انه ترتب على ذلك فتح طريق لطائفة ذات حمية من دعاة الدين بذلوا انفسهم للشهادة او الظفر بمرامهم فقد نشر القسوس دين النصرانية الى الحدود الشمالية من اوروبا وكانوا قبائل جددها شرلمانيا لاجل ادخال هذا الدين فى بلاد سكس والذى نشر تلك الملة فى بلاد الشمال هم قسوس كنيسة مطرانية همبورغ ودير كوروى ولكن لم تمح آثار عبادة الاوثان من سكندناوة الابعد مضى قرنين استغرقهما الدعاة فى ارشاد اهلها الى هذا الدين وبالجملة فكانوت الاكبر هو الذى تمم سلطنة دين النصرانية فى دانيرقة (سنة ١٠١٦) كما وقع نظير ذلك من اولاف الثانى ببلاد نرويج واولاف الثالث ببلاد اسوج (سنة ٩٩٣)

وقد اعقب هذا الدين التمدن الذى به تصير الامم ارباب حضارة وتمصر حيث اوقفهم على النعم التى وزعها الله تعالى على البلاد ونشرها فى اقطار الارض وعلمهم الفنون التى بها تكون تلك النعم من لوازم الانسان الضرورية فهذب اخلاق هؤلاء المتوحشين الذين كانوا على دين اودين وانسهم بعد التوحش وعودهم على الميل الى التودد والتحبب واكسبهم الرغبة فى مزاولة الامور الشريفة واذاقهم حلاوتها وبالجملة فقد ترتب عليه حدوث طوائف حربية كان جل الغرض منها نشر الامن والهدء فى بحور الشمال وبذلك ظهر على التبربر واحرز عليه النصرة التى هى اصعب النصرات واشقها فاستوجب ثناء الملل وشكرها حيث لم يبق لصيال السكندناوة اثرا

الفصل

(الفصل الثالث)

(فى الكلام على السلاوية)

كانت هذه الملة من بين الملل الاربعة التى كان لها دخل فى تمزيق الدولة الكرلونجية هى التى لها اسباب صحيحة فى التشكى من الفرنك فلزم ان هؤلاء الاقوام النازلين على نهرى ألب ودانوب الذين الجأهم شرلمانيا الى دفع الخراج ينتظرون مع الضجر والقلق فرصة ينتهزونها فى انقاذ انفسهم من ربقة الاسر والاستعباد فكانت فرصتهم حين انتقلت دولة هذا الرجل العظيم الذى استرعاهم لاناس لم يكونوا اهلا لتحمل اعبائها فعند ذلك ظهرت الهمة السلاوية فى جميع الثغور الشمالية والشرقية وآل امرها أن رجع القهقرى كل من دين النصرانية والتمدن حتى وصلا الى حدود جرمانيا مع انه لم يكن قصدهم بذلك الا رجوعهم للحرية والاستقلال وهذا هو الفارق بين تلك الحركة والحركات الاخرى الحربية التى انهدمت بها دعائم الايمبراطورية فى آن واحد تقريبا ثم ان هذا المشروع وان كان موافقا لما تقتضيه الاصول والقوانين الا انه اضر بتقدم التمدن والتأنس فى اوروبا ولم يتم الا بسفك دماء كثيرة وذلك انه كان خاليا عن التدبر والمهارة ولم يواظبوا عليه فلوانهم بدلا عن تمسكهم باوطانهم وربط قلوبهم بها قذفوا انفسهم فى حرب لاجل التغلب على البلاد وفتحها بدون أن يلتفتوا الى ما تركوه وراءهم لكان نجاحهم اعلا واعظم ومع ذلك لم يخل جمعهم للعساكر عن فائدة وهى استقلال الملل وخلوصها من التبعية وان كانوا بعد تخلصهم من تبعية الفرنك وقعوا تحت حكم الالمان لان تأثير دين النصرانية فى الاستيلاء عليهم وان حصل مع البطئ والمشقة كان اشد من تأثير نصرات ايمبراطرة الالمان وليس تاريخ اغارات السلاوية دون تاريخ اغارات النورمان فى الابهام وعدم الوضوح فليس هنالك من الوسايط ما يوضحه بعض ايضاح الا الاستعانة بالوقوف على مواطنهم اذ بمعرفتها تستضئ الازمنة المجهولة بعد ظلمتها بالجهالة فنقول

الكرواتية

ان عدة قبائل من الوندية او الوينديه هاجروا الى جنوب نهر دانوب ونزلوا باقاليم بانونيا وايليريا وكان ذلك تقريبا فى الزمن الذى تخلص فيه البلوكرواتية او البوهيمية من حكم الاوار وكان من تلك القبائل قبيلة يقال لها الهرواتية وتسمى ايضا كرواتية وهو اسمها الحقيقى ذهبت تحت قيادة خمسة اخوة وتوطنت فى دلماسيا واحيت موات براريها والظاهر انها شغلت جميع البلاد الممتدة من نهر دراوة ومنبع كولب الى نهر ويرباس الذى يصب فى نهر

ساوة والى نهر تريزنتينة الذى مصبه فى جون البنادقة تحت مدينة سبلاترو وهذه المدينة وكذا مينات ترو وزارا وراغوزة استمرت تحت طاعة ايمبراطورية المشرق ومنها تكونت بطريقية دلماسيا التى كان يحكمها قطبان

السروية

وفيما وراء نهر ويرباس كانت البلاد التى بين دلماسيا الكرواتية وموزيا القديمة يشغلها سرابية دانوب ويقال لهم ايضا سروية وكانوا قد وصلوا الى الايمبراطورية هم والكرواتية فى زمن واحد وكان عاقبة امرهم بعد أن اسسوا قبيلة سرويا قريبا من تسالونيك وطافوا بلاد اليونان وشغلوا بلاد المورة انهم استوطنوا وادى موراوة البلغارى وسواحل نهر بوسنة الذى تسمى باسمه قبيلة من تلك الملة وهنالك طائفتان اخريان دونهم فى العدد وهما الغودسقية والتموتية نسبة الى قرية غودسقة ونهر تموت وجميع هؤلاء الاقوام السروية مكثوا مدة طويلة يدفعون الخراج لايمبراطرة القسطنطينية ثم انتهى بهم الحال الى أن استولى عليهم البلغار وآثر بعض قبائل منهم أن يكونوا تحت حكومة الفرنج فاتوا هم وطائفة تسمى بريدنيسنتية وهم او بوتريةداسيا يطلبون اراضى فى بانونيا التى كان قد سبقهم اليها وندية آخرون ولحقهم اليها طائفة من ملة المراوية

هذا و ينبغى أن نطنب فى الكلام على الوندية دون غيرهم فنقول انهم استولوا فى القرن الخامس على البلاد التى كانت قبل ذلك قفرة بالرحلة الاولى الصادرة من طوائف المركومان والبويان واللنبردية والبرغونية والوندال والانكلسكسون فشغلوا من ثغر الايمبراطورية الكرلوبجية حياض نهر البه واودير وموراوة وتيس وكان من هذه الملة اربع قبائل كبيرة وهم المراوية والبوهيمية والسرابية والاوبترية تركوا وراءهم اللاهية والبواميرانية ونزلوا بجوار البوارية والطورنجية والسكسونية ثم اتصلوا فيما بعد بحدود ايمبراطورية الفرنج حين دخلت الملل التى كانت بينهم وبين تلك الايمبراطورية فى حكم اولاد قلويس وابن بيبين لبريف (اعنى شرلمانيا)

المراوية

ثم ان المراوية الذين كان لهم مدخل عظيم فى مقاتلة الامم السلاوية مع دولة الفرنج انفردت ملتهم بفتوحات شرلمانيا وكانوا قبل ذلك بمدة طويلة رعية لمن جاورهم من الملل فكانوا اولا رعية للاوارية ثم استرعاهم البوهيمية ثم انفصلوا عنهم واستقلوا بانفسهم او انفردت ملتهم مع بقاء ضرب من التبعية حين ترتب على هزيمة خاخان بانونيا وذهاب دولته أن استولى اول من نزل تلك البلاد على الشاطئ الشمالى من نهر دانوب وعلى سواحل النهر الصغير الذى نسب اليه

فرع

فرع كبير من العشيرة السلاوية والظاهران البان اى الرئيس تودون اعاد حكومة الموارية (سنة ٨٠٥) تقريبا حيث طرد من تلك البلاد بعض بقايا من الملة الاوارية كانوا مجتمعين تحت رياسة خان نصرانى يقال له تيودور وكان ممن بايع شرلمانيا ودخل تودون ايضا تحت حماية هذا الملك صاحب الشوكة وقد وعد لويزالتقى ملة تودون المذكور بهذه الحماية اوالزمهم بالدخول فيها فى مشورة فرنكفورت (سنة ٨٢٢) ولما تولى بعد تودون خليفته موامير الاول وجعل كرسى الايمبراطورية الموارية الكبرى مدينة بلغرادة بعد أن طرد الامير بريبناس من مدينة نيترة (سنة ٨٣٠) صار ملوك تلك الملة فى اغلب الاوقات يحاولون ابطال رياسة الدولة الكرلونجية عليهم وان كانوا لم ينكروها اصلا

البوهيمية

وفى جانب الموارية أمام سلسلة جبال كرابات كان البوهيمية الذين خرجوا من حكم الاوارية منذ قرنين تقريبا ادخلوا تحت حكمهم السليسية وبعض قبائل صغيرة مجاورة لهم والظاهران رؤساءهم الكثيرين الذين كانوا يلقبون ويوود كانوا يبايعون بالرياسة عليهم دوقا اعلى منهم يلقب وليكى كنيس كانت دار اقامته مدينة براغة وقد اوقع بهم شرلمانيا وهزمهم لكن لم يمكنه أن يضرب عليهم الخراج

السرابية والواسية وغيرهما

ثم ان السرابية او السربية او الزربية النازلين بين نهرى البه وسالة لم يكونوا الاقبيلة من ملة السروية الكبيرة التى انتقل منها فرع كبير الى الشاطئ الايمن من نهر دانوب فاستولت منه على جزء كبير من دلماسيا وقد انفصل عن تلك الملة قبائل اخرى لكن لم تتباعد عنها كالواسية الذين يقال لهم ايضا ويلاتابية ولوتيزية وكان لهم على بحر بلطق مدينة تسمى وينيتة وكانت عامرة آهلة حتى خربها الدانيمرقة فى القرن الحادى عشر وقد انكرها بعض العلماء منذ مدة يسيرة والردهارية ويقال لهم ايضا التولنزية وهم قبيلة اشتهروا بمدينتهم المسماة ريتهزا وكان بها الاصنام التى يعبدها السلاوية ومن تلك القبائل ايضا السيبانية ويسمون ايضا دلمنقية وتسميتهم بذلك لانهم نزلوا سواحل نهر بانيس (پيينة) وكانت دار اقامتهم مدينة دلمنتز (دمين) ومنها ايضا الكلوديتزية الذين لم تزل قرية كلوديتز السكسونية مسماة باسمهم والسيوسلية ولا مانع انهم هم السليسية

الاوبوترية

واما الاوبوترية فانهم نزلوا فى غربى القبائل السرابية بين السكسونية

والدانيمرقة بلاد تسمى نوردلبنجيا واستولوا على الاراضى التى كانت قفرة بسبب ارتحال فاتحى ابريطانيا الكبرى ثم بانعدام الورنية وكان اعظم مدنهم ريريغ او ريريك واعظمها كانت جديرة بتسميتها باسم توتونى وهو ميكلنبورغ (ميغالو بوليس) وكانت دار اقامة واليكى كنيس اى امير الملة الاكبر* وثم ثلاث قبائل ناشئة عن اصل واحد كانوا نازلين فى شمال الاوبوترية على شكل نصف دائرة وهم الهوبلية اى سكان سواحل هوبل وكان الكنيس اى الامير عليهم مقيما بمدينة برندبورغ والبولابية وكانت قاعدة بلادهم مدينة رتزبورغ والوجرية وقاعدة بلادهم مدينة استريغارد ويقال لها باللغة الالمانية ألتنبورغ او أولدنبورغ وكانت هذه القبيلة حربية تحت حكم عدة امراء يلقبون بان وبمقتضى وضع بلادها الجغرافى لم تقع المقاتلة بينها وبين ملوك جرمانيا الا بعد دخول السلاوية الآخرين الذين على شواطئ نهر البة فى حكم هؤلاء الملوك

ولم يكن هنالك علاقة اصلا بين الفرتك والبوميرانية فلذا كانت اوائل تاريخهم مجهولة لنا وكذلك الروجية وهم طائفة كانوا متولعين بالتجارة والصيال فلذا كانوا لا يشركون غيرهم من طوائف الوندية فى الحروب الا اذا امرهم كهنتهم بذلك بعد سؤال تلك الطوائف لهؤلاء الكهنة فى هذا المعنى

ديانة السلاوية

وكان للسلاوية هيكل شهير فى جزيرة روجان معد لاعظم معبوداتهم المسمى سوانتيويت او سوياتويت وهو على ماذهب اليه الجمهور بناء على ما تفيده عبارة هلمولدوس ليس الا القديس ويت حامى دير كوروى ولم يحافظ السلاوية مما تلقوه من دين النصرانية عن الدعاة الاول الا على عبادة هذا القديس ومعنى سوياتويت الاله الخير على ما ترجمه كرمسين وعليه فهو عين بليبورغ اى الاله الابيض الذى له السلطنة على الآلهة الادنين ويعادله شرنيبوغ اى الاله الاسود وهو اله الشر ويجعله السلاوية على صورة السبع لان اعداءهم السكسونية كان على بيارقهم تمثال هذا الحيوان الذى هو ملك الحيوانات والظاهر ان الوندية نقلوا الى البلاد التى نزلوا بها عبادة بيرون اله الرعد ومن المحقق ان القبائل المجاورة للدانيمرقة تعلموا منهم دين اودين وقريب منه فى التحقق ما قيل ان زهرة السكندناوية المسماة فريغا كان يعبدها الاوبوترية فى هيكل رتزبورغ وكان ايضا الاله الحرب المسمى جويرووبد واله النيران المسمى نيا زوايا فى مدينتى وولغاست وجنيزنة وكان فى مدينة رتهرا اقدم معبودات السلاوية

المسمى

المسمى رادبغاست فكانوا يقصدونه بعبادتهم وكانت تلك المدينة لاجله فى غاية الاحترام حتى كان لا يؤذن فى الاقامة بها الا للقسوس وزوار هذا المعبود مدة زيارتهم ولم يكن لوندية الشمال معابد الا هذه الاماكن التى كانت لا سقف لها وانما كان لهم فى الارياف غابات واشجار تداولت عليها قرون اعدوها العبادتهم بدلا عن الهياكل وليس لنا معرفة كافية بديانات هؤلاء الامم المتبربرة حتى نتكلم عليها فان قدماء المؤلفين قل أن تعرضوا لها ولا يمكن الوقوف على بعض آثار من عبادتهم للاوثان قديما الا بالاطلاع على ماعليه الروس والبوميرانية والموركالية من العوايد الدينية والاهلية واذا اطلعت على ما كان عليه السلاوية من شدة التمسك باوهام آبائهم الفاسدة وعقائد اسلافهم الكاسدة تذكرت ماوقع منهم من طول المقاومة والمعارضة فى منع دخول دين النصرانية عندهم وذلك منهم فى غاية الغرابة لان هذا الدين الذى عضوا عليه بالنواجذ لا يقول بالبعث والنشور

وحكم السلاوية كدينهم فى الجهالة بل حكومتهم اشد جهالة والظاهر ان رؤساءهم الذين كان من عادتهم توارث الرياسة كانوا كالجرمانيين بايديهم الحكومة العسكرية والاهلية وكان اعظم الالقاب عند هؤلاء الامم هو لقب كرالى او كرول المعادل لكلمة ملك وكان يلقب به امراء كرواسيا وبوهيمة وبولونيا وجزيرة روچين وكان القاضى الاعظم عند دلماسية نارنتة يلقب وليكى كنيس وكذلك امير الاوبوترية ولامانع انه لقب لامير الموراوية ايضا ومن المعلوم ان روريق وخلفاءه فى بلاد الروسيا لم يكن لهم لقب سواه واما كلمة كنيس او كنياز فكانت لقبا لكل عسكرى يملك فرسا وهذا اللقب فى العظم دون لقب ويوود او بويارد الموازى للقب هيرزوغ المستعمل عند الجرمانيين وكان فى دلماسيا اثنان من الويوودية تحت طاعة الملك يلقبان بلقب بان ولامانع انه عين بان وكان تحت حكمهما عدد كثير يلقبون بلقب زوبان اى حكام الاخطاط كما كان ذلك عند سورابية نهرالبة وحيث ان زوبانيات مسينيا اى اخطاطها كانت الى القرن الخامس عشر تطلق على دوائر مدنية واخطاط اهلية فلا مانع أن يؤخذ من ذلك ان مزايا قدماء الزوبانات مثل تلك الزوبانيات وان كانت هذه المزايا تزيد عليها الحكومة العسكرية

ثم ان طريقة السلاوية الوندية فى الديانة ودرجاتهم فى السياسة وان كانت غير واضحة بالنسبة الينا ومعيشتهم الزراعية والرعائية التى كان عليها اغلبهم وبعض دلائل تتعلق بفنونهم وصنائعهم كل ذلك يحملنا على الجزم بان هؤلاء الامم كانوا فى القرن التاسع

حكمهم

اكثر تمدنا من اغلب القبائل الجرمانية قبل دخولها فى دين النصرانية ولتقدمهم فى المعيشة التأنسية كانوا اشد عنادا من جيرانهم فى المدافعة عن دينهم * وما اظهروه من الشجاعة فى منع حكومة الاجانب او التخلص منها يقضى بان تانسهم هذا الذى هو كناية عن نصف تمدن لم تنقص به فضائلهم الحربية

انقياد الامم السلاوية (سنة ٨٢٢)

وقد شرع سلاوية البة من السنة التى اعقبت موت شرلمانيا فى استرجاع استقلالهم فتخلى الاوبوترية عن الفرنج تأسيا بالسورابية وعملا بتحريض الدانيرقة بعدما كانوا امناءهم منذ مدة قليلة ولكن قد شاهد ارباب مشورة فرنكفورت (سنة ٨٢٢) ان رسل هؤلاء الاقوام وكذلك كبار ويوودية بوهيمة وموراوة قدموا الى اعتاب الايمبراطور لويز التقى وبايعوه على انهم جميعا رعيته وبعد ذلك بسنة قدم الى هذه المدينة ولدا ملك من الواسية يقال له ليوبى او ليونويد ورفع كل الى الايمبراطور دعواه المنافية لدعوى خصمه فى شأن وراثة ابيهما وبعد ذلك بسنوات حضر الى ديوان لويز ايضا جماعة من رؤساء السورابية والاوبوترية ملقبون بلقب الملوك ليفصل بينهم وفى مدة الحروب الاهلية التى كانت بين هذا الايمبراطور واولاده الثلاثة لم ينقل حكم الفرنج على السلاوية ولم يقع بين الملتين نزاع ولا تشاجر غير انه فى اواخر ايام لويز تغلب السورابية والولسية على سكس فحمل ذلك الفرنج على الانتقام منهم وجر ذلك الى تدمير الكلودترنة وقتل سيموسل ملك السورابية فى واقعة حصلت قريبا من كريجسبورغ فبادر خليفته بطلب الامان

حالة السلاوية المشرقيين

وقد مكث تحت حكومة الفرنج السلاوية المشرقيون النازلون فى بانونيا وايليريا وكانوا قد شغلوا اراضى الاوارية الذين ابادهم شرلمانيا واستمروا على الصداقة والامانة للايمبراطورية الا ليودويت دوق سلاوية نهرساوة فانه كما سبق خرج عن الطاعة وكانت عاقبته مشؤمة ولو وصل ما اثاره من الفتنة الى ما جاوره من القبائل وتابعته عليه لامكن ان الايمبراطورية تعجز عن ضبط الاقاليم المشرقية التابعة لثغر دوقية فريول وابقائها تحت حكمها واما الوندية النازلون ببلاد كرنيولة وكرنسيا وكرواسيا ومراوة فانما تقوت صداقتهم للافرنج وتبعيتهم لايمبراطورهم لشدة خوفهم من البلغار اكثر من لطف الحكومة الفرنجية وذلك انهم وفوا بالعهود التى اخذها عليهم الايمبراطور فى مشورة هرستال (سنة ٨١٨) دون ليودويت المذكور ولما طرد مويمير من نترا بروبناس الموراوى حظى هذا المطرود من الايمبراطور لويز بجزء من بانونيا الواطية اقطعه اياه وزيادة على ذلك قدم

بعض

بعض اقوام من السلاوية الذين لم يبايعوا شرلمانيا الى ولده لويز المذكور ليدخلوا تحت حمايته ويتخلصوا من حكم البلغار المتوحشين وكانوا منذ قليل قد انتصر عليهم اليونان عدة نصرات افضت بهم الى وهن قوتهم وضعف شوكتهم وكان من هؤلاء الاقوام قبيلة البريدنيسنتية او ابوتريه داسيا والغودسقية الذين كانوا قد نزلوا فى موزيا العليا على سواحل نهرى مونا وموراوه البلغارى فاعطاهم لويز مابين نهرى ساوة ودراوة من الاراضى الخصبة التى كانت مهجورة فشغلوها عدة سنوات تحت رياسة برنا مباشرة وهو بان كرواسيا اى دوقها وكان تحت طاعة بلدريق دوق فريول والظاهر ان البلغار دمر وهم لانهم كانوا عرضة لاول اغارات هؤلاء المتبربرين الذين خربوا (سنة ٨٢٧) بلاد سوارية (اسكلاوونية) وكان ملكهم المسمى اومورتاغ قد عزم على أن يضمها الى اقاليمه وقد سبق ان نجاحهم فى هذه الاغارة جر الى انحطاط بلدريق عن درجته حيث لم يعرف سبيلا الى منعها وان دوقية فريول انقسمت من هذا الوقت الى اربع قونتيات

وقد ترتب على انقسام هذه الدوقية الى ثلاث الاقسام ان شوكة حرس ثغر الايمبراطورية صارت ضعيفة مضمحلة وقد اغتنم كرواسية دلماسيا هذه الفرصة حيث استعدوا لتخليص انفسهم من التبعية واخذوا فى اسباب ذلك حين كانت المدائن البحرية التى على ساحل ليبورنة تزاول ذلك من حكومة القسطنطينية لكن تربمير آخر دوقات الكرواسية وهو من نسل بورنوس بايع ملك ايطاليا على الانقياد والطاعة ومكث على مبايعته حتى مات (سنة ٨٤١) وبعد موته انعقدت مشارطة وردون وبموجبها صار حكم الفرنج على سلاوية جون البنادقة منقسما بين مملكتى ايطاليا وجرمانيا وصار نهر ساوة هو حد القسمة وكان ذلك (سنة ٨٤٣) ومن يومئذ صارت كلمة كرواسيا لا تطلق الا على اراضى ساوة ودراوة التى يحكمها بان اى دوق سلاوى تحت ملاحظة مرغراو اى رئيس المانى يحكم ثغر بانونيا واما بانية دلماسيا اى دوقيتها فلم يزل يحكمها دوقات من اهلها تابعون لمرغراو ايطالى يحكم الثغر الشرقى

وكان كلما تغير ملك يأخذ تطمع الامم الخراجية فى الاستقلال والخروج عن التبعية وقد ظهر هذا المطمع ظهورا تاما فى مدة الحرب الداخلى الذى اعقب موت لويز لودبونير غير ان ماوقع بين اولاده الثلاثة من المصالحة اوجب تأخر خلاص السلاوية من التبعية وان لم تفتر همتهم ويقل عزمهم وقد اختص لويز الجرمانى

من بين اخويه بزيادة الهمة وشدة الاعتناء بحماية الايمبراطورية من هؤلاء الامم الذين كانوا يكتنفون ثغرها من منابع نهر ساوة الى مصب نهر البة ولم تكف نجابة هذا الملك فى تحصيل ذلك الامر المشقة وقد اعانه عليه اعانة نافعة اثنان من اولاده والحربيون الذين اناط بهم بحراسة ثغور مملكته لاسيما طاكولف دوق ثغر السوراية وابرنست دوق ثغر بانونيا او الاوستروسيا وكان ذلك من (سنة ٨٤٤) الى (سنة ٨٧٣)

ما حصل من عموم القيام على نهر البة

ثم ان الاوبترية هم اول من قام من السلاوية فى سواحل البة لطلب الحرية مع ان شرلمانيا كان يعاملهم احسن المعاملة حتى انهم جحدوا حسن صنيعه فى عهد اول خلفائه فقتل لويز الجرمانى ملكهم غوزومسل فى بعض الوقائع واذاقهم شدائد الحكومة الاجنبية حيث اقام عليهم دوقات المانيين (سنة ٨٤٤) وفى هذا الوقت جعل طاكولف دوق طورنجة مرغراوا اى رئيسا على ثغر السوراية وانيط بملاحظة سلاوية نهر البة فى جميع حركاتهم فاذعن الاوبترية لقوة الفرنج واستسلموا اليها وتربصوا (سنة ٨٥٨) حتى تلوح امارات الظفر والنجاح على قيام السوراية والموراوية فحملوا السلاح ثانيا لكن فى (سنة ٨٦٢) جبر ملكهم تابومسل على تسليم ولده رهنا للامير لويز وكان قد اناطه والده بحكومة سكس فكان بذلك ولى عهده فيها فدافع عنها مع الحمية التامة التى تصدر عادة من الشبان

وقد مكث السوراية مدة طويلة وهم متهيبون متادبون لقرب طاكولف منهم فانه عرف كيف يجعل نفسه محبوبا مهابا عند امم السلاوية الثلاثة النازلين بجوار مدون فاصل بينهم وبينه ولم يزل ثغر السوراية فى الهدء والسكون الى (سنة ٨٥٨) وهذا بقطع النظر عن التجريدة التى سار بها الملك لويز الى سوربلند (سنة ٨٥١) ولم تقع فيها مقاتلة ثم حصل فى تلك السنة اعنى (سنة ٨٥٨) أن السوراية قتلوا دوقهم المسمى كزيزنبور لكونه اراد أن يستمر على الامانة للفرنج وتحالفوا مع الموراوية والاوبوترية وصاروا جميعا عصبة واحدة والظاهر أن طاكولف اعادهم ثانيا للانقياد والطاعة بدون سفك دم ولكنهم دخلوا (سنة ٨٦٩) مع السيوسلية فى عصبة جديدة دخل فيها ايضا البوهيمية وكانوا قد مكثوا مدة طويلة وهم على الامانة والصداقة للفرنج فعند ذلك دخل الامير لويز ديارهم وكان اخوته وقتئذ يدافعون الموراوية ويمنعونهم عن الاغارة غير ان موت طاكولف (سنة ٨٧٤) امل به السوراية

فرصة يمكنهم بها أن يخرجوا من ربقة الاسر وذل التبعية و يأخذوا بثارهم على وجه سهل فاندفعوا الى طورنجة فطردهم منها راولد بن طاكولف والجأهم الى الانقياد والطاعة بما اوقعه فى ديارهم من التخريب (سنة ٨٧٤) ثم ان السيوسلية واللنونية الذين كانوا قد طمعوا فى الاستيطان ببلاد طورنجة امتنعوا من دفع ما طلب منهم من الخراج مع انهم مغلوبون ولكن ليوتبيرت مطران ميانسة الزمهم بمثل ما كان على السورابية من الشروط ولا مانع أن هؤلاء الامم كانوا اسوة للموراوية والبوهيمية فى ذلك حيث سلكوا مسلكهم فقدموا فى السنة بعينها يطلبون الصلح فى مشورة فورخيم

ثم ان انقياد و بودية البوهيمية الاربعة عشر اى رؤساء تلك الطائفة الذين قدموا (سنة ٨٤٥) الى جرمانيا بقصد التعميد فيها لم يمنع ملتهم من اظهار شدة السآمة والبغضة لدين النصرانية ولا من اظهار مايدل على العداوة للامبراطورية فجبر لويز الجرمانى على أن يتدارك ذلك (سنة ٨٤٦) و (سنة ٨٤٩) ليحمى اقاليمه من الاغارة التى كادت تقع فيها مرتين ولما كان حال الالمانيين مترددا بين النصرة تارة والهزيمة اخرى تركوا البوهيمية يستقلون عنهم استقلالا حقيقيا مكثوا عليه عشرين سنة وكان اخصاء لويز ومن بعدهم من المؤرخين يكنون عن هذا الاستقلال بالصداقة والامانة ولما دفع السورابية لهؤلاء البوهيمية اجرة على أن ينضموا الى غيرهم من الامم السلاوية وقع منهم الحرب ايضا خمس سنوات تارة بقصد تخريب ثغور جرمانيا وتارة بقصد حماية ثغورهم فتوغلوا فى بعض اغاراتهم حتى وصلوا الى سواحل فولدة فهزم فيها ليوتبيرت مطران ميانسة خمسة من و بوداتهم اى رؤسائهم ولم يزل يطاردهم و يتتبعهم حتى وصل الى وسط بوهيمة (سنة ٨٧٢) وآل امرهم ان سفراءهم قدموا الى مشورة فورخيم وآتوا عهودا ومواثيق اعقبها صلح طالت مدته كالصلح الاول (سنة ٨٧٤) واما عهود الموراوية فكانت دونها فى الثقة بها

حرب الموراوية

وقد كانت طائفة الموراوية مجهولة الحال فى عهد لويز لودبنير ثم صاروا اعلى السلاوية درجة فى العظم بعد موت الامير مويمير الاول وذلك حين عمل لويز الجرمانى بمقتضى ما اثبتته له مشورة وبردون من الحقوق وكان ذلك اول مرة عمل بموجبها فجعل مكان هذا الامير السلاوى ابن اخيه المسمى رستيز او رستسلاو (سنة ٨٤٦)

فمكث هذا الملك الجديد عشر سنوات على الامانة والصداقة للفرنج فكأنه ادى بذلك

ما عليه من الشكر لصنيع من ولاه اوان هذه المدة لم يكن الغرض منها الا مداراة ما سلكه في السياسة من مسالك الغدر والخيانة حيث كان يدارى استعداده للحرب وتجهيزه لمواد القتال باظهار الطاعة والانقياد ثم امتنع من دفع الخراج فكان ذلك علامة على اظهار العداوة وقصد الاضرار فسار لويز الى الموراوية ولم يجسر أن يغير عليهم في حصونهم بل فاز بحماية جيشه من اغارة الاعداء ومبادرته بالانصراف (سنة ٨٥٥) واجتاز رستيز نهر دانوب من غير أن يعارضه احد وخرب معظم بانونيا وبعد ذلك بمدة اراد لويز أن ينتقم منه في تطيير هذا الامر المورث للمعرة ويدخل تحت حكمه جميع السلاوية الخارجين عن طاعته فسعى في ذلك (سنة ٨٥٨) غير أن الجيوش الثلاثة التي ارسلها لهذا الغرض لم ينجح واحد منها نجاحا يثبت به الامر بل سلك ولده كرلومان مسلكا صار به الثغر الشرقي الذي كان انيط بحراسته منذ قليل عرضة للخطر بدلا عن كونه يقمع الموراوية ويدخلهم تحت الطاعة

وذلك ان هذا الامير الشاب الذي كان تحت قيادته قونتات ثغور بانونيا اراد أن يستقل بنفسه ويخرج عن تبعية ابيه ويوسع دائرة حكومته فاقام اناسا من دائرته مقام الرؤساء المرغراوية الذين كان والده جعلهم في بانونيا وكرنثيا وتحالف مع رستيز ليتحقق من نجاح هذا المطمع فاستولى باعانته من باويرة على الجزء الذي على الشاطئ الايمن من نهر ين بتمامه (سنة ٨٦١) فتعلل لويز بانه يريد قمع الامير الموراوى (رستيز) ومنع حركة البلغار فنزل نهر دانوب بجيش جرار وتحول على حين غفلة جهة ثغر الوندية (وندسكارك) لينتقم من ولده على خروجه وعصيانه فلما رأى كرلومان خيانة معاونه غوندكار بادر لابيه بالطاعة فقابله لويز بالصفح والعفو (سنة ٨٦٣)

فسهل بذلك على ملك جرمانيا أن يمر على الشاطئ الشمالي من نهر دانوب ليعاقب رستيز على خيانته فحاصر هذا الموراوى في حصنه المسمى دوينا فاسلم الى لويز رهائن عديدة ليستوثق بها على صداقته في المستقبل ودخل جميع رؤساء ملته فيما آتاه من العهد والميثاق ولكن كيف يمكن لرستيز أن يمكث على الوفاء بعهده مدة طويلة لهذا الملك الذي كان عماله واولاده يحرضون هذا الامير على النكث باغرائهم وافعالهم

فقد حصل في (سنة ٨٦٩) انه جمعت جموع كثيرة عسكرية من كافة القبائل السلاوية المتصلة بحدود الامبراطورية وكان اعظمها تهديدا وارهابا هو قبيلة الموراوية

فرأى

فرأى ملك جرمانيا ان الاصوب أن يوجه جيشين الى هؤلاء الاعداء المهولين ففى مدة ما كان الشاب لويز مشتغلا بقمع السورابية والبوهيمية وردهم الى الطاعة هزم اخواه كرلوس وكرلومان جيوش رستيز وزوانتبالد ابن اخيه وحرقا حصن دوينا واوقعا الرعب فى الموراوية بما صدر منهما من التخريبات المهولة فبادر زوانتبالد بما تكون به استمالة هذين المنصورين اليه حيث سلم لهما اول نصيبه فى المملكة ثم اسلم لهما عمه وكان يريد قتله فحينئذ لم يبق لكرلومان عدو يقاتله بل رتب حكومة الموراوية ترتيب الحاكم المطلق التصرف ثم عاد الى باويرة واخذ معه رستيز اسيرا واخذ ايضا امواله وسلمه الى مشورة راتسبونة وانضم الى اربابها الباويرية عدة من رؤساء السلاوية وذلك من طرق التشديد فى العدالة فحكموا عليه بمثل ما حكمت مشورة أنغلهيم سابقا على آخر امرائهم وذلك ان لويز الجرمانى سلك فى الحكم عليه مسلك جده فى الرأفة التى هى من باب القساوة حيث انقذ مهجة هذا الملك الموراوى من الهلاك بعد أن اعمى بصره (سنة ٨٨٠)

الكلام على زوانتبالد من (سنة ٨٧٠) الى (سنة ٨٩٤)

واما زوانتبالد فكوفىء على خيانته لعمه وانتقامه منه وقد سبق فى الازل ان هذا الامير الذى كان يسمى باللسان السلاوى سوياتبولد يؤسس امبراطورية مستمرة فانه صير الموراوية مستقلين بانفسهم غير تابعين للحكومة الاجنبية وجعلهم مخوفين على من جاورهم آخذين بنصيب من تمدن ابناء النصرانية لكنه لاجل حيازة هذا الفخر لزمه أن يجعل التدقيق فى الدناءة وحسن الاستقامة فى حيز النسيان وزوايا الاهمال فبدأ سياسته بالغدر والخيانة وذلك ان كرلومان اعطاه جيشا من البوارية ليستعين به على قمع الموراوية الذين انضموا الى امير انتخبوه بانفسهم فبمجرد وصوله الى دوينا عزم على أن ينتقم من كرلومان ويجلى عن نفسه العار فهجم على الجيش المذكور على حين غفلة واتى على جميعهم بالقتل والاسر وكان كرلومان لا قدرة له على الانتقام منه فى نظير هذه الخيانة وكفران النعمة فلزمه ايضا أن يرسل ما عنده من رهائن الموراوية ليفتك بها اسرى البوارية (سنة ٨٧١)

وقد بعث لويز الجرمانى السكسونية والطورنجية والفرنكونية لاعانة ولده فلم يجد ذلك نفعا فان زوانتبالد كان يعاونه البوهيمية فدافع جميع اغاراتهم وبلغ الملك لويز وهو فى مدينة متز ان الموراوية بعد أن انتصروا نصرة عظيمة على نهر داوب قدموا لمحاصرة كرلومان ولى عهده على البوارية فى مدينة مونيك فبادر الى اعانته وسعى جهده فى الصلح مع زوانتبالد ورؤساء الموراوية والبوهيمية فهذا هو الوقت الذى استقر فيه الرأى على اصول مصالحة فورشيم

التى اقسم فيها سفير من البنادقة نيابة عن زوانتبالد انه لايزال على الامانة ودفع الخراج لكن مع الاستقلال (سنة ٨٧٤)
ثم ان تقسيم مملكة جرمانيا بين اولاد لويز الثلاثة انسى امم الوندية مااخذ عليهم من العهود فى مصالحة فورشيم فانه لما مات الايمبراطور لويز الثانى بعد ذلك بمدة يسيرة كان ذلك باعثا لسلاوية دلماسيا على الاستقلال ولما فقدت بلاد سكس ابطال حماتها وشجعان رجالها بنصرة النورمان الكبيرة على سواحل نهر البة (سنة ٨٨٠) قام جميع القبائل السلاوية المجاورة لهذا النهر من مصبه الى منبعه وهم الاوبترية والسورابية والدلمنقية والبوهيمية وجمعوا قواهم وهممهم ليستولوا جميعا على طورنجة لكن منعهم المرغراو بوبون أن يجتازوا نهر سالة فاظهر بهذه المخاطرة انه جدير بأن يكون خليفة طاكولف
فاستحسن كرلوس السمين المفاوضة مع زوانتبالد فى شأن الصلح ورأى ذلك اوفق به من القتال وقنع من هذا الامير الموراوى بوعده انه لايغير على الايمبراطورية مدة حياته وكان ذلك (سنة ٨٨٤) بخلاف ارنولف وهو ابن طبيعى لكرلومان اخى كرلوس المذكور فان هذا البطل بعد أن خلف اباه على حكومة پانونيا جعل نفسه محاميا لاولاد أنجلسكالك وواهيلم وكانوا اشد الناس عداوة لزوانتبالد وابى أن يسلم فى عمال البوارية الذين كانوا قريبى عهد بالانضمام الى البلغار لاجل تخريب موراويا فغضب زوانتبالد من ذلك غضبا شديدا واندفع الى پانونيا ومازال يخرب فيها حتى وصل الى سواحل نهر رعب فعند ذلك رأى ارنولف انه لامحيص له عن الرضاء بالصلح الذى كان عقده الايمبراطور منذ قليل مع ملك الموراوية وبرزلاو ودوق الكرواتية (سنة ٨٨٥)
ولما انحطت اراء الملة التوتونية على تسليم تاج الملك لارنولف جعل معظم همه الابوترية وغيرهم من سلاوية نهر البة ولامانع ان ماحل بعساكره من النكبات كان حاملا له على عقد المحالفة مع زوانتبالد حين اجتمعا فى مدينة اومنتسبيك (سنة ٨٩٠) وان كان السبب الظاهرى الذى حمل هذا الملك الالمانى على تلك المحالفة هو انه قصد مكافأة الامير الموراوى اعنى زوانتبالد على كونه صرف الهمة فى نشر دين النصرانية باقاليمه ولامانع ان لهذه السياسة سببا آخر وهو ان الخطر العام اوجب على هذين الملكين أن يجمعا قواهما وينضما الى بعضهما وذلك ان المجار كانوا اذ ذاك شرعوا فى كشف الاراضى والبلاد والاطلاع عليها حتى وصلوا نهر دانوب هذا ويحتمل ان السياسة التى ساعدت فيما بعد على توسيع بلاد النيمسا لتكون حاجزا

مدينا

متينا يمنع الاتراك ويصدهم القت في روع ارنولف مقصدا صادقا وامرا حميدا وهو استمالة الموراوية اليه بشروط تساهل فيها حيث اذن لزواتنبالد أن يستولى على بلاد بوهيمة فعد بذلك حائدا عما تقتضيه رياسته على تلك البلاد حيث تجاوز فيه حدود العدل والانصاف * ولاجل تأكيد المحالفة بين الدولتين وقع الاتفاق على ان زواتنبالد يسمى باسمه ابن ارنولف وكان قد رزقه منذ قليل من حظيته المسماة ايليزانة

وقد اثمر هذا الظلم حيث ترتب على الافتيات على البوهيمية وفقدهم وصف كونهم ملة اى ضياع حتى يتهم أن عاد ذلك بالضرر والخسارة على مرتكبه فقد حل البوهيمية روابط الامانة التى كانت تلزمهم لملوك جرمانيا وصاروا يرون انه لا رابطة بينهم وبين هذه الدولة التى اعرضت عنهم وليس هذا الا مايدل دلالة صحيحة على أن دوقهم برز يوا دفع الخراج لزواتنبالد ملك الموراوية نعم اذعن اليه جماعة من رؤسائهم لشدة بأسه لكنهم بمجرد موته بادروا بالتخلص من التبعية بل فعلوا ماهو اعظم من ذلك وهو انهم ادخلوا الموراوية تحت تبعيتهم

فعما قليل ادرك ملك جرمانيا انه اخطأ فى وثوقه بزواتنبالد واعتقاده انه لا يقابل نعمته بالكفران فانه لم يترتب على انضمام بوهيمة الى الموراوية الا ازدياد زواتنبالد جسارة ووقاحة ولا مانع ان دولة القسطنطينية لما كانت تحمل زواتنبالد على أن يجرى فى سياسته على مقتضى ما اخذته عن دعاة اليونان الذين ادخلوا دين النصرانية فى موراويا حرضت هذا الملك الذى عمده مارى مينوديوس على ايمبراطورية جرمانيا وكان لارنولف قبل ذلك اسباب بعثته على التشكى من زواتنبالد حليفه حين اطمعته نصرة لوان العظيمة فى قمع الموراوية كما اجلى بها النورمان عن بلاده فلم يدع شيأ يكون به ظفره ونجاح اسلحته وحالفه برزلاو حين تلاقيا بمدينة هنجيستفلد ووعده باعانة الاسكلاوونية اى كرواتية ساوة فكانت هذه المحالفة فرصة ووسيلة للمجار فى فتح بلاد يستوطنون بها وكانوا الى ذلك الوقت رحالة نزالة ومنع لودمير ملك البلغار أن يكون بين رعاياه والموراوية ادنى رابطة من روابط التجارة واما زواتنبالد فدعا مرغراوى اى رئيسى ثغر بانونيا الى نقض العهد وهما واهيلم والشاب انجلسكالك لكن ظهرت خيانتهما فعوقبا بالقتل

(سنة ٨٩٣) والظاهر ان ارنولف كان يريد تخريب موراويا حتى تكون بلقعا قفرا فان عساكره الالمانية طافت البرارى والارياف واتلفت ما صادفته تخريبا وتحريقا وقلعا

ولم تنزل أمام الاماكن المحصنة وبذلك تعلم المجار امرا كانوا لا يعرفونه قبل ذلك وهو الحمية الغضبية وشدة الحدة فانظر كيف كانت الامة المتمدنة اسوة فى ذلك لهؤلاء المتبربرين وترتب على هذا التخريب أن انصراف هؤلاء العساكر وعودهم الى اوطانهم صار من الامور الضرورية وان شق عليهم ذلك مشقة فادحة فانهم لم يعودوا الى باويرة الابشق الانفس حيث ساروا بين مكامن ومحال مخوفة ونزلت بهم اخطار ومجاعة وكان ارنولف يؤمل فى ايطاليا ما دعاه الى تأخير مقاصده

موت زوانتبالد (سنة ٨٩٤)

هذا وسهام انتقام هـذا الملك لم يصبهم من فعل موجب ذلك الانتقام فان زوانتبالد ادركته المنية وهو يسعى فى تحريض رعيته ومن كان من الامم يقبل قوله ولا يخالف امره وحثهم على القيام على جرمانيا وقد مكث عوام الناس يلهجون مدة طويلة بان زوانتبالد لم يمت وانما انهزم فى بعض الوقائع فذهب الى زهاد جبل سوبور وكفر هنالك ما حصل منه فى حق الاسقف ميثوديوس من الاساءة والمنقصة وما ذاك الا لانه يشق عليهم أن يعتقدوا ان الامور العامة كالموت تجرى على عظماء الناس كغيرهم

وقد ترتب على موت زوانتبالد وما وقع بين ولديه سوياتبولك ومواميرالثانى من الشقاق والتفاقم أن تخلصت بلاد بوهيمة من ذل التبعية باثر موته

ثم ان الامبراطور ارنولف دعى الى الدخول فى موراويا ليمانع عن حقوق سوياتبولك وعرض عليه وبوودية البوهيمية الدخول فى خدمته وكان ذلك فى آن واحد تقريبا وقد سمى المؤرخون اثنين من هؤلاء الوبوودية احدهما وتيلزلا ويسمى ايضا ورسنسلاس والثانى سپتنيبو وهما ولدا الدوق برزيوا ونسبتهما اليه غير مقطوع بها وكان ارنولف فى مدة غزوته الثانية فى ايطاليا قد اقام برزلاو للترباط على نهر داتوب ونزل له عن بانونيا الواطية وامره عند وفاته أن يقاتل الموراوية وكان يغير عليهم وقتئذ اربون وليوبولد دوقا الثغور الشرقية ولم يكن للمجار دخل فى هذا القتال بل كانوا يومئذ قريبى عهد بخسارة لحقتهم من الواقعة التى وقعت بينهم وبين البلغار وسفكت فيها دماء كثيرة

من (سنة ٨٩٨) الى (سنة ٩٠١)

واستولى جيش باويرة على موراويا واعادبها التخريب الذى طالما كان دهمها واخذ الالمانيون المدينة التى كان بها سوياتبولك اسيرا بامر اخيه وذهبوا بهذا الامير الى باويرة فمات بها فكان اقل ما تسلى به على مصابه هو انه مات حزنا (سنة ٨٩٩) وان لم يكن فى وطنه ومات ارنولف على اثره

(سنة ٩٠١)

ثم اجيب الموراوية الى الصلح فى ايام لويز الصبى فبعث اولياؤه واهل كفالته

وكلاء

وكلاء الى مدينة تترا ليأخذوا العهد والميثاق على مويمير الثانى ويدبروا مصالح المملكة وهذه المصالحة التى حصلت باعانة البوهيمية وسبقت بانقياد السورابية والاوبترية كان يؤمل منها ان السلم يمكث مدة طويلة فى ثغر السلاوية بتمامه الا ان لويز هذا الذى هو خليفة ارنولف كان غلاما صغيرا فكان يخاف من عماله وحلفائه ومن يدفع اليه الخراج

انقراض الايمبراطورية الموراوية (سنة ٩٠٤)

ولم ينكر الموراوية فى هذه المرة مالايمبراطورية الفرنج على بلادهم من الحقوق وانما انكرها الامتان المناصرتان لهم اللتان كان لهما دخل فى فتوحهم وهما البوهيمية والمجار حيث مزقا مملكة زوانتبالد المتسعة كل من جهته فان الخان ارباد بعد أن هزم جيش لويز الرابع على نهر ليشان حاصر سبور آخر ملوك الموراوية فى مدينة تترا فدافع هذا الملك مدافعة شديدة ثم قبض عليه العدو ووضعوه على المشنقة (سنة ٩٠٤) فى الجبل الذى لا يزال يسمى باسمه ومن يومئذ بادر الاهالى القاطنون فى البلاد التى بين نهرى واغ وموراوة بتسليم الرهائن للحزب الغالب لاجل الوثوق بامانتهم فى دفع الخراج ولم يزل اهل تلك البلاد التى هى كناية عن الاقاليم الثلاثة عشر المسماة بلاطينا والمدائن الملوكية محافظين تحت حكومة هؤلاء الاجانب على لسان قدماء الموراوية المختلط باللسان المجارى والاهى والالمانى على حسب القبائل التى قدمت الى تلك البلاد من الاقطار المجاورة لها واستوطنتها واستمر الشاطئ الايمن من نهر موراوة تحت حكم البوهيمية فكان هذا النهر فاصلا بين هاتين الامتين (البوهيمية والمجار) اللتين تقاربتا من بعضهما بتعاقب التقلبات والحوادث وعما قليل حدثت حكومة حرغراوية تابعة للبوهيمية تكونت من بعض بقايا الايمبراطورية الموراوية يقال لمؤسسها رادسلاو وذلك ان هذا الويوود شرع بمعاونة اهل كوروزيم (زنايم) فى اعادة الايمبراطورية الموراوية فهزمه ونسلاس الاول دوق بوهيمية فبايعه رادسلاو واعترف له بالرياسة (سنة ٩٢٥)

فهكذا كان انقراض اقوى قبائل الوندية وآخرها وجودا فهلكوا على هذا الوجه فى قتال الايمبراطورية الجرمانية بقصد خروج السلاوية عن التبعية الى الاستقلال واما قبائل نهر الية فلم يزالوا محافظين على الاستقلال مع ما شرطته عليهم دولة جرمانيا من التبعية لها فان هذا الشرط وان صان شرفها وعلو مكانتها الا انه كان لاغيا لا ثمرة له وقد ساعدهم على حفظ هذا الاستقلال كثرة اغارات المجار واعانة الدانيمرقة لهم فى الغالب ولما دخل السورابية تحت الطاعة وانقادوا لحكومة الفرنج

بالتدريج صار الدلمنية بذلك لا فاصل بينهم وبين الايمبراطورية فكان هذا سببا في ازدياد عظمهم واعتبارهم فقد دعوا المجار غيرمرة للاغارات التي صارت بها الايمبراطورية في عهد لويز الصبي عرضة للدمار

ولما انتقل منصب ايمبراطورية جرمانيا من عشيرة شرلمانيا الى عشائر من اهالي البلاد صار جميع الاقوام السلاوية الذين كانوا خراجيين من قديم الزمان مستقلين بانفسهم استقلالا حقيقيا ماعدا سوراببة نهر سعلة فانهم بقيوا على التبعية وكانوا مجاورين للسكسونية اتم المجاورة بحيث تمكنهم مقاومتهم مدة طويلة وكانوا ايضا مجاورين للامة المورارية التي حل محلها امة اشد منها بأسا وهيبة فذلك هو ماترتب على المقاتلة الطويلة التي وقعت بين الامم الوندية والايمبراطورية الكرلونجية وقد اقتضى الحال ان هذا القتال يعود ثانيا وكذلك ايمبراطورية جرمانيا

واى ثمرة عادت على الانسانية والتمدن من تخريب البلاد وتدمير العباد الذي مكث يتجدد قرنا كاملا فانك اذا لم تنظر الا لما ترتب على هذا الحرب من النتائج التي اعقبته لم تر الا مصائب ونكبات توجب التأسف والتحسر واما اذا وسعت دائرة النظر في هذا المعنى فانك لا تقول بان وقوف تبربر السلاوية عند حده وعدم تجاوز خشونتهم حدودها من السعادة المتوسطة لاوروبا المتمدنة التي كان يعبر عنها سابقا بالكنيسة النصرانية بل تجد ذلك من سعادتها التي بلغت اقصى الدرجات حيث تقرر في الاخلاق فضيلة عظيمة كانت سببا في بقاء التمدن عند الفرنج وهو رجحان الملة الجرمانية وفوقانها على فرع السلاوية وترتب على هذا الحرب ايضا نتيجة عظيمة نشأ عنها علاقات كثيرة قربت ما بين هذين الفرعين وهي دخول عدة عشائر سلاوية في دين النصرانية فكان ذلك فيما بعد كافلا جديدا لتمدن اوروبا بمعنى ان هذا التمدن صار به آمنا من الحروب التي يكون القصد منها التغلب على البلاد ومن التبربر الذي يصحب تلك الحروب

تنصر السلاوية

هذا ولم يجد شرلمانيا فسحة من الزمن ينشر فيها دين النصرانية بين سلاوية نهري البه ودانوب وقد كان لهذا الدين منذ مدة طويلة وجود عند قبائل هذه الملة الذين كانوا مستوطنين في ايليريا وان لم يكن منتشرا فيما بينهم ومع ذلك فقد تفكر شرلمانيا في هذا الشأن كما يشهد بذلك ما ابداه من انه يريد احداث كرسي مطرانية في مدينة همبورغ فانه بوضعه في تلك الجهة التي هي حد للنورمان والسلاوية تحصل اعانة ديركوريا الذي كان ينشر هذا الدين في بلاد الشمال فنجز لويز التقي هذا الغرض بل زاد عليه حيث اسس كوريا الجديدة التي تأهل في ديرها كثير

من

من الابطال لنشر الدين والدعاء اليه ومع ذلك كان نجاح دعوتهم اكثر بطأ من نجاح دعوة البوارية لان هؤلاء الدعاة كان يساعدهم قسوس اليونان واما رهبان كوريا فكانوا فى الغالب لايذهبون الى السلاوية الابعد نصرة الفرنج عليهم فكانوا يرون أن حضور هؤلاء الدعاة لديهم مقرر لهزيمتهم وكافل لانقيادهم (فكان ذلك سببا فى عدم اجابتهم الابعسر ومشقة) وهناك سبب اخر فى بقاء سلاوية الشمال على عقائدهم الفاسدة واوهامهم الكاسدة مدة طويلة وهو رؤيتهم لهيبا كلهم ووعظ قسوسهم فان ذلك كان يحيى فيهم تلك الاوهام ويحملهم على التمسك بها على الدوام واما الموراوية والكرواتية والسروية فانهم نقلوا معهم عند ارتحالهم عقائد واوهاما خشنية تلايم جميع الاديان

حصول هذا التنصر فى بانونيا

وكان شرلمانيا بعد تدمير ايمبراطورية الاوارية قد ألزم مطران سلزبورغ المسمى أرنون أن يبذل وسعه ويصرف جميع همته فى تنصير قبائل السلاوية ببلاد كرنثيا وكذلك الامم المتفرعة عن اصل واحد التى نزلت وتشتت ببلاد بانونيا الخالية عن السكان فشمر هذا الحبر عن ساعد الجد فى الوعظ بالانجيل والدعوة بتلك الاقطار فرتب قسوسا وكنائس ثم نزل عن منصبه الى تيودوريق وولاه اسقفا على جميع البلاد التى بين نهرى دراوة ودانوب وقد اقتفى اثر ارنون فى هذا المعنى خلفاؤه وسلكوا مسالكه فى الحمية والاجتهاد ونال ارواب من البابا اوجين الثانى بمبالغته له فى نجاحه فى الدعوة أن اعاد له مطرانية لورك القديمة التى جعلت له الحق فى أن يرتب على شاطئ دانوب اساقفة بلاكراس ورعاة (اى قسوسا) بلا رعية ولما نال پريوبناس من لويز التقى (سنة ٨٣١) القسم الذى كان لم يتار ببلاد اسكلاوونيا مكافأة له على الطاعة والانقياد انتشر دين النصرانية عند السلاوية وكثر فيهم التنصر على وجه السرعة بهمة هذا الامير وفرط اعتنائه حيث كان يبنى كنائس بعدد القلاع ويهتم بأن يمتع رعاياه بثمرات التمدن وخيراته وكان ليوتبرند مطران سلزبورغ يعينه على ذلك حيث ارسل له من باويرة بنائين وصناع اقفال ونجارين وغيرهم من الصنائعية فاقاموا بيوتا للقبيلة الكبيرة التى كان اهلها ياتون الى بانونيا من سائر الجهات لما انطوت عليه ادارة هذا الامير الموراوى من الاحسان والانعام وقد اراد پريوبناس أن يمتع رعيته الذين بشاطئ نهر دانوب الايسر بمثل هذه النعم كانشرها على الشاطئ الايمن لكنه لم يكافأ على هذا الاجتهاد حيث طرده رعاياه الموراويون ثم قتلوه لكونه بنى (سنة ٨٣٩) كنيسة فى مدينته المسماة نترا التى ورثها عن ابيه قاصدين بذلك أن ينضموا الى مملكة

موراويا الكبرى (سنة ٨٦١) فاقتفى اثره فى هذا الاجتهاد ولده خوزيل او هزيلون الذى تولى بعده على بانونيا فبنى كنائس عديدة فالفضل لهذه العشيرة الموراوية فى ادخال التمدن الاول فى جزء عظيم من بلاد النمسا

حصوله فى موراويا

ثم ان كيفية الصلوات اللاطينية التى ادخلها قسوس باويرة فى الكنيسة السلاوية المنسوبة لبانونيا وكرنثيا وموراويا نسخت بكيفية الصلوات اليونانية والاسكلاوونية حين حضر ميثوديوس وقريلة من القسطنطينية بدعاء راستيز لتنصير الملة الموراوية (سنة ٨٦٣) ولاشك ان هذا الامير بطرده للاسقف اللاطينى وطلبه من القيصر ميخاييل الالكن دعاة للتنصير قد سلك فى ذلك على ما تقتضيه كراهته للالمانيين حيث اراد أن يأتى لقومه بالحق من محل آخر

وكان اذ ذاك فى القسطنطينية قسيس من تسالونيقة يقال له قريلة وكان يعرف لسان الاسكلاوونية وكان قد اظهر الهمة والشجاعة فى ارسالية بعثت الى خوزارية لاجل دعائهم الى دين النصرانية فامره القيصر أن يذهب هو واخوه ميثوديوس الى الموراوية ليدعواهم الى هذا الدين فكان تنصر بوغوريس الذى يشهد بمزورهما بلاد البلغار فلا حسنا او بشارة بالنجاح فيما هما مبعوثان بصدده ولما وصلا الى مدينة تترا بذلا وسعهما فى تسهيل علم الاحكام الدينية على اهل تلك المدينة وافراغه فى قالب يفهمه الخاص والعام منهم حيث ترجما الكتب المقدسة وكتاب الصلوات القسيسية باللغة السلاوية ولم يصلا الى ذلك الا بواسطة اختراع حروف هجائية عديدة ليتأتى بها النطق بالمخارج الاجنبية من اللغة اليونانية وقد مكثت هذه الحروف مدة طويلة وهى تسمى باسم مخترعها قريلة فبتأثير هذه الواسطة حصل النجاح وعما قليل صار رعية خوزيل كرعية راستيز يأتون الى اقليم موراويا افواجا لطلب التعميد

وكان هذان الداعيان اليونانيان ينكران حكومة مطرانية سلزبورغ فوصل خبرهما الى البابا فى اسرع وقت واتهمهما ليوتبرند بانهما يعلمان من تنصر على ايديهما المذاهب المخالفة التى كانت وقتئذ متسلطنة فى القسطنطينية فذهبا الى رومة فسر البابا ادريان الثانى من كلامهما واذن للكنيسة الجديدة أن تبث الاسرار الدينية باللغة الاسكلاوونية واقر ميثوديوس على مطرانية موراويا لكون اخيه قريلة اظهر انه يريد ترك الدعوة (سنة ٨٦٧) واغتاظ البطرق فوتيوس من تمسك رسوليه المذكورين بالمذهب الرومانى وارسل الى موراويا اسقفين آخرين فلم يقبلا فيها

ولما تولى زوانتبالد بعد راستيز ظهر منه فى مبدء الامر عدم الميل الى دين النصرانية بل اعلن انه يريد محوه وازالته من اقاليمه نعم وان كان كبار قومه قد التزموا له بالاعانة على هذا القصد الا ان الامة كانت وقتئذ من حزب الدين الجديد وانصاره فحمله الطمع على الرجوع عن هذا القصد والجأه الى الدخول فى دين النصرانية ولم يقتصر على طلب ميثوديوس الى الحضور ببلاده وكان قد ذهب يطلب المدد والاعانة من رومة بل جعله امين سره وامره أن يؤلف للموراوية كتابا يجمع فيه بين العبادات والمعاملات واستمر هذا الكتاب معمولا به عند سلاوية المجار مدة ستمائة سنة وكانوا يسمونه كتاب ميثوديوس

ثم ان البابا يوحنا الثامن بلغه خبر المذاهب التى كانوا يتعلمونها فى موراويا فاراد أن يعرف عقائد ميثوديوس التى كانوا يتعلمونها بتلك الجهة فلما اطلع عليها وجدها ملايمة لاصول الكنيسة الرومانية فاباح ما كان منعه من تأدية القنداق باللسان الاسكلاوونى (سنة ٨٨٠) وضم لداعى موراويا هذا المتمسك بالمذهب الصحيح (وهو ميثوديوس) القسيس ويشنغ الذى جعل اسقفا على نترا ليشد عضده فى الدعوة ويعينه عليها وكان هذا القسيس من الطمع بمكان فلم يتفكر الا فيما يكون به تعطيل مقاصد مطرانه وكان سابقا قد حاول التغلب على ما لميثوديوس من الحظوة والجاه وحيازة ذلك لنفسه فلم يستطع وضاع سعيه سدى فجبره ميثوديوس على مفارقة كنيسته ورعيته فدخل ويشنغ فى خدمة الايمبراطور ارنولف فى السنة التى مات فيها زوانتبالد وهى (سنة ٨٩٤) وبعناية هذا الايمبراطور الالمانى حظى باسقفية باسو فعند ذلك شمر عن ساعد الجد والاجتهاد قاصدا أنه يعيد لاسقفيته الحقوق التى كانت من مدة مديدة ثابتة لمطرانيه لورك ليوسع بذلك دائرة شوكته الدينية حتى تعم جميع موراويا

وقد ترتب على موت زوانتبالد الاكبر الذى اعقبه موت ميثوديوس ضرر عظيم للكنيسة الموراوية حيث اعتراها خلل لم يمكن جبره ولم تترتب ثمرة على حضور الوكلاء الثلاثة الذين ارسلهم البابا يوحنا التاسع الى موراويا حين طلبهم منه مويمير الثانى ملك تلك المملكة لاصلاح حال كنيستها واعادتها للحالة الاولى ومنعها من الدخول تحت رياسة مطران سلزبورغ وكان مولعا بذلك ولم يزل يتطلبه وكانت الدولة الموراوية اذ ذاك قد اشرفت على الانقراض وكاد دين النصرانية ينعدم بانعدامها وكانت عبادة المجار للاوثان قد عضدت عقائد السلاوية وقامت بنصرتها بعد أن مكثت فى الضنك والحصر مدة من الزمن ولم يبق من المتمسكين بالانجيل على

شاطئ نهر دانوب الاشر ذمة قليلة جدا حتى ان مطران لورك لم يمكنه (سنة ٩٤٦) أن ينجز ما امر به البابا أغابيت الثانى من كونه يقيم ثانيا اساقفة فى بانونيا وسلاويا ومو راويا وكان قد سبق فى الازل ان كنيسة بوهيمه ترد للموراوية ما كانت تلقته عنهم من البر والفضل

حصوله فى بوهيمه

وكان ميثوديوس قد هاجر من موراويا ليتخلص من سوء معاملة الشاب سويانوبلك (سنة ٨٩٤) وكان برزوا دوق بوهيمة قد اعاده قومه من النفى فطلب هذا الحبر ليدعو الناس الى دين النصرانية فى سواحل نهر مولدو وانغمس فى ماء المعمودية هو وزوجته لودميلة وكان دين النصرانية قد دخل فى بوهيمة منذ مدة طويلة فانه فى (سنة ٨٤٥) ذهب اربعة عشر بوودا ومعهم اتباعهم الى الملك لويز الجرمانى بقصد التعميد والتنصر ولكن لم يتأس بهم الا عدد قليل من اهل بلادهم لان برزوا لما ظهر منه الميل الى هذا الدين الجديد طرد من دوقيته ولما اتى اليها ميثوديوس حظى من القبول بما لم يحظ بمثله سلفه من الدعاة الالمانيين وصارت شعائر الدين القاثوليقى مرغوبا فيها على التدريج عند هذه الامة لسهولتها عليهم باستعمال لسان العامة فيها ولكن لم يمكن لهذا الداعى أن يتم التنصر فى بوهيمة لدنو اجله الا انه قبل سفره الى رومة وموته بها اسس فى مدينة براغة كنيسة وفتح مكتبا ليتعلم فيه اللغة اللاطينية من تنصر على يديه آخرا ولما تولى ورانسلاس الاول ثانى اولاد برزوا رغب فى الدعوة الى دين النصرانية الا ان زوجته دراهوميرة اهتمت بعده وبذلت جهدها فى ابطال الدعوة بالتضييق والقتل (سنة ٩١٦) ولما بلغ ولدها ونسسلاس الاول رشده احدث كنيسة بولسلاويا المسماة ايضا ألتبوترلو تعظيما لميثوديوس وقريلة وسعى فى جبر ما وقع من امه من الخلل الذى اضر بكنيسة بوهيمة الجديدة غير ان هذه المرأة ذات الحمية الجاهلية الخارجة عن طور البشر التى قتلت القديسة لودميلة صارت عما قليل لها مدخلية فى قتل ولدها حيث رأت فيه ما كان فى زوجة برزوا المذكورة من الديانة والاستقامة وتولى على الدوقية بعده قاتله وهو اخوه المسمى بولسلاس الاول ولاه عليها الحزب المعادى لدين النصرانية وكان اول ما ابتدأ به حكمه هو اعادة عبادة الاوثان (سنة ٩٣٦) ولكن اكرهه اوتون الاكبر لما كان له من المدخلية القوية فى هذا المعنى على اعادة ما تهدم من الكنائس (سنة ٩٥٠) والزمه بحماية هذا الدين وتأييده بعد أن كان ينفر منه حسبما ربته عليه امه دراهوميرة وبعد موته قام ولداه بنصرة الدين احدهما فى بوهيمة والاخر فى بولونيا وظهر

بواسلاس الثانى على حزب عبدة الاوثان الذين خرجوا عن طاعته وعمل بما فى كتاب البابا يوحنا الثامن وكان هذا الكتاب قد طلبه ابوه بواسلاس الاول من البابا المذكور وكان مما تضمنه ذلك الكتاب الاذن باحداث اسقفية مستقلة فى براغة فرضى مارى وافغنغ اسقف راتسبونة بتجزيق اسقفيته لهذا الغرض وكانت كنيسة براغة تحت رياسته ونزل للاسقفية الجديدة عن اقليم سيلزيا الى نهر اودر وعن موراويا الى نهر واغ زيادة على بوهيمة الموجودة الآن (سنة ٩٧٣)

وتولى على اسقفية براغة اسقف يقال له ثيوتمارة اودتمار تحت رياسة كنيسة ميانسة فاستغرق مدة اسقفيته وهى عشر سنوات فى تنصير اهل بوهيمة الوثنيين ثم خلفه (سنة ٩٨٠) راهب من دير كوربيا من الرهبان البندكتية يقال له أدلبيرت او واتيك كان ابوه وبوودا ذا شوكة من لوبيسة فكان ايثار اهل بلده له بهذا المنصب منظورا فيه الى ما كان لعشيرته من الشوكة ونفوذ الكلمة اكثر مما حازه هو من فضيلة العلم وقد بدل كيفية الصلوات الاسكلاوونية بالكيفية اللاطينية وحروف الهجاء المنسوبة لقريلة بالحروف الرومانية ومع ذلك لم يهمل فى تعليمه لسان العامة ومدح السيدة مريم بقصيدة باللسان السلاوى لم يزل اللاهية والبوهيمية يتذكرونها الى الآن وهى من آثار هذا اللسان القديمة

حصوله فى بولونيا

ولم تكن همة هذا الحبر فى الدعوة قاصرة على اهل بلاده بل سرت الى غيرهم اذ هو الذى عمد (سنة ٩٨٩) اول ملك من ملوك النصارى على بلاد المجار ولما رآى ان نسلاس دوق بولونيا يميل كل الميل الى دين زوجته دامبروكه (وهو دين النصرانية) انتهز هذه الفرصة واسس كنيسة غنيزنه الاسقفية فى بلاد بوسنانيا وقد جعلها الايمبراطور اوتون الثالث بعد ذلك بسنوات قلائل مطرانية (سنة ٩٩٩) ولما اجتمعت له دعوة اللاهية ودعوة البوهيمية بحث عما هو اصعب من ذلك فى الدعوة حيث تجاسر على الدخول فى بلاد البروسيين المتوحشين فرموه بنبالهم (سنة ٩٩٧) حتى تخرق جسمه وكان وقتئذ يعمل القداس فى محل شجرة اقتلعها وكانت مقدسة عندهم فنقل اصحابه جسمه الى غنيزنه وهم يلعنون هذه الارض التى لا تأوى الغريب ومكثت بعد ذلك ثلاثة قرون لا تقبل شيأ من التمدن

حصوله فى نوردلبنجيا

هذا وقد لاحظ المؤرخ هلمدوس ان الحروب الاهلية التى اعقبت موت لويرالتقى ترتب عليها تأخر تنصر الوثنيين وهم سلاوية نوردلبنجيا حيث لم يمكن لانشرة ورمبيرت وأونى وبعض مطارنة آخرين من همبورغ مع بذل

همتهم فى الدعوة أن يظهروا على عناد هؤلاء الامم ويدخلوهم فى دين النصرانية ولم يترتب على نقل عبادة ماريويت من كوربيا الى روجين الازيادة بعض اوهام فاسدة على عبادة الاوثان السلاوية فلزم لوعظهم واستمالتهم الى الدخول فى الدين أن يصحب ذلك قوة تعين على تنجيز هذا الغرض حتى يترك السلاوية عبادة آبائهم فكثوا ثلاثة قرون يشتغلون معهم بالوقائع الحربية ومع ذلك فكان ماأسسوه من الاسقفيات اقل عددا من الوقائع التى كان لهم فيها النصرة عليهم فى هذه المدة وكانت نصرات ملوك الدولة الكرلونجية ضعيفة الاعانة فى نشر الدين فيماوراء نهر البه بخلاف نصرات هنرى لوازليور اى صائد الطير واوتون الاكبر فكانت اعظم نجاحا منها لانهما كانا يفوضان امر حماية فتوحاتهما الترنسلبينية اى ماوراء هذا النهر وحماية دعاة دين النصرانية لرؤساء يلقبون مرغراوية وقبائل المانية هذا ولا ينبغى أن نقول بقول بعض مؤرخى ذلك العصر ان الدين انتشر انتشارا عظيما فى عهد الملوك الثلاثة المسمى كل منهم اوتون بحيث لم يكن فى بلاد سلاويا بقعة الاوفيها زلات وكنائس واديار بكثرة وانما الثابت انه فى عهد اوتون الاول ادخل مرقون وهو اول اساقفة اولدنبورغ فى دين النصرانية الاوبترية والوجرية وفعل اوتون نفسه فى بلاد السوراية مافعله شرلمانيا ونجح فيه ببلاد سكس فانه احدث فيها اسقفيات وجعلها (سنة ٩٦٧) تابعة لكرسى مطرانية مغدبورغ التى كانت قبل ذلك بقليل ليست الا دير راهبات يقال له برثنوبوليس ومن يومئذ تمكن دين النصرانية أمام نهر البه غير ان الاسقفيات التى حدثت على شاطئه الايمن فى بلاد الولسية والدلمتية فكانت بذلك اقرب من غيرها لاعظم مواطن اوهام السلاوية الفاسدة كانت عرضة لاخطار الحروب والعصيان فان اوتون لما اراد أن يقوى شوكة الاساقفة بالاموال جر ذلك الى بغضتهم عند الامم حيث كانت هذه الاموال ثمرة كدهم وعرق جبينهم فكان الدين النصرانى الذى جعلهم اشبه بخراجيين للقسوس هو السبب فى كراهتهم لهؤلاء القسوس ككراهتهم للحكومة الجرمانية التى كان هذا الدين تحت حمايتها وكانت رغبة هؤلاء القسوس السكسونية فى جبى الاموال واخذ الخراج اقوى من رغبتهم فى هداية الناس وانقاذ مهجهم من العذاب الاخروى فهم وان كانوا متأصلين فى دين النصرانية وتوارثوه عن اسلافهم الا انهم كانوا مجردين عن المعارف الدينية ولم يجنوا ثمرة الديانة النصرانية وفى عهد اوتون الثالث ترتب على تظلم الامم وتشكيهم أن صار الامير بيلونغ رئيس مكلنبورغ الاكبر مجبورا على ابطال الخراج الذى كانت تدفعه رعيته

لصهره اسقف اولدنبورغ وعلى تطليق اخت هذا الاسقف ليحظى بالقبول عند الامة فاختطف ميسسلاو ابن هـذا الامير اخته وغيرها من راهبات دير مكلنبورغ ليزوجهن لاتباعه ومع ذلك فقد اثبت آدم البرعى ان زوبانيات اى اخطاط هذا القطر الثمانية عشر دخل منها فى دين النصرانية خمسة عشر ومن يومئذ تلاشى امر الدين عند السلاوية الترنسلبينية اى سلاوية ماوراء نهر البه وزالت قوته وسلطنته وهنالك ما يوجب التصديق بانه لولا حزم هرمان دوق سكس لعمت الردة بلادهم فانه لما كان منوطا بملاحظة الامراء الخراجيين وهو بهذا اللقب (اى دوق سكس) عرف هو وابنه بينون بعده كيف يستميلان قلوب السلاوية اليهما بسلوكهما معهم مسلك العدل والانصاف بخلاف الدوق برنارد والقونتة تيودوريق ولدى بينون فانهما لم يرثا عن ابيهما خصاله الحميدة بل افضى بهما الظلم الى أن تحزبت عليهما عصبة مهولة عقدها رؤساء الملة السلاوية فى مدينة رترا وكان المتولى تدبيرها الامير مستيوا والامير ميزودراغ (سنة ١٠١٣) وكان الغرض منها التخلص من تبعية الالمانيين ومحق دين النصرانية فخربت تلك العصبة جميع بلاد نوردلبنجيا وحرقت سائر الكنائس حتى كنيسة همبورغ والقسوس الذين سلموا من القتل طافوا بهم فى فجاج المدن السلاوية بعد أن سلخوا رؤسهم على شكل الصليب ومازالوا يذيقونهم العذاب حتى هلكوا حبا فى الدين وبالجملة فقد قال هلمولد الذى نقل هذه التفاصيل الشنيعة عن شيوخ الملة السلاوية انه لم يبق لدين النصرانية اثر فيما وراء نهر البه

فهكذا كان زوال ما اثمرته الدعوة منذ مائتى سنة ولزم لاجل اعادة هؤلاء المعاندين الى الدين بذل الهمة فى ذلك اكثر من قرن حتى كاد الملك جوتشلك الذى جمع (سنة ١٠٤٣) معظم القبائل السلاوية تحت قوانينه يتم تنصير بلاد نوردلبنجيا بتمامها حيث احدث فيها عدة اسقفيات منها اسقفية بيولوبين الا أن ما كان فى اللوتيزية والريدارية من الحمية الجاهلية كان فى هذه المرة ايضا اقوى من حمية النصارى الدينية فجوزى جوتشلك على اجتهاده بالقتل (سنة ١٠٦٦) وقتل معه ايضا لاجل الدين جم غفير من القسوس وقتل اول اساقفة مكلنبورغ فى مدينة رترا تعظيما لموسم رديجاست وقد اقسم السلاوية فى هذا الموسم الشنيع انهم من الآن فصاعدا لا يتمسكون الا بدين آبائهم واستمر هذا الجيل الحالف على البر فى يمينه فكان سلاوية بحر بلطق مصرين على عبادة الاوثان مع ان من كان حولهم من الامم كانوا جميعا على دين النصرانية منذ مدة طويلة

وكان نخر اعادتهم لهذا الدين والاستمرار عليه للاسقف ويسلين فانه انذر السلاوية ثانيا بالانجيل ودعاهم الى دين النصرانية تحت حماية الدوقات السكسونية الذين هم من عائلة جوولف

(الفصل الرابع)

(فى الكلام على المجار)

ثم ان امم آسيا الذين كان لهم مدخلية عظيمة فى اغارة المتبربرين الاولى كان لهم ايضا دخل فى الثانية وكان الهونية والاوارية لم يظفروا بمرامهم من التوطن فى الاقاليم الرومانية كذلك المجار الذين اتوا بعدهم لم يظفروا الا بالتوطن خارج ثغور الايمبراطورية الكرلونجية وقد وقع تحت حكم هؤلاء الامم الثلاث قطر واحد على التوالى وهذا من تقارب حظوظهم التى قدرت لهم فى الازل ومما يتم به هذا التقارب ان كل شئ يدل على انهم من اصل واحد وعشيرة واحدة واقل ماهنالك ماذهب اليه فى هذا المعنى كلابروث السياح العالم باللغات المشرقية حيث خالف ماقاله جوونييس ومؤلفو القسطنطينية ولم يقتصر على نسبة الهونية والاوارية والمجار الى الاصل الذى يجمع الفنلندية المشرقية بل نسب اليه ايضا البلغار والخوزارية الذين ذهب جمهور العلماء الى انهم عشائر من ملة الاتراك الكبيرة ورأيه فى المجار مسبوق به فانه ثبت قبله أن لغتهم هى لغة الفنلندية الشمالية وان كان هذا الدليل يقبل الطعن والمناقشة

وكان يقال للمجار اوّلا هونجروا ثم سموا انفسهم بالمجار اخذا من كلمة مدجار ومعناها عربية كأن ذلك تذكار لعيشتهم وهم رحالة نزالة اومن اسم قبيلة من قبائلهم وهو ميجيرى حسبما سماها به بورفيروجينية واما الاسم الاول الذى غلب فى اوروبا اعنى هونجروا فهو مذكور فى تاريخ آسيا الجغرافى بصيغ متنوعة متشابهة

ثم ان الآراء التى اتفقت على تعيين محلهم الاصلى الذى هو اصل غرسهم ومسقط رأسهم اكثر من الآراء التى اتفقت على تعيين زمن ارتحالهم ووصولهم الى اوروبا فقالوا ان محلهم الاصلى بقرب جبال اورال وفى سواحل نهر كاما وهو القطر الذى مازال بعد مهاجرتهم منه يسمى باسم هونجريا الكبرى او اوجريا والظاهر انهم قبل اغاراتهم الكبرى بمدة طويلة ارتحلوا الى البلاد التى بين نهرى الدون والدنيبر ومنها اغاروا بعض اغارات فى اوروبا الغربية وماحصل فى آسيا الوسطى من الاضطراب الكبير الناشئ عن تدمير الهونية لسلطنة الاتراك كان سببا فى رحلة

المجار العامة وذلك ان البنشجية وهم بقايا هذه السلطنة وقعت بينهم وبين المجار مصادمة ترتب عليها انحلال الروابط التى كان بها المجار فى تبعية الاتراك الخوزارية (سنة ٨٨٣) فاجتازت طائفة من هذه الملة نهر الدون ورجعت القهقرى نحو ثغور الفرس واجتاز الاخرون نهر بورسطين قريبا من مدينة كييف ولم يمكنهم الاستيلاء عليها حيث دافع عنها اوليغ ولى ابن روريق ومازالوا سائرين حتى وصلوا الى نهر بوغ تحت قيادة الخاقان أرباد بن ألموز وستة رؤساء آخرين تلقبوا فى طريقهم باللقب السلاوى وهو ويوود وارتحلوا من هذا النهر حتى وصلوا أمام جبال كراباكس وتوطنوا هنالك فى بلاد كان فيها الولاكية وهم اقوام جبناء كانوا لم يزالوا محافظين على تذكر اسلافهم الرومانيين ولغتهم تحت حماية البلغار الذين كانوا يقتاتون من مواشيهم فلما نزل المجار بتلك البلاد دعاهم القيصر لاون الفلسفى الى حمل السلاح ليقاتلوا هذه الامة الحربية (يعنى البلغار) وكانت اذ ذاك تحكم على شاطئ نهر دانوب الاسفل وكان حاكمها قد امتنع أن ينزل للخاقان ارباد عن البلاد التى تمتد الى سجو ولكن تقوى البلغار بمحالفتهم للبنشجية فكانت لهم النصرة على المجار فى هذه المرة وجبروهم على المهاجرة من بلاد بغدان والاردل حتى قربوا من سلطنة بانونيا فوقع بينهم وبين الموراوية قتال (سنة ٨٩٦) دلهم على ان هذه السلطنة مشرفة على الزوال وانهم يأخذونها وتكون وطنا لهم

الكلام على المجار فى بانونيا

ومن (سنة ٨٩٢) دعا ارنولف ملك جرمانيا المجار الى الانضمام الى كرواثية دراوة لاجل تخريب موراويا وكان البوارية وقتئذ قد دخلوا اقاليم الملك زوانتبالد الاكبر وبعد موت هذا الملك الموراوى اجتاز المجار نهر دانوب وخربوا جميع بلاد بانونيا بالاسلحة والنار ولم يدعوا من اهلها الا النساء الشابات والدواب المعدة للعمل عليها حسبما نصت عليه التواريخ وكان هؤلاء المتبربرون الى ذلك الوقت لا يذهبون الى ثغر جرمانيا الا لاجل الغنيمة واختبار قواهم لكن لما اجلاهم البلغار عن داسيا لزمهم أن ينقلوا خيمهم ودوابهم الى محل آخر وكانت مملكة البلغار تمنعهم من الدخول فى سلطنة المشرق واما انحطاط دولة الموراوية فكان طريقا لفتح ابواب جرمانيا واوروبا الغربية لهم فقد قيل ان الايمبراطور ارنولف قصد تسهيل المرور عليهم فهدم الحصون التى كان شرلمانيا قبل ذلك بقرن يعارض بها الاوارية ويمانعهم وذكر ليوتبرند ان المجار لما عادوا من غزوتهم الاولى تطرقوا بعين الخيانة الى المسالك التى مهدت من اجلهم والتفتوا اخلفهم

الى الاراضى التى أروها لهم هذا وفى كل من العبارتين تجوز وانما المراد الاشارة الى ان ارنولف اساء التدبير فى سعيه فى تدمير الموراوية الذين كانوا يحمون جرمانيا من هول الآسيين فكان ذلك منه اضر شئ على سلطنته حيث فتح فيها بتدميرهم طريقا للاجانب

اغاراتهم

ولما استولى المجار على شاطئى دانوب الى نهرى رعب وموراوه سهل عليهم الاستيلاء على مملكتى المانيا وايطاليا فبادروا الى ذلك حين مات ارنولف وترتب على موته ان احداهما صارت ضعيفة بتملك صبى قاصر عليها والاخرى صارت عاجزة بعدم انتظامها واختلال احكامها فتغلب المجار عليهما فى آن واحد تقريبا (سنة ٩٠٠) وحصل لاهل اوروبا المتمدنة ثانيا من منظر تلك الوجوه القبيحة ماحصل لاسلافهم سابقا من منظر اصحاب اتيلا من الرعب والفزع وتوغل المجار

اغاراتهم فى ايطاليا

اولا فى ايطاليا حتى وصلوا الى نهر برنتة وانتصروا فيه نصرة عظيمة لكنهم نظروا الى هذا القطر العظيم فتعجبوا من كثرة اهله لكونهم طافوا بلادا كثيرة خربة وصحارى قفرة فحملهم ذلك على المبادرة بالعود الى باونيا ليدعوا حربيين آخرين يقاسمونهم فيما يغنمونه من اموال مدائن لنبرديا العديدة حيث كانت تظهر لهم انها ذات ثروة عظيمة فلما جاء فصل الربيع ذاقت ايطاليا مرارة اغارة جديدة غير أن مدينتى اكيليا وويرونة لم تصل اليهما الاغارة لما كان لهما من الاسوار الحصينة وكان المجار ارباب حزم وتبصر فلم يقصدوا المدائن المحصنة فلذا لم يقاومهم احد حتى وصلوا الى باويا وقبضوا فيها على ليوتارد اسقف ورسيل وكان سابقا فى تخليع كرلوس السمين فلم يمكنه أن يفتدى منهم وينقذ نفسه من القتل بما كان عنده من الاموال الكثيرة التى اكتسبها باضرار الامبراطورية لكن جمع الامبراطور برنجير جيشا جرارا واقبل على هؤلاء المتبربرين فلما دنا منهم رجعوا فى طريقهم ومع ذلك لم يكفوا عن القتال فان هذه الامة التى هى ذرية السقينية كانت تعرف القتال ايضا وهى هاربة فانتصرت مرتين وبذلك سهل عليهم عبور نهرى اديج وبرنتة

اغاراتهم فى المانيا

فذاقت جرمانيا من المجار اول تخريباتهم واشدها فى ايام كل من لويز الصبى وكونرد الاول ثم اشتد الهول حين دخلوا باويرة (سنة ٩٠١) وهدد اولياء ابن ارنولف كل من لم يجب داعى القتال والذب عن الوطن بعقاب الخائنين فاجتمع بهذا التدبير الذى كان الغرض منه نجاة اهل المملكة عموما جنود كثيرة غير أن جدواه كانت قليلة من حيث الحمية والشجاعة فان الجيش الذى اجتمع فى مدينة اوجسبورغ حقت عليه الهزيمة فى سواحل ليمان وهو نهر بعيد عن هذه المدينة

بعدة

بعدة فراسخ وحصل ايضا بجوار تلك المدينة بعد ذلك بسنوات واقعة كبيرة كانت النصرة فيها للمجار وقتل فيها ليوبولد دوق باويرة . وبعد ذلك بقليل قتل ايضا بورشارد آخر دوقات طورنجه (سنة ٩٠٧) وتكدرت اواخر ايام لويز الرابع واوائل سلطنة كونراد باغارات جديدة وصل بها المتبربرون الى ديرى فولده وقورونا وكان فيهما من الاموال مالا يحصى فلم يجد كونراد الاول واسطة يحمى بها مملكته احسن من جعلها خراجية

اغاراتهم في فرنسا

ثم ان المجار عرفوا فى اواخر غزواتهم سواحل نهر الرين وارهبوا مملكة لورينة حيث اغاروا عليها حين كان ملكها كرلوس لوسانبل يضعف قواه فى قتال اعداء من عشيرته لم يحملهم ما لحق المملكة من الخطر على الانضمام اليه والدخول تحت اعلامه (سنة ٩١٩) ومع ذلك فلم ينل فرنسا الغربية فى هذه المرة ضرر ولم تصل اليها ايديهم بسوء ثم اخذت نصيبها من التخريب وكانت قد اشرفت على جبر ما اصابها من الخلل والنكبات فى اغارات النورمان فلم تتم ذلك الا وقد وصل الى اقاليمها النسترية هؤلاء الاقوام الآسية الهمل فاجلاهم عنها الملك ريول (سنة ٩٢٣) ثم عادوا اليها بعد ذلك بقليل واتوا معهم بقوى جديدة وعساكر عديدة فاجتازوا نهر الرين ووصلوا الى مدينة ورمس ومازالوا سائرين حتى قدموا على سواحل نهر اسنه وشواطئ المحيط وهم يحرقون ويخربون ما صادفهم من المدن والارياف (سنة ٩٢٦) والظاهر انهم فى هذه المرة لم يتجاسر احد على قتالهم ثم اختفوا عن الاعين وهم منصرفون من ايطاليا

ولم يسلم هذا القطر من اغارات المجار حين كانت المانيا وفرنسا تتجرع منها كؤس الغصص والشدائد وكان القطر المذكور دون غيره فى المقاومة والمدافعة ولما كان اهله الذين انحطوا عن درجتهم قد اغار عليهم فى آن واحد عرب فراكسينيت وابطال برغونيا الهلويسية لم يتوقف الملك برنجير الاول الذى هو خصم رودلف الثانى فى اتخاذ المجار انصارا له فحضر اليه منهم ويوودان يقال لاحدهما دورزاك وللآخر بوجات واتيا معهما بعساكرهما وذهبوا جميعا الى برسيا واغاروا فيها على رؤساء العصبة التى كانت وقتئذ قد اعدت لبرنجير ما يكون به اضراره وتلفه (سنة ٩٢١) ولما قتل هذا الملك الكريم بعد ذلك بسنتين صار المجار لا يراعون خاطر احد فذهبوا تحت قيادة سلارد الى باويا وحاصروها ثم اضرموا النار فيها وفى كنائسها وكانت اربعين كنيسة لانه تعذر عليهم اخذها بطريق القهر والغلبة وقد افتدى مائتان من اهلها

نجوا من القتل والحريق آثار مدينتهم بثمانية امداد من قطع الفضة ودفع ايضا هوج للمجار عشرة امداد اخرى على أن يخرجوا من ايطاليا فذهبوا الى برغونيا وفرنسا بقصد نهب اموالهما .

فتوجهوا الى جبال الالب الهلويسية التى دعاهم اليها شهرة خزائن سنت غار ونهبوا ديره فعند ذلك سعى كل من رودلف وهوج ملكى المملكتين المسمى كل منهما برغونيا فى تسكين ما بينهما من الفتنة والعداوة برهة من الزمان ليتفرغا لمدافعة اعدائهما وهم المجار غير أن هؤلاء المجار تخلصوا من مطاردتهما ونزلوا نهر الرون لينتقلوا منه الى بلاد سبطمانيا وكان قد بلغهم أن اسبانيا فيها من الاموال والكنوز ما لا ينفد ولا يفنى فقصدوا سلطنة خلفاء المغرب الزاهرة ولم يكترثوا ببعد مسافتها ولا بجبال البرنات ولا بقلة عددهم فاوقفهم فى الطريق قونتة من تولوزة يقال له ريموند بونس فهو الذى حاز هذا الفخار (سنة ٩٢٥) ومن نجا منهم من اسلحته اصابهم وباء كاد يهلكهم عن آخرهم

فعلم المجار من سوء عاقبة هذه الاغارة أن ذهابهم أمام جبال الالب من اشد الخطر واعظم الضرر عليهم فلذلك لما عادوا الى ايطاليا (سنة ٩٣٣) و (سنة ٩٣٧) توجهوا الى الاقاليم الجنوبية ليلتقطوا منها بقايا سلب المسلمين ولم يصدهم عن ذلك ما كان يومئذ يتنازع تلك البلاد العظيمة من الاطماع والرغبات بل ما زالوا سائرين حتى وصلوا الى كابوة وبنيوان ونزلوا على اطلال قبيلة عرب غرغليانو ثم اخذوا الفدية من رهبان دير جبل كاسين (سنة ٩٣٧) لكنهم لم يجاوزوا مضايق اقليم ابروزة بدون عقوبة فان ما غنموه من الاموال لم يصل برمته الى سواحل نهر داوب

ثم ان هذه الاغارات التى وقعت منهم فى ايطاليا لم تكن آخر اغاراتهم وان كانت قد اشرفت على الانتهاء حيث حان للدولة الملوكية التى كانت يومئذ قريبة عهد بانقاذ بلاد المانيا وتخليصها من رق التبعية أن تنشر على ايطاليا اعلام حكومتها المنصورة وحمايتها القوية المشهورة

اغاراتهم فى المانيا

وذلك ان الخراج الذى التزم به الملك كونراد الاول للمجار ليفتدى به المانيا لم يمنعهم من الاغارة على سكس فى ايام هنرى لوواز ليور (سنة ٩٢٤) ولا من مجاوزتهم بعد ذلك بلاد باويرة وفرنكونيا ليخربوا فرنسا (سنة ٩٢٦) ولم يكن ثم ما يدعوهم الى ذلك الا كون هذا الخراج صار لا يدفع لهم منذ جلس

هنرى

هنرى الاول على سرير الملك وفعل ما استبشرت به الامبراطورية فى حيازة مفاخر جديدة ومظاهر سعيدة مفيدة اذ من المعلوم ان هذا الملك لم يعبأ بما بعثوه اليه من الزامه بتوفية ما التزم به سلفه بل احتقر رسلهم ولم يقبل رسالتهم فلما بلغهم ما لحق رسلهم من الاساءة والمنقصة بادروا جميعا الى الاسلحة وانفصل من جيشهم فرقتان للاغارة على ايطاليا وباويرة واغار معظم الجيش وقتئذ على سكس ليدنوا من الامم السلاوية التى كانت اذ ذاك قريبة عهد بغلبة عساكر ملك جرمانيا فعند ذلك توجه هنرى الى العدو وكانت له عليهم النصرة الشهيرة المسماة نصرة مرسبورغ التى هلك فيها من المجار نحو اربعين الفا غير من غرق منهم فى نهر سعلة ومن اسرهم هذا الملك المنصور وبهذه النصرة التى كانت آخر فخاره صان شرف جرمانيا واستقلالها من الضياع وترك حسن سيرته وجميل ذكره عند ابناء وطنه السكسونيين فلم يزالوا يشهرون كل سنة فى ميدان الحرب موسما لتذكر هذه النصرة

ثم ان جرمانيا وان صارت من هذا اليوم لا تخشى من المجار على استقلالها الا انها لم تزل تخشى منهم على امنها وراحتها وذلك ان ما لحق اوتون الاكبر مدة خمس عشرة سنة من الحيرة الناشئة عن عصيان كبار العمال والسلاوية الخراجيين قوى قلوب هؤلاء المجاورين الذين لا تستطاع معاشرتهم وحملهم ذلك على مشروعات جديدة فتجرع منهم اهل جرمانيا كؤوس الغصص غير مرة حتى كانت نصرة اوجسبورغ (سنة ٩٥٥) التى جبر بها وبود المجار على دفع الخراج بعد أن كانوا هم الذين يضربونه على جرمانيا منذ مدة يسيرة وكانت ممالك الغلية وقتئذ تجذب اليها قلوب طوائف المجار الهمل اكثر من غيرها من الممالك الا انه كان يتوقف وصولهم اليها على كون المانيا او ايطاليا تفتح لهم طريقا توصلهم الى تلك الممالك وقد حصل ذلك

فشنوا الغارة ثانيا أمام نهر الرين وجبال الالب فى السنة التى اعقبت موت منصور مرسبورغ (هنرى) (سنة ٩٣٧) وبعد أن خربوا باويرة وسوابه وفرنسا الشرقية (فرنكونيا) اجتازوا ثانيا نهر الرين قاصدين مدينة ورمس وذهبوا قريبا من مدينة سنس وحرقوا الدير الاكبر وهو دير ماربطرس لوويف اى ذى الحية ثم توغلوا فى جنوب نهر لوار وهم يطردون أمامهم طوائف الرهبان الهاربين بآثار قديسيهم فتوجه اليهم ايبون ملتزم دولس ومعه عساكر البيرو بيرية والطورنجية وحمل عليهم قريبا من اورليان فالجأهم الى اجتياز

اغارتهم فى فرانسه

نهر لوار ثانيا فقصدوا هلويسيا وخرقوا منها سنتغالة ثم نزلوا بلاد لنبرديا فهم الذين نهبوا امارة بنيوان قطعا

وبالجملة فقد اغير فى ايام لويز دوترمير على اقطار الغلية الاربعة فى ان واحد تقريبا فان قوما من هؤلاء الهمل المتبربرين مرّوا من سوابه الى أزاسيه وتوغلوا فى تلك الجهة حتى وصلوا الى الطرف الجنوبى من مملكة برغونيا وهنالك اضرم كونرادلوباسيفيك اى محب الصلح نارا الحرب والقتال بينهم وبين عرب فرا كسينيت ليسهل بذلك الحمل عليهم فيما بعد (سنة ٩٥٠) وفى السنة التى بعدها اجتاز المجار جبال الالب وكانوا قد طافوا بلاد ايطاليا وكان غرضهم بجوب تلك الجبال الانتشار ببلاد اكتينيا فتوغلوا فيها حتى وصلوا الى اقليم بارى (سنة ٩٥١) وفصار ى امرهم ان دوقا من دوقات لورينة يسمى كونراد كان قد خلع عن دوقيته لمقتض صحيح لحماته محبة الانتقام على أن يدعوهم الى التوجه الى أمام نهر الرين نخربوا دوقية لورينة ومع ذلك فلم ترد هذه الدوقية الى الدوق المذكور وقد كابدت ايضا فرنسا النوسترية ماهو اشق من ذلك بسبب مشاجرة لم يكن لها دخل فيها وذلك ان المجار الذين كان يرشدهم الى الطريق احد الرؤساء المسمى عند مؤرخى الفرنساوية بوليجيوس جاوزوا غابة الأردين وفعلوا فى تلك البلاد اشنع الفعال وافظعها حتى وصلوا الى اكناف مدينة كبريه فقاومتهم تلك المدينة فى جميع اغاراتهم (سنة ٩٥٤) وقد اثبت فرودوارد انهم عادوا اليها ثانيا من ايطاليا لكن لم تقف على ماوقع منهم فى هذه المرة ككثير من اغاراتهم

ومن وقتئذ لم يعد المجار الى فرنسا وكان قد انطبع فى قلوب الناس منهم رعب شديد مزجوه بحكايات خرافية عجيبة فانهم لما لم يجدوا لهم من السطوات الفاخرة ما يتسلون به على ما اصابهم اخترعوا امورا خارقة للعادة سموها كرامات فقالوا ان رجلا من المجار اراد أن يدنس محراب ماربسله فالتصقت يده بالمحراب وان اسيرا من الرهبان حكم عليه بالقتل فلم تؤثر فيه سيوف هؤلاء الوثنيين ولم تصبه نبالهم

ثم ان فرنسا صارت من هذا الوقت لاتخشى المجار فى شئ والفضل عليها فى ذلك لاتون الاكبر فان هذا الملك تمم ما كان يصنعه ابوه حيث سدّ على المجار طريق المانيا وجعل البلاد المتمدنة فى أمن من تبربر آسيا وتوحش اهلها وكان من وسايطه فى حيازة هذا الفخر السلاوية ولاسيما اللاهية الذين كانوا حديثى عهد

بالتمدن

تمدن المجار

بالتمدن ومن وقتئذ اخذ المجار نوبتهم فى حراسة اوربا
هذا وقد اقتضى الحال ان الصلح الذى او جبته على المجار نصرة اوجسبورغ
بمكث اكثر من اربعين سنة فلزم هذه الملة بذلك أن تتجرد عما كانت عليه من اخلاق
الامم الرحالة النزالة وتترك سكنى الخيام وتستبدلها بسكنى بيوت من الحجارة وتتملك
ماتغلبت عليه من اراضى الزراعة فقد اكسبتهم ايام توكسون التى كانت ايام هدء
وصلح استعدادا للتأنس والتمدن كما ان ايام جيزا اكسبتهم الدخول فى دين
النصرانية ومن وقتئذ صارت بلادهم يأوى اليها الغرباء الذين كانوا يأتون اليها
من جهات الدنيا الاربع يطلبون زراعة اراضيها الخصبة وان كانت مهجورة
منذ مدة مستطيلة فاعطى توكسون لقبيلة من مسلمى الاتراك حصن بيست
باراضيه واعقب هذه القبيلة قبائل اخرى يقال لهم عند قدماء المؤلفين بيسى
او بيسنيان ثم توالت الرحلة اليهم مع الهدء والامن فقبلوا عندهم بالتعاقب
عدة طوائف مابين بوهيمية ولاهية ويونان وارمن وسكسونية وطورنجية
وسوابية وقومان وصار بينهم وبين هؤلاء القادمين (المجار) لحمة نسب بالنكاح
اورثتهم السودد والشرف كما ذكره طوروكز وصاروا رؤساء عشيرات * وعندى
ان هذا بمفرده هو الامر الصحيح المهم مما نقله الينا هذا المؤرخ المجارى القديم
فى شأن الحوادث التى حصلت قبل مارى اسطفان فانه كان يجهل ماحصل
فى القرن الخامس عشر من الاحوال المتعلقة بتنصر المجار والذى وقفنا عليه
بعد البحث والتفتيش هو أن مارى أدلبرت حين طرد من بوهيمية ادخل فى دين
النصرانية (سنة ٩٨٩) الوبود جيزا وابنه وايك الذى اشهر بعد ذلك
بقليل باسم اسطفان حيث تسمى به عند التعميد

الكلام على تولية مارى اسطفان على المملكة (سنة ١٠٠٠)

ولم تكن ايام هذا الامير العظيم (اعنى وايك المسمى مارى اسطفان)
مقصورة على حصول انتشار دين النصرانية فيها بين الامم المختلفة المستوطنة ببلاد
المجار بل حصل فيها ايضا اتحاف نسل ارباد بالمنصب الملوكى وذلك ان البابا
سلويستر الثانى بادر بتلقيب هذا الامير الذى وسع دائرة الكنيسة الرومانية بلقب
ملك وبعث اليه التاج الملوكى وزاده على هذا اللقب العظيم أن لقبه بلقبين آخرين
وهما داعى المجار ووكيل البابا الدائم وقصد بذلك مكافاة هذا الملك ذى الشوكة القوية
الذى تنصر عن قريب على فرط همته واعتنائه بشأن الدين وبعد ذلك بثمان سنوات
اقره الامبراطور هنرى الثانى على التلقب بالملك وزوجه اخته جيزيلة (سنة ١٠٠٨)
ولكن لم يرد اليه اقليم النمسا الذى كان استرجعه من المجار المرغراوليوبولد

وكان اسطفان هذا قد جبر هذه الخسارة من قبل بالفتوحات التى لم تفزع منها بلاد اوروبا النصرانية حيث تغلب (سنة ١٠٠٢) على اراضى الاردل واخذها من الوبوود جيولا الذى كان دائما ينغص على حدود مملكته ولا يقبل منه نصائحه العظيمة وكان اذ ذاك اميرمن البلغار يقال له خان حاكما على بعض قبائل سلاوية من داسيا فتغلب اسطفان ايضا على بلاده وضمها الى حكومة الاردل وماسلبه من اموال البلغار زخرف به كنائس مدينتى بوده والبه الملوكية وقد مكثت هاتان المدينتان مدة طويلة وهما دار اقامة عظماء ملوك المجار وضعافهم للذين كانوا كلا شئ

ذكر ما تقدم اجمالا

ولنذكر هنا على سبيل الاجمال ما ترتب من النتائج على اغارة الامم المتبربرة فى ايمبراطورية شرلمانيا فنقول ان كل امة من الامم الاربعة التى اغارت على هذه الايمبراطورية كان لها دخل فى انحلال روابط الجمعية الكرلوبجية الكبيرة وفى حدوث الالتزام الناشئ عن ذلك الانحلال فقدد هم الايمبراطورية من العرب ما تخربت به منها عدة اقاليم وتمزقت به عدة بلاد تمزقا وقتيا وحل بها من النورمان مثل هذه النكبات فلم يبق للفرنج من الاقاليم الثلاثة التابعة لحكومتهم الا اقليم واحد فقط وهو الذى لم يزل يسمى باسمهم وقد حل بهم ايضا ماهو دون تلك النكبات من المصيبة التى كانت اقل من الاولى فى الانتشار باراضى الايمبراطورية ودونها ايضا فى عدم التراخى وهى ما كان يصاحب خروج السلاوية عن الطاعة الذى حصل منهم غير مرة بقصد عودهم الى الاستقلال وعدم التبعية لا لفتح اراض جديدة وكذلك شن المجار الغارة على الايمبراطورية المذكورة لكن لم يتغلبوا منها الا على اقليم واحد حيث لم يأخذوا من الحكومة الكرلوبجية الجرمانية الا اقليم بانونيا بمفرده غير أن كثرة اغاراتهم التى خربت البلاد وابادت العباد كان لها مدخلية عظيمة فى عدم الانتظام وازدياد الاختلال العام

واعظم ثمرة ترتبت على هذا الاضطراب العظيم هو كما نبهنا عليه تنصر النورمان والسلاوية والمجار فكانوا كثير برى القرن الخامس حيث قدموا الى الايمبراطورية لاجل البحث عن عقائد اخرى دينية غير العقائد التى كانوا عليها فوقعت الكنائس والاديار تحت قبضتهم فهدموها ونقلوا انقاضها الى اوطانهم وبنوا بها كنائس واديارا فى بلادهم فكان ما عمروه عندهم عوضا عما خربوه عند غيرهم وكان يتراأى من السلاوية والمجار فى مبدأ الامر انهم انما اعدوا لازالة ما فى اوروبا من التمدن والتأنس ومحو اثره بالكلية لكنهم عما قليل صاروا حفظته وحرسه حيث اقتضت

الاحوال ان تكون اقامتهم على جوانب الملة الجرمانية وحد بلاد النصرانية الرومانية ليكونوا حاجزا يقاومون تبربر آسيا ويدافعونه حيث سطا على التمدن المذكور وانقض عليه من نهرى بورسطين ودانوب ومن ثم كان القرن التاسع والعاشر من اشهر الازمنة فى تاريخ الوقائع السنوية البشرية وان كانا فى غيره لاترغب فيهما النفوس ولا تميل اليهما كل الميل لكون المؤرخين اكثروا فيهما الذم والمعابة ولقد اصابوا فى ذلك اتم الاصابة

(الباب الخامس)

فيما وقع بعد عزل كرلوس السمين من تمزيق المتزمين للايمبراطورية وفى انحطاط دول الكرلونجية فى لورينة وجرمانيا وايطاليا وپرونسة وفرنسا

اعلم ان اغارة المتبربرين الجديدة قد استدعت أن تكون قوى الملة بتمامها مستعملة فى آن واحد على العموم فى جميع جهات ايمبراطورية شرلمانيا لان سائر اجزائها كانت دفعة واحدة ما بين مكروب بسهم الاغارة مصاب * ومرعوب بالتهديد والارهاب * وترتب على هذه الاغارة أن صار للدوقات والقونتات وصغار العمال شوكة مطلقة التصرف اقرتها الاصول والقوانين حيث اقتضاها كل من نجاة الملة وحلول الخطر على حين غفلة وبذلك استرخت الروابط التى كانت منذ قليل رابطة لشوكات دائرة الايمبراطورية بالشوكة الملوكية التى هى مركز هذه الدائرة بل انحلت تلك الروابط بالكلية فلما تنغص عيش الملوك من داخل الايمبراطورية بادعاء كبارها حكومتهم ومن خارجها باغارات النورتمان والعرب والسلاوية على اقاليمهم لحقتهم الحيرة فلم يعرفوا اى عدو يدافعونه وبالجملة فقد تعاون ارباب الاقتيات على تمزيق الايمبراطورية وذلك ان منشأ القسمة الذى انفصلت به اجزاء الايمبراطورية المجتمعة التى كانت قوة الاسلحة قد الزمتها باصول وقوانين متباينة اشتد تأثيره حين ضاقت دائرته وانحصر فى حدود ضيقة فنشأ عنه عدة ممالك مستقلة واخذ بعد ذلك يؤثر فى كل جزء من تلك الاجزاء التى انفصلت اوكادت تنفصل عن الجمعية الكرلونجية الكبيرة على حدته ومن وقتئذ صار مطلق التأثير اكثر من قبل فلم يكن هنالك ما يعارضه فوصل تأثيره الى داخل هذه الممالك الحادثة بسببه ولما صار الامراء لا يخشون شوكة الملوك ولا القوانين بل انكروها بالكلية اقاموا انفسهم مقامها ثم ترتب على هذا الاختلال والتمزيق الذى عم اجزاء الايمبراطورية بعد مكابدة مشاق وشدائد عظيمة انتظام تام وترتيب كامل بوضع طريقة فى الحكومة ساست اوروبا اعصارا طويلة وسميت بالمذهب

الالتزامى وكانت تعم جميع الالتزامات من اعلاها كالمملكة الى ادناها كالقصر و جميع آحاد الدولة من الملك الذى هو اكبر الملتزمين واعظمهم الى رقيق الارض مع بيان ما لهم على بعضهم من الحقوق والواجبات المشتركة و بيان درجات الاراضى والاشخاص على اختلافها وتفاوتها

(الفصل الاول)

(فى اواخر ما قدر على العشيرة الكرلونجية فى ايطاليا وجرمانيا ومملكة أرلس)

لا شك ان ارنولف هو الذى كان فى ذلك العصر له قدرة على أن يحوز الفخر بمنع سريان التقلبات الالتزامية كيف لا وقد جمع بين النسبة الى شرلمانيا وان كان متخلقا من ماء فاسد وعلو الهمة والشجاعة التى تكفى بمفردها فى تجهيز ما تدركه عقول ارباب السياسة من الامور السياسية فمن ثم انعقد الاجماع عليه ولم ينظر الى ما فى نسبه من الدنس بل محى ذلك بما كان فيه من حميد الخصال وجميل الخلال حتى انه عما قليل سرى شرف نجاره الى نسبه فكان بذلك اصح من نسب اقرانه الذين كانوا يستعينون مثله فى تطلب الحكم بما لاصلهم من الحقوق فى الحكومة مع ان لحمة النسب التى بينهم و بين شرلمانيا كانت ضعيفة لانها كانت من النساء خاصة

ثم ان مؤرخى ذلك العصر الذين كانوا بمعزل عن مناصب الحكومة واوهام الملة لم يتعرضوا للمناقضة فى حقوق ارنولف المتوارثة بل ابدوا له حقوق كرلوس الوسانبلى وكانت مجمعا عليها فقد قال مؤلف سيرة ألفريد الاكبر ما نصه ان الايمبراطورية بعد موت فاول (اى كرلوس السمين) انقسمت الى خمسة اقسام فكان لارنولف بموجب الاصول والقوانين كرسى الايمبراطورية الاعظم و بايعه الملوك الاربعة على الطاعة والامانة حسبما هو مقتضى العدالة اذ لم يكن احد منهم ورث عن ابيه لقبا يستحق به المنصب الملوكى بخلاف ارنولف فانه ورث حقوقه عن ابيه فلذا اختص بكرسى الايمبراطورية ولنبين لك هذه القسمة فنقول ان ارنولف اخذ الاقطار التى فى شرقى نهر الرين واخذ هروتولف (اى رودلف) الجزء الداخلى من الايمبراطورية واخذ اودا (اى اودس) المملكة الغربية واخذ برونجار وويتا (اى برنجيرو جوى) لنبرديا انتهى وما ذكره هذا المؤرخ الانكلسكسونى من رياسة ارنولف على هؤلاء الملوك اثبته ايضا مؤرخو الفرنساوية بادلة عديدة صحيحة والماخذ المواثيق والعهود فى مشورة راتسبونة على الامم الجرمانية المختلفة وعلى عدة قبائل سلاوية كان من جملة العمال والامراء الخراجيين الذين حضروا تلك المشورة رودلف ولف ملك ترنسيورانة اى ماوراء جبال يورا فانكر

رياسة ارنولف

المبايعة

المبايعة فى سرّه واضمر الخيانة كما دل على ذلك ماصنعه من الامور السياسية فانه عما قليل صار من اكبر اعداء ملك جرمانيا حيث سعى فى اغراء عمال لورينه على الخروج عن الطاعة فلم ينقذه من انتقام ارنولف الا جباله التى لا يمكن الوصول اليها

تملك لويز على برغونيا سنة ٨٩٠

وكان كرلوس السمين قد تبنى لويز بن بوزون فلم يمكنه بهذا التبنى أن يخلف اباه على تخت مملكته ولكن شملته حماية ملك جرمانيا الجديد اعنى ارنولف فهى التى نفعته فى تحصيل هذا الغرض وذلك ان امه المسماة ارمنغردة اهدت الى ارنولف هدايا وتحفا وذهبت بها اليه فى مدينة فورشيم فقبلها منها وبعث بتقليد ابنها مع الاجلية وكان عمر لويز يومئذ تسع سنوات فكان ذلك باعثا لاساقفة برغونيا الذين كانوا مجتمعين فى والنسه أن يجددوا ماوقع منهم اوّلا فى مدينة منتيلية من انتخابه فانتخبوه ثانيا (سنة ٨٩٠) وقد اراد ارنولف أن يوسع اقاليم هذا الملك الصغير باضرار رودلف ولف فكان سعيه فى ذلك بلا طائل فان رودلف المذكور عرف كيف يحمى البلاد التى اراد ارنولف نزعها منه وذهبت اموال هذا الملك التى بذلها الاضراره سدى لم يترتب عليها ثمرة

وكذلك اودس الذى كان قريب عهد بالولاية من طرف القرنساوية على نستريا فانه حضر بين يدى ارنولف خاضعا متضرعا لكونه بلغه ان طائفة من الامراء ذوى الشوكة كان رئيس عصبتهم مطران رمس وقونتة فلندرة يريدون خلعه عن المملكة واعطاءها لارنولف او يستعينون به على تولية ابن لويز الالكن عليها فعزم ارنولف على التغلب على فرنسا فتدارك اودس هذا الامر بالحضور بين يديه فى مدينة ورمس وبايعه على أن تكون مملكته تابعة للايمبراطورية (سنة ٨٨٨) وعما قليل كافأه ارنولف على مابذله اليه من التحف والهدايا بتاج من الذهب وضعت صورته فى مدينة رمس التى هى محل تتويج الملوك فصار الناس يقولون ان ابن روبيرت لوفورت اى القوى انتخب ملكا على فرنسا برضا ملك جرمانيا وصار كاتب الوقائع السنوية يكررون ذلك فى وقائعهم غير أن ارنولف بعد ذلك بقليل ترأى عليه انه يلوم نفسه على هذا الصنيع الذى لا يفعل بمثله من لم تمكن من الشوكة والحكومة فانه حين تمكن من تخت الحكومة رأى انه يلزم حمل الرعية على أن لا يقوم بلاذهانهم فى شأن الاستيلاء على المملكة الا ما تقتضيه الاصول والقوانين بحيث لا يتولى عليها الا من كانت حقوقه ثابتة صحيحة فقلد بالمنصب الملوكى الشاب كرلوس دوق فرنسا فى مدينة ورمس

التى كان ذهب اليه فيها لودس الملتفات على تاج مملكة هذا الشاب فاكرمه واحسن ملاقاته

ثم ان ايطاليا وان كانت مغتاظة من حكومة الاجانب عليها الا انها كانت دائما ترى أن نسل شرلمانيا هو الاحق بالحكومة وكانت منقسمة الى دوقيتين بين اثنين من الدرجة السافلة من حفدة شرلمانيا وهما جوى و برنجير وكانا على ماقاله المؤرخ ليوتبرند قد تحالفا فى عهد كرلوس السمين على التعاون حتى ينال احدهما تخت فرنسا والا آخر تخت ايطاليا فلذا كانت ايطاليا لاتدرى ايهما تبايعه الا ان برنجير الذى كان على دوقية فريول وكانت التزاماته ممتدة الى نهر اديجة انتهز فرصة وضع هذه الدوقية الجغرافى حيث اغتنم التملك على ايطاليا والبسه تاجها مطران ميلان وكان جوى قد بويع له بالتملك على فرنسا فى مدينة لنجرس فاضاع وقته النفيس يومئذ أمام جبال الالب حيث اهمل تاج ايطاليا حتى ضاع منه طمعا فى مملكة اجنبية كان قد جلس على سريرها منذ قليل امير اكثر منه استعدادا فى حمايتها هذا وكان برنجير يطمع فى تكثير احزابه بمنع الجرمانيين من شن الغارة على ايطاليا فتوجه الى ترنته لتجدد البيعة لارنولف تأسيا بما صنعه دوق فرنسا فى مدينة ورمس فكانت هذه الفعلة الناشئة عن الضعف سببا فى تمكنه من المملكة تمكنا وقتيا وازداد تمكنه منها بنصرته على خصمه جوى قريبا من مدينة بريسيا ولكن خانه الدهر بعد ذلك على سواحل تريبيا حيث انتصر عليه فيها جوى وكان الفضل عليه فى ذلك للعرب بين الذين جاؤا معه من بلاد الغلية وللجنود التى جمعها من طوسكانة وبهذه الواقعة صار امر المملكة ملتبسا لايدرى مايؤول اليه ثم انعقدت مشورة الديانة بمدينة باويا وانحط الرأى فيها على تولية جوى دوق سبولينه ووضعوا تاج الحديد على رأسه وكان من جملتهم الاساقفة الذين كانوا قبل ذلك بسنة قد ألبسوا برنجير دوق فريول ذلك التاج بمدينة ميلان وكان اهل ايطاليا يرون أن جوى هذا هو الذى يمكنه من بين ابناء ملتهم أن يثبت لهم الاستقلال ويجعل حكومتهم قائمة بنفسها ولما التجئ برنجير الى ماوراء نهر اديجة استغاث بالملك الذى بايعه على أن يكون من عماله وهو ارنولف فارسل ابنه زوانتبولخ لاعانته فاستماله جوى بالرشوة الا ان البابا فورموز بعد ذلك بقليل اطمع ارنولف فى امر كان لايقدر أن يجسر عليه قبل ذلك حيث اعرض له فى شانه غير مرة مع الترجى والتضرع

وذلك

جعل جوى ايمبراطورا سنة ٨٩١

وذلك ان البابا اسطفان الخامس اوالسادس ألبس جوى تاج الايمبراطورية (سنة ٨٩١) فاراد جوى أن يثبت لعائلته هذا المنصب الايمبراطورى فجبر خليفة هذا البابا وهو البابا فورموز على أن يلبس التاج الايمبراطورى ايضا لابنه لمبيرت ولكن كان فورموز يعلم أن مصلحة كرسى البابات تقتضى أن يكون ايمبراطور ايطاليا اجنبيا وان ملك جرمانيا هو الذى يمكنه دون غيره أن يطمع فى وراثة شرلمانيا فى هذا المنصب فقبل ارنولف اعراضه وتعلقت آماله بهذا الغرض الا انه اذذاك لم يكن فى وسعه تنجيزه
فلزمه اولا تمكين الهدء والامن فى مملكته بايقاع هيبته فى قلوب كبار العمال الذين مع كونهم ارباب شرور وفتن اعطوه رهائن على الامانة والصداقة بدون أن يقع منهم ادنى تقصير فى حقه حيث التزموا له أن يبايعوا بالملك ولديه الطبيعيين اى المتخلقين من ماء فاسد ان لم يرزق بوارث من زوجته هذا وكان الاهم من ذلك عنده هو أن يجعل جرمانيا فى امن من اغارات النورتمان والسلاوية فكانت نصرته على صائلى نهر الاسقوط (سنة ٨٩١) المسماة نصرة لوان سببا فى امن الثغر الغربى من مملكته وبعد ذلك بقليل انتصر على زوانتبالد المورواوى مرتين فدخل تحت طاعته وتبعه فى ذلك امراء السلاوية على اختلافهم غير أن ما حازه ارنولف من هذا السودد العظيم والعز الفائق كان محتاجا لوارث من نكاح صحيح يرثه عنه وقد تم سعده بولادة لويز الصبى ومن يومئذ صح له أن يطمح ببصره الى الدرجة العليا ويسعى فى جعل تاج شرلمانيا ثابتا على حالة واحدة وقد كان البابا يحسنه اليه ويغريه عليه لكن لما كان جوى يهدده هذا العدو المهول (اعنى ارنولف) لم يدع شيأ يستميل به العمال الذين يبذلون ارواحهم دونه والحلفاء الذين معه على الامانة والصداقة وكان اضراره بمن جاوره من الامراء على استقلالهم دون اضرار ارنولف ملك جرمانيا فلذا انضم اليه (سنة ٨٩٤) رودلف ملك ترنسيورانة الذى كان لعلو جباله يمكنه أن يضايق ارنولف فى ذهابه اوبصده فى ايابه ومع ذلك فعمال باويرة وسكس وفرنسا الرنية اى التى على نهر الرين وكذلك الاحرار من تلك الولايات نزلوا جميعا فى لنبرديا ووصلوا اليها من وادى اديجه الذى يتخلل جبال الالب ومن وقتئذ صار هذا الوادى مشؤوما على ايطاليا ومضرا بحرز يتهافم بحزنحر مدافعة هؤلاء المتبربرين الالمانيين ومقاومتهم الامدينة برغامة بمفردها لكنهم هدموا اسوارها الى الاساس محتمين بترسهم العريضة وصلبوا القومتة امبرواز على شجرة هناك ولم يعبأوا بالحقوق الملية

فكان ذلك العقاب الذى هو عقاب الخائنين جزاءله على صدقه وامانته بمدافعته عن تلك المدينة

ففزع من هذا الصلب حكام ايطاليا العليا وطوسكانه الملقبون مركى وكذلك مدينتا ميلان وباويا وبادروا بمبايعة الملك التوتونى (ارنولف) وكان قدوصل الى شواطئ نهر بو من غير أن يمنعه مانع غير أن قرب هذا الملك الذى كان عدوا للجميع خمدت به نار الغيرة التى كانت بين حكام ايطاليا وحمل الايطاليين الذين كانوا يودون استقلال ملتهم على العود الى حزب جوى حيث تخلى كل من بونيفاس مركى طوسكانه وادلبيرت قونتة لوكس عن جيش جرمانيا وتركا اعلام ارنولف الاجنبية وانضما الى ملك ملتهما وكان ارنولف قد عاملهما معاملة الاسرى ثم من عليهما بالحرية والتزما أن يفتحا له طريقا الى رومة فضعف الجيش الجرمانى بهذا التخلى وبما اعتراه من الامراض فلم يتجاسر على مجاوزة بليزنسة بل رجع القهقرى الى جبال الالب ليعود الى جرمانيا من بلاد رودلف وكان ارنولف يريد معاقبته على مخالفته لجوى وعلى عصيانه وكان حاقدا عليه ايضا من الخسارة التى لحقت جيشه بمقاومة قلعة اورية التى كان يدافع عنها المحافظون من برغونيا غير أن هذا الانتقام لزم أن تكون جدواه هينة لفقر اهل هلويسيا ولكون جبال تلك البلاد كانت ملجأ آمنا لرعاتها ومواشيها ولم يحصل لاستقلال رودلف ادنى خدش قطعا فان ملك جرمانيا بمجرد عوده الى بلاده اعطى ابنه زوانتبولخ جيشا من عساكر المانيا السورابية وامره أن يقمع به رودلف ويدخله تحت الطاعة فلم ينجح فى ذلك اكثر من ابيه

الكلام على اواخر ملوك لورينة من سنة ٨٩٥ الى سنة ٩٠٠

ومع ذلك فكان يظهر أن ارنولف قد اناط ولده هذا بالسعى فى تنجيز اغراضه فى شأن بلاد ترنسيورانه حيث جعله فى مشورة ورمس ملكا على لورينة وبرغونيا (سنة ٨٩٥) وكيف هذا مع عدم اهلية هذا الامير لتاج مملكته حيث ظهر من حاله انه غير كفؤ لتحمل اعبائها فحاشا أن يضم اليها اقاليم رودلف كيف وهو لم يتجاسر على أن يثبت أمام اودس ملك فرنسا ويقوم بوظيفة المحاماة التى التزم بها لابن لويز الالكن وقد عادى فى ادارة مملكته العمال والاساقفة بسلبه من بعضهم اقطاعات ومناصب لا يتعرض لمثلها الملوك الذين يغارون منه على مزاياهم بل يحترمونها لكونها حقوقا متوارثة وباقتيائه لنفسه وخاصته اوعشيقاته على التزامات القسوس التى كان قد انعقد لاجلها منذ قليل جمعية قسوس فى تريبور وجعلوها تحت حماية الصواعق القسيسية (اى دعائهم باللعن

على

على من تعرض لها وحكمهم عليه بالحرمان) وهل لهذه الافعال الذميمة الناشئة عن عدم الحزم والتبصر ثمرة الا الوبال اوليس ان القونتات شهروا الاسلحة على ملكهم وحكم عليه الاساقفة بالحرمان حيث اساء حبرهم مطران تريوة اساءة فاحشة وقد قاوم الدوق ريجينير او رنير وكان اقوى عمال زواتنبولخ المعزولين بجمع عساكر هذا الملك وكان ذلك فى قلعة درفوس على نهر الموز (سنة ٨٩٩) واتفق مع اغلب القونتات وعرضوا على كرلوس لوسابل ملك فرنسا تاج لورينة فقدم الى اكسيلاشبيلا بدون أن يمنعه مانع ومازال سائرا حتى وصل الى نميغة ولكن كان زواتنبولخ قد جمع حوله عدة من امناء العمال فاجاب المغيرون الى الصلح فخرم الخارجون عن الطاعة من اعانة هذا الملك ومع ذلك ازداد عصيانهم وتقوى جانبهم وآل الامر الى أن اللورينية حلوا ما كان باقيا من روابط الطاعة حيث عزلوا ابن ارنولف المتخلق من ماء فاسد واستبدلوه بابنه من النكاح الصحيح وهو لويز الصبى حيث ولوه فى تيوويلة ملكا على لورينة (سنة ٩٠٠) وكان قبل ذلك ملكا على جرمانيا واما زواتنبولخ فهلك وهو يقاتل رعيته بعد أن خرب مملكته

جعل ارنولف ايمبراطورا سنة ٨٩٦

ثم ان ارنولف حين نزل عن مملكة لورينة لابنه من عشيقته ايلتراث وهو زواتنبولخ كان يطمع انه عما قليل يستبدل هذا التاج الذى نزل عنه لابنه بتاج ابهى منه وابهج وكان الايمبراطور جوى قد اخترمته المنية (سنة ٨٩٤) واجمع الرومانيون على مخالفة البابا واتفقوا مع كبار الملتزمين على أن يقلدوا ولده الشاب لمبيرت منصب الايمبراطورية وهو وان انجذبت اليه قلوب الرعية لما كان منطويا عليه من الخصال الحميدة الا انه لقلة تجاربه لم يكن كفوا لمقاومة سياسة البابا التى كانت معضدة ببراعة ملك عظيم وهو ارنولف وبشجاعة الجرمانيين وذلك ان البابا فورموز استدعى ارنولف ثانيا الى الحضور فاجابه الى ذلك وجاوز جبال الالب مرة ثانية (سنة ٨٩٥) واناط بحماية مملكته السكسونية والبوارية ولم يأخذ معه لفتح ايطاليا الا عساكر المانيا السوارية والفرنج المشرقيين وهم الفرنكونية فانطلق بهم الى رومة من غير أن يعارضه احد من الاعداء وكان برنجير فى هذه المرة قد احترس غاية الاحتراس أن يستعين باحد من الملوك ويبايعه الا انه استصوب أن يجدد المبايعة لارنولف فاقره على ملكه ومع ذلك انتزع منه اقاليم ايطاليا الترنسبادانة (اى التى خلف نهر بو) وقسمها بين ولفريد دوق ويرونة وبجنفريد دوق ميلان فكان ذلك باعثا لبرنجير على أن يكون على ارنولف

لامعه حيث اصطلح مع لمبيرت معتقدا ان هذا الخصم اخف وطأة من الخصم الآخر اعنى ارنولف وهو كذلك فى الواقع ونفس الامر وصرف مركى طوسكانة عن محالفة ارنولف ولكن مع هذا التخلى وعدم اعتدال فصل الشتاء وما نشأ عنه من الامراض الوبائية التى حلت بالجيش الجرمانى استنكف ارنولف أن يفعل ما يزرى بفخاره بالعود الى بلاده ثانيا بل قدم الى رومة فوجد الاميرة اجلترودة ارملة جوى قد غلقت ابوابها فهجم على احد قسميها المسمى بندر اللاوينة واخذه عنوة فبادر الحرس اليونانى وما يسمونه بالسنت بالخضوع وأمامه على قنطرة ملويوس ومع ذلك لم يسكن غضبه فبادر اليه البابا فورموز والبسه تاج الايمبراطورية وبايعته الامة الرومانية وآتوه موثقا يظهر انه متناقض حيث كانت صيغة يمينهم لنكونن معك على الامانة الا ما يجب علينا للبابا فورموز من الصداقة فهذا القيد الذى ادرجوه فى صيغة اليمين يعرف به سياسة البابا وهو انه كان يعلم ان تمكن حكومة البابات الدنيوية وتوسيع دائرة شوكتهم الملكية انما هو باستيلاء ايمبراطور اجنبى على ايطاليا غير أن المنية اخترمته بعد تتويج ارنولف بايام قلائل فكانت ثمرة احتراسه لخلفائه

تخلى ايطاليا

ثم ان ارنولف اناط عامله قارولد بحراسة المدينة الايمبراطورية اى رومة وشرع فى تتبع اجلترودة واخذ معه اثنين من كبار ارباب مشورة السنت كانا قد اخطا فى حقه باعانتهما لهذه الاميرة على اغراضها وكانت قد دخلت مدينة سبولينة وغلقت ابوابها فبينما كان يريد حصارها فى هذه المدينة اذ اصابته عاهة شوشت ذهنه والجأته الى العود الى جرمانيا وكان مع ذلك يؤمل ان اللنبردية يستمرون على الصداقة والامانة حيث ترك فى مدينة ميلان ابنه الشاب راتولد رهينة يستوثقون بها وان كانت ضعيفة على وثوقه بهم وائتمانه لهم وان كان ذلك منه ظاهريا وماذا يصنع هذا الصبى فى منع قيام هذه الامة واطفاء الفتنة الكبيرة التى اضرمت نيرانها فان اصدق اعوان حزبه وهو ولفريد كان قد قضى نحبه منذ قليل وصارت مدينة ويرونة لا تمنع برنجير عن دخولها وتوقفه خارج اسوارها وتقدم لمبيرت من جهة اخرى الى ميلان التى قتل فيها القونتة مجنفريد اسوء قتلة جزاء له على امانته للحزب الاجنبى وهنا هو الوقت الذى اقتسم فيه هذان الخصمان اللذان كانا يتنازعان تخت ايطاليا هذا القطر العظيم الذى كان كل يرى انه حقه بالوراثة وصار نهر ادا فاصلا بين مملكة برنجير وايمبراطورية لمبيرت ولم يكتف فى الانتقام من احزاب الحكومة الاجنبية بقتل عائلة مجنفريد بل اراد

الباپا اسطفان السادس أن يكتسب الحظوة عند لمبرت وجميل الثناء عند الامة فاقام دعوى سلفه فورموز فحزوا رأسه وابانوه عن جثته ثم القوها فى نهر التبر وذلك انهم فى اقامة الدعوى اتهموه بانه تعدى القوانين القسيسية بتركه لكرسى اسقفية اوستية وجلوسه على كرسى مارى بطرس ولكن ذنبه عندهم فى الواقع انما هو توليته على ايطاليا ايمپراطورا اجنبيا وقد انعقد بعد ذلك بسنتين (سنة ٨٩٨) فى عهد الباپا يوحنا التاسع مجمع اساقفة رومة فكان رأيهم مطابقا لرأى الباپا اسطفان المتعلق باستقلال ملتهم وعدم تبعيتها حيث حكموا بصحة تقليد لمبرت وبطلان تولية ارنولف جاعلين ذلك من باب الاقتيات والقساوة هكذا كانوا يتكلمون فى رومة فى شأن طرد المتبربرين الاجانب من بلاد ايطاليا قبل الباپا يوليوس الثانى بستمائة سنة

وكان ارنولف اذ ذاك بمدينة راتسبونة يزداد عليه المرض والضنا حتى صار يتوقع موته عن قريب وكان الرومانيون وقتئذ ينتقصونه ويسبئونه والموراوية ينغصون على ثغور مملكته باغاراتهم فامر المرغراو أربون والمرغراو ليوپولد وكانا على الثغر الشرقى أن يدفعا هذه الامة الموراوية حتى يكفوا عن الاغارة ولما كانت محالفته مع البوهيمية والكرواتية لا تكفى فى قمع هؤلاء المتبربرين وادخالهم تحت الطاعة مع انهم قد ضعفوا من الشقاق الذى ترتب على قسمة موراويا بين اولاد سوياتبولخ الاول الثلاثة ويقال له ايضا زوانتبالد صار مجبورا على الاستعانة فى ذلك بمحالفة المجار مع انهم اشد خطرا من الموراوية فازال الحواجز التى كان شرلمانيا يمانع بها الاوارية وبذلك فتح طريقا للمجار وكانوا منذ قليل قد اتوا من داسيا فاندرست حكومة الموراوية غير أنه ترتب على هزيمتهم ان الثغر الشرقى من جرمانيا صار غير مأمون حيث نزل بجواره اقوام يخشى بأسهم لشدة خطرهم بدلا عن اقوام كانوا متعبين له فقد حل بالبلاد المتمدنة مصائب مكث بها قرنا كاملا فى نظير اعانة المجار

الكلام على لويز الرابع الصبى سنة ٨٩٩

هذا ولو طال عمر ارنولف لامكن أن يجمع بين منصبى الايمپراطورية وملك جرمانيا لكن اخترمته المنية (سنة ٨٩٩) فلم يترك موته للملة الجرمانية سببا فى تحصيل هذا الجمع بل ولا رجاء ذلك وانما ولده لويز لوفور حظه وجد فى اعيان المملكة بقايا احترام للقوانين القديمة حيث انهم بعد التوقف فى جعله ملكا عليهم لكونه صبيا خافوا تمزق المملكة فانحط رأيهم على ان يعرضوا فى شأنه للامة لكونهم راوا انتخابه لهذا المنصب موافقا لعادة الفرنج القديمة من انتخاب ملوكهم

من عائلة واحدة وقد اعتذر الحبر الذى نقلنا عنه هذه الاسباب التى حملت الملة الجرمانية على تنصيبه عنهم للبابا يوحنا التاسع فى اجترائهم على ذلك من غير استئذانه بمشقة الوصول اليه لان الطرق اذذاك كانت مخوفة بقطع الوثنيين لهما وطلب منه أن يقر ما صنعوه وحيث كان اساقفة جرمانيا وكبارها الملقبون منبات بهذه المثابة من تبعية آرائهم اذذاك فى شأن انتخاب ملك على ملتهم لرأى اجنبى (وهو رأى البابا) بحيث لا يستبدون بهادونه فكيف يمكنهم أن يطلبوا لملكهم تاج الايمبراطورية وايضا كانت مقتضيات الاحوال تابى ذلك وهى صغر لويز الصبى وموته العاجل ولاسيما اختلال الحكومة الذى تعكرت به المملكة حين كان المجار يحزبون اقاليمها على الدوام والظاهر أن تلك المملكة لولا صداقة اوتون الاكبر دوق سكس الذى بسبب اقامته وصيا على صهره الصغير وهو لويز دافع عن حقوق تاجها الذى انتقل لذريته بعد ذلك بقليل مدافعة غير مشوبة بغرض من الاغراض لتمزقت كل ممزق وانحل نظامها بالكلية فقد وقعت الفتنة بين قونتات مملكتى لويز الرابع وهما جرمانيا ولورينة وقاموا على بعضهم ولم يعبأوا بملكهم حيث لم يعرضوا امر مشاجرتهم عليه وادعوا لانفسهم اعظم المزايا الملوكية وهو الحق فى الحروب الخصوصية من غير أن تأثر ذمتهم بارتكاب هذا الامر المحظور فصار الملك مجبورا فى بلاد جرمانيا على أن ينضى سيفه ليبطل التعصبات الناشئة عن المشاجرة التى وقعت (سنة ٩٠٧) بين رودلف اسقف ورتزبورغ الذى انضم الى اخوته واولاد هنرى دوق فرنكونيا الثلاثة فيقال ان هذا الملك الصغير اظهر فى هذا الحرب المسمى حرب بمبرغ من الشهامة والقوة ما يفوق على سنه حيث قطع رأس الدوق ادلبيرت لكونه امتنع من الحضور الى مشورة تريبور لاجل اقامة دعواه

ووقعت المنازعة ايضا فى لورينة بين كبارها الذين البسوا لويز تاجها بدلا عن زوانتبولخ فى شان ما ترتب على القيام والعصيان من الثمرات والفوائد من غير مبالاة بهذا الملك الذى ولوه عليهم ولكن مع ذلك كان له اقتدار ونفوذ كلمة حيث سلم جيرارد ومتفريد اللذين كانا سببا فى اثارة الفتنة وتعكير الهدء للمشورة الملية التى اجتمعت فى مدينة متز لتقضى فى شأنهما بما تراه

ومع ذلك كله لم يزل تمزيق الملتزمين لاراضى المملكتين على حاله لم ينقص شيأ وكانت حكومات الاقاليم فى تلك البلاد متوارثة وكذلك فى فرنسا وان كان الى ذلك الوقت لم يقر هذا التوارث احد ممن يعتبر اقراره

ومن ذا

ومن ذا الذى يتجاسر على أن ينازع فى هذا الحق دوقات سكس المتصل نسبهم بوتيكند وشرلمانيا لاسيما والتزاماتهم الواسعة قد ازدادت بانضمام اقليم تورنجية اليها (سنة ٩٠٧) كيف ولويز الجرمانى قد لحقه ضرر عظيم بسبب منعه لاولاد ولهيلم وانجلشلك من ارث مناصبهما وكانا قونتتين على الثغور المشرقية وكذلك الايمبراطور ارنولف حارب المرغراوايزوريق وهزمه ومع ذلك لم تمنعه الهزيمة عن كونه يبقى ما كان لابيه فى اراضى اقليم باويرة قهرا عن هذا الايمبراطور وفى (سنة ٩٠٧) انتقلت دوقية هذا الاقليم التى كان انعم بها ارنولف على الملتزم ليوبولد الى ابنه ارنولد الذى هو اول دوق رخص له فى تقليد الاساقفة وقد اشتهر الحرب بعد ذلك فى ايطاليا من غير أن يستشير سيده اعنى ارنولف بل حاربه فى المانيا * ثم ان هذا الاستقلال الذى كان يدعيه دوقات باويرة وسكس كان يدعيه ايضا كار عمال فرنكونيا وسوابة وكان عمال لورينة يسلكون فى احكامهم مسلك الاستقلال ايضا لكن مع السهولة التامة لانهم هم الذين ولوا لويز الصبى على هذه المملكة ولما مات لويز المذكور مكثت تلك المملكة بلا ملك وانما صارت مترددة بين رياسة فرنسا ورياسة جرمانيا

انقراض نسل الكرلونجية من جرمانيا (سنة ٩١١)

وقد انقرض بموت لويز الصبى فى اثناء هذا الاختلال الواقع فى الحكومة الفرع الجرمانى من الدولة الكرلونجية وكان الفرع الفرنساوى الذى كان قد دعى منذ مدة قليلة للجلوس على التخت لم يسترجع بعض بقايا من ميراثه الا لينازع فى شأنها مدة قرن تقريبا من افتات على اعظم جزء منها واما فى ايطاليا فقد كثر طلاب تختها لكون لحمة نسب شرلمانيا كانت منتشرة فى عشرين عائلة من عائلاتها وقد جرت المقادير على هذه البلاد بأن حكامها لا يكونون الا من الاجانب فلذا كان يحكم عليها ملوك من اقليمى برغونيا حتى يصير لملوك جرمانيا اقتدار على احياء ما يدعونه فى ايطاليا من الحقوق التى ورثوها عن ارنولف

اختلال الحكومة فى ايطاليا

ثم ان ما وقع من الصلح بين لمبيرت وبرنجير اللذين كانت اطماعهما بالغة الغاية لم يترتب عليه هدوء ايطاليا وراحتها بعد ارتحال ارنولف عنها وذلك أن تشديد الايمبراطور لمبيرت على القونتة مجنفريد اوقع الشقاق والتفاقم بينه وبين كثير من احزابه فانضم بعضهم الى برنجير وبعضهم الى ادلبيرت الثانى دوق طوسكانة وكان ايضا يتطلب المنصب الملوكى فانتصر لمبيرت على هذا الخصم الجديد النصرة المسماة نصرة سندونينو وصار ادلبيرت تحت قبضته الا انه لم يتمتع بثمرة هذه النصرة زمنا طويلا فان احد اولاد مجنفريد اخذ منه بثار ابيه فقتله فلما خلا كرسى

الايمبراطورية اتسعت ميادين الاطماع وكثر المتطلبون

فظهر من الايطاليين فى مبدء الامر انهم من حزب برنجير الاان العصبة القوية التى كان رئيسها ادلبيرت مركيز ايوريه آثرت عليه لويز ملك پرونسة ابن بوزون حيث قدمت اليه تاج الحديد ولم تبال بكونها صارت بذلك عرضة لاخطار الحروب الاهلية ولما كان هذا الملك سبطا للايمبراطور لويز الثانى وهو لويز الصبى اى ابن بنته لم يعدّوه اجنبيا منهم بل كانوا يراعونه نظرا لاتصال نسبه بشرلمانيا وفى اول غزوة من غزواته احيط بجيشه البرونسى ولم ينقذه من هذا الخطر الاحلفه على ترك مطلق دعوى فى ايطاليا وعما قليل بلغه أن برنجير لحقته خسارة كبيرة حين مدافعته للمجار الذين اغاروا على اقاليمه فبذلك تحقق النصرة على عدوه والظفر بمقصوده وحمله ذلك على ارتكاب خطيئة عظيمة وهى نكث الايمان ونقض العهود ولا يصح أن يعتذر عنه فى ذلك بالشبوبية

وألبسه البابا بنيوان الرابع تاج الايمبراطورية فى رومة وزيادة على ذلك رأى خصمه برنجير يهرب أمامه حتى التجا الى باويرة لكن بمجرد ارتحاله عن ايطاليا بقصد العود الى پرونسة رجع برنجير الى فريول دوقيته واستولى فى اسرع وقت على جميع بلاد لنبرديا (سنة ٩٠٢)

جعل لويز الثالث ايمبراطورا (سنة ٩٠١)

واما ادلبيرت الثانى دوق طوسكانة فانه لما لم يجد سبيلا الى المنصب الايمبراطورى تسلى على تلك المصيبة بتسليط اعداء على اخصامه الذين كانوا اوفر حظا منه وعرض على ايمبراطور رومة (اى لويز) أن يعينه على ملك ايطاليا (اى برنجير) فجاوز لويز ثالثا جبال الالب واهمل فى الاحتراس حتى قبض عليه خصمه برنجير فى مدينة ويرونة وسملت عيناه برضى هذا الملك او بامره

ومن وقتئذ صار برنجير لا يخشى شيأ واذن للويز أن يذهب الى بلاده الوراثية ليقضى فيها بقية ايامه السيئة وقد الجأته هذه النكبة أن يفوّض امر مملكته لغيره فاناط بحكومة پرونسة ابن عمه هوغس بن تيوبالد قونتة ارلس وامه برثة بنت لوتير الشاب التى تخلقت من زناه بولدرادة فكان هذا النائب كغيره ينتسب الى العائلة الكرلوفنجية واستحق أن يطمع مثلهم فى المنصب الملوكى ومكث على نيابة پرونسة خمسا وعشرين سنة فصار بذلك له قوة واقتدار على أن يبعد عن سرير ملكها كرلوس قسطنطين بن لويز الاعمى ولم يكن له ولد سواه ولم يكن لكرلوس هذا الاقونتية ويينواس تحت حماية ملوك فرنسا وقد تناسل منه عدة اجيال لم يزالوا فى الخمول حتى انقرضوا وكان تخت پرونسة وسيلة لهوغس

فى الارتقاء

في الارتقاء الى تخت ايطاليا بعد موت برنجير الاول

ثم ان انصراف لويز الاعمى كان سببا في انقاذ ايطاليا من حكم الاجانب وفي خلاص برنجير من خصمه المهول ومع ذلك لم يزل المنصب الامبراطوري مع هذا الملك الهارب اما لكون البابا رأى انه لا يسوغ له التصرف في حق مالك حي واما لان برنجير آثر مدافعة الجار عن اقاليمه على الذهاب الى رومة ليطلب هذا المنصب الذي مع كونه خاليا عن الشوكة لا يخلو عن خطر ومع ذلك كان البابا يوحنا العاشر مهتما بازالة ما كان بين ملتزمي ايطاليا من الشقاق والاختلاف وحملهم على الالتئام والوفاق لينقذوا وطنهم من العرب ولا يدعوهم يقيمون ببلادهم فرأى ان الطريق الموصل الى هذا المقصد المحمود انما هو اعادة الاتحاد في الشوكة العليا (بمعنى ان حاكم ايطاليا يكون واحدا) فدعا برنجير أن يقدم الى رومة ليلبس فيها التاج الامبراطوري (سنة ٩١٥) فقدم اليها هذا الامير ودخلها باحتفال وموكب عظيم وارتفعت الاصوات في حارة سبورا بالصياح والتهليل حال مرور الموكب بها وحضر لملاقاته ارباب مشورة السنت وخرّ على اقدامه اثنان من شبان الرومانيين احدهما اخو البابا وثانيهما ابن القنصل تيوفلكتة ووصل الى كنيسة ماري بطرس الكبرى وهو راكب جواد البابا وتقلد فيها بالمنصب الامبراطوري وبعد احتفال التتويج قرأ رجل باعلى صوته اسماء المدن والاقاليم التي ينزل عنها وارث شرلمانيا (برنجير) لخليفة ليون الثالث (البابا يوحنا)

جعل برنجير الاول امبراطورا (سنة ٩١٥)

وفي (سنة ٩١٧) مات ادلبيرت مركي طوسكانة فكان موته منقذا لبرنجير من هذا الخصم المهول الا انه كان يخشى عليه من برتة ارملة هذا الملتزم اكثر من ادلبيرت نفسه فانها شرعت في جعل ابنها جوي امبراطورا وصارت تحيل بدسائسها وخداعها حتى ادخلت في حزبها اقوى ملتزمي ايطاليا لتنجح في سعيها وتظفر بمرامها فتزوج ادلبيرت مركي ايورية هرمنغردة اخت مركي طوسكانة الجديد وهو جوي وكان تحته قبلها ابنة برنجير فصار بهذه المصاهرة ملتئما مع برتة لا يخرج عن سياستها ودخل في عصبتها ايضا اودالريق قونتة السراية وبتخليه عن الامبراطور حصل التخلي عن برنجير حتى في سرايته ومحل اقامته

ثم فسدت هذه العصبة في طوسكانة باسم برتة وابنها جوي الا انها اي العصبة لم تزل على عزيمتها وانما جعلت مطمح نظرها شيأ آخر فقصدت أن تملك على ايطاليا ملكا اجنبيا وهو رودلف لانه لوضع بلاده في جبال الالب لا يخشى صولة برنجير

جعل رودلف ملكا على ايطاليا (سنة ٩٢١)

ويسعف بالاعانة فى اسرع وقت اويؤوى اليه رئيس العمال المتحالفين فى ملجأ آمن وحمل مركى ابورية شركاءه فى العصبة ثانيا على أن يبحثوا عن ملك فيما وراء تلك الجبال وأن يقدموا تاج ايطاليا لرودلف الثانى ملك برغونيا العليا ومع ذلك فالطائفة التى هى السبب الاصلى فى التخلى عن برنجير عوقبت على خيانتها ونقض عهودها بعقوبة جسيمة بل لحقها ذلك قبل أن تتم ماكانت خيانتها لاجله وذلك ان القونتة اودالريق وعدة من المتعصبين قتلوا فى بريسيا لكونهم اهملوا فى امرهم حتى هجمت عليهم فرقة من الجهاد كانت مجمكة من طرف برنجير (سنة ٩٢١) واما ادلبيرت فانه لما تخلص مما كانت هذه العصبة عرضة له من الاخطار بذل وسعه وفتح ابواب ايطاليا التى كان منوطا بحراستها الملك برغونيا فعند ذلك انضم اليه لمبيرت مطران ميلان وتقويا بنفوذ كلمتهما واعان لمبيرت من حيث وظيفته على تتويج رودلف وجعله ملكا على ايطاليا واذا صح ما أثبته لويتبرند من أن الايطاليين جعلوا على انفسهم ملكين ليكون الخوف من احدهما ازاجرا للآخر فقد شفوا غليلهم من حيث استخوانهم واساءة ظنهم فانه شوهد فى هذا الوقت ثلاثة من الامراء كل منهم يلقب ملك ايطاليا فى آن واحد * والذى تلقب منهم بهذا اللقب قبل ذلك باربع وثلاثين سنة وهو برنجير صار عما قليل مقصورا على دوقية فريول كما أن لويز الاعمى قصر على مملكة پرونسة فسعى حزبه بعد ذلك بسنتين فى الانتعاش والتقوى واخذ بعد الانحطاط فى النهوض على شاطئ نهر بو فعارضه بونيفاس مركى سبولينة حيث صرف همته نحو رودلف وبذل مهجته دونه بنصرته فى واقعة فيورنزولا التى سفكت فيها دماء كثيرة ولم ينج منها الايمبراطور برنجير الا باختبائه بين القتلى (سنة ٩٢٣) لكن كانت ايامه قد اشرفت على الانقضاء وذلك انه فر الى اهل ويرونة فقبلوه لديهم وبعد ذلك بيسير لاموه على كونه اضاع هذه ايطاليا وراحتها لمجرد طمعه الذى حمله على دعاء المجار لاعانته فعمد اليه بعض الخائنين الذى شمله احسانه وحلمه قبل ذلك وهو فلبيرت فقتله بخنجره على عتبة كنيسة (سنة ٩٢٤) فقد حصل فى مدينة ويرونة عذاب لويز الثالث بفقأ عينيه وعاقبة خصمه برنجير السيئة فكان قتله جزاء له على قساوته بتعذيب لويز المذكور ولم يكن له عيب سوى هذه القساوة فانه وان استغرق مدة حياته فى التقلب والاضطراب الا انه فعل امورا كثيرة تدل على مكارم اخلاقه وبندر وجود مثلها ولا يعرف احد بمقدارها غير أن المؤرخين عادة ليسوا دون المعاصرين فى التحامل حيث تبعوا فى اغلب المواد ما قاله لويتبرند فى شأن هذا الامير من الخوض

فى عرضه

في عرضه وعرض زوجته ويلا وقذفهما من غير روية ولا تبصر وانما الحامل له على ذلك هو الانتقام من برنجير في نظير بعض اساآت وقعت منه في حق اهله وعشيرته

الفترة الايمبراطورية اى خلو ايطاليا عن الايمبراطور من (سنة ٩٢٤) الى (سنة ٩٦٢)

وبموت برنجير صار كرسى الايمبراطورية خاليا عن شاغل مدة ثمان وثلاثين سنة لان سياسة البابات وميل الرومانيين الى الحكومة الجمهورية ومخاصمة الامراء مع بعضهم كل ذلك كان مانعا من شغل هذا الكرسى باى ملك كان مع أن نسل الكرلونجية اذ ذاك لم يكن انقطع بالكلية بل مازالت منه بقية فلذا لبس تاج الحديد بعد هذه المدة اثنان من نسل شرلمانيا وان لم يكونا على عمود النسب فكانت ادارة ايطاليا في هذه المدة بايدى ثلاث من الارامل كانت الرابطة بينهن لحمة النسب وكان نفوذ كلمتهن بالنظر لمقامهن وعلو شانهن دون شوكتهن باقتتان الناس بجمالهن الذى كان لهن بمنزلة بضاعة يتجرن فيها ويربحن نفوذ الكلمة على الناس * وبئست هذه التجارة الذميمة * التى لا ترضاها النفوس الكريمة * احداهن برتة دوقة طوسكانة التى ورثتها عن زوجها فانها لم تزل لها الكلمة النافذة في الاقطار التى يرويها نهر ارنو والثانية مروزيا ارملة الدوق ألبريق وكانت ايضا لها الكلمة النافذة في سبولينة وكبرينو من الجهة الاخرى من جبال ابنين وكانت بعد موت الدوق المذكور آخذة في اسباب التزوج بابن برتة بخلاف هرمنغردة (وهى ثالثتهن) فانها لم تزل بعد موت زوجها مركى ايورية باقية على التأيم وان كانت لم تستمر على صداقتها له بعد موته حيث فتنت بجمالها اقوى حكام لنبرديا واستعبدتهم فكانت تحكم من اول جبال الالب الى نهر اديجة ثم ان هؤلاء النسوة جمعن عزائمهن وجعلن هوغس قونتة پرونسة ملكا على ايطاليا

جعل هوغس ملكا على ايطاليا (سنة ٩٢٦)

فعند ذلك سعى رودلف في اجراء حقوقه لكن لم يخرج من ذلك على طائل فان هرمنغردة سدت عليه ابواب باويا واظهرت له المحبة والعشق وخادعته بكلام في هذا المعنى حتى افضى به ذلك الى ارتكاب امور ادت الى وقوع العداوة بينه وبين اصحابه وفصلت مطران ميلان عن حزبه وكانت مروزيا ذات شوكة قوية في رومة فاستمالت الى رأيها البابا يوحنا العاشر وكان اخا زوجها لامه فبعث من طرفه رسلا الى مقابلة هوغس وكان قد وصل الى مينا بيزة في دونمة من سيليا وبعد ذلك بقليل البسه المطران لمبرت الشجاع تاج الملك بمدينة باويا وكان هذا المطران وقتئذ قريب عهد بكونه فعل معه صنيعا عظيما وهو نصرة نوارة التى

قتل فيها بورشارد دوق صوابة صهر رودلف وحليفه

سياسته

ثم ان اضطرابر هذا الملك الجديد الى رعاية خاطر جوى ومروزيا منعه أن يسعى في تحصيل المنصب الامبراطورى ورأى أن الاصوب تمكين منصبه الملوكى بالمعاهدات النافعة فسعى في محالفة هنرى لوواز ليور ملك جرمانيا الذى كان يفوق جميع امراء اوروبا شجاعة وحزما وفتح ابواب المراسلات بينه وبين دولة القسطنطينية حيث كانت مساعدتها له مما لا بد منه في اخراج العرب من ايطاليه واستوثق منه اورسو برتسيبا كو دوق البنادقة الذى كان يمكنه أن ينفعه كما كان يمكنه أن يضره حيث اخذ عليه عهودا ومواثيق جديدة على امن جمهوريته واطمئنانها ولزم هوغس ايضا أن يحافظ على ما كان له في ديوان كنيسة رومة من الحظوة والقبول ورأى البابا يوحنا العاشر انه يمكنه الاعتماد على حماية هذا الملك في اعادة شوكة اسلافه في رومة ولكن الميل الى الحرية الذى كان منشاء جمهوريات القرون الوسطى كان وقتئذ آخذا في الظهور بايطاليا حيث اظهرته في مدينة باويا العصبية التى حزبها كما هذه المدينة الملقب كل منهما برتور وكان قد اخذ في العود الى مدينة رومة تحت حماية الطاغية جوى والعاهرة مروزيا فقد تجاسر البابا على تطلب ما كان له من الحقوق التى افتيت عليها فهلك مع اخيه في واقعة كانت مكايدها اكثر من قواها (سنة ٩٢٨)

هذا ولم يتمتع جوى بثمرة جنايته زمنا طويلا بل اخترمته المنية وبموته تخلص ملك ايطاليا من هذا الملتزم الذى كان يخشى بأسه من بين سائر الملتزمين وقد اراد هوغس أن يتخلص من هذه العائلة الطوسكانية القوية التى طالما نغصت على اسلافه تخلصا مستمرا الى الابد فلم يطق أن التزام جوى يرثه لمبيرت الذى هو اخو كل منهما بل حرمه من البعبر ولم يمنعه عن ذلك لحمة النسبة وروابط القرابة لطمعه وظلمه واشاع قبل ذلك أن الدوقة برثة لم تلد من زوجها ادلبيرت وانما أتت بثلاثة اولاد اجانب وادعت انهم اولادها منه لتتمكن من امرها في المستقبل واعطى طوسكانة لبوزون وهو اخوه لابيه واعتقد أنه مكن بذلك عائلته على تخت ايطاليا الا أنه كان عن قريب دنس سيرة امه التى هى ايضا ام جوى بما يستبعده العقل واهان هرمنغردة وابنها الصغير مركى ايوريه لاسيما وكان قد اوقع الرعب والفزع في قلوب جميع عماله الملتزمين بنهب التزام لمبيرت فكل هذه الامور الناشئة عن عدم الحزم والتبصير كانت سببا في مصائب جديدة ونكبات شديدة المت به

وذلك

انضمام البرغونيتين (سنة ٩٣٠)

وذلك أن اعداءه وجهوا نظرهم اولا الى رودلف الثانى ودعوه ثانيا الى ايطاليا الا أن هوغس كان عنده تاج عرضه على هذا الخصم بدلا عن تاج الحديد الذى كان رودلف يدعيه لنفسه وهذا التاج الذى عرضه عليه هو تاج پروونسة الذى انتقل بموت لويز الاعمى الى القونتة ملك ارلس وهو هوغس المذكور فاغتنم ملك ترنسيورانة اعنى رودلف هذه الفرصة ليجمع تحت حكمه جميع الاقاليم البرغونية واعرض عن أن يجعل نفسه لعبة بايدى الايطاليين الذين لا يثبتون على حال واحد ولما رضى بخطبة بنته المسماة أدلايد للوتير بن هوغس لم تفقد عائلته شيأ مما كان يؤمله وان كان قد منحها فى جهازها مملكة ذات ثروة والظاهر أن هوغس لما تخلى عن ذلك التاج الذى لم يكن اكتسبه بوجه شرعى ابقى لنفسه قونتية پروونسة التى ورثها عن ابيه وهذا منه احتراس ناشئ عن مزيد التبصر والحزم وقد هنأ نفسه بذلك يوما من الايام

ثم ان ما اشتراه هوغس من الامن والاطمئنان بهذا الثمن العظيم وهو تخليه عن تلك المملكة الجأه ايضا الى ارتكاب امر كانت نفسه تستقبحه وتشمئز منه فاكرهها عليه واظفرها به وهو أن تزوج تزوجا فاحشا مذموما وذلك أن مروزيا التى هى ارملة دوقين وكان لها التصرف المطلق فى رومة كان لم يبق عليها فى تكميل عظمها واتمام شممها الا لبسها التاج الملوكى وبعد أن انزلت عن كرسى البابات العاشق الذى اجلسته عليه اختها تيودورة اجلست عليه يوحنا الحادى عشر وكان الشائع على السنة الناس انه متخلق من زناء البابا سرجيوس الثالث بها وحيث كانت بهذه المثابة فى التصرف فى تاج البابات كان فى وسعها تمكين التاج الملوكى فمن ثم تزوجها هوغس وتقاسمت معه سرير الملك الذى اجلسته عليه

جعل ألبريق قنصلا فى رومة

فترتب على هذا الزواج الخزى والخسارة لهوغس الذى هو ثالث ازواج هذه العاهرة وذلك أنه اساء ولدا من اولادها اساءة فاحشة وكان فى غيظ شديد لا يدرى سببه وكان هذا الولد شهما ذا مروءة فابى أن يسامح زوج امه على كونه انعم على بعض الاجانب بدوقية سپولينة ومركية كميرينو وكان ابوه ألبريق منذ قليل قد جمعهما وجعلهما امارة واحدة فاخذ هذا الشاب وكان يسمى ألبريق ايضا ينقذ الرومانيين من الذل لينتقم بذلك من هوغس فى نظير تلك الاساءة فصاح أمام الامة الرومانية وكانت مجتمعة كيف انحط شأن رومة الى هذه الدرجة الدنيا الموجبة للفضيحة والمعرة حيث ان امرها بيد العاهرات وهل هنالك اشق على النفس واجلب للمعرة من كون هذه المدينة الرومانية تندرس بالفاحشة من امرأة وكيف نرى من كانوا

عبيدا للرومانيين قد سادوا عليهم وصار امرهم بيدهم واعنى بهم البرغونيين
فلما سمعوا تحريضه انتعش ما كان فى نفوسهم من قديم الكبر والتعاظم لانهم كانوا
سادات الدنيا فتفكروا فى كيفية احكام الجمهورية وظنوا أنها تعود بتقليد بعض
رؤساء الاحزاب من الملتزمين منصبى القنصلية والبطريقية فقلدوا ألبريق بهذين
المنصبين اللذين كانوا لا يعرفون وظائفهما بل ولا حقيقتهما معرفة صحيحة فسلك
فى احكامه فى رومة مسلك الحكومة المطلقة اكثر من الحكومة الجمهورية وكان هو
يحكم الامة التى صارت حربية بسريان ذلك اليها من مخالطة الحربيين وباقتضاء
الضرورة ذلك وكان اخوه يوحنا الحادى عشر يحكم الكنيسة وكانت مروزيا
تحكم عليهما جميعا لأنها لم تصاحب الملك هوغس فى الهروب اذ لم تتزوج به على
أن تقاسمه سوء حظه وشؤم حاله
وهذا الذى فعله الرومانيون كان اسوة لاهل الاقاليم حيث حملهم ذلك على التخلص
من حكومة هذا الظالم ولم يكن عندهم يومئذ وثوق برودلف فقصدوا اقوى ملتزمى
جرمانيا حيث دعا كل من اسقف ويرونة وقوتتها ارنولد دوق باويرة
وكرنتيا ليأتى معه بجيش ويسعى فى اخذ تاج ايطاليا (سنة ٩٣٤) فاغتنم
هذا الطماع تلك الفرصة وقد كان فى قلق عظيم من تبعيته لعائلة سكس الملوكية
ورأى انه بذلك يعادل فى الرتبة هنرى لوازليور لكن حصلت له واقعة افسدت عليه
جميع مقاصده
وقد كان يلزم اسناد هذا التخت وتمكينه لانه كان غير قار كثير الاضطراب فاجلس
هوغس ابنه لوتير بجانبه (سنة ٩٣٥) لانه لفضائله الحديثة كان يمكنه أن
يجمع من تفرق بسبب مثالب ابيه وايضا كانت التجربة على مدى الايام تبين
لهذا الظالم المرتاب انه لا يصح له التعويل على احد من عائلته الا على اولاده فقط فانه
مع كون تيوبالد ابن اخيه حكم دوقية سپولينة مع النصح والامانة تندم
على كونه اعطى دوقية طوسكانة لاخيه بوزون فنقل هذا الالتزام العظيم
من اخ صحيح النسب الى ابن فاسد النسب وكان لهذا الملك قريب آخر وهو المطران
مناسيس ترك كنيسته ببلاد ارلس فى نظير ثلاث اسقفيات وتقلد فى هذا الوقت
بعينه الرياسة على عساكر ثغر ترنتة الذى لم يصد ارنولد دوق باويرة ويمنعه
عن المسير وعما قليل افضت الخيانة بهذا القوتة الاسقف الى كونه فتح فى هذا الثغر
مسلكا للعدو آخرا هول من ارنولد

زمان

مصاهرات هوغس

ثم ان الملك هوغس الذى امكنه الظفر باهل جرمانيا الحربيين لم يمكنه أن يقمع الرومانيين فان القنصل ألبريق ابن مروزيا تطاول على هذا الملك واساءه وقد طمع هوغس أن يستميله اليه بعرضه عليه احدى بناته ليتزوجها فلم يجد ذلك نفعا وذلك أن ألبريق قبل ماعرضه عليه وتزوج ابنته المسماة ألدة وكانت جميلة لكن لم يسلم لختنه المذكور فى رومة التى حاصرها مرتين ولم ينجح وبالجملة فالمصاهرة لم تبعث ألبريق على الانقياد زيادة عما كان عليه حين كان من جملة العمال فان الراهب اودون المصلح الذى كان توسطه فى ذلك الوقت من اقوى الاشياء تأثيرا انتقل من فرنسا الى ايطاليا ليصلح بينهما ولم يترتب على ذلك ثمرة

وقد حصلت مصاهرات اخرى وطرق تدبيرية ناشئة عن الحزم والتبصر كان يترأى منها انها تكون سببا فى ثبات التاج الملوكى على رأس هوغس وتمكين ملكه وذلك انه تزوج برثة دى سوابة ارملة خصمه رودلف فصار بذلك صهرا لابن هذه الاميرة القاصر وهو كونراد لوپاسيفيك (اى محب الصلح) ملك البرغونديتين واعدّ احدى بناته الطبيعية (اى التى ليست من نكاح صحيح) لأن تتزوج برومان الثانى قيصر المشرق وتقاسمه فى كرسى الايمبراطورية (سنة ٩٤٣) ولم تكن هذه المصاهرة خالية عن الثمرة لملك ايطاليا (هوغس) وبالجملة فكان من الصواب تحقيق المحبة بينه وبين ادلبيرت مركى اورية لانه كان فى وسعه أن يسدّ طرق التواصل بين ايطاليا وپروفنسة فلهذا الغرض زوّج هوغس بنت اخيه المسماة ويلا لبرنجير اكبر اولاد ادلبيرت وانعم على انشير اخى برنجير المذكور بدوقية سپولينة (سنة ٩٣٦) ليشفى بذلك غليل اطماع هذه العائلة وكانت هذه الدوقية قدمات حاكمها وهو تيوبالد ابن اخى هوغس المذكور

ومن البعيد أن يتوهم أن غرض ملك ايطاليا بصنيعه هذا زيادة قوة تلك العائلة التى كانت قبل ذلك مخوفة جدا على عائلته وانما كان غرضه بذلك غشها ومخادعتها حتى لا تظهر كراهته لها ولكن لم يغتر برنجير ولا اخوه انشير بتلك الأمور الكاذبة الدالة بظاهرها على المحبة

وذلك انهما تعصبا عليه وظهر منهما العصيان حين خسر خسارة اخرى أمام رومة (سنة ٩٣٩) ولكن كان خروجهما عن الطاعة وجمعهما للعساكر منشؤما عليهما برهة من الزمان فان انشير هزمه ساريلون قونتة السراية وضاعت منه دوقية سپولينة واعطيت للمنصور عليه (سنة ٩٤٠) وهدّد برنجير بما عوقب به

الدوق لمبيرت بخبرعلي المهاجرة من ايطاليا والتجأالى هرمان دوق سوابة فاطمعه فى حماية اوتون الاكبر ملك جرمانيا الأن ترجي هوغس ولاسيما ماكان واقعا اذذاك فى فرنسا من التعكيرات والفتن منعا اوتون المذكور مدة من الزمان عن أن يتوسط فى امور ايطاليا

ومن وقتئذ امكن لهوغس أن يهتم بالسعى فى اجلاء العرب عن بلاده وكانوا منذ قليل قدنهبوا مدينة جنو يرة وكان قدمضى عليهم ما ينيف على خمسين سنة وهم متوطنون فى التزاماته الوراثية فعزم على أن يستعمل اى وسيلة لمكنته فى أن يطردمن فراكسينيت قبيلتهم ذات البأس والشجاعة التى دمرت مدينة فريبوس وخربت الاخطاط التى على سواحل نهرى وار وارچانس حتى صاوت صحارى ققرة فنجح فى مقصوده (سنة ٩٤٢) باعانة دونما القسطنطينية حيث استولى على مأوى هؤلاء الصائلين لكن لما لم يمكنه تدمير هذه العصابة الاسلامية عزم على أن يتخذهم وسيلة لاغراضه ومقاصده فرضوا بدون توقف أن يكونوا حرسا على جبال الالب التى لم تكن مجهولة لهم

فسلم لهم هوغس ممارّ تلك الجبال ليمنعوا برنجير عن العود الى بلاد پيمونت من طرق برغونيا العليا الضيقة (هلويسيا) ولكن العرب لم يتفكروا الافى الانتفاع من وضعهم فى تلك الجهة حيث صاروا ياخذون الفداء من المسافرين والزوار الآتين من فرنسا الى ايطاليا اومن ايطاليا الى فرنسا

ولم يكن برنجير عازما على العود الى لنبرديا من هذه الطريق لان هذا العامل المتغرب لما بلغه من رواده أن اهل ايطاليا اشمأزت نفوسهم جدّا وضجروا غاية الضجر من ظلم هوغس وأن جميع الناس الذين تحركت فى قلوبهم دواعى الشمم وقامت بهم احساسات الكبر اغتاظوا من ايثاره الاجانب عليهم بالمزايا ومن العطايا الجزيلة التى اخذها اولاد هذا الملك البرونسي "الطبيعيون وأن الامة لهينت وافتقرت دفعة واحدة بسبب ماوضعه عليهم من المغارم التى دفعها للعجائر فى نظير ارتحالهم عن بلاده (سنة ٩٤٤) وأن عدة من حكام الاقاليم صاروا لا ينتظرون الا رئيسا يقومون معه نزل بوادى اديجة وسار حتى وصل الى سواحل نهر بو بسبب تخلى منسيس الاسقف قونتة ترنتة عن الملك هوغس مغترا بما امله من اخذ كرسى" اسقفية ميلان وبسبب خيانة ميلون قونتة ويرونة الذى كان سابقا دعا دوق باويرة الى ايطاليا وكذلك بخيانة مطران ميلان رغبة فى بقاء رتبته وخيانة

اسقف مودينة حيث لم يتوقف فى اخذ دير مونتتولة ذى الثروة حين عرض عليه

لوتير الثانى (سنة ٩٤٦)

فعند ذلك غلق هوغس عليه ابواب پاويا وصارت تأتيه الاخبار كل يوم بتخيل جديد فعما قليل تحقق من ضياع التاج ورأى انه يلزم أن يكون آخر اهتمامه السعى فى حفظه لعائلته وعدم خروجه عنها فلما صار مجبورا على التسليم للملة فى مرامها وعلى اجابة داعى اغارة الاجانب نزل عن ملكه المضطرب الا أنه تضرع الى اعيان المملكة أن لا يؤاخذوا ابنه بذنوب ابيه فحضر الشاب لوتير الى كنيسة ميلان الكبرى وظهر بين الاعيان المجتمعين فيها (سنة ٩٤٦) فبايعوه وحيوه تحية الملوك وبايعه ايضا برنجير اما لكونه تذكر أن هذا الامير كان منذ قليل قد نصحه نصيحة خلص بها من انتقام هوغس واما لكونه رأى أن التوصل الى سرير الملك بارتكاب محظور خفية امن من المقاومة بالسلاح واراد ايضا مخادعة هوغس فترجاه أن لا يفارق ايطاليا قاصدا بذلك حجز الاموال التى جمعها هذا الظالم البخيل ومنع اخراجها الى البلاد الاجنبية فاجابه هوغس الى ذلك مظهرا انه يريد الاقامة بايطاليا ليتمكن من الفرار فاجتاز ثانيا جبال الالب وعاد الى ارلس متجردا عن التاج الذى كان قد ذهب للبحث عنه فى ايطاليا الا انه كان غنيا بما دبر من الاموال فى ايام ملكه وان لم تطل مدة انتفاعه بها ولم تكن من نصيب ولده

اخر العائلة الكرلونجية فى ايطاليا (سنة ٩٥٠)

وذلك أن هذا الامير المسكين لحق اباه الى القبر حيث سمه برنجير فانقضت ايامه وقصرت بذلك مدته مع أن القيصر قسطنطين التاسع (پورفيروجينيت) كان قدوصى برنجير المذكور على هذا الامير واناطه بحفظه والنظر فى حكومته لظنه فيه الاستقامة والصداقة ولكن قد اخذ منه اوتون الاكبر بالثار وقد انقرض بموت لوتير الثانى آخر فروع الدولة الكرلونجية من الاناث (سنة ٩٥٠) وانتهت حكومة الافرنج بايطاليا وكان ذلك علامة على انقضاء الحكم الملى من هذا القطر السيء الحظ ودليلا على زوال استقلاله ودخوله تحت التبعية لملوك جرمانيا

وقد لحق مملكة ارلس من الاهانة ما لحق ايطاليا حيث كانت الى ذلك الوقت تعادلها فيما يجرى به المقدور عليهما وذلك انها لما كانت كايطاليا فى اختلال الحكم على عهد ملكيها الاخيرين وهما كونرادلو پاسفيك وورودلف الثالث لزم ان تبلغ الغاية مثلها فى التمزيق الالتزامى قبل أن تقع فيها القسمة بين ملوك الالمان الذين ادخلوا ثانيا فى الحكم الايمپراطورى الذى اعيد لمنفعتهم جميع ممالك شرلمانيا ماعدا مملكة فرنسا

ولنذكر هنا على سبيل الاختصار ما اودعه فى هاتين المملكتين اختلال الحكومة الذى سبق الكلام عليه من حالة الطائفة الالتزامية فنقول

تمزيق الملتزمين لايطاليا

ان ايطاليا التى كانت منقسمة منذ مدة مديدة الى عدة دوقيات تابعة لدولة اللنبردية زرع فيها مذهب الالتزام الافرنجى زريعته وطرح بذره فى اراضيها الصالحة لتلك الزراعة فعما قليل امتدت عروقه وغاصت فى باطنها بالكلية فبطل اقدم الدوقيات الثلاث اللنبردية التى كانت باقية بعد فتح الكرلونجية لايطاليا وصارت هذه الدوقية لاوجود لها عند موت الايمبراطور برنجير (سنة ٩٢٤) واما دوقية بنيوان فكانت لم تزل موجودة بجانب امارتى سالرنة وكابوة اللتين تكونتا من تمزيقها (سنة ٨٥١) ولكن هذه الالتزامات الثلاث التى كان تعلقها بحكومة الدولة الكرلونجية ضعيفا ولم يقع بينهما ارتباط اكيد ابدا انفصلت عنها بالكلية بعد انقراض نسل شرلمانيا * وحكامها الذين كان دائما ينغص عليهم اليونان والعرب لم يكن لهم مدخلية كبيرة فى مصالح ايطاليا العليا واما دوقات سبولينة الذين كانوا يتولون عليها بالوراثة فاسترجعوا ما كان لهم سابقا من العظم والاعتبار فقد اورثتهم مجاورة رومة التى صاروا بها مخوفين على البابات رغبة قوية فى اخذ منصب الايمبراطورية لانفسهم اوأنهم يتصرفون فيه كيف شاؤا وترتب على معاهدتهم للملوك برغونيا وانضمام دوقية طوسكانة لهم انضماما وقتيا واكتسابهم مركية كمبرينو التى استمرت معهم مدة طويلة أن صار لهم فى ايطاليا شوكة قوية جدا حتى ان الايمبراطرة الالمانية اهتموا بتغيير حكومة هؤلاء الدوقات المتوارثة وجعلها نيابات وقتية مع أنه كان الواجب عليهم أن يمكنوا مزية التوارث لعمالهم الايطاليين عموما وقد كانت دوقية طوسكانة اومركية طوسكانة غير اكيدة التوارث على عهد ذرية بونيفاس الاول (اى من سنة ٨٢٨ الى سنة ٩٣١) وكذلك فى ايام الامراء الثلاثة البرونسية (اى من سنة ٩٣١ الى سنة ١٠٠١) ثم بطل توارثها بالكلية بعد موت هوغس الاكبر بن هوبيرت ثم عاد اليها التوارث فى عهد عائلة ايست اى دولة الشرق (اعنى من سنة ١٠٢٧ الى سنة ١١١٥) ثم فقدت هذه المزية مرة ثانية

وكان بين طوسكانة ونهر بو وبين هذا النهر وجبال الالب ما لا يحصى من القونتات والمركيات فكانوا على عدد مدن هذين القطرين وكانوا كغيرهم يجرون وظائفهم بوصف كونهم مقطعين اى منعما عليهم بالاراضى ومع ذلك كان الاولاد يرثون هذه الوظائف عن آبائهم والعلة فى اختصاص هؤلاء الاولاد بذلك وعدم تعميم

الارث

الارث فيهم وفى غيرهم لاتعلم الا بالوقوف على تعارض الوظائف المختلفة التى كانت عاقبتها عزل اناس كثيرين مع الشدة و القسوة

ثم ان جميع الملتزمين بايطاليا الشمالية لم يتمتع احد منهم بحقوقه المتوارثة قبل وصول اوتون الاكبر الى تلك الجهة الا اثنان كانا فى الطرفين المتقابلين من جبال الالب متوطنين بجوار استهما احدهما دوق فريول وقد اشرنا اليه فيما سبق وثانيهما مركى ايورية حاكم بيمون وموتنفرات الذى انتقلت بلاده (سنة ١٠٩٨) الى عائلة ساوة وقد اكتسبت عدة قونتيات لنبردية زيادة تمكن وعظم باعتناء الايمبراطور اوتون الاول بشأنها حيث رقاها الى درجة الحكومات العسكرية فحدثت حينئذ ثغور اومركات تريوية وويرونة وايست ومودينة ولا مانع أن منها ايضا مونتفرات

وهنالك عدة مدن كبيرة كان من الجائز أن تكون دار اقامة الحكومات الالتزامية فنزلت فى اواخر القرن العاشر عن درجة القونتيات لان الادارة الاهلية عجلت بسلب مزايا القونتات منها كما حصل فى مدينة بيزة وجنوية وباويا وكذلك الحكومة الاسقفية سلبت منها مثل تلك المزايا كما وقع فى مدينة ميلان وتورين واستى وبرغامة ولودى وبليزنسة وكان هنالك ثلاثة التزامات اخرى قسيسية لها رياسة احكم من ذلك وامكن* ولا ينبغى أن نعيد ذكر ما كان للبابات من الحقوق الدنيوية التى كان قد اخذ فى انكارها واختلاسها يومئذ ارباب الحكومة الاوستوقراطية الرومانية وقد سبق أن مطران راوينة لم ينسه اوائل الدولة الكرلونجية من انعاماتهم السياسية واقطاعاتهم البوليتيقية وفيما بعد احدث اوتون الاكبر من بقايا دوقية فريول امارة قلدها مطران أكيلية واقطاعات ايطاليا الدنيوية (اى غير القسيسية) سواء كانت مركات او قونتيات او التزامات لم تصر امارات الا حين جعلها الايمبراطور كونراد الثانى لوساليك متوارثة فى مشورة رونكجليا (سنة ١٠٢٦) واما الاقطاعات القسيسية فبطل توارثها بالتقلبات الخفية او التى اقل ما يكون انها لا تلمح فى التاريخ فهى التى صارت بها جميع المدن التى كان يحكمها الاساقفة جمهوريات

تمزيق الملتزمين لمملكة ارلس

ثم أن المذهب الالتزامى بمملكة أرلس كان الى ذلك الوقت اى فى اواخر القرن العاشر لم يقف على حدود منتظمة ولم يستقر فى عائلات وراثية (اى تتوارث الالتزام جيلا بعد جيل) فقد كان ثم عدة اسباب محلية وهى وجود العرب ببلاد پرونسة وجبال الالب ودعوى ملوك البرغونيين أن لهم الحق فى التاج الايمبراطورى

وعمى الامبراطور لويز الثالث وانضمام البرغونيتين حملت العمال على الخروج عن الطاعة حيث شهروا السلاح ليردوا الى احدهم التزامه وكان سلب منه (سنة ١٠٠١) ولماوصى رودلف الثالث بعد حكومته المختلة للامبراطور كونرادلوساليك بمملكة ارلس (سنة ١٠٣٣) كان ذلك كافيا فى تكميل اعمال المذهب الالتزامى الذى كان اذذاك على غاية من التقدم و اتساع الدائرة ومن يومئذ استحالت القونتيات كلها الاماندر الى امارات صارت مستقلة استقلالا كليا لان الامبراطرة الالمانية الذين كانوا قريبى عهد بالسيادة على تلك المملكة كانوا بعيدين عنها جدا بحيث كان لايمكنهم المدافعة عن حقوقهم وكانوا موجهين اطماعهم الى جهات اخرى

واعظم التزامات مملكة ارلس وهو قونتية پرونسة التى احدثها الملك هوغس لابن اخيه بوزون الاول (سنة ٩٢٦) استقر بعده فى عائلة بوزون الثانى الذى اكتسب ابنه غليوم الاكبر لعائلته حقا فاخرا صحيحا وهو حق السيادة على پرونسة حيث انقذها من حكم الاسلام واستمرت كذلك على مدى الايام (سنة ٩٧٢) وكان فى دوقية ارلس سابقا عدة قونتيات صار الآن بعضها منضما الى التزام قونتات پرونسة الذى يحكمونه بانفسهم مباشرة والبعض الآخر صار من الاراضى التابعة لهم كقونتية مرسيليا وثم قونتيات اخرى ارتقت فى القرن الحادى عشر الى درجة الرياسة على الاراضى وابت أن تبايع بالسيادة الا الملك نفسه كمركية پرونسة (قونتية اونيون) التى بين نهرى دورنسة ودرومة الصغيرين وهى التى انتظمت فى سلك قونتيات تولوزة بسبب زواج بنت اخى غليوم حيث كانت من جهازها وكامارة اورنجة التى كان اول قونتاتها المالكين لها فى نحو سنة ١٠٠٠ هو جيرود ادهيمار ملتزم مونتيل (مونتيلمارت) ولما استولى عليها ملتزموا بوكس صارت مخوفة جدا على قونتات پرونسة وكقونتية فوركلكيير التى كانت تحتوى زيادة على ابرشية سسترون على اقليمى جبنسواس وأنبرونواس اللذين انتقلا فى نحو سنة ١٢٠٠ لامراء ويانة الملقبين بلقب دوفين وكعائلة بوكس التى استمرت التزاماتها المتفرقة الى عهدنا هذا متميزة عن دوقية پرونسة باسم اراضى بوسنكس وكالتزامات وتميلة وكستيلانة وجريمود (جريمالدى) الغير البعيدة عن شواطئ نهر وار وهى متكونة من اراضى العرب حين طردوا منها اوأنها اتسعت بها فلذا كان اصحابها يستندون فى ادعائهم حق الرياسة الى كونهم هم الذين

فتحوها

فتحوها فكانوا يطلبون ذلك من حيث كونه حقا لهم بوصف كونهم فاتحين
وفى شمال پرونسة كانت اقاليم ديواس وولنتنواس وو ينواس يحكمها
قونتات لهم التصرف المطلق فى حكومتها ولم يتيسر للمؤرخين الوقوف على نسبهم الى
القرن الثانى عشر وفى نحو سنة ١١٥٠ انتقل اقليم وينواس الى عائلة
ألبون الذى عزل فى سنة ١٠٤٤ اسقف جيرنوبل من التزام جريزيودان
وجعل لنفسه السيادة فيما بعد على القونتيتين المجتمعتين وهما بلنسية ودية
ولما نزل لوتير ملك فرنسا عن قونتية ليون لكونرادلو باسفيك صار من
وقتئذ اقليما فوريز وبويوليس اللذان كانا جزأ منها من التزامات مملكة ارلس
المحكومة بالمباشرة لا بالتبعية وبقيت الالتزامات النافعة منها القونتات مدينة ليون
ولكن فى (سنة ١٠٦٠) بايع اهل هذه المدينة مطرانهم بالسيادة الالتزامية
وجعلوه ملتزما عليهم وحصل مثل ذلك فى قونتية برغونيا حيث اكتسب فيها
مطران مدينة بيزنسون الرياسة على تلك المدينة حين كان قونتة هذه القونتية يملك
بالمباشرة او بالواسطة زيادة على الاقليم المسمى بهذا الاسم (اى قونتية برغونيا)
قونتيات شالون وماكون وموتبليارد وبوجى والتزامى سالس ونوفشاتيل
وغير ذلك واول قونتة ملك برغونيا هو أوت غليوم بن ادلبيرت ملك ايطاليا
وجر برجة وارثه قونتية شالون (سنة ٩٥٩) وكان لهذه العائلة دعوى عريضة
فى الاستقلال حتى ان رينود بن أوت غليوم امتنع من مبايعة الايمبراطور
هنرى الثالث متعللا بانه لا يلزمه الا طاعة الله وسيفه فاذا كان قونتات برغونيا
مع ملوك ارلس بهذه المثابة من المشاجرة والمخالفة فهل يطمع مع ذلك فى بيان
العلاقات الالتزامية التى كانت بين الملوك والعمال الذين كانوا يطلبون الاستقلال عنهم
والخروج عن تبعيتهم وتعيينها على وجه الصراحة والضبط كلا بل تزداد صعوبة هذا
الامر ويتعذر حله اذا اردنا أن نبين ما كان لملتزمى ترنسيورانة الكثيرين من
الدرجات المتفاوتة ونذكر لكل منهم رتبته ومنصبه فان اغلبهم كما يظهر انتقل الى
السيادة الايمبراطورية مباشرة وصار تحتها بدون واسطة سيادة اخرى

عائلة سابوة

ثم ان هذه العائلات الملتزمة التى صار لها التصرف المطلق فى مملكة ارلس لا يوجد
منها الآن الا عائلة واحدة لها درجة عالية ورتبة سامية بين الملوك وهى عائلة سابوة
واصلها الذى تعزى اليه هو هومبيرت ذو الأيدى البيضاء قونتة موريينة وهو
كما ذكره اغلب المؤرخين ابن بيرولد السكسونى نائب مملكة ارلس على عهد
كونرادلو باسيفيك ونسبه آخرون الى الملك لويز الاعمى من جهة جده

قسطنطين امير وبانة وكان من امر هومبيرت أنه حظى من كونرادلوساليك بالانعام عليه باقليمي شبليس وباس والدس ومدينة سنت موريس مكافأة له على بذل همته في حماية حقوق هذا الملك الالماني من اخصامه الذين كانوا يدعونها لانفسهم فكان ذلك اول التزام لامراء سابوة ثم اتسعت دائرة هذا الالتزام في اسرع وقت خصوصا بعد زواج اميديا الاول بوراثة مركيزة سوزة حتى انه بالمصاهرات والوراثات والفتوحات والاقطاعات صار مملكة لها رجحان في ميزان سياسة اوربا ومن اقدم الاراضي التي اكتسبتها عائلة سابوة قونتية مدينة جنيوزة وبها صار لتلك العائلة حقوق في هذه المدينة غير أن الاساقفة الجنيورية عرفوا كيف يحافظون على مالهم فيها من الشوكة الدنيوية والحكومة السياسية وكان كونرادلوساليك قد اقر على ذلك الاسقف بورشارد وابقاه على حكمها (سنة ١٠٣٤) ولم تزل هذه الامارة القسيسية تابعة للايمبراطور حتى ظهرت تنظيمات كلوين وترتيباته وقد سبق قريبا أن مطارنة ليون وبيزنسون بويع لهم ايضا بالرياسة ويلزم أن نضم الى هؤلاء الاحبار الملتزمين مطارنة ترنتزة وويانة وكذا الاساقفة الامراء الذين كانوا على بالة ولوزانة ونيون وبيليه وبلنسية وجاب ودية وكذلك رؤساء رهبان سنت غال وسنت كاودة وسنت برنارد

وبالجملة فلنجمع هنا جميع بقايا مملكة ارلس ونذكرها على سبيل الاجمال فنقول ان المدائن الموضوعة في الطرفين المتقابلين على البحر المتوسط وجبال الالب الهلويسية اخذت من يومئذ في الاستقلال المدني والخروج من التبعية وكذلك اخطاط سويسة ذات الغابات فانها لحريتها أبت أن تبايع بالسيادة عليها غير الايمبراطور ولم تزل كذلك حتى الجأها ظلم النمساوية الى أن صارت حكومات جمهورية

(الفصل الثاني)

(في اضمحلال الدولة الكرلوبجية في فرنسا وانحطاطها)

لا يخفى أن الحكومة الالتزامية وان كانت في ايطاليا اقدم منها في فرنسا وجاءت اصولها من جرمانيا الى فرنسا الا انها انتشرت اولا في المملكة الفرنساوية انتشارا تاما واتسعت فيها قبل هاتين المملكتين اتساعا عظيما وحظيت فيها بكمال الترتيب وحسن التنظيم وذلك انه قبل صدور الاوامر الملوكية بتقرير مزية توارث الالتزامات الكبيرة في الدول الاخرى كان كرلوس الاصلع قد سمح بهذه المزية لحكام عدة اقاليم كبيرة نعم وان كان قانون كيرسى لم يجعل تلك المزية عامة بحيث تكون ثابتة لجميع قونتات المملكة كما زعمه من وهم لكن قد صح أن هذا القانون الملوكي الصادر

في شان

فى شأن الملتزمين صار من يومئذ مخالفا للقاعدة المطردة المقررة للتوارث واما حق الحروب الخصوصية الذى ترتب عليه جميع المزايا الاخرى الخاصة بالسيادة المطلقة فانه وان صدر فى شأنه امر فى مدينة بيستة منع ملتزمى فرنسا من تحصين قلاعهم الا أن جميع من كان منهم شاهرا سلاحه بسبب الحروب الداخلية وجدوا ما يستندون اليه فى عدم القاء الاسلحة من ايديهم وترك القتال بها وهو الاغارات الاجنبية فكان استعمالهم لها فى حماية المملكة دون استعمالهم لها فى توسيع التزاماتهم بالتغلب على اراضى مجاوريهم فحينئذ صار الحرب من ملتزم لملتزم آخر وظلم القوى الضعيف فمن هؤلاء القونتات الكثيرين الذين كانوا اولا مستوين فى اللقب لا فى القوة من صار عاملا للدوقات الاقاليم ومنهم من ادعى مع بقائه على لقب القونتية جميع القوى الخاصة بالمنصب الدوقى الذى كان يومئذ نادر الوجود جدا حتى كاد ينسى بالكلية من سائر الجهات وصار لا يعترف بواسطة بينه وبين الملك فكانوا كالحاجز بين الشوكة الملوكية والاهالى بحيث صارت احكام الملك لا تصل الى الامة حيث كانوا بواسطة بعض شروط تقررت عليهم فى عهود المبايعة وان لم يوفوا بها على الدوام يحكمون فى اراضيهم حكومة مطلقة التصرف كالملوك وصارت مناصب الدوقات والقونتات التزامات حقيقية داخلا تحت تبعيتها الاقطاعات القديمة الملوكية فكانت تنالها اقضيتهم وتشملها احكامهم وانحط كل من عمال الملك واصاغر القونتات الى درجة كونهم دخلوا تحت سيادة الدوقات اوكبار القونتات الذين ادخلوا فى تبعيتهم ايضا اصحاب الوظائف المعربة والاملاك الالتزامية وكانوا امثالهم فى توارث وظائفهم واملاكهم واما الاحرار الذين صار لا يمكن أن تصل اليهم احكام الملك ولا حمايته فاخترع لهم هؤلاء الملتزمون طرقا تحيلوا بها على ادخالهم مع املاكهم فى العصابة الالتزامية طوعا او كرها فادخلوا البعض فيها بوصف كونه ملتزما والبعض الآخر بوصف كونه من ارقاء الارض

ومن الحكومات التى صارت متوارثة فى القرن التاسع بسبب مزية تخصها واستمرت فى اعلى الدرجات الالتزامية دوقينا فرانسا وبرغونيا وقونتيات ورمندواس وتولوزه وفلندره واما دوقية آكتينا التى كانت اذذاك تطمع فيما هو اعظم من ذلك فآل امرها الى انها قنعت بهذه الدرجة ولم تزد عليها وكانت دوقية نورمنديا يومئذ لم تزل معدومة وكان انتهاء الترتيب الالتزامى بفرانسا فى مدة الفتن الداخلية التى اعقبت موت كرلوس السمين واسرعت بتدمير نسل الكرلونجية

انتخاب اودس سنة ٨٨٨

وكان اعظم مصيبة وقعت من طائفة الملتزمين الارستوقراطية فى خرم قوانين المملكة هو

أنهم وسعوا دائرة انتخاب الملوك وجاوزوا به العشيرة الملوكية وهذا التعدى منهم بنقض عهود الملة سواء كان ناشئا عما كانت عليه فرانسا من الخطر حيث كانت وقتئذ تحتاج الى محام يدافع عنها اوعن جسارة اولى الشوكة من اعيان المملكة الذين قصدوا بذلك التجربة والاختبار نفع العصابة الالتزامية نفعا عجيبا حيث ترتب عليه أن صار للعمال قوة اشتراط الشروط التى يمكنهم اشتراطها من الآن فصاعدا على الملوك المنتخبة كالملوك المتوارثة فى نظير حسن صنيعهم اولخوف هؤلاء الملوك منهم

وكان الافتيات على التاج الملوكى مشؤما على الشوكة الملوكية لا لمجرد ما اقتضاه الافتيات من مكافأة المعينين عليه بل كان شؤمه ايضا لكون العمال الذين استمروا على الامانة للدولة الكرلونجية رأوا انفسهم مضطرين الى استعمال الحكم المطلق مادام الكرسى خاليا عمن يستحقه من الملوك فبهذا كانت نتيجة الامانة كنتيجة الخيانة وعرف الفرنساوية باول افتيات وقع من الملتزمين أن وجوب احترام المنصب الملوكى وعدم الافتيات عليه بطل وانقطع

ويمكن أن اودس كان لم يبق عليه فى طرد الامراء الكرلونجية عن الكرسى الى الابد الا أن يكون له ذرية والظاهر ايضا انه لم يكن حان الوقت الذى تكون فيه عشيرة من العشائر ولو مفتاتة متقلدة دون غيرها بالحكومة الملوكية وقد اقتضى الحال أن اعمال الملتزمين لا تتم الا اذا امكث التاج الملوكى مدة طويلة مترددا بين عشيرتين غير مستقر فى واحدة منهما وترتب على ذلك أن دوقا آخر من دوقات فرانسا تقلد المنصب الملوكى بانتخاب امراء دوقيته لم ينتقل تاجه الى ولده من بعده ومضى على ذلك قرن كامل من اول تجربة فى خرم قوانين المملكة الى بت الامر فى شأن تغيير الدولة وذلك (من سنة ٨٨٨ الى سنة ٩٨٧)

ولما دافع اودس النورمان عن ابواب باريس لم يعد ذلك منه انقاذا لتخت المملكة لان المملكة وقتئذ لم يكن لها تخت ولا لملوكها محل اقامة معين وانما عد بذلك منقذا للمدينة التى كان قونتة عليها غير أن سطوانه اذكرت الفرنساوية سطوات ابيه روبيرت لوفورت اى القوى حيث قتل وهو يقاتل هؤلاء الاعداء فانحطت آراء اهل المملكة عموما على أن اودس هو الذى له قدرة على اعادة الهدء والسلم بفرانسا

وكان روبيرت المذكور قد استحق بسطوانه على النورمان أن يتقلد منصب الدوقية على فرنسا فقلده به كرلوس الاصلع مع الاحتفال والرونق فى جمعية ملية (سنة ٨٦١) واما ولده اودس فانه بعد موت عمه هوغس الراهب ضم دوقية فرانسا

المذكورة الى قونتية باريس وصارت هذه الدوقية لا تخرج من عائلته ابدا وبالجملة فشجاعته مهدت له طريقا الى التخت ومع ذلك لا يدرى هل نال تاج الملك مكافأة من الامة له على حسن صنيعه معهم او كان ذلك بمحض جسارته وهل ألبسه التاج احد من الناس اولبسه بيده

ولا يصح أن يقال ان الملة انتخبته اذلم يكن اذ ذاك ملة بل ولا كبار المملكة لان كل طائفة كبيرة من طوائف الغلبة كان لها ملك يخصها او تود أن يكون لها ملك يحكمها وانما بادعه بالملك عمال دوقيته وهى دوقية فرنسا وعمال قونتيته وهى قونتية باريس كما وقع نظير ذلك وقتئذ للقونتة رودلف ويلف بمدينة سنت موريس و لارنولف الثانى قونتة بواتيرس فى اكتينا ومثل هذا الامر كان يمكن وقوعه ايضا لبودوين الثانى دفلندرة بل ولغيره من كبار الملتزمين

وقد آثر اهل نستريا اودس على غيره ولم يكن ذلك لمجرد خصاله الحميدة بل لانه كان ايضا يجمعهم معه لحمة النسب ولان الامراء الاجانب او الاباعد كانوا لا يلائمون حالة البلاد كما أن الملك ذا الشوكة القوية كان لا يلائم العمال فمن ثم لما اتى جوى دوق سپولينة الى الافرنك الغربيين ليتخذوه ملكا والبسه التاج اسقف لنغرس لم يجد من ينضم اليه ويكون من حزبه الاناسا فى دوقية برغونيا ولم يجسر على أن يتصدى لمقاتلة اودس لانه لو فعل ذلك لعاد عليه بالوبال وسوء الحال

ومن المعلوم الجلى أن الفرنساويه اوالافرنك الغلبين صاروا لا يستطيعون أن يكون عليهم امير من نسل اجنبى وأن وجود ذرية شرلمانيا على التخت يدل على بغض الدولة الجرمانية ويذكر العمال بما كان لتلك العائلة من الهمم فى قمعهم وردعهم عن الاقتيات وقد دلت العواقب على أن الصداقة للدولة الكرلونجية كانت لم تزل موجودة فى اصل غرسهم ومسقط رأسهم عند ذرية الاوستراسيين انفسهم الذين فتحوا لهم طريقا الى الكرسى الملوكى

ثم ان اقوال عدة من كتاب الوقائع السنوية الذين سموا اودس نائب المملكة وحاكمها تحملنا على أن نعتقد أن بعض الملتزمين الذين بايعوه كانوا يعدونه كفيلا لكرلوس ولا مانع أن منهم القونتة بودوين حفيد كرلوس الاصلع من جهة امه جوديت حيث بادر بالانضمام الى اعداء هذا الملك الجديد واتفق مع فولكس مطران رمس ودعا ارنولف ملك جرمانيا الى الحضور الى المملكة ليستولى عليها لكونه يستحقها وكان هذا الملك مشتغلا باغراض اخرى فلم يجب بودوين الى ما طلب بل آثر مبايعة المقتاتين له بالرياسة عليهم على منازعة اناس على تخوت قادرين على حمايتها والذب

عنها ورأى أن الاوفق به من حيث كونه رئيس العشيرة الكرلونجية انما هو المخاصمة على منصب الايمبراطورية فاكتفى باحضار هذا البطل (اعنى اودس) الذى كان يحكم نستريا فلما التزم له اودس فى مشورة ورمس بالامانة والصداقة انعم عليه بالتاج الملوكى فلبسه اودس ملك فرنسا بنفسه فى كنيسة رمس الكبرى لامتناع المطران فولكس عن اداء هذه الوظيفة

وهذه النعمة التى انعم بها النغل (اى غير صحيح النسب وهو ارنولف) الذى انحصر فيه نسل الدولة الملوكية الحقيقية على اودس المفتات ترتب عليها أن عاد الى طاعته بودوين الذى لا يثبت على حالة واحدة حيث تطاول عليه ثانيا ولم يتوقف فى مبايعته عدة من العمال كانت نفوسهم الى ذلك الوقت غير مطمئنة الى طاعته ظانين حرمتها وايضا كان لاودس سطوات نافعة الزمتهم بطاعته حيث انقذ باريس مرة ثانية من اغارات النورمان فى واقعة مونتوفكون التى فقدوا فيها تسعة عشر الف رجل فكانت فى سفك الدماء اعظم واقعة حصلت مع ارباب الصيال من اهل الشمال

وكان ثم اناس لا رغبة لهم فى فخار هذا المفتات ولم يلتفتوا الى ما صدر منه حين لبس التاج فى مدينة رمس من الصفح والعفو العام فكانت لا تنفع معهم ملاطفته ولا تهديده ولا اسلحته بل كانوا يقاومون ذلك اشد المقاومة وكان قد عاقب بودوين على عصيانه بتخريبه قونتية فلندرة ثم عزم على قمع رينولف حيث كان قد قارب أن يبايعه بالملك اهل سبطمانيا لكونه ابن دوق من غوطيا (برنارد الثانى) وكانت شوكته قوية جهة جبال البرنات لكثرة حماية عشيرته فاغاظ اودس هذا الخصم بأخذه منه قونتية بواتييرس التى قلد بها اخاه روبرت واجتاز نهر لوار ليملك هذا القونتة الجديد على ذلك الالتزام فلم يجسر رينولف على حماية حقوقه بالسلاح بل سلم لاودس بن لويز الالكن الشاب رهينة على ما ادعاه من الصداقة الكاذبة ثم عاد هذا الملك الى فرنسا حيث دعاه اليها وجود النورمان وعصاة العمال بها فلما وصل اليها وقعت هيبته فى قلوب هؤلاء الصائلين الذين كانوا بنهر السين وقد افزع ملتزمى نستريا بما صنعه مع ابن عمه ولتحير مما كان عبرة شديدة لغيره وان لم يحملهم ذلك على الصدق فى طاعته

وقد تحزبت فى جنوب فرنسا عصبة كانت اعظم فى التدبير والتنظيم من عصبة شمالها وكان رينولف قد ادخل فيها اخاه الشجاع ابلس رئيس ديرسنت جرمان دى پريس ودير سنت دينيس و غليوم التقى قونتة أووريا وروولون النورمانى الذى كان اصحابه يشغلون نستريا البحرية بتمامها وكان

خطرها

خطرها شديدا جدا بحيث كان لا يصح لاودس أن ينيط غيره بحيازة فخر الظفر بها بل لا بد من مباشرة ذلك بنفسه واقل ما يكون أن هذا هو ما كان يبديه له على سبيل النصيحة اعداؤه السريون اى غير المتظاهرين بالعداوة حسبما ذكره مؤرخ سنت وست وذلك لقوة رجائهم فى غزو امة طالما ظهر منها دلائل البغض والكراهة للحكومة النسترية فان اودس ان لم يهلك فى هذا الخطر المتوقع فلا اقل أن يبعده عن المملكة فى هذه الغزوة فيفتح مجالا واسعا للمفتاتين على الشوكة الملوكية

ولما وصل اودس الى اكتينا لم يكن ارنولف موجودا لانه مات قبل وصوله مسموما (سنة ٨٩٢) وكان قد بلغ اخوبه ابلس و جوزبيرت من اهل نستريا نجياتهم أن الملك متوجه اليهما فسعيا فى مقاومته فقتلا فى هذه الواقعة التى لم تطل مدتها ومع ذلك لم يحصل الهدء والسلم فى اكتينا لانه وان كان القونتة ادهمار ابن اخى اودس استمر على الامانة لعمه فى قونتية بواتيرس التى كان قريب العهد بالولاية عليها الا أن غليوم التقى الذى حظى قبل ذلك من الملك بمنصب الدوقية على اكتينا اعلن عما قليل بالخروج عن الطاعة واظهر العصيان على رؤس الاشهاد (سنة ٨٩٣)

تولية كرلوس الثالث سنة ٨٩٣

ثم ان غيبة اودس عادت بالنفع على اعدائه وذلك أن المطران فولكس جمع من شهر ينوبة سنة ٨٩٣ فى مدينة رمس اعيان ملتزمى الاقاليم المجاورة له وكان يعينه على ذلك هربيرت قونتة ورمندواس وحملهم على أن يعترفوا بأن كرلوس هو ابن لويز الالكن وحثهم على مبايعته بالملك وتحالفوا جميعا على قتال الملك المفتات

وكان لا بد لهذا الملك الحقيقى (اى المستحق للمملكة بموجب الاصول والقوانين) من اعانة الاجانب وكان المطران فولكس له دراية بامور السياسة اكثر من الامور الدينية فشرع فى استمالة جميع الملوك الى حزبه فكتب الى ارنولف ملك جرمانيا يبرئ نفسه عن الخطا فى عدم استشارته قبل انتخاب كرلوس قائلا ان ما وقع فى هذه القضية جار على عادة الافرنك القديمة من انتخابهم من النسل الملوكى اميرا يتولى على المملكة بدون التفات الى سنه وشوكته وان هذا الملك الشاب الذى هو من صلب لويز الالكن حقيقة كما يقضى بذلك مشابهته له فى الخلقة والصورة يذعن لا كبر عشيرته بالطاعة التى تجب له عليه ولا مانع انه يكون محاميا لخلكم لويز انتهى وكان لويز المذكور قريب عهد بالولادة فبناء على ذلك اقتضى الانصاف والسياسة أن يكون ملك جرمانيا مساعدا ومعينا لقريبه

وكتب ايضا مثل ذلك الى جوى ايمبراطور ايطاليا وملكها ولاجل أن يكون على يقين من قضاء هذا الوطر الذى كان ينتظره منه افهمه بمقاصد ارنولف السيئة فى حقه ليكون منه على حذر

وكانت اذذاك كلمة البابات نافذة وشوكتهم محترمة فاستمال فوالكس البابا فرموز الى هذا الملك الذى ولاه المطران المذكور حتى ان البابا توسل الى ارنولف أن يجعل تحت رعايته كرلونجى فرنسا (يعنى كرلوس) فمنع اودس أن يتغلب على مملكة كرلوس

الحروب الداخلى

ولم يكترث اودس باوامر البابا ولم يلتفت الى تهديده بل عزم على أن يصرف عن نفسه عداوة ملك جرمانيا لانها اشد خطرا من غيرها فحولها عن نفسه بالانقياد اليه الناشئ عن الحزم وحسن السياسة فكان اول ماصنع أنه التمس من احزابه أن يظهروا الثبات حتى يعود اليهم ولما حضر أمام جيش المخالفين وجد مندوحة عن قتالهم وذلك انه ذكر العمال وهم هربيرت و ريشارد و غليوم و ادهمار بما اخذه عليهم من العهود والمواثيق فتركوا اعلام كرلوس وتخلوا عنه

فلم يجد كرلوس فى العساكر من يبذل مهجته لاجله لافى الفلوات ولا فى داخل مدينة رمس فلما طرد عن التخت الذى لم يقر عليه قراره ولم يطل به استقراره ذهب الى مدينة ورمس ليستعين بحماى عشيرته الطبيعى فتلقاه ارنولف ملاقاة حسنة وامر قونتات نهر الموز أن يتوجهوا لاعانته (سنة ٨٩٤) فسار هؤلاء العمال اللاوديون حتى وصلوا الى سواحل نهر ايسنه الا انهم لما كانوا فى الباطن باذلين همتهم مع اودس تفرقوا بمجرد وصوله الى الشاطئ الآخر من هذا النهر فعند ذلك اندفع كرلوس مع من بقى معه على الصداقة من حزبه الى دوقية برغونيا وعاملها معاملة البلاد التى يتغلب عليها حيث لم يبق له من الوسائل الا ما يكون لملك لامملكة له وهو السلب والنهب لكن وصلت شكاوى اهلها الى مدبر الملوك والمصلح بينهم (ارنولف)

فلم يضيع ارنولف هذه الفرصة فى اظهار رياسته بل طلب هذين الخصمين المتنازعين فى كرسى فرنسا الى الحضور فى ديوانه لينهى ما بينهما من التفاقم والشقاق لانه يجر الى الاختلال فى الحكومة وذلك ذريعة الى انتشار الاصول الالتزامية ودمار الشوكة الملوكية فثنى كرلوس عنان عزمه عن الذهاب الى مدينة ورمس خشية أن يسأل فيها عما وقع من جيشه من التخريب والنهب واما اودس فسار الى تلك المدينة وحضر بين يدى ارنولف وكان قد عرف كيف يستميله اليه وقبل منه

الهدايا والتحف وفاز منه بالقبول (سنة ٨٩٥) وحضر اودس تتويج زوانتبولخ ملك لورينة وكأنه اهمل فى استمالة هذا الملك اليه حتى يسعى فى مصالحه وكان حزب كرلوس يطلبون استراحاته وكان فولكس ايضا يريد أن يجعل ارنولف معينا لكرلوس لكنه لم يبادر بالسعى فى ذلك بل تراخى حتى فات اوانه وذلك أن الاجنبية الذين كان يقودهم بنفسه الى جرمانيا لم يصادفوا الا الشؤم وسوء الحظ حيث وجدهم اودس فى طريقه حين رجوعه من ورمس وهزمهم وغنم ما كان مع مطران رمس من الهدايا النفيسة والتحف الثمينة التى كان قد استصحبها لملك جرمانيا فكأن كرلوس عوض على خصمه ما بذله

ومع ذلك التى ملك لورينة بالمدد الذى وعد به وكوفىء على هذه الخدمة بجزء من المملكة وكان اودس وقتئذ فى اكتينا وكانت غيبته عن نستريا تضر بها لولا مقاومة مدينة لاون اولاوون التى ظفرت بقوى كرلوس وزوانتبولخ المجتمعة حيث تأكدت بها امانة البعض او تخلى الآخرين فان بودوين دوفلندرة واخاه رودلف قونتة كبرية و رينير قونتة هينوت انضموا الى ملك لورينة ودخلوا تحت اعلامه وعرضوا عليه أن يأخذ تاج حليفه (كرلوس) فكان نفع هذه الخيانة مقصورا على اودس حيث انه عقب رجوعه من اكتينا عرض عليه هربيرت قونتة ورمندواس الصلح على لسان كرلوس وكان زوانتبولخ لا ينتظر اودس ولا يترقب مجيئه ورأى بودوين أنه صار لا يمكنه أن يقاوم جميع قوى هذا الملك لانه بعد أن طرده من دير مارى وست دراس الحصين اخذ من رودلف قلعتى سنت كنتين و بيرونة

وقد كافأ اودس بهذين الحصنين هربيرت على سرعة انقياده ولما تاسى به بودوين كافأه ايضا باعادة مدينة اراس له واقتفى فولكس اثرهما فى الانقياد وسلم لاودس مدينة رمس وكانت بمفردها هى التى بقيت على الصداقة لكرلوس فلما صار هذا الامير السيء البخت مجردا عن جميع الاشياء التجأ الى لورينة (سنة ٨٩٦)

قسمة المملكة سنة ٨٩٦

والظاهر أن رؤساء حزب كرلوس عزموا على مبايعته بالتملك على باريس بناء على وعد اودس بانه ينزل لهذا المتطلب عن جزء من المملكة فلم يكن سعيهم لكرلوس خاليا عن الفائدة وذلك انه بعد تكرر المراسلات من الجانبين ذهب كرلوس الى اودس ونال منه مواعيد اكثر من الاقاليم ولكن اذا قلنا ان هذه المواعيد كانت موجلة بموته بمعنى أن تنجيزها يكون بعد موت صاحبها الصادرة عنه كانت صحيحة

صادقة قريبة الوقوع فانه لم يدبر شيأ فى شأن ابقاء كرسى المملكة لعائلته حيث لم يكن له عقب بل اوصى من كان عنده من الملتزمين حين حضرته الوفاة بمدينة فيرة ان يكونوا اصدقاء لكرلوس ولم يعين لاخيه روبيرت فى الوراثة شيأ الادوقيته

تملك كرلوس وحده فى غرة شهر ينويه سنة ٨٩٨

واول من بايع بالملك كرلوس الذى هو المستحق للمملكة حقيقة هو روبيرت المذكور لخظى من الملك باقـراره على دوقية فرنسا ثم بايعه ريشارد وغليوم التقى وفى قونتة فلندرة بهذا الواجب بواسطة رسل بعثهم بصدد البيعة واما هربيرت فلم يكن له حاجة بالمبايعة

وقد امل كرلوس من مبادرة كبار العمال الى مبايعته ان تكون ايامه ايام هدء وسلم لكن لم يصادف امله محلا فانه كان معوّلا فى ذلك على عهود ومواثيق ضاعت حرمتها وجهل قدرها فلم تمض الاشهر قلائل حتى خرج بودوين عن الطاعة مع انه كان ممن اسرع بالبيعة فنقض العهد بأخـذه قلعة بيرونة عنوة وامارده مدينة اراس الى كرلوس فانما هو لاجل ان يقتل فولكس الذى كان كرلوس قد اعطاها له

تتميم اصلاح المملكة

ولا يخفى انه متى اضطرب سرير الملك كان عرضة للضياع ولا شئ اوفق باخصام المنصب الملوكى من الانتقال من الاستحقاق الى الاقتيات والرجوع من الاقتيات الى الاستحقاق وقد صادف هذين الامرين كبار الملتزمين مرتين فى زمن اضمحلال الدولة الكرلونجية والله اعلم هل كان لهم فى ذلك منفعة ام لا ومن ذا الذى كان يمكنه منعهم عن الاقتيات فان حكومة الملوك المنتخبين صار يجرى عليها فى الممالك الثلاثة الكبيرة التى انفصلت عن الايمبراطورية قانون العمال فان اقتياد اعيان ايطاليا لم يكن الا ببذل الثمن وكان امرهم فى ذلك مترددا بين اميرين كل منهما ينازع الآخر على تاج تلك المملكة وتقوّى عمال المانيا و لورينة فى ايام حكم الصبى حتى تجاسروا على الاقدام على كل شئ سوّلته لهم انفسهم وكما ان الضعف الناشئ عن الصغر بالنسبة لهذا الملك اضـر بمنصب جرمانيا الملوكى كذلك ضعف عقل ملك فرنسا اضرّ به حيث عجز عن حماية تاجه فلذا لم يترتب على اعادة العائلة الملوكية جمع تأثيرات القوى المتفرقة وحصرها فى محل واحد بل كانت سببا فى ازدياد فاعلية انحلال روابط الاجتماع وقوة تأثيره ولما لم يبق للمملكة شئ تخشى ضياعه صار كل انسان ممن اكتسبوا قوة الشوكة بما سلبوه منها لا يطمع الا فى زيادة نصيبه باضرار صاحبه فترتب على ذلك اجراء الحق فى الحروب الخصوصية وتوسيع دائرته بلا حد يقف عنده ولا قانون يعمل فيه بمقتضاه وقد تصدّى لمعارضة هذا الحق خلفاء شرلمانيا غير مرة ولم يكن

لسعيهم فى ذلك فائدة بل صار ضعاف العمال ومن لا مهارة له منهم رعية لاقويائهم وبالنصرة تعين لكل منهم درجته فى الجمعية الجديدة وازداد عدد العمال الذين صاروا بالظلم والقسوة من ادنى الدرجات زيادة بالغة بما حازوه من الالتزامات الصغيرة التى عم استعمالها فى اواخر القرن الحادى عشر

نهب القسوس

وقد دهم الكنيسة ما لم يحصل لها مثله قط حيث صارت فريسة للذئاب المختطفة كما هى عبارتها وذلك أنها جردت عن اوقافها مرة ثانية وحصل لاغلبها ما حصل للاراضى الوراثية المسماة ألوديو (اى المعافاة من الخراج) وانتظمت مثلها فى سلك الاراضى الالتزامية ثم اخرجها ايضا منها اتقياء الملوك ارباب السياسة ولم يقف النهب والتعدى الى هذا الحد بل شوهد أن الملتزمين الذين سلبوا املاك القسوس نسبوا لانفسهم ايضا الوظائف القسيسية اوتصرفوا فيها باعطائها لاولادهم من غير مبالاة بالقوانين القسيسية ولا بالقوانين الاهلية واختل نظام الاديار فى عهد رؤسائها العوام وكانت رياستهم عليها من قبيل الهزء والهذيان وانما اخترعوا تلك المناصب ليكون لهم فى الاستيلاء على الاديار مستند شرعى بحسب الظاهر ويتمتعوا بريع اوقافها من غير أن يقوموا بواجبات هذا المنصب ولوازمه فكثيرا ما كنت ترى الاديار يشغلها رؤساء متزوجون يتعيشون هم وعيالهم وعساكرهم من اموال الرهبان الهاربين وكانت كلاب صيدهم تعكر بنباحها هدء المعابد المهجورة وكان من اصعب الاشياء تجريد الاساقفة عن مناصبهم فان وظائفهم التى هى من الامور الضرورية كان لا يمكن التعرض لابطالها بدون كفر ولا خطر وكانوا يعيشون فى المدن محبوبين ومحميين بين اظهر الامة التى انتخبتهم لهذا المنصب ومع ذلك لم يسلم منصبهم من شره الملتزمين فانهم ان لم يكونوا قد ابطلوه بالكلية فلا اقل من انهم انتهكوا حرمته وابتذلوه وافسدوا اصوله فقد كان كبار العمال بيدهم جميع الوسايط فى أن تكون لهم الكلمة النافذة فى الانتخاب حتى لو عارضهم احد ظفروا بمرامهم كرها من غير ان يعتقدوا حرمة ذلك وكانوا يبيعون الدين بالدنيا ويسلكون فى ذلك مسالك الشدة والقسوة فبذلك كانت الاسقفيات الكثيرة الثروة يحوزها غير البكرى من اولاد ذوى البيوت بدون التفات للفضائل ولا للمعارف بل ولا للسن فكان يرى فى القرن العاشر بابات شبان واساقفة فى المهد ونقل هؤلاء الاحبار الى الكنيسة من الاخلاق والعوائد ما كان فى القلاع والحصون فكانوا حربيين كآبائهم ويرون العصى القسيسية لا تكفى فى المدافعة عن رعيتهم وينازعون القومتات على امارة المدن الاسقفية واراضيها فاذا ظفروا بها على هؤلاء الاخصام المقيمين معهم بذلوا جهدهم فيما تكون به مقاومة من جاورهم من الملتزمين

الذين كانوا دائما يهددونهم ويرهبونهم باسلحتهم او حماياتهم فكانت اوقاف الكنائس تعطى على سبيل الالتزام للحربيين الذين يبذلون وسعهم فى حمايتها وكانت الابراج ذات المزاغل تحمى الكنائس الاسقفية وكان بناء الاديار كالقلاع وتجد فى كتاب فرودوارد مايدل على ما كان لمطارنة رمس من الهمم والمجهودات فى تحصين ما حوالى مدينتهم التى هى كرسى المطرانية فقد اعاد ارتود الذى خلف فولكس وكان من مشاهيرهم بناء حصون موزون و كوسى و ايبرناى وجعل بها محافظين على الدوام كمدينة مزيبرس

وكانت هذه الامور كلها واقعة حين كان كرلوس لوسانبلى يحكم ولاية لاوندس ولا يراه غيرها من باقى اجزاء مملكته ولا يعرفه احد فى خارجها بل كان مجهولا بالكلية فكانت الاثنتا عشرة سنة التى هى اول سنى حكمه قاطعة لتتابع وقائع الفرنساوية السنوية وانفصالها بعضها بل كلام المؤلفين من هذه الملة قل أن يثبت وجوده فى هذه المدة على وجه القطع وكأن كتاب الوقائع السنوية من الاجانب لم يعتنوا بذكره ولا بذكر فرنسا الرومانية

وانما اخرجه من حيز الجهالة واودية النسيان ثلاث حوادث وهى اغارة جديدة وقعت من النورمان وفتح وراثة لورينة بموت لورالصبى وخروج العمال الذين خلعوه عن المملكة

دوقية نورمنديا سنة ٩١٢

ثم انه من حين فتوحهمة هستانغ الطواف بنصرات اودس و ريشارد ونقله نورمان فرنسا الى شواطئ انكلترة لم تكابد المملكة الا المشاجرات الداخلية لكن لما عاد رولون الى نهر السين وهدد باريس وارهب اهلها استغاث العمال حين حل بهم الخطر من اغاراته بكرلوس الذى هو كالخيال فلما حضر بين عماله ازدادت قواهم الحقيقية وقويت هممهم فكان مثله كمثل اصفار الاعداد التى لا مقدار لها ومع ذلك اذا وضعت بجانب اى عدد زادت مقداره وانتقل من منزلة الاحاد الى منزلة العشرات

ولا مانع أن دوق فرنسا الذى كان يريد انقاذ مدينته وهى باريس التى فى ذهن كرلوس مابعثه على أن يتفكر فى أن يعقد مع النورمان معاهدة كان فولكس قد منعه منها وهدده بالحرمان اذا هو لم يرجع عنها فتوسط الدوق المذكور بين هذا الملك الضعيف وذلك الصائل القوى المهول فوقعت بينهما سنة ٩١٢ المشارطة المسماة مشارطة سنت كلير سور ايبت وترتب عليها تنصر النورمان وصار بها رولون درجة عالية من اعلى درجات الملتزمين واذا كان هذا الملك اعنى كرلوس

الذى

الذى لم يفقد شيأ فى هذه المعاهدة حيث لم ينزل للنورتمان الاعن اقاليم وحقوق كانت قد خرجت عن تصرفه وملكه قد توهم أنه بتلك المعاهدة انقذ فرنسا من ايدى العدو وأنه لو تبصر اكثر من ذلك لامكن أن ينقذ سرير ملكه فذلك كاف فى تكذيب مالقبه به الملتزمون مدة حياته حيث كانوا يلقبونه بلقب احمق ومغفل ليكون ذلك لهم اسهل طريق فى اشتهاره بين الناس بالتجرد عن القوى العقلية ومحاسن الرجال والظاهر أن هذا الوصف الذميم الموجب للمعرة والفضيحة من باب الظلم وعدم الانصاف اذا تذكرنا ما اظهره كرلوس من النشاط اولا فى استرجاع املاكه التى تخص المنصب الملوكى وثانيا فى الاستيلاء على مملكة لورينة وحمايتها واما كونه بعد موت لويز الصبى لم يبحث عن اثبات حقوقه فى تاج جرمانيا من حيث نسبه فينبغى مدحه على ذلك حيث لم يسع فى تحصيل امر مستحيل اذ لم يكن فى وسعه الا أن يشغل احد التختين الخاليين فاخذ فى الاسباب حتى جلس عليه ولم يتفكر فى امر جرمانيا لانها اقل أن فكرت فيه وانما عزم على تملك لورينة لانه لما جرت عليها المقادير بانها لا تكون مملكة مستقلة وكانت بين مملكتين كل يريد انضمامها اليه ظهر منها الميل الى جهة فرنسا كما ان هذه المملكة كانت ترغب فى انضمامها اليها كل الرغبة

الكلام على لورينة

فسعى كرلوس من سنة ٨٩٨ فى الاستيلاء على لورينة وكان يحثه على ذلك رنيير قونتة هينوت وكان لم يزل لهذا القونتة احزاب كثيرة فى المملكة التى كان نفاه اليها زوانتيبولخ الا أن ابن ارنولف هذا دافع مع النجاح ملك فرانسا عن هذا التاج الذى ضاع منه عما قليل بقيام الرعية عليه بل جر ذلك الى حتفه وبعد موت لويز الرابع اثار رنيير ايضا طمع كرلوس وسهل عليه التغلب على المملكة التى لم ينازعه عليها كونراد الاول ملك جرمانيا حيث كان مجبورا على حماية كرسيه من هنرى لوازليور دوق سكس وكان قد خرج عن طاعته فلما تغلب عليها كرلوس خرج بذلك عن الدعة والبطالة التى كان عليها الى ذلك الوقت وعرف مقدار ذلك واهميته حتى اعتبره كانه تاريخ آخر لملكه ومع ذلك كان نفع هذا الفتوح بالنسبة اليه دون نفع عامله منه لانه عادله لقب دوق لورينة وورثه ابنه جيزلبيرت فى هذا اللقب بعد ذلك باربع سنوات ولتكبره وانفته لم يبايع كرلوس الا فى اليوم الذى قلده فيه بالدوقية بمدينة اكسيلاشبيلا (سنة ٩١٦) وكان له غيرة عظيمة ورغبة شديدة فى أن يجرى فى التزامه جميع المزايا الملوكية فادعى أن له الحق فى تقليد الاساقفة فلما لم يوافقه الملك على ذلك اظهر له العداوة والبغضاء وكان ذلك سببا فى ضياع تاجى كرلوس ولم يمكن لجيزلبيرت أن يحمل عمال لورينة على نقض مبايعتهم لكرلوس فقصد هنرى

دوق سكس وكان هذا الملتزم الشديد البأس قد ترقى يومئذ الى الجلوس على تخت جرمانيا بعد موت كونراد الاول

مصالحة بون سنة ٩٢١

ثم ان هنرى اخذ فى اسباب التغلب على لورينة (سنة ٩٢٠) حين كان كرلوس مشغولا بالمشاجرة مع عماله العاصين فى شأن تاجه الوراثى ولكن لم يصح أن ملك فرانسا نزل للملك الالمانى عن حقوقه فى تاج لورينة فى نظير ما كان يؤمله منه من المدد والاعانة وان قال بذلك المؤلف ديتمار وكاتب الوقائع السنوية السكسونى اذ لو كان هذا الامر صحيحا ثابتا فى المشارطة لما جهله المؤرخ فرودوارد بل ما حدث بعد ذلك من الوقائع يقضى ببطلانه حتى انه لا وجود له فى مصالحة بون وعلى فرض وجوده فيها فقد ابطله ما صدر من الخلاصات عن مجمع كوبلنتز الذى انعقد سنة ٩٢٢ باتفاق كل من كرلوس ملك لورينة و هنرى ملك جرمانيا

وكان هنرى قد توقع النكبة لكرلوس فى وقت كان لا يطمع فيه أن تلك النكبة تجر اليه نفعا وذلك أن كرلوس اغضب عماله فى مشورة اكسيلا شبيلا حيث لم يلتفت الى ما ابدوه له من الاحترام وعدم التقصير فى حقه وكان قد حضر تلك المشورة عمال جرمانيا بقصد الانضمام فيها الى كبار فرانسا ليتحفوا جيزلبرت بالترقية مع كمال الرونق والبهجة وكانت الحظوة يومئذ عند كرلوس لرجل خامل يقال له هجنون اوهاغانون فكان واثقا به فى جميع اموره ليكون له بالمملكة من يعترف له بالشوكة ولو واحدا فتعالى هذا الرجل الدخيل فى الدولة لزعمه انه يكون له مقام عظيم فى المملكة بمنع الناس عن الوصول الى الاعتاب الملوكية التى كانت اضحوكة وهزأ فاغتاظ من ذلك الملتزمون الذين بايديهم الشوكة الحقيقية ويقال ان دوق سكس وكان احسن من عرف مبلغ غيظهم بطريق الحدس والتخمين اخبر أن هجنون يؤول امره الى احد شيئين اما أن يشرك كرلوس فى الحكومة واما أن يتجرد معه عن المناصب فكانت حظوة هذا الوزير علة للعمال فى الخروج عن الطاعة

قيام العمال

وقد ظهر غيظهم حين دعاهم كرلوس الى التوجه لقتال المجار وكانوا قد شنوا الغارة على لورينة (سنة ٩١٩) فلم يحضر احد منهم تحت الاعلام الملوكية وانما حضر اليه هرونا مطران رمس بعساكره وكانوا الفا وخمسمائة وهو ايضا الذى اخذ كرلوس قهرا عن الاعيان حين اجتمعوا فى مدينة سواسون وكسروا بين يدى الملك عودا اشارة الى تخليهم عنه قاصدا بذلك انقاذه من بطش اعدائه الذين اشتد حقدهم عليه وآواه الى مدينة رمس حتى عقد بين الملك والعمال مصالحة قصيرة المدة (سنة ٩٢٠)

ولكن

واكن عما قليل حصل ما افسد صداقة هذا الجسور حيث كافأه الملك عليها باساءته والتحامل عليه بلا مقتض لتجرده عن منصب القنجلير ليقلد به مطران تريوة مؤملا بايثاره عليه كمال الارتباط بينه وبين اهل لورينة لانهم كانوا بمفردهم سندا لكرسي الدولة الكرلونجية

وفي الوقت الذي جرّد فيه كرلوس جيزلبيرت من اعانة ملك جرمانيا بمصالحة بون حين ظهر له انه قد حان وقت معاقبة هذا الملتزم اللئيم كان قد تسلطن العصيان على قلوب اغلب العمال الفرنساوية الذين كان يضر باستقلالهم انقياد لورينة لكرلوس واذعانها اليه (سنة ٩٢٢) فقد طردوه عن مدينة لاون اولاوون حين اضطر الى الرجوع على عقبه وتتبعه هوغس بن روبيرت الى نهر الموز وكان قد جمع تحت قيادته عمال هرويا وطائفة من عصاة القونتات وحضر حينئذ جيزلبيرت وانضم الى عصاة فرنسا وطمع برهة من الزمان في الجلوس على كرسي كرلوس ولكن الظاهر أن كراهة الفرنساوية للحكومة الاجنبية خيبت آماله فاراد حينئذ أن يسعى في تحصيل التاج لروبيرت دوق فرنسا ليشفي بذلك غليله بالانتقام من عدوه حيث تعذر عليه نيل مطامعه

وكان عمال لورينة يعينون كرلوس ويأخذون بناصره فعما قليل عاد الى ابرشية رمس التي ذاق اهلها مرارة الحرب وشدائده على خيانة اسقفهم ولاسيما قلعة ايبرناي التي هي اعظم قلاع هرويا فان هجنون اوهاغانون اصماها بسهام الانتقام الملوكي واحل بها اثقاله واذاقها وباله ونكاله وكان اهل تلك الابرشية قبل ذلك في امن واطمئنان لامنغص عندهم فترآى من ذلك أن النصرة ثبتت للملك الآن روبيرت اكسب عصبة العصاة اعانة صهره رودولف المسمى ايضا راوول اوراوول وكان قريب عهد بالخلافة عن ابيه ريشارد العادل (سنة ٩٢١) وعاد روبيرت الى الشاطئ الايمن من نهر المرن يقود البرغونيين فلما ضيق العصاة على الملك وحاصروه من مسافة قريبة نزل بعسكره تحت اسوار رمس وكان اهلها لم يزالوا ينغصون عليه بالاغارة والهجوم وكان روبيرت وقتئذ بالمرصاد على جيش عدوه يمنعه الحركة والحملة وكانت في هذا الوقت ايضا فرقة اخرى من الاعداء مشتغلة باخذ مدينة لاون عنوة ونهب خزائن هجنون وكان مما لابد منه لكرلوس أن يسترجع هذه المدينة المحصنة ليكون للملك فرنسا في مملكته ولو مدينة واحدة الآن اهلها غلقوا ابوابها في وجهه فكان هذا الجزي الذي لحقه آخر مرة حاملا لطائفة من اهل لورينة على تركه والتخلي عنه

وفى مدة ما كان الملك نازلا بمن بقى من جيشه على نهر سيرة كان دوق فرنسا قد اتى ونزل على نهر آلة واشرف على أن يجرد السيف على ملكه الا انه كان من قبل ذلك متيقنا أن هذه الخيانة ليست بلازمة لزوما ضرورياً وقد قال فرودوارد انه لما كانت قوى روبيرت تزداد كل يوم وقوى كرلوس تتناقص بحسب تلك الزيادة آل امر هذا الملك الى الهروب وفر معه هجنون وذهبا الى ماوراء نهر الموز فانتخب الفرنساوية روبيرت اميرا عليهم وقلده الاساقفة واعيان المملكة بالمنصب الملوكى فى كنيسة سنت ريمى انتهى ولما مضت ثلاثة ايام من توليته مات هرويا وكان له مدخلية فى تنصيب هذا الملك المفتات فافزع موته للذى كان يراه الناس عقابا من الله تعالى لهذا المطران خليفته سيوولف وداخله منه رعب شديد حتى انه فى مجمع عقد بعد ذلك بمدة يسيرة فرض على كل من حمل السلاح على الملك كرلوس ما يكفر به هذه السيئة ويطهره من تلك الجناية وكان نجاح عصاة النوستريين لا يتحقق دوامه مادامت لورينة ملجأ للملك ومعينة له على نكباته فلذا لزم دوقات فرنسا أن يمدوا السكسون بجميع قواهم ويعينوهم على دعواهم فى شأن هذه المملكة وأن يساعدوا جيزلبيرت على تنجيز غرضه الذى طالما اعلن به واشهره بين الناس وهو قطع ما بينه وبين فرنسا من العلائق والروابط الالتزامية ولم يأل روبيرت جهدا فى اجراء هذه السياسة وكذلك ولده هوغس من بعده فى مدة العصيان الطويلة التى استغرقت ايام حياته وقد عرف هوغس المذكور حين كان يتتبع الملك الهارب فيما وراء نهر الموز انه اذا اضرم نيران الشقاق الناشئ فى بلاد لورينة عن وضعها الجغرافى وعدم ثبات روابطها وتأكد علاقتها الالتزامية كان حصر امرائها فى قلاعهم اسهل شئ عليه وسعى فى ضم طائفة من العمال الى دوقهم الخارج عن الطاعة ونجح فى هذا السعى وبعد ذلك بمدة قليلة ذهب ابوه روبيرت لزيارة هنرى ملك جرمانيا وكان هذا الملك قد تقدم فى سيره حتى وصل الى شواطئ نهر بوير ووقعت المحالفة بينهما ولم يكن الغرض منها الا تتميم الاقتيات على تاجى كرلوس وتجريده عنهما بالكلية لان فائدة ذلك عائدة اليهما

وكانت غيبة روبيرت مشؤمة على رئيس تلك العصبة حيث كاد كرلوس أن يعود لرفعته الاولى بعد انحطاطه وذلك انه بادر بالعود الى سواحل نهر ايسنه ومعه فرقة من امناء اهل لورينة وحث السير بدون توقف الى دوق فرنسا وكان قد وصل الى لورينة منذ قليل فلم يتمكن من جمع احزابه لاجل المدافعة عن مدينة سواسون فوقعت بينه وبين كرلوس واقعة انبت بها الامر وكانت بين هذه المدينة وسراية أتنى

واقعة سواسون سنة ٩٢٢

وكان

وكان القونتة فولبيرت يحمل لواء كرلوس وكان روبيرت قد جعل لحيته البيضاء الطويلة المسترسلة على درعه علامة لاصحابه يعرفونه بها فينضمون اليه ولما عاين كرلوس عدوه صاح يافولبيرت احترس فسمع من الملك هذه العبارة التي صارت من يومئذ مثلا يضرب في فرانسا للمدافعة والحماية ووثب على روبيرت وضربه بالسيف فشج رأسه فعند ذلك اخذ جيش الملتزمين في الهزيمة لكن لما وصل اليهم الشاب هوغس يقود القائمين الخيالة عادت النصرة الى حزبه العصاة الا انهم بذلوا في تلك النصرة ثمنا غاليا حيث تركوا من رجالهم اثني عشر الفا مطروحين مع ملكهم في محل المعركة ولما صاروا لا قدرة لهم على تتبع الملك كرلوس والتنغيص عليه اقتصروا على اغتنام ما في المعسكر الملوكي من السلب فكان نجاحهم محصورا في ذلك وكان ضياع الاثقال والاسلاب التي غنموها من الملك المهزوم اسوء عليه من الهزيمة حيث كان ذلك باعثا لاهل لورينة على تركه والخروج من تحت اعلامه

ولما تخلى عن هذا الملك من كان معه على الامانة دائما اضطر الى سلوك طريق الخضوع والتضرع الذي لم يجد نفعا حيث لم يسمع منه ولم يقبل وحاشا أن يعود اليه هربيرت وسيوولف بل حملا بيعوتهما الجيش البرغوني على حث السير حتى وصل اليهما تحت قيادة دوقه وقد وعد رولون وكان آخر من حضر من كبار الملتزمين ختمه بعض اعانات فانيط راوول او راوول بمنع النورتمان وحجزهم على سواحل نهر وازة فكان ذلك مجبرا لكرلوس على أن يترك مملكته مرة ثانية واما عوده اليها بعد ذلك بقليل فلم يكن ليحكم فيها بل ليتجرع ما بقي له من نكبات الدهر وصروفه التي كانت تتبعه اينما توجه

ولما ابى هوغس الاكبر ان يقبل التاج الذي كان لم يزل ملوثا بدم ابيه انتخب راوول لهذا المنصب الملوكي والبسه التاج وتيبر مطران سنس في مدينة سواسون وكان سيوولف مطران سواسون لم يرض أن يباشر تتويجه بنفسه لما رآه في ذلك من الخطر وأن تنصيبه من باب التعدي والظلم فاذن أن تكون هذه الخدمة على يد غيره من المطارنة الذين ليسوا من كنيسة سواسون فبذلك كان تتويج الملك الجديد غير منتظم كانتخابه حيث لم يكن لاحد من كبار الملتزمين مدخلية في توليته الا اثنين دوق فرنسا و هربيرت قونتة ورمندواس فظهر من ذلك أن هذا الاقتيات غير مكين بل وانه خطر على من كان له فيه مدخلية لولا عجز الملك المستحق عن تطلب تاجه وكان لا يلزم لثبات الامر لراوول الا الغدر بكرلوس فارتكب هربيرت عار هذه

تملك راوول على فرنسا من سنة ٩٢٣ الى سنة ٩٣٦

الفعلة الذميمة وارسل برنارد الى لورينة وكان من اقاربه ليحمل كرلوس على العود الى مملكة فرنسا واقسم أنه يعيده الى سرير الملك فصدق الملك الهارب يمين هذا الخائن ووثق بمواعيده وثوقا تاما وسار حتى وصل الى مدينة سنت كنتين ثم ذهب به هربيرت الى قلعة تيودوريق (قلعة تييرى) وسجن فيها لكن لم يكن ذلك آخر سجنه وكانت الملكة اشد منه فى الاحتراس فجعلت وارث الدولة الكرلوبجية الذى لم يكن ثم وارث سواه (وهو لويز الرابع بن كرلوس) فى محل مامون وكانت هذه الملكة المسماة اوجيوة اخت أثلستان ملك الانكلسكسون وزيادة عن روابط القرابة ولحمة النسب كانت انكلتيرة بمفردها هى التى تحل ابن كرلوس لوسانبل محلا آمنا لا تهتك حرمته فان لورينة صارت غير مأمونة وكانت المانيا خطرة

وكان يظهر أنه لابد فى تمكين كرسى المفتات من امرين ضرورين وهما مبايعة رولون امير نورمنديا وانقياد اهل لورينة وكان رولون المذكور باقيا على الصداقة لكرلوس نعم وان كان هرمه يمنعه عن الاشتغال بنفسه الا انه كان يعوّل فى ذلك على شجاعة رينولد ذى الهمة والجسارة فى المشروعات وهو رئيس نورمان نهر لوار الذين انضموا الى ابناء وطنهم وهم نورمان نستريا ليشنوا الغارة على اراضى راءول واحزابه ولكن ضم هذا الملك قواه وجنوده الى قوى هوغس و هربيرت ودافعوا جميعا رينولد حتى اجلوه عن سواحل نهر وازة بل دخل راءول اقليم نورمنديا وطلب اجراء شروط الصلح الذى انعقد فى مدينة سنت كلير سورابيته حتى كأن هذه المشارطة لم تكن اوجبت على رولون حماية تخت كرلوس لوسانبل لكن لما كانت احوال لورينة قد اقتضت أن راءول يفارق هذه الاماكن عرض عماله الصلح على النورمان وكانت مصلحتهم فيه اعظم من مصلحته وكان لاقدرة له على معارضتهم فى ذلك واقسم هوغس انه يحافظ على الصلح ولا ينقضه بل اتفق مع هربيرت و سيوولف على انه ينزل لدوق نورمنديا عن مدينتى مفس و بيوكس ليتم امر النزاع والمقاتلات التى كانت قد اشرفت على العود ثانيا والظاهر أن رينولد لم يكن له ذكر فى هذه المشارطة فانه بعد ذلك بقليل خرب بلاد برغونيا ولم ينقذ راءول دوقيته من نورمان نهر لوار الاو نورمان نهر السين قد جندوا الجنود ثانيا وانتشروا فى ابرشية بوبس وابرشية اميانس وقد وجد الملك فى هذه المرة حليفا ذا شوكة قوية ادناه اليه ما كان يخشاه كل منهما من الخطر فكان ذلك سببا فى الوصلة بينهما وهو ارنول قونتة فلندرة وانضم هذا

القونتة الى هربيرت واخذ قلعة او عنوة وكان رولون قد اودع فيها من المحافظين طائفة عظيمة ولم يقع مثل هذا النجاح للملك ولا دوق فرنسا فى اقليم ارتواس وبعد أن حصلت واقعة جرح فيها رايول املى رولون ايضا شروط المصالحة ودفع الفرنساوية والبرغونيون الغرامة مرة ثانية للنورمان فى ايام هذا الملك

العطايا الملوكية

وما نزل عنه حينئذ دوق فرنسا من القونتيات على اسهل الوجوه كان قد اخذه من رايول فى نظير خيانته وقد كوفى بنظير ذلك امثاله ممن كان لهم دخل فى الاقتيات

فقد نال هربيرت وقتئذ مدينة پيرونة واما اقليم بيرى الذى كان رايول قد ضمه منذ قليل الى دوقيته برغونيا فرده الى غليوم قونتة أورنيا ودوق اكتينيا (سنة ٩٢٤) وكان قد علق مبايعته على ذلك مع انه لم يكن لبيعته ثمرة اصلا فان خليفته ألفريد كان يؤرخ اوامره من سنة خلع الفرنساوية لملكهم كرلوس ومع ذلك فقد لاحظت السعادة رايول برهة من الزمان حيث كانت له فى جنوب نهر لوار قدرة كافية على تجريد ابلس لوبتار اى النغل عن دوقية اكتينيا وعن قونتية أورنيا وقونتية ليموزين وانعم بها على ريموند بونس قونتة تولوزة (سنة ٩٣٢) فأتاه فى نظير ذلك موثقا على الامانة لم يكن يلزمه بمقتضاه شئ وتأسى به فى ذلك ارمنغود مركى غوطيا وقونتة من قونتات الغسقون يقال له ازنار فبايعا رايول وصارا من عماله وكانت هذه المواثيق التى تعوّد ملتزمو ماوراء نهر لوار على اعطائها لملوك فرنسا النسترية لا تلزمهم بشئ اصلا ولو كان من الواجبات العادية التى يلزم العمال القيام بها وانما كانت فائدتها لرايول هى أنه فى الاقاليم الجنوبية صار تاريخ الاوامر والخلاصات من توليته وهجرت الصيغة التى جرت بها العادة فى زمن الفترة وينبغى أن ننظم فى سلك هذه المبايعات مبايعة جيزلبيرت التى استقر عليها رأيه حين خشى أن يكون لملك جرمانيا السيادة عليه فعاد الى الدخول تحت سيادة ملك فرنسا ولكن كان ذلك فى الزمن الاخير

وقد دعا جم غفير من ملتزمى لورينة الملك رايول من سنة ٩٢٣ الى الحضور اليهم ليتملك على لورينة ويلبس تاجها وكان جيزلبيرت ومطران تريوة قد دعوا الى ذلك هنرى لواز يلور الا أن هذا الملك السكسونى اكتفى بالاغتنام من اقليم موزلة ولم يجسر على انتظار ملك فرنسا الذى كان مستعدا لقتاله

ولم يعد الى الشاطئ الشمالى من نهر الرين الابعد سنتين فاتى اليه بقوى عظيمة واعلن انه يريد احياء حقوق اسلافه الكرلونجية فى شأن مملكة لوتير وكان جيزلبيرت حديث عهد بمبايعة راوول فبلغه باثر ذلك أن السكسون تغلبوا على مدينة توليباق (المسماة ايضا زولبيخ) وأن هنرى حصل له نجاح عظيم فحمله ذلك على أن يؤتى هذا الملك ما كان قد اخذه عليه ملك فرنسا منذ قليل من العهود والمواثيق واخذ هنرى معه الى جرمانيا رهائن من اهل لورينة وقبل أن تكمل السنة اذعنت له مدينة وردون وغيرها من سائر مدن موزلة وبادر بارسال ابيرهارد دوق فرنكونيا الى لورينة ليثبت حقه فى السيادة عليها ولقبه بلقب وكيل ليقضى فى الدعاوى بطريق النيابة عنه وينهى امر المشاجرات التى تولدت بين الملتزمين بسبب عدم تحققهم من العلاقات والروابط السياسية (حيث كانوا لا يدرون هل هم تابعون لهنرى اوللملك فرنسا) وبالجملة فزوج هنرى بنته جيربرجة لعامله الجديد وهو (جيزلبيرت) ليكون على يقين من امانته وصدقه ومع تلك المواثيق والاحتراسات والمصاهرة لم يستقر لمملكة لورينة حال فان شوكة ملوك جرمانيا بها لم تكن محترمة اكثر من شوكة ملوك فرنسا حيث كانوا لا يعبأون بالحقوق الشخصية والعلاقات الخصوصية فقد اتفق أن قونتة باسينى وهو بوزون اخو راوول افتات على قرية من قرى الارياف كانت لدير غوررزة فجاءه شيخ من الرهبان يطلب رجوع هذا الالتزام فلم يمكن استرجاعها منه بطريق اللين والترجى فهدد بوزون باقامة دعواه على مقتضى الاصول الشرعية قائلا ان لم تردلى هذا الالتزام رفعت الدعوى فقال له لمن ترفعها قال للملك فقال لا ابالى بالملك واما الدوق جيزلبيرت فهو عندى كاقل عبيدى

ولما صار راوول لا يرجو شيأ من اهل لورينة ولا يخاف شيأ من النورمنديين جعل مطمح نظره الاقاليم الجنوبية لكن منعه من مداومة السعى فى تنجيز ما كان يقصده فى شأن تلك الاقاليم التى هى جزء من المملكة اغارات المجار التى كانت سببا فى لينه واجابته لرولون فى مطالبه الكثيرة لاسيما تخلى قونتة ورمندواس الذى ترتب عليه تعبه وعدم راحته فى سائر اوقاته

وذلك أن المذهب الالتزامى وان كان قد بلغ الغاية فى الافتيات والتعدى الا انه كان هناك بعض ايالات لم تزل غير متوارثة فان الملك كان لم يزل له التصرف فى ايالة لاون اولاون حتى مات عاملها وهو القونتة روجير سنة ٩٢٧ وكان من امناء العمال فانعم بها الملك على ابنه فجر ذلك الى وقوع العداوة بين الملك وهربيرت قونتة ورمندواس

لانه كان يسعى فى طلب هذه القونتية لابنه اودون وكان ما قصده بتلك الايالة من ازدياد التزامات عائلته دون ما قصده بها من حيثية اخرى وهو انه يصير بها مستوليا على اعظم حصن فى المملكة فسعى فى التغلب على مدينة لاون التى امتنع الملك من اعطائها له لحزمه وتبصره وصمم على اخذها بالسلاح عنوة فانضم الى خيبته فى الطلب ذل الهزيمة فى الحرب ومن يومئذ لم يبق للملك عنده ادنى رعاية واحترام بل اخذ فى اسباب خلعه عن ملكه بعد أن كان سببا فى توليته

موت كرلوس الثالث سنة ٩٢٩

وذلك انه خلى سبيل الملك المسجون (وهو كرلوس) ولم يجد مشقة فى حل النورمنديين على مبايعته سنة ٩٢٧ وكانوا باقين مع الملك على الامانة فاخذ كرلوس فى جمعية قلعة أو المواثيق والعهود على ابن رولون وهو غليوم الملقب بذى السيف الطويل وكان لهربيرت ولد مأسور عند النورمنديين فاطلقوه فى نظير مبايعة ابيه لكرلوس وبايعه ايضا الملتزمون والاساقفة الذين كان للقونتة هربيرت الكلمة عليهم وقد افتخر هذا القونتة عند البابا يوحنا العاشر بما ادعاه من الصداقة للملك المستحق ثم اراد أن يرغب هنرى ملك جرمانيا ويحمله على ان يكون له مدخلية فى منازعة كانت مصلحته فيها اعظم من مصلحة كرلوس فسار الى نهر الموز وكان هنالك هنرى مشغولا بقتال القونتة بوزون والظاهر أن هذا الملك الالمانى لم يقبل ما عرضه عليه هربيرت فى هذا المعنى حيث رجع لا يقصد شرا بل عزم على الصلح وقد وعد أن لا ينازعه احد فى مدينة لاون التى كان حديث عهد بالتغلب عليها (سنة ٩٢٩) فكان ذلك كافيا له فى العزم على استرضاء رانول بتخليه عن حزب كرلوس وقد اعاد رانول المفتات لكرلوس سراية أتينى ومع ذلك سجن فى بيرونة حتى قضى فيها ايامه السيئة واخترمته المنية بعد ذلك باشهر قلائل

فعند ذلك ذهب الملك (رانول) وعامله (هربيرت) اللذان تصالحا الى هوغس ملك ايطاليا بقصد زيارته وكان اذ ذاك قد توجه الى سواحل نهر الرون لاجل المفاوضة مع خصمه رودلف الثانى ملك الترنسيورانة فكانت نتيجة ذلك أن هوغس نزل لرودلف عن اقاليمه السيزلبينة (اى التى امام جبال الالب) وابقى لنفسه دوقية ارلس التى ورثها عن اسلافه وابقى ايضا مدينة ويانة كما يدل على ذلك انعامه بها على احد اولاد هربيرت وكان ابوه قد عزم على أن يعطيه قونتية لاون ولكن لم يثبت انعام هوغس بهذه المدينة فان قونتية ويانة لم تزل تحت حكم ابن الامبراطور لويز الثالث (وهو كرلوس قسطنطين) حيث جعلها تحت حماية

رابول وخليفته ليتمكن من حفظها ويكون آمنا عليها (سنة ٩٣١) فبذلك احي كرلوس رياسة ملوك الفرنساوية في جزء من مملكة برغونيا

ولما كانت واسطة الصلح ملايمة لحزم رابول وسياسته اراد أن يستعمل تلك الواسطة ليكون ذلك سببا في دوام الوفاق والالتئام بين هوغس دوق فرنسا وهربيرت قونتة ورمندواس وكان كل منهما يستميل اليه عما لا كانت حالتهم من حيث الالتزام غير متقررة ولا مضبوطة الى ذلك الوقت ولكن لم يكن ذلك العصر زمن اصلاح وتوفيق فان رابول عوضا عن كونه يوفق بين هذين الملتزمين الهائلين مال الى الدخول معهما في المشاجرة وكان منذمات كرلوس لوسانبل لا يخشى بأس هربيرت كثيرا بل كان خوفه من مشروعاته بعد موت كرلوس دون خوفه منها قبله فامكنه أن ينضم الى حزب صهره هوغس مع الامن والاطمئنان فوجد هذا الدوق زمنا رأى فيه الملك حليفا له حيث ذهب بنفسه لمحاصرة مدينة اراس وكذلك جيزلبيرت دوق لورينة الذى كان قريب عهد بالتغلب على مدينة دويه فبذلك صار الخصمان غير متكافئين فبذل هربيرت وسعه في اخراج جيزلبيرت من حزب رابول حتى نجح في ذلك مع السهولة وذلك لان جيزلبيرت رأى أن المهم اللازم له أن لا يدع هذا الملك الذى جمع بين منصبي التملك على فرنسا ودوقية برغونيا يخرب قونتية ورمندواس حتى تقوى شوكته وتثقل وطأته وبالجملة فقد خرج هربيرت مرة ثانية عن تبعية رابول ملك فرنسا ليدخل تحت تبعية هنرى ملك جرمانيا الا ان هذا الملك ظهر منه عدم الالتفات الى ذلك بل ادته حكمته ووفور عقله الى ايثار السعى في ايقاع الصلح بين الجانبين على انضمام هربيرت اليه ودخوله تحت تبعيته لما راى في ذلك من الشرف وعلو الهمة

واما رابول فضم جنوده الى جنود اخويه هوغس و بوزون وقمع اهل رمس واجبرهم على أن ينتخبوا ارتود ويولوه منصب المطرانية بدلا عن هوغس مطران ورمندواس الذى كان عمره اذ ذاك خمس سنين وكان ابوه هربيرت قد جعله مطرانا عليهم والزمهم بالاذعان اليه وعما قليل فتحت مدينة لاوون او لايون ومدينة سنت ميدارد ابوابهما لرابول وتغلب دوق فرانسا من جهة اخرى على مدينة اميانس و سنت كنتين و روى و بيرونة فاجتهد جيزلبيرت دوق لورينة في اعادتها لحليفه وادخالها تحت حكمه لكن لم يجد ذلك نفعا فلم يجد هربيرت المتكبر الذى كان يطمع في التاج الملوكى في هذه الشدة سبيلا الا أن يذهب الى داخل سكس ليستغيث بالملك هنرى فتفوض هذا الملك امر الصلح

بين

بين الجانبين الى جيزلبيرت (سنة ٩٣٤) وكان جيزلبيرت اشد الملتزمين سعيا بالفساد واثارة الفتن وكان اول ثمرات المهادنة انفصال راول عن الحزبين المتشاحنين معه الا انه ابقى لنفسه مدينة لاوون واسترجع مدينة شاتوتيرى ورد الى هربيرت مدينتى هام و پيرونة

الصلح العام سنة ٩٣٥

وكانت دعاوى كل من هوغس و هربيرت المتناقضة لاتساعد فى ايقاع الصلح بينهما على وجه سهل فلذا اقتضى الحال أن يتوسط ثلاثة ملوك بين دوقين كانت عداوتهما لبعضهما تنغص على نصف بلاد الغلية وتفضى بها الى اغارات الجبار المخربة وتتركها بلا مدافع يحميها ويذب عنها فاجتمع ملك فرنسا وملك جرمانيا وملك برغونيا وعقدوا مشورة تحالفوا فيها على الصلح فيما بينهم قبل أن يلزموا به غيرهم (سنة ٩٣٥) وتعاهد هربيرت و هوغس على انهما من الآن فصاعدا يكونان على احسن حالة من الالتئام والموافقة وصفح هنرى عن بوزون ورد له قونتية باسنى والالتزامات التى كان قد تجرد عنها بخيانته وطيشه وسعيه فى اثارة الفتن الا انه لم يتمتع بذلك مدة طويلة

وهذا الصلح الذى هو آخر اعمال الخير من الملوك الثلاثة لم يترتب عليه الا التنفس عن المساكين الذين كانوا قربانا للحروب والمقاتلات وكانت ثمرته ايضا عروض الهدء عدة ايام لهؤلاء الملوك الذين كانوا واسطة فى الصلح فانهم قبروا جميعا فى سنة واحدة

الكلام على لويز الرابع دوترميرمن سنة ٩٣٦ الى سنة ٩٥٤

ولما خلا سرير الملك بموت راول لم يتعرض للجلوس عليه احد من العمال اما لانه كان من الآن فصاعدا يؤذن باخطار ومضار اكثر من المنافع واما لكونهم تأسوا بدوقى نورمنديا و فرنسا فى عدم التطلع للمنصب الملوكى فكان لهم اسوة عظيمة فى التواضع وعدم الطمع فكان غليوم بن رولون لم يصل اذ ذاك الى درجة الاهالى المتاصلين بفرنسا بحيث يسوغ له طلب تاجها فلما لم يتأت له الجلوس على سرير الملك انف عن مبايعة احد من اقرانه وحملته انفته على حفظ ما اخذه الملك كرلوس لوسانبل على عائلته من العهود والمواثيق ومن ثم تلقى رسل آنلستان ملك انكلترة احسن ملتقى وكانوا قد بعثهم ملكهم لطلب الاعانة منه للويز ابن هذا الملك السيء البخت (اعنى كرلوس) واما هوغس دوق فرنسا فلم يتطلع الى هذا المنصب الذى نأى عنه قبل ذلك لاسيما وكان يعلم انه اذا تولى المملكة يلزمه اجزال العطاء من غير أن يكتسب شيأ بخلاف ما اذا اعاد الدولة التى انحطت عن درجتها بتولية لويز المذكور فانه يؤمل بذلك شكر تلك النعمة ومكافأته على هذا الصنيع فكان سلوك هوغس و غليوم فى هذا المعنى بمثابة قانون نسج على منواله غيرهما من الملتزمين

فلما خرج لويز الذى كان منفيا الى ماوراء البحر الى شاطئ بولونيا تلقاه كبار العمال وبادروا بمبايعتـه ليتفاءل من ذلك بطيب ايامه وحسنها الا انه كان ثم احوال اخرى دون ذلك فى ملايمة حاله آذنت بما يقع له فى المستقبل ولبس التاج بمدينة لاءون الملوكية فى اسفل البرج الذى كان يشغله الى ذلك الوقت جنود قونتة ورمندواس وكان لبسـه للتاج على يد المطران اردود فحظى منه فى نظير ذلك بقونتية رمس يتمتع فيها بجميع الحقوق الملوكية وجعلها له ولخلفائه من بعده ولا شك أن هذا الانعام انما كان بمحض ارادته واختياره وهل كذلك انعامه على دوق فرنسا فانه انعم على هوغس اولا بمنصب قونتية بواتيرس وان جبر هذا الدوق على أن يشرك معه فيها غليوم الملقب تيت دى توبه ومعناه رأس المشاقة وهو ابن ابلس النغل ثم آل الامر الى أن استقل بها غليوم المذكور وكانت دوقية برغونيا يتنازع فيها اخو رابول وصهره فطلبها هوغس لنفسه فاجابه الملك الى ذلك ايضا لضعف رأيه

وكان رابول حين تولى المملكة قد فوض ادارة هذا الالتزام الواسع الى جيزلبيرت قونتة ديجون وكان متزوجا باخته المسماة ارمنغردة فآثره بذلك على اخيه هوغس لونوار اى الاسود حيث لم ينل الا بعض التزامات من هـذا الاقليم فلما مات اخوه رابول تغلب على مدينة لنغرس ونازع جيزلبيرت فى منصب الدوقية فبينما هو كذلك اذ حضر الملك الجديد (اعنى لويز دوترمير) وحاصر هذه المدينة وكان معه متطلب ثالث لهذا المنصب (وهو هوغس الاكبر) ثم انعقدت بينهم مشارطة الصلح فى المدينة المذكورة وبها انقسمت برغونيا الى ثلاثة اقسام وتلقب كل من المتطلبين الثلاثة بلقب دوق (سنة ٩٣٧) وبعد ذلك بسنوات نزل لهوغس الاكبر كل من خصميه عن حصته فنال فى هذه المرة من لويز دوترمير توليته على برغونيا بتمامها وكان الحامل لجيزلبيرت على النزول عن حصته هو قوة رجائه فى أن برغونيا تصير ميراثا لاوتون بن هوغس الاكبر دوق فرنسا وكان اوتون عازما على التزوج ببنته وذهب جيزلبيرت قاصدا جبل يورا وكان لم يزل له بهذه الجهة دوقيـة فدخلت من يومئـذ فى قونتية برغونيا واما هوغس الاسود فلم يزل معـه جزء من برغونيا عـلى سواحـل نهر السون ملقبا بلقب مركى و ارشى قونتة

وكان لويز الرابع قد ازعج كبار البارونات من اهل مملكته بما سلكه مع هربيرت من الشدة والقساوة حيث اخذ بالقهر والغلبة قلعة كان بناها هذا العامل فى مدينة

لاوون

لاوون وكان قد اشتهر انه لا يمكن لاحد اخذها فترتب على ذلك تحزب عصبة هائلة على لويز فبينما هم كذلك اذ شغلتهم مشاجرة جرمانيا فوجه ابطال الفرنساوية هممهم نحو هذا الغرض

تغلب اوتون الاول على لورينة سنة ٩٣٩

وكان جيزلبيرت لطيشه واثارته للفتن قد حل ما كان بينه وبين اوتون الاول من الروابط الالتزامية وحمل ايبرهارد قونتة السراية على الخروج معه عن الطاعة واغرى على ذلك ايضا احد اخوة هذا الملك الالمانى ولما كان له دخل فى كل عصيان وقع وعد كبار عمال فرنسا النسترية بالاعانة والحماية الا أن نصرات اوتون على اعدائه الداخلية اوقعت فى قلبه الرعب والخوف وكان ذلك منه فى محله فعند ذلك اراد الدخول تحت طاعة لويز الرابع ملك فرنسا فلم يقبل منه المبايعة اولا حيث كان الغالب عليه نقضها وكان ذلك منه رغبة فى ابقاء عهود المحبة بينه وبين اوتون ملك جرمانيا (سنة ٩٣٩) ثم ألح عليه جيزلبيرت فالجأه الطمع الى اجابته لضعف رأيه لكنه لم يجسر على مقاتلة اوتون الذى استمر متغلبا على لورينة وكان تغلبه عليها بنصرته المسماة نصرة بريزاك التى قتل فيها ايبرهارد قونتة السراية بعد أن الجأ جيزلبيرت الى الهروب حتى غرق فى نهر الرين وهو يريد التخلص منه لانه كان مقتفيا اثره فاراد ملك فرنسا أن يسكن غضب اوتون ويضم اليه جميع عمال لورينة بتزوجه بارملة جيزلبيرت فلم يجد ذلك نفعا لان هذا الملك السكسونى اعنى اوتون لم يلتفت الى تلك المصاهرة التى انعقدت من غير أن يكون له فيها مدخلية بل آثر بمودته واعانته هوغس الاكبر دوق فرنسا على ملكها لويز الرابع لسبق مصاهرة هذا الدوق على مصاهرة الملك المذكور وكان كل من هوغس وهزبيرت يتنازعان ملكهما فى شأن كرسى اسقفية رمس فذهبا الى اوتون يعرضان عليه تاج فرنسا واتيا به الى سراية اتينى فبايعاه فيها واخذ عليهما العهود والمواثيق ولما كانت اعانة هوغس الاسود و غليوم قونتة بواتيرس للويز دوترمير ملك فرنسا هينة واهية اضطر الى الرجوع القهقرى نحو نهر السين وعدوه يتبعه وكان فى خلفه اى اوتون كونراد لوپاسفيك ملك بورانه وكان كونراد المذكور حديث عهد بتزوج احدى اخوات ملك فرنسا ومع ذلك فاعداء اوتون الذين تركهم فى بلاده لم يدعوه يتمتع بهذه المنافع ويجنى ثمرة تلك المغارس ولما كان لا يتطلب الادوقية لورينة عول فى حمايتها من الفرنساوية على حلفائه ونال منه لويز مهادنة بواسطة نزوله له عن حقوقه فى تلك الدوقية فاعطاها اوتون لاحد اخوته

وكان نزول لويز عن تلك الحقوق باعثاله على جمع قواه وتجهيز ما يلزم من الوسايط والادوات وتوجيهها الى اعدائه الاصليين وصارله باعانة غليوم قونتة بواتيرس شوكة قوية لم تكن لاسلافه منذ مدة طويلة ومع مابذله كل من هربيرت و هوغس من المجهودات بقيت بيده مدينة لاوون ولم تخرج عن حكمه ثم توجه الى بواتيرس ومن يومئذ انقطعت شركة هوغس لغليوم فيها ثم ذهب الى مدينة ويانة عند كرلوس قسطنطين وكان من امناء عماله وحضر اليه فيها كبار عمال اكتينا وبايعوه وانفصل غليوم دوق نورمنديا عن حزب العصاة واتى اليه اهل ابريطانيا وبايعوه ايضا فى مدينة روان وكان قد ذهب اليها الملك وتلقاه اهلها بموكب واحتفال عظيم على عادة الاحتفالات الملوكية وقصارى الامر أن قونتة فلندرة وقونتة ورمندواس ودوق فرنسا عرضوا ثانيا على اوتون ملك جرمانيا المبايعة والدخول تحت حمايته فلم يقبل ذلك منهم (سنة ٩٤٢) وسلك مسلك الحزم والعدالة حيث صالح العمال مع ملكهم الا أن موت غليوم دوق نورمنديا وهربيرت قونتة ورمندواس ترتب عليه حدوث روابط وعلاقات اخرى

وراثة ورمندواس سنة ٩٤٣

وذلك أن اولاد هربيرت الاربعة دافعوا الملك لويز الرابع ومجاوريهم عما تركه لهم والدهم من البلاد الموروثة له عن اسلافه والتى اكتسبها بنفسه ولولا أن مصلحة الالتزام العامة اقتضت اعانتهم حيث عارضوا هذا الملك بواسطة لا تمكن مقاومتها وهو هوغس دوق فرنسا واوتون دوق لورينة لامكن عدم نجاحهم وخيبة آمالهم فى هذه المقاتلة فتولى اكبرهم المسمى ألبيرت قونتية ورمندواس وعدل عن سنن ابيه الى البحث عما يوقع المحبة بينه وبين لويز الرابع فتزوج بنته واستمر على الامانة لنسل شرلمانيا حتى فى زمن ذهاب دولتهم وزوال حكومتهم واما اخوه روبيرت فوقع فى حصته قونتية نورواتس وكانت من فتوحات ابيه ولم تزل ذرية هربيرت فيها على علو مكانتهم وعظم شان عائلتهم الى سنة ١٠١٩ واما الثالث وهو اودس فقد اهمل فى امره حتى اخذ منه خدم الملك مدينة اميانس واما رابعهم وهو هوغس فسلك مسلك المعاندة فى الذب عما كان له من الحقوق فى كرسى اسقفية رمس وترتب على عناده فى حماية هذا المنصب الدينى ما ترتب على طمع ابيه قبله فى المناصب الدنيوية من وقوع الاضطراب والتفاقم فى المملكة

وراثة نورمنديا سنة ٩٣٤

واما وراثة دوق نورمنديا فنشأ عنها مشاجرات اشد من السابقة وذلك أن دوقها غليوم غدر به القونتة ارنول فقتله حين اجتمع به فى بكيني لكونه تصدى لحماية

قونتة

قونته وتتيو ولم يعقب ذرية من نكاح صحيح وانما كان له ولد طبيعي يسمى ريشارد
فطلب الاستيلاء بمفرده على فتوحات رولون وان لم يساعده على ذلك خبث اصله
وصغر سنه فبايعه على ذلك اغلب الملتزمين وعرض بعضهم البيعة على دوق فرنسا
وسعى آخرون فى استرضاء الملك ليحكم عليهم فبادر لوير بتقليد الشاب ريشارد
وكان له فى ذلك مآرب سرية واغراض خفية مباينة لما يقتضيه الصدق والاستقامة
فان من عرف سياسة هذا الملك حق المعرفة علم أن تلك المآرب هى أن يرد الى مملكته
بعض الاقاليم التى انفصلت عنها فيجبر بذلك خلل ضياع لورينة وانفصالها عنها
فانه لما لم يمكنه أن يتغلب على التزامات عائلة ورمندواس رأى أن الاسهل عليه
ربط النورمنديين به وجريان حكمه عليهم فانهم من وقت الصلح الذى انعقد سنة ٩١٢
لم يظهر منهم ما يدل على العداوة لعشيرته ومات غليوم ذو السيف الطويل وتركهم
بلا سائس يسوسهم بل ومن غير ملك يتولى امرهم تقريبا والذى حمل لوير على هذا
المقصد هو قونتة فلندره ليصرف عن نفسه انتقام النورمنديين حيث كان يعتقد
انه لا يمكنه التخلص منه الا بانقياد هذه الامة اواجلائها وكان لهوغس مدخلية
مع لوير فى فتح بلادها وحصلت منه اعانة عظيمة فى هذا الشان ثم ان هذا الفتوح
وان توقف تنجيزه على السلاح الا أن الرعايا رأوا ذلك مما لاحظر فيه وانه مما تقتضيه
القوانين الشرعية والاصول المرعية حيث شاع عن النورمنديين انهم عما قليل
يخرجون عن دين النصرانية ويرجعون الى عبادة الاوثان وينقضون عهود المشارطة
التى بنيت عليها حقوقهم فى تملك تلك البلاد وذلك ان احد اعيان ملتزميهم المسمى
تورمود اعلن على رؤس الاشهاد انه يريد رد الدوق الشاب (وهو ريشارد) والامة
النورمندية الى العبادة السكندناوية القديمة واستعان فى هذا الغرض بملك من ملوك
البحر يقال له ستريق ليظفر بمرامه وكان هذا الملك قريب عهد بالنزول على
سواحل نورمنديا

وكان كل شئ فى مبدأ الامر يساعد الملك على تنجيز اغراضه فانه بعد أن هزم تورمود
دخل مدينة روان بدون معارض وكان دوق فرنسا وقتئذ يتغلب
على أيوروكس التى اعطيت له هى وابرشية بيوكس وابرشية كوتانسة
فى نظير التئامه مع الملك وموافقته له على سياسته

ولما وقع ريشارد فى قبضة لوير بعثه الى مدينة لاوون قاصدا بذلك على
ما قيل تربيته تحت كفالة وليه الاصلى ولولا استعجال الملك بالذهاب لطلب مبايعات
اخرى لاطائل تحتها من امير الغوطية وكبار اكتينيا لكان من الجائز بقاء

دوقية ريشارد تحت حكمه لكن فى مدة غيبته تصالح هوغس مع النورمندية وطردوا المحافظين الذين جعلهم لويز فى مدينة روان تحت رياسة هرلو بن قونتة مونترولى ودس الدسائس لملك جرمانيا وكان هذا الملك حديث عهد بتقليد كونراد دوق فرنكونيا الذى صار صهره فيما بعد بدوقية لورينة وكان قد خلا كرسيها بموت الدوق آوتون وطلب هوغس من الملك المذكور أن يمنع عمال لورينة من حمل السلاح لاعانة ملك فرنسا فاجابه الى ذلك

ولم يكن امر هوغس متوقفا على مجرد اخراج نورمنديا من حكم لويز وعدم عودها اليه بل كان متوقفا ايضا على أن تبقى له الكلمة فيها والسلاطة عليها فمن ثم عزم على أن يزوج بنته للشاب ريشارد واما لويز فلم يحمله ذلك على ترك ماقصده فى شأن هذه الدوقية فاخذ قونتة فلندرة فى القتال ثانيا وتغلب على قلعة اركس ففتح للويز بذلك باب الاقليم من جهة الشمال (سنة ٩٤٤) وقد استمال بعض ملتزمى النورمندية الملك لويز حتى احضره الى مدينة روان خداعا منه ومكرا لتطمئن نفس الملك ويعول على ما اظهره له من الامانة الكاذبة وانما كان قصده فى الواقع أن يوقع القتال بينه وبين هوغس حيث رغبه فى العدول عما وعده به هذا العامل المتكبر فعند ذلك امر لويز الدوق هوغس أن يتخلى عن فتح بيوكس وتغلب هو عليها وتملكها لنفسه وصنع معه ايضا ماأورث هذا الدوق الخزى والفضيحة مرة اخرى حيث طلب من مدينة ايوروكس رهائن مع انها كانت قد اذعنت لهوغس وانقادت اليه هذا ويلزم ان لويز كان على يقين من بلوغ مرامه والظفر بمقصوده حتى تكون تلك الافعال الناشئة عن العتو والكبر من باب التبصر والحزم مع أن نجاحه فى ذلك كان اقل الاشياء تحققا وابعدها حصولا فان برنارد احد قونتات سنليس خيب مساعيه وافسد عليه ما كان دبره

وذلك أن هذا القونتة كان عما لريشارد فاعانه على الهروب وسهله عليه وبذل مؤدبه اوسموند همته فى ذلك بما ابداه من الحيل الخطرة التى لا تصدر الا عن ارباب الجسارة حتى اختطفه وفر به ولم يكتف عمه بذلك بل مازال يوقع الفساد والتلف فى الاراضى الملوكية ولما بلغ الملك ماوقع فى مونتنى وكبيينية من الحريق حضر اليها من نورمنديا وتمم نكبة هذا الملك رجل آخر يقال له برنارد ايضا وكان من الدانيمرقة الذين كانوا منذ استوطن النورمندرية بفرنسا يأتون الى نوستريا طائفة بعد اخرى ليأخذوا لهم بنصيب من ثمرات الفتوح وكان ايضا من نواب الدوقية وكان له الفضل على ريشارد بن غليوم فى حفظ الدوقية التى ورثها عن ابيه

اسر الملك سنة ٩٤٥

ولما كان برنارد هذا يعلم أن النورمندية لايجدون فى فرنسا الا الاعداء دعا ابناء وطنه من اهل الشمال وكانوا حديثى عهد بالنزول فى شربورع من اقليم كوتنتين وكان يقودهم ملك الدانيمرقة المسمى هارولد ذو السن الاسود فامل لويز أن هذا المتبر ير يسمع منه كلاما فى شأن الصلح لكن خاب امله ولم يجد سعيه نفعا وانما رضى هارولد أن يجتمع معه على نهر ديوة ومع ذلك كان يعلم أن احد اسلافه قتل فى جمعية هرسبيك الملوكية بغدر ملك من ملوك الدولة الكرلونجية فرأى انه لا اثم عليه فى الاخذ بالثار وكاد لويز أن يقاسم قوتنائه التسعة عشر فيما اصابهم من الشقاء وسوء الحظ حيث ذبحهم هؤلاء الصائلون وكان يظن أنه يجد ملجأ فى مدينة روان لكن قبض عليه اهلها واسروه

فعند ذلك اظهر هوغس الاكبر أن له مصلحة جسيمة فى فك لويز وتخلية سبيله فطلب منه النورمندية ولدا من اولاد الملك ليكون عندهم رهينة يستوثقون بها فاجابهم هوغس الى ذلك وسلم لهم فى احد اولاد لويز ونال منهم أن يسلموا له الملك وجعلوه بين يديه فظن الملك انه خرج من الاسر مع انه لم يتغير عليه الا السجن فقط فان هوغس جعله تحت حراسة عامله قونتة بلواس وشرترة المسمى تيبوت والملقب تريكانور اى الغاش وكان جديرا بهذا اللقب الذميم

تخلية سبيله

ثم ان زوجة هذا الملك الاسير استغاثت بالشوكة الملوكية والعظمة السلطانية التى كان لايعترف بها الملك فرنسا فوجهت آمالها نحو ايدموند ملك انكلترة فاجدى سعيها ولم يخب املها حيث جاءت رسل هذا الملك الى الدوق هوغس يطلبون منه تخلية سبيل لويز وفكه من الاسر وابى اوتون ملك جرمانيا أن يقبل هذا الدوق لوقاحته وقلة ادبه حيث تجاسر على اساءة زوج اخته فداخله عند ذلك الرعب والخوف وجمع كبار المملكة واخبرهم بتخلية سبيل الملك لكنه قبل أن يفكه من الاسر شرط على زوجته الملكة جربرجة أن تتنزل له عن مدينة لاوون وكانت بمفردها احصن مدن الملك بحيث كان يصح للويز أن يعتقد انه اذا تحصن بها يأمن على نفسه أن تناله يد العدو فرد له كبار المملكة لقب ملك على هذا الشرط وجدد له البيعة ريشارد الاول بسبب المشارطة الثانية المسماة مشارطة سنت كلير سوزابيته التى صار بها ريشارد المذكور حاكما مطلق التصرف على نورمنديا ولم توجب عليه هذه المشارطة سوى عهد المبايعة والامانة بدون ثمرة زائدة على ذلك

دخول اوتون الاكبر فى فرنسا سنة ٩٤٦

وكان لايمكن استمرار هذه المصالحة زمنا طويلا لما أن المصاهرة التى كانت بين دوقى فرنسا ونورمنديا كانت مخوفة على كل من قونتة فلندرة والملك لويز

وزيادة على ذلك لم يكن اطلاق لويز من الاسر كافيا فى ارضاء خاطر اوتون وكان ارنول قد عرض عليه من طرف الملك الاسير أن لويز ينزل له عما تدعيه فرنسا من الحقوق فى شأن لورينة اذا هو انضم اليه لاجل شن الغارة على هوغس وفتح بلاد نورمنديا وكانت جربرجة اخته تكلمه ايضا فى هذا الشان بلسان القرابة ولحمة النسب فلذلك لم يسرح اوتون الجنود العديدة التى كان جمعها فى كبريه بقصد الانتقام ممن اساءه واضر بشرف عائلته وملكه وجاوز الثغر باثنتين وثلاثين فرقة من العساكر وقدم عليه ملك الغلية السيزلبينة وانضم الى هذا الجيش السكسونى (وكانوا يطلقون هذا الاسم على كونراد) وذهب لويز لمقابلة هذين الملكين اللذين اتيا لانقاذه وسار الملوك الثلاثة حتى وصلوا امام مدينة لاوون لكنهم لم يجسروا على الهجوم على قلعة هربيرت فذهبوا الى مدينة رمس وكان حظهم بها اوفر حيث طردوا منها الاسقف الدخيل (وهو هوغس الاسقف) واعادوا اليها ارتود وكرسوه ثانيا (والتكريس معلوم عندهم)

ثم اغار هؤلاء الملوك المتعاهدون على التزامات هوغس الاكبر غير أن مقاومة مدينة سنليس التى كانت فى النجاح كمقاومة مدينة لاوون حملتهم على ترك ما كانوا اعزموا عليه من التغلب على المدن واقتصروا فى نجاحهم على تخريب دوقيتى فرنسا و نورمنديا وغلق هوغس على نفسه ابواب باريس ولم يحاصره فيها احد وانيط ابن اخى اوتون بتخريب بلاد نورمنديا وايقاع الرعب فى مدينة روان فاراد الزيادة عما امر به فهلك حين هجم على هذه المدينة فحضر اليها بعده ملك فرنسا وملك جرمانيا فتبين لهما أن تلك المدينة يتعذر اخذها وترك ارنول معسكرهما حذرا من الخيانة التى توهمها وبتخليه لم يجد المتعاهدون بدا من الانصراف وحملهم على ذلك ايضا عدم اعتدال الفصل فنغص عليهم النورمندية حين انصرافهم حتى خسروا خسارة كبيرة

وبعد رجوعهم خسر لويز خسارات اخرى وذلك انه وان نجح فى حماية مدينة رمس من هوغس الاكبر و هوغس الاسقف لكنه لم يستطع أن يتغلب على حصن موزون الذى كان تابعا لهذه المطرانية اعنى مطرانية رمس (سنة ٩٤٧) وظن دوق فرنسا انه قد حان له اوان الانتقام من ارنول قونتة فلندرة لكن لم يمكنه أن يدخل فى اراضيه فعلى ذلك جميع ما اعده اوتون الاول من التجهيزات العظيمة والعصبة التى كان رئيسها وعليه مدارها كلاهما لم يغير شيأ من احوال المتحاربين سوى انتقال كرسى مطرانية رمس من متطلب الى متطلب آخر

ما اعادته الكنيسة لفرنسا من الصلح سنة ٩٤٨

هذا والواقع أن هذه المشاجرة كان لها اهمية عظيمة يبعد على اهل عصرنا الالمام بها والوقوف على حقيقتها فان مصالح ارباب السياسة كانت مرتبطة بها وكان اربابها بمكان من الاعجاب بانفسهم بحيث يستنكفون أن يحكم بينهم احد من البشر ويذعنوا لحكمه فقد ذهب ملك فرنسا ثانيا الى اوتون الاكبر فى مدينة اكسيلا شبيلا وفى سواحل شيير ليتوسل به فى قطع هذه المشاجرة فلم يترتب على ذلك ثمرة سوى كون اوتون توسط فيها بما كانت عاقبته المهادنة التى تعلق بها الحرب الى انعقاد الجمعية القسيسية التى كانت قريبة الحصول واما المشاجرة فى شأن كرسى مطرانية رمس فانحطت فيها آراؤهم على أن ارتود تبقى معه قاعدة المطرانية وهى مدينة رمس وأن مدينة موزون تبقى تحت يد خصمه حتى تقضى الكنيسة بما تراه

وقبل أن تنعقد الجمعية القسيسية العامة فى مدينة انجلهيم (سنة ٩٤٨) انعقد مجمعان اقليميان فى مدينتى وبردون و موزون وكان صدر الجمعية العامة مارين اسقف اوستيا وكان نائبا عن البابا اغابيت وكانوا يرون أن الغرض من تلك الجمعية انما هو اعادة الصلح ببلاد المغرب وحضر فيها لويز ملك فرنسا بجانب اوتون ملك جرمانيا واذن له أن يبث شكواه الى نواب الكنيسة العمومية فاندفع لويز يتكلم بكلام لا يلايم مقامه بين فيه سوء حاله وتشكى لهم وقلبه يتألم وابدأ ما لديه من التظلم فذكر أن اميرا من امرائه يقال له هوغس كان سابقا من رعيته ثم استطال عليه فجرده عن الشوكة الملوكية واعقب ذلك بقوله انى لم افعل ما استوجب به هذه القبائح الكثيرة والاساءة الفاحشة فانا طالب براءة نفسى من ذلك بالقتال الشرعى وارجو من الجمعية أن تقضى فى هذه الدعوى بما تراه

فعند ذلك سلكت الجمعية مع هوغس الاكبر مسلك التهديد والارهاب ونظرت فى ذلك بعين الانصاف حيث رأت أن هذا الامير ساع بالفساد * مخل بالصلح العام بين العباد * جائر على مملكة لويز ولها سالب * معتد على حقوقه وغاصب * لكنها خصت باحكامها ما وقع من الخلل فى شأن التقليد والعزل القسيسيين فسلكت مع هوغس الاسقف مسلك القسوة والتشديد وحكمت عليه بالاجرام والذنب فى بيعه الدين بالدنيا وبالكذب والتزوير فيما اظهره فى مجمع موزون من الكتاب الذى افتراه على البابا اغابيت يذكر فيه أن ذلك البابا اقره على منصب مطرانية رمس وأنه مستحق له بموجب الاصول والقوانين نخلع عن هذا الكرسى وحكم عليه بتكفير هذا الذنب على رؤس الاشهاد وتجرع كاس الهوان والمذلة بنصرة خصمه عليه

رجوع العصاة الى الطاعة سنة ٩٥٠

وكانت احكام جمعية انجلهيم لابد فى تنجيزها من مساعدة ارباب السياسة فلذا امر

اوتون صهره كونراد دوق لورينة أن يتوجه لاعانة ملك فرنسا وجمع اساقفة لورينة اتباعهم ليخرجوا هذا الحبر المقتات (يعنى هوغس الاسقف) من مطرانية رمس فطردوه من حصن موزون ثم ساروا الى الملك لويز والدوق كونراد وانضموا اليهما وشاركوهما فى اخذ مدينة لاوون ثم انصرفوا حيث وفوا بما امروا به وكان الغرض وقتئذ توجيه الحرب والقتال نحو هوغس دوق فرنسا الا انه كان لا يليق بالاساقفة قتال عدو من النصارى لم يزل على دين الكنيسة ولم ينفصل عن جماعتها ومع ان كونراد كان جل غرضه بالاتيان من بلاده انما هو السعى فى ايقاع الصلح دون المساعدة اطمأن لحضوره حزب لويز واورثهم ذلك قوة القلب وثبات الجنان ولم يمكن لهوغس مع ما بذله من المجهودات التى كان يعضدها جيش النورمندية أن يتغلب على مدينة سواسون ولا على مدينة روبى سورايسنه وانما صار يحرق البلاد ويخربها فى نظير ما لحقه من الخسارات فكان ذلك مستندا صحيحا للاساقفة فى الحكم عليه بالحرمان حيث عقدوا جمعية قسيسية فى مدينة تروة كانت اشد جسارة من جمعية انجلهيم فانهم امروا قسيس اوتون الاكبر أن يعلن فيها على روس الاشهاد بحرمان هذا العاصى ومع ذلك مهدوا له طريقا للتوبة والندم وعزلوا اسقف اميانس واسقف سنليس لبطلان توليتهما حيث كان هوغس قلدهما منصب الاسقفية على خلاف ما تقتضيه اصول الكنيسة وقوانينها واكتفوا بلوم قونتة ورمندواس على ما وقع منه من الحدش فى حقوق بعض الاحبار الدنيوية

فلما رأى دوق فرنسا أن الكنيسة واوتون ملك جرمانيا قد ضيقا عليه كل التضييق والزماه بالصلح وجبر ما وقع منه من الخلل لان اوتون كان يريد حصول السلم والهدء فى فرنسا قبل أن يشرع فى فتح ايطاليا استقر رأيه على ما الزمته به هاتان الشوكتان القويتان فرضى بالحضور بين يدى الملك بعد أن تكفل له كل من كونراد وهوغس الاسود أن لويز لا يغدر به ولا يضمر له خيانة واجتمع بالملك سنة ٩٥٠ على نهر المرن واخذ لويز العهود والمواثيق على هذا العامل الجسور الذى طالما اساءه اساءة فاحشة واستطال عليه بالوقاحة والتبجح كما هى عبارة اسطفان يسكيير وكان ذلك آخر مرة من مبايعته

وقد شوهد أن لويز بمجرد ما تنفست عنه كربته وخفت نكبته بادر بالخروج من نستريا ليطوف الاقاليم الجنوبية قاصدا بذلك التباعد عن الاماكن التى دهمته فيها المصائب او أن هذه النزهة المصحوبة بالابهة والاحتفال اورثته حالة لطيفة وجد لذتها فى نفسه وهى

اغتراره بما تراأى له فى هذا الموكب من القدرة والشوكة فكان يتسلى بذلك على ما وقع له من النكبات التى استغرقت ايامه وكان يظهر منه انبساط النفس وانشراح الصدر باخذ عهود المبايعة ولا يشوش ذهنه بالتفكر فى نقضها او بالاشفاق من ذلك وكانت تلك العهود لا تلزم العمال بشئ ولا يشق عليهم امرها فى شئ لانهم كانوا على غاية البعد من الملك بحيث كانوا لا يخافون شره ولا يرجون خيره هذا ولا مانع أن بيعة كل من امير ويانة و لبتالد قونتة بيزنسون التى وقعت منهما من غير مبالاة بالملك كونراد لوپاسفيك وكذلك تقليد الامين قونتة پواتييرس بولاية اكتينا و أوورنيا بعد موت ريموند قونتة تولوزة (سنة ٩٥١) هو ما تسلى به الملك فى آخر ايامه حيث مات على غروره بمثل تلك الامور معتقدا أن المنصب الملوكى لم يزل على ابهته ورونقه فى جنوب فرنسا

ومامعنى هذا المنصب الذى كان لا ينتقل من الاب لابنه الا بكثرة البذل والاحتراس فان لوتير الذى هو بكرى لويز الرابع لم يحظ بالانتخاب والتتويج الا بعد أن استعانت امه على ذلك بالهرم الخارج عن الطاعة (وهو هوغس الاكبر) الذى كان قبل ذلك قد أجلس على سرير الملك ملكين فادركه السرور فى هذه المرة ايضا مستخفا بذلك ومحتقرا له حيث اغضى عن التاج ورضى باعطائه للوارث الحقيقى مع تمكنه من اخذه لنفسه ويحتمل أن ما كان بينه وبين الملكة جربرجة ام لوتير من روابط المصاهرة كان سببا فى ركونه الى ابن اخت زوجته هدويجة ولا مانع أن نقول مع عدم الخدش فى سيرة هوغس انه انما رضى بهذا الملك الذى كان عمره وقتئذ ثلاث عشرة سنة لكون هذا السن الدال على القصور يسهل معه الافتيات والجور

وايضا ما كان لجرمانيا من نفوذ الكلمة ساعد فى استطالة حكومة الكرلوفجية وذلك أن المطران برونون ادخل فى حزبهم طائفة كبيرة من الاساقفة والملتزمين وكان اذ ذاك حديث عهد بالولاية على لورينة من طرف اخيه اوتون الاول ملقبا باللقب الجديد وهو الارشدوق فلبس لوتير التاج فى مدينة رمس والذى تولى تتويجه هو ارتود اداء لما يجب عليه فى حق هذه الدولة التى اضرت بنفسها فى حماية حزبه مع الثبات وكمال المروة

وكان لهذا الملك الجديد اخ يقال له كرلوس لم يرث من ملك ابيه شيأ وعد حرمانه من ذلك من الحوادث التاريخية الجديرة بتخليد الذكر لكونه على خلاف اصول المملكة ولم يسبق مثل هذا التعدى على حقوق غير البكرى من الاولاد فى الدولتين (اى المروفجية والكرلوفجية) وهل هذه المزية التى اختص بها البكرى من الاولاد

الكلام على لوتير من سنة ٩٥٤ الى سنة ٩٨٦

عدم تقسيم المملكة

وصارت من يومئذ جارية فى الميراث الملوكى مأخوذة من قانون الالتزامات اونشأت عن قصور كرلوس اوعن كون فرنسا ارادت أن تتأسى فى هذه الفرصة بجرمانيا حيث جمعت مابقى بعد الافتيات من آثار الشوكة الملوكية فى يد واحدة لتكون المملكة ايضا واحدة ولا مانع أن هذه الاسباب كلها ساعدت على ابتداع هذه البدعة التى صارت من يومئذ هى القاعدة الاصلية من قواعد المملكة وثم سبب اخر جعلها متعينة لامحيص عنها وهو كون تخت فرنسا صار ضيقا جدا بحيث لايسع ملكين يجلسان عليه معا

وكان كلما تغير ملك من ملوك فرنسا اكتسب دوقاتها اقليما من اقاليمها فمن ثم كانت شوكة قونتات باريس (وهم الدوقات المذكورون) آخذة فى الزيادة دائما وبازديادها كانوا يزدادون فى نفوذ الكلمة فكانوا فى الواقع بمنزلة رؤساء السراية عند ملوك الدولة الكرلونجية حيث كان هؤلاء الملوك يشترون طاعتهم لهم بالالقاب والولايات معتقدين أن ذلك لايضيع منهم شيأ اذ كانوا يعطونهم ماخرج عن ملكهم فمن ذلك أن هوغس الاكبر نال من لويز الرابع دوقية برغونيا مكافأة له على مبادرته بالمبايعة ولما حضر مجلس تتويج لوتير بمدينة رمس طلب فى نظير حضوره تجريد ملتزم آخر لم يحضر هذا المجلس عن التزامه (وهو غليوم الاول ابن ابلس) فاجيب الى ذلك وقلد بدوقية اكتينا ورضى هذا الملك الصغير ان يقاتل لاجله غليوم المذكور وكان هذا الدوق قد تولى على هذا الالتزام الكبير من طرف ابيه لويز الرابع مكافأة له على صنيعه معه وكان قد عرف قبل ذلك كيف يدافع دوق فرنسا (اى هوغس الاكبر) عن بواتيرس التى ورثها عن ابيه فلما قويت شوكته باستيلائه على اقليمين كبيرين امل النجاح فى قتال هذا الخصم ثم لما توجه الجيش الملوكى الى مدينة بواتيرس وحصل منها المقاومة وصدت عساكر لوتير عن ابوابها اقبل غليوم من داخل اكتينا قاصدا انقاذ بلاده من هذا الخطر وكان قدومه قد صادف محلا حيث اتى فى الوقت المناسب لتنجيز هذا الغرض فحمل على عساكر بوستريا فولوا الادبار أمامه (سنة ٩٥٨) وان صح ماقيل انه انهزم فى هذه الوقعة صح ان يقال ان الهزيمة هنا اعظم من النصرة حيث ترتب عليها بقاؤه على ولاية اكتينا مع الامن والاطمئنان وتوارثها ذريته من بعده

واما لوتير فقد فاز بفائدتين وهما رجوعه منصورا من سواحل نهر لوار وخيبته فى مشروع كان لايشك فى انه يجهل عاقبته وقد استبشر بهذه النصرة واستدل بها على حسن ايامه ولم يعد منها نفع على حليفه المهول (يعنى هوغس) نعم وان تلاشى من الاقاليم

الجنوبية ما كان للملوك فرنسا عليها من الحكم الصوري الذي كان اشبه شيء بالخيال وزال منها من هذا الوقت الى أن مضى قرنان الا أن ضياع اكتينا منهم كان اوفق بهم واولى من أن تقع فى يد عامل كان على غاية القرب من سرير الملك وفى وسعه الجلوس عليه (هو هوغس الاكبر) وكان ايضا من سعد ملك فرنسا ووفور حظه أن هوغس المذكور مات بعد ذلك بسنة وانقضت ايامه التى كانت مشحونة بالتنغيص والتعكير

وهذه الاحوال وغيرها ان لم تكن اورثت لوتير اقتدارا على اعادة تاج الملك الى ما كان عليه من العظم وعلوّ الشان فلا اقل من انها اكسبته الرجاء فى ذلك فانه وان لم يكن فى وسعه تحبيز هذا الغرض المحمود الا أنه حاز الفخر والشرف بكونه نشل الملك والملة مما كانا فيه من اوحال الابتذال ورفعهما من حضيض الاحتقار الى اوج الاعتبار برهة من الزمان بل اذا قطعت النظر عما وقع فى السنين الاول من حكمه من التنغيص والتكدير الذى تعذر عليه منعه لقصوره وقتئذ رايته قد فعل ما هو اعظم من ذلك حيث اوقع الهدء والسلم فى داخل فرنسا بكونه صرف همم الملتزمين نحو غرض يخص حب الوطن ولطف مع اللين والرفق حالة طائفتهم الجديدة التى كانت كلما انتظمت احوالها مالت بالطبع الى الانتظام العام

ولما مات هوغس الاكبر وقع الالتئام والاتحاد بين الاختين الارملتين وهما ارملة ملك فرنسا وارملة دوق فرنسا (يعنى بهما لويز وهوغس) وبذلك صارت مصالح المملكة بيد هاتين المراتين الاجنبيتين مدة قصور لوتير وابن خالته هدويجة وهو هوغس كابيت الذى وقع فى نصيبه قونتية باريس وكذلك دوقية فرانسا لانها كانت منذ مدة طويلة لازمة لتلك القونتية لا تنفك عنها وهو وان كان ثانى اولاد هوغس الاكبر الا أن ما حازه فيما بعد من فخر الرياسة وعلوّ المقدار بهذا الالتزام العظيم جعله كما فى التاريخ جديرا بحق البكر من الاولاد الذى هو استحقاق اخيه اوتون وصار اوتون المذكور دوقا وقونتة على برغونيا نظرا لكونه جمع بين البنوّة لهوغس والمصاهرة لجيزلبرت اللذين ماتا فى سنة واحدة وكان ثالث اولاد هوغس المسمى هنرى صغيرا جدا فلم ينل شيأ من ميراث ابيه لان ذلك كان محتاجا للمدافعة بالسلاح ولكن عما قليل انتقلت له دوقية برغونيا بموت اخيه اوتون سنة ٩٦٥ والظاهر أن اوتون لم يستول على دوقية برغونيا باثر موت ابيه وذلك أن الملك لوتير اوامه جربرجة جعل محافظين فى عدة حصون من حصون برغونيا

موت هوغس الاكبر سنة ٩٥٦

كان من جملتها حصن ديجون فتغلب على هذا الحصن روبيرت دوورمنداوس قونتة ترواس مستندا فى ذلك على ما كان لزوجته وبرها ثانية اولاد جيزلبيرت من الحق فى ديجون فعند ذلك استعانت جربرجة بارشدوق لورينة فاعان لوتير على استرجاع ديجون وصالحه مع اولاد هوغس الاكبر (سنة ٩٦٠) فتولى حينئذ اوتون على دوقية برغونيا ونزل لصهره روبيرت عن قونتية شالون سورسون اى التى على نهر السون وتقلد ايضا فى هذا الوقت هوغس كابيت منصب الدوقية ووعد بقونتية بواتييرس لكن لم ينجزله هذا الوعد

قمع لوتير للنوسترية وادخالهم تحت الطاعة

ثم ان لوتير جعل ايضا لنفسه مدخلية فى المشاجرات التى اوجبت التفاقم والشقاق بين كبار عمال نوستريا قاصدا بذلك صرفها الى ما فيه نفعه ومصلحته فتصدى لحماية ارنود من تيبوت الغاش وهربيرت وكان احدهما قد تغلب على حصن قوسى والآخر تغلب على قرية ايبرناى وكانا تابعين لكنيسة رمس (سنة ٩٥٨ ثم استرجع اودالريق خليفة ارنود (سنة ٩٦٤) جميع التزامات كرسيه (يعنى رمس) وبعد ذلك قصد لوتير قتال تيبوت (هكذا فى الاصل ولعل الصواب ريشارد بدليل ما بعده) لما كان بينه وبين ريشارد دوق نورمنديا من الشقاق والعداوة وذلك أن تيبوت التى فى ذهن لوتير ما حمله على أن يقصد امرا ذميما فى حق ريشارد وهو القبض عليه بالخيانة نعم وان كان ريشارد فقد اولا مدينة ايوروكس الا أنه انتصر فى وقعة ايرمندرويلة وانتقم من خصمه تيبوت قونتة شرترة بتخريب اراضيه تخريبا شنيعا لكنه خشى باس اللورينين حيث كان لوتير لا يدهمه خطب الادعاهم ثم حمله ذلك على أن يستعين مرة اخرى بهارولد الدانيرقى فاوقع اصحابه وهم النورمان السكندناوية التخريب فى البلاد حتى خيف من ذلك عود مصائب القرن السالف فعند ذلك جعل الاساقفة دعاءهم باللعن والحرمان واسطة فى اعادة الصلح والهدء بين اقوام بسوا حل نهرى السين واورة (سنة ٩٦٣) وبرد ايوروكس الى ريشارد سكن غضبه وانصرف عن تلك الديار انصاره الخطرون وكان ارنول الاول قونتة فلندرة الذى تغلب من (سنة ٩٤٨) على مدينة إمونترول قد تغلب ايضا على حصن اميانس وسلبه من روجير بن هلدوين قونتة مونترويل وبونتيو لكن فى مدة قصور ابنه ارنول الصغير الذى تولى بعده تغلب غليوم الاول ابن روجير وخليفته على مونترويل وكان لوتير ملك فرانسا يعينه على ذلك بنفسه (سنة ٩٦٥

حين

حين كان هذا الملك بصدد التغلب على ديرى سنت امند وسنت واست الحصينين وعلى حصن دويه ثم سار حتى وصل الى سواحل نهر ليس وقد سهل على غليوم قونتة بونتيو بسبب قصور ارنول الصغير ضم اراضى بولونيا وجوينة وسنت بولس الى التزاماته الوراثية واقر الملك على تملكها فلم يجدا هل فلندرة بدا من دعاء الدانيرقة لاعانتهم

جمعية كاونيا الملوكية سنة ٩٦٦

ثم ان لوتير بسبب ما حازه فى هذا الحرب من النجاح والظفر حضر يرفل فى ثياب الفخار والسودد فى جمعية القرابة الملوكية التى عقدها فى كاونيا ايمبراطور المغرب الجديد وهو اوتون الاكبر وذلك ان هذا الايمبراطور حضر الى ديوان اخيه برونون مع امه وزوجته المسماة ادلايد برغونيا فوجد هنالك اختيه ملكة فرانسا ودوقة فرنسا وكانتا قدمتا ليدخلا اولادهما تحت حماية هذا الرجل العظيم الذى رفع تخت شرلمانيا بعد انحطاطه (يعنى اوتون) واحيى بقوة شوكته وروابط قرابته الاحقاب السالفة التى كان فيها الملك جرمانيا نوع سيادة على جميع ملوك اقاليم الايمبراطورية الكرلونجية ولاريب انه فى تلك الجمعية وقع الاتفاق على تزويج لوتير بالاميرة ايما بنت الايمبراطورة ادلايد ولوتير الثانى ملك ايطاليا فقربت هذه المصاهرة ما بين العشائر الثلاث الملوكية وادنتها الى بعضها وهى عشائر فرنسا والمانيا وبرغونيا ولم تكن المصاهرة المذكورة سببا فيما كان بين تلك العشائر من الالفة والالتئام بل كانت ثمرة مترتبة على ذلك ولم تزل على هذه الالفة حتى مات اوتون الاكبر ومما لاشك فيه ان تلك الالفة وان لم تقع بين ملك فرانسا وزوجته هى منشأ سكوت التاريخ عن الكلام على السنوات السبع التى كان بدؤها نهاية تاريخ فردوارد وهى المدة التى استمرت فيها فرانسا النوسترية ولورينة على ما كانتا عليه منذ زمن طويل من الخمول وعدم الظهور وكذلك بلاد الغلية الجنوبية فانها مكثت ايضا فى الخمول مدة طويلة

ما يتعلق ببلاد لورينة

وبموت اوتون الاكبر سنة ٩٧٣ خلت اوربا عن المدبر وما اعقبه من الخلل والتغير كان مادة جديدة للتاريخ فى مصائب البشر فقد ترتب على ادارة اخيه برونون ما كان اصلا للشقاق الذى نشأ عنه دعاوى فرنسا فى شأن مملكة لورينة وذلك ان هذا النائب (يعنى برونون) لما قسم بلاد لورينة الى دوقيتين كبيرتين سنة ٩٥٩ ضاعت بذلك قونتية مونس من صاحبها ابن اخى جيزلبيرت وهو رنيير الثالث دوهينوت الذى كان له الحق فى ان يتطلب حكومة لوتير اعنى لورينة السفلى لانه اظهر لملك فرنسا كمال المودة والارتباط مع انه ليس من عماله وكان له ولدان

تغربا عن بلادهما ونزلا بديوان لوتير فبينما هما كذلك اذ حصلت فتن وتعكيرات عقب موت اوتون الاول اودعت الشقاق والاختلاف فى جرمانيا فرأيا فى ذلك مايسوغ لهما أن يتطلبا قوتية مونس و يظهرادعواهمافى شأنها فباعانة كرلوس دوفرانسا واوتون دوورمنداوس امكنهما الاستيلاء عليها وان عارض فى ذلك الدوق غودفروا الثانى حيث خاب سعيه فى منعهما وكان اوتون الثانى وقتئذ مشغولا بعصيان دوق باويرة وخروجه عن طاعته و بتهديد البوهيمية اياه فاهمل فى اقاليمه البلجيكية ورأى انه يطمئن عليها و يتحقق من امنها اذا هو قلد كرلوس المذكور بدوقية لورينة السفلى تحت تبعية تاج جرمانيا وكانت هذه الدوقية قد خلت عن الحاكم بموت دوقها غودفروا (سنة ٩٧٧) وزيادة على ذلك امل اوتون المذكور أن تقليد هذا الامير الفرنساوى بالدوقية المذكورة ينسى لوتير ما لعشيرته من الحقوق القديمة و يمنع وقوع الحرب بين الدولتين ولما كان كرلوس لا يمكنه أن يجد لنفسه منصبا بين ملتزمى بلاده وكان مغتاظا من خبث طوية الملكة ايما وسوء سريرتها وفرط تكبرها فى حقه قبل هذه الرتبة الملايمة لنسبه مع الفرح و المسرة ورضى بمعاناة امر مجهول العاقبة وهو حماية لورينة من اخيه الملك لوتير فصار بتخليه عن حزب الملك والرعية مبغوضا عند عشيرته وعند الملة وتعلل بذلك اعداؤه ووصفوه بانه عامل اجنبى واميرنزل عن حقه فعاد شؤم ذلك على نسله

دخول لوتير فى اكسيلا شيبلا سنة ٩٧٨

وهذه النعمة التى اخرجت كرلوس من حيز التجرد عن المناصب لم تعجب اخاه لوتير ولم يكن لها موقع عنده فاصر على ما كان يضمره من المقاصد فى شأن لورينة بل كان هذا التقليد الذى لم يستشر فيه باعثا له على الصلح بينه و بين الايمبراطور اوتون الثانى ملك جرمانيا ونقض ذلك دفعة واحدة ولا يدرى كيف امكنه التجهيز والاستعداد مع امع السرعة بحيث لم يصل خبر ذلك الى اوتون فقد كاد الفرنساوية يهجمون عليه فى مدينة اكسيلاشيبلا (سنة ٩٧٨) لانه كان معتمدا على ما بينه و بين لوتير من الصلح الذى لم يكن مغيا بالدعاء الى الحرب فذهب ملك فرانسا وجلس فى الوليمة التى كانت معدة لملك جرمانيا وتحولت صورة النسر الايمبراطورى الموضوعة على سراية شرلمانيا عن جهة المشرق الى جهة فرانسا

ذهاب اوتون الثانى آمام مدينة باريس سنة ٩٧٩

فاغتاظت الملة الالمانية من هذا السلوك الغير المستقيم الصادر من لوتير واجاب عمال الدوقيات الاربع داعى اوتون الى الحرب لما كان بينهم و بينه من الامانة والصداقة ودخل ديار فرانسا جيش يبلغ ستين الفا يقودهم الايمبراطور واخذ

فى السير

فى السير الى مدينة باريس بدون مانع يصده حتى اتى تل مونتمارتره وانشد عليه قصيدة النصرة وكانت فرانسا الى ذلك الوقت تجهل هوغس كابيت فعرّفها نفسه حينئذ بحمايته لتلك المدينة واشتهر لديها امره بعد الخمول فقتل ابن اخى اوتون وكان قد اقسم أن يغرز رمحه على باب من ابواب المدينة فهلك قبل أن يتم هذه الفعلة الخطرة ولم يجسر الالمانيون على محاصرة المدينة حصارا منتظما محكما بل عادوا قاصدين ديارهم ولوتير يتبعهم هو وهوغس دوفرنسا وهنرى دوبرغونيا فلم يجتازوا نهر ايسنه الا وهلكت فيه ابطالهم وشجعان عساكرهم وبالجملة فكان شرف كل من الملكين له خطر عظيم وموقع عند صاحبه بحيث كان يفضى بهما الى واقعة غريبة لولا أن بعض قونتات لورينة منع وقوعها وسلك فى ذلك مسلك الامانة والاستقامة حيث لام الفرنساوية على ازدراء ملكهم واعلن قائلا امامن جهتى فلا ابرح اقاسم الملك فيما ينزل به من الاخطار

ثم ان هذا الحرب الاول الذى هو كناية عن غارتين خشنيتين خاليتين عن الترتيب والانتظام لم يترتب عليه ثمرة معتبرة فان المتحاربين بقيا على ما كانا عليه ولم تتغير احوالهما فى شئ وانما انعقدت مشارطة فى مدينة رمس عقب اجتماع الملكين تضمنت أن لوتير يتخلى عن مملكة بلجيكة بالكلية واشتملت ايضا على اقرار كرلوس دوفرنسا على دوقية برابنت قال بعض قدماء المؤلفين ان هذا التخلى تحسرت منه قلوب امراء الفرنساوية وتاثروا منه كثيرا مع انه فى الواقع لم يكن الا عن ترك الامل فى تلك المملكة والطمع فيها ولكن كان هذا الامل يعجب الملة ويسرها وكان لوتير يعلم من نفسه انه عما قليل ينسى ما اخذ عليه من العهود فى تلك المشارطة

ترك لورينة سنة ٩٨٠

وقدمات اوتون الثانى بعد تتويجه بمدينة رومة بمدة قليلة وكان لبسه للتاج عقب مشارطة رمس وورثه فى علو المكانة والعظم ولده المسمى اوتون الثالث وكان عمره اذ ذاك ثلاث سنوات فلحقه من النكبات والمصائب ما يلحق عادة من لم يبلغ اشده ممن يتولى الملك فى الحكومات الانتخابية فكان قصوره باعثا للوتير على أن يعود للدعاوى التى كان قد تركها واسف على تركها

وهنا امور مبهمة يصعب توضيحها وذلك أن احوال لورينة كانت مختلطة بدسائس الديوان ودعاوى الملتزمين ومصالح القسوس وبما كانوا قد اخذوا فى اسبابه من تغيير الدولة الحاكمة ولم يتعرض احد من المؤرخين لذكر الوقائع والحوادث المهمة ولا يمكن الخروج من ظلمات هذا الابهام والاجمال * الايجاز بل الالغاز والاشكال * بارتكاب الاطناب فى الايضاح * وسلوك طرق البيان والافصاح * فقد كتب العالم جربرت

وكان امينا على دسائس الدولتين المتخاصمتين ومحافظا على كتمانها بالكلية ما معناه انا نعيش فى ازمان خطرة لا يباح للانسان فيها أن يفصح عما فى ضميره انتهى واذا وقفت على تاريخ هذا العصر وجدت منه تبصر الخائف المحترس بل وتشم منه روائح النفاق من هذا العالم الذى انتظم بعد ذلك فى سلك الاحبار ومع ذلك كان يفتخر بأنه لم يترك عند الشدة صاحبا قط ولما كانت وظيفته الترجمة عن لسان رؤساء الحزبين كان يكتب فى شأنهما مكاتيب يعرف منها بطريق الحدس والتخمين كبار رؤساء هاتين العصبتين

الدسائس السياسية

ثم ان حزب الملك وان لم يكن الغرض من تسميته بذلك كبير مدحة كان لا يطمع الا فى الاستيلاء على لورينة اذ بذلك تجتمع اليه الملة وتنضم اليه فلاجل أن يدرك لوتير هذا الغرض أظهر أنه يريد اعانة ملك جرمانيا الصغير (وهو اوتون الثالث) على ابن عمه هنرى لو كرليور اى الشرير وكان يريد أن يأخذ نيابة المملكة من جدة هذا الملك وامه وهما ادلايد البرغونية وتيوفانيا اليونانية وكان للوتير فى هذه المملكة بعض احبار انضموا الى حزبه علانية كاسقف كمبريه اواعانوه سرا كمطران تريوه والظاهر انه عند النظر الى حالة مدينة وردون نجد الاهالى فى عدة مدن كانوا يتمنون الحكومة الفرنساوية ويرغبون فيها كل الرغبة واما الحزب الآخر فكان لا ينفك سرا عن الطمع فى الاقنيات والتعدى فنزل للدولة الجرمانية عن بلاد بلجيكه ليسهل عليه بذلك الوصول الى مرامه وكانت الرياسة عليه لهوغس كابيت الذى اكتسب الحظوة عند اوتون الثانى لما تبعه الى رومة ليجلس فى محفل تتويجه فصار له من وقتئذ نفوذ كلمة واعتبار عظيم حتى ان جربيرت صاحب الحزم لم يخش أن يكتب سنة ٩٨٥ ما معناه ان لوتير ملك فرنسا بالاسم فقط واما هوغس فهو ملكها بالفعل لا بالاسم واما كرلوس دوق فرنسا الذى كان خبث طويته يوازى غباوته وحمقه فجعل لنفسه الرياسة اولا على الحزب المعادى للوتير وسعى فى دمار عشيرته معتقدا بلوغ مطامعه بذلك ولكن آل امره الى الرجوع عن هذا الرأى فنقض عهد ملك جرمانيا سرا واظهر أنه معه على الامانة والصداقة ومع ذلك لم يزل على ما كان عليه من عدم الميل الى جماعته (اعنى الحزب الفرنساوى) ولم يحافظ على بقاء شرف عشيرته حيث سعى فى الخوض فى عرضها والقدح فيها بقذف الامير لويز بن لوتير حيث قال فيه انه متخلق من زنا الاسقف دالبرون بالملكة وهناك حبر آخر يقال له ادلبرون ايضا كان له مدخلية عظيمة فى العصبة ولما كان مطرانا على رمس واخا لهنرى قونتة اردينة وجود يفروا

قونته وردون كان له نفوذ كلمة وشوكة قوية ببلاد لورينة التي هي مسقط
راسه وكان يستعمل قوته بتلك البلاد فيما يعود بالنفع على الدولة الاوتونية التي
مكث يخدمها مع النصح والامانة واستمر على ذلك وقد بذل الهمة في البحث عما يكسبه
المحبة والحظوة عند هوغس كابيت عملا بنصيحة جربيرت وكان بينه وبين مشاور
ملك فرانسا مراسلات ومكاتبات يقف بها على اسرار حزب الملك ومقاصدهم
وكان في تلك المشاور بوظيفة القنجليير وكان يعينه على ذلك كل الاعانة ديتيريق
المسمى ايضا تيبرى وهو اسقف متز وكان هذا الاسقف قد حاول خلع لوتير
عن الملك ليجعل محله كرلوس فلما لم يمكنه ذلك جعل هذا المقصد الحسن لطماع آخر
اقل حيرة من كرلوس واكثر منه نجابة ومهارة (وهو هوغس كابيت) وبالجملة
فلم يكن لعشيرة سكس الايمپراطورية محام اشد حمية من جربيرت فقد كان يفتخر
بانه ارهف ماضي ألسنة الفصحاء حتى اتوا في مدحها بالعجب العجاب * وأغرقوا اعداءها
في لجج الهوان والاكتئاب

غزو لورينة سنة ٩٨٤

وفي اثناء هذه التعصبات السرية اخذ لوتير في اسباب الاستيلاء على لورينة في مدة
قصور اوتون الثالث وكان يظهر مما كان اذ ذاك في الايمپراطورية من التفاقم والشقاق
أن لورينة صارت لا مدافع لها ولا نصير ومع ذلك اظهر انه يريد اخذها ليمكن منها ابن
خالته اوتون الصغير ولكن عما قليل انكشفت حقيقة قصده وذلك أنه لما استولى على
وردون امر بوضع حرس متين سنة ٩٨٤ على محامي هذه المدينة المحصنة وهو القونتة
جوديفروا الذي كان من اعظم احزاب الدولة الجرمانية واشدهم غيرة واقواهم حمية
وهناك احوال نجهلها منعت لوتير وابنه أن يجتمعا في مدينة بريزاخ مع دوق باويرة
حسبما وقع عليه الاتفاق بينهم ونزل الجيش الفرنساوي بلورينة السفلى وتغلب
على مدينة ليجه حين انضمت مدينة كمبريه الى حزب لوتير بسبب تخلي
اسقفها روتارد ومع هذا النجاح لم يتم امر الفتوح وذلك أن كلا من المطران
ادلبرون وهو في كنيسته التي في مدينة رمس والقونتة جوديفروا وهو
في السجن سعى في تخييب مقاصد ملك فرانسا اكثر من غيره من سائر احزاب
اوتون حيث منع الاول اغلب اساقفة لورينة وجملة من العمال أن ينضموا الى حزب
دوق باويرة حتى لا يكونوا مع لوتير غير أن هذا المطران لما جعل احد
اولاد اخي جوديفروا اسقفا على وردون مع منع لوتير من ذلك جر الى نفسه
بهذا الصنيع ما حكمت به عليه جمعية من الفرنساوية من العقوبة الشديدة التي يحكم
بها على من ارتكب ذنب الخيانة واما الثاني وهو جوديفروا فبعث الى زوجته

ماتلده كتابا اوصاها فيه أن تدافع عن المدائن المحصنة ولو بلغ معها الكرب منتهاه (سنة ٩٨٥) وأن لا تقبل من الفرنساوية فى شأن الصلح صرفا ولا عدلا وأن لا تنظر الى ملوك هذه الملة الا بعين البغضاء والعداوة و بعث ايضا الى جربرت يحمله على أن يكتب لسجيفروا ابن عم جوديفروا أن ينضم الى هوغس كابيت وكان سجيفروا المذكور مثل جربرت فى الشوكة ونفوذ الكلمة بلورينة ووصل الى جميع اقارب جوديفروا واصحابه رسالات من هذا القبيل كتبها اليهم جربرت ايضا وبادر باخبار الاعبراطورة تيوفانيا بذلك وكان جل غرضه من هذا الاخبار أن يبين لها أنه مهتم بخدمتها كل الاهتمام حيث بالغ لها فى الخطر فكان قصده لذلك اقوى من قصده طمانينتها على حالة بلاد لورينة

هذا ولم نقف فى التاريخ على ما يفيد الاسباب التى حملت لوتير على طلب الصلح او الرضا به بل الظاهر أن الصلح الذى كانت اعادة مدينة وردون رهينة عليه لم يقع امضاؤه فان الاسرى اللورينية الذين اسرهم لوتير لم يمن عليهم بالحرية فى مدة هذا الملك وان لم يكن خليفته اصابته اسلحة ملك جرمانيا فلا اقل من كونه هدده وارهبه نعم وان لم تنعقد بين الحزبين مشارطة صريحة الا أنه لا يمكن انكار ماوقع بين ملك فرانسا ونائبة ملك جرمانيا (سنة ٩٨٥) من المهادنة التى عادت بالنفع على لوتير حيث امكنه بها طواف بلاد اكتينا وتزويج ابنه لويز الذى اشركه معه فى التاج ببنت بعض ملتزمى تلك البلاد وهذه الاميرة نعلم أن اسمها بلانش ولكن لا ندرى ما اسم ابيها ولا صفته ووظيفته وان قيل فى شأنه ما قيل وذلك لان زواج ملوك فرنسا فى ذلك العصر لم يكن عظيم شئ بحيث يرغب فيه و يبحث عنه

لويز الخامس سنة ٩٨٦

ولما انتقل الى لويز الخامس بموت ابيه لوتير الذى بادرته المنية التزام لاوونيه و بعض حصون مع لقب الملك المباين لمسكنته كتبت الملكة ايما الى امها الاعبراطورة ادلايد ان الامراء الفرنساوية اعنى عمال نستريا بايعوها وابنها وآتوهما العهود والمواثيق على الانقياد والطاعة وكانت تهنى نفسها حيث اخذت بنصيب من المنصب الملوكى ولكنها عما قليل زالت عنها المسرة وأطلعت امها على امر سرى اودى بها الى شدة التأثر والتألم وهو أن ابنها هجرها وقاطعها معولا فى ذلك على ما شاع على الالسنة من قذفها والخوض فى عرضها واخذ ذلك قضية مسلمة وكان ادلبرون اسقف لاوون قد اقسم على براءته من هذه التهمة ولكن الظاهر أن لويز ترك الملكة امه وهذا الاسقف لينتقم منهما عمه كرلوس الذى جردهما عن الحرية ولم يعبأ بمراجعة الاعبراطورتين له فى ذلك وعزم لويز ايضا على أن يعقد جمعية ملية

لتفصل

لتفصل دعوى مطران رمس وتحكم عليه بما يحكم به على الخائنين الا أن الموت منعه من هذا الانتقام وعاقه عن بلوغ المرام

انتهاء الدولة الكرلونجية سنة ٩٨٧

ولم تزل التواريخ تلقب لويز الخامس بلقب فنيان اى كسلان مع أن مدة هذا الامير كانت قصيرة جدا بحيث لا يمكن الحكم عليه بأنه يستحق هذا اللقب الذميم الموجب للمعرة والفضيحة نعم لم يقع فى ايامه كلها الا حادثتان على انهما لم يحصل تميمهما وذلك انه وقعت المفاوضة فى ارسال جيش لاعانة مدينة برسلونة وكان العرب قد اخذوها ثانيا ولكن القونتة بوريل عرف كيف يسترجع هذه المدينة التى هى قاعدة حكومته بدون أن ينتظر هذا المدد المتعذر وصوله اليه فان التفكر فى ذلك لم يكن الا مجرد غرور ناشئ عن الديانة اوحب الوطن وعلى فرض أن لويز كان له جيش تحت تصرفه كان يلزمه ابقاؤه عنده ليدافع به عدوا كان اشد خطرا عليه من المسلمين وذلك أن جربرت كان قد دعته ثيوفانيا الى سكس لتنيطه بادارة دروس اوتون الثالث وملاحظة تعليمه فكتب أن تلميذه هذا لم يزل مترددا بين أن يذهب بجيشه الى ايطاليا اوفرنسا ليقمع لويز ويؤدبه وقال ان عاقبة هذا الامر ستدلنا عن قريب على حقيقة لويز وعلى ما نراه فى شأنه وكأنه اشار بذلك الى تقلبات قريبة الوقوع فانه بعد اشهر قليلة مات لويز مسموما وجلس على سرير فرنسا دولة جديدة

وقد شاع على ألسنة الناس بفرنسا أن هوغس كابيت لما اعاد آثار القديس ولرى الى دير سنتوله اتاه فى المنام وقال له انك تلى الملك انت وذريتك الى سابع جيل يعنى الى الابد وشاع ايضا بين الامة حين بلغهم موت آخر الدولة الكرلونجية أن لويز حين حضرته الوفاة ولم يكن له ذرية ترث الملك بعده عين هوغس كابيت دوق فرنسا للخلافة على المملكة واشار على الملكة بلانش أن تتزوج هذا الدوق وصار الناس يلهجون بذلك وقوى هذه الاشاعة تحير عمه كرلوس وتردده فى امر الخلافة ومع أن اول امر اهتم به كرلوس المذكور هو التغلب على مدينة لاوون الملوكية لم يجسر على تولى المملكة بل غلق على نفسه ابواب هذه المدينة وانتظر كما نقل عنه انحطاط رأى العامة على تقليده بالحكومة ويؤخذ من ذلك أنه كان معترفا بأن هذا المنصب الذى صار متوارثا بتعاقب الملوك على توارثه بينهم امدا طويلا لم يزل انتخابيا كما كان على عهد اسلافه فكان فى ذلك لغيره فسحة فى أن يصرف هذا الاصل الذى هو من اصول مملكة الفرنج (وهو كون المنصب المذكور انتخابيا) الى منفعة نفسه وذلك أن هوغس لما كان كاسلافه يبغض الدولة الكرلونجية اراد أن يستأصل

عشيرة شرلمانيا ويقتلعها من المملكة الفرنساوية فقلده عماله واصحابه بالمنصب الملوكى فى مدينة نيون وألبسه تاج الملك المطران ادلبرون فى مدينة رمس واما كرلوس فلم يرجع عما كان يراه فى هذا المعنى الابعد فوات الوقت وقد طلب من الحبر ادلبرون أن يسامحه مما وقع منه فى حقه من الاساءة والمسبة فاجابه بانه ليس له فى قلبه كراهة ولا حقد ولكن ليس عنده نصيحة يبديها اليه

وقد اضطربت آراء من عاين تلك الحوادث من كتاب الوقائع السنوية فمنهم من كان يلهج بما وقع فى عصره من الحوادث ويقول فى شأن هوغس ان هذا العاصى افتات على سرير الملك غير مكترث بمنع الكنيسة وتحريمها لذلك بل جلس عليه بمحض الظلم والغدر ومنهم من قال فى شأن كرلوس ان الدوق كرلوس اراد أن يتولى على المملكة بدلا عن لويز لكن لم ينجح فى ذلك لان الحكمة الالهية قد قيضت من هو احسن منه واليق

ونسج الخلف على هذا المنوال فاختلفوا كالسلف لعدم وقوفهم فى هذا المعنى على ما يفيد القطع

فهكذا كانت غاية اقتيات الطائفة الالتزامية حيث وصلوا باقتياتهم الى هذه الدرجة التى لا درجة فوقها وقد سبق لك أن هذه الشوكة المهولة حدثت فى المملكة وصارت تتزايد وتعظم حتى اتسعت دائرتها وتشعبت فى سائر اجزاء المملكة ثم اخذت من وقتئذ فى التناقص والاضمحلال وكان منشأ ذلك بلوغها الغاية فى هذا النجاح الذى كان اشد خطرا من غيره (فهو كما قيل

*اذا تم شئ بدا نقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم*

وذلك أن رئيس هذه الطائفة صار عدوها فادى ذلك الى وقوع الحرب المبيد بين الشوكة الملوكية التى بنيت ثانيا على قاعدة جديدة وعصابة كبار الملتزمين التى حرمت من رئيسها وصار هو خصمها فى القتال

بيان الالتزامات الكبيرة

وحيث انتهى بنا الكلام الى الحد الذى يفصل بين الدولتين (اى دولة الكرلونجية ودولة الكابيتية) ويوذن بزمن يقع فيه اجتماع الملة وانتظامها اثر تفرقها وانحلال روابطها انحلالا قطيعا ناسب أن نختم ذلك بنبذة مختصرة يعرف بها ما ترتب على اختلال الحكومة فى المملكة الفرنساوية من الحالة العمومية التى كانت عليها تلك المملكة بتمامها ولما كانت الجمعية الالتزامية فى ذلك العصر مجبورة على أن تكف عن الاقتيات وتمسك عن التعدى وتستقر على حالة واحدة وتكون ذات درجات مترتبة بعضها فوق بعض لزم معرفة المواد الاصلية التى تركبت منها هذه الجمعية فنقول

انه

انه منذ ترتب على تقلبات القرن العاشر استحالة الاقطاعات الى املاك والايالات
الى امارات متوارثة والاراضى الحرّة اى المعافاة من الخراج الى التزامات وملاكها
الاحرار الى ملتزمين واصحاب القبائل الى ارقاء ارض صارت مملكة فرنسا كلها
ماعدا القليل منها كناية عن التزامات كبيرة وصغيرة وصارت الملة الفرنساوية ما بين
ملتزمين متصرفين وعمال وارقاء ارض وصارت درجات الملاك على حسب درجات
الاراضى الالتزامية وصار المنصب الملوكى فوق سائر الالتزامات والملك امير جميع
الملتزمين الا انه اما من حيث الالتزام لم تكن رياسته بطريق المباشرة الا على كبار
العمال وكان لهولاء ايضا رياسة على من دونهم من الملتزمين الذين كانوا قبل سنة ٩٨٧
منتفعون بمزية توارث الالتزام ماعدا القليل منهم غير أن تبعية اغلبهم كانت لم تزل
غير مستقرة استقرارا تاما وكان ايضا لهولاء الملتزمين الذين هم من الدرجة الثانية
الرياسة على من دونهم فبذلك كان للطائفة الالتزامية درجات بعضها فوق بعض اعلاها
الملك وادناها صاحب القصر الذى لا اتباع له الا خدم اراضيه

دوقية فرنسا

وبتولية هوغس كابت انضمت دوقية فرنسا الى التزام التاج فازداد بذلك
عظم المنصب الملوكى وعظم مقداره ولم يزل بيد الملك من حيث كونه دوق فرنسا
قونتيتا انجو وتورينه المجتمعتان وكذلك قونتية بلواس وشارترة وقونتيات
سنليس وركسين ومينه فكانت هذه القونتيات باقية تحت سيادته الالتزامية
وبقى له ايضا من حيث كونه قونتة باريس السيادة بلا واسطة على ملتزمى مونتمورانسى
الذين اخذوا من يومئذ فى حيازة الفخار والسودد وعلى ملتزمى موسفورت
ومولانت ومانتة وكوربيل ومونتلهيرى ودومرتين ولم يبق لهذه
الالتزامات الآن الا مجرّد الذكر والظاهر أن التزام بوبزيت كان تابعا لقونتية
اورليان وكانت هذه القونتية كقونتيات باريس وميلون واتنبه خاصة
بدوقات فرانسا وحيث ان رونق المنصب الملوكى فاق غيره من المناصب التى كانت
منضمة اليه وقائمة مثله بذات الملك قام مقام الملك من حيث كونه قونتة على هذه المدن
الاربع ويقونتات كان له عزلهم متى شاء كما كان نظير ذلك فى كثير من القونتيات
الاخرى التى انضمت الى التزام المملكة الكبير واما المزايا الدوقية التى كانت للملوك فكان
يستعملها قونتات انجو وكانت لهولاء القونتات الرياسة على القضاة فى اراضى
التاج يتوارثونها فيما بينهم
وكان اغلب عمال دوقية فرنسا من ارباب ديوان الملك وجمعية البارون كملتزمى
المملكة الذين لا واسطة بينهم وبين الملك وكانوا لا ينقصون فى درجة الاعتبار

عن قونتات سواسون وويانة وويقونتة برغس وسيردى بوربون اى امير هذا الاقليم فانهم كانوا ايضا الا واسطة بينهم و بين الملك وان كانوا من حيث الرتب الالتزامية ادنى من كبار الملتزمين الذين اشتهروا فيما بعد باسم بيرفرانسا اى القرناء اوالامراء

التزامات البير العامية

وكانت عدة التزامات البير لا تزيد على اثنى عشر منها ستة عامية وستة قسيسية والاولى مشتملة على ثلاث دوقيات وثلاث قونتيات وها نحن نذكرها لك مرتبة على حسب ازمان حدوثها فنقول

الاول قونتية ورمندواس وشمبانيا

كانت قونتية ورمندواس يحكمها قونتات يزعمون انهم على عمود النسب من برنارد ملك ايطاليا وكان لهذا الملك ولد يقال له بيين انعم عليه لويزلد وبونير بالتزام قصرى بيرونة وسنت كنتين وكان لهؤلاء الملتزمين فى مبدأ الامر شوكة قوية بقدر ما كان لعمالهم من الخمول وعدم الظهور حتى انه يعسر على الانسان أن يعد من الالتزامات التابعة لهم قونتيات ولواس واميانس وترواپس وقد بلغت هذه القونتية الاخيرة على التدريج مبلغا عظيما فى درجة الاعتبار والعظم حتى انتظمت فى سلك التزامات بيرالمملكة وكانت حينئذ تسمى باسم شمبانيا وكان وصولها لهذه الدرجة حين انتقلت بالوراثة (سنة ١٠١٩) عن الفرع الثانى من فروع العائلة الورمندواسية لاودس الثانى قونتة بلواس وشارترة وكانت شمبانيا هذه تحتوى على سبعة التزامات اقليمية من التزامات البير ويمكن بحسب الظن أن نعد منها قونتيات بريه وروسى وبرنيل وكذلك بارونية كوسى التى كان مطارنة رمس يدعون الرياسة عليها

الثانى قونتية تولوزة

واما قونتية تولوزة فانها بعد أن كانت تختا لمملكة الوسيغوط وامارة اكتينا ودوقية غوطيا الاقطاعية لم تزل بندرا لقونتية كان كرلوس الاصلع انعم بها (سنة ٨٥٠) على رجل من احزابه يقال له فريدلون ثم صارت متوارثة فى عشيرة ريموند الاول الذى ورثها عن اخيه فريدلون المذكور (سنة ٨٥٢) وقد تلقب غير واحد من قونتات تولوزة بلقب دوق اكتينا ثم انتقل هذا اللقب بعدهم الى قونتات بواتيرس واستمر فيهم وتغلب قونتات تولوزة بالتوالى على قونتيات ارمنياك وكيرسى والبجواس وروورغة وسنت جيله ونيسمة وميلغيل وجيوودان وعلى جزء من ثغر تربونه ومن وقتئذ نزلت هذه الالتزامات المختلفة الى درجة الويقونتيات فكانت تارة تنضم الى اراضى القونتات الخاصة بهم واخرى يملكها عمالهم الذين تحتهم مباشرة

ودوقية غوطيا مع انه تكون من جزء منها التزام تولوزة الكبير وقت

ايضا

ايضا (سنة ٨٦٤) بنصيب ملتزمين كانا صاحبي شوكة قوية وهما برنارد مركى سبطمانيا وويفريد قونتة برسلونة وكان خلفاؤهما ايضا مقصورين على تبعية تاج فرنسا واستمر خلفاء الاول على ذلك حتى تمزق ثغر بربونة (سنة ٩١٨) واما خلفاء الثانى فاستمروا على تلك التبعية الى (سنة ١٢٥٨) وهى السنة التى نزل فيها سنت لويز عن حقوقه فى السيادة الالتزامية

قونتية برسلونة

وقونتية برسلونة المسماة ايضا ثغر اسبانيا كان يتبعها قونتيات نربونه وروسيلون وامبورياس وكركاسونة واورجيل وكونغلانس وسردانيا واوزونة (ويش) وبيزالو وجيرونة ومنريزا ثم ان خلفاء ويفريد وان كانوا مساوين لغيرهم من كبار العمال فى الرتبة الالتزامية ومختصين بحكم پروونسة وبالجلوس على تخت اراغون الا أنهم لم يلقبوا اصلا بلقب بير المملكة ولكن كانت تبعيتهم لا تلزمهم بشئ ابا ما كان نعم وان كان بعدهم هو الذى منعهم من حيازة شرف هذا اللقب الخالى عن الجدوى الا أن له الفضل عليهم فى كونهم حازوا به اعلى درجات الاستقلال

الثالث قونتية فلندرة

وكان فى الطرف الآخر من فرنسا قطر خلا عن العمران منذ مدة يسيرة وصارت ارضه مشحونة بالغابات والسبخة ثم صار قونتية ذات حكم مطلق تنتفع بها العشيرة التى انقذت ارضها من التوحش باصلاحها واحياء مواتها وذلك أن بدوين الاول بعد أن جر الى نفسه كراهة الملك كرلوس الاصلع ودعاء القسوس عليه باللعنة والحرمان باختطافه جوديت بنت كرلوس المذكور بدون اكراه بل بالطوع والاختيار انكشفت عنه غمة هاتين المصيبتين بترجى تقولة الاول وسعيه فى الرضاء عنه فجعله الملك قونتة على فلندرة (سنة ٨٦٢) بوجه صحيح مطابق للاصول والقوانين رعاية لخاطر بنته وصونا لعرضها واراد أن تكون ذرية هذه القونتة يرثون بعده تلك الرتبة وأن لا تخرج عنهم ابدا نعم وان كان ابوه وجده وجد جده (ليدريق) لهم السيادة الالتزامية قبله على تلك البلاد الا أنهم لم يحظوا بهذا اللقب اعنى لقب قونتة

وقد اثبت المؤرخ ميير حسبما ذكره فرودوارد أن السبب الاصلى فى تقليد كرلوس الاصلع لبدوين المذكور هو احتياجه الى صد النورمان ومنعهم عن بلاده بمانع قوى فان قونتية بدوين كانت فى الحقيقة مشتملة على جميع البلاد التى بين نهر السوم ونهر الاسقوط والبحر المحيط وكان يعد من التزاماتها الاقليمية الاثنتى عشرة المسماة التزامات البير قونتيات اراس وهسدين وسنت بول

وجينس وبولونيا وربما عد منها ايضا قونتية بونتيو وان كان يظهر انها لم تكن تابعة الا لاراضى التاج

واما قونتيات كبريه ومونس ونامور التى طالما سبق الى الوهم انها من التزامات فلندرة فانها كانت جزأ من بلاد لورينة السفلى وكانت مبايعة لملك جرمانيا

الرابع دوقية برغونيا

ثم ان حق الوراثة دخل فى الدوقيات بعد القونتيات الكبيرة بمدة يسيرة فقد سبق أن بكرى اولاد روبيرت لوفور لم يتملك على دوقية فرانسا الا بعد موت ابيه بعشرين سنة وحينئذ فلا مانع من جعل دوقية برغونيا هى اول دوقية حظيت بمزية التوارث ومع ذلك ان صح أن ريشارد لوجستسيو بعد أن انعم عليه صهره كرلوس الاصلع بهذه الدوقية ورثها عنه ولده راوول كان مما لا خلاف فيه ايضا أن حق الوراثة لم يعد منه منفعة على لويز الاسود اخى راوول حيث آل امره الى ترك دعواه فى تلك الدوقية ونزوله عنها لدوق كان لويز الرابع قد انتخبه لها من عشيرة اخرى ثم تولى منصب الدوقية عليها بعد هوغس الاكبر ولدان من اولاده ثم دخل هذا الالتزام العظيم فى العشيرة الكابيتية وصار لا يخرج عنها بعد أن تغيرت عليه عدة عشائر

وكانت قونتيات شالون ونوير وتونيرة وبوتونة وكذا قونتية جوانيى التى انضمت اليها ارض سنس واوكسيرة التى بعد أن كانت منشأ للدوقات الاول صارت تتردد بين ملتزمى تونيرة ونوير وكذلك غير هذه القونتيات كل ذلك كان تحت طاعة دوق برغونيا وتبعيته

الخامس دوقية اكتينيا

ثم ان مسافة ما بين اعادة كرلوس الاصلع منصب دوقية اكتينيا الى رينولف الاول (سنة ٨٤٥) وجعل غليوم تيت ديتوب (اى رأس المشاقة) هذا المنصب متوارثا فى ذريته (سنة ٩٥١) تزيد على قرن وفى تلك المدة اعطيت حكومة هذه الدوقية لقونتات بواتييرس واورنيا وتولوزه على حد سواء من غير تفاضل بينهم وكان اعطاؤها لهم دائما على سبيل الاقطاع ثم آل امرها أن مكثت فى فرع من عائلة غوطيا القديمة كان رينولف الثانى قد جعل دار اقامته بمدينة بواتييرس التى شرع فيها هذا الملتزم نفسه فى احياء مملكة اكتينيا مخالفا فى ذلك لاودس ولمامات ديموندبونس (سنة ٩٥١) نال غليوم تيت ديتوب حفيد رينولف المذكور من لويز دوترمير انضمام دوقية اكتينيا لقونتيته الوارثية ومن يومئذ استمر التوارث فى الدوقيات بلا انقطاع وتعينت العلاقات

الالتزامية

الالتزامية التي كانت واسطة في انقياد قونتات بريغورد والمارش وانغوليم وسنتونج وويقونتات ليموجس وتورينة لحكام بواتيرس الذين كانوا جامعين بين منصبي القونتية والدوقية ولماضم دوقات اكتينا دوقية غسكونيا الى اراضيهم فاقت شوكتهم شوكة الملوك

دوقية غسكونيا

وكان تحت هذه الدوقية (اى دوقية غسكونيا) التي هي بين نهر الغارونة وجبال البرنات مدينة بردو وكان يعد من عمالها في مبدأ الامر مركية غسكونيا الذين لم تطل مدتهم وكذلك قونتات بميلونة الذين تولوا ملوكا على نوار (سنة ٨٥٧) وقونتات بردو وبيغورة وبيارن وارمنيالك واستراك وفيزنزاك وامارة البريت وعدة التزامات اخرى وكان كل منهم يعادل الآخر في دعوى اطلاق التصرف في الحكومة

وقد جعل سنش ميتارا حفيد لوب سنتولا هذه الدوقية متوارثة وغير تابعة لتاج فرنسا وكان اهلها قد انتخبوه للحكم عليهم (سنة ٨٧٢) فتوارثها ذريته من بعده على هذا الوجه حتى انقرض من كان منهم على عمود النسب وذلك (سنة ١٠٣٢) ثم خلفهم عليها فرع ارمنيالك الا أنه لم يعرف كيف يذب عن حقوقه حتى ان برنارد الثاني جبر على بيعها بخمسة عشر الف من نقود الذهب لجوى جيوفروا صاحب اكتينا سنة ١٠٥٢ وكان لا ينسب الى عائلة غسكونيا الا من جهة امه ولما صار بعد ذلك بست سنوات دوقا على اكتينا وسمي غليوم الثامن او السادس انضمت الدوقيتان الى بعضهما وصارتا امارة واحدة (سنة ١٠٥٨)

السادس دوقية نورمنديا

وآخر الالتزامات الكبيرة بالنظر الى زمن حدوثها هي دوقية نرمنديا وقد سبق لك بيان الفرصة التي انتهزها كرلوس لوسانبل في تقليده بهذه الدوقية لاشهر الصائلين السكندناوية (رولون) بمقتضى مشارطة سنت كليرسورابيته وتقدم ايضا بيان غرضه من ذلك

ولا حاجة هنا الى بيان نسب ذرية رولون لكثرة ذكرهم في تاريخ فرنسا وانما نذكر أن رؤساء نرمنديا الذين نالوا في القسمة مدنا اوقصورا لم يزالوا الى اواخر القرن العاشر بالنسبة الى دوقهم اقرب شبها الى الرعية من العمال ولكن في الزمن الذي جلس فيه هوغس كابيت على سرير الملك حين اكتسبت نرمنديا عدة قونتيات متشاحنة اكتسابا ثابتا لا يقبل النقض انتقل ملاكها من الملتزمين الى الدخول تحت تبعية خلفاء رولون لكن على حسب ما تقتضيه القوانين الالتزامية من التسوية بين عمال نرمنديا المتأصلين فصارت من يومئذ قونتيات اوروكس

ابريطانيا

ودوروكس ومنس واودى لوال والنسون وبايوكس وسيزوقوتنسه واورنشة يتولاها ملتزمون بطريق الوراثة اوالانضمام الى الاراضى الدوقية

هذا وقد ذكر مؤرخ طورس أن الملك كرلوس اعطى روبيرت (اعنى رولون) ابريطانيا بتمامها على سبيل الالتزام حسبما اقتضته مشارطة سنت كلير سوايبته فبايع رولون الملك على أن يكون هذا الالتزام تحت تبعيته وذلك مما الاخلاف فيه بين المؤرخين وانما يبقى النظر فى ابريطانيا هل كانت لملك فرنسا حقيقة اوانما كان يتصرف فيها لكون مجرد العهود التى كان يأخذها على بعض دوقات من دوقاتها من غير أن تلزمهم بشئ تسوغ له ذلك وقد اختلت حكومة هذه الامارة منذ مات الان الاكبر (سنة ٩٠٧) الذى كان يلقب نفسه ملكا بتوفيق الله وتقاسمها بعده قونتات رينة ونتس ووانة وكرنويلة وكان الواجب على هؤلاء الامراء الصغار أن يبايعوا الدوق رولون ويتقادوا اليه حسبما كانت تقتضيه توليته عليها الا أنهم لم يضيعوا فى ذلك فرصة الكبر الابريطانى حيث عاملوا العساكر التى ارسلها دوق نرمنديا (وهو رولون المذكور) معاملة الاعداء كما عاملوا ارباب الصيال السكندناوية الذين كانوا الى ذلك الوقت يشنون الغارة على سواحل نهر لوار ولكن لما كانت قواهم متفرقة كانت مقاومتهم ضعيفة فان ابريطانيا (فى سنة ٩١٢) تخربت بالكلية حتى ان مدينة تنتس مكثت مدة طويلة وهى قفرة خالية عن الاهل والعمران

وذلك أن اغلب القونتات والمركتيرنية (وهو من الالقاب الابريطانية ومعناه اولاد الامراء) تبدد شملهم فمنهم من التجا الى فرنسا ومنهم من ذهب الى وطن اجداده ليبحث فيه عن ملجأ يلتجئ اليه (وفى سنة ٩٣٧) عاد من هذه الغربة احد حفدة آلان الاكبر المسمى آلان بريتورنه حين بلغه فى انكلترة أن الابريطانيين قتلوا الحاكم الذى ارسله اليهم الدوق غليوم ذو السيف الطويل وأنهم حاصروا هذا الدوق فى دار اقامته (سنة ٩٣٣) فأباد آلان المذكور القبيلة السكندناوية التى كانت نازلة على نهر لوار ولما تغلب على مدينة تنتس دعا الهاربين الى العود الى ابريطانيا التى انقذها بشجاعته من تبعية الاجانب وازال ما كان بها من اختلال الحكومة ومع ذلك فالظاهر ان هذا الامير العظيم كان يذعن بالسيادة لدوق نرمنديا وبعد موته (سنة ٩٥٢) حصل التفاقم والشقاق بين القونتات الابريطانيين ووقع القتال ثانيا بينهم وبين النورمندية ثم آل الامر الى كون النورمندية تصاهروا مع كونان دور ينيس وكان اقوى الابريطانيين

شوكة

شوكة واشدهم بأسا وهو الذى اعاد ابنه جيوفروا الاول سنة ٩٩٢ لقب دوق اربطانيا بعد أن تنوسى منذ نحو قرن

التزامات البير القسيسية

وربما لوحظ مما تقدم اننا لم نتعرض فى تعداد الالتزامات لذكر عدة مدن مهمة مع انها كانت فى سابق الزمان دار اقامة القونتات بل ودوقات الاقاليم وما ذاك الا لكون الشوكة الاسقفية فى هذه المدن فاقت شوكة هولاء الحكام وظهرت عليها بالكلية حتى ان الاساقفة نالوا من الملوك او اخذوا منهم بطريق الافتيات والقهر اولا ادارة ابرشياتهم المدنية وثانيا الحقوق الملوكية فقد قوى كرلوس الاصلع شوكتهم الدنيوية وقدمها على غيرها تقدما كبيرا بتأمينه لهم على مزايا الوكلاء الملوكية فى ابرشياتهم نعم وان كان اغلبهم اهمل حتى سلب منه قونتات مدنه هذه المزايا الا أن من حافظ منهم عليها كان يقتفى اثر مديرى العموم فى السعادة واقبال الدهر حتى صاروا مثلهم من اصحاب الالتزامات ولما وقع القتال بين الملتزمين كان الاساقفة يدافعون عن انفسهم ويتجعون فى ذلك نجاحا هينا او عظيما ففى مدينتى ترواس وسواسون كان القونتة اسعد من الاسقف وفى مدينتى كبريه وليون تقاسمت هاتان الشوكتان المتخاصمتان (اى الاساقفة والقونتات) القضاء والحقوق الالتزامية وقاوم مطران رمس امراء ورمنداوس ومنعهم عن الافتيات على بلاده وكان يعينه على ذلك ملوك فرنسا الذين كانوا يجعلون له وظيفة القونتة وسلك مطران مدينة سنس فى هذا المعنى مسلكا عظيما حتى اضطر قونتة هذه المدينة الى التغرب فى جوانبى وربما تعذر علينا بيان منشأ الامارات الاسقفية كلها الان اغلبها انما نشأ عن افتياتات خفية تدريجية ولكن حيث ان الملوك كانوا اذا قلدوا احدا من الاساقفة بالتزام كبير ابقوا لانفسهم عادة حق السيادة عليه فذلك مما يحمل الانسان على أن يقول ان سياستهم التى كانت مشابهة لسياسة قياصرة اليونان كانت تساعد الاساقفة بجميع الوسائط على توسيع دائرة شوكتهم التى لم تكن مخوفة عند هؤلاء الملوك كغيرها فسلكوا معهم هذا المسلك لمنع اطماع الملتزمين من اصحاب السياسة ولا ريب أن ذلك هو السبب فى كون الاساقفة ضموا الى امهات مدن اسقفياتهم امهات مدن ابرشيات الاديار وكانت قد تخلصت من افتيات ارباب الشوكة المدنية ولم يتعرض البابات لمنع هذا الانعام الذى وصل به بعض الاساقفة الى درجة البارونات المطلق التصرف وما ذكرناه من الافتيات على طائفة الرهبان يكفى فى بيان السبب فى كون رؤساء الاديار الكبيرة فى المملكة لم يصلوا الى درجة السيادة الالتزامية كغيرهم من رؤساء اديار الامبراطورية

ففي فرانسا كان يندر أن الاساقفة يحظون بالرياسة على الـتزامات مدنهم الا في الاراضي الملوكيـة التي كانت تحت ايديهم مباشرة (اي بلا واسطة بينهم وبين الملوك) او في البلاد التي كانت لم تزل منقادة لاحكامهم كما وقع لمطراني رمس وسنس واساقفة لاوون وبوويس ونويون وشالون سورمرن ولنغريس فان هذه الكراسي الاسقفية كلها انتظمت في سلك التزامات البير بالمملكة ولا حاجة هنا الى بيان وجه كون اصحاب الالتزامات الستة القسيسية الملقبين بلقب بير حين حاز القسوس مزية الصدارة والتقدم في رتب طوائف المملكة صاروا يجلسون في الصدر قبل كبار الملتزمين الدنيويين (اي غير القسوس) ولا الى بيان كون مطران رمس كان له الصدارة في ديوان البير نظرا الى وظيفته المطرانية حتى انه في ايامنا هذه حين اعاد صاحب الشرطة رتبة البير القديمة وادخلها في قوانين المملكة اطلع على اسم هذا المطران في كتاب فرنسا المسمى كتاب الذهب فاذا هو قد بلغ في الصدارة منتهاها * وفي درجة التقدم قد تناهى *

والى هنا انثنى قلم التعريب عنان جواده * وامسك عن امداد الطرس بمداده * وطوى في نشر تلك الاخبار برده * بعد أن جال في ميدانها وارهف حده * ووفى من تاريخ تلك الاجيال بالمرام * وكشف عن خرائد وقائعها اللثام * بدون افراط ممل * وتفريط مخل * بل توسط بين ذلك * سالكا في اداء معنى الاصل احسن المسالك * باوجز عبارة * واقرب اشارة * وهو مع ذلك يعترف بالتقصير والقصور * وعدم الاهلية لدخول هاتيك القصور * ويعتذر بقلة البضاعة * وعدم الرواج في تجارة تلك الصناعة * ممن اجرى تصحيح هذا الكتاب على يديه * واحيل تنقيح عبارته عليه * المستعين بمولاه القوي * محمد قطه العدوي * فانه بذل في ذلك مجهوده * ولم يفوت على الاصل مقصوده * خصوصا وقد كان ذلك مع مترجمه * ومعرب كلمه * جناب مصطفى افندي الزاربي معولين في حل مشكلاته * وفك معضلاته * على رب المعارف والعوارف * صاحب العلوم واللطائف * من اوضح بثاقب فهمه كل مشكلة مبهمة * حضرة العلامة رفاعة افندي ناظر قلم الترجمة * فجاء بحمد الله كتابا كاسمه قرة للنفوس والعيون * ونزهة يصبو الى رياضها الناظرون * جديرا بالانتظام في سلك كتب التاريخ المعتبرة * وحريا بالظهور في ايام الخديوي المزهرة * لازالت مآثر فضله تتجدد * وكواكب سعده تسمو على الفرقد * قرير العين بالاتجال * منعم البال ببلوغ الآمال * ولا برحت المدارس باسطة له اكف الدعاء * قائمة بواجب الشكر والثناء * راقية مراقي الفلاح * ناهجة في المعارف مناهج النجاح * بانفاس مديرها * القائم بتنظيمها وتدبيرها * حضرة البيك

الافخم

الانخم * سعادة مير اللواء ابراهيم ادهم * لا زال بعين العناية
ملحوظا * وبحسن الرعاية محفوظا * وكان منتهى
جمعه * واتمام طبعه * بدار الطباعه العامره *
المنشأة بمصر القاهره * مشمولا بنظر
ناظرها سنى المراتب * حضرة
حسين افندى راتب * فى اوائل
صفر الخير سنة ثنتين وستين
ومائتين والف من
الهجرة النبويه *
على صاحبها افضل
الصلاة وازكى
التحيه
تم

